

مَسَائِلُ حَامِيَتِهِ ٦٦

حجر القلع العظيم

أنواعه وأحكامه

تأليف

د. محمود بن أحمد بن صالح الدوسري

الدعامة بوزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد

دار ابن الجوزي

[illegible]

شاه محمد باقر

~~as~~ ~~the~~ p751a - A. 7a

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



Chlorophyll

— — — — —

محرم القرآن العظيم

أَنْوَاعُهُ وَأَحْكَامُهُ

www.aljazeera.com - www.aljazeera.com

ح) محمود أحمد الدوسري، ١٤٢٨ هـ
مهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الدوسري، محمود أحمد
مهر القرآن العظيم: أنواعه وأحكامه. / محمود أحمد الدوسري -

الرياض، ١٤٢٨ هـ

٧٩٠ ص؛ ٢٤×١٧ سم.

ردمك: ٤ - ٨٠٥ - ٥٧ - ٩٩٦٠

١ - قراءة القرآن أ - العنوان

١٤٢٨/٣١١٩

ديوي ٢٢٩،١

جَمِيعُ الْحَقُوقِ مَحْفُوظَةٌ

الطبعة الأولى

محرم ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨

حقوق الطبع محفوظة © ١٤٢٩ هـ، لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب
أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي
نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو ترجمته
إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.



دار ابن الجوزي

لِلنَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ

المملكة العربية السعودية: الدمام - طريق الملك فهد - ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣، ص ب: ٢٩٨٢ -

الرمز البريدي: ٣١٤٦١ - فاكس: ٨٤١٢١٠٠ - الرياض - تليفاكس: ٢١٠٧٢٢٨ - جوال: ٥٠٣٨٥٧٩٨٨ -

الإحصاء - ت: ٥٨٨٣١٢٢ - جدة - ت: ٣٣٤١٩٧٣ - ٦٨١٣٧٠٦ - بيروت - هاتف: ٠٣/٨٦٩٦٠٠ -

فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١ - القاهرة - ج.م.ع - محمول: ٠١٠٦٨٢٣٧٨٣ - تليفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠ -

البريد الإلكتروني: aljawzi@hotmail.com - www.aljawzi.com

هَجْرُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ

أَنْوَاعُهُ وَأَحْكَامُهُ

تَأَلَّفَ

د. مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ صَالِحٍ الدَّوسَرِيِّ

الرَّاعِيَةُ بَوَازِةُ السُّوْرَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَالْأَوْقَافِ وَالذَّعْوَةِ وَالْإِسْتِثَارَةِ

دار ابن الجوزي

مكتبة دار الفکر

بسم الله الرحمن الرحيم

سنة لا تحصى في الدنيا

تمت

أصل هذا الكتاب أطروحة علمية
نال بها المؤلف درجة العالمية (الدكتوراه)
بتقدير: ممتاز سنة ١٤٢٧هـ

جامعة بغداد

المقدمة

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَنْعَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].
 ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٥﴾ يُطِيعُ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَنَعَفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].
 أما بعد:

أهمية الموضوع: رتبه وجاهة واهميه موضوعات دينية وحياتية.

إنَّ فَضْلَ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ وَشَرْفَهُ وَرَفِيعَ قَدْرِهِ وَعُلُوَّ مَكَانَتِهِ أَمْرٌ لَا يَخْفَى عَلَى الْمُسْلِمِينَ، فَهُوَ كِتَابُ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَكَلَامُ خَالِقِ الْخَلْقِ أَجْمَعِينَ، فِيهِ نَبَأُ مَا قَبْلُنَا، وَخَبَرُ مَا بَعْدُنَا، وَحُكْمٌ مَا بَيْنُنَا، هُوَ الْفَضْلُ لَيْسَ بِالْهَوْلِ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللَّهُ، وَمَنْ أَبْغَى الْهَدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللَّهُ، وَهُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينِ، وَهُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، هُوَ الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الْأَهْوَاءُ، وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الْأَلْسُنُ، وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ، وَلَا يَخْلُقُ عَنْ كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلَا تَقْضِي عِجَائِبُهُ مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أَجَرَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هَدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. أَلَا وَإِنَّ كِتَابًا لَهُ كُلُّ هَذِهِ الْخَصَائِصِ لِنِعْمَةِ كَبْرَى، تَقَاضَانَا شُكْرَهَا بِحَسَنِ تَلْقِيهَا، وَتَطْبِيقِ الْمَبَادِئِ وَالْقِيمِ الَّتِي تَضَمَّنَهَا هَذَا الْكِتَابُ الْمَجِيدُ. وَلَقَدْ اقْتَضَتْ سُنَّةُ اللَّهِ تَعَالَى فِي خَلْقِهِ أَنْ يَكُونَ اتِّبَاعُهُمُ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ سَبِيلًا

لنجاتهم، قال الله تعالى: ﴿قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمًى﴾ [طه: ١٢٣ - ١٢٤].

فالبشرية الحائرة بأسرها في حاجة إلى نور القرآن؛ لتُصان كرامة الإنسان، ولتُخرج من هذا الضنك الذي تحياه، نعم العالم في حاجة إلى القرآن ليكون الحق والعدل أساساً في معاملة الإنسان للإنسان.

وأشدُّ الناس احتياجاً إليه هم المسلمون؛ ذلك أنهم لا يستطيعون أن يواجهوا قضايا عصرهم وزمانهم إلا بالقرآن العظيم، يعتصمون به في روابطهم، ويقيمون أحكامهم في حياتهم، ويجاهدون به أعداءهم ويصلحون به دنياهم، ويستقبلون به آخرتهم.

من هنا كانت أهمية هذا الموضوع، فإنَّ أفضل ما يُقْنِي فيه العمر، ويُعطى له الكثير من الوقت دراسة القرآن العظيم، وهذه الدراسة لم تتوقَّف ولن تتوقَّف أبداً بإذن الله تعالى؛ لأنه يُتلى ويكفي أن يُتلى، لكنَّ الذي يتوقَّف أحياناً هو التطبيق، وبه يتباين جيلٌ عن جيل، ويعزُّ ناسٌ ويذلل آخرون.

واقع المسلمين اليوم:

ولأننا اليوم نشهد هجراً للقرآن العظيم في أنحاء شتى، فإلى الله - وحده -

المشتكى.

لقد هَجَرَ القرآن الحكيم تلاوةً، وزهد الكثير في مذاكرته وحفظه وتدارسه على الرغم من حرصهم الشديد على متابعة وسائل الإعلام بشتى طرقها المشروعة وغير المشروعة؛ ليتابعوا بلهفٍ وشوق أخبار مَنْ لا خلاق لهم عند الله تعالى. وهَجَرَ القرآن المجيد استماعاً، وارتبط استماع القرآن في أذهان كثير من الناس بالأحزان والسُرادات التي تقام للمآتم! بل أقبل الناس على سماع اللُهو والغناء ومزمار الشيطان، وهجروا قرآن الرَّحِيم الرَّحْمَن!.

وهَجَرَ القرآن العزيز تدبُّراً، ولو أنزله الله تعالى على الجبال الرُواسي الشَّامخات لتصدَّعت من خشيته، فقسمت القلوب، وتحجَّرت العيون، فلا قلب يتدبَّر فيخشع، ولا جوارح تنقاد فتخضع، ولا عين تتحرَّك فتدمع!

وهُجِرَ القرآن العظيم عملاً، فبدل أن يكون منهج حياة متكامل يصبح في واقع الناس - إلا من رحم الله - آيات تقرأ عند القبور، ويهدى ثوابها للأموات، مع أن هؤلاء الأحياء أحوج منهم إلى ثوابها واتخاذها منهجاً لحياتهم بشئ أشكالها وصورها، أو تصنع منه التمايم والأحجية فتعلق على صدور الغلمان، أو يوضع في البيوت والمحلات والسيارات للحفظ والبركة، زعموا!

وهُجِرَ القرآن العظيم تحاكماً، ووقع المسلمون في المنكر الأعظم، بتنحية كتاب الله عن الحكم بين الناس، وأثم شرع الله بالضعف والعجز والقصور والتخلف عن ركب الحضارة، وجعل محله القانون الوضعي الضعيف القاصر، يحكم في الدماء والأموال والأعراض!

وهُجِرَ القرآن الكريم استشفاءً وتداوياً، ولجأ الناس إلى السحرة والعرافين والدجالين يطلبون منهم الشفاء والدواء لأمراضهم!

فهل من عودة، وهل من أوبة؟ نسأل الله تعالى العفو والعافية في الدنيا والآخرة^(١).

أوجب الواجبات:

والاعتناء بدراسة القرآن العظيم ومعرفة أسرارهِ لِمَنْ أوجب الواجبات على مَنْ يتفرغ لدراسة علومهِ؛ ولا سيما إذا كانت الدراسة مركزة، وكانت مجالاً بحثياً أكاديمياً، في زمان تدعو كل أمة إلى كتابها، كيف لا، وقد بات في عداد الأمور المسلمة: أن أمة تشرف بشرف كتابها المنزل، أو رسولها المرسل، فكيف إذا اجتمع الشرفان، فقد وجب البحث، ووجب الاتباع.

أسباب اختيار الموضوع:

إن مما حدا بي إلى اختيار هذا الموضوع أموراً عديدة وأسباباً كثيرة، كان في مقدمتها:

١ - القناعة الراسخة بأن هذا الموضوع لم يدرس دراسة متخصصة تجمع

(١) انظر: فتح الرحمن في بيان هجر القرآن، (ص ٥).

- متفرقة، وتلُم أشتاتَه وجزئياته، وتُعنى به استقراء واستنباطاً وتحليلاً.
- ٢ - تنبيه المسلمين من الغفلة عن القرآن العظيم؛ ليستمسكوا به ويجهتدوا في تعلمه وتعليمه وتلاوته وحفظه وتدبره والعمل به.
- ٣ - أن سواداً كبيراً من العالم الإسلامي لا يزال يعيش بعيداً عن القرآن الكريم، وهو في أمس الحاجة إليه؛ لينقذه من الضلالة إلى الهدى.
- ٤ - النظر فيما يبذله أعداء القرآن من تفشٍ وتبجح في عرض كتبهم المحرّفة، وعقائدهم الباطلة، وأخلاقهم الفاسدة، وقوانينهم الجائرة، في قوالب حديثة مقبولة، ووسائل فنيّة إعلامية، بأفضل الطرق أعلاها.
- ٥ - تصحيح النظرة الخاطئة والقاهرة التي لا تليق بالقرآن العظيم.

خطة البحث:

لقد سار البحث في هذا الموضوع في مقدّمة، وبايين، وخاتمة، وذلك كما يلي:

* المقدّمة: وتشتمل على أهميّة الموضوع، وأسباب اختياره، وواقع المسلمين اليوم، وخطة البحث ومنهجه.

الباب الأول

معنى (الهجر) وذمُّ فاعله

أوفيه فصلان: الأول: معنى (هجر القرآن) وفيه خمسة مباحث: أولاً: تعريف (الهجر) لغة.

المبحث الأول: تعريف (الهجر) لغة.

المبحث الثاني: ما جاء في الآيات من ألفاظ الهجر.

المبحث الثالث: ما جاء في الأحاديث من ألفاظ الهجر.

المبحث الرابع: المقصود بـ (هجر القرآن).

المبحث الخامس: حُكْم هجر القرآن.

الفصل الثاني: ذمُّ هجر القرآن. وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الآيات الدالة على ذمِّ هجو القرآن.

المبحث الثاني: الأحاديث الدالة على ذم هجر القرآن.

المبحث الثالث: آثار السلف في ذم هجر القرآن.

الباب الثاني

أنواع الهجر

وفيه تسعة فصول:

الفصل الأول: هجر الإيمان بالقرآن (الكفر به). وفيه ستة مباحث:

المبحث الأول: وجوب الإيمان بالقرآن ومقتضياته.

المبحث الثاني: الآيات الدالة على وجوب الإيمان بالقرآن.

المبحث الثالث: الوعيد على هجر الإيمان بالقرآن.

المبحث الرابع: أنواع التكذيب بالقرآن.

المبحث الخامس: حكم التكذيب بالقرآن.

المبحث السادس: أهل الكتاب وتكذيبهم بالقرآن.

الفصل الثاني: هجر تعظيم القرآن (الاستهزاء به). وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: تعريف الاستهزاء بالقرآن.

المبحث الثاني: مظاهر تعظيم القرآن.

المبحث الثالث: أساليب الكفار في استهزائهم بالقرآن.

المبحث الرابع: حكم الاستهزاء بالقرآن والاستهانة بالمصحف.

الفصل الثالث: هجر استماع القرآن. وفيه ستة مباحث:

المبحث الأول: تعريف السماع وأنواعه.

المبحث الثاني: مظاهر هجر استماع القرآن.

المبحث الثالث: آداب استماع القرآن.

المبحث الرابع: فضائل استماع القرآن.

المبحث الخامس: حكم الاستماع للقرآن وحكم الإعراض عنه.

المبحث السادس: الآثار الحسنة لاستماع القرآن.

الفصل الرابع: هجر تعلم القرآن وتعليمه. وفيه خمسة مباحث:

المبحث الأول: مظاهر هجر تعلّم القرآن وتعليمه.

المبحث الثاني: آداب مُعلِّم القرآن ومُتعلِّمه.

المبحث الثالث: فضائل تعلّم القرآن وتعليمه.

المبحث الرابع: أحكام تعلّم القرآن وتعليمه.

المبحث الخامس: همّة السلف في تعلّم القرآن وتعليمه.

الفصل الخامس: هجر تلاوة القرآن. وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: مظاهر هجر تلاوة القرآن.

المبحث الثاني: أسباب هجر التلاوة.

المبحث الثالث: آداب وأحكام تلاوة القرآن.

المبحث الرابع: فضائل تلاوة القرآن.

الفصل السادس: هجر حفظ القرآن. وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: حفظ القرآن وتيسيره.

المبحث الثاني: آداب حفظ القرآن.

المبحث الثالث: فضائل حفظ القرآن.

المبحث الرابع: حُكم حفظ القرآن ونسيانه.

الفصل السابع: هجر تدبر القرآن. وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: تعريف التدبر وأهميته وحُكمه.

المبحث الثاني: أسباب هجر تدبر القرآن.

المبحث الثالث: الأمور المعينة على تدبر القرآن.

المبحث الرابع: ثمرات تدبر القرآن.

الفصل الثامن: هجر العمل بالقرآن. وفيه خمسة مباحث:

المبحث الأول: وجوب العمل بالقرآن.

المبحث الثاني: فضائل العمل بالقرآن.

المبحث الثالث: النبي ﷺ يوصي بالعمل بالقرآن.

المبحث الرابع: الصحابة رضوان الله عليهم يتواصون بالعمل بالقرآن.

المبحث الخامس: نماذج من عمل الصحابة رضي الله عنهم بالقرآن.

الفصل التاسع: هجر التحاكم إلى القرآن. وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: أدلة وجوب التحاكم إلى القرآن.

المبحث الثاني: أسباب هجر التحاكم إلى القرآن.

المبحث الثالث: الآثار الحسنة للحكم بما أنزل الله.

المبحث الرابع: الآثار السيئة للحكم بغير ما أنزل الله.

* الخاتمة: وتشتمل على أهم نتائج البحث، ختم الله لنا بالحسنى.

* الفهارس: وتشتمل على فهارس للأحاديث، والآثار، وتراجم الأعلام، والألفاظ ومعانيها، والفروق اللغوية، والأشعار، والأماكن، والأحكام الفقهية، والآداب، والفضائل، والبدع، وثبت المصادر والمراجع، والمحتوى. وقد تم استثناء (فهرس الآيات)؛ لكثرتها وامتلاء صفحات البحث بها.

منهج البحث:

تيسيراً على القارئ الكريم أُبين طريقة عملي في هذا البحث، وهي كالآتي:

١ - يسير هذا البحث على الطريقة الاستقرائية^(١) في تتبع كل ما يدخل تحت مسمى «هجر القرآن العظيم» من الآيات، والأحاديث، وأقوال أهل العلم. ويسير كذلك على الطريقة الاستنباطية^(٢) في تحليل الآيات والأحاديث، وسائر النصوص المتعلقة بموضوع البحث.

٢ - الإفادة من المصادر والمراجع القديمة لأصالتها، وكذلك اللجوء إلى المصادر الحديثة عند تعذر الحصول على المطلوب من المصادر القديمة.

٣ - عزو الآيات القرآنية بأرقامها إلى سورها.

(١) المنهج الاستقرائي: هو «تتبع الجزئيات كلها أو بعضها للوصول إلى حكم عام يشملها جميعاً».

«ضوابط المعرفة والاستدلال والمناظرة، لعبد الرحمن حبنكة الميداني (ص ١٨٨)».

(٢) المنهج الاستنباطي: هو «ما يقوم على التأمل في أمور جزئية ثابتة لاستنتاج أحكام منها».

«البحث العلمي، د. عبد العزيز بن عبد الرحمن الربيعه (١/ ١٧٨)».

٤ - تخريج الأحاديث والآثار وعزوها إلى مراجعها من كتب السنة، مع ذكر أقوال أهل العلم في درجتها ما أمكن، ما لم تكن في الصحيحين أو أحدهما.

٥ - إثبات أسماء المصادر والمراجع في الهامش بما اشتهرت به. نحو: «تفسير أبي السعود» بدلاً من «إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم»، و«تفسير ابن كثير» بدلاً من «تفسير القرآن العظيم» وهكذا... مع إثبات الاسم الحقيقي والاسم المشهور في ثبوت المصادر والمراجع.

٦ - التعريف بكل علم - في الهامش - عند وروده أول مرة في صلب البحث، مستثياً الأنبياء والمرسلين ﷺ؛ فإنهم أرفع من التعريف بهم، وكذلك الصحابة رضي الله عنهم؛ لشهرتهم.

٧ - العناية بشرح الألفاظ الغريبة، أو المصطلحات الواردة في البحث ما أمكن.

٨ - التفريق - في الهامش - بين عبارة: (المصدر نفسه)، وبين عبارة: (المصدر السابق). على النحو الآتي:

أ - إذا أطلقت عبارة: (المصدر نفسه) فالمقصود بذلك: المصدر الأخير المتكرر مباشرة بدون فاصل.

ب - إذا أطلقت عبارة: (المصدر السابق) فالمقصود بذلك: المصدر قبل الأخير، أي بينهما فاصل.

وإني إذ أقوم بهذه الدراسة عن «هجر القرآن العظيم» لا أدعي بلوغ الكمال؛ لأنَّ النَّقص من طبيعة البشر، والكمال لله وحده، وإنَّما حسبي أنني حاولت - قدر المستطاع - أن يأخذ هذا الموضوع مكانه اللائق به في الدراسات القرآنية.

شكر وتقدير:

ويطيب لي: أن أشكر كُلَّ مَنْ مدَّ لي يدَ العون والمساعدة في هذا العمل العلمي، ووفَّر لي من جهده ووقته، وما أسدى إليَّ من ملاحظات وتوجيهات. فجزى الله الجميع عني كُلَّ خير.

وأستأنس في نهاية هذه المقدمة بما جاء عن ابن الوردي رحمته الله حيث قال: «فالنَّاسُ لَمْ يُصَنَّفُوا فِي الْعِلْمِ لِكَيْ يَصِيرُوا هَدَفًا لِلذَّمِّ، مَا صَنَّفُوا إِلَّا رَجَاءَ الْأَجْرِ، وَالذَّعْوَاتِ، وَجَمِيلِ الذِّكْرِ، لَكِنْ فَدَيْتُ جَسَدًا بِلا حَسَدٍ، وَلَا يُضِيعُ اللَّهُ حَقًّا لِأَحَدٍ، وَاللَّهُ عِنْدَ قَوْلِ كُلِّ قَائِلٍ، وَذُو الْحِجَا مِنْ نَفْسِهِ فِي شَاغِلٍ، فَإِذَا ظَفَرَتْ أَيْهَا الطَّالِبُ بِمَسْأَلَةٍ فَاحِصَةً، فَادْعُ لِي بِحُسْنِ الْخَاتَمَةِ، وَإِذَا ظَفَرَتْ بِعَشْرَةٍ، فَادْعُ لِي بِالتَّجَاوُزِ وَالْمَغْفَرَةِ»^(١).

وكتبه

د. محمود بن أحمد البوسري

الدَّاعِيَةُ بِوَزَارَةِ الشُّؤُونِ الْإِسْلَامِيَّةِ

وَالْأَوْقَافِ وَالذَّعْوَةِ وَالْإِرْشَادِ

بِالْمَمْلَكَةِ الْعَرَبِيَّةِ السُّعُودِيَّةِ

Dosary33@hotmail.com

الدمام ص.ب: ٢٧٧٩ - ر.ب: ٣١٤٦١

(١) نقلًا عن: إعانة الطالبين على حل ألفاظ فتح المعين، للسيد البكري الدِّمَاطِي (٤/٣٤٤).

الباب الأول

معنى (الهجر) وذمُّ فاعله

وفيه فصلان:

الفصل الأول: معنى (هجر القرآن).

الفصل الثاني: ذمُّ هجر القرآن.

الفصل الأول

معنى «هجر القرآن»

وفيه خمسة مباحث:

المبحث الأول: تعريف «الهجر» لغة.

المبحث الثاني: ما جاء في الآيات من ألفاظ الهجر.

المبحث الثالث: ما جاء في الأحاديث من ألفاظ الهجر.

المبحث الرابع: المقصود بـ«هجر القرآن».

المبحث الخامس: حكم هجر القرآن.

المبحث الأول

تعريف «الهجر» لغة

الهجر في اللغة مصدر مشتق من الفعل «هَجَرَ»، وقد ذكر عدد من علماء اللغة لهذا الفعلِ ومشتقاته استعمالات عديدة، وسوف نَعْرِضُ المعاني التي تتعلق بموضوع البحث على النحو التالي:

- * قال ابن فارس رحمته الله^(١): «الهاء والجيم والراء أصلان، يدلُّ أحدهما: على قطيعةٍ وقَطْع، والآخر: على شَدَّ شيءٍ وربَّطه»^(٢).
- * والهِجْرُ: ضِدُّ الوَضَل، والتَّهَاجُرُ: التَّقَاطُعُ^(٣).
- * وَهَجَرَهُ يَهْجُرُهُ هَجْراً وَهْجْراً بالكسر: صَرَمَهُ وَقَطَعَهُ.
- * وَهَجَرَ الشَّيءَ يَهْجُرُهُ هَجْراً: تَرَكَهُ وَأَغْفَلَهُ وَأَعْرَضَ عَنْهُ^(٤).
- * يُقَالُ: هَجَرَ زَوْجَهُ: اعْتَزَلَ عَنْهَا وَلَمْ يَطْلُقْهَا^(٥).
- * «وهاجر القومُ من دار إلى دار: تركوا الأولى للثانية، كما فعل المهاجرون حين هاجروا من مكَّة إلى المدينة»^(٦).

- (١) هو إمام اللغة المحدث أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا بن محمد بن حبيب القزويني، المعروف بالرازي المالكي، كان مناظراً متكلماً، بصيراً بالأدب والفقه المالكي. من مصنفاته: «معجم مقاييس اللغة»، و«المجمل». توفي سنة (٣٩٥هـ).
- انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي (١٠٣/١٧).
- (٢) معجم مقاييس اللغة (٢/٦٠٠)، مادة: (هجر).
- (٣) انظر: لسان العرب، لابن منظور (٣١/١٥ - ٣٢)، مادة: (هجر)؛ مختار الصحاح، للرازي (ص ٣٢٤)، مادة: (هجر).
- (٤) انظر: تاج العروس من جواهر القاموس، لمحمد مرتضى الحسيني الزبيدي (٣٩٦/١٤)، مادة: (هجر).
- (٥) انظر: المعجم الوسيط، لجماعة من الباحثين (ص ٩٧٢)، مادة: (هجر).
- (٦) معجم مقاييس اللغة (٢/٦٠٠).

والمُهَاجِرَةُ فِي الْأَصْلِ: مُصَارَمَةُ الْغَيْرِ وَمُتَارِكَتُهُ^(١).

* ويكون الهجر: بالبدن وباللسان وبالقلب، كما ذكر ذلك الراغب الأصفهاني^(٢) رحمه الله بقوله: «الهِجْرُ وَالهِجْرَانُ مُفَارَقَةُ الْإِنْسَانِ غَيْرِهِ إِمَّا بِالْبَدَنِ أَوْ بِاللِّسَانِ أَوْ بِالْقَلْبِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَهْجُرُوهُمْ فِي الْمَصَاحِمِ﴾ [النساء: ٣٤]. كناية عن عدم قُرْبِهِمْ، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠]. فهذا هجر بالقلب أو باللسان واللسان. وقوله: ﴿وَأَهْجُرُوهُمْ هُنَّجًا جَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٠]. يَحْتَمِلُ الثَّلَاثَةَ، وَمَدْعُوٌّ إِلَى أَنْ يَتَحَرَّى أَيَّ الثَّلَاثَةِ إِنْ أَمَكْنَهُ مَعَ تَحَرِّيِ الْمُجَامَلَةِ، وَكَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٦]. وقوله تعالى: ﴿وَالرَّجْرَ فَأَهْجُرْ﴾ [المدثر: ٥]. فَحَثَّ عَلَى الْمُفَارَقَةِ بِالْوَجْهِ كُلِّهَا^(٣).

* ومن معاني الهجر: الْفُحْشُ فِي الْكَلَامِ وَالْهَذْيَانِ يُقَالُ: أَهْجَرَ فِي مَنْطِقِهِ يُهْجِرُ إِهْجَارًا، إِذَا أَفْحَشَ. وَكَذَلِكَ إِذَا أَكْثَرَ الْكَلَامَ فِيمَا لَا يَنْبَغِي. وَالْإِسْمُ: الْهَجْرُ، بِالضَّمِّ.

* وَهَجَرَ يَهْجُرُ هَجْرًا، بِالْفَتْحِ، إِذَا خَلَطَ فِي كَلَامِهِ، وَإِذَا هَذَى^(٤).

* وَالْهَاجِرَاتُ: هِيَ الْكَلِمَاتُ الَّتِي فِيهَا فُحْشٌ.

ويشهد له قوله تعالى: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سِمَرَكَ نَهَجُورُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٧].

* ومن معاني الهجر: الاستهزاء. يُقَالُ: أَهْجَرْتُ بِالرَّجُلِ: اسْتَهْزَأْتُ بِهِ، وَقُلْتُ فِيهِ قَوْلًا قَبِيحًا^(٥).

* وَأَهْجَرَ فَلَانٌ: إِذَا أَتَى بِهِجْرٍ مِنَ الْكَلَامِ عَنْ قَضْدٍ.

(١) انظر: المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني (ص ٥١٤)، مادة: (هجر).

(٢) هو أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل الأصفهاني، الملقب بالراغب، توفي سنة (٥٠٢هـ). قال الذهبي عنه: «كان من أذكى المتكلمين». ومن مصنفاته: «المفردات في غريب القرآن»، و«الذريعة إلى مكارم الشريعة»، و«محاضرات الأدباء».

انظر: شذرات الذهب، لابن العماد (٣/٣٨٣)، سير أعلام النبلاء (١٨/١٢٠).

(٣) المصدر السابق (ص ٥١٤).

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (٥/٢٤٥)، مادة: (هجر).

(٥) انظر: المصباح المنير، لأحمد بن محمد الفيومي (ص ٣٢٦)، مادة: (هجر).

- * وَهَجَرَ الْمَرِيضُ: إِذَا أَتَى ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ^(١).
- * وَالْهَجِيرُ وَالْهَاجِرَةُ: نِصْفُ النَّهَارِ فِي الْقَيْظِ خَاصَّةً، وَهَجَرَ تَهْجِيرًا: سَارَ فِي الْهَاجِرَةِ^(٢).
- * وَسُمِّيَتْ هَاجِرَةً: لِأَنَّ النَّاسَ يَسْتَكُونُونَ فِي بَيْوتِهِمْ، كَأَنَّهُمْ قَدْ تَهَاجَرُوا^(٣).
- وَكَانَ هَذِهِ السَّاعَةُ هَجَرَتِ النَّاسَ وَهَجَرَتْ لَذَلِكَ^(٤).
- * وَالْهَجِيرُ: الْمَهْجُورُ الْمَتْرُوكُ^(٥).
- * وَالْهَجِيرُ: يَبْسُ الثَّنْبِ الَّذِي كَسَرَتْهُ الْمَاشِيَةُ، وَسُمِّيَ بِذَلِكَ: لِأَنَّ الرَّاعِي يَهْجِرُهُ^(٦).
- * وَالْهَجَارُ: حَبْلٌ يُشَدُّ بِهِ الْفَحْلُ قَيْصِيرُ سَبَابٍ لِهَجْرَانِهِ الْإِبِلَ، وَفَحْلٌ مَهْجُورٌ: أَيُّ مُشْدُودٍ بِهِ، وَهَجَارُ الْقَوْسِ: وَتَرَاهَا، وَذَلِكَ تَشْبِيهُ بِهَجَارِ الْفَحْلِ^(٧).
- خلاصة القول:

على ضوء ما تقدم فإنَّ مادة «هَجَرَ» ومشتقاتها في لغة العرب تدور حول معانٍ عدَّة، وهي على النحو الآتي:

- ١ - البُعْدُ عَنِ الْوَصْلِ الَّذِي يَنْبَغِي، مِنَ الْأَلْفَةِ، وَجَمِيلِ الصُّنْبَةِ.
- ٢ - الْفَحْشُ فِي الْكَلَامِ وَمَا لَا يَنْبَغِي مِنَ الْقَوْلِ: وَهُوَ بُعْدٌ عَنِ الصَّوَابِ.
- ٣ - مَجَانِبَةُ الشَّيْءِ: وَهُوَ بُعْدٌ عَنْهُ، وَأُخِذَ فِي جَانِبٍ آخَرَ عَنْهُ.
- ٤ - هَذْيَانُ الْمَرِيضِ: وَهُوَ بُعْدٌ عَنِ نِظَامِ الْكَلَامِ.
- ٥ - انْتِصَافُ النَّهَارِ: وَهُوَ بُعْدٌ عَنِ طَرَفَيْهِ الْمَحْمُودَيْنِ، فِي اعْتِدَالِ الْهَوَاءِ وَإِمَّاكَانِ التَّصَرُّفِ.
- ٦ - الْحَبْلُ الَّذِي يُشَدُّ بِهِ الْبَعِيرُ: وَهُوَ الَّذِي أَبْعَدَهُ عَنِ اسْتِرْسَالِهِ فِي تَصَرُّفِهِ.

(١) انظر: المفردات في غريب القرآن (ص ٥١٥).

(٢) انظر: المصباح المنير (ص ٣٢٦).

(٣) انظر: معجم مقاييس اللغة (٢/٦٠٠)، القاموس المحيط، للفيروزآبادي (ص ٦٣٨).

(٤) انظر: المفردات في غريب القرآن (ص ٥١٥).

(٥) انظر: المعجم الوسيط (ص ٩٧٣). (٦) انظر: معجم مقاييس اللغة (٢/٦٠٠).

(٧) انظر: المفردات في غريب القرآن (ص ٥١٥).

٧ - النَّبَات اليابس: وهو بُعْدُ عن الرَّعي فيه من الماشية وصاحبها.
 فالجامع بين هذه المعاني هو: البُعد عن الشيء، سواء أكان بُعْدًا عن شيء
 مادي، أم عن شيء معنوي^(١).

بِحَبَابِ الْمَدِينَةِ بِمَعْنَى الْمَدِينَةِ فِي الْمَدِينَةِ

بِحَبَابِ الْمَدِينَةِ بِمَعْنَى الْمَدِينَةِ فِي الْمَدِينَةِ

بِحَبَابِ الْمَدِينَةِ بِمَعْنَى الْمَدِينَةِ فِي الْمَدِينَةِ

بِحَبَابِ الْمَدِينَةِ بِمَعْنَى الْمَدِينَةِ فِي الْمَدِينَةِ

بِحَبَابِ الْمَدِينَةِ بِمَعْنَى الْمَدِينَةِ فِي الْمَدِينَةِ

بِحَبَابِ الْمَدِينَةِ بِمَعْنَى الْمَدِينَةِ فِي الْمَدِينَةِ

بِحَبَابِ الْمَدِينَةِ بِمَعْنَى الْمَدِينَةِ فِي الْمَدِينَةِ

بِحَبَابِ الْمَدِينَةِ بِمَعْنَى الْمَدِينَةِ فِي الْمَدِينَةِ

بِحَبَابِ الْمَدِينَةِ بِمَعْنَى الْمَدِينَةِ فِي الْمَدِينَةِ

بِحَبَابِ الْمَدِينَةِ بِمَعْنَى الْمَدِينَةِ فِي الْمَدِينَةِ

بِحَبَابِ الْمَدِينَةِ بِمَعْنَى الْمَدِينَةِ فِي الْمَدِينَةِ

بِحَبَابِ الْمَدِينَةِ بِمَعْنَى الْمَدِينَةِ فِي الْمَدِينَةِ

(١) انظر: أحكام القرآن، لمحمد بن عبد الله ابن العربي (١/٥٣٤).

المبحث الثاني

ما جاء في الآيات من ألفاظ الهجر

وردت مادة «هجر» وما يُشتقُّ منها في الآيات القرآنية في مواطن كثيرة، نأخذ منها ما يدلُّ على المقصود:

١ - التَّرك والإعراض:

* وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠]. «والمهجور: المتروك والمفارق»^(١).

والمعنى: أنهم تركوا القرآن فأعرضوا عنه، ولم يؤمنوا به، ولم يعملوا بما فيه^(٢).

* وأيضاً في قوله تعالى: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَنِمْرًا تَهَجَّرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٧]. أي: تُعرضون عن النبي ﷺ، أو الإيمان، أو القرآن، وتتركون ذلك كله^(٣).

٢ - الإفحاش في القول:

* وذلك في قراءة نافع^(٤) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿تَهَجَّرُونَ﴾ بضمَّ التاء وكسر الجيم، في

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور (٤٣/١٩).

(٢) انظر: تفسير البغوي (٣٦٨/٣)، تفسير الشوكاني (٧٣/٤).

وسياطي بسط الأقوال في تفسير الآية في «المبحث الأول» من «الفصل الثاني» تحت عنوان: (الآيات الدالة على ذم هجر القرآن).

(٣) انظر: تفسير الطبري (٤١/١٨)، تفسير البغوي (٣١٣/٣).

وفي الآية أقوال أخرى، وهي من اختلاف التَّنوع لا التَّضاد. وسياطي بسطها عند الحديث عن: (الآيات الدالة على ذم هجر القرآن).

(٤) هو نافع بن عبد الرحمن بن أبي نُعَيْم، أبو رُوَيْم الأصْبَهَانِي، مولَى جَعْفَرِ بْنِ شُعُوبٍ =

الآية السابقة^(١).

من الإهجار وهو الإفحاش في القول، بمعنى: تُفحشون في الكلام، وتقولون الخنا. يقال: أهُجَرَ الرَّجُلُ: إذا أَفْحَشَ في القول. وذكر أنهم كانوا يسبون النبي ﷺ وأصحابه^(٢).

٣ - الانتقال من بلدٍ إلى بلدٍ لأجل الدين:

وفي ذلك آيات كثيرة من كتاب الله تعالى، منها:

* قوله تعالى: ﴿فَمَنْ لَّمْ يُؤْتَ﴾ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي﴾ [العنكبوت: ٢٦].

فقوله: ﴿فَمَنْ لَّمْ يُؤْتَ﴾: أي صدَّق إبراهيم لوط، وأتبعه وهاجر معه. والضمير في ﴿قَالَ﴾ عائد إلى إبراهيم عليه السلام، أي: أعلن أنه مهاجرٌ ديار قومه؛ وذلك لأنَّ الله تعالى أمره بمفارقة ديار أهل الكفر، وهو أول مَنْ هاجر في سبيل الله تعالى^(٣).

قال ابن عاشور^(٤): «وهذه أوَّل هجرة لأجل الدين؛ ولذلك جعلها هجرةً إلى ربِّه. والمهاجرة مفاعلةٌ من الهجر: وهو ترك شيء كان مُلَازِمًا له،

الشَّجعي. صدوق ثبت في القراءة، قال مالك: «نافع إمام الناس في القراءة، وقال: قراءة نافع سنة». وقال عنه أحمد بن حنبل: «كان يؤخذ عنه القرآن، وليس بشيء في الحديث». وقال أبو عبيد: «والى نافع صارت قراءة أهل المدينة وبها تمسكوا إلى اليوم». كان محتسباً فيه دُعابة، وكان أسود شديد السواد. من أظهر الناس خُلُقاً، زاهداً جواداً، صلَّى في مسجد النبي ﷺ ستين سنة. توفي سنة (١٦٩هـ).

انظر: سير أعلام النبلاء (٣٣٦/٧)، ميزان الاعتدال في نقد الرجال، للذهبي (٧/٧)، تقريب التهذيب، لابن حجر (ص ٩٩٥).

(١) انظر: البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة، لعبد الفتاح القاضي (ص ٢٢٣).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٤٠/١٨)، تفسير البغوي (٣/٣١٣).

(٣) انظر: تفسير القرطبي (٣/٣٣٩)، تفسير البغوي (٣/٤٦٥).

(٤) هو محمد الطاهر بن عاشور، رئيس المفتين المالكيين بتونس وشيخ جامع الزيتونة، وهو من أعضاء المَجْمَعين العربيين في دمشق والقاهرة، ولد سنة (١٢٩٦هـ)، وتوفي سنة (١٣٩٣هـ). من مصنفاته: «مقاصد الشريعة الإسلامية»، و«تفسير التحرير والتنوير»، و«أصول الإنشاء والخطابة». انظر: الأعلام، للزركلي (٦/١٧٤).

والمُفاعلة للمبالغة، أو لأن الذي يهجر قومه يكونون هم قد هجروه أيضاً^(١).
 * قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَافاً كَثِيراً وَسَعَةً وَمَنْ يُخْرِجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ [النساء: ١٠٠].

«هذا في بيان الحث على الهجرة، والترغيب، وبيان ما فيها من المصالح، فَوَعَدَ الصَّادِقُ فِي وَعْدِهِ، أَنَّ مَنْ هَاجَرَ فِي سَبِيلِهِ، ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ، أَنَّهُ يَجِدُ مَرَاغماً فِي الْأَرْضِ وَسَعَةً، فَالْمَرَاغِمُ: مُشْتَمِلٌ عَلَى مَصَالِحِ الدُّنْيَا، وَالسَّعَةِ: عَلَى مَصَالِحِ الدُّنْيَا.»

وذلك أَنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ يَتَوَهَّمُونَ أَنَّ فِي الْهَجْرَةِ شَتَاتاً بَعْدَ الْأَلْفَةِ، وَفَقْراً بَعْدَ الْغِنَى، وَذِلاً بَعْدَ الْعِزِّ، وَشِدَّةً بَعْدَ الرِّخَاءِ. وَالْأَمْرُ لَيْسَ كَذَلِكَ، فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ، مَا دَامَ بَيْنَ أَظْهَرِ الْمُشْرِكِينَ، فَدِينُهُ فِي غَايَةِ النِّقْصِ؛ لَا فِي الْعِبَادَاتِ الْقَاصِرَةِ عَلَيْهِ؛ كَالصَّلَاةِ وَنَحْوِهَا، وَلَا فِي الْعِبَادَاتِ الْمُتَعَدِّيَةِ؛ كَالْجِهَادِ بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ، وَتَوَلَّيْعِ ذَلِكَ، لِعَدَمِ تَمَكُّنِهِ مِنْ ذَلِكَ، وَهُوَ بِصُدْدِ أَنْ يَفْتَنَ عَنْ دِينِهِ، خُصُوصاً إِنْ كَانَ مُسْتَضْعِفاً. فَإِذَا هَاجَرَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، تَمَكَّنَ مِنْ إِقَامَةِ دِينِ اللَّهِ، وَجِهَادِ أَعْدَاءِ اللَّهِ، وَمَرَاغِمَتِهِمْ.

فإن المِراغمة اسم جامع لكل ما يحصل به إغاطة لأعداء الله، من قول وفعل، وكذلك ما يحصل له سعة في رزقه، وقد وقع كما أخبر الله تعالى.

واعْتَبِرْ ذَلِكَ بِالصَّحَابَةِ رضي الله عنهم، فَإِنَّهُمْ لَمَّا هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَتَرَكَوا دِيَارَهُمْ، وَأَوْلَادَهُمْ، وَأَمْوَالَهُمْ لِلَّهِ، كَمُلَ بِذَلِكَ إِيْمَانُهُمْ، وَحَصَلَ لَهُمْ مِنَ الْإِيْمَانِ التَّامِ، وَالْجِهَادِ الْعَظِيمِ، وَالنَّصْرِ لِدِينِ اللَّهِ، مَا كَانُوا بِهِ أُمَّةً لِمَنْ بَعْدَهُمْ. وَكَذَلِكَ حَصَلَ لَهُمْ، مَا يَتَرْتَّبُ عَلَى ذَلِكَ مِنَ الْفَتْوحَاتِ وَالْغَنَائِمِ، مَا كَانُوا بِهِ أَغْنَى النَّاسِ.

وهكذا كُلُّ مَنْ فَعَلَ فَعْلَهُمْ، يَحْصُلُ لَهُ مَا حَصَلَ لَهُمْ، إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ^(٢).

٤ - هجر الزوجة في الفراش:

* قوله تعالى: ﴿وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ﴾ [النساء: ٣٤].

اختلف أهل التأويل في المراد بهجر الزوجة في المضجع على أقوال:

١ - الهجر في المضجع: بترك الجماع، وترك الكلام في شأنه.

٢ - ترك النوم معها في فراش واحد.

٣ - أَنْ يُكَلِّمَهَا هُجْرًا وَفُحْشًا وَسُوءًا مِنَ الْقَوْلِ وَالْكَلَامِ^(١).

٥ - الانفراد والعزلة والابتعاد:

وذلك في عدة آيات، منها:

* قوله تعالى: ﴿وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [الزمل: ١٠].

هذه الآية - عند المفسرين كافة - منسوخة بآية السيف^(٢)، غير أن العبرة هنا

بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

«فالهجر الجميل: هو الذي يقتصر صاحبه على حقيقة الهجر، وهو ترك

المخالطة، فلا يقربها بخفاء آخر أو أذى، ولما كان الهجر ينشأ عن بغض

المهجور، أو كراهية أعماله، كان مُعْرِضًا لَأَنْ يَتَعَلَّقَ بِهِ أَذَى مِنْ سَبٍّ أَوْ ضَرْبٍ

أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ. فأمر الله رسوله بهجر المشركين هجراً جميلاً، أي أن يهجرهم ولا

يزيد على هجرهم سباً أو انتقاماً»^(٣).

* قوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَأَيْتُ أَنْتَ عَنِ الْهَيْتِ يَكُنْزِهِمْ لَنْ لَمْ تَنْتَ لَأَرْجَمَنَّكَ

وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [المریم: ٤٦].

اختلف أهل التأويل في معنى قوله: ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾.

١ - فقال بعضهم: المعنى: اهجرني حيناً طويلاً ودهراً. والملي عندهم هو

الملاوة من الزمان؛ وهو الزمّن الطويل، وهذا قول مجاهد، والحسن، وسعيد بن

جبير، والسدي، وابن إسحاق.

(١) انظر: تفسير الطبري (٥/٦٣ - ٦٤).

(٢) انظر: زاد المسير، لابن الجوزي (٨/٣٩٢)، تفسير الشوكاني (٥/٣١٨).

(٣) التحرير والتنوير (٢٩/٢٥٠).

٢ - وقال آخرون: المعنى: اهجرني سالماً من عقوبتي لك. والملي عندهم: هو السلامة. يقال: فلان ملي بهذا الأمر: إذا كان مضطرباً به غنياً فيه. أي: اهجرني، وعرضك وافر من عقوبتي، وجسمك معافى من أذي. وهذا قول ابن عباس، وقتادة، والضحاك. وقد رجح الطبري^(١) قول الثاني. أي: اهجرني سويّاً سليماً من عقوبتي؛ لأنه عقب قوله: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾، فهو وعيد له، بأنه إن لم ينته، فسوف يرجمه بالقول، والأولى له أن ينتهي عن كلامه معه، قبل أن تناله عقوبته^(٢). * قوله تعالى: ﴿وَالرَّجْزَ فَاقْصِرْ﴾ [المدثر: ٥].

هذه الآية فيها قراءتان^(٣):

الأولى: قراءة حفص عن عاصم: ﴿وَالرَّجْزَ﴾ بضم الراء، على أنه اسم صنم. أي: اهجر عبادة الأصنام، واترك خدمتها. الثانية: قراءة الباقيين: «وَالرَّجْزَ» بكسر الراء، بمعنى العذاب. أي: اهجر ما يوجب لك العذاب من الأقوال والأعمال.

وبناء على ذلك: اختلف أهل التأويل في معنى الرجز:

١ - فقال بعضهم: هو الأصنام. فأمر أن يهجر عبادة الأصنام.

وهذا قول ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، والزهرى، وابن زيد.

٢ - وقال آخرون: هو المعصية والإثم، فأمر أن يهجر المعصية والإثم.

وهذا قول إبراهيم النخعي، والضحاك^(٤).

وهكذا نرى أن الأصل في الهجر: التَّرك فعلاً كان أو قولاً، وهو المعنى

المشترك بين الآيات جميعاً.

(١) هو أبو جعفر، محمد بن جرير بن يزيد الطبري، الإمام العلامة القارئ، المجتهد، المفسر، المؤرخ، الفقيه صالح التصانيف، ولد بآمل سنة (٢٢٤هـ)، ألف كتاباً لم يصنف مثله ومنها: «تفسيره جامع البيان»، و«تهذيب الآثار»، و«تاريخ الأمم والملوك»، توفي ببغداد سنة (٣١٠هـ). انظر: طبقات المفسرين، للداودي (١١٠/٢).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٩١/١٦ - ٩٢).

(٣) انظر: البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة (ص ٣٣٩).

(٤) انظر: المصدر نفسه (١٤٧/٢٩ - ١٤٨).

المبحث الثالث

ما جاء في الأحاديث من ألفاظ الهجر

وردت مادة «هجر» وما يُشتقُّ منها في الأحاديث النبوية بألفاظ كثيرة، وصيغ عديدة، نأخذ منها ما يدلُّ على المقصود:

١ - التَّهَاجِر بين المسلمين:

* عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثِ لَيَالٍ» الحديث ^(١).

قال النووي ^(٢) رحمته الله: «في هذا الحديث تحريم الهجر بين المسلمين أكثر من ثلاث ليالٍ، وإباحتها في الثلاث، الأوَّل: بنصِّ الحديث. والثَّاني: بمفهومه. قالوا: وإنما عُفِيَ عنها في الثلاث؛ لأنَّ الآدمي مجبول على الغضب، وسوء الخلق، ونحو ذلك، فَعُفِيَ عن الهجرة في الثلاثة ليذهب ذلك العارض» ^(٣).

٢ - الهجرة لأجل الدِّين:

* عن ابن عباس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ، وَإِذَا اسْتَفْرُغْتُمْ فَانْفِرُوا» ^(٤).

(١) رواه مسلم، كتاب البرِّ والصَّلة والآداب، باب: تحريم الهجر فوق ثلاث، بلا عذر شرعي (٤/١٩٨٤) (ج ٢٥٦٠).

(٢) هو يحيى بن شرف بن مري بن حسن (أبو زكريا)، الفقيه الشافعي الدمشقي الحافظ الزَّاهد القدوة، ولد سنة (٦٣١هـ)، كان يقرأ في كل يوم اثني عشر درساً على المشايخ شرحاً وتصحيحاً، من تصانيفه: «شرح صحيح مسلم»، و«المجموع شرح المذهب»، و«الأذكار»، و«رياض الصالحين»، و«التقريب والتيسير في مختصر الإرشاد»، توفي سنة (٦٧٦هـ). انظر: شذرات الذهب (٥/٣٥٤).

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي (١٦/١١٧).

(٤) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب: فضل الجهاد والسير (٢/٨٦١) (ج ٢٧٨٣)، =

* وعن معاوية رضي الله عنه، قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يَقُولُ: «لَا تَنْقَطِعُ الْهَجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ، وَلَا تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»^(١).

وقد جَمَعَ العلماء - رحمهم الله - بين هذين الحديثين ممَّا أزال التعارض الظاهر بينهما بقولهم: إِنَّ الهجرة من مَكَّة إلى المدينة مع الإقامة بها مع النَّبي ﷺ، والجihad بين يديه، قد انقطعت، ولا تكون أبداً.

وأما غيرها من أنواع الهجرة، فذلك باقٍ، لم يزل، ولن ينقطع حَتَّى تطلع الشَّمْسُ من مغربها، وذلك مثل الخروج من دار الكفر إلى دار الإسلام، وكذلك الخروج من موضع غَلَب عليه المنكر، إلى موضع ليس فيه ذلك^(٢).

٣ - ترك ما نهى الله عنه:

* عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ»^(٣).

الهجرة في هذا الحديث: باطنة: وهي لازمة للعباد لا تنفك عنهم أبداً، بترك ما نهى الله عنه، وظاهرة: وهي هجرة مَنْ قَرَّ بدينه من الكفر أو الفتن.

وقد أشار ابن حجر رحمته الله^(٤) إلى هذين النوعين فقال:

«الهجرة ضربان: ظاهرة وباطنة.

= وباب: لا هجرة بعد الفتح (٨٧٤/٢) (ح ٢٨٢٥)؛ ومسلم، كتاب الإمارة، باب: المبايع

بعد فتح مكة على الإسلام والجihad والخير (١٤٨٧/٣) (ح ١٨٦٣).

(١) رواه أبو داود، كتاب الجهاد، باب: في الهجرة هل انقطعت (٣/٣) (ح ٢٤٧٩)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٤٧٠/٢) (ح ٢١٦٦).

(٢) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر (١٩٠/٦) (٢٢٩/٧ - ٢٣٠)؛ تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي، للمباركفوري (٢٣٣/٥)؛ معالم السنن، للخطابي (٢/٢٣٥ - ٢٣٤).

(٣) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب: المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده (٢٩/١) (ح ١٠)؛ وكتاب الرقاق، باب: الانتهاء عن المعاصي (٢٠٣٤/٤) (ح ٦٤٨٤).

(٤) هو الإمام الحافظ الشهير، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، أصله من عسقلان بفلسطين، ومولده بمصر سنة (٧٧٣هـ)، له تصانيف لا تحصى، من أشهرها: «فتح الباري شرح صحيح البخاري»، و«لسان الميزان»، و«تهذيب التهذيب»، و«تقريب التهذيب»، و«يلوغ المرام من أدلة الأحكام» وغيرها. توفي سنة (٨٥٢هـ).

فالباطنة: ترك ما تدعو إليه النفس الأتارة بالسوء والشيطان.
والظاهرة: الفرار بالدين من الفتن.
وكان المهاجرين خُوطبوا بذلك، لئلا يتكلموا على مجرد التحول من دارهم، حتى يمتثلوا وأمر الشر ونواهيته، ويحتمل أن يكون ذلك بعد انقطاع الهجرة، لما فتحت مكة، تطيباً لقلوب من لم يدرك ذلك، بل حقيقة الهجرة تحصل لمن هجر ما نهى الله عنه، فاشتملت هاتان الجملتان على جوامع من معاني الحكم والأحكام^(١).

٤ - القول الباطل:

* عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَهْجُرُوا، وَلَا تَذَابِرُوا، وَلَا تَحَسُّوا» الحديث^(٢).

قوله ﷺ: (لا تهجروا): يحتمل أحدَ معنيين:

الأول: النهي عن التهاجر ومقاطعة الكلام.

الثاني: النهي عن التكلم بالهجر - بضم الهاء - وهو الكلام القبيح^(٣).

* وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ إِلَّا فَرُورُوهَا؛ فَإِنَّهَا تُرِقُّ الْقَلْبَ، وَتُدْمِعُ الْعَيْنَ، وَتُذَكِّرُ الْآخِرَةَ، وَلَا تَقُولُوا هُجْرًا»^(٤).

قال النووي رحمته الله: «والهجر: الكلام الباطل، وكان النهي أولاً لقرب عهدهم من الجاهلية فربما كانوا يتكلمون بكلام الجاهلية الباطل، فلما استقرت قواعد الإسلام، وتمهّدت أحكامه، واشتهرت معالمه أبيح لهم الزيارة،

انظر: البدر الطالع (٤/٨٧).

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري (١/٧٥).

(٢) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب: تحريم الظن والتجسس والتنافس والتجاسس ونحوها (٤/١٩٨٥) (ح ٢٥٦٣).

(٣) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (١٦/٣٣٦).

(٤) رواه الحاكم في «المستدرک»، كتاب الجنائز (١/٥٣٢) (ح ١٣٩٣).

وصححه الألباني في «صحيح الجامع»: (٢/٨٤١) (ح ٤٥٨٤).

واحْتَاطَ ﷺ بقوله: (وَلَا تَقُولُوا هُجْرًا) ^(١).

وقد وقع في زماننا هذا عينُ ما حذَّرنه أنصح الخلق ﷺ، ذلك أنَّ بعض عوامَّ المسلمين لدى زيارتهم للقبور يتوسَّلون بالموتى ويدعونهم من دون الله ويستغيثون بهم، وهذا من أكبر الهُجر والكلام الباطل ^(٢).

٥ - ترك فراش الزوج:

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «إِذَا بَاتَتِ الْمَرْأَةُ مُهَاجِرَةً فِرَاشَ زَوْجِهَا، لَعَنَتَهَا الْمَلَائِكَةُ حَتَّى تَرْجِعَ» ^(٣).

هذا الحديث ليس على ظاهره في لفظ المفاعلة، بل المراد أنَّ المرأة هي التي هجرت، وقد تأتي لفظة المفاعلة ويراد بها نفس الفعل، كما ذكر ذلك ابن حجر رحمته الله ^(٤).

* ويدلُّ على ذلك رواية مسلم: «إِذَا بَاتَتِ الْمَرْأَةُ هَاجِرَةً فِرَاشَ زَوْجِهَا، لَعَنَتَهَا الْمَلَائِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ» ^(٥) فجاء بلفظ اسم الفاعل.

«ومعنى الحديث: أنَّ اللَّعْنَةَ تستمرُّ عليها حتَّى تزول المعصية بطلوع الفجر، والاستغناء عنها، أو بتوبتها، ورجوعها إلى الفراش» ^(٦).

«وَلَا يَتَّجِهْ عَلَيْهَا اللَّوْمُ إِلَّا إِذَا بَدَأَتْ هِيَ بِالْهَجْرِ فغضب هو لذلك، أو هَجَرَهَا وهي ظالمة فلم تستنصل من ذنبها وهَجَرَتْه، أمَّا لو بدأ هو بهجرها ظالماً لها فلا» ^(٧).

(١) المجموع (٢٧٧/٥).

(٢) انظر: أحكام الجنائز وبدعها، للألباني (ص ١٧٩).

(٣) رواه البخاري، كتاب النكاح، باب: إذا باتت المرأة مُهَاجِرَةً فِرَاشَ زَوْجِهَا (٣/١٦٧١) (ح ٥١٩٤).

(٤) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري (٩/٣٦٥).

(٥) رواه مسلم، كتاب النكاح، باب: تحريم امتناعها من فراش زوجها (٢/١٠٥٩) (ح ١٤٣٦).

(٦) صحيح مسلم بشرح النووي (١٠/٢٤٩).

(٧) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٩/٣٦٥).

٦ - ترك اسم الحبيب:

* عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنِّي لِأَعْلَمُ إِذَا كُنْتُ عَنِّي رَاضِيَةً، وَإِذَا كُنْتُ عَلَيَّ غَضَبِي». قَالَتْ: فَقُلْتُ: مِنْ أَيْنَ تَعْرِفُ ذَلِكَ؟ فَقَالَ: «أَمَّا إِذَا كُنْتُ عَنِّي رَاضِيَةً، فَإِنَّكَ تَقُولِينَ: لَا وَرَبِّ مُحَمَّدٍ، وَإِذَا كُنْتُ غَضَبِي، قُلْتُ: لَا وَرَبِّ إِبْرَاهِيمَ» قَالَتْ: قُلْتُ: أَجَلْ، وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَهْجُرُ إِلَّا اسْمَكَ ^(١).

«مغاضبة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا هي مِنَ الْغَيْرَةِ، الَّتِي عُفِيَ عَنْهَا لِلنِّسَاءِ، وَلَوْلَا ذَلِكَ، لَكَانَ عَلَيْهَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْحَرَجِ مَا فِيهِ؛ لِأَنَّ الْغَضَبَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ كَبِيرَةٌ عَظِيمَةٌ. وَفِي قَوْلِهَا: (إِلَّا اسْمَكَ) دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ قَلْبَهَا مَمْلُوءٌ مِنَ الْمَحَبَّةِ، وَإِنَّمَا الْغَيْرَةُ فِي النِّسَاءِ مِنَ الْمَحَبَّةِ» ^(٢).

وَجَاءَ فِي (فَتْحِ الْبَارِي) عَنِ الطَّبِيِّ ^(٣) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَهَذَا الْحَصْرُ لَطِيفٌ جَدًّا؛ لِأَنَّهَا أَخْبَرَتْ أَنَّهَا إِذَا كَانَتْ فِي حَالِ الْغَضَبِ، الَّذِي يَسْتَلِبُ الْعَاقِلُ اخْتِيَارَهُ، لَا تَتَغَيَّرُ عَنِ الْمَحَبَّةِ الْمُسْتَقَرَّةِ» ^(٤). عَبَّرَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عَنِ التَّرْكِ بِالْهَجْرِ؛ لِتَذَلُّ بِهِ عَلَى أَنَّهَا تَتَأَلَّمُ مِنْ هَذَا التَّرْكِ، الَّذِي لَا اخْتِيَارَ لَهَا فِيهِ، وَهَذَا مِنَ الْهَجْرِ الطَّبِيعِيِّ الْجَائِزِ.

وَكَمَا مَرَّ مَعَنَا سَابِقًا فِي الْآيَاتِ: أَنَّ الْأَصْلَ فِي الْهَجْرِ: التَّرْكِ فَعَلًا كَانَ أَوْ قَوْلًا، فَكَذَلِكَ هُنَا هُوَ الْمَعْنَى الْمَشْتَرَكُ بَيْنَ الْأَحَادِيثِ جَمِيعًا.

(١) رواه البخاري، كتاب النكاح، باب: غيرة النساء ووحدتهن (١٦٨١/٣) (ح ٥٢٢٨)، وكتاب الأدب، باب: ما يجوز من الهجران لمن غصى (١٩١٨/٤) (ح ٦٠٧٨)؛ والأدب المفرد (١٤٦/١) (ح ٤٠٣)؛ ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب: في فضل عائشة و (١٨٩٠/٤) (ح ٢٤٣٩).

(٢) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، لمحمود بن أحمد العيني (١٤٤/٢٢)، وانظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٢٠٣/١٥).

(٣) هو الحسين بن محمد بن عبد الله الطبيبي (شرف الدين): من أهل توريز، من عراق المعجم. من علماء الحديث والتفسير والبيان، قال ابن حجر عنه: «آية في استخراج الدقائق من القرآن والسُنَنِ». كانت له ثروة طائلة من الإرث والتجارة، فأنفقها في وجوه الخير، حتى افتقر في آخر عمره. من مصنفاته: «التبيان في المعاني والبيان»، و«أسماء الرجال»، و«فتوح الغيب في الكشف عن قناع الرّيب»، و«شرح مشكاة المصابيح» وغيرها. توفي سنة (٨٧٤٣هـ)؛ انظر: الدرر الكامنة، لابن حجر (١٥٦/٤).

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٤٠٥/٩)؛ وانظر: فضل الله الصمد في توضيح الأدب المفرد، لفضل الله الجيلاني (٧٠/٢ - ٧١).

المبحث الرابع

المقصود بـ «هجر القرآن»

لم تذكر كتب المصطلحات «هجر القرآن» مصطلحاً، ولكن هناك بعض العلماء الأجلاء من تطرّق إلى الحديث عن هجر القرآن وأنواعه، ومن ذلك:

* ما ذكره ابن كثير^(١) رحمه الله حيث قال: «كان الكفار إذا بُلي عليهم القرآن أكثروا اللَّغَط والكلام في غيره، حتّى لا يسمعه، فهذا من هجرانه، وترك علمه وحفظه أيضاً من هجرانه، وترك الإيمان به وتصديقه من هجرانه، وترك تدبره وتفهمه من هجرانه، وترك العمل به وامثال أوامره واجتناب زواجره من هجرانه، والعدول عنه إلى غيره من شعر أو قول أو غناء أو لهو أو كلام أو طريقة مأخوذة من غيره من هجرانه»^(٢).

* وما ذكره ابن القيم^(٣) رحمه الله حيث قال: «هجر القرآن أنواع:

(١) هو الحافظ أبو الفداء عماد الدين، إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء البصري ثم الدمشقي، الشافعي، ولد سنة (٧٠٠هـ)، وقدم دمشق وصاهر الحافظ المزني، وصحب ابن تيمية، وتبعه في كثير من آرائه، وامتحن بسبب ذلك وأوذي، كان كثير الحفظ، سهل الاستحضار، انتهت إليه رئاسة العلم في التاريخ والحديث والتفسير. له التفسير المشهور، ثاني كتاب في التفسير بالمأثور بعد تفسير ابن جرير، وله موسوعة التاريخ: «البداية والنهاية» توفي سنة (٧٧٤هـ). انظر: شذرات الذهب (٢/٢٣٠)؛ البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، للشوكاني (١/١٥٣).

(٢) تفسير ابن كثير (٦/١٢٠).

(٣) هو محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي ثم الدمشقي، شمس الدين أبو عبد الله ابن قيم الجوزية، تفقه في مذهب الإمام أحمد وبرع وأفتى، لازم ابن تيمية وأخذ عنه، وتفنّن في علوم الإسلام، وله في كل فن اليد الطولى. وكان ذا عبادة وتهجد، وقد امتحن وأوذي مرات، وصنّف تصانيف كثيرة، منها: «زاد المعاد في هدي خير العباد»، و«الصّواعق المرسلة على الجهمية والمعتزلة». توفي سنة (٧٥١هـ).

انظر: ذيل طبقات الحنابلة، لابن رجب (٢/٤٤٧).

أحدهما: هجر سماعه، والإيمان به، والإصغاء إليه.

والثاني: هجر العمل به، والوقوف عند حلاله وحرامه، وإن قرأه وأمن به.

والثالث: هجر تحكيمه والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه، واعتقاد أنه لا يفيد اليقين، وأن أدلته لا تفيد اليقين، وأن أدلته لفظية لا تحصل العلم.

والرابع: هجر تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد المتكلم به منه.

والخامس: هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلوب وأدوائها؛ فيطلب شفاء دائه من غيره، ويهجر التداوي به.

وكل هذا داخل في قوله: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠]، وإن كان بعض الهجر أهون من بعض.

والسادس: الحرج الذي في الصدور منه؛ فإنه تارة يكون حرجاً من إنزاله وكونه حقاً من عند الله، وتارة يكون من جهة المتكلم به أو كونه مخلوقاً من بعض مخلوقاته ألهم غيره أن تكلم به. وتارة يكون من جهة كفايته وعدمها، وأنه لا يكفي العباد، بل هم محتاجون معه إلى المعقولات والأقيسة أو الآراء أو السياسات. وتارة يكون من جهة دلالاته وما أريد به حقائقه المفهومة منه عند الخطاب، أو أريد به تأويلها وإخراجها عن حقائقها إلى تأويلات مُستكرهة مشتركة. وتارة يكون من جهة كون تلك الحقائق، وإن كانت مرادة، فهي ثابتة في نفس الأمر، أو أوهم أنها مرادة لضرب من المصلحة.

فكل هؤلاء في صدورهم حرج من القرآن، وهم يعلمون ذلك من نفوسهم ويجدون في صدورهم. ولا تجد مبتدعاً في دينه قط إلا وفي قلبه حرج من الآيات التي تُخالف بدعته. كما أنك لا تجد ظالماً فاجراً إلا وفي صدره حرج من الآيات التي تحول بينه وبين إرادته^(١).

* وجاء في موسوعة نضرة النعيم في بيان «هجر القرآن» ما نصّه:

«إن هجر القرآن له جانبان: أحدهما: يتعلّق بالقرآن دون أخذ له، وهذا صنيع الكفار والمنافقين، والآخر: يتعلّق به بعد الإقرار بأنه كلام الله الذي لا

يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهذا صنيع بعض المسلمين الذين لا يقرؤون القرآن، أو يقرؤون لا يجاوز حناجرهم، فلا يعملون به، ومن هؤلاء صنف يحفظ القرآن أو شيئاً منه، ثم يهجر القراءة حتى ينسى ما قد يكون حفظه منه»^(١).

المقصود بـ «هجر القرآن» :

من خلال الاستعراض اللغوي لمادة «هَجَرَ»، ومشتقاتها في الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، وما ذكره بعض أهل العلم في هذا الشأن، نستطيع أن نُقرّر:

بأنَّ «هَجَرَ القرآن» يعني الأمور الآتية:

- ١ - ترك الإيمان به، وعدم الالتفات إليه كليّة.
- ٢ - القول السيئ في القرآن، والزعم الباطل بأنه سحر أو شعر أو أساطير الأولين، وهذا القول القبيح في حقّ القرآن من الاستهزاء به.
- ٣ - الإعراض والبُعد عن القرآن، وعدم سماعه، ورفع الأصوات بالهذيان إذا قرئ لئلا يُسمع.
- ٤ - ترك العمل به وعدم امتثال أوامره وعدم اجتناب زواجره.
- ٥ - ترك تحكيمه والاحتكام إليه.
- ٦ - ترك تدبره وتفهمه.
- ٧ - ترك تلاوته وحفظه أو نسيانه بعد حفظه.
- ٨ - ترك الاستشفاء والتداوي به.
- ٩ - الحرج الذي في الصدور منه.



(١) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ، لمجموعة من المختصين (٥٦٩١/١١).

المبحث الخامس

حُكْم هجر القرآن

يختلف حُكْم هجر القرآن الكريم باختلاف نوع الهجر، وحال الهاجر، وقد سبق كلام لابن القيم رحمته الله حول هذا المعنى، وهو قوله: «وإن كان بعض الهجر أهون من بعض»^(١).

وقد ذكر الألوسي^(٢) رحمته الله اختلاف المفسرين في معنى الهجر المذكور في قوله تعالى: «وَقَالَ الرَّسُولُ يَرَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا» [الفرقان: ٣٠].

وهل المراد بهجره: عدم الإيمان به وتركه تكذيباً، بناءً على أن الهجر - بفتح الهاء - بمعنى التَّرك والإعراض، أو أن الهجر: بمعنى الهذيان فيه واللغو من الهجر بضم الهاء، أو أن المراد بالهجر: تعطيل القرآن وعدم النظر فيه وتعاهده.

ثم قال بعد ذلك: «والحقُّ: أنه متى كان هذا مُخِلًّا باحترام القرآن كُره، بل حُرِّم، وإلا فلا»^(٣).

وجاء في فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء بالمملكة العربية السعودية ما نصّه:

(١) الفوائد (ص ١٢٤).

(٢) هو أبو الثناء، شهاب الدين، محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، نسبة إلى قرية اسمها «الوس»، وهي جزيرة في منتصف نهر الفرات، بين الشَّام وبغداد، كانت موطن أجداده. ولد سنة (١٢١٧هـ) في جانب الكرخ من بغداد، جَمَعَ كثيراً من العلوم، فكان مفسراً ومحدثاً، وأصولياً فقيهاً، اشتغل بالتدريس والتأليف وانتهت إليه رئاسة المذهب الحنفي وولِّي المدرسة المرجانية التي كانت مشروطة لأعلم أهل البلد، انفصل من منصب الإفتاء وأكبَّ على تفسير القرآن حتى أمته - وهو روح المعاني - توفي سنة (١٢٧٠هـ).

انظر: التفسير والمفسرون، للذهبي (١/ ٣٦٠ - ٣٦٢)؛ معجم المؤلفين، لكحل (٣/ ٨١٥).

(٣) روح المعاني، للألوسي (١٩/ ١٣ - ١٤).

«والإنسان قد يهجر القرآن فلا يؤمن به ولا يسمعه ولا يُصغي إليه، وقد يؤمن به ولكن لا يتعلّمه، وقد يتعلّمه ولكن لا يتلوه، وقد يتلوه ولكن لا يتدبّره، وقد يحصل التدبّر ولكن لا يعمل به، فلا يُحِلّ حلاله ولا يُحرّم حرامه، ولا يُحكّمه ولا يتحاكم إليه، ولا يَستشفي به ممّا فيه من أمراضٍ في قلبه وبدنه، فيحصل الهجر للقرآن من الشّخص بقدر ما يحصل منه من الإعراض»^(١).

وبناءً على ذلك: فإنّ كان هجر القرآن بترك الإيمان به، أو الإعراض عنه، وعدم التّحاكم إليه بالكلّيّة، أو اللّغو فيه، فهذا كفر صّراح.

قال النّووي رحمته الله: «أجمعت الأئمّة على وجوب تعظيم القرآن على الإطلاق وتنزيهه وصيانيته. وأجمعوا على أنّ من جحد منه حرفاً مُجمّعاً عليه، أو زاد حرفاً لم يقرأ به أحد وهو عالم بذلك فهو كافر، وأجمعوا على أنّ من استخفّ بالقرآن أو بشيء منه، أو بالمصحف أو ألّقاءه في قاذورة، أو كذّب بشيء مما جاء به من حكم أو خبر، أو نفى ما أثبتته أو أثبت ما نفاه، أو شكّ في شيء من ذلك، وهو به عالم كفر»^(٢).

وإنّ كان هجر القرآن بمعنى التّرك المؤدّي إلى النّسيان بعد الحفظ، فقد ذكر ابن حجر الهيتمي رحمته الله^(٣) أنه من الكبائر، وقال بأنّ ذلك هو ما ذهب إليه الرّافعي^(٤) وغيره، ونقل عن بعض العلماء أنّ محلّ كون نسيان القرآن كبيرة - عند

(١) فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء (١٠٣/٤ - ١٠٤)، من الفتوى رقم (٨٨٤٤).

(٢) المجموع (١٩٣/٢). وانظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٨٨/٦).

(٣) هو أحمد بن محمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي، السعدي، الأنصاري، الشافعي، ولد بمصر سنة (٩٠٩هـ) في محلة أبي الهيثم المنسوب إليها، برع في علوم كثيرة، وازدحم الناس على الأخذ منه، له مصنفات كثيرة منها: «شرح المشكاة»، و«شرح المنهاج»، و«الزواجر عن اقتراف الكبائر». توفي بمكة سنة (٩٧٣هـ).

انظر: مقدمة كتابه الزواجر عن اقتراف الكبائر (٨/١ - ١٠).

(٤) هو أبو القاسم، عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم بن الفضل الرافعي، القزويني، الشافعي، ولد سنة (٥٥٥هـ) فقيه، محدّث، مفسّر، مؤرّخ. قال أبو عبد الله الإسفراييني: «كان أوحد عصره في العلوم الدّينية أصولاً وفروعاً، ومجتهد زمانه في المذهب، وفريد وقته في التّفسير». وكان زاهداً ورعاً متواضعاً. ومن مصنفاته: «فتح العزيز على كتاب =

مَنْ قَالَ بِهِ - مشروطٌ بأن يكون عن تكاسل وتهاون، وهذا احترازٌ عما لو اشتغل عن القرآن بمرضٍ مانعٍ من القراءة، وعدم التأثيم بالنسيان حينئذٍ واضح؛ لأنه مقلوبٌ عليه لا اختيارٌ له فيه^(١).

وأما إن كان الهجر مُتعلِّقاً بعدم العمل به - مع الإيمان به، والإقرار بأنه كلام الله تعالى يجب اتّباعه - فذلك معصية يتوقّف كونها كبيرةً أو صغيرةً على نوع المخالفة ذاتها.

وأما إن كان الهجر بمعنى ترك التلاوة، أو ترك التدبر، أو ترك الاستشفاء به - مع القدرة على ذلك - ولم يفعل، فهو مؤاخَذٌ على فعله بحسب نوع تقصيره في ذلك، وإن لم يكن قادراً على ذلك فإنَّ الله تعالى لا يُكَلِّفُ نفساً إلّا وسعها وما آتاها، ويُستثنى في تلاوة القرآن فيما تصحُّ به صلاته كقراءة الفاتحة مثلاً، فإنَّها واجبة على كلِّ مسلم، ولا يجوز تركها بحال^(٢) وسيأتي تفصيل ذلك كلِّ بِحَسْبِهِ في أنواع هجر القرآن.



= الوجيز للغزالي، و«شرح المحرر» وسمّاه الوضوح، و«شرح مسند الشافعي». توفي بقزوين سنة (٦٢٣هـ) ودفن بها.

انظر: طبقات المفسرين (١/٢٢٥).

(١) انظر: الزواجر عن اقتراف الكبائر (١/٢٥٧ - ٢٥٨)؛ فتح الباري شرح صحيح البخاري (٩/٨٦).

(٢) انظر: موسوعة نضرة النعيم (١١/٥٦٩٢)؛ المتحف في أحكام المصحف، د. صالح بن محمد الرشيد (ص ٧٤٦ - ٧٥٠).

الفصل الثاني

ذم هجر القرآن

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الآيات الدالة على ذم هجر القرآن.

المبحث الثاني: الأحاديث الدالة على ذم هجر القرآن.

المبحث الثالث: آثار السلف في ذم هجر القرآن.

١١٨٠ سنة ١٢٠٠ هـ

المبحث الأول

الآيات الدالة على ذم هجر القرآن

وفيه ثمانية مطالب:

المطلب الأول: الشكوى العظيمة.

المطلب الثاني: السمر الفاجش.

المطلب الثالث: الإعراض عن القرآن.

المطلب الرابع: الظلم الأعظم.

المطلب الخامس: الوجوه العابسة.

المطلب السادس: الاستكبار عن القرآن.

المطلب السابع: اللغو الباطل.

المطلب الثامن: التقسيم الجائر.

الآيات الدالة على ذم هجر القرآن

تمهيد:

عانى النبي الكريم ﷺ ما عاناه من جفاء قومه الذين لم يتبعوه ولم ينقادوا لدعوته المباركة، وكانت لهم أساليبهم التي واجهوا بها النبي ﷺ؛ من ذلك: إعراضهم عن كتاب الله، فكانوا إذا تليت عليهم الآيات القرآنية في مختلف الأماكن العامة والخاصة ولّوا وأعرضوا عنها وتصامموا - وما بهم من صمم - مستكبرين عن قبولها والانقياد لها.

بل أدى بهم الحال إلى أن يوصي كبيرهم صغيرهم، وغنيهم فقيرهم، وحاضرهم باديهم بعدم الاستماع لهذا القرآن ابتداءً؛ لأنهم على يقين أن كل من استمع لهذا القرآن متجرداً من الموانع والهوى سيقوده استماعه إلى الإيمان بالقرآن العظيم والانقياد له، وهذا ما لا يريدونه ولا يتمنونه.

ومن شدة كراهيتهم للآيات التي تلى عليهم أحياناً يملأهم الغضب والكراهية المؤدية إلى غبوس الوجوه وتقطيعها، ويكاد أن يتحول هذا الشعور إلى الفتك بمن يقرأ عليهم القرآن الكريم.

وهناك آيات تتحدث عن جفاء الكفار وإعراضهم عن كتاب الله تعالى، حتى وصل الحال إلى شكوى عزيمة بيئها النبي ﷺ إلى ربه عز وجل بسبب هجر قومه للقرآن العظيم، وهذا ما سنتناوله في هذه المطالب:

المطلب الأول

الشكوى العظيمة

* قوله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠].

شكا الرسول ﷺ إلى ربه تبارك وتعالى ما يُعانيه من عناد قومه واستكبارهم، وإعراضهم عن قبول دعوته، والإيمان بالكتاب الذي جاءهم به. فقد أعرضوا عنه، وهجروه، وتركوه، مع أن الواجب عليهم، الإيمان به، والالتقياد لحكمه^(١).

والمقصود من حكاية هذه الشكوى العظيمة: إنذار كل من هجر القرآن الكريم إلى يوم الدين، بأن صاحب الرسالة ﷺ قد توجه في هذا الشأن إلى ربه عز وجل يشكو قومه القرآن العظيم.

وقد أكدت هذه الشكوى بـ ﴿إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾: للاهتمام بها؛ ليكون التشكي أقوى. والتعبير عن قريش بـ ﴿قَوْمِي﴾: لزيادة التذمر من فعلهم معه؛ لأن من شأن قوم الرجل أن يوافقوه.

وقوله ﴿اتَّخَذُوا﴾: يدل دلالة واضحة على أن هذا هو دينهم وشأنهم وحالهم مع نبيهم المرسل إليهم.

بمعنى: أن الهجر لم يقع عرضاً مرة أو مرتين، إنما وقع مراراً وتكراراً، فهو أشد مبالغة - في هجر القرآن - من أن يقال: إن قومي هجروا القرآن.

كأنما اتخذوا هذا الهجر صنعة وحرفة، وعقدوا العزم في ذلك الاتخاذ، فهو قرار قرروه، ومنهج اختطوه لأنفسهم وللأجيال من بعدهم.

واسم الإشارة في ﴿هَذَا الْقُرْآنَ﴾: لتعظيمه، وأن مثله لا يتخذ مهجوراً بل هو جدير بالإيمان به، والإقبال عليه، والانتفاع به^(٢). والتعبير باسم الإشارة

(٢) انظر: التحرير والتنوير (٤٢/١٩).

(١) انظر: تفسير السعدي (٤٣٨/٣).

أيضاً؛ لبيان أنه مُتاحٌ لهم تعظيمه، فهو بين أيديهم، بالإضافة أنه نزل بلسانهم. فهذه «شكوى عظيمة، وفيها أعظم تخويف لمن هجر هذا القرآن العظيم، فلم يعمل بما فيه من الحلال والحرام والآداب والمكارم، ولم يعتقد ما فيه من العقائد، ويعتبر بما فيه من الزَّواجر والقصص والأمثال»^(١).

* وقد اختلف أهل التأويل في معنى وكيفية اتِّخاذهم القرآن مهجوراً على عدة أقوال، وهي على النحو الآتي:

١ - التَّرك كلياً:

بمعنى أن المشركين تركوا الإيمان بالقرآن، ولم يلتفتوا إليه أبداً، قال ابن الجوزي: «وهذا معنى قول ابن عباس ومقاتل»^(٢).

٢ - الإعراض والبعد عن القرآن وعدم سماعه:

قال ابن زيد في معنى الآية: لا يريدون أن يسمعه، وإن دُعوا إلى الله قالوا: لا. وقرأ: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٦]، قال: ينهون عنه، ويبعدون عنه.

ورجَّح ابن جرير الطبري رحمته الله هذا القول؛ لأن الله تعالى أخبر عنهم أنهم قالوا: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْقَوَا فِيهِ أَمَلَكُمُ ثَغْلِيُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]. وذلك هجرهم إيَّاه^(٣).

٣ - القول السيئ في القرآن، والزَّعم الباطل بأنه سحر، أو شعر، أو أساطير الأولين:

قال مجاهد^(٤) رحمته الله في معنى الآية: يهْجُرُون فيه بالقول، يقولون:

(١) أضواء البيان، للشنقيطي (٣١٧/٦). (٢) زاد المسير (١٤/٦).

(٣) انظر: تفسير الطبري (١٥/١١).

(٤) هو شيخ القراء والمفسرين، أبو الحجاج المكي، مجاهد بن جبر، مولى السائب بن أبي السائب المخزومي - وقيل غيره - أشهر تلاميذ ابن عباس، أخذ عنه القرآن والتفسير والفقه، يقول: «عرضت القرآن ثلاث عرضات على ابن عباس، أفقه عند كل آية أسأله فيم نزلت، وكيف كانت». قال عنه قتادة: «أعلم من بقي بالتفسير مجاهد». توفي وهو ساجد سنة (١٠٣هـ)، وقد بلغ: (٨٣) سنة.

انظر: طبقات ابن سعد (٤٦٦/٥)؛ سير أعلام النبلاء (٤٤٩/٤).

هو سحر^(١).

٤ - الهَذْيَانِ وَفُحْشِ الْقَوْلِ:

بمعنى أنهم: هَجَرُوا فيه، أي: جعلوه كالهَذْيَانِ، ومنه يقال: فلان يَهْجُرُ في منامه، أي: يهذي، والهَجْرُ: ما لا ينتفع به من القول^(٢).

وتشهد له قراءة نافع: ﴿تَهْجُرُونَ﴾ بضم التاء وكسر الجيم، في قوله تعالى: ﴿مُتَكَذِّرِينَ بِهِ سَمِيراً تَهْجُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٧]. وهو الإفحاش في القول، وقول الحنا يقال: أهُجَرَ الرَّجُلُ إذا أفحش في القول^(٣).

«وفي هذه الشُّكُوى من التَّخْوِيفِ والتَّحْذِيرِ ما لا يخفى؛ فَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِذَا شَكُوا إِلَى اللَّهِ قَوْمَهُمْ عَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ وَلَمْ يُنْظَرُوا»^(٤).

وهذه الآية وإن كانت في المشركين، إلَّا أَنَّ الْعِبْرَةَ بَعْمُومَ لَفْظِهَا، فنظمها الكريم مما يُرْهَبُ عُمُومُ الْمَعْرُضِينَ عَنِ الْعَمَلِ بِالْقُرْآنِ، وَالْأَخْذُ بِآدَابِهِ، وَفِي الْآيَةِ كَذَلِكَ التَّحْذِيرُ مِنْ هَجْرِ الْمَصْحَفِ وَعَدَمِ تَعَاهُدِهِ بِالْقِرَاءَةِ فِيهِ^(٥).

لذا ينبغي لكل مسلم - يخاف العَرَضَ عَلَى رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ - أَنْ يَتَأَمَّلَ هَذِهِ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ، وَيُتَمَعِّنَ النَّظَرَ فِيهَا مَراراً وَتَكَرُّراً؛ ليرى لنفسه المخرج من هذه الورطة العظيمة، وَالطَّامَةِ الْكَبِيرَةِ الَّتِي عَمَّتْ جُلَّ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ هَذِهِ الْمَعْمُورَةِ، وَهِيَ: هَجْرُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ^(٦).

شبهة:

قد يقول قائل: إِنَّ شُكُوى النَّبِيِّ ﷺ هَذِهِ، تُشَبِّهُ مِنْ ذِي قَبْلِ شُكُوى نُوحٍ ﷺ مِنْ قَوْمِهِ، قَالَ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ هَذِهِ الشُّكُوى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً ۖ لَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاؤِي إِلَّا فِرَاراً﴾ [نوح: ٥-٦]. فكما أَنَّ نُوحاً ﷺ قَصِدَ أَنْ يُنْزَلَ اللَّهُ

(١) انظر: المصدر السابق (١٤/١١).

(٢) انظر: زاد المسير (١٥/٦)؛ روح المعاني (١٤/١٩).

(٣) انظر: تفسير الطبري (١٨/٤٠)؛ تفسير البغوي (٣/٣١٣).

(٤) روح المعاني (١٤/١٩).

(٥) انظر: تفسير القاسمي (٥/٣٤١ - ٣٤٢).

(٦) انظر: أضواء البيان (٧/٢٦٢).

تعالى العذاب على قومه بسبب عصيانهم له، فكذلك هنا. فكيف يليق ذلك بِمَنْ وصفه الله تعالى بالرحمة في قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]؟

ردّها:

إِنَّ نوحاً عليه السلام لَمَّا شكا قومه إلى ربّه دعا عليهم بالهلاك، كما جاء في السّورة نفسها: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذِيَارًا ۖ إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يَفْضِلُوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاِجْرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٦ - ٢٧].

وأما محمد ﷺ لَمَّا بَثَّ شكواه إلى ربّه ما دعا عليهم بل انتظر، فلمّا عزّاه الله تعالى وسلّاه بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٣١]. كان ذلك كالأمر له بالصّبر على جفاء قومه، فترك الدّعاء عليهم، فظهر الفرق بين الموقفين^(١).

المطلب الثاني

السَّمَرُ الْفَاحِشُ

* قوله تبارك وتعالى: ﴿مَذَّكَاتٌ ءَاتِيَةٌ تَنْتَلِي عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَغْفِيكُمْ تَنَكُّبُونَ ۖ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سِمِرًا تَنَجُّوْنَ﴾ [المؤمنون: ٦٦ - ٦٧].

لَمَّا بَيَّنَّ تبارك وتعالى أَنَّ المُتَرَفِّينَ مِنَ الكفار إذا أخذوا بالعذاب ضجّوا وصاحوا واستغاثوا، وَبَيَّنَّ أَنَّهُمْ لَا يُغَاثُونَ، بَيَّنَّ سَبَبَ ذَلِكَ كُلِّهِ: أَنَّ آيَاتِ كِتَابِ اللَّهِ كَانَتْ تُتْلَى وَتُقْرَأُ عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا، وَاضْحَةٌ مُّفْصَّلَةٌ، فَكَانُوا يَكْذِبُونَ بِهَا.

بل رجعوا عنها القهقري، مُؤَلِّينَ مَدْبِرِينَ عَنْهَا، كَرَاهِيَةً مِنْهُمْ لِسَمَاعِهَا. وَالْعَقَبُ: مُؤَخَّرُ الْقَدَمِ. وَالتَّكْوِصُ: الرَّجُوعُ عَنِ الْأَمْرِ^(٢). وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا تَرَأَتْهُ الْفِتَنُ تَنَكَّصَتْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [الأنفال: ٤٨].

فهذا هو حال الإنسان إذا لم يؤمن بالقرآن، أَنَّهُ يَتَرَجَعُ الْقَهْقَرَى إِلَى

(١) انظر: التفسير الكبير، للرازي (٦٨/٢٤).

(٢) انظر: أضواء البيان (٧٩٩/٥).

الخلف؛ وذلك لأنه باتّباعه للقرآن العظيم يتقدّم إلى الأمام، وإذا أعرض عنه تأخّر، ونزل إلى أسفل سافلين^(١).

فبدل أن يمشي إلى الأمام - كما خلقه الله تعالى - إذا به يمشي للخلف على عقبه، وكأنّه أخذ أخذاً غير عنده دولا ب سيره؛ لأنه عَمِيَ عن أسباب هدايته، فصار يتخبّط في متاهات الحياة على غير هدى، كمن يسير بظهره لا يعرف مواقع قدميه^(٢).

وقد بيّن الله تعالى - في موضع آخر من القرآن - أن هؤلاء الكفار إذا تتلى عليهم آياته لم يقتصروا على النكوص عنها على أعقابهم، بل يكادون يبطشون بالذي يتلوها عليهم؛ لشدة بغضهم لها، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَقَرَّفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرُ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ تَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا﴾ [الحج: ٧٢].

* وسبب كفرهم بالقرآن: هو استكبارهم، ولذا قال الله تعالى: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سِمَرَ تَهْجُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٧]؛ ولأنّه يُذَكِّرهم بعبوبهم أيضاً.

فقوله: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ﴾ منصوب على الحال.

والضمير في: ﴿بِهِ﴾ «قال الجمهور^(٣)»: هو عائد على الحرم، أو المسجد، أو البلد الذي هو مكّة، وإن لم يتقدّم له ذكر لشهرته في الأمر؛ أي يقولون: نحن أهل الحرم فلا نخاف. وقيل: المعنى: أنّهم يعتقدون في نفوسهم أن لهم بالمسجد والحرم أعظم الحقوق على الناس والمنازل، فيستكبرون لذلك، وليس الاستكبار من الحق.

وقالت فرقة: الضمير عائد على القرآن من حيث ذُكرت الآيات؛ والمعنى: يُحَدِّث لكم سماع آياتي كثيراً وطغياناً فلا تؤمنوا به. قال ابن عطية^(٤): «وهذا قول جيد»^(٥).

(١) انظر: تفسير السعدي (٣/٣٦٤). (٢) انظر: تفسير الشعراوي (١٦/١٠٠٨١).

(٣) أي: جمهور المفسرين. وانظر: تفسير الشوكاني (٣/٧٠٣).

(٤) انظر: المحرر الوجيز (١١/٢٤٢). (٥) تفسير القرطبي (١٢/١٤٣).

و«قال الزَّجَاجُ^(١) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ويجوز أن تكون النِّهَاءُ في ﴿يَهْ﴾ للكتاب، فيكون المعنى: تُحَدِّثُ لَكُمْ تِلَاوَتَهُ عَلَيْكُمْ اسْتِكْبَاراً»^(٢).

* وقوله: ﴿سَمَرًا تَهْجُرُونَ﴾^(٣) منصوب على الحال، معناه: تَهْجُرُونَ سُمَّارًا، فالسَّمَرُ هنا بمعنى السُّمَّار، ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ [الحج: ٥]. أي: أطفالاً.

فالسُّمَّار: هم الجماعة الذين يتحدثون بالليل، مأخوذ من السَّمَر، وهو: ظِلُّ القمر؛ ومنه سُمرة اللُّون. وكانوا يتحدثون حول الكعبة في سَمَر القمر؛ فسُمِّي التَّحَدُّثُ به.

إذا كانت قريش تسمُّرُ حول الكعبة مجالس في أباطيلها وكفرها، فعابهم الله بذلك^(٤). «وكان عامة سَمَرِهِمْ ذِكْرُ الْقُرْآنِ وَالطَّعْنُ فِيهِ»^(٥)، وتسميته سحرًا وشعرًا ونحو ذلك.

وفي قوله: ﴿تَهْجُرُونَ﴾ قراءتان^(٦):

الأولى: قراءة نافع: ﴿تُهْجِرُونَ﴾: بضمَّ التَّاء. بمعنى: تُفَحِّشُونَ في الكلام، وتقولون الحَنَا. يقال: أَهْجَرَ الرَّجُلُ: إِذَا أَفْحَشَ فِي الْقَوْلِ.

الثانية: قراءة الباقيين: ﴿تَهْجُرُونَ﴾. بفتح التَّاء.

(١) هو أبو إسحاق، إبراهيم بن محمد بن السَّري، الزَّجَاج، البغدادي، نحويٌّ زمانه، لزم المبرِّد، فكان يعطيه من عمل الزَّجَاج كل يوم درهمًا، له تاليف جمَّة منها: «معاني القرآن»، و«القروض»، و«الاشتقاق». توفي سنة (٣١١هـ).
انظر: سير أعلام النبلاء (١٤/٣٦٠).

(٢) زاد المسير (٥/٣٥٠).
(٣) * قرأ أبي بن كعب، وأبو العالية، وابن محيصن: «سُمَّارًا» بضم السين، وتشديد الميم وفتحها، جمع سامر.

* وقرأ ابن مسعود، وأبو رجاء، وعاصم الجحدري: «سُمَّارًا» برفع السين، وتشديد الميم، وألف بعدها. انظر: زاد المسير (٥/٣٠٥).

(٤) انظر: تفسير القرطبي (١٢/١٤٣-١٤٤).

(٥) تفسير الشوكاني (٣/٧٠٣).

(٦) انظر: البدور الزَّاهرة في القراءات العشر المتواترة (ص ٢٢٣).

ولها وجهان في توجيهها:

الأول: ﴿تَهْجُرُونَ﴾ بمعنى: تُعرضون عن الرسول ﷺ، أو القرآن، أو البيت.

الثاني: ﴿تَهْجُرُونَ﴾ بمعنى: تَهْذُونَ، من الهذيان، والكلام بما لا معنى له، ولا فائدة منه^(١).

قال ابن جرير رحمه الله: «وأولى القراءتين بالصواب في ذلك عندنا، القراءة التي عليها قراء الأمصار، وهي فتح التاء وضَمُّ الجيم؛ لإجماع الحجة من القراء»^(٢).

«ولقد كانوا يُطلقون ألسنتهم بهجر القول وفحشه في مجالسهم؛ وهم يتحلّقون حول الأصنام في سامرهم بالكعبة. فهذا هو ذا القرآن يرسم لهم مشهد حسابهم على ما هم فيه؛ وهم يجارون طالبين الغوث، فيذكّرهم بسمرهم الفاحش، وهجرهم القبيح، وكأنما هو واقع اللحظة، وهم يشهدونه ويعيشون فيه! وذلك على طريقة القرآن الكريم في رسم مشاهد القيامة كأنها واقع مشهود»^(٣) وذلك في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَخْتَصِرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَخْفَرُوا الْيَوْمَ إِلَّا كَرًّا مِنَّا لَا تَصَرُّونَ﴾ [المؤمنون: ٦٤ - ٦٥].

المطلب الثالث

الإعراض عن القرآن

* قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمًى﴾ [طه: ١٢٤].

المراد بالذكر:

يرى عامة المفسرين أنَّ المراد بالذكر هنا القرآن. ومن هؤلاء: البغوي، والقرطبي، والرازي، وابن الجوزي، وابن القيم، والشوكاني، والسَّعدي،

(١) انظر: تفسير الطبري (١٠/٥٢ - ٥٣). (٢) المصدر نفسه (١٠/٥٣).

(٣) في ظلال القرآن، لسيد قطب (٤/٢٤٧٣ - ٢٤٧٤).

وغيرهم^(١). قال البغوي^(٢) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي﴾: «يعني القرآن، فلم يؤمن به ولم يتبعه»^(٣).

وقال ابن القيم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فَذَكِّرْهُ: كلامه الذي أنزله على رسوله. والإعراض عنه: ترك تدبره والعمل به»^(٤).

المراد بالمعيشة الضنك:

أكثر ما جاء في كتب التفسير عن المعيشة الضنك: أنها عذاب القبر، وروي في ذلك آثار عن ابن مسعود، وابن عباس، وأبي هريرة، وأبي سعيد الخدري، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وأصل الضنك في اللغة: الضيق والشدة، يُقال: مَنْزِلٌ ضَنْكٌ، وعيش ضنك، يستوي فيه الواحد والاثنان، والمذكر والمؤنث والجمع^(٥).

وروي المفسرون في المعيشة الضنك خمسة أقوال^(٦):

أحدها: أنها عذاب القبر، وممن قال بذلك: ابن مسعود، وأبو هريرة، وأبو سعيد الخدري، والسدي.

الثاني: أنها ضغطة القبر حتى تختلف أضلاعه فيه، رواه عطاء عن ابن عباس.

(١) انظر هذه الأقوال ونسبتها، في معنى الذكر: تفسير البغوي (٣/١٤٥)؛ تفسير القرطبي (١١/٢٧٥)؛ التفسير الكبير (٢٢/١١٢)؛ زاد المسير (٦/٢٤٣)؛ الفوائد (ص ١٦٥)؛ تفسير الشوكاني (٣/٥٦٠)؛ تفسير السعدي (٣/٢٥٨).

(٢) هو الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي (الشافعي) أبو محمد، الملقب بمحيي السنة، كان إماماً في التفسير والحديث والفقه، زاهداً ورعاً، وله تصانيف عديدة، قال الذهبي: «بورك له في تصانيفه، ورزق فيها القبول التام؛ لحسن قصده، وصدق نيته». توفي بمرور الروذ من مدن خراسان سنة (٥١٦هـ). ومن تصانيفه: تفسيره المسمى: «معالم التنزيل»، و«شرح السنة»، وكتاب «التهديب في الفقه».

انظر: سيز أعلام النبلاء (١٩/٤٣٩)؛ طبقات الشافعية الكبرى، للسبكي (٤/٢١٤).

(٣) تفسير البغوي (٣/١٤٥).

(٤) الفوائد (ص ١٦٥).

(٥) انظر: لسان العرب (٥/٩٣)، مادة: (ضنك).

(٦) انظر الأقوال في معنى المعيشة الضنك في: تفسير الطبري (٩/٢٨٢)، تفسير ابن كثير (٥/٣١٦)؛ زاد المسير (٥/٢٤٤)؛ تفسير القرطبي (١١/٢٧٦)؛ البحر المحيط، لأبي حيان (٦/٢٨٦)؛ تفسير الشوكاني (٣/٥٥٣).

الثالث: شدة غيظه في النار، رواه الضحّاك عن ابن عباس، وبه قال الحسن، وقتادة، وابن زيد.

الرابع: أنها كسب الحرام؛ لأنّ الحرام وإن اتّسع فهو ضنك، رواه الضحّاك عن ابن عباس، وبه قال عكرمة.

الخامس: أنها المال الذي لا يتقي الله صاحبه فيه، رواه العوفي عن ابن عباس.

قال ابن الجوزي^(١) رحمه الله: «فخرج في مكان المعيشة ثلاثة أقوال:

أحدها: القبر، والثاني: الدنيا، والثالث: جهنّم»^(٢).

والصحيح في معنى المعيشة الضنك:

أنها عامّة في الدنيا بما يُصيب المعرض عن القرآن من الهموم والغموم والآلام، والتي هي عذاب مُعَجَّل، وفي البرزخ، وفي الآخرة؛ لإطلاق المعيشة الضنك، وعدم تقيدها، وبه قال: الرّازي^(٣)، وابن القيم^(٤)، والشّنقيطي^(٥)، والسّعدي^(٦).

قال الشّنقيطي^(٧) رحمه الله: «واختلف العلماء في المراد بهذا العيش الضيق على

(١) هو العلامة الحافظ المُفسّر: جمال الدّين (أبو الفرج) عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي الحنبلي، من نسل القاسم بن محمد بن أبي بكر الصّدّيق. كان يحضر مجلسه مئات الدّارسين، له مصنفات كثيرة بلغت: (٢٥٠) مصنفًا، ولد سنة (٥٠٨هـ)، وتوفي سنة (٥٩٧هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (٣٦٥/٢١)؛ البداية والنهاية (٢٨/١٣).

(٢) زاد المسير (٢٤٤/٥).

(٣) انظر: التفسير الكبير (١١٢/٢٢ - ١١٣).

(٤) انظر: مدارج السالكين (٤٢٢/١ - ٤٢٣)؛ الجواب الكافي (ص ١٧٦ - ١٧٧).

(٥) انظر: أضواء البيان (٥٩٥/٤). (٦) انظر: تفسير السعدي (٢٥٨/٣).

(٧) هو العلامة محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، ولد سنة (١٣٠٥هـ) في شنقيط بموريتانيا، ويرجع نسبه إلى قبيلة حمير باليمن، كان مدرّسًا بالمسجد النبوي في المدينة النبوية، ودرّس في الرياض، وعُين في هيئة كبار العلماء بها، ومن مؤلفاته: «أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن»، و«مذكرة أصول الفقه»، و«دفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب»، توفي سنة (١٣٩٣هـ).

انظر: أضواء البيان (١٩/١ - ٣٩).

أقوال متقاربة، لا يُكذَّب بعضها بعضاً. وقد قدّمنا مراراً: أَنَّ الأولى في مثل ذلك، شمول الآية لجميع الأقوال المذكورة^(١).

«فقلوبُ أهل البدع، والمُعْرِضِينَ عن القرآن، وأهل الغفلة عن الله، وأهل المعاصي: في جحيم قبل الجحيم الأكبر، وقلوبُ الأبرار في نعيم قبل النعيم الأكبر: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ [١٣] ﴿لَئِنْ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الإنفطار: ١٣ - ١٤]. هذا في دورهم الثلاث، ليس مختصاً بالدار الآخرة، وإن كان تمامه وكمال ظهوره: إنما هو في الدار الآخرة، وفي البرزخ دون ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾ [الطور: ٤٧].

وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [٧١] ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفٌ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [النمل: ٧١ - ٧٢].

وفي هذه الدار دون ما في البرزخ، ولكن يمنع من الإحساس به: الاستغراق في سكرة الشهوات، وطرح ذلك عن القلب، وعدم التفكير فيه^(٢).

المراد بالعمى:

قال الله تعالى في المُعْرِضِ عن القرآن العظيم: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤].

واختلف أهل التأويل في بيان كيفية حشر المُعْرِضِ أعمى يوم القيامة، وهل هو عمى البصيرة أم عمى البصر، على قولين:

القول الأول: إنه أعمى البصيرة، بمعنى أنه: أعمى عن الحُجَّة، فلا حُجَّة له يهتدي بها؛ لأنه ليس للناس على الله حُجَّة بعد الرُّسل. وبه قال مجاهد. ورجَّحه الطُّبري^(٣).

واستدلوا: بقوله تعالى: ﴿أَتَمِيعْ يَوْمَ تَوَفَّاكَ﴾ [مريم: ٣٨].

وقوله: ﴿أَلَقَدْ كُنْتَ فِي ظُلُمٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ﴾ [اق: ٢٢]. وقوله: ﴿وَتَرْبُفُهُمْ يَمْرُؤُونَ عَلَيْهَا حَسِيعِينَ مِنَ الَّذِينَ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرَفٍ خَفِيٍّ﴾

(١) أضواء البيان (٤/٥٩٥).

(٢) مدارج السالكين (١/٤٢٣).

(٣) انظر: تفسير الطبري (٩/٢٨٦)؛ زاد المسير (٥/٢٤٥).

[الشورى: ٤٥]. وقوله: ﴿وَرَمَا الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا﴾ [الكهف: ٥٣].

ونظائر هذا مما يُثبت لهم الرؤية في الآخرة.

القول الثاني: إنه أعمى البصر، فلا يرى شيئاً.

واستدلوا: بأن سياق الآية لا يدلُّ إلا على ذلك؛ لقوله: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾ [طه: ١٢٥]. فقد صرَّح بأن عماء هو العمى المقابل للبصر، وهو بصر العين؛ لأن الكافر في الدنيا أعمى القلب، كما دلَّت على ذلك آيات كثيرة من كتاب الله.

فإنه لما أعرض عن الذكر الذي يعث الله به ورسوله وعميت عنه بصيرته: أعمى الله بصره يوم القيامة، وتركه في العذاب، كما ترك الذكر في الدنيا، فجازاه على عمى بصيرته عمى بصره في الآخرة.

واستدلوا أيضاً بمثل قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيًَّا وَنُكَأٰ وَصْنًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

وصوب هذا القول العلامة ابن القيم^(١)، واختاره: السَّعْدِي^(٢)، والشَّنْقِيطِي^(٣)، وابن عاشور^(٤).

الجمع بين القولين:

وقد جمع العلامة ابن القيم بين القولين:

بأن هناك حشرين: أحدهما: من القبور إلى الموقف. والآخر: حشر من الموقف إلى دار المستقر.

وبين أن معنى الحشر هو: الضمُّ والجمع.

فالحشر الأول: إلى موقف القيامة، وعليه تُحمل أدلة القول الأول، فهم يسمعون ويُبصرون ويُجادلون ويتكلمون.

(١) انظر: مفتاح دار السعادة (ص ٤٦ - ٤٧).

(٢) انظر: تفسير السَّعْدِي (٣/ ٣٥٨).

(٣) انظر: أضواء البيان (٤/ ٥٩٧).

(٤) انظر: التحرير والتنوير (١٦/ ٢٠٠).

والحشر الثاني: يراد به الضم والجمع في دار المستقر. فحشر المتقين: جمعهم وضمهم في الجنة.

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَقْدًا﴾ [مريم: ٨٥].

وحشر الكافرين: جمعهم وضمهم في النار، كما قال تعالى: ﴿نَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ (٣٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَأَمْذُومٌ إِلَى صِرَاطِ الْحَبِيمِ﴾ [الصفات: ٢٢ - ٢٣]. فهذا هو الحشر الثاني، يحشرون على وجوههم عمياً وبكماً وصماً، وعليه تُحمل أدلة القول الثاني.

إذاً فلكل موقف حال يليق به، ويقتضيه عدل الرب تبارك وتعالى وحكمته، فالقرآن يصدق بعضه بعضاً: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] (١).

ويدل على ذلك أيضاً ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: «إذا أخرج من القبر خرج بصيراً، فإذا سبق إلى المحشر عمي» (٢).

ومثله قال الفراء (٣): «يقال إنه يخرج بصيراً من قبره، فيعمى في حشرة» (٤). وكذا قال الزجاج: «يخرجون بصراء في أول مرة، ويعمّون في المحشر» (٥).

فالكافر المعرض عن القرآن يكون في حشرة الأول أعمى البصيرة لا البصر. وفي حشرة الثاني: أعمى البصر والبصيرة، نسأل الله العافية.

ويشهد لذلك ما جاء عن ابن كثير رحمته الله في قوله: «ويحتمل أن يكون المراد أنه يُحشر أو يُبعث إلى النار أعمى البصر والبصيرة أيضاً» (٦).

(١) انظر: مفتاح دار السعادة (ص ٤٧ - ٤٨).

(٢) زاد المسير (٢٤٥/٥).

(٣) هو يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي (أبو زكريا) الكوفي، الثخوي، صاحب الكسائي، يُعرف بالفراء؛ لأنه كان يفري الكلام كما قيل، وهو إمام أهل الكوفة وأعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب. كان يُقال: الفراء أمير المؤمنين في النحو، له تصانيف عديدة منها: «معاني القرآن»، و«المذكر والمؤنث»، و«مشكل اللغة». توفي بطريق الحج سنة (٢٠٧هـ). انظر: تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي (١٤/١٤٩)؛ الأنساب، للسمعاني (٩/٢٤٧)؛ سير أعلام النبلاء (١٠/١١٨).

(٤) معاني القرآن، للفراء (٢/١٩٤).

(٥) التفسير الكبير (٢٢/٩٩).

(٦) تفسير ابن كثير (٥/٣٣٢).

المطلب الرابع

الظُّلْمُ الأعظم

* قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧].

المراد بالآيات:

المراد بالآيات هنا: هو القرآن العظيم، في قول عامة المفسرين^(١).
ولذلك رجع الضمير إلى هذه الآيات مُذَكِّراً في قوله: ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ أي القرآن المُعَبَّر عنه بالآيات^(٢).

فالله تبارك وتعالى يُخبر أنه لا أعظم ظلماً، ولا أكبر جُرماً، من عبد ذُكِّرَ بآيات الله تعالى وبيَّن له الحقُّ من الباطل، والهدى من الضلال، وخُوف ورُعب ورُهب، فأعرض عنها^(٣)، ولم يتذكَّر بما ذُكِّر به، ونسي ما قَدَّمَتْ يده من الكفر والمعاصي ولم يتفكَّر في عاقبتها^(٤).

فهذا أعظم ظلماً من المُعْرَض الذي لم تأتِه آيات الله ولم يُذَكَّر بها؛ لكون العاصي على بصيرة وعلم، أعظم جُرماً ممَّن ليس كذلك. ولذلك عاقبهم الله تعالى - بسبب إعراضهم عن القرآن العظيم - بأن سَدَّ عليهم أبواب الهداية، وجعل على قلوبهم أكنَّة^(٥)، وهي الأغطية المُحَكِّمة التي تمنعهم من أن يفقهوا الآيات وإن سمعوها، فليس في إمكانهم الفقه الذي يصل إلى قلوبهم، وكذلك جَعَلَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرًا^(٦)، أي: صمماً يمنعهم من وصول الآيات، ومن سماعها على وجه الانتفاع.

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٩٢/٣)؛ تفسير أبي السعود (٢٣٠/٥)؛ زاد المسير (١١٧/٥).

(٢) انظر: تفسير السفي (١٩/٣)؛ أضواء البيان (١٥٥/٤).

(٣) انظر: تفسير السعدي (١٦٧/٣). (٤) انظر: تفسير البضاوي (٥٠٦/٣).

(٥) الأكنَّة: جمع كنان، وهو الغطاء؛ لأنه يُكِنُّ الشيء، أي يَحْجُبُه.

(٦) الوقْر: ثقل السمع المانع من وصول الصوت إلى الضماخ.

انظر: التحرير والتنوير (٩٥/١٥).

فإذا كانوا بهذه الحال، فليس لهدايتهم سبيل، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَلَنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾.

ففي هذه الآية من التخويف لمن ترك الحق بعد علمه، أن يُحال بينه وبينه، ولا يتمكّن منه بعد ذلك، ما هو أعظم مُرْهَبٍ وزاجر عن ذلك^(١).

شبهة:

فإن قال قائل: إذا كانوا لا يستطيعون السَّمْعَ ولا يفقهون؛ لأنَّ الله تعالى جعل الأكنة المانعة من الفهم على قلوبهم، والوَقْرَ المانع من السَّمْعِ في آذانهم. فما وجه تعذيبهم على شيء لا يستطيعون العدول عنه والانصراف إلى غيره؟

ردُّها:

إنَّ الله تبارك وتعالى بيّن في آيات كثيرة من كتابه العظيم: أنَّ هذه الموانع التي يجعلها على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم - كالختم، والطَّبع، والغشاوة، ونحوها - إنما جعلها عليهم جزاء وفاقاً، لِمَا يادروا إليه من الكفر، وتكذيب القرآن باختيارهم، فأزاع الله قلوبهم بالطَّبع، والأكنة، ونحوها، جزاء على كفرهم.

فمن الآيات الدّالة على ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]. فهذا دليل واضح على أنَّ سبب إزاغة الله قلوبهم هو زيغهم السَّابِق. وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [المنافقون: ٣]. وقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

= * والوَقْرُ - بالفتح - الثُّقل في الأذن.

* والوَقْرُ - بالكسر - الحمل. يُقال: جاء يَحْمِلُ وَقْرَهُ، وقد أَوْقَرَ بَعِيرَهُ. وأكثر ما يستعمل الوقْرُ في حمل البَقْلِ والِحِمَارِ. انظر: مختار الصحاح (ص ٣٤٣)، مادة: (وقر).

* وقد قال الله تعالى في ثَقُلِ الأذن: ﴿وَقَدْ مَادَّانِيهِمْ وَقْرًا﴾ [الكهف: ٥٧].

* وقال في الحمل: ﴿فَلَمَّا كَلَبَتْ وَقْرًا﴾ [الذاريات: ٢]. يعني: السُّحب التي تحمل ثِقَلًا من الماء. انظر: تفسير البغوي (٢٢٧/٤)؛ أضواء البيان (١٦٨/٤).

(١) انظر: تفسير السعدي (١٦٧/٣ - ١٦٨).

فهذه الآيات وأمثالها فيها وجهان معروفان عند العلماء :

أحدهما: أنها في الذين سبق لهم في علم الله أنهم أشقياء، عياداً بالله تعالى .
الثاني: المراد أنهم كذلك ما داموا متلبسين بالكفر؛ فإن هداهم الله إلى الإيمان وأنابوا، زال ذلك المانع . وقد رجَّح الشنقيطي رحمته الله الأول^(١) .

المطلب الخامس

الوجوه العابسة

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا نُنَالُ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادِرُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ كُمُوتٌ أَمْ كُنْتُمْ كَافِرًا ۚ وَمَعَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَنْ الْمَصِيرُ﴾ [الحج: ١٧٢] .

المراد بالآيات:

قال ابن عاشور رحمته الله: «والآيات هي القرآن لا غيره من المعجزات؛ لقوله: ﴿وَإِذَا نُنَالُ عَلَيْهِمْ﴾»^(٢) .

وقد وُصفت آيات القرآن بأنها: ﴿بَيِّنَاتٍ﴾؛ لتفطيع حال مَنْ أنكرها مع وضوحها، إذ ليس فيها ما يُعذر به منكروها^(٣)، فقد تَضَمَّنَتْ: الدلائل العقلية، وبيان الأحكام^(٤) .

المراد بالمنكر:

وللمفسرين في المنكر أقوالٌ عدَّة، وهي من اختلاف التنوع لا التضاد، على النحو التالي:

١ - تعرف في وجوههم الكراهية للقرآن، قاله الكلبي^(٥) .

٢ - التجبر والترفع، قاله ابن عباس رضي الله عنهما^(٦) .

(١) انظر: أضواء البيان (٤/ ١٥٨ - ١٦١) . (٢) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٤١) .

(٣) انظر: المصدر نفسه، والصفحة نفسها . (٤) انظر: التفسير الكبير (٢٣/ ٥٩) .

(٥) انظر: المصدر نفسه، والصفحة نفسها .

(٦) انظر: تفسير الشوكاني (٣/ ٦٧٠)، التفسير الكبير (٢٣/ ٥٩) .

٣ - المنكر هنا بمعنى الإنكار، فالمعنى: أثر الإنكار من الكراهة، وتعبس الوجه^(١).

٤ - الغضب والعبوس^(٢).

٥ - الغم والحزن والكراهية^(٣).

٦ - وجوههم تتغير من سماعهم القرآن^(٤).

٧ - أنكروا أن يكون من الله تعالى، قاله مقاتل^(٥).

المراد بالسَّطْو:

السَّطْوَة: هي شدة البطش. يقال: سطا عليه، وسطا به: إذا بطش به وتناوله بالعنف والشدة^(٦).

قال الفراء في قوله: ﴿بَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ تَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾: «يعني أهل مكة، كانوا إذا سمعوا الرجل من المسلمين يتلو القرآن كادوا يبطشون به»^(٧).

فهذه الآية الكريمة تصوّر حال الكفار عند سماعهم للقرآن العظيم، فمن شدة كراحتهم لذلك ترى في وجوههم عبوساً وتقطيباً وغضباً وانفعالاً، يكاد أن يتحوّل هذا الأمر إلى الفتك بمن يقرأ عليهم القرآن^(٨).

فهم لا يُناهضون الحجّة بالحجّة، ولا يقرعون الدليل بالدليل، إنّما يلجأون - في مثل هذه الحالات - إلى العنف والبطش، عندما تعوزهم الحجّة، ويخذلهم الدليل^(٩).

قال الشوكاني^(١٠) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وهكذا ترى أهل البدع المضلة إذا سمع الواحد

(١) انظر: زاد المسير (٣٢٨/٥)؛ التحرير والتنوير (٢٤١/١٧).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (١٠٢/١٢). (٣) انظر: تفسير السمرقندي (٤٧٠/٢).

(٤) انظر: تفسير الطبري (٢٥٤/١٠). (٥) انظر: التفسير الكبير (٥٩/٢٣).

(٦) انظر: تفسير القرطبي (١٠٢/١٢)؛ زاد المسير (٣٢٨/٥).

(٧) لسان العرب (٢٦٠/٦)، مادة: (سطو). (٨) انظر: تفسير الشعراوي (٩٩٢٨/١٦).

(٩) انظر: في ظلال القرآن (٢٤٤٣/٤).

(١٠) هو الإمام محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، الفقيه المجتهد، أحد كبار =

منهم ما يتلوه العالم عليهم من آيات الكتاب العزيز، أو من السنّة الصّحيحة مخالفاً لما اعتقده من الباطل والضّلالة، رأيت في وجهه من المنكر ما لو تمكّن من أن يسطو بذلك العالم لفعل به ما لا يفعله بالمشركين، وقد رأينا وسمعنا من أهل البدع ما لا يخطط به الوصف^(١).

وهذا بخلاف حال المؤمنين الصادقين، المتقادين للكتاب والسنّة، فهم حال سماعهم للقرآن العظيم ازدادوا إيماناً مع إيمانهم، كما قال الله تعالى مادحاً لهم: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢]. نسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم.

جزاء من هجر القرآن:

قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّتُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ﴾ [الحج: ٢٧] أي: هل أخبركم بأشدّ عليكم وأكره إليكم من سماع القرآن^(٢). ﴿النَّارُ﴾ [البروج: ٥] إنها النار التي ﴿وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الحج: ٧٢] في يوم القيامة ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [الحديد: ١٥] فبئس الموضع الذي يصير إليه من هجر القرآن الكريم. وشرّ: اسم تفضيل، أصله أشر. أي: إن سألتكم عن الذي هو أشدّ شراً فاعلموا أنه النار^(٣).

مالي أراكم مغتاضين من سماع آيات الله كارهين لها، أمجرّد سماع آيات القرآن يفعل بكم هذا كلّهُ؟ فما بالكم حينما تباشرون النار في الآخرة. فالذي ينالكم من النار - التي تكادون تقتحمونها بسوء أفعالكم - أعظم ممّا ينالكم - عند تلاوة هذه الآيات - من الغضب ومن هذا الغم^(٤). واستعملت كلمة: ﴿وَعَدَهَا﴾ على سبيل الاستهزاء بهم والتّقليل من شأنهم؛

= علماء اليمن، ولد بهجرة شوكان، ونشأ بصنعاء ووُلِّي قضاءها. له مؤلفات كثيرة، أشهرها: «فتح القدير»، و«نيل الأوطار في شرح منتقى الأخبار»، و«السيّل الجزار»، و«البدر الطالع»، توفي سنة (١٢٥٠هـ).

انظر: البدر الطالع (٢/٢١٤)، الأعلام (٦/٦٩٨).

(١) تفسير الشوكاني (٣/٦٧١). (٢) انظر: زاد المسير (٥/٣٢٨).

(٣) انظر: التحرير والتنوير (١٧/٢٤٢). (٤) انظر: التفسير الكبير (٢٣/٥٩).

لأنَّ الوعد دائماً يكون في الخير، كما في قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنشاق: ٢٤]. فحين أن يسمع البشري يستشرف للخير، فيفاجئه العذاب، فيكون أنكى له.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَسْتَفِيدُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ [الكهف: ٢٩]. فإنَّ انقباض النَّفس ويأسها - بعد بواذر الانبساط - أشدُّ من العذاب ذاته^(١).

المطلب السادس

الاستكبار على القرآن

* قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ قِرْفًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [القصص: ٧].

ذكر الله تعالى في هذه الآية الكريمة أنَّ الكافر إذا تليت عليه الآيات القرآنية، ولَّى عنها وأعرض وأدبر وتصامم وما به من صمم^(٢). وقوله: ﴿وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا﴾ أي: متكبراً عن قبولها، فإعراضه إعراض استكبار، لا إعراض تفريط في الخير فحسب^(٣)، فهي لم تدخل قلبه، فضلاً أن تؤثر فيه.

وقوله: ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ «في محل نصب على الحال: أي كأنَّ ذلك المعرض المستكبر لم يسمعها، مع أنَّه قد سمعها، ولكن أشبهت حاله حال مَنْ لم يسمع»^(٤).

﴿كَأَن فِي أُذُنِهِ قِرْفًا﴾: أي: ثقلاً، فلا يسمع القرآن. ففيه مبالغة في إعراض ذلك المعرض، فهذا لا حيلة في هدايته؛ لأنه متكبر معرض.

﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾: فليس له إلاَّ العذاب المؤلم لقلبه وبدنه في الآخرة، كما تألم بسماع القرآن العظيم في الدنيا، فهذه بشارة المستكبرين المعرضين، الذين هجروا كتاب الله، فلا نَعَمَتِ البشارة^(٥).

(١) انظر: تفسير الشعراوي (١٦/٩٩٢٩). (٢) انظر: تفسير ابن كثير (٦/٣٤٩).

(٣) انظر: التحرير والتنوير (٢١/٩٢). (٤) تفسير الشوكاني (٤/٣٣٤).

(٥) انظر: تفسير السعدي (٤/١٠٤).

المطلب السابع

اللُّغُو الباطل

* قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْقَوَا فِيهِ لَأُمَلِّكُمْ قُلُوبُكُمْ﴾ [فصلت: ٢٦].

المراد بعدم سماعه:

جاءت أقوال المفسرين (في المراد بعدم سماع الكفار للقرآن) متقاربة كما يلي:

١ - لا تَتَّبِعُوا هذا القرآنَ والهُوَ عنه، قاله ابن عباس رضي الله عنهما ^(١).

٢ - لا تُطِيعُوا، يُقال: سمعتُ لك، أي أطعْتُك ^(٢).

٣ - لا تَطْمَئِنُوا أو تَرَكُونَا ^(٣).

والمقصود من ذلك كله: لا تَسْمَعُوا لقارئ هذا القرآن إذا قرأه، ولا تَصْغُوا له، ولا تَتَّبِعُوا ما فيه، وهو نتيجة لعدم السَّماع، وإن سمعتموه فلا تطيعوه، ولا تركنوا إليه.

المراد باللُّغُو فيه:

«اللُّغُو: القول الذي لا فائدة فيه، ويُسمَّى الكلام الذي لا جدوى له لغوًا» ^(٤).

ومما جاء عن المفسرين في (لغو الكافرين) في القرآن ما يلي:

١ - هو المكاء والتَّصْفِير والتَّخْلِيْط في المنطق حتى يصير لُغَوًا، قاله مجاهد ^(٥).

٢ - أَكْثَرُوا الكلامَ ليختلَطَ عليه ما يقول، قاله الضَّحَّاك ^(٦).

٣ - تشاغلوا عند قراءته برفع الأصوات بالخرافات والأشعار الفاسدة

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٣٤٠/١٥).

(٤) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٦) انظر: تفسير القرطبي (٣٤٠/١٥).

(١) انظر: تفسير الطبري (١٣٦/١٢).

(٣) انظر: التحرير والتنوير (٤٦/٢٥).

(٥) انظر: تفسير الطبري (١٣٧/١٢).

والكلمات الباطلة، حتى تخلطوا على القارئ وتشوشوا عليه، وتغلبوا على قراءته^(١). وتلك هي عادة وطبيعة الإعلام الماديّ اليوم، والذي تبنّى النزعات القديمة إزاء القرآن بما يُشبه أن يكون تطويراً للأسلحة.

أسلوب خسيس:

والمراد بالذين كفروا هنا: هم أئمة الكفر يُخاطبون عامّتهم ويوصونهم. إنها كلمة يَغُرُّون بها الجماهير، فقد علم أئمة الكفر: أن القرآن كلام الله تعالى. إذاً هو كامل في المعنى واللفظ، وأنَّ كلَّ مَنْ سمعه وقف على جزالة ألفاظه، وأحاط عقله بمعانيه، وقضى عقله بأنّه كلامٌ حقٌّ واجبُ القبول، فدبروا تدبيراً في منع الناس عن استماعه^(٢)، فاتَّخذوا قرازمهم المشين: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ﴾.

وهذا هو حال دعاة الضلال والباطل في إسكات الناطقين بالحق والحجة، فمن أساليبهم التخويف والتّهويل، والتّرهيب والتّرعيب، ولا يتركون الناس يتجادلون بالحجة البيّنة، ويتناظرون بالأدلة القاطعة؛ لأنهم يوقنون أن حجة خصومهم أنهُضُ، فهم يغالبونها بالبهتان والتّضليل.

فإذا أعيتهم الحيل ورأوا بوارق الحقّ تخفق، وخشوا أن يُعَمَّ نورها الناس، عدلوا إلى لغو الكلام، ونفخوا في أبواق اللّغو لعلّهم يغلبون بزعمهم^(٣). إنهم بفعلهم هذا يلجأون إلى وسيلة خسيّة تُنبئ عن هزيمتهم الدّاخلية، واضطرابهم النّفسيّ أمام حقائق القرآن، واعترافهم - الضّمّني الملحوظ - بعجزهم عن مواجهته، وفشلهم في محاربته.

إنهم يطلبون من الجماهير المخدوعة ألاّ تسمع لهذا القرآن، وتستغيض عن ذلك باللّغو والصّياح والصّنجيح، والتّظاهرة الإعلامية؛ لعلهم يُعْطُونَ نور الشّمس برقعة منديل.. وهيّات هيّات!!^(٤).

فهذه حال هؤلاء الجهلة من الكفار، ومن سلك مسلكهم عند سماع القرآن العظيم.

(١) انظر: التفسير الكبير (١٠٣/٢٧)؛ التحرير والتنوير (٤٦/٢٥).

(٢) انظر: التفسير الكبير (١٠٣/٢٧). (٣) انظر: التحرير والتنوير (٤٥/٢٥).

(٤) انظر: مفاتيح للتعامل مع القرآن، د. صلاح عبد الفتاح الخالدي (ص ٢٥).

موقف المؤمنين :

وقد أمر الله عباده المؤمنين بخلاف هذا الفعل المشين، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَكُمْ تَرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

وأهل الكفر حين فعلوا ما فعلوا غاب عن أذهانهم أن القرآن منتصر. ومن تدبر العواقب أيقن - يقيناً لا شك فيه - أن كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى. فلمن كانت الغلبة بعد قولهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَقْلِقُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]؟^(١)

المطلب الثامن

التقسيم الجائر

* قوله تعالى: ﴿كَمَا أُنزِلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾ ^(٢) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿[الحجر: ٩٠ - ٩١].

المراد بالمقتسمين :

اختلف أهل التأويل في المراد بالمقتسمين على عدة أقوال، أوصلها القرطبي^(٢) إلى سبعة، وأوردها في تفسيره^(٣). قال الشنقيطي رحمه الله: «في المراد بالمقتسمين أقوالاً للعلماء معروفة، وكل واحد منها يشهد له قرآن؛ إلا أن في الآية الكريمة قرينة تضعف بعض تلك الأقوال»^(٤).

والقرينة - التي ذكرها الشنقيطي في الآية الكريمة - تقوي قولين اثنين، من هذه الأقوال، هما الأقرب إلى الصواب، وهما على النحو الآتي:

- (١) انظر: تفسير ابن كثير (١٧٣/٧)؛ حديث القرآن عن القرآن، لمحمد الراوي (ص ٣٦٠).
- (٢) هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن قُرح القرطبي، الأنصاري، الخزرجي، المالكي، من العلماء الورعين الزاهدين في الدنيا المشغولين بالآخرة. كتابه: «الجامع لأحكام القرآن» من أجل التفاسير وأعظمها نفعاً، ومن كتبه المشهورة: «التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة». توفي سنة (٦٧١هـ). انظر: طبقات المفسرين (٢/٦٩).
- (٣) انظر: تفسير القرطبي (٦٣/١٠). (٤) أضواء البيان (٣/١٧٨).

القول الأول: إنَّ المراد بالمقتسمين: اليهود والنصارى، وإنَّما وُصِفوا بأنهم مقتسمون؛ لأنهم اقتسموا كتبهم، فأمنوا ببعضها وكفروا ببعضها.

ويدلُّ لذلك: قوله تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥].

بل اعترفوا أنفسهم بهذا: ﴿وَيَقُولُونَ نُوْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ [النساء: ١٥٠].

وقيل: وُصِفوا بذلك؛ لأنهم اقتسموا القرآن، فأمنوا ببعضه وكفروا ببعضه^(١).

القول الثاني: إنَّ المراد بالمقتسمين: جماعة من كفار مكة اقتسموا القرآن بأقوالهم الكاذبة، فقال بعضهم: هو شعر، وقال بعضهم: هو سحر، وقال بعضهم: كهانة، وقال بعضهم: أساطير الأولين، وقال بعضهم: اختلقه محمد ﷺ.

وهذا القول تدلُّ له الآيات الدالة على أنَّهم قالوا في القرآن العظيم تلك الأقوال المفتراة الكاذبة، من مثل قوله تعالى: ﴿فَقَالَ إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ﴾ [المدثر: ٢٤]. وقوله: ﴿إِن هَذَا إِلَّا آخِلَاقٌ﴾ [ص: ٧]. وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنْزِلَ لَكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [النحل: ٢٤]. وقوله: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥]. وقوله: ﴿وَمَا هُوَ يَقُولُ شَاعِرٌ قَلِيلًا مَّا تُوْمَنُونَ ۖ وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ﴾ [الحاقة: ٤١ - ٤٢]. والآيات في هذا الباب كثيرة.

ومقتضى كلام العلامة الشنقيطي رحمه الله: إنَّ القرينة في الآية الكريمة تؤيد القول الثاني، ولا تُنافي القول الأول؛ لأنَّ قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ [الحجر: ٩١]. أظهر في القول الثاني؛ لجعلهم له أعضاء متفرقة بحسب اختلاف أقوالهم الكاذبة، كقولهم: سحر، شعر، كهانة، أساطير الأولين، وهكذا.

(١) انظر: تفسير الطبري (٧٨/٨ - ٧٩)؛ زاد المسير (٣/١٨٨/٤).

وكذلك بالنسبة للقول الأول - على أنهم أهل الكتاب: فالمراد بالقرآن: كتبهم التي جزؤوها فأمنوا ببعضها وكفروا ببعضها. وسميت قرآناً؛ لأنها كتب مقروءة فيصدق هذا الوصف على التوراة والإنجيل^(١). أو المراد بذلك: القرآن نفسه؛ لأنهم آمنوا بما وافق هواهم منه، وكفروا بغيره^(٢).

وجمهور المفسرين على أن المراد بالقرآن: هو الذي أنزل على نبينا محمد ﷺ، وليس المقصود به كتب المتقدمين قبلنا^(٣).

المراد ببعضين:

وقد ذكر الله تعالى صفة المقتسمين في الآية التالية بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ [الحجر: ٩١].

* وفي ﴿عِضِينَ﴾ قولان للمفسرين:

القول الأول: هم الذين جعلوا القرآن قرعاً متفرقة.

قال ابن عباس في قوله: ﴿جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ قال: «فرقاً»^(٤). وقال قتادة^(٥): «عضّوها كتاب الله: زعم بعضهم أنه سحر، وزعم بعضهم أنه سحر، وزعم بعضهم أنه كهانة، وزعم بعضهم أنه أساطير الأولين»^(٦). وعلى هذا القول: تكون ﴿عِضِينَ﴾ جمع: عضو. وهو مشتق من قولك: عضيت الشيء عضية. إذا فرقته. كما قال رؤبة بن العجاج^(٧):

(١) انظر: التحرير والتنوير (٦٨/٢٣). (٢) انظر: أضواء البيان (٣/ ١٧٨ - ١٧٩).

(٣) انظر: زاد المسير (٤/ ٣١٨). (٤) تفسير الطبري (٨/ ٨٢).

(٥) هو التابعي الجليل (أبو الخطاب) قتادة بن دعامة بن قنادة بن عزيز السدوسي، البصري، الضرير الأكمه، المفسر، كان رأساً في العربية واللغة وأيام العرب والنسب، كان أحفظ الناس، لا يسمع شيئاً إلا حفظه، وله تفسير، توفي بواسط في الطاعون سنة (١١٧هـ) انظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي (١/ ١٢٢)؛ طبقات المفسرين (٢/ ٤٧).

(٦) تفسير الطبري (٨/ ٨٢).

(٧) هو رؤية بن عبد الله المعجاج بن رؤية التميمي السعدي، أبو النحاف، أو أبو محمداً، راجز، من الفصحاء المشهورين، من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية. كان أكثر مقامه بالبصرة، وأخذ عنه أعيان أهل اللغة، وكانوا يحتجون بشعره، ويقولون بإمامته في =

وليس دينُ الله بالمُعْضَى^(١)، أي: ليس الدينُ مجزءاً مُفْرَقاً. القول الثاني: المراد بقوله ﴿عِزِينَ﴾: السُّحْر. ومفردُها: عَضَةٌ: وهي السُّحْر.

والعَضَةُ: السُّحْر بلسان قريش، ويُقال للسَّاحرة: العاضهة. فالمعنى: جعلوا القرآن سحراً، كقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ﴾ [المدثر: ٢٤].

وقوله: ﴿قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾ [القصص: ٤٨]، إلى غير ذلك من الآيات. وقد رجَّح الإمام الطبري رحمته الله القول الأول. فقال: «والصَّواب من القول في ذلك أن يُقال: إن الله تعالى ذكَّره، أمر نبيه ﷺ أن يُعلِّم قوماً عَضُّهُوا القرآن: أنه لهم نذير من عقوبة تنزل بهم؛ بِعَضِّهِمْ إِيَّاهُ، مثل ما أنزل بالمقتسمين^(٢)، وكان عَضُّهُمُ إِيَّاهُ: قَدَفُهُمُوهُ بِالْبَاطِلِ، وقيل لهم إنه شعر وسحر، وما أشبه ذلك»^(٣).

وعلى كُلِّ حال: فإن هذه الآية الكريمة تشمل كُلَّ مَنْ اقتسم كتابَ الله، بتكذيب بعضه وتصديق بعضه، وارْتَكَبَ ما نهاه الله عنه. فحالُه هذه تشبه حال اليهود والنصارى الذين قَسَمُوا كتبهم المنزَّلة عليهم أقساماً، وجزَّؤوها أجزاءً، فأَمَنُوا ببعضِ منها وكفروا ببعض؛ اتِّبَاعاً لشهواتهم وأهوائهم.

= اللُّغَةُ، مات في البادية، سنة (١٤٥هـ)، وقد أَسَنَ. وفي الوفيات: «لَمَّا مات رؤية قال الخليل: دَفَنَّا الشُّعْرَ والفَصَاحَةَ واللُّغَةَ». انظر: وفيات الأعيان، لابن خُلِّكان (١/٢٣٤ - ١٣٥)؛ معجم الشعراء، للمرزباني (ص ١٢١).

(١) ديوانه: (٨١) من أرجوزة يمدح بها تيمياً وسعداً ونفسه، مطلعها:

دَايَنْتُ أُرُوِي وَالذُّيُونُ تُقْضَى

وانظر: تفسير الطبري (٨٣/٨)؛ زاد المسير (٣١٩/٤)؛ لسان العرب (٩/٢٦٤)، مادة: (عضا).

(٢) وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ ﴿٨٨﴾ كَمَا أُنْزِلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٨٩﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِزِينَ﴾ [الحجر: ٨٩ - ٩١].

(٣) تفسير الطبري (٨٤/٨).

وهذا ينصرف إلى المسلمين الذين يُجزّئون القرآن ويقسّمونه، يأخذون منه حُكماً ويتركون أحكاماً، تبعاً لمصالحهم الدنيوية، فهذا من أعظم أنواع هجر القرآن الكريم^(١).



(١) انظر: مفاتيح للتعامل مع القرآن (ص ٢٤).

المبحث الثاني

الأحاديث الدالة على ذم هجر القرآن

وفيه سبعة مطالب:

المطلب الأول: تمجُّل أجر القرآن.

المطلب الثاني: عدم الانتفاع بقراءة القرآن.

المطلب الثالث: القرآن بين الجدال فيه والجدال عنه.

المطلب الرابع: اتباع المتشابه وترك المُحكم.

المطلب الخامس: ترك قراءة القرآن في البيوت.

المطلب السادس: أحوال المنافق مع القرآن.

المطلب السابع: ترك التَّغْنِي بالقرآن.

الأحاديث الدالة على ذم هجر القرآن

من صور هجر القرآن:

إنَّ هجر القرآن الكريم له مظاهر عدَّة، منها: التَّأْكُلُ به، واستعجال ثوابه في الدُّنيا دون الآخرة، ومنها المباهاة بتلاوته وحفظه، وعدم التَّعَبُّدِ لله تعالى بهذه التَّلاوة وهذا الحفظ، ومنها الاكتفاء بتلاوة القرآن دون فهمه وتعلُّقه والعمل به، فهي قراءة لا تتجاوز الحلق والحناجر.

والجدالُ والمرء في القرآن الكريم من أعظم مظاهر هجره؛ لأنَّ مُؤدَّاه إلى الكفر، وتفريق صفِّ المؤمنين، وتشكيكهم في أصل دينهم وأساسه كتاب الله تعالى.

ومن أبرز مظاهر هجر القرآن كذلك: اتِّباع المتشابه وترك المُحْكَم بقصد فتنة النَّاس وصدِّهم عن دينهم، والتَّلْبِيس عليهم في ذلك.

ولقد جاءت أحاديثُ كثيرة عن المصطفى ﷺ تتحدَّث عن مظاهر متنوِّعة لهجر القرآن العظيم، وسيكون الكلام عن بعض الأحاديث النبوية المباركة التي بيَّنت أنواعاً من مظاهر هجر القرآن تحذيراً منها وذمّاً لها، وهي على النِّحو التالي:

المطلب الأول

تَعْجُلْ أَجْرَ الْقُرْآنِ

إِنَّ كَثِيرًا مِنْ قُرَّاءِ الْقُرْآنِ وَحَفَاطِهِ لَا يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ إِلَّا لَجَمْعِ حَطَامِ الدُّنْيَا، فَيَتْلُونَهُ فِي الْمُنَاسِبَاتِ الْمَخْتَلِفَةِ؛ كَالْحَفَلَاتِ وَالْمَأْتَمِّ وَلِيَالِي رَمَضَانَ، وَبَعْضُهُمْ يَتَعَلَّمُ الْقُرْآنَ لَأَجْلِ الْمَعِيشَةِ، وَلَا أَجَلَ أَنْ يَرِغَبَ فِيهِ النَّاسُ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِ، وَلَوْ سَأَلْتُ الْوَاحِدَ مِنْهُمْ عَنْ مَعْنَى كَلِمَةٍ أَوْ آيَةٍ لَوَقَّفَ عَاجِزًا مَذْهُوشًا مِنْ هَذَا السُّؤَالِ، وَهَذَا مِنْ أْبْرَزِ أَنْوَاعِ هَجَرِ الْقُرْآنِ، فَإِنَّ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ أَنْزَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِلتَّدْبِيرِ وَالتَّعْقُلِ ثُمَّ لِلْعَمَلِ بِهِ، يَقُولُ الْمَوْلَى تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿كَتَبْنَا الْقُرْآنَ لِتُدْرِكُ الْأَعْيُنَ وَيُنْذِرَ لِقَوْمٍ كَانُوا يُصْغَوْنَ﴾ [ص: ٢٩].

١ - وقد كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَحْتَضِرُ أَصْحَابَهُ عَلَى إِخْلَاصِ النِّيَّةِ لِلَّهِ تَعَالَى فِي تَعَلُّمِ الْقُرْآنِ وَتَعْلِيمِهِ، وَيَحْذَرُهُمْ مِنْ اسْتَعْجَالِ الْأَجْرِ فِي الدُّنْيَا مِنْ مَالٍ أَوْ جَاهٍ أَوْ مَنْصَبٍ وَعَدَمِ احْتِسَابِ ذَلِكَ فِي الْآخِرَةِ:

فَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا، وَنَحْنُ نَقْتَرِي^(١) فَقَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ، كِتَابُ اللَّهِ وَاحِدٌ، وَفِيكُمْ الْأَحْمَرُ وَفِيكُمْ الْأَبْيَضُ^(٢) وَفِيكُمْ الْأَسْوَدُ^(٣)، أَفَرُؤُهُ قَبْلَ أَنْ يَقْرَأَهُ أَقْوَامٌ يُقِيمُونَهُ كَمَا يَقُومُ السَّهْمُ^(٤) يَتَعَجَّلُ أَجْرَهُ وَلَا يَتَأَجَّلُهُ^(٥)»^(٦).

(١) قوله: «ونحن نقترئ» أي: نحن نقرأ القرآن، من باب الافتعال من القراءة.

انظر: عون المعبود شرح سنن أبي داود (٤٢/٣).

(٢) قوله: «وفيكُم الأحمر وفيكُم الأبيض» كناية عن العجم؛ لأن الغالب على ألوانهم البياض والحمر.

(٣) قوله: «وفيكُم الأسود» كناية عن العرب؛ لأن الغالب على ألوانهم الأدم، والأدم: قريبة من السواد.

(٤) قوله: «يقيمونه كما يقوم السهم» أي: يحسنون النطق به.

(٥) قوله: «يتعجل أجره ولا يتأجله» أي: يطلب بذلك أجر الدنيا من مال وجاه ومنصب، ولا يطلب به أجر الآخرة.

انظر: جامع الأصول، لابن الأثير (٢/٤٥٠ - ٤٥١).

(٦) رواه أبو داود، كتاب الصلاة، باب: ما يُجزئ الأمي والأعجمي من القراءة (١/٢٢٠) =

٢ - وكان النبي ﷺ يؤكد دوماً على ابتغاء وجه الله تعالى في تعلُّم القرآن وتعليمه، ويحذّر من ضد ذلك:

فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، قال: دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا فِيهِ قَوْمٌ يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ، قَالَ: «افْرُؤُوا الْقُرْآنَ، وَابْتَغُوا بِهِ اللَّهَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ قَوْمٌ يَقِيمُونَهُ إِقَامَةَ الْقَذْحِ، يَتَمَجَّلُونَهُ وَلَا يَتَأَجَّلُونَهُ»^(١).

فقد أخبر النبي ﷺ عن مجيء أقوام بعده يُصلحون ألفاظ القرآن وكلماته ويتكلفون في مراعاة مخارجه وصفاته، كما يُقام القَذْح - وهو السَّهْم قبل أن يُعمل له ريشٌ ولا نُضْلٌ - والمعنى: أنهم يُبالغون في عمل القراءة كمال المبالغة؛ لأجل الرياء والسُّمعة والمباهاة والشُّهرة.

فهؤلاء تعجَّلوا ثواب قراءتهم في الدنيا ولم يتأجَّلوه بطلب الأجر في الآخرة، إنهم بفعلهم يؤثرون العاجلة على الآجلة ويتأكَّلون بكتاب الله تعالى^(٢)، وهذا من أعظم أنواع هجر القرآن الكريم، فبئس ما يصنعون.

٣ - وربما حثَّ النبي ﷺ أصحابه الكرام رضي الله عنهم على طلب الجنة جزاءً لتعلُّمهم القرآن، وحذَّره من إرادة الدنيا في ذلك، كماهاة النَّاسِ والتَّأْكُلُ به:

فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «تَعَلَّمُوا الْقُرْآنَ، وَاسْأَلُوا اللَّهَ بِهِ الْجَنَّةَ، قَبْلَ أَنْ يَتَعَلَّمَهُ قَوْمٌ، يَسْأَلُونَ بِهِ الدُّنْيَا، فَإِنَّ الْقُرْآنَ يَتَعَلَّمُهُ ثَلَاثَةٌ: وَجُلُّ يُبَاهِي بِهِ، وَرَجُلٌ يَسْتَأْكِلُ بِهِ، وَرَجُلٌ يَقْرَأُ اللَّهَ»^(٣).

٤ - وكان ﷺ يحثُّهم أيضاً على سؤال الله تعالى بالقرآن، وعدم سؤال النَّاسِ شيئاً بقراءة القرآن:

= (ح ٨٣١). وقال الألباني في صحيح سنن أبي داود (١/١٥٧) (ح ٧٤١): «حسن صحيح».

(١) رواه أحمد في «المسند» (٣/٣٥٧) (ح ١٤٨٩٨). وقال محققو المسند (٢٣/١٤٤) (ح ١٤٨٥٥): «حديث صحيح، وهذا إسناد رجاله ثقات غير أسامة بن زيد، فحسن الحديث». وحسنه الألباني في «صحيح الجامع»: (١/٢٥٨) (ح ١١٦٧).

(٢) انظر: عون المعبود شرح سنن أبي داود (٣/٤٢).

(٣) رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن»، باب: القارئ يستأكل بالقرآن (ص ٢٠٦)، وأورده الألباني في «السلسلة الصحيحة»: (١/١١٨ - ١٢٩) (ح ٢٥٨).

وقال: «وللحديث شواهد أخرى تؤيد صحته عن جماعة من الصحابة».

فعن عمران بن حصين رضي الله عنه، أَنَّهُ مَرَّ عَلَى قَارِئٍ يَقْرَأُ^(١)، ثُمَّ سَأَلَ^(٢) قَاسْتَرَجَعَ^(٣)، ثُمَّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَلَيْسَ أَلَاهُ إِلَّا بِهِ، فَإِنَّهُ سَيَجِيءُ أَقْوَامٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ يَسْأَلُونَ بِهِ النَّاسَ»^(٤).

بَيَّنَ الْمُبَارَكْفُورِيُّ^(٥) رحمته الله مَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ: «مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَلَيْسَ أَلَاهُ بِهِ» قَالًا: «أَيُّ: فَلْيُطْلَبْ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِالْقُرْآنِ مَا شَاءَ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

أَوْ الْمُرَادُ أَنَّهُ إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ رَحِمَهُ فَلْيَسْأَلْهَا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، أَوْ بِآيَةٍ عَقُوبَةٍ فَلْيَتَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنْهَا.

وَأَمَّا أَنْ يَدْعُو اللَّهَ عَقِيبَ الْقِرَاءَةِ بِالْأَدْعِيَةِ الْمَأْثُورَةِ، وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الدُّعَاءُ فِي أَمْرِ الْآخِرَةِ، وَإِصْلَاحُ الْمُسْلِمِينَ فِي مَعَاشِهِمْ وَمَعَادِهِمْ»^(٦).

وَالْأَحَادِيثُ السَّابِقَةُ تَحْمِلُ فِي ثَنَائِهَا ذِمًّا لِهَذِهِ الطَّائِفَةِ مِنَ النَّاسِ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ الْقُرْآنَ؛ لِلتَّكْسُّبِ، وَالشُّهْرَةِ، وَطَلَبِ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ.

(١) أَيُّ: يقرأ القرآن.

(٢) أَيُّ: طَلَبُ الْقَارِئِ مِنَ النَّاسِ شَيْئًا مِنَ الرُّزْقِ لِقِرَاءَتِهِ الْقُرْآنِ.

(٣) أَيُّ: قَالَ عِمْرَانُ رضي الله عنه: «إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ» [البقرة: ١٥٦]؛ لِابْتِلَاءِ الْقَارِئِ بِهَذِهِ الْمَصِيبَةِ، وَهِيَ سُؤَالُ النَّاسِ بِالْقُرْآنِ، أَوْ لِابْتِلَاءِ عِمْرَانَ رضي الله عنه بِمُشَاهَدَةِ هَذِهِ الْحَالَةِ الشَّنِيعَةِ، وَهِيَ مِنْ أَعْظَمِ الْمَصَائِبِ.

انظر: تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي، للمباركفوري (٢٣٥/٨).

(٤) رواه الترمذي، كتاب فضائل القرآن، باب: ما جاء في تعليم القرآن (١٧٩/٥) (ح ٢٩١٧). وقال: «حديث حسن». وحسنه الألباني أيضاً في «صحيح سنن الترمذي»: (١٠/٣) (ح ٢٣٣٠).

(٥) هو محمد بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم بهادر المباركفوري، مُحَدِّثٌ وَلَدَ بِقَرْيَةِ مَبَارَكْفُورٍ - مِنْ تَوَابِعِ أَعْظَمِ كُدَّةٍ - بِالْهِنْدِ سَنَةَ (١٢٨٣هـ)، وَقَرَأَ بِالْعَرَبِيَّةِ وَبِالْفَارْسِيَّةِ وَبِالْأُرْدِيَّةِ، وَرَحَلَ إِلَى الْبِلَادِ الْقَرْيَةِ مِنْهُ، وَقَرَأَ عَلَى جَمَاعَةٍ، كَانَ وَرَعًا، إِمَامًا فِي السُّنَّةِ، أَوْذَى فِي اللَّهِ كَثِيرًا فَصِيرًا، وَقَدْ أَسَّسَ عِدَّةَ مَكَاوِمَ، دَرَّسَ فِيهَا بِنَفْسِهِ، ثُمَّ اعْتَزَلَ فِي بَيْتِهِ، وَانْقَطَعَ لِلتَّأَلِيفِ، وَانْتَفَعَ بِهِ خَلْقٌ كَثِيرٌ. وَمِنْ آثَارِهِ: «تَحْفَةُ الْأَحُوذِيِّ فِي شَرْحِ جَامِعِ التِّرْمِذِيِّ»، وَغَيْرِهِ مِنَ الْمَوْلُفَاتِ. تَوَفَّى فِي مَوْطِنِهِ مَبَارَكْفُورٍ سَنَةَ (١٣٥٣هـ).

انظر: معجم المؤلفين (٣/٣٩٤). راجع ترجمته بتوسع في: مقدمة تحفة الأحوذى (ص ٦١٥ - ٦٣٤).

(٦) تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي (٢٣٥/٨).

المطلب الثاني

عدم الانتفاع بقراءة القرآن

١ - حذر النبي ﷺ أصحابه من أفعال طائفة تأتي من بعدهم يقرؤون القرآن، غير أن القراءة لا تتعدى حناجرهم، وتبقى في حيز الأصوات بلا عمل فقال: «يُخْرَجُ»^(١) في هذه الأمة - ولم يقل منها - قَوْمٌ تَحْقِرُونَ صَلَاتَكُمْ مَعَ صَلَاتِهِمْ، يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حُلُوقَهُمْ، أَوْ حَنَاجِرَهُمْ^(٢)، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ^(٣).

والمراد بإخبار النبي ﷺ عن هؤلاء أن قراءتهم لا تجاوز حُلُوقَهُمْ أَوْ حَنَاجِرَهُمْ:

قيل: إن قراءتهم للقرآن لا يرفعها الله تعالى ولا يقبلها، بدليل قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]. فأخبر الله تعالى أن العمل الصالح الموافق للقول الطيب، هو الذي يرفع القول الطيب^(٤).

وقيل: المراد أنهم لا يعملون بالقرآن فلا يُثَابُونَ على قراءتهم، فلا حظ لهم من القرآن إِلَّا سَرَدَهُ^(٥).

ولذلك قال النووي رحمه الله: «ليس حظهم من القرآن إِلَّا مروره على اللسان، فلا يجاوز تراقيهم ليصل قلوبهم، وليس ذلك هو المطلوب، بل المطلوب تعقله وتدبره بوقوعه في القلب»^(٦). والتعقل والتدبر يقود إلى العمل.

(١) أجمع أهل العلم: على أن هؤلاء هم طائفة الخوارج الذين قاتلهم علي رضي الله عنه، وذكر بعضهم: أنهم بهذا اللفظ شُئوا الخوارج.

انظر: تنوير الحوالك شرح موطأ الإمام مالك، للسيوطي (١/١٦٢).

(٢) الحناجر: جمع حنجرة، وهي آخر الحلق مما يلي الفم.

(٣) رواه البخاري، كتاب استنابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب: قتل الخوارج والملحدين بعد إقامة الحجة عليهم (٤/٢١٦٤) (ج ٦٩٣).

(٤) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري (١٢/٢٩٩).

(٥) انظر: تنوير الحوالك (١/١٦٢). (٦) صحيح مسلم بشرح النووي (٦/١٠٥).

فرسول الله ﷺ يدعو الأمة إلى العمل بالقرآن بعد قراءته وفهمه، لا إلى الاقتصار على القراءة فحسب، فيفعلون كما فعل الخوارج، وكما فعل بنو إسرائيل من قبل، قال الله تعالى عنهم: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَتْلُمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَنْظُنُونَ﴾ [البقرة: ٧٨]. «والأمانِي: جَمْعُ أُمِّيَّةٍ وهي التلاوة»^(١).

وأكثر المسلمين اليوم - مع الأسف - لا حظ لهم من القرآن إلا تلاوته، وهذا من هجر القرآن الكريم ولا ريب.

٢ - وقد أكَّد النبي ﷺ في أكثر من مناسبة على أَنَّ السَّبَبَ الرَّئِيسَ في سرعة خروج هؤلاء الخوارج من الدِّين: هو عدم فقههم القرآن من جهة، وتركهم العمل بأوامره والنهي عن زواجره من جهة أخرى، ويحسبون أنهم على شيء؛ بسبب كثرة أعمالهم التي يعملونها، مع عدم ضبطها بضابط الشرع والحكمة والفقه في الدِّين، فكانهم لم يتفهموا بقرائتهم للقرآن، وبهذه الأعمال الكثيرة.

فَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «يَخْرُجُ فِيكُمْ قَوْمٌ تَخْفِرُونَ صَلَاتَكُمْ مَعَ صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَكُمْ مَعَ صِيَامِهِمْ، وَحَمَلَكُمْ مَعَ حَمَلِهِمْ، وَيَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ^(٢) كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ^(٣)، يَنْظُرُ فِي النَّصْلِ فَلَا يَرَى شَيْئًا، وَيَنْظُرُ فِي الْقِدْحِ^(٤) فَلَا يَرَى شَيْئًا، وَيَنْظُرُ فِي الرَّيشِ فَلَا يَرَى شَيْئًا، وَيَتَمَارَى فِي الْفُوقِ^(٥)»^(٦).

والشَّاهِدُ من الحديث: «إِنَّ هَؤُلَاءِ يَخْرُجُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ بَغْتَةً كَخُرُوجِ السَّهْمِ إِذَا رَمَاهُ رَامٌ قَوِيٌّ السَّاعِدُ، فَأَصَابَ مَا رَمَاهُ، فَنَفَذَ مِنْهُ بِسُرْعَةٍ، بِحَيْثُ لَا يَتَعَلَّقُ بِالسَّهْمِ، وَلَا بِشَيْءٍ مِنْهُ مِنَ الْمَرْمَى شَيْءٌ، فَإِذَا التَّمَسَ الرَّامِي سَهْمَهُ لَمْ يَجِدْهُ عُلِقَ بِشَيْءٍ مِنَ الدَّمِ وَلَا غَيْرِهِ»^(٧).

(١) تفسير القرطبي (٦/٢).

(٢) المروق: هو الخروج، وقيل: هو الخروج السريع.

(٣) الرَّمِيَّة: هي الطَّيْرَةُ مِنَ الصَّيْدِ.

(٤) الْقِدْحُ: هو خشب السَّهْمِ.

(٥) (يتماهى في الفوق): الفوق: موضع الوتر من السَّهْمِ. والمراد: يتشكك هل علق به شيء من الدَّمِ.

(٦) رواه مسلم، كتاب الزُّكَاة، بَاب: التَّحْرِيطُ عَلَى قَتْلِ الْخَوَارِجِ (٧٤٨/٢) (ح ١٠٦٦).

(٧) تنوير الحوالك (١/١٦٢).

وهو تمثيل بالغ الوضوح منه ﷺ - الذي أوتي جوامع الكلم واختصر له الكلام اختصاراً - لحال مَنْ هَجَرَ تدبُّر القرآن والعمل به، ولم تنفَعه قراءة القرآن، ولو قرأه ليلَ نهار، نسأل الله العفو والعافية.

المطلب الثالث

القرآن بَيِّنَ الجِدال فيه والجِدال عنه

الجِدال والمراء في القرآن الكريم من أعظم مظاهر هجره، بل ربَّما أدَّى ذلك إلى الكفر - عياداً بالله تعالى - كما في قوله تعالى: ﴿مَا يُجِدِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [غافر: ٤].

فالمراد بآيات الله: هي القرآن. والمجادلة المذمومة: هي الطَّعن فيه، واستعمال المقدمات الباطلة للتوصل إلى دَخْضه وإبطاله.

قال أبو السعود^(١) رحمه الله عند تفسيرها: ﴿مَا يُجِدِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ بالطَّعن فيها واستعمال المقدمات الباطلة لإدحاض الحق. كقوله تعالى: ﴿وَحَدِّثُوا بِالْبَطْلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ [غافر: ٥]. ﴿إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بها، وأمَّا المذنب آمنوا فلا يخطر ببالهم شائبة شبهة منها، فضلاً عن الطَّعن فيها^(٢).

ولذلك نجد أن النبي ﷺ كان يُحذَر من الجِدال والمراء في القرآن العظيم، ويبيِّن ﷺ في غير ما حديث أن ذلك يُؤدِّي إلى الكفر؛ لأنَّه سبيلٌ إلى تفرقة المؤمنين، والتشكيك في أصل دينهم - كتاب الله تعالى - وصَدَّ الناس عن سبيل الله تعالى.

وفي ذلك عِدَّةُ أحاديث، وهي على النحو التالي:

١ - عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «الجِدالُ في

(١) هو محمد بن محمد بن مصطفى العمادي، ولد في قرية قرب القسطنطينية سنة (٨٩٣هـ). طلب العلم على جَلَّة من العلماء منهم والده، واشتهر في تركيب ودُّرس في مذاكرتها، وولي القضاء ببغداد وغيرها، ثم تولَّى منصب الإفتاء نحو ثلاثين سنة، وله عِدَّة مصنفات أشهرها: تفسيره المسمَّى «إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم»، توفي بالقسطنطينية سنة (٩٨٢هـ). انظر: وفيات الأعيان (٢/٤٣٨).

(٢) تفسير أبي السعود (٧/٢٦٦).

القرآن كُفِّرَ^(١).

قال ابن الأثير^(٢) رحمه الله: «الجدل: مُقَابَلَةُ الْحُجَّةِ بِالْحُجَّةِ. وَالْمُجَادَلَةُ: الْمُنَاطَرَةُ وَالْمُخَاصَمَةُ. وَالْمُرَادُ بِهِ فِي الْحَدِيثِ: الْجِدْلُ عَلَى الْبَاطِلِ، وَطَلِبُ الْمَغَالِبَةِ بِهِ. فَأَمَّا الْجِدْلُ لِإِظْهَارِ الْحَقِّ فَإِنَّ ذَلِكَ مَحْمُودٌ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِيُخْذِلَهُمْ﴾ بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ» [النحل: ١٢٥]»^(٣).

إِذَا هُنَاكَ تَوَعُّدٌ مِنَ الْجِدَالِ: جِدَالٌ مَحْمُودٌ، وَجِدَالٌ مَذْمُومٌ وَمُنْتَهَى عَنْهُ شَرْعاً.

فَالْتَنَازُعُ فِي الْأَحْكَامِ بِقَصْدِ إِظْهَارِ الْحَقِّ وَالتَّوَصُّلِ إِلَى الصَّوَابِ فِي الْقَوْلِ جَائِزٌ إِجْمَاعاً.

إِنَّمَا الْمُنْتَهَى عَنْهُ فِي الْحَدِيثِ: هُوَ الْجِدَالُ الَّذِي يُؤَدِّي إِلَى الْمِرَاءِ وَالْوُقُوعِ فِي الشَّكِّ، فَهَذَا جِدَالٌ لَا يَرْجِعُ إِلَى عِلْمٍ، إِنَّمَا مَنَاشَأُ الْهَوَى أَوْ الْجَهْلِ أَوْ سُوءِ الطَّوْيَةِ، وَلَا دَلِيلَ عَلَيْهِ بَلْ الْأَدْلَةُ تَمْنَعُ وَتَحْذَرُ مِنْهُ، فَهَذَا قَدْ يُؤَدِّي - عِيَاذاً بِاللَّهِ - إِلَى الْكُفْرِ^(٤).

٢ - عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَا تُجَادِلُوا فِي الْقُرْآنِ؛ فَإِنَّ جِدَالَ فِيهِ كُفْرٌ»^(٥).

(١) رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي «الْمُسْتَدْرَكِ»، كِتَابُ التَّفْسِيرِ (٢/٢٤٣) (ح ٢٨٨٣) وَقَالَ: «صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ وَلَمْ يَخْرُجْهُ» وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ الْجَامِعِ» (٥٩٦/١) (ح ٣١٠٦).

(٢) هُوَ الْمُبَارَكُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْكَرِيمِ الشَّيْبَانِيُّ الْجَزْرِيُّ (مَجْدُ الدِّينِ) أَبُو السَّعَادَاتِ، كَانَ فَقِيهاً مُحَدِّثاً أَدِيباً نَحْوِيًّا، لَهُ تَصَانِيفٌ عَدِيدَةٌ مِنْهَا: «النِّهَايَةُ»، وَ«جَامِعُ الْأَصُولِ فِي أَحَادِيثِ الرَّسُولِ»، وَ«الشَّافِي فِي شَرْحِ مَسْنَدِ الشَّافِعِيِّ»، وَ«الْمَصْطَفَى الْمُخْتَارُ فِي الْأَدْعِيَةِ وَالْأَذْكَارِ»، وَغَيْرُهَا. تَوَفِّي سَنَةَ (٦٠٦هـ).
انظر: طَبَقَاتُ الشَّافِعِيَّةِ الْكُبْرَى (٥/١٥٣)؛ شَذَرَاتُ الذَّهَبِ (٥/٢٢).

(٣) النِّهَايَةُ فِي غَرِيبِ الْحَدِيثِ وَالْأَثَرِ (١/٢٤٧ - ٢٤٨).

(٤) انظر: فَيْضُ الْقَدِيرِ شَرْحُ الْجَامِعِ الصَّغِيرِ، لِلْمُنَاوِي (٦/٢٨٨٥).

(٥) رَوَاهُ الطَّيَالِسِيُّ فِي «مُسْنَدِهِ» (١/٣٠٢) (ح ٢٢٨٦)؛ وَابْنُ بَيْهَقٍ فِي «شَجَرِ الْإِيمَانِ» (٢/٢٢٥٧)؛ وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ الْجَامِعِ»: (٢/١٢١٠) (ح ٧٢٢٣)؛ وَ«السَّلْسَلَةُ الصَّحِيحَةُ»: (٥/٥٤٥) (ح ٢٤١٩).

جاء في (فيض القدير) عن الحَلِيمِي^(١) رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في معنى الحديث: «هو أن يسمع قراءة آية أو كلمة لم تكن عنده؛ فَيَعْجَلُ عليه، وَيُخْطِئُهُ، وينسب ما يقرؤه إلى أنه غير قرآن، أو يجادله في تأويل ما يذهب إليه، ولم يكن عنده ويضللّه، والجِدال ربّما أزاغه عن الحقّ، وإنّ ظهر له وجهه، فلذلك حرّم، وسُمّي كُفْراً؛ لأنه يُشْرِفُ بصاحبه على الكفر»^(٢).

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: «نَهَى عَنِ الْجِدَالِ فِي الْقُرْآنِ»^(٣).

فالمُنهي عنه في الحديثين هو الجِدال بالباطل، من الطّعن في آيات القرآن العظيم، أو بكون قصده من الجِدال نصرة مذهب الباطل، أو إظهار بدعته وإخفاء الحقّ، كما حكى الله تعالى عن الكُفّار الذين تحزّبوا على أنبيائهم بالمجادلة بالباطل. والقصد من وراء هذه المجادلة إبطال الحقّ الذي جاءت به الرُّسل الكرام عليهم السّلام، من مثل قولهم: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠]، وقولهم: ﴿لَوْلَا أَنْزَلْ عَلَيْنَا الْمَلَكُكُتْ أَوْ نَرَى رَبَّنَا﴾ [الفرقان: ٢١].

فقال الله تعالى ذاماً جدالهم بالباطل: ﴿وَحَدِّثُوا بِالْبَطْلِ لِيُدْجِفُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ [غافر: ٥]^(٤).

أمّا الجِدال لإيضاح آية مُلتبسة، أو حلّ مُعضلة، أو مُناقشة أهل العلم في استنباط معنى آية مختلف فيها؛ للرّد على أهل الزّيغ من خلال معرفة الرّاجح من المرجوح، والخطأ من الصّواب. فهذا من أعظم الجهاد، بل هو من النّصيحة

(١) هو أبو عبد الله الحسين بن الحسن بن محمد بن حليم، البخاري، الشّافعي، فقيه، محدّث، كان من أذكى زمانه، ومن فرسان النّظر، له يدٌ طوّلى في العلم والأدب، صاحب وجوه حسان في المذهب الشّافعي، وصار رئيس أصحاب الحديث بما وراء النّهر، وولي القضاء ببلدان شتى، توفي سنة (٤٠٣هـ). له عدّة مصنّفات، منها: «منهاج الدّين في شعب الإيمان»، و«آيات السّاعة وأحوال القيامة» وغيرها.
انظر: تذكرة الحفّاظ، للذهبي (١٠٣١/٣)؛ طبقات الشّافعية (١٤٧/٢).

(٢) فيض القدير (٦٣٨٩/١٢).

(٣) رواه السجزي (٢٨٣٩/١ كنز العمال)؛ وخسنه الألباني في «صحيح الجامع» (١١٥٩/٢) (٦٨٧٣ ح).

(٤) انظر: تفسير البغوي (٣٤/٤ - ٣٥).

لكتاب الله تعالى^(١).

٣ - وكما نهى النبي ﷺ عن الجدال في القرآن فقد نهى أيضاً عن المراء وهو صنو الجدال - للتأكيد على هذه المسألة المهمة، وذلك في عدة أحاديث، منها:

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «المراء^(٢) في القرآن كفر»^(٣).

معنى المراء:

مما قاله الخطابي^(٤) رحمه الله في بيان هذا الحديث: «اختلف الناس في تأويله. فقال بعضهم: معنى المراء هنا: الشك فيه، كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ [هود: ١٧]. أي في شك، ويقال: بل المراء هو الجدال المشكك فيه.

وتأوله بعضهم على المراء في قراءته دون تأويله ومعانيه، مثل أن يقول قائل: هذا قرآن قد أنزله الله تبارك وتعالى، ويقول الآخر: لم يُنزل الله هكذا، فيكفر به من أنكره، وقد أنزل سبحانه كتابه على سبعة أحرف كلها شافٍ كافٍ، فتهاهم ﷺ عن إنكار القراءة التي يسمع بعضهم بعضاً يقرؤها، وتوعدهم بالكفر عليها؛ ليتهاوا عن المراء فيه والتكذيب به»^(٥).

(١) انظر: فيض القدير (١٢/٦٢١٦).

(٢) المراء: هو الجدال. والتمازي والمماراة: هو المجادلة على جهة الشك والرؤية. ويقال للمناظرة: مماراة؛ لأن كل واحد منهما يستخرج ما عند صاحبه ويمتريه، كما يمتري الحالب اللبن من الضرع. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٤/٣٢٢).

(٣) رواه أبو داود، كتاب السنة، باب: النهي عن الجدال في القرآن (٤/١٩٩). (ح ٤٦٠٣)؛ وابن حبان في «صحيحه» (٤/٣٢٤) (ح ١٤٦٤)؛ وحسنه ابن القيم في «تهذيب سنن أبي داود»: (٧/٦)؛ وصححه الألباني في «صحيح الجامع»: (٢/١١٣٤) (ح ٦٦٨٧).

(٤) هو حمد بن محمد بن إبراهيم بن خطاب البستي، أبو سليمان الخطابي، الإمام، الحافظ، اللغوي، صاحب التصانيف، ومنها: «معالم السنن في شرح سنن أبي داود»، و«غريب الحديث»، و«شرح الأسماء الحسنى»، و«الفنية عن الكلام وأهله». توفي سنة (٣٨٨هـ). انظر: معجم البلدان (١/٤١٥)؛ الأنساب، للسمعاني (٢/٢١٠)؛ وفيات الأعيان (٢/٢١٤)؛ سير أعلام النبلاء (١٧/٢٣)؛ البداية والنهاية (١١/٢٣٦).

(٥) معالم السنن في شرح سنن أبي داود (٥/٩). وانظر: التبيان في آداب حملة القرآن (ص ٢٠٦)؛ مجموع الفتاوى، لابن تيمية (١٤/٣٠٢).

وجاء في (عون المعبود) عن الطيبي رحمته: «هو أن يروم تكذيب القرآن بالقرآن؛ ليدفع بعضه ببعض، فينبغي أن يجتهد في التوفيق بين المتخالفين على وجه يوافق عقيدة السلف، فإن لم يتيسر له فليكله إلى الله تعالى»^(١).

وقال ابن حبان^(٢) رحمته: «إذا ماري المرء في القرآن أداه ذلك - إن لم يعصمه الله - إلى أن يرتاب في الآي المتشابه منه، وإذا ارتاب في بعضه أداه ذلك إلى الجحد، فأطلق رحمته اسم الكفر الذي هو الجحد، على بداية سببه الذي هو المراء»^(٣).

ما ينبغي عند الاختلاف

وينبغي عند الاختلاف في المسائل العلمية - التي ظاهرها التعارض - أو القراءات مثلاً، أن يُحتَكَمَ إلى العلماء الراسخين، فقد كان رسول الله ﷺ يُرَبِّي أصحابه على ذلك، ويحذّرهم من المراء في القرآن المؤدي إلى الكفر.

فعندما اختلف رجلان في آية من القرآن، قال الأول منهما: تلقّيتها من رسول الله ﷺ، وقال الآخر: تلقّيتها من رسول الله ﷺ. فسألا النبي ﷺ، فقال: «القرآن يُقرأ على سبعة أحرف»^(٤)، فلا تُماروا في القرآن، فإنَّ مراء في

(١) (٢٣١/٤٢).

(٢) هو الإمام الحافظ المجلّد، شيخ خراسان، أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد بن حبان التميمي الدارمي البستي، ولد نحو (٢٧٠هـ)، كان من فقهاء الدين، وحفاظ الآثار، عالماً بالطلب والنجوم، ومن أشهر تلاميذه الحاكم صاحب المستدرک. توفي بسجستان بمدينة بُست سنة (٣٥٤هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (٩٢/١٦).

(٣) صحيح ابن حبان (٣٢٤/٤).

(٤) المراد بالحرف: اللّغة والمعنى: أن القرآن أنزل على سبع لغات من لغات العرب، وليس معناه أن يكون في الحرف الواحد سبعة أوجه، ولكن المراد: أن هذه السبع اللغات مُفرّقة في القرآن، فبعضه بلغة قريش، وبعضه بلغة هذيل، وبعضه بلغة هوازن، وبعضه بلغة اليمن، وهكذا.

قال أبو عبيد رحمته: «وليس معنى تلك السبعة أن يكون الحرف الواحد يُقرأ على سبعة أوجه، هذا شيء غير موجود، ولكنه عندنا أنه نزل على سبع لغات مُفرّقة في جميع القرآن من لغات العرب، فيكون الحرف منها بلغة قبيلة، والثاني بلغة أخرى سوى الأولى، =

القرآن كُفِّرَ^(١).

قال أبو عبيد^(٢) رحمته الله في معنى الحديث: «ليس وجه الحديث عندنا على الاختلاف في التأويل، ولكنه على الاختلاف في اللفظ، وهو أن يقول الرجل على حرف^(٣)»، فيقول الآخر: ليس هو هكذا، ولكنه على خلافه، وكلاهما مُنَزَّلٌ مَقْرُوءٌ به^(٤). فإذا جحد كل واحد منهما قراءة صاحبه، لم يؤمن أن يكون ذلك يُخْرِجُهُ إلى الكفر؛ لأنه نفى حرفاً أنزله الله على نبيه.

والتكثير في المراء إيداناً بأن شيئاً منه كُفِّرَ، فضلاً عما زاد عليه.

وقيل: إنما جاء هذا في الجدال والمراء في الآيات التي فيها ذكر القدر، ونحوه من المعاني، على مذهب أهل الكلام، وأصحاب الأهواء والآراء، دون ما تَضَمَّنَتْهُ من الأحكام، وأبواب الحلال والحرام؛ فإن ذلك قد جرى بين

والثالث بلغة أخرى سواهما، كذلك إلى السبعة. وبعض الأحياء أسعد بها وأكثر حظاً فيها من بعض، وذلك يُبين في أحاديث ترى.

فضائل القرآن، لأبي عبيد (٣٣٥). وانظر: جمال القراء، للسخاوي (ص ٦٠٥)؛ تفسير الطبري (١٨/١)؛ تفسير القرطبي (٤١/١)؛ فضائل القرآن، لابن كثير (ص ٤٤)؛ البرهان في علوم القرآن، للزركشي (٢١١/١)؛ النشر في القراءات العشر، لابن الجزري (١٩/١) - (٣١)؛ الإتيان في علوم القرآن، للسيوطي (١٣١/١ - ١٤٢).

(١) رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص ٣٣٧، ٣٥٤)؛ وأحمد في «المسند» (٤/١٦٩) (ح ١٧٥٧٧). وقال محققو المسند (٨٥/٢٩) (ح ١٧٥٤٢): «إسناده صحيح على شرط الشيخين».

(٢) هو القاسم بن سلام الهروي الأزدي، الخزاعي بالولاء، الخراساني، البغدادي (أبو عبيد) ولد سنة (١٥٧هـ)، من كبار العلماء في الحديث، والأدب، والفقه. ولي القضاء بطرسوس ثماني عشرة سنة، من كتبه: «الأموال»، و«أدب القاضي»، و«الإيمان ومعالمه وسنته، واستكمالها، ودرجاته» مخطوط في الظاهرية بدمشق. توفي بمكة سنة (٢٢٤هـ).

انظر: تهذيب التهذيب (٨/٣١٥ - ٣١٨)؛ تذكرة الحفاظ (٢/٥٦).

(٣) بمعنى: يقرأ على حرف.

(٤) يعلم ذلك بحديث النبي ﷺ المشهور: «إنَّ هذا القرآن أنزلَ على سبعةِ أحرفٍ» الحديث. رواه البخاري، كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب: ما جاء في المتأولين (٤/٢١٦٥) (ح ٦٩٣٦). وسبب الحديث: قصة عمر بن الخطاب وهشام بن حكيم رضي الله عنه، في قراءة هشام في الصلاة على حروف كثيرة لم يسمغها عمر من رسول الله ﷺ، فاحتكما إليه، فأقر كلاهما على قراءته، ثم ذكر الحديث.

الصَّحَابَةُ فَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ الْعُلَمَاءِ، وَذَلِكَ فِيمَا يَكُونُ الْغَرَضُ مِنْهُ وَالْبَاعِثُ عَلَيْهِ ظُهُورَ الْحَقِّ لِيُتَّعَ، دُونَ الْقَلْبَةِ وَالتَّعْجِيزِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(١).

الوقاية من الجدال والمراء:

وَمَنْ أَجَلَ الْوَقَايَةَ مِنَ التَّوَرُّطِ فِي بَرَاثِنِ الْجِدَالِ وَالْمِرَاءِ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَدُلُّ أَصْحَابَهُ ﷺ إِلَى شَيْءٍ يَفْعَلُوهُ احْتِرَازاً مِنَ الْوُقُوعِ فِي الْاِخْتِلَافِ الْمُؤَدِّي إِلَى الْفُرْقَةِ فِي الدِّينِ:

فَعَنْ جُنْدِبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «اقْرَءُوا الْقُرْآنَ مَا اسْتَلَفْتُمْ عَلَيْهِ قُلُوبُكُمْ، فَإِذَا اخْتَلَفْتُمْ^(٢) فَقُومُوا عَنْهُ^(٣)»^(٤).

فَقَدْ أَوْصَى النَّبِيُّ ﷺ أَصْحَابَهُ الْكِرَامَ بِالِاسْتِمْرَارِ فِي قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، وَلِزُومِ طَرِيقِ الْأَلْفَةِ بَيْنَهُمْ، فَإِذَا وَقَعَ الْاِخْتِلَافُ، سَوَاءٌ فِي الْمَعْنَى أَوْ كَيْفِيَةِ الْأَدَاءِ، فَلْيَتَرَكُوا الْقِرَاءَةَ، وَلْيَتَمَسَّكُوا بِالْمُحْكَمِ الْمَوْجِبِ لِلْأَلْفَةِ، وَلْيُعْرِضُوا عَنِ الْمُتَشَابِهِ الْمُؤَدِّي إِلَى الْفُرْقَةِ فِي الدِّينِ.

وَمِنْ فَوَائِدِ هَذِهِ الْوَصِيَّةِ النَّبَوِيَّةِ الْعَظِيمَةِ: الْحِصْرُ عَلَى الْجَمَاعَةِ وَالْأَلْفَةِ، وَالتَّحْذِيرُ مِنَ الْفُرْقَةِ وَالْاِخْتِلَافِ، وَالتَّنْهِي عَنْ الْجِدَالِ فِي الْقُرْآنِ بِغَيْرِ حَقٍّ، حَتَّى لَا يُؤَدِّيَ ذَلِكَ إِلَى هَجْرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ^(٥).

المطلب الرابع

اتِّباع المتشابه وترك المُحكم

إِنَّ مِنْ أَبْرَزِ مَظَاهِرِ هَجْرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ: اتِّبَاعَ الْمُتَشَابِهِ وَتَرْكَ الْمُحْكَمِ، وَلَقَدْ حَذَّرَ النَّبِيُّ ﷺ أُمَّتَهُ مِنْ هَذَا الْفِعْلِ السَّيِّئِ:

(١) نقلًا عن: النهاية في غريب الحديث والأثر (٤/٣٢٢)؛ عون المعبود (١٢/٢٣١).

(٢) فِي فَهْمِ الْمَعْنَى، أَوْ أَدَاءِ الْقِرَاءَاتِ.

(٣) أَي: تَفَرَّقُوا لئَلَّا يَتِمَادَى بِكُمْ الْاِخْتِلَافُ إِلَى الشَّرِّ.

(٤) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ، كِتَابُ فُضَائِلِ الْقُرْآنِ، بَابُ: اقْرَءُوا الْقُرْآنَ مَا اسْتَلَفْتُمْ عَلَيْهِ قُلُوبُكُمْ (٣/١٦٢٩) (ح ٥٠٦١).

(٥) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري (٩/١٠٢).

عن عائشة رضي الله عنها قَالَتْ: «تَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ تُحْكِمُكَ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَةٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ...﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿...أَوَّلُوا الْآيَاتِ﴾ [آل عمران: ٧]. قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ، فَأُولَئِكَ: الَّذِينَ سَمَى اللَّهُ، فَاحْذَرُوهُمْ»^(١).

واختلف المفسرون، والأصوليون، وغيرهم في معنى المحكم والمتشابه باختلافاً كبيراً، فنقل ابن حجر رحمته الله جاتياً من اختلافهم، ومن جملة ما قاله في شرحه للحديث: «المحكم من القرآن: ما وضع معناه، والمتشابه: نقيضه. وسُمِّيَ المحكم بذلك؛ لوضوح مفردات كلامه، وإتقان تركيبه، بخلاف المتشابه. وقيل: المحكم: ما عُرف المراد منه إِمَّا بِالظُّهُورِ وَإِمَّا بِالتَّأْوِيلِ، والمتشابه: ما استأثر الله بعلمه؛ كقيام الساعة، وخروج الدجال، والحروف المنقطعة في أوائل السور. وقيل في تفسير المحكم والمتشابه أقوال آخر غير هذه، نحو العشرة، ليس هذا موضع بسطها، وما ذكرته أشهرها وأقربها إلى الصواب»^(٢).

ونقل النووي عن أبي حامد الغزالي^(٣) قوله: «الصَّحِيحُ أَنَّ الْمُحْكَمَ يَرْجِعُ إِلَى مَعْنَيْنِ:

أحدهما: المكشوف المعنى الذي لا يتطرق إليه إشكال واحتمال، والمتشابه: ما يتعارض فيه الاحتمال.

والثاني: أَنَّ المحكم ما انتظم ترتيبه مُفِيداً، إِمَّا ظَاهِراً وَإِمَّا بِتَأْوِيلٍ. وَأَمَّا المتشابه: فالأسماء المُشْتَرَكَةُ، كالقُرْءِ، وكالَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ، وكاللَّمْسِ. فالأَوَّلُ: متردّد بين الحيض، والظُّهُورِ. والثَّانِي: بين الوليِّ، والزَّوْجِ.

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ تُحْكِمُكَ﴾ (٣/١٣٧٧) (ح ٤٥٤٧).

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨/٢٦٥).

(٣) هو محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي، أبو حامد، الملقب بحجة الإسلام، ولد سنة (٤٥٠هـ) من فقهاء الشافعية، له مصنفات في الفقه وأصوله والفلسفة، ولولا اشتغاله بالفلسفة والتَّصَوُّفَ لكان له شأن أعظم مما كان. من مصنفاته: «إحياء علوم الدين»، و«المستصفى»، و«الوجيز»، و«الخلاصة». توفي سنة (٥٠٥هـ).

انظر: وفيات الأعيان (٤/٣١٦ - ٢١٩).

والثالث: بين الوطاء، والمس باليد^(١).
 «ولهذا قال الله تعالى: ﴿قَالِمًا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ ذَرِيعٌ﴾، أي: ضلال وخروج عن الحق إلى الباطل ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَّهَ بِهِ﴾، أي: إنما يأخذون منه بالمتشابه الذي يمكنهم أن يحزفوه إلى مقاصدهم الفاسدة ويُنزلوه عليها، لاحتمال لفظه لما يضرّفونه، فأما المحكم فلا نصيب لهم فيه؛ لأنه دافع لهم وحجة عليهم، ولهذا قال الله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا الْوَسْطَةَ﴾، أي: الإضلال لاتباعهم، إيهاماً لهم أنهم يحتجون على بدعتهم بالقرآن، وهو حجة عليهم لا لهم، كما لو احتجّ النصاري بأن القرآن قد نطق بأن عيسى هو روح الله وكلمته ألقاه إلى مريم وروح منه، وتركوا الاحتجاج بقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: ٥٩]، ويقولون: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]، وغير ذلك من الآيات المصّرحة بأنه خلق من مخلوقات الله، وعبد، ورسول من رسل الله^(٢).

ولذلك حذر النبي ﷺ من الذين يتبعون ما تشابه من القرآن بمعنى أنهم يبحثون في الآيات المتشابهة، ويتركون المحكم منها؛ بقصد أن يفتنوا الناس عن دينهم ويضلّوهم، فهؤلاء هم الذين سبّاهم الله تعالى أهل الزّيف، فأمر ﷺ بالحدّز منهم والتّوقي من شرهم وضلالهم، وذلك بعدم مجالستهم ومؤاكلتهم ومكالمتهم؛ فإنهم أهل الزّيف والبدع والفساد، فحقّهم أن يهجروا في الله تعالى^(٣).

وهذا ما صرّح به ابن القيم رحمه الله بقوله: «إذا سُئِلَ أَحَدٌ عَنْ تَفْسِيرِ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، أَوْ سُنَّةٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلَيْسَ لَهُ أَنْ يُخْرِجَهَا عَنْ ظَاهَرِهَا بِوُجُوهِ التَّأْوِيلَاتِ الْفَاسِدَةِ لِمُوَافَقَةِ نَحْلِهِ وَهَوَاهُ، وَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ اسْتَحَقَّ الْمَنْعَ مِنَ الْإِفْتَاءِ وَالْحَجَرِ عَلَيْهِ، وَهَذَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ هُوَ الَّذِي صَرّحَ بِهِ أئِمَّةُ الْإِسْلَامِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا^(٤)».

ومن فوائد هذا الحديث: التحذير من مخالطة أهل الزّيف، وأهل البدع،

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (٣٣٤/١٦)، وانظر المستصفى، لأبي حامد الغزالي (١/٨٥).

(٢) تفسير ابن كثير (٨/٢)، (٣) انظر: عون المعبود (١٢/٢٢٧).

(٤) أعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم (٤/٢٤٥).

وَمَنْ يَتَّبِعِ الْمَشْكَلاتِ لِلْفِتْنَةِ. وَمَنْ يَسْأَلُ كَذَلِكَ بِقَصْدِ الْفِتْنَةِ، فَهَذَا لَا يُجَابُ بَلْ يُزَجَرُ، وَيُعَوَّرُ، كَمَا عَزَّرَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه صَيْغُ بْنُ عَسَلٍ حِينَ كَانَ يَتَّبِعُ الْمَشَابَهَ. وَأَمَّا مَنْ سَأَلَ عَمَّا أَشْكَلَ عَلَيْهِ لِلْإِسْتِشَادِ، وَتَلَطَّفَ فِي سْؤَالِهِ فَلَا حَرَجَ عَلَيْهِ، وَجَوَابُهُ وَاجِبٌ^(١).

المطلب الخامس

ترك قراءة القرآن في البيوت

عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ. إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْفِرُ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِي تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ»^(٢)،^(٣).

أي: لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ «خَالِيَةً» عَنِ الذِّكْرِ وَالطَّاعَةِ فَتَكُونَ كَالْمَقَابِرِ، وَتَكُونُونَ كَالْمَوْتَى فِيهَا»^(٤).

ففيه التَّنَبُّهُ إِلَى كَثْرَةِ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ فِي الْبُيُوتِ، إِذَا الْمَوْتَى لَا يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ، بَلْ انْقَطَعَ عَنْهُمْ التَّكْلِيفُ..

فالمعنى: لَا يَكُونُ جَالِكُمْ كَجَالِ الْمَوْتَى الَّذِينَ لَا يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ فِي بُيُوتِهِمْ - وَهِيَ الْقُبُورُ -

وَقِيلَ فِي مَعْنَاهُ: لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ وَطَنًا لِلنَّوْمِ فَقَطْ، لَا حَظَّ فِيهَا لِلذِّكْرِ مِنْ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ وَالصَّلَاةِ، فَإِنَّ النَّوْمَ أَخُو الْمَوْتِ، وَالْمَيِّتُ لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَلَا يَصَلِّي^(٥).

* وَيَشْهَدُ لَهُ قَوْلُهُ ﷺ: «مَثَلُ الْبَيْتِ الَّذِي يُذَكَّرُ اللَّهُ فِيهِ، وَالْبَيْتِ لَا يُذَكَّرُ اللَّهُ

(١) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٤٣٤/١٦).

(٢) خُصِّتْ سُورَةُ الْبَقَرَةِ بِذَلِكَ؛ لِطَوْلِهَا، وَكَثْرَةِ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالْأَحْكَامِ فِيهَا.

انظر: تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذی (١٤٦/٨).

(٣) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: استحباب صلاة النافلة في بيته وجوازها في المسجد (٥٣٩/١) (ح ٧٨٠).

(٤) تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذی (١٤٦/٨).

(٥) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري (٥٢٩/١).

فيه، مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ^(١).

و«إطلاق الحي والميت في وصف البيت، إنما يراد به ساكن البيت. فشبّه الذاكر: بالحي الذي ظاهره متزيّن بنور الحياة، وباطنه بنور المعرفة؛ وغير الذاكر: بالميت الذي ظاهره عاطل، وباطنه باطل»^(٢).

* ويدلّ على ذلك قوله ﷺ: «مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لَا يَذْكُرُ رَبَّهُ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ»^(٣).

فَمَنْ هَجَرَ الْقُرْآنَ وَتَرَكَ قِرَاءَتَهُ فَهُوَ كَالْمَيِّتِ فِي قَبْرِهِ، وَكَفَى لَهُ ذِمًّا بِذَلِكَ.

المطلب السادس

أحوال المنافق مع القرآن

عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ الرِّيحَانَةِ^(٤)، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ. وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ^(٥)، لَيْسَ لَهَا رِيحٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ»^(٦).

فالمنافق بين حالين أحسنهما سيئ؛ لأنه سيئ الباطن ولو حاول التظاهر بصفات أهل الإيمان وشاركهم بقراءة القرآن، فإنّ هذه القراءة عمل ظاهري يقصد به خداع الناس والتّمويه عليهم، فمثله كمثّل الرّيحانة قد يَغْتَرُّ الجاهل بطيب

(١) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: استحباب صلاة النافلة في بيته وجوازها في المسجد (٥٣٩/١) (ح ٧٧٩).

(٢) المصدر السابق (٢١٠/١١ - ٢١١).

(٣) رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب: فضل ذكر الله ﷻ (٢٠١٢/٤) (ح ٦٤٠٧).

(٤) الرّيحان: جنس من النّبات طيّب الرائحة من الفصيلة الشّفوية، وكل نبت طيّب الرائحة، ويقال: للمرأة رّيحانة. انظر: المعجم الوسيط (ص ٣٨١).

(٥) الحنظل: نبت مفترش، ثمرته في حجم البرقالة ولونها، فيها لبّ شديد المرارة.

انظر: المعجم الوسيط (ص ٢٠٢).

(٦) رواه البخاري، كتاب التّوحيد، باب: قراءة الفاجر والمنافق، وأصواتهم وتلاوتهم لا تُجاوِزُ حناجرهم (٢٣٦٣/٤) (ح ٧٥٦٠)؛ ومسلم، واللفظ له، كتاب صلاة المسافرين، باب: فضيلة حافظ القرآن (٥٤٩/١) (ح ٧٩٧).

رائحتها فإذا أكل منها ذاق المرَّ والعلقم، وكذلك المنافق إن عاملته وعاشرته تذوّقت مرارته وكشفت حقيقته.

جاء في (الفتح) عن ابن بطلال^(١) رحمه الله قال: «إن قراءة الفاجر والمنافق لا ترتفع إلى الله ولا تزكو عنده، وإنما يزكو عنده ما أريد به وجهه وكان على نيّة التقرب إليه، وشبهه رحمه الله بالريحانة حين لم ينتفع ببركة القرآن، ولم يفز بحلاوة أجره، فلم يجاوز الطيب موضع الصوت وهو الحلق، ولا اتصل بالقلب»^(٢).

فالمنافق إذا سمعته يتلو القرآن تصوّرت وراء هذه التلاوة صدرأ يعمر بالإيمان، ولكنك لو تأملت أكثر عرفت حال وفساد عقيدته، عند ذلك ستنصرف عنه وتلقيه كما يلقي بالثمرة إذا اختبر طعمها فوجدت مرة خبيثة الطعم.

وإذا كان هذا حال المنافق الذي يقرأ القرآن، فما الظنّ بالمنافق الذي لا يقرأ القرآن؟ فقد جمّع إلى مرارة الطعم (أي فساد العقيدة) حُبّ الرّائحة، فقلبه فاسد بسوء معتقده، وزائحه فاسدة بإعراضه عن كتاب الله تلاوةً، فضلاً عن التدبّر والتأثر والعمل، فهذا سيئ الباطن والظاهر، فمثله كمثل الحنظلة التي تنفر من منظرها وتعاها حتى الإبل؛ لما فيها من مرارة وطعم خبيث. فهو في بحر لجي من الظلمات بعضها فوق بعض: ﴿وَمَنْ لَّا يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]^(٣).

المطلب السابع

ترك التغني بالقرآن

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَّمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ». وَزَادَ غَيْرُهُ: «يَجْهَرُ بِهِ»^(٤).

(١) هو علي بن خلف بن عبد الملك بن بطلال البكري، القرطبي، المالكي، ويُعرف بابن اللجام (أبو الحسن)؛ محدث، فقيه، استقضي بحصن لورقة، وتوفي في آخر يوم من صفر سنة (٤٤٩هـ). من آثاره: «شرح الجامع الصحيح للبخاري» في عدة أسفار، و«الاعتصام في الحديث». انظر: سير أعلام النبلاء (١١/١٥٩).

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري (١٣/٦٥٧).

(٣) انظر: أنوار القرآن (ص ٨٩ - ٩٢)؛ ورتل القرآن ترتيلاً (ص ١٦ - ١٧).

(٤) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب: قول الله تعالى: ﴿وَأَمِرُوا قَوْمَكُمُ أَنْ يَنْهَوُا عَنْهَا﴾ =

وقد ذكر ابن حبان رحمته الله أن: «معنى قوله رحمته الله ليس منافي هذه الأخبار، يُريد به: ليس مثلنا في استعمال هذا الفعل؛ لأننا لا نفعلها فَمَنْ فَعَلَ ذلك فليس مِنَّا»^(١). واختلف أهل العلم في معنى يتغنى، هل هو من التَّغْنِي بمعنى: تحسين الصَّوت أو هو الاستغناء بالقرآن عن غيره؟ جاء في (الفتح) عن ابن الجوزي رحمته الله أنه قال: «واختلفوا في معنى قوله (يَتَغَنَّى) على أربعة أقوال: أحدها: تحسين الصَّوت. والثاني: الاستغناء. والثالث: التَّحْزُن، قاله الشَّافعي. والرَّابع: التَّشَاغُل به، تقول العرب: تغنى بالمكان أقام به»^(٢).

* وقد ذهب أكثر العلماء إلى أن المقصود بالحديث: هو تحسين الصَّوت بالقرآن.

قال النووي رحمته الله في شرحه للحديث: «معناه عند الشَّافعي، وأصحابه، وأكثر العلماء من الطَّوائف، وأصحاب الفنون: تحسين صوته به»^(٣). وهو اختيار الطَّبري^(٤)، والقرطبي^(٥)، وابن كثير^(٦)، وابن حبان^(٧).

* وذهب بعض العلماء إلى أن المراد بالحديث: الاستغناء بالقرآن عن غيره، وهو اختيار أبي عبيد، وسفيان بن عيينة^(٨).

[الملك: ١٣] [٢٣٥١/٤] (ح ٧٥٢٧)؛ وأبو داود، باب: استحباب الترتيل في القراءة (٧٤/٢) (ح ١٤٧١)؛ وابن حبان في «صحيحه»، باب: ذُكر الزُّجر عن ألا يستغني المرء بما أوتي من كتاب الله جلَّ وعلا (٣٢٦/١) (ح ١٢٠).
(١) صحيح ابن حبان (٣٢٦/١).

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٧٠/٩).

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي (٧٨/٦). وانظر: التبيان في آداب حملة القرآن (ص ١٣٥).

(٤) تفسير الطبري (١٦٨/١٠). (٥) تفسير القرطبي (١١/١).

(٦) تفسير ابن كثير (٥٥٥/٤). (٧) صحيح ابن حبان (٣٢٦/١).

(٨) هو الإمام سفيان بن عيينة بن أبي عمران، مولى بني هلال (أبو محمد)، ولد سنة (١٠٧هـ) بالكوفة، وكان ثقة، ثبتاً، كثير الحديث، حجة، محدث الحجاز في زمانه في مكة، حتى قال فيه الشَّافعي: «لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز». سكن مكة وتوفي بها عام (١٩٨هـ)، وعمره: (٩١) سنة.
انظر: الطبقات الكبرى، لابن سعد (٤٩٧/٥).

قال سفيان: «تفسيره: يَسْتَغْنِي به»^(١).

قال النووي رحمته الله: «وعند سفيان بن عيينة: يستغني به. قيل: يستغني به عن الناس. وقيل: عن غيره من الأحاديث والكتب.

قال القاضي عياض^(٢): القولان منقولان عن ابن عيينة. قال: يُقال: تَغْنَيْتُ وَتَغَانَيْتُ بمعنى: اسْتَغْنَيْتُ»^(٣).

وقال أبو عبيد رحمته الله: «قوله: (مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ). التَّغْنِي: هو الاستغناء والتَّعَفُّفُ عن مسألة الناس واستكمالهم بالقرآن، وأن يكون في نفسه بحمله القرآن غنياً، وإن كان من المال مُعْدِماً»^(٤).

وقد صرَّح ابن حجر باختيار أبي عبيد بقوله: «وقد ارتضى أبو عبيد تفسير يَتَغَنَّي بِسُتَغْنِي، وقال: إنه جائز في كلام العرب... فعلى هذا يكون المعنى: مَنْ لَمْ يَسْتَغْنِ بِالْقُرْآنِ عن الإكثار من الدنيا فليس مِنَّا، أي على طريقتنا»^(٥).

وعلى ما تقدَّم: فمن لم يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ، أو لَمْ يَسْتَغْنِ بِالْقُرْآنِ عن غيره، فقد هَجَرَ كتابَ رَبِّهِ تعالى، وهو ليس على طريقة النبي صلوات الله عليه وآله وأصحابه الكرام في هذا الهدى المبارك، فليحذر أشدَّ الحذر من ذلك، فَمَنْ حَذَرَكَ فقد أنذرك، وَمَنْ أَنْذَرَكَ وفاقَ شَرِّ الخطر.



(١) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ (٣/١٦١٩) (ح ٥٠٢٤).

(٢) هو القاضي عياض بن موسى بن عياض بن عمر اليحصبي السبتي، إمام وقته ببلاد المغرب، في الحديث وعلومه والتَّحْوِ واللُّغَةِ، وله مصنفات جيِّدة، منها: «التنبيهات»، و«مشارك الأنوار»، و«شرح كتاب مسلم»، واشتهر بالذكاء وحُسن السَّيْرَةِ، توفي سنة (٥٤٤هـ)، وكانت ولادته سنة (٤٧٦هـ). انظر: وفيات الأعيان (٣/٤٨٣ - ٤٨٥).

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي (٦/٧٨). (٤) فضائل القرآن، لأبي عبيد (ص ٢١٠).

(٥) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٩/٨٨).

المبحث الثالث

آثار السلف في ذم هجر القرآن

وفيه

ذكر لبعض الآثار المنقولة

عن السلف الصالح في ذم هجر القرآن

آثار السلف في ذم هجر القرآن

إن الآثار الواردة عن سلفنا الصالح عليه السلام من الصحابة والتابعين وتابعيهم في ذم هجر القرآن، والتحذير من ذلك كثيرة ومتنوعة.

وهذه بعض الآثار المنقولة على لسانهم عليه السلام تحذرننا من هجر القرآن الكريم، وتبين لنا مغبة هذا الفعل وأثره السيئ على الفرد والأمة في الدنيا والآخرة.

وسأذكر كل أثر منها تحت عنوان يدل عليه اجتهاداً مني، ودون تعليق عليها؛ لأنها من الواضح بمكان، إلا ما اقتضى الحال بيانه، وهي على النحو الآتي:

١ - ذم التآكل بالقرآن:

* عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لقد أتى علينا حين وما نرى أن أحداً يتعلم القرآن يريد به إلا الله، فلما كان ههنا بأخرة، خشيت أن رجالاً يتعلمونه يريدون به الناس وما عندهم، فأرسلوا الله بقرائتكم وأعمالكم، وإننا كنا نعرفكم إذ فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإذ ينزل الوحي، وإذ ينبئنا الله من أخباركم، فأما اليوم فقد مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم وانقطع الوحي، وإنما أعرفكم بما أقول، من أعلن خيراً حبيبنا عليه ووطننا به خيراً، ومن أظهر شراً بغضناه عليه ووطننا به شراً، سرائركم فيما بينكم وبين الله عز وجل^(١).

(١) رواه الفريابي في «فضائل القرآن» (ص ٢٤٣) (رقم ١٧٣)؛ والأجري في «أخلاق حملة القرآن» (ص ٤٦) (رقم ٢٢)؛ وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٤٨٠/١٠) (رقم ١٠٠٥٠) بلفظ مقارب. وعبد الرزاق في «مصنفه» (٣٨٣/٣).

قال الأجرى^(١) رحمته: «إذا كان عمرُ بن الخطاب قد خاف على قوم قرؤوا القرآن في ذلك الوقت ميلهم إلى الدنيا، فما ظنك بهم اليوم؟! وقد أخبرنا النبي ﷺ أنه يكون أقوام يقرؤون القرآن يُقيمونه كما يُقيمون القدح، يتعجلونه ولا يتأجلونه، يطلبون به عاجلة الدنيا ولا يطلبون به الآخرة»^(٢).

* وعن زاذان قال: «من قرأ القرآن يتأكل به الناس»^(٣). جاء يوم القيامة ووجهه عظم ليس عليه لحم»^(٤).

ولما جعل أشرف الأشياء، وأعظم الأعضاء وسيلة إلى أديانها، وذريعة إلى أردتها، جاء يوم القيامة في أقبح صورة وأسوأ حالة. قال بعض العلماء: استجرار الجيفة بالمعازف، أهون من استجرارها بالمصاحف، وفي الأخبار: من

(١) هو الإمام المحدث القدوة أبو بكر، محمد بن الحسين بن عبد الله الأجرى، نسبة لأجر من قرى بغداد، فقيه، حافظ، صاحب سنة وتباع، قال ابن خلكان: «أخبرني بعض العلماء أنه لما دخل إلى مكة أعجبه، فقال: اللهم ارزقني الإقامة بها سنة، فسمع هاتفا يقول له: بل ثلاثين سنة، فعاش بعد ذلك ثلاثين سنة، ثم مات بها». توفي بمكة سنة (٣٦٠هـ) وهو من أبناء الثمانين. ومن تصانيفه: «التَّهجد»، و«تحريم الترد والشطرنج والملاهي»، و«آداب العلماء»، و«تحقيق رؤية الله في الآخرة». انظر: وفيات الأعيان (٢٩٢/٤)؛ سير أعلام النبلاء (١٧٨/١٠)؛ تاريخ بغداد (٢٤٣/٢).

(٢) أخلاق حملة القرآن (ص ٤٧).

(٣) (يتأكل به الناس): أي يطلب به الأكل من الناس. قال الطيبي: يعني يستأكل، كتعجل بمعنى استعجل. والباء في (به) للآلة. أي: أموالهم.

انظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، لعلي بن سلطان القاري (٩٨/٥).

(٤) رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» موقوفاً على زاذان (ص ٢٠٨)؛ وكذا الأجرى في «أخلاق حملة القرآن» (ص ٦٣) (رقم ٤٣)؛ وكذا أبو نعيم في «الحلية» (١٩٩/٤)؛ وكذا ابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٦٨/٢) (رقم ٧٧٤٩).

(تنبية): ولا يصح مرفوعاً. رواه ابن حبان في «المجروحين» (١٤٨/١) وقال: (١/١٤٩).

«هذان حديثان - وقد ذكر معهما حديثاً آخر - لا أصل لهما من حديث رسول الله ﷺ. وذكره ابن الجوزي في «الغلل المنتهية» (١١٧/١ - ١١٨) ثم قال: «هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ، وإنما يروى نحوه عن الحسن البصري. قال أبو حاتم ابن حبان: لا أصل لهذا من حديث رسول الله ﷺ».

وانظر: تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة، للكفائي (٣٠٩/١)؛ ميزان الاعتدال في نقد الرجال، للذهبي (٣٠٦/١)؛ لسان العيزان، لأبن حجر (٣١٦/١)؛ فيض القدير (١٩٦/٦). وقال الألباني في «ضعيف الجامع» (٢٣٤/٥) (ح ٥٧٧٥): «موضوع».

طَلَبَ بِالْعِلْمِ الْمَالَ، كَانَ كَمَنْ مَسَحَ أَسْفَلَ مَدَاسِهِ وَنَعْلَهُ بِمَحَاسِنِهِ لِيَنْظِفَهُ.

وروي عن الحسن البصري أنه قال: البهلوان الذي يلعب فوق الحبال، أحسن من العلماء الذين يميلون إلى المال؛ لأنه يأكل الدنيا بالدنيا، وهؤلاء يأكلون الدنيا بالدين، فيصدق عليهم قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَحَتِ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٦] ^(١).

٢ - وَيَلْ لِمَنْ تَبِعَهُ الْقُرْآنُ:

* عن أبي كنانة، أَنَّ أَبَا مُوسَى الْأَشْعَرِيَّ رضي الله عنه جَمَعَ الَّذِينَ قَرَأُوا الْقُرْآنَ، وَهُمْ قَرِيبٌ مِنْ ثَلَاثِمِائَةٍ، فَعَظَّمَ الْقُرْآنَ وَقَالَ:

«إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ كَائِنْ لَكُمْ دُخْرًا، وَكَائِنْ عَلَيْكُمْ وَزْرًا، فَاتَّبِعُوا الْقُرْآنَ وَلَا يَتَّبِعُكُمْ، فَإِنَّهُ مَنْ اتَّبَعَ الْقُرْآنَ هَبَطَ بِهِ عَلَى رِیَاضِ الْجَنَّةِ، وَمَنْ اتَّبَعَهُ الْقُرْآنُ رَزَخَ بِهِ ^(٢) فِي قَفَاهُ فَقَذَفَهُ فِي النَّارِ» ^(٣).

٣ - ذَمُّ مَنْ حَفِظَ حُرُوفَهُ وَضَيَّعَ حُدُودَهُ:

* عن الحسن ^(٤) البصري رضي الله عنه قال: «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ قَدْ قَرَأَهُ عَبِيدٌ وَصِيبَانٌ

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٩٨/٥).

(٢) (رَزَخَ بِهِ): أي: دفعه. يقال: زخخته أزخه زخًا؛ إذا دفعته. انظر: غريب الحديث، لأبي عبيد (١٧٣/٤)؛ النهاية في غريب الحديث والأثر (١٧٩/١) و(٢٩٨/٢).

(٣) رواه الأَجْرِيُّ في «أخلاق حملة القرآن» (ص ٢٠) (رقم ٣). وقال محققه (فواز أحمد زمرلي): «سنده حسن». ورواه بنحوه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص ٨١ - ٨٢)؛ والدارمي في «سننه»، كتاب فضائل القرآن، باب: فضل مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ (٣٠٧/٢) (رقم ٣٣٢٨)؛ وأبو نعيم في «الحلية» (٢٥٧/١)؛ وابن أبي شيبه في «مصنفه» (١٤٢/٧) (رقم ٣٤٨٢١)؛ وسعيد بن منصور في «سننه» (٤٩/١) (رقم ٨).

(٤) هو الحسن بن يسار البصري (أبو سعيد)، من كبار التابعين، ولد سنة (٢١هـ) بالمدينة، وسكن بالبصرة، وكان حبر الأمة وإمامها في زمانه في الحديث والفقه والتفسير، وكان قد شَبَّ في كنف علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وكان يدخل على الولاة فيأمرهم وينهاهم حتى صارت له هيبه عظيمة، توفي سنة (١١٠هـ). انظر: وفيات الأعيان (٦٩/٢ - ٧٣) (ت ١٥٦هـ)؛ وتهذيب التهذيب (٢/٢٦٣ - ٢٧٠) (ت ٤٨٨هـ).

لَا عَلِمَ لَهُمْ بِتَأْوِيلِهِ وَلَمْ يَنَالُوا الْأَمْرَ مِنْ أَوَّلِهِ^(١). قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكًا لِيَذَّبَ أَتَابَهُ إِلَّا اتَّبَاعُهُ وَالْعَمَلُ بِهِ، أَمَّا وَاللَّهِ مَا هُوَ بِحِفْظِ حُرُوفِهِ، وَإِضَاعَةِ حُدُودِهِ حَتَّى إِنَّ أَحَدَهُمْ لَيَقُولُ: قَدْ قَرَأْتُ الْقُرْآنَ كُلَّهُ فَمَا أَسْقَطْتُ مِنْهُ حَرْفًا، وَقَدْ وَاللَّهِ أَسْقَطَهُ كُلَّهُ، مَا يَرَى لَهُ الْقُرْآنُ فِي خُلُقٍ وَلَا عَمَلٍ حَتَّى إِنَّ أَحَدَهُمْ لَيَقُولُ: إِنِّي لَأَقْرَأُ السُّورَةَ فِي نَفْسٍ وَاحِدٍ، وَاللَّهِ مَا هَؤُلَاءِ بِالْقُرَّاءِ، وَلَا الْعُلَمَاءِ، وَلَا الْحُكَمَاءِ، وَلَا الْوَرَعَ، مَتَى كَانَتِ الْقُرَاءَةُ تَقُولُ مِثْلَ هَذَا؟ لَا أَكْثَرَ اللَّهُ فِي النَّاسِ مِثْلَ هَؤُلَاءِ^(٢).

قال الأجرى رحمه الله: «فأما مَنْ قرأ القرآن للدنيا، أو لأبناء الدنيا، فإن من أخلاقه أن يكون حافظاً لحروف القرآن، مضيّعاً لحدوده، متعظماً في نفسه، متكبراً على غيره، قد اتخذ القرآن بضاعةً يتأكل به الأغنياء، ويستقضي به الحوائج، يعظم أبناء الدنيا ويحقّر الفقراء، إن علّم الغني رفق به طمعاً في دنياه، وإن علّم الفقير زجره وعنفه؛ لأنّه لا دنيا له يطمع فيها^(٣).

٤ - هجر تدبر القرآن:

* عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «لقد عشتُ بُرْهَةً مِنْ دَهْرِي وَإِنْ أَحَدَنَا يُؤْتَى الْإِيمَانَ قَبْلَ الْقُرْآنِ، وَتَنْزِيلِ السُّورَةِ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ فَيَتَعَلَّمُ حَلَالَهَا وَحَرَامَهَا. وَمَا يَنْبَغِي أَنْ يَقِفَ عِنْدَهُ مِنْهَا كَمَا تَعَلَّمُونَ أَنْتُمْ الْقُرْآنَ، ثُمَّ لَقَدْ رَأَيْتُ رِجَالاً يُؤْتَى أَحَدُهُمُ الْقُرْآنُ قَبْلَ الْإِيمَانِ، فَيَقْرَأُ مَا بَيْنَ قَاتِحَةِ الْكِتَابِ إِلَى خَاتِمَتِهِ، مَا يَذَرِي مَا أَمْرُهُ وَلَا زَاجِرُهُ، وَمَا يَنْبَغِي أَنْ يَقِفَ عِنْدَهُ مِنْهُ، يَنْثُرُهُ نَثْرَ الدَّقْلِ^(٤)»^(٥).

(١) يعني: لم يسلكوا سبيلاً يحصل لهم بسلوكه العلم بتأويله.

(٢) رواه الفريابي في «فضائل القرآن» (ص ٢٤٦ - ٢٤٧) (رقم ١٧٧)؛ والأجرى في «أخلاق حملة القرآن» (ص ٥٠) (رقم ٢٨)؛ وسعيد بن منصور في «سننه» (٢/ ٤٢٠) (رقم ١٣٥) وقال: «سنده صحيح». وابن المبارك في «كتاب الزهد» (ص ٢٧٤)؛ وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣/ ٣٦٤) (رقم ٥٩٨٤).

(٣) أخلاق حملة القرآن (ص ٤٣). (٤) الدقل: أزدأ التمر.

(٥) رواه البيهقي في «السنن الكبرى» (٣/ ١٢٠) (رقم ٥٠٧٣)؛ والحاكم في «المستدرک» (١/

(٩١) (رقم ١٠١) وقال: «صحيح على شرط الشيخين، ولا أعرف له علة، ولم يخرجاه» =

* وعن أبي عبد الرحمن السلمي^(١) رحمه الله قال: «أخذنا القرآن عن قوم أخبرونا أنهم إذا تعلموا عشر آيات، لم يجاوزوها إلى العشر الأخر، حتى يعملوا ما فيها، فكنا نتعلم القرآن والعمل به، وسيرت القرآن بعدنا قوم يشربونه شرب الماء، لا يجاوزون تراقيهم»^(٢).

٥ - القرآن يزيد الظالمين خساراً:

* عن أنيس القرني^(٣) رحمه الله قال:

«إن هذا المجلس يغشاه ثلاثة نفر: مؤمن فقيه، ومؤمن لم يتفقه، ومنافق. وذلك في الدنيا مثل الغيث، ينزل من السماء إلى الأرض، فيصيب الشجرة المورقة المونة المثمرة، فيزيد ورقها حسناً، ويزيدها إيناعاً، وكذلك يزيد ثمرها طيباً، ويصيب الشجرة المورقة المونة، التي ليس لها ثمرة، فيزيد لها إيناعاً ويزيدها ورقاً حسناً، وتكون لها ثمرة فتلحق بأختها، ويصيب الهشيم من الشجر، فيحطمه فيذهب به، قال: ثم قرأ الآية ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ

= ووافقه الذهبي. وأورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٦٥/٧) وقال: «رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله رجال الصحيح». وانظر: مجمع البحرين بزوائد المعجمين (٤٨٢/١)، وحسنه المحقق.

(١) هو أبو عبد الرحمن السلمي الكوفي، عبد الله بن حبيب بن ربيعة، من أولاد الصحابة، مولده في حياة النبي ﷺ، محدث، ثقة، وقارئ مجود ماهر، وقد كان ثبناً في القراءة وفي الحديث، حديثه مخرج في الكتب الستة. توفي في سنة (٥٧٤هـ). انظر: طبقات ابن سعد (١٧٢/٦)؛ حلية الأولياء (١٩١/٤).

(٢) سير أعلام النبلاء (٢٦٩/٤).

(٣) هو أنيس بن عامر بن جزء المرادي القرني الزاهد المشهور. أدرك النبي ﷺ ولم يره. كوفي من خيار التابعين وعبادهم، ورد في فضله عن عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ قال: «إن رجلاً يأتيكم من اليمن يقال له: أنيس، لا يدع باليمن غير أم له، وقد كان به بياض فدها الله فأذهب عنه إلا موضع الدرهم، فمن لقيه منكم فمره فليستغفر لكم...» الحديث، رواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب: فضائل أنيس القرني (١٩٦٨/٤) (ح ٢٥٤٢)، وذكر أن عمر طلب منه أن يستغفر له، ففطن له الناس فهام على وجهه، ونزل الكوفة. توفي في صفين مع علي ﷺ. انظر: لسان الميزان (٤٧١/١ - ٤٧٥)؛ ميزان الاعتدال (٢٧٨/١)؛ معرفة الثقات، للعجلي (٢٣٩/١).

لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا» [الإسراء: ٨٢]. لَمْ يُجَالِسْ هَذَا الْقُرْآنَ أَحَدٌ، إِلَّا قَامَ عَنْهُ بَرِيَادَةٌ أَوْ نُقْصَانٌ، فَقَضَاءُ اللَّهِ الَّذِي قَضَى، شِفَاءً وَرَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ، وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا»^(١).

* وَعَنْ قَتَادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «مَا جَالَسَ الْقُرْآنَ أَحَدٌ فَقَامَ عَنْهُ إِلَّا بَرِيَادَةٌ أَوْ نُقْصَانٌ، ثُمَّ قَرَأَ: «وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا» [الإسراء: ٨٢]»^(٢).

٦ - القلوب المريضة لا تجد لذّة للقرآن:

* عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «سَبَّكِلَى الْقُرْآنُ فِي صُدُورِ أَقْوَامٍ كَمَا يَبْكِي الثَّوْبُ، فَيَتَهَاقُ، يَفْرُؤُونَهُ لَا يَجِدُونَ لَهُ شَهْوَةً، وَلَا لَذَّةً، يَلْبَسُونَ جُلُودَ الضَّانِ عَلَى قُلُوبِ الذَّنَابِ، أَعْمَالُهُمْ طَمَعٌ لَا يُخَالِطُهُ خَوْفٌ، إِنْ قَصَرُوا قَالُوا: سَنَبْلُغُ، وَإِنْ أَسَاؤُوا قَالُوا: سَيَغْفِرُ لَنَا، إِنَّا لَا نُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا»^(٣).

٧ - القلب الخرب كالبيت الخرب:

* عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ مَأْدُبَةٌ لِلَّهِ، فَخُذُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، فَإِنِّي لَا أَعْلَمُ شَيْئًا أَضْفَرَ مِنْ خَيْرٍ مِنْ بَيْتٍ لَيْسَ فِيهِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ شَيْءٌ، وَإِنَّ الْقَلْبَ الَّذِي لَيْسَ فِيهِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ شَيْءٌ خَرِبٌ كَخَرَابِ الْبَيْتِ الَّذِي لَا صَاحِبَ لَهُ»^(٤).

- (١) رواه الحاكم في «المستدرک» (٣٩٧/٢) (رقم ٢٣٨٦) وقال: «صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي. ورواه ابن المبارك في «كتاب الجهاد» (١٣٢/١) (رقم ١٥٩). قال ابن حجر في «الإصابة» (٢٢٢/١): «وهو صحيح السند».
- (٢) رواه الدارمي في «سننه»، كتاب فضائل القرآن، باب: في تعاهد القرآن (٣١١/٢) (رقم ٣٣٤٤)؛ والآجري في «أخلاق حملة القرآن» (ص ٧٧) (رقم ٥٤)؛ ومحمد بن نصر في «قيام الليل» (ص ٧٣)؛ والإمام أحمد في «الزهد» (ص ٢٧٢).
- (٣) رواه الدارمي في «سننه»، كتاب فضائل القرآن، باب: في تعاهد القرآن (٣١١/٢) (رقم ٣٣٤٦). وانظر: تاريخ مدينة دمشق، لأبي القاسم علي بن الحسن الشافعي (٩٧/٦٧).
- (٤) رواه الدارمي في «سننه»، كتاب فضائل القرآن، باب: فضل من قرأ القرآن (٣٠٢/٢) =

٨ - القلب الخبيث كالأرض الخبيثة:

* عَنْ قَتَادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ [الأعراف: ٥٨]، قَالَ: «الْبَلَدُ الطَّيِّبُ: الْمُؤْمِنُ سَمِعَ كِتَابَ اللَّهِ فَوَعَاهُ فَأَخَذَ بِهِ فَاَنْتَفَعَ بِهِ، كَمَثَلِ هَذِهِ الْأَرْضِ أَصَابَهَا الْغَيْثُ فَأَنْبَتَتْ وَأَمْرَعَتْ. ﴿وَالَّذِي خَبْتُ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف: ٥٨] عَسِرًا، مِثْلَ الْكَافِرِ قَدْ سَمِعَ الْقُرْآنَ فَلَمْ يَعْقِلْهُ، وَلَمْ يَأْخُذْ بِهِ، وَلَمْ يَنْتَفِعْ بِهِ، كَمَثَلِ هَذِهِ الْأَرْضِ الْخَبِيثَةِ أَصَابَهَا الْغَيْثُ فَلَمْ تُنْبِتْ شَيْئًا وَلَا تُمْرِغْ شَيْئًا»^(١).

* وعن السُّدِّي^(٢) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبْتُ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا﴾. والنَّكِدُ: الشَّيْءُ الْقَلِيلُ الَّذِي لَا يَنْفَعُ، كَذَلِكَ الْقُلُوبُ لَمَّا نَزَلَ الْقُرْآنُ، فَالْقَلْبُ الْمُؤْمِنُ لَمَّا دَخَلَ الْقُرْآنُ آمَنَ بِهِ، وَثَبَّتَ الْإِيمَانُ فِيهِ؛ وَالْقَلْبُ الْكَافِرُ لَمَّا دَخَلَهُ الْقُرْآنُ لَمْ يَتَعَلَّقْ مِنْهُ بِشَيْءٍ يَنْفَعُهُ، وَلَمْ يَثْبِتْ فِيهِ مِنَ الْإِيمَانِ شَيْءٌ إِلَّا مَا لَا يَنْفَعُ، كَمَا لَمْ يُخْرِجْ هَذَا الْبَلَدُ إِلَّا مَا لَا يَنْفَعُ مِنَ النَّبَاتِ»^(٣).

* وعن مجاهد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبْتُ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ قَالَ:

= (رقم ٣٣٠٧)؛ وعبد الرزاق في «مصنفه» (٣/٣٦٨) (رقم ٥٩٩٨)؛ وأورده السيوطي في «الدرر المثلثة» (٣/٤٧٨)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن المنذر، وأبي الشيخ عن قتادة.

(١) رواه الأَجْرِيُّ في «أخلاق حملة القرآن» (ص ٧٧) (رقم ٥٥)؛ وأورده السيوطي في «الدرر المثلثة» (٣/٤٧٨)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن المنذر، وأبي الشيخ عن قتادة.

(٢) هو إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة الحجازي الأعور السُّدِّي أحد موالى قريش، وهو السُّدِّي الكبير المفسر، ذكره ابن حبان في الثِّقَات، ووثقه غير واحد، وضعفه آخرون، قال العجلي: ثقة، عالم بتفسير القرآن، راوية له، وقد ذكره الطَّبْرِي في تفسيره من طريق أسباط بن نصر الهمداني، وله تفسير، مات سنة (١٢٧هـ).

انظر: سير أعلام النبلاء (٥/٢٦٤)؛ تاريخ الثِّقَات، للعجلي، تحقيق: د. عبد المعطي قلنجي (ص ٦٦)؛ الثِّقَات، لابن حبان (٤/٢٠).

(٣) رواه الطَّبْرِي في «تفسيره» (٥/٢٦٨) (رقم ١٤٧٩٩).

«البلد الطيب ينفعه المطر فينبت، والذي خُبث: السباح، لا ينفعه المطر، لا يخرج نباته إلا نكدًا، قال: هذا مثلٌ ضربه الله لآدم وذريته كلهم، إنما خُلِقُوا مِنْ نَفْسٍ واحدة، فمنهم مَنْ آمَنَ بالله وكتابه فطاب؛ ومنهم مَنْ كفر بالله وكتابه فخبث»^(١).

٩ - الجهل بالقرآن يؤدي إلى الاختلاف ثم الاقتتال:

* عن إبراهيم التيمي^(٢) رضي الله عنه قال: «خَلَا عُمَرُ ذَاتَ يَوْمٍ فَجَعَلَ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ كَيْفَ تَخْتَلِفُ هَذِهِ الْأُمَّةُ وَنَبِيِّهَا وَاحِدٌ، وَقِبْلَتُهَا وَاحِدَةٌ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! إِنَّا أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ فَقرَأْنَاهُ، وَعَلِمْنَا فِيهِ أَنْزَلَ، وَإِنَّهُ سَيَكُونُ بَعْدَنَا أَقْوَامٌ يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ، وَلَا يَذَرُونَ فِيهِ أَنْزَلَ، فَيَكُونُ لَهُمْ فِيهِ رَأْيٌ، وَإِذَا كَانَ لَهُمْ فِيهِ رَأْيٌ اخْتَلَفُوا، فَإِذَا اخْتَلَفُوا اقْتَتَلُوا»^(٣).



(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٦٨/٥) (رقم ١٤٨٠٠).

(٢) هو إبراهيم بن يزيد بن شريك التيمي، من تميم الرباب، ويكنى أبا أسماء، الكوفي، العالم، العاقل. قال الذهبي: «كان من الثقات، وليس حديثه بكثير، احتج به أهل الكتب». قال الأعمش: «سمعتة يقول: ربما أتى عليّ شهران لا أطعم فيها، لا يسمعن هذا منك أحد». قتله الحجاج. وقيل: بل مات في حبسه ولم يبلغ الأربعين، مات قبل أنس بن مالك، سنة (٩٢هـ) رحمه الله تعالى.

انظر: تذكرة الحفاظ (٧٣/١)؛ الطبقات الكبرى (٢٨٥/٦).

(٣) رواه سعيد بن منصور في «سننه» (١٧٦/١) (رقم ٤٢)؛ والبيهقي في «شعب الإيمان» (٥/٢٣٠)؛ وأورده علي بن حسام الدين الهندي في «كنز العمال» (١٤٥/٢) (رقم ٤١٦٧).

الباب الثاني

أنواع الهجر

وفيه تسعة فصول:

الفصل الأول: هجر الإيمان بالقرآن (الكفر به).

الفصل الثاني: هجر تعظيم القرآن (الاستهزاء به).

الفصل الثالث: هجر استماع القرآن.

الفصل الرابع: هجر تعلُّم القرآن وتعليمه.

الفصل الخامس: هجر تلاوة القرآن.

الفصل السادس: هجر حفظ القرآن.

الفصل السابع: هجر تدبُّر القرآن.

الفصل الثامن: هجر العمل بالقرآن.

الفصل التاسع: هجر التَّحاكم إلى القرآن.

الفصل الأول

هجر الإيمان بالقرآن (الكفر به)

وفيه ستة مباحث:

المبحث الأول: وجوب الإيمان بالقرآن ومقتضياته.

المبحث الثاني: الآيات الدالة على وجوب الإيمان بالقرآن.

المبحث الثالث: الوعيد على هجر الإيمان بالقرآن.

المبحث الرابع: أنواع التكذيب بالقرآن.

المبحث الخامس: حكم التكذيب بالقرآن.

المبحث السادس: أهل الكتاب وتكذيبهم بالقرآن.

المبحث الأول

وجوب الإيمان بالقرآن ومقتضياته

أولاً: وجوب الإيمان بالقرآن:

الإيمان بالقرآن العظيم هو أحد أصول الإيمان وأركانه، أوجبه الله تعالى على العباد، فلا يتم إيمان أحدٍ إلّا إذا آمن به تفصيلاً، وبالكتب التي أنزلها الله تعالى على رسله إجمالاً، وأفضلها القرآن الكريم.

وقد أخبر الله تعالى أنّ الرسول ﷺ والمؤمنين آمنوا بما أنزل الله تعالى على رسوله - وهو القرآن العظيم - وبما أنزل على الرُّسل من قبله فقال تعالى في مقام الثناء عليهم: ﴿ءَامَنَ الرُّسُلُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللّٰهِ وَمَلَكَاتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

ومما يدلُّ على وجوب الإيمان بالقرآن: أنّ الله عزَّ وجلَّ أمر المؤمنين بأن يؤمنوا بما أنزله على رسوله ﷺ في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللّٰهِ وَرُسُلِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ﴾ [النساء: ١٣٦].

ومما يدلُّ على وجوبه أيضاً: أنّ الله تعالى أهلك الأمم السابقة بسبب تكذيبهم برسالاته، كما حكى الله سبحانه عن صالح عليه السلام قوله: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَتَيْتُكُمْ بِرِسَالَةٍ مِنِّي وَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحَةَ﴾ [الأعراف: ٧٩].

ومن لم يؤمن بالكتب السابقة - مع إيمانه بالقرآن العظيم - وأنه أفضلها بلا شك - فقد خرج عن طريق الهدى إلى الضلال والكفر، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللّٰهِ وَمَلَكَاتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].
والمؤمنون في هذا الأمر على دَرَجَاتٍ نبيهم ﷺ حيث أمر الله تعالى رسوله محمداً ﷺ أن يعلن إيمانه بكل الكتب السابقة التي أوحاها الله عزَّ وجلَّ إلى

ورسله، فقال تعالى: ﴿وَقُلْ مَآ مَنَعْتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾ [الشورى: ١٥].
فكيف بالكتاب الذي أنزل عليه.

القرآن رحمة الله بعباده:

إن أنزال القرآن الكريم من رحمة الله تعالى بعباده لحاجة البشرية إليه؛ لأن عقل الإنسان محدود، لا يدرك تفاصيل النفع والضرر، وإن كان يدرك الفرق بين الضار والنافع إجمالاً، والعقل الإنساني أيضاً تغلب عليه الشهوات وتلعب به الأغراض والأهواء، فلو وُكِّلَت البشرية إلى عقولها القاصرة؛ لضلَّت وتاهت.

فاقتضت حكمة الله تعالى ورحمته أن ينزل كتاباً من عنده على المصطفين من رسله؛ ليبينوا للناس ما تدلُّ عليه هذه الكتب، وما تتضمنه من أحكامه العادلة، ووصاياه النافعة، وأوامره ونواهيه الكفيلة بإصلاح البشرية.

قال تعالى حين أهبط آدم أبا البشرية من الجنة: ﴿فَأَمَّا يَا بَنِيَّ كَمْ مَقِي هُدًى فَمَنْ جَمَعَ هُدًى فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿يَبْنَىْ مَادَمَ إِمَّا يَا بَنِيَّ كَمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ مَا يَلِيْكُمْ فَمَنْ أَتَقَىٰ وَاصْلَحَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٣٥].

وقد اقتضت حكمة الله تعالى - أيضاً - أن تكون هذه الكتب السابقة لأجال معينة، ولأوقات محدَّدة، ووكل حفظها إلى الذين است حفظوا عليها من البشر؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا مِن بَنِي هَادٍ وَالرَّبِّيْنُونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ [المائدة: ٤٤].

أمَّا القرآن العظيم: فقد أنزله الله ﷻ لكل الأجيال من الأمم، وفي كل الأوطان إلى يوم القيامة، وتولَّى حفظه بنفسه؛ لأنَّ وظيفة هذا الكتاب لا تنتهي إلا بنهاية حياة البشر على الأرض، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاقِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]. وقال تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]^(١).

(١) انظر: الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد، د. صالح بن فوزان الفوزان (ص ١٧٣ - ١٧٥).

وما أحوج المسلمين في هذا الزَّمن إلى القرآن؛ ذلك أنَّهم لا يستطيعون أن يواجهوا قضايا عصرهم وزمانهم إلا بالقرآن العظيم، يعتصمون به في روابطهم، ويسيِّمون أحكامه في حياتهم، ويجاهدون به أعداءهم ويصلحون به دنياهم، ويستقبلون به آخرتهم، ولقد اقتضت سنة الله تعالى في خلقه أن يكون أتباعهم القرآن العظيم سبباً لنجاتهم، قال الله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْقُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانُكُمْ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥ - ١٦] (١).

المزايا التي خصَّ بها القرآن عن الكتب السابقة:

وبما أنَّ القرآن العظيم هو آخر كتاب نزل من عند الله تعالى، فإنَّ الله تعالى قد خصَّه بمزايا تميِّزه عن جميع ما تقدَّمه من الكتب المنزَّلة، ومن أهمها:

١ - هو الكتاب الربَّاني الوحيد الذي تكفَّل الله تعالى بحفظه، وصيانته من عبث النَّاس، ليبقى ما فيه حُجَّة الله على النَّاس، قائمة حتَّى يرث الله الأرضَ ومنَّ عليها.

٢ - أنزله الله سبحانه على رسوله محمد ﷺ للنَّاس كافة، وليس خاصّاً بقوم معيَّنين، كما هو حال الكتب السابقة. قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [يوسف: ١٠٤].

٣ - تضمَّن خلاصة التَّعاليم الإلهية، فجَمَعَ كلَّ ما كان متفرِّقاً في الكتب السابقة من الحسنات والفضائل.

٤ - جاء مؤيِّداً ومصدِّقاً لما جاء في الكتب السابقة من توحيد الله وعبادته ووجوب طاعته.

٥ - جاء مهيمناً ورقياً على ما سبقه من كتب، يُقرُّ ما فيها من حقٍّ، ويبين ما دخل عليها من تحريف وتغيير. قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا

(١) انظر: عظمة القرآن الكريم، لمحمود بن أحمد الدوسري (ص ١٧).

لَمَّا بَيَّنَّ يَدِيهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّئْنَا عَلَيْهِ^(١) [المائدة: ٤٨].

٦ - جاء بشريعة عامة للبشر، فيها كل ما يلزمهم لسعادتهم في الدارين^(٢).

٧ - نسخ جميع الشرائع العملية الخاصة بالأقوام السابقة، وأتى بشريعة مزيّنة بزيّنة رفع الحرج والمشقة، حتى تُحبّها النفوس، وتُقبل على العمل بها دون كلل أو ملل، يُفضي إلى انقطاع، فالسّماحة واليسر من المزايا الخاصة التي تميّز بها القرآن العظيم عن جميع ما تقدّمه من الكتب المنزّلة.

قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقال تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة: ٦]^(٣).

٨ - نزل بأفضل الألسنة، وأفصحها، وأوسعها، وهو اللسان العربي

المبين^(٤).

٩ - كتاب متجدّد، لا تفنى عجائبه، ولا تنتهي نوادره، تجاوزَ حدود المكان ليشمل آفاق الدّنيا بأسرها، وتجاوزَ حدود الزّمان، فلم يتوقّف عند زمن معيّن، بل في كلّ زمن تجده ملائماً له، مُتّسقاً معه، كأنّما نزل لهذا الزّمن، وخصّ به دون غيره.

ثانياً: ما يقتضيه الإيمان بالقرآن:

والإيمان بالقرآن العظيم يقتضي عدّة أمور، من أهمّها:

١ - التّصديق الجازم بأنّه حقّ وصدق، وأنّه كلام الله تعالى.

٢ - أنّ فيه الهدى والنور والكفاية لهذه الأمة.

٣ - أنّ نؤمن به كلّهُ، فلا يجوز أن نؤمن ببعضه ونُتبعه ونترك البعض الآخر

ولا نُتبعه، فيجب علينا أن نطيع الله تعالى في كلّ ما يأمرنا به، قال تعالى:

﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ [آل عمران: ١١٩].

(١) انظر: المصدر نفسه (ص ١١٦ - ١٢٧).

(٢) انظر: الإيمان أركانه حقيقته وتواقضه، د. محمد نعيم ياسين (ص ٨١ - ٨٢).

(٣) انظر: عظمة القرآن الكريم (ص ٢٣٨ - ٢٤١).

(٤) انظر: تفسير السعدي (٤٨٥/٣).

وقال تعالى في توبيخ بني إسرائيل والإنكار عليهم: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَوْمٌ أَلِيمٌ يُرَدُّونَ إِلَيْهِ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ٨٥].

والقرآن العظيم من باب أولى فهو منهاج عملي يتضمن الأصول الموجهة لحياة الفرد، وعلاقته بربه تبارك وتعالى، وعلاقته بالكون والحياة من حوله، وعلاقته بنفسه، وعلاقته بأسرته وجيرانه ومجتمعه، وعلاقته بأُمته المسلمة، وعلاقته بغير المسلمين، ممن يسالمونه وممن يحاربونه^(١).

٤ - العمل به، والرضا به، والتسليم له، سواء فهمنا حكمته أم لم نفهمها^(٢).

٥ - الإيمان بأنه الكتاب الوحيد الذي حفظ من التغير والتبديل والتحريف، فصانه الله تعالى عن تقوّل الكاذبين، وحماه من تلاعب المشكّكين، بما هيأ له من وسائل الحفظ في الصدور والمصاحف، فجعله قطعي الثبوت، لا يتطرق إليه أدنى ريب، فهو كتاب خالد خلود الدهر، باقٍ ما دامت السماوات والأرض. قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]. وضمان العظمة تؤكد أنه غير قابل للاختراق.

٦ - أن نؤمن إيماناً قاطعاً بما فصله القرآن من حديث عن الكتب السابقة، لا نزيد ولا نقص^(٣).

٧ - أن نؤمن أن القرآن العظيم هو مصدر الشريعة، فلا شيء في حياة المسلم السياسيّة أو الاقتصادية أو الاجتماعية أو الأخلاقية أو الفكرية أو الروحية يرجع فيه إلى مصدر آخر غير هذا الكتاب^(٤).

٨ - أن شرح القرآن وتفصيله في سنة الرسول ﷺ، فهي المبيّنة للقرآن والموضحة له، ولا يفهم القرآن تفصيلاً وتوضيحاً إلا بها.

(١) انظر: المصدر السابق (ص ٥٣٢ - ٥٣٥).

(٢) انظر: الإيمان بالكتب، لمحمد بن إبراهيم الحمد (ص ٦ - ٧).

(٣) انظر: حق القرآن الكريم على الناس (ص ١٢ - ٢٣).

(٤) انظر: زكائر الإيمان (ص ٢١٠).

ثمرات الإيمان بالقرآن:

والإيمان الصحيح بالقرآن العظيم يُثمر ثمرات جليلة، ومن أهمها:

١ - العلم بعناية الله تعالى بهذه الأمة، حيث أنزل لها أعظم كتاب يهدي للتي هي أقوم في الدنيا والآخرة.

٢ - العلم بحكمة الله تعالى، حيث شرع لكل أمة ما يناسبهم، ويلائم

أحوالهم.

٣ - التحرر من سوءات أفكار البشر يهدي الله تعالى ونوره.

٤ - السير على طريق مستقيمة واضحة لا اضطراب فيها ولا اعوجاج،

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ قَرَأَ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِكَلِّهِ لَكَلَّا يُعْجَبَ﴾

الكهف: ١٧. فالقرآن العظيم مستقيم في ذاته، مقوم للنفوس على جادة

الصواب، والخط المستقيم أقصر مسافة بين نقطتين.

٥ - التحرر من الأوهام والخطأ العقلي.

٦ - الفرح بهذا الخير العظيم: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ يُفْرَحُونَ هُوَ خَيْرٌ

مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

٧ - شكر الله تعالى على هذه النعمة العظيمة والمنة الكبيرة.

٨ - السعادة في الدارين؛ الدنيا باتخاذها دستوراً حاكماً في كل شؤون

حياتنا، والآخرة بالفوز بالجنة، والمعيشة الطيبة^(١).



والله تعالى أعلم بالصواب.

والله تعالى أعلم بالصواب.

والله تعالى أعلم بالصواب.

والله تعالى أعلم بالصواب.

والله تعالى أعلم بالصواب.

والله تعالى أعلم بالصواب.

والله تعالى أعلم بالصواب.

(١) انظر: الإيمان بالكتب (ص ٢٣-٢٤).

المبحث الثاني

الآيات الدالة على وجوب الإيمان بالقرآن

إنَّ وجوب الإيمان بالقرآن الكريم أمرٌ في غاية الأهمية في حياة المسلمين؛ لأنَّ الإيمان به يتضمَّن الإيمان بسائر الكتب الإلهية التي نزلت قبله؛ لأنَّه هو المصدِّق لها جميعاً والمهيمن على ما جاء فيها، فالإيمان به إيمانٌ بها جميعاً^(١). وقد ورد وجوب الإيمان بالقرآن الكريم في آيات كثيرة منه، منها ما دلَّله على الوجوب صريحة، ومنها ما دلَّله على الوجوب ضمنية، ويكتفى هنا على ما كانت دلَّالته فيه صريحة، وذلك خشية الإطالة، وهي على النحو الآتي:

الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْثَلُ بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَاذِبِينَ﴾ [البقرة: ٤١].

الخطاب في قوله ﴿وَمَا أَمْثَلُ﴾ لليهود الذين هم في عصر نزول القرآن، فقد دعاهم الله تعالى للإيمان بما أنزل على عبده ورسوله محمد ﷺ، وهو القرآن، فأمرهم بالإيمان به، وأتباعه^(٢).

وقوله: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ أي: أنَّ القرآن مُوافق لما معكم من التَّوراة في التَّوحيد والنُّبوة والأخبار ونعت النَّبي ﷺ.

وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَاذِبِينَ﴾ أي: لا تكونوا أولَ فريقٍ كافرٍ بالقرآن من أهل الكتاب، فيتَّبِعكم مَنْ جاء بعدكم فتبَّعوا بآثامكم وآثامهم؛ وذلك لأنَّ قريشاً كفرت قبل اليهود بمكَّة^(٣).

(١) انظر: التفسير الموضوعي للآيات القرآنية المتعلقة بالكتب السماوية، د. عبد العزيز الدردير موسى (ص ٤٣٥ - ٤٤٠).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (١/١٩٩)؛ تفسير السعدي (١/٥٥).

(٣) انظر: تفسير البغوي (١/٦٧).

مسألة: وهل يقتضي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ إباحة الكفر في ثاني الحال؟

جوابها: لا يقتضي هذا بحال من الأحوال؛ وذلك لأن النهي عن الكفر مطلقاً جاء صريحاً في عدة آيات، وهذا يُسمّيه العلماء مفهوماً معطلاً.
قال القرطبي رحمه الله: «المقصود من الكلام النهي عن الكفر أولاً وآخرأ»^(١).
وقال ابن عاشور رحمه الله: «القصود من النهي ألا يكونوا من المبادرين بالكفر، أي لا يكونوا متأخرين في الإيمان»^(٢).

فتهاهم أن يكونوا أول كافر بالقرآن؛ لكون أول فريق كافر يسب الكفر لمن بعده، فيكون إثمهم أعظم، والعقوبة عليه أغلظ^(٣).
وهذا الأمر الصريح لأهل الكتاب في عهد النبي ﷺ بأن يؤمنوا بالقرآن، دليل صريح على وجوب الإيمان به.

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿أَتَعَى مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٠٦].
الأمر هنا: صادر من الله تعالى، والمخاطب: هو النبي ﷺ. والمراد بما أوحى إليه: القرآن، وهو قول عامة المفسرين.
ويمتن صرح بذلك: القرطبي^(٤) والبغوي^(٥)، والسمعاني^(٦)، وابن عاشور^(٧).

وهذا أمر صريح باتّباع القرآن، والإيمان به، والعمل بما جاء فيه. والخطاب وإن كان للنبي ﷺ، إلا أن المراد به هو وأمته، كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ أَتَى اللَّهَ وَلَا تَطْعَمُ الْكُفْرِينَ وَالْمُشْفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١].
الآية الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ مُبَارَكٌ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥].

(١) تفسير القرطبي (١/٣٣٣). (٢) التحرير والتنوير (١/٤٤٦).

(٣) انظر: التسهيل لتأويل التنزيل، مصطفى العدوي (١/٤٣٩).

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن (٧/٦٠).

(٥) انظر: تفسير البغوي (٢/١٢١). (٦) انظر: تفسير السمعي (٢/١٣٤).

(٧) انظر: التحرير والتنوير (٦/٢٥٨).

المراد بالكتاب هنا: هو القرآن كما يقول المفسرون، وكما هو ظاهر من سياق الكلام.

ومعنى كونه مباركاً: أي كثير الفوائد والمنافع الدنيوية. والفاء في قوله ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾ للترتيب، أي يترتب على كونه مُنزَلاً من عند الله، وكونه نافعاً مباركاً أن تَتَّبِعُوهُ فتؤمنوا به، وتعملوا بأوامره، وتجتنبوا نواهيه؛ لعلكم تصلون بذلك إلى رحمة الله تبارك وتعالى، التي وسعت كل شيء، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُمِبُهَا الَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وما أحسن ما قرره السمرقندي^(١) رحمه الله عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ فقال: «يعني: القرآن، فيه بركة لمن آمن به، وفيه مغفرة للذنوب، ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾ يعني: اقتدوا به. ويقال: اعملوا بما فيه من الأمر والنهي. ﴿وَاتَّقُوا﴾ يعني: واجتنبوا، ولا تتخذوا إماماً غير القرآن. ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ يعني: لكي تُرحموا، ولا تُعذبوا»^(٢). فما كان كذلك لا يتردد أحد في الإيمان به، واتباعه.

وهذا الأمر الصريح باتباع القرآن العظيم، دليل على وجوب الإيمان به، والاعتقاد الجازم بأنه مُنزَل من عند الله تبارك وتعالى.

الآية الرابعة: قوله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٣]. ظاهر اللفظ هنا يدل على أن ﴿مَا أُنْزِلَ﴾ مراد به القرآن، كما قرّر ذلك السيوطي^(٣) والسعدي^(٤). بدليل ما قبله من قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِئُنْذِرَ بِهِ﴾ [الأعراف: ٢]. فالكتاب، والضمائر العائدة إليه مراد بها القرآن.

(١) هو صاحب الأقوال المفيدة والتصانيف المشهورة، المعروف بإمام الهدى (أبو الليث) نصر ابن محمد السمرقندي، تشبه إلى سمرقند، من تصانيفه: «تفسير القرآن العظيم»، و«تنبيه الغافلين»، و«النازل في الفقه». توفي سنة (٣٧٥هـ).

انظر: طبقات المفسرين (٢/٣٤٦).

(٢) تفسير السمرقندي (١/٥١٣). (٣) انظر: الدر المنثور (٣/٤٨٣).

(٤) انظر: تفسير السعدي (١/٢٨٣).

وبعض المفسرين اعتمد أن المُنزَّل في الآية هو القرآن والسُّنة، استناداً إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْنَاكُمْ إِلَّا مَوْجُودًا وَمَا نَهَيْتُمْ عَنْهُ فَأَتَيْنَاهُ﴾ [الحشر: ٧] (١). وقد ذَكَرَ السَّمْعَانِي (٢) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ السُّنَّةَ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ مُنْزَلَةً فَهِيَ كَالْمُنْزَلَةِ بِحُكْمِ هَذِهِ الْآيَةِ (٣).

وَأَيَّامًا كَانَ فَالْآيَةُ الَّتِي مَعْنَاهَا أَمْرٌ صَرِيحٌ بِاتِّبَاعِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَالْإِيمَانِ الْجَازِمِ بِأَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى، وَهَذَا هُوَ الْمَقْصُودُ مِنْ إِيرَادِهَا. الْآيَةُ الْخَامِسَةُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَتَيْنَا مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبَرَ حَتَّىٰ يَخُصِمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاقِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٩].

الْأَمْرُ هُنَا بِاتِّبَاعِ الْوَحْيِ أَيْ الْقُرْآنِ، وَالْمُخَاطَبُ هُوَ النَّبِيُّ ﷺ. فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ فَإِنْ لَمْ يُصَدِّقْكَ فاعْمَلْ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنَ الْقُرْآنِ وَتَمَسَّكْ بِهِ، وَأَصْبِرْ عَلَىٰ تَكْذِيبِهِمْ، وَعَدَمُ إِيمَانِهِمْ بِالْقُرْآنِ حَتَّىٰ يَقْضِيَ اللَّهُ تَعَالَىٰ بِعَذَابِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ (٤).

فَهَذَا الْخُطَابُ وَإِنْ كَانَ ظَاهِرُهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ إِلَّا أَنَّ الْمُرَادَ هُوَ وَكُلُّ مُخَاطَبٍ، إِذِ النَّبِيُّ ﷺ مَأْمُورٌ بِالتَّبْلِيغِ أَيْضًا، قَالَ أَبُو السُّعُود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تَفْسِيرُهَا: «وَأَتَّبَعَ» اعْتِقَادًا وَعَمَلًا وَتَبْلِيغًا (٥).

وَالْآيَةُ صَرِيحَةٌ فِي الْأَمْرِ بِاتِّبَاعِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، مَعَ الْجَزْمِ وَالْيَقِينِ بِأَنَّهُ وَحْيٌ

(١) وَمِمَّنْ قَالَ بِذَلِكَ: الرَّازِي فِي «تَفْسِيرِهِ» (١٦/١٤)؛ وَالزَّمَخْشَرِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٨٣/٢)؛ وَالْبِيضَاوِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٤/٣)؛ وَالْقُرْطُبِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (١٦١/٧)؛ وَالنَّسْفِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٣/٢).

(٢) هُوَ مَنْصُورُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْجَبَّارِ التَّمِيمِيِّ، الْمُرُوزِيُّ، الْمَعْرُوفُ بِابْنِ السَّمْعَانِيِّ (أَبُو الْمَظْفَرِ) مَفْسِّرٌ، مُحَدِّثٌ، مُتَكَلِّمٌ، فَقِيهٌ، أَصُولِيٌّ، وَلَدَ سَنَةَ (٤٢٦هـ)، وَتَفَقَّهَ عَلَىٰ مَذْهَبِ أَبِي حَنِيفَةَ، ثُمَّ وَرَدَ بَغْدَادَ وَانْتَقَلَ إِلَى الْمَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ، وَرَجَعَ إِلَى بَلَدِهِ فَلَمْ يَقْبَلُوهُ، وَقَامَ عَلَيْهِ (الْعَوَامُّ) فَخَرَجَ إِلَى طُوسَ، ثُمَّ قَصَدَ نِيسَابُورَ، وَتَوَفَّى بِمُرُورِ سَنَةِ (٤٨٩هـ). مِنْ تَصَانِيفِهِ: «مَنْهَاجُ أَهْلِ السُّنَّةِ»، وَ«الْقَوَاطِعُ فِي أَصُولِ الْفِقْهِ»، وَ«تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ»، وَ«الْإِنْتِقَارُ فِي الْحَدِيثِ» انْظُرْ: طَبَقَاتُ الشَّافِعِيَّةِ (٢١-٢٦). (٢٨٩هـ).

(٣) انْظُرْ: تَفْسِيرُ السَّمْعَانِيِّ (١٦٤/٢).

(٤) انْظُرْ: تَفْسِيرُ ابْنِ كَثِيرٍ (٤٣٦/٢)؛ تَفْسِيرُ السُّعْرَقَنْدِيِّ (١٣٦/٢).

(٥) تَفْسِيرُ أَبِي السُّعُودِ (١٨١/٤).

من الله تعالى، أنزله على نبيه ﷺ، وهو المقصود من إيراد الآية.

الآية السادسة: قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَيْنَا مَعَادٌ﴾ [القصص: ٨٥].

المُخَاطَب في هذه الآية هو نبيُّنا محمد ﷺ.

«معنى فَرَضَ: أُلْزِمَ وَأَوْجِبَ وَحُتِمَ»^(١). فالفرض هو الإيجاب، فالله تعالى قد فرض وأوجب على نبيه ﷺ الإيمان بالقرآن، وتبليغه للناس كافةً، وتلاوته، والعمل بما فيه.

قال أبو السعود رحمه الله في تفسيرها: «أوجب عليك تلاوته، وتبليغه، والعمل به»^(٢).

وقال ابن كثير رحمه الله في تفسيرها: «أي إن الذي أوجب عليك تبليغ القرآن لرأذك إليه، ومعيدك يوم القيامة، وسأئلك عن أداء ما فرض عليك، هذا أحد الأقوال، وهو مُتَّجِهٌ حَسَنٌ»^(٣).

وكما وَجِبَ القرآن العظيم على النبي ﷺ فقد وجب على الأمة، وعلى كُلِّ مَنْ بلغه أن يؤمن به، ويعمل بما فيه من شرائع وعقائد، فيمثل أمره، ويجتنب نهيه، وهذا هو شاهدنا من إيراد هذه الآية، وقد وَضَحَ المراد، والحمد لله تعالى.

الآية السابعة: قوله تعالى: ﴿وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الزمر: ٥٥].

المراد بـ ﴿أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ﴾ هو القرآن العظيم. كما قرَّر ذلك ابن كثير^(٤)، وأبو السعود^(٥)، والبغوي^(٦)، والثعالبي^(٧)، والشوكاني^(٨).

- (١) تفسير الشعراوي (١١٠٣٩/١٨).
- (٢) المصدر السابق (٢٨/٧).
- (٣) تفسير ابن كثير (٥٨٣/٢).
- (٤) انظر: المصدر نفسه (٦١/٤).
- (٥) انظر: تفسير أبي السعود (٢٦٠/٧).
- (٦) انظر: تفسير البغوي (٨٥/٤).
- (٧) هو عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي الجزائري (أبو زيد): مفسر، من أعيان الجزائر، ولد سنة (٧٨٦هـ)، وزار تونس والمشرق. من كتبه: «الجواهر الحسان في تفسير القرآن»، و«الأنوار»، و«روضة الأنوار ونزهة الأخيار»، و«الذهب الإبريز في غريب القرآن العزيز». توفي سنة (٨٧٥هـ). انظر: طبقات المفسرين (٣٤٢/١).
- (٨) انظر: تفسير الثعالبي (٦١/٤).
- (٩) انظر: تفسير الشوكاني (٤٧١/٤).

والوصف بصيغة التفضيل (أحسن) فيه تفصيل:

ف قيل: معناه اتَّبِعُوا ما فيه من أمرٍ بالطَّاعة، فاجِدُوا في تحصيلها، وكُلُّ ما أَمَرَ القرآنُ بامثالِه فهو حَسَنٌ، وأمَّا ما فيه من نهي عن القبائح فابتعدوا عنها.
وقيل: معناه اتَّبِعُوا العملَ بالنَّاسخ، واجتنبوا العملَ بالمنسوخ، ولا شكَّ أنَّ الحُكمَ الجديد - الذي هو النَّاسخ - أحسن وأفضل للأُمَّة من الحُكمِ المنسوخ.
وقال البغويُّ رحمته الله عند قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾: «يعني: القرآن، والقرآنُ كُلُّهُ حَسَنٌ، ومعنى الآية ما قاله الحسن: التَّزَمُوا طاعته، واجتنبوا معصيته، فإنَّ القرآنَ ذَكَرَ القبيحَ لتجنيبه، وَذَكَرَ الأذونَ لئلاَّ ترغَبَ فيه، وَذَكَرَ الأحسنَ لتؤثِّره»^(١).

ولا ريبَ أنَّ القرآنَ العظيمَ أَحْسَنُ ما أُنْزِلَ إلينا من رَبِّنا تبارك وتعالى، فله الحمد والمِنَّة، والسَّنةُ مَبِينَةٌ له ومَوْضُحَةٌ، لكنَّ هذه النُّعمةَ الجليلةَ تستوجب الشُّكْرَ العمليَ بالإضافة إلى الشُّكْرِ اللفظي، فقد هُدِّدَ مَنْ لم يَتَّبِعْ أَحْسَنَ ما أُنْزِلَ إلينا مِنْ رَبِّنا، ولم يؤمن به، بقوله تعالى: ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ بَقَّةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾^(٢) [الزمر: ٥٥].

وكما قال ابن عطية الأندلسي رحمته الله^(٣): «معناه أنَّ القرآنَ العزيزَ تضمَّنَ عقائدَ نيرةً، وأوامرَ ونواهي مُنْجِيةً، وعِداتٍ على الطاعات والبرِّ، وحدوداً على المعاصي، ووعيداً على بعضها، فالأَحْسَنُ أَنْ يَسْلُكَ الإنسانُ طريقَ التفهم والتَّحصيل، وطريقَ الطَّاعة، والانتهاء والعفو في الأمور، ونحو ذلك، فهو أَحْسَنُ مِنْ أَنْ يَسْلُكَ طريقَ الغفلة والمَعْصية، فيجد أو يقع في الوعيد»^(٤).

والأمر العامُّ باتباع القرآن، والإيمان به، والعمل بما فيه، صريح الدلالة على وجوب الإيمان بالقرآن العظيم.

(٢) انظر: أضواء البيان (٧/٣٠٠).

(١) تفسير البغوي (٤/٨٥).

(٣) هو أبو محمد، عبد الحق بن غالب بن عبد الملك بن عطية، الغرناطي، القرطبي، علَّم المفسرين، كان فقيهاً عارفاً بالأحكام والحديث والتفسير واللغة، ولي القضاء. من أهم مؤلفاته: «تفسير المحرر الوجيز». توفي سنة (٥٤٦هـ).

انظر: طبقات المفسرين (١/٢٦٠).

(٤) تفسير ابن عطية (٤/٥٣٧).

الآية الثامنة: قوله تعالى: ﴿فَاسْتَمِيعْ بِالَّذِي أَوْحَىٰ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف: ٤٣].

المخاطب هنا: رسول الله ﷺ، والذي أوحى إليه: هو القرآن، والأخذ به والاستمساك بحبله: هو الحق الموصول إلى الصراط المستقيم، الموصول إلى الجنة.

قال ابن كثير رحمه الله عند تفسيرها: «أَيُّ خُذْ بِالْقُرْآنِ الْمَنْزِلَ عَلَى قَلْبِكَ فَإِنَّهُ هُوَ الْحَقُّ، وَمَا يَهْدِي إِلَيْهِ هُوَ الْحَقُّ الْمُفْضِي إِلَى صِرَاطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ، الْمَوْصِلُ إِلَى جَنَّاتِ النَّعِيمِ، وَالْخَيْرِ الدَّائِمِ الْمَقِيمِ»^(١).

وقال القرطبي رحمه الله في قوله ﴿فَاسْتَمِيعْ بِالَّذِي أَوْحَىٰ إِلَيْكَ﴾: «يُرِيدُ الْقُرْآنَ، وَإِنْ كَذَبَ بِهِ مَنْ كَذَّبَ»^(٢).

فالأمر من الله تعالى لنبيه ﷺ بالاستمساك بالقرآن العظيم، أي: الأخذ به، والإيمان الجازم بأنه من عند الله تعالى، والعمل بجميع شرائعه - كما لا يخفى على أحد - شامل للنبي ﷺ ولأمته.

الآية التاسعة: قوله تعالى: ﴿فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ﴾ [التغابن: ٨]. هذا أمر من الله تعالى لعباده أجمعين أن يؤمنوا بالله ورسوله محمد ﷺ، وأن يؤمنوا بالقرآن الذي أنزله الله تعالى إليه، وقد سَمَّى الله تعالى القرآن نوراً؛ لأنه واضح في نفسه موضح لغيره، فأشبهه في ذلك النور.

وقد دلَّت هذه الآية الكريمة على أن القرآن نور يكشف ظلمات الجهل، ويظهر في ضوئه الحق، ويتميز عن الباطل، ويتميز به بين الهدى والضلال، والحسن والقيح.

فيجب على كل مسلم أن يؤمن به ويستضيء بنوره، فيعتقد عقائده، ويحلَّ حلاله، ويحرِّم حرامه، ويمتثل أوامره، ويجتنب ما نهى عنه، ويعتبر بقصصه وأمثاله^(٣).

ففي هذه الآية أمر صريح بالإيمان بالقرآن العظيم، المعبر عنه بالنور.

(٢) تفسير القرطبي (٩٣/١٦).

(١) تفسير ابن كثير (١٢٩/٤).

(٣) انظر: أضواء البيان (٨٠/٧).

المبحث الثالث

الوعد على هجر الإيمان بالقرآن

كما أَنَّ التَّوْبَةَ فِي الشَّيْءِ وَتَرْتَّبَ ثَوَابٌ عَلَى فَعْلِهِ، أَوْ مَدَحٌ فَاعْلَهُ يَدُلُّ عَلَى أَهْمِيَّتِهِ، وَوَجوبِ فَعْلِ هَذَا الشَّيْءِ أحياناً، فَكَذَلِكَ التَّحْذِيرُ مِنْ ضِدِّهِ، أَوْ الْوَعْدُ الشَّدِيدُ عَلَى هَذَا الضَّدِّ، أَوْ ذَمُّ فاعِلِ هَذَا الضَّدِّ يَدُلُّ دَلَالَةً ضَمْنِيَّةً عَلَى وَجوبِ الشَّيْءِ ذَاتِهِ.

ومحلُّ شاهدنا في هذا الأمر هو الإيمان بالقرآن العظيم، فإذا وجدنا - كما مرَّ بنا - من الآيات ما يوجب الإيمان به، ويحثُّ على ذلك بمدح فاعله، وبيان ثوابه في الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فهذا يعني وجوب الإيمان بالقرآن، وكذلك إذا وجدنا من الآيات ما يُحذِّرُ مِنَ الْكُفْرِ بِهِ، أَوْ مَا يُرْتَّبُ عِقَاباً شَدِيداً عَلَى الْكُفْرِ بِهِ، أَوْ مَا يَدُلُّ عَلَى الذَّمِّ لِمَنْ كَفَرَ بِهِ، علمنا بطريق الدَّلَالَةِ الضَّمْنِيَّةِ أَنَّ الْإِيمَانَ بِالْقُرْآنِ وَاجِبٌ، وَحُتْمٌ لَازِمٌ.

وقد وردت في القرآن الكريم من الآيات ما يحذِّرُ مِنَ الْجَحْدِ بِهِ، وَمَا يَدُلُّ عَلَى الْعِقَابِ أَوْ الذَّمِّ لِمَنْ كَفَرَ بِهِ^(١) مِمَّا يَحْمِلُ دَلَالَةً ضَمْنِيَّةً عَلَى وَجوبِ الْإِيمَانِ بِالْقُرْآنِ، وَوَعْدِاً عَلَى التَّكْذِيبِ وَالْكَفْرِ بِهِ، وَيُكْتَفَى هُنَا بِذِكْرِ بَعْضِ مِنَ الْآيَاتِ الدَّلَالَةِ عَلَى التَّحْذِيرِ وَالْوَعْدِ وَالذَّمِّ لِمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهَذَا الْكِتَابِ الْحَكِيمِ، وَهِيَ عَلَى النَّحْوِ التَّالِي:

الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ [البقرة: ٩٩].

روى ابن كثير وغيره عن ابن عباس رضي الله عنه قال: «قال ابن صوريا الفطيويني

(١) انظر: التفسير الموضوعي للآيات القرآنية المتعلقة بالكتب السماوية (ص ٤٧٧ - ٤٨٥).

لرسول الله ﷺ: يا محمد، ما جئتنا بشيء نعرفه، وما أنزل الله عليك من آية بينة فننتبعك، فأنزل الله تعالى في ذلك من قوله: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾^(١).

قال أبو السعود رحمه الله عند تفسيرها: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات الدلالة على معانيها، وعلى كونها من عند الله عز وجل ﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ أي: المتمردون في الكفر، الخارجون عن حدوده، فإن من ليس على تلك الصفة من الكفرة لا يجترئ على الكفر بمثل هاتيك البينات^(٢).

فالله تعالى ذم الكافرين بآيات الكتاب العظيم، وسجل عليهم أشنع الأوصاف، وهو الفسق. وفي هذا دليل ضمني على وجوب الإيمان بهذه الآيات، ويحثم التصديق بأنها من الله تبارك وتعالى، وإلا صدق عليه الحكم بالكفر، والنعت بالفسق.

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾^(٣) لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوَّلِ الْأَوَّلِينَ يُضَلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِلَّا سَكَاةً مَا يَرْزُقُونَ ﴿[النحل: ٢٤ - ٢٥].

المقول لهم، والذين أجابوا بهذا الجواب: هم كفار مكة، وهم الذين تقدم وصفهم: بأن قلوبهم منكرة وهم مستكبرون، في قوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٢٢].

وقد ذكر البغوي رحمه الله وغيره من المفسرين: أن هؤلاء الكفار كانوا يقتسمون طرق مكة، فيقفون على مداخلها، فإذا جاء الحجيج ذكروا لهم أن بها رجلاً اسمه محمد كذاب، يدعي أنه يوحى إليه، فلا تصدقوه، فإن ما يقوله هو أساطير الأولين^(٣).

والأساطير: هي الأباطيل. وهذا منهم تكذيب بالقرآن، وجحود لرسالة محمد ﷺ، فهم كفروا بالقرآن، وأرادوا حمل غيرهم على هذا الكفر، ولذلك

(٢) تفسير أبي السعود (١/١٣٤ - ١٣٥).

(١) تفسير ابن كثير (١/٢٩٦).

(٣) انظر: تفسير البغوي (٢/٦١٠).

استحقُّوا أَنْ يَحْمِلُوا وِزْرَهُمْ، أي: إثم تكذيبهم بكتاب الله، ووزر غيرهم مِمَّنْ أضلُّوهم.

ثُمَّ نَبَّهَ المولى جَلَّ ثَنَاؤُهُ على أَنَّ ما تحمَّله القوم من إثم ضلالهم، وإثم إضلالهم قد بلغ الغاية في السُّوء، فقال تعالى: ﴿أَلَا سَكَّةَ مَا يَزْرُونَ﴾.

أي: بنس شيئاً يَزِرُّونه ما ذُكِرَ، وهذا وعيدٌ لهم، وتهديدٌ بعذابهم يوم القيامة^(١).

فَالذَّمُّ على التَّكْذِيبِ بالقرآن، والوعد الشَّدِيدُ على الكفر به يوم القيامة، يقتضي وجوب الإيمان به حتماً.

الآية الثالثة: قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٤].

يدلُّ سياق الكلام ولحاقه على أَنَّ المراد بهؤلاء المكذِّبين بآيات الله تعالى هم الكفَّار في عصر النَّبي ﷺ، وأنَّ الآيات المُكذَّب بها هي آيات القرآن الكريم. فَقَبِلَ هذه الآية مباشرة قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَمْنَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣]. فهذا القول معروف عن كفار مكَّة، والمُعَلِّم - في نظرهم - القرآن.

وبعدها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَادِبُونَ﴾ [النحل: ١٠٥]. وهذه أيضاً أوصاف كفَّار مكَّة. وافتراءهم قولهم: إِنَّ القرآن سحر، أو كهانة، أو أساطير الأولين، إلى غير ذلك^(٢).

وقد سجَّل الله تعالى عليهم أقبح الصِّفَات - وهو الكذب - وأخبر أنه لا يهديهم، أي لا يوفِّقهم لاختيار طريق الحقِّ، وتوعَّدهم بالعذاب الأليم المُوجع يوم القيامة، وذلك جزاء كفرهم بهذه الآيات، وفي ذلك ما يدلُّ دلالة واضحة على وجوب الإيمان بالقرآن العظيم، والتَّصديق بأنَّه كلام الله عزَّ وعلا.

(١) انظر: تفسير الشوكاني (١٥٧/٣).

(٢) انظر: تفسير السمرقندي (٢٩٣/٢)؛ تفسير أبي السعود (١٤٢/٥).

الآية الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَاتَ نَبَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ۖ مَن أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ۖ خَلِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا﴾ [طه: ٩٩ - ١٠١].

المخاطب: هو رسول الله ﷺ. والذكر: هو القرآن العظيم^(١).

«وإذا كان القرآن ذكرًا للرسول وأُمَّته، فيجب تلقّيه بالقبول والتَّسليم، والانقياد، والتَّعظيم، وأن يُهتدى بنوره إلى الصُّراط المستقيم، وأن يُقبلوا عليه بالتَّعلم والتَّعليم.

وأما مقابلته بالإعراض، أو ما هو أعمُّ منه من الإنكار فإنه كُفْرٌ لهذه النعمة، ومن فعل ذلك، فهو مستحقٌّ للعقوبة.

ولهذا قال: ﴿مَن أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ فلم يؤمن به، أو تهاون بأوامره ونواهيه، أو بتعلُّم معانيه الواجبة ﴿فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا﴾ وهو ذنبه، الذي بسببه أعرض عن القرآن، وأولاه الكفر والهجرا^(٢).

وهذه الآيات الكريمة فيها التحذير من التَّكذيب بالقرآن، والإعراض عنه، وتهديدٌ شديد لمن كذب وكفر به، بأنه يوم القيامة يمكث في أوزاره وأحماله الثَّقلية.

الآية الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ مَّآخُزُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ [الفرقان: ٤].

صُدِّرت الآية بتكفير من قال هذه المقالة الشَّنيعة، فقد سجَّل الله تعالى عليهم الكفر؛ بسبب كذبهم، وبهتانهم، واستهزائهم بالقرآن العظيم، حيث قالوا: ﴿إِنَّ هَذَا﴾ يريدون بهذا التَّعبير الحطَّ من شأنه.

والإفك: هو أشدُّ الكذب، وقولهم: ﴿افْتَرَاهُ﴾ اختلقه من عند نفسه.

وقولهم: ﴿وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ مَّآخُزُونَ﴾ يريدون اليهود، أو بعض من كانوا يصنعون السُّيوف بمكَّة، ممن كانوا يقرؤون التَّوراة والإنجيل^(٣).

وأياً ما كان فقد دمعهم الله تعالى بالظُّلم في هذا القول، ووصفهم بالتَّزوير في هذا الادِّعاء.

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣٢٢/٥). (٢) تفسير السعدي (٢٥٠/٣ - ٢٥١).

(٣) انظر: تفسير البغوي (٨٥/٣، ٣٦١)؛ زاد المسير (٤٩٣/٤)؛ التفسير الكبير (٤٤/٢٤).

وما أَحْسَنَ ما قاله الزمخشري^(١) عن ظلمهم وزورهم: «ظلمهم: أن جعلوا العربيَّ يتلقَّن من الأعجميِّ الرُّومي كلاماً عربياً، أعجزَ بفصاحته جميعَ فصحاء العرب. والزُّور: أن بهتوه بنسبة ما هو بريء منه إليه»^(٢).

فحكم القرآن عليهم بالكفر؛ لأنهم ظالمون وكاذبون في هذا القول، وأنه كان يجب عليهم التصديق، والإيمان بأنه كلامُ الله تعالى، بدل الكذب والافتراء، فيه دليلٌ ضمنيٌّ على وجوب الإيمان بالقرآن بالنسبة لهم ولغيرهم.

الآية السادسة: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَكُنْ مُصْطَكِرًا كَانَتْ لَهُ يَسْمَعُهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ وَقَرَأَ فَنُصِرَتْ بِهِ ذَاكُ الْأَلِيمِ﴾ [لقمان: ٧].

المراد بـ (آياتنا) هو القرآن العظيم. ومعنى ﴿وَكُنْ مُصْطَكِرًا﴾ أي: أعرض عنها تكبراً وجحوداً. ﴿كَأَن لَّهُ يَسْمَعُهَا﴾ أي: كأنه لم يسمعها، فحذف ضمير الشأن.

ومعنى ﴿كَأَن فِي أُذُنِهِ وَقَرَأَ﴾ أي: صمم. والواقع أنه ما به صمم حقيقة، ولكنه تصامم عنها تكبراً. ﴿فَنُصِرَتْ بِهِ ذَاكُ الْأَلِيمِ﴾ أي: موجه يؤلمه، والتعبير بالبشارة من باب التهكم والسخرية منه^(٣).

فالله تعالى توعد المكذب بالقرآن بالعذاب الأليم، ووصفه بالتكبر والإعراض، وذلك دليل ضمنيٌّ على أن الإيمان بالقرآن أمرٌ واجب.

الآية السابعة: قوله تعالى: ﴿أَمْ نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدْعُونَ عَذَابِي﴾ [ص: ٨].

هذا النص هو مقول كفار قريش، والاستفهام للإنكار، أي كيف يكون

(١) هو أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد الزمخشري الخوارزمي، العلامة، النحوي، اللغوي، المفسر، كبير المعتزلة، يُلقب جارا لله للمجاورة مكة زماناً، ولد سنة (٤٦٧هـ) بزمخشري من قرى خوارزم، كان رأساً في البلاغة والعربية، مجاهراً باعتزاله وداعية إليه، له تصانيف كثيرة منها: تفسير «الكشاف»، و«الفائق في غريب الحديث»، و«أساس البلاغة». توفي سنة (٥٣٨هـ).

انظر: سير أعلام النبلاء (١٥١/٢٠)، طبقات المفسرين (٣١٤/٢).

(٢) الكشاف (٢٦٩/٣).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (١٤٩/٤)؛ تفسير أبي السعود (٦٩/٧).

ذلك، ونحن الرؤساء والأشراف. وهو نظير قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

فالمراد بالذكر هنا القرآن، ومرادهم - في هذه الآية - إنكار كونه مُنَزَّلًا من عند الله تعالى.

وقوله: ﴿بَلْ لَّمْ يَذُوقُوا عَذَابٍ﴾ أي: من القرآن. فتارة يقولون: هو سحر، وتارة يقولون: أساطير الأولين، إلى غير ذلك.

﴿بَلْ لَّمْ يَذُوقُوا عَذَابٍ﴾ أي: بل السبب أنهم لم يذوقوا عذابي، فاغترؤوا بطول المهلة، ولو ذاقوا عذابي - على ما هم عليه من الشرك والشك - لصدّقوا ما جئت به من القرآن، ولم يشكّوا فيه^(١). والتعبير بـ «لَمَّا» إشارة إلى قرب وقوع ذلك. والمعنى: أنهم لا يُصدّقون به حتّى يمسه العذاب^(٢).

فتوعّد الله تعالى الشاكّين في القرآن بأن يمسه عذابه يوم القيامة جزاء تكذيبهم له، دليل على أنّ التصديق بالقرآن العظيم، والإيمان بأنّه من الله تعالى أمر واجب.

الآية الثامنة: قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ ثَمَرٌ كَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ أَضَلِّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٥٢].

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ بمعنى: أخبروني ﴿إِنْ كَانَ﴾ أي: القرآن ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أي: مُنَزَّل من قِبَلِه على عبده ورسوله محمد ﷺ. ﴿ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ﴾ مع علمكم أنّه من الله تعالى، ومع تعاضد الأدلة والبراهين على حقيقته.

﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ أي: مَنْ أَضَلُّ مِنْكُمْ؟ والتقدير: لا أحد أضلّ منكم؛ لفرط شقاقكم وعداوتكم^(٣).

فالتعبي والإنكار على مَنْ كَفَرَ بالقرآن، وَوَصَفَهُ بأنّه لا أحد أضلّ منه، وبأنّه في شقاق بعيد عن الحق؛ بكفرهم بالقرآن، يقتضي حتمًا وجوب الإيمان بالقرآن العظيم.

(٢) انظر: تفسير أبي السعود (٢١٦/٧).

(١) انظر: تفسير الشوكاني (٤٢١/٤).

(٣) انظر: تفسير القرطبي (٣٧٤/١٥).

الآية التاسعة: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَسَاءَلُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ﴾ ⑧ ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلُهُمْ﴾ [محمد: ٨ - ٩].

تحدث الله تعالى في هذه الآية الكريمة عن تعاسة الكفار.

والتعسُّ: هو الهلاك والعتار والسقوط والشر والبعد والانحطاط^(١).

والمعنى: قضى الله تعالى عليهم بالتعاسة، وإحباط أعمالهم، فلم تعد صالحة للانتفاع بها؛ وذلك لأن الأعمال بدون الإيمان لا تُغني عن صاحبها شيئاً.

قال الله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

والسبب الرئيس الذي أوصلهم إلى هذه التعاسة، وهذا الإضلال: أنهم ﴿كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ وهو القرآن، فكانت النتيجة الحتمية ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَلُهُمْ﴾.

وسبب كراهيتهم للقرآن: أنه جاءهم بالتوحيد، وإبطال عبادة الأصنام، التي ألفوها وورثوها عن آبائهم وأجدادهم، وجاءهم ببعض التكاليف التي فيها مشقة على نفوسهم، ومخالفة لآلهم.

فالله تعالى ذم المكذبين بالقرآن، الكارهين لما جاء به من توحيد وتكاليف، وقضى عليهم بالتعاسة، وإحباط الأعمال.

وهذا يدل بوضوح على أن الإيمان بالقرآن العظيم، والتصديق بأنه من الله تعالى، والتسليم والرضا بكل ما جاء به، أمر واجب على كل من سمعه ومن بلغه.



المبحث الرابع

أنواع التكذيب بالقرآن

وفيه سبعة مطالب:

المطلب الأول: الكفر الصريح بالقرآن.

المطلب الثاني: الاستكبار عن القرآن.

المطلب الثالث: التكذيب الصريح بالقرآن.

المطلب الرابع: الجحود بالقرآن.

المطلب الخامس: طلبهم تبديل القرآن.

المطلب السادس: تبويض القرآن.

المطلب السابع: الإعراض عن القرآن.

أنواع التكذيب بالقرآن

تمهيد:

مما سبق ذكره في المبحث الثالث، ومن خلال تتبع أكثر الآيات الواردة في القرآن العظيم والمتعلقة بترك الإيمان به، يتضح أن هناك مظاهر متعددة لهجر القرآن والحد المشترك فيها هو التكذيب بالقرآن، وتُجمل فيما يلي:

الكفر بالقرآن، والاستكبار عنه، والشك فيه، والتكذيب به، والجحود به، والاستهزاء به وبتعاليمه، وتبديله وتحريفه، والإعراض عنه ونبذه، وترك الاحتكام إليه، وكتمانه، والاختلاف فيه، والجدال فيه، والصدُّ عنه، والنهي عنه، والغفلة عنه، وترك العمل به، وإدعاء نسخه، وإدعاء نقصه، ومضاهاته ومعارضته.

ولقد فَصَّلَ القرآن العظيم هذه الخصال المذمومة بالشرح والتبيان، وعرض لها نماذج وأمثلة؛ حتى يحتاط المسلمون من الوقوع في إحداها.

ولئن امتدح الله تعالى الذين تعاملوا مع القرآن العظيم التَّعامل الصَّحيح حيناً، فإنه - جلَّ ذكره - ذمَّ الذين تعاملوا مع القرآن الكريم التَّعامل الخاطئ في مواضع كثيرة من كتابه؛ ليتنبَّه المسلمون حقَّ التَّنَبُّه، ويعوَّا تمام الوعي، وهم يقرؤون كلام الله تعالى، أو يسمعون.

وفيما يلي تفصيل لما أجمل ممَّا هو تكذيبُ بالقرآن المجيد نجده في المطالب الآتية:

المطلب الأول

الكفر الصريح بالقرآن

الكفر بالقرآن: هو اعتقاد بما يحمل معنى الكفر، أو تلفظ بما يحمل معنى الكفر، أو فعل بما يحمل معنى الكفر. ويستوي في ذلك من كفر بالقرآن جملة وتفصيلاً، ومن كفر بآية منه.

ولقد توعد الله ﷻ من كفر بالقرآن العظيم بالعذاب والهوان والصغار في الدنيا والآخرة، ومما جاء في ذلك:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [آل عمران: ٤].

فهذا وعيد من الله تعالى بالعذاب الشديد لمن كفر بالقرآن العظيم.

قال ابن عاشور رحمه الله في تفسيرها: «وشمل قوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ المشركين واليهود والنصارى في مرتبة واحدة؛ لأن جميعهم اشتركوا في الكفر بالقرآن، وهو المراد بآيات الله - هنا - لأنه الكتاب الوحيد الذي يصح أن يوصف بأنه آية من آيات الله؛ لأنه معجزة. وعبر عنهم بالموصول إيجازاً؛ لأن الصلة تجمعهم»^(١).

وقد فصل الله تعالى هذا العذاب الشديد في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٦].

وهذا الكفر بالقرآن العظيم صدر منهم قولاً صريحاً، ذكره الله تعالى عنهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [سبا: ٣١]. فقد حكى الله عز وجل قولهم الشنيع، ثم ذكر عقوبتهم في الآخرة مباشرة^(٢)؛ جزاء كفرهم بالقرآن وبالذي بين يديه من التوراة والإنجيل: ﴿وَلَوْ رَرَوْا إِلَى الظَّالِمُونَ مَوْفُوتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ

(١) التحرير والتنوير (١١/٣).

(٢) انظر: تفسير السمرقندي (٨٦/٣).

اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿هَلْ يُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبا: ٣١ - ٣٣] ^(١).

المطلب الثاني

الاستكبار عن القرآن

من أمثلة الاستكبار عن القرآن الكريم ما حكاه الله تعالى بقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ يَوْمَ تُخْرَجُونَ مِنْ عَذَابِ الْهَوْنِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

وقد ذكر الله تعالى في هذه الآية الكريمة أنواعاً من الاستكبار عن القرآن العظيم، ومن ذلك:

أ - افتراء الكذب على الله: والافتراء: هو الاختلاق، كما قال تعالى عن المشركين: ﴿وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتُلُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ [المائدة: ١٠٣]. فالذين افتروا على الله الكذب هم المشركون؛ لأنهم حللوا وحرّموا بهواهم وزعموا أن الله أمرهم بذلك، وأثبتوا لله شفعاء عنده كذباً ^(٢).

ب - ادّعاء النبوة كذباً: ويدخل في ذلك كلُّ مَنْ ادّعى النبوة، كمسيلمة الكذاب، والأسود العنسي، والمختار، وغيرهم ممّن اتّصف بهذا الوصف ^(٣).

ج - ادّعاء معارضة القرآن: ويدخل في ذلك كلُّ مَنْ يزعم أنه يقدر على معارضة القرآن، أو في إمكانه أن يأتي بمثله، كما فعل النضر بن الحارث؛ لأنّه عارض القرآن فقال: والطّاحنات طحناً. والعاجنات عجنناً. فالخابزات خبزاً.

(١) تأمل نماذج للكفر بالقرآن العظيم، والوعيد على ذلك، في أرقام آيات السور التالية: (الأنعام: ٧)، (الكهف: ١٠٥)، (الفرقان: ٣٢ - ٣٤)، (سبا: ٤٣)، (الزمر: ٦٣)، (فصلت: ٤١ - ٤٤)، (الجاثية: ١١)، (البلد: ١٩).

(٢) انظر: التحرير والتنوير (٦/ ٢٢٠ - ٢٢١).

(٣) انظر: تفسير السعدي (٢/ ٤٤).

فَالْأَلْقَمَاتِ لِقَمًا. ذَكَرَ ذَلِكَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ ^(١) عَنْ عِكْرَمَةَ ^(٢)، وَابْنِ عَطِيَّةٍ فِي تَفْسِيرِهِ ^(٣) عَنْ الزَّهْرَاوِيِّ وَالْمَهْدُودِيِّ، وَأَبُو حَيَّانٍ ^(٤) فِي تَفْسِيرِهِ ^(٥).

ثُمَّ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى الْعَذَابَ الَّذِي أَعَدَّ لَهُؤُلَاءِ الْمُسْتَكْبِرِينَ عَنِ الْقُرْآنِ فِي قَوْلِهِ: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ سَتَكِيرُونَ﴾ وقوله ﴿تُجْزَوْنَ﴾ أَي: تُفَطَّوْنَ جَزَاءً.

وَالْجَزَاءُ: هُوَ عَوَضُ الْعَمَلِ وَمَا يُقَابَلُ بِهِ مِنْ أَجْرِ أَوْ عِقُوبَةٍ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿جَزَاءً وَفَاءً﴾ [النبا: ٢٦].

وَالْهُونُ: هُوَ الْهَوَانُ وَالذُّلُّ ^(٦). وَالْمَقْصُودُ بِهِ: الْعَذَابُ الْمَتَضَمِّنُ لَشِدَّةٍ وَإِهَانَةٍ وَإِذْلَالٍ ^(٧).

وَسَبَبُ الْعَذَابِ: قَوْلُكُمْ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ، وَاسْتِكْبَارُكُمْ عَنِ الْإِيمَانِ بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَعَدَمُ تَصْدِيقِكُمْ بِهِ ^(٨).

وَجَزَاءُ الْاسْتِكْبَارِ عَنِ الْقُرْآنِ الْيَأْسُ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ؛ لِأَنَّهُمْ مَجْرُمُونَ وَظَالِمُونَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحْ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٠ - ٤١].

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن (٤٣/٧).

(٢) هو عكرمة البربري، أبو عبد الله، المدني، مولى ابن عباس، أصله من البربر، من علماء التابعين ومن المتبحرين بالتفسير، من كبار تلاميذ ابن عباس، اتهم ببعدة الخوارج الصفرية، ووثقه أئمة الحديث، قال ابن حجر: «ثقة، ثبت، عالم بالتفسير، لم يثبت تكذيبه عن ابن عمر، ولا ثبت عنه بدعة، من الثالثة، مات سنة (١٠٧هـ)».

انظر: تقريب التهذيب (٣٠/٢)؛ تهذيب التهذيب (٢٦٣/٧ - ٢٧٣).

(٣) انظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٢٨٧/٥).

(٤) هو محمد بن يوسف بن علي (أبو حيان) الأندلسي، الغرناطي، إمام العربية في عصره، مفسر، ومحدث، ومؤرخ، ومقرئ، اشتهر اسمه وطار صيته، وأخذ عنه أكابر عصره، ولد بقرطبة سنة (٦٥٤هـ)، ومات بالقاهرة سنة (٧٤٥هـ). من مصنفاته: «البحر المحيط» في التفسير، و«شرح كتاب سيويه»، و«تذكرة النحاة» و«ارتشاف الضرب من لسان العرب» وغيرها. انظر: طبقات المفسرين (٢٨٧/٢).

(٥) انظر: البحر المحيط (١٨٠/٤). (٦) انظر: التحرير والتنوير (٢٢٤/٦).

(٧) انظر: تفسير أبي السعود (١٦٣/٣). (٨) انظر: تفسير البغوي (١١٦/٢).

وأعظم اليأس لهم هو خلودهم في نار جهنم: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٦].

المطلب الثالث

التكذيب الصريح بالقرآن

من أمثلة التكذيب بالقرآن قوله تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٩].

فهؤلاء الكفار كفروا بالرُّسل المرسله إليهم، وكذبوا بالآيات المنزلة عليهم^(١). قال البغوي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾: «بالقرآن»^(٢). وكذلك قال السمرقندي رحمه الله: «يعني جحدوا بالقرآن»^(٣). ومثله قال القرطبي رحمه الله: «يعني القرآن»^(٤).

فهم قد جمعوا بين الكفر بالله تعالى والتكذيب بالقرآن العظيم، والعطف يقتضي المغايرة^(٥).

وقيل: التكذيب بالقرآن كفر، وهو من باب عطف الخاص على العام^(٦). فقد توعد الله تعالى من كذب بالقرآن العظيم - سواء كان من الإنس أو الجن - بالعذاب الدائم، وهو الخلود في نار جهنم لا يخرجون منها ولا يموتون فيها، فقال عز من قائل: ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(٧).

وبين الله تعالى في مواضع آخر جزاء التكذيب بالقرآن فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [الحديد: ١٩].

«والجحيم: النار الشديدة الإيقاد. ويقال: جَحَمَ فلان النار إذا شدد إيقادها»^(٨). فالنار ملازمة لهم ملازمة الصَّاحِب لصاحبه^(٩).

(١) انظر: المصدر السابق (٩٣/١). (٢) تفسير البغوي (١/٦٦).

(٣) تفسير السمرقندي (٣/٣٨٦). (٤) تفسير القرطبي (١٨/١٣٩).

(٥) انظر: تفسير الشوكاني (٣/٤٦٣). (٦) انظر: المصدر نفسه (٢/٦٨).

(٧) انظر: تفسير البغوي (١/٦٦)؛ تفسير الرازي (٣/٢٧).

(٨) تفسير الشوكاني (٢/٦٨). (٩) انظر: تفسير السعدي (١/٢٢٤).

وَمَنْ كَذَّبَ بِالْقُرْآنِ فَإِنَّ لَهُ عَذَابًا مَّهِينًا يُهَانَ فِيهِ جَزَاءً وَفَاقًا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [الحج: ٥٧]. يهانون فيه من شدته وألمه وبلوغه للأفئدة، كما استهانوا بالقرآن أهانهم الله تعالى بالعذاب^(١).

وَمَنْ كَذَّبَ بِالْقُرْآنِ كَذَلِكَ فَهُوَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرٌ عَلَى الدَّوَامِ لَا يَغِيبُ عَنْهُ أَبَدًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ [الروم: ١٦].

قال الرّازي^(٢) رَحِمَهُ اللَّهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾: «يَعْنِي لَا غَيْبَةَ لَهُمْ عَنْهُ، وَلَا فُتُورَ لَهُ عَنْهُمْ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [الحج: ٢٢]. وَقَالَ ﴿لَا يُفَقَّرُ عَنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٧٥]. أَيْ: الْعَذَابُ»^(٣).

وَهُنَاكَ مَعَانٍ مُتَقَارِبَةٌ فِي الْآيَةِ ذَكَرَهَا الْقُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فَقَالَ: «أَيْ: مُقِيمُونَ، وَقِيلَ: مُجْمَعُونَ، وَقِيلَ: مُعَذَّبُونَ، وَقِيلَ: نَازِلُونَ؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ [البقرة: ١٨٠]. أَيْ: نَزَلَ بِهِ»^(٤).

وَالْمُرَادُ: دَوَامُ عَذَابِ مَنْ كَذَّبَ بِالْقُرْآنِ، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ مِنْ هَذِهِ الْحَالِ.

المطلب الرابع

الجحود بالقرآن

الجحود ضدُّ الإقرار، ولا يكون إلَّا مع علم الجاحد به أَنَّهُ صَحِيحٌ^(٥).

(١) انظر: المصدر نفسه (١/٥٤٣).

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن عمر بن حسين القرشي، الطبرستاني الأصل، ثم الرّازي، المفسر، المتكلم، إمام وقته في العلوم العقلية، ولد سنة (٥٤٤هـ)، صنّف في فنون كثيرة، ومن تصانيفه: «التفسير الكبير» المعروف بـ «مفاتيح الغيب»، و«المحصول»، و«نهاية العقول»، قيل: إنه ندم في آخر حياته على دخوله في علم الكلام. توفي بهراة يوم الفطر سنة (٦٠٦هـ).

انظر: طبقات المفسرين (٢/٢١٦)؛ شذرات الذهب (٥/٢١).

(٣) التفسير الكبير (٢٥/٩٠). (٤) تفسير القرطبي (١٤/١٤).

(٥) انظر: معجم مقاييس اللغة (١/٢١٨).

يُقَالُ: جَحَدَ الأمر، وَجَحَدَ بالأمر جَحْداً وَجُحُوداً: أنكره مع علمه به.

ويدلُّ لذلك قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤] ^(١).

* ومن أمثلة الجحود بالقرآن الكريم قوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ اللَّهُ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

يقول تعالى مسلماً لنبيه ﷺ في تكذيب قومه له ومخالفتهم إياه: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ أي: قد نعلم أنَّ الذي يقول المكذبون فيك، يحزنك ويسوؤك، فلا تظنَّ أنَّ قولهم صادر عن اشتباه في أمرك، وشك فيك.

﴿فَأِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ﴾؛ لأنهم يعرفون صدقك، ومدخلك ومخرجك، وجميع أحوالك، حتَّى إنهم كانوا يسمونه - قبل بعثته - الأمين ^(٢).

قال ابن عاشور رحمته الله: «فيكون في الآية احتباك، والتقدير: فإنهم لا يكذبونك ولا يكذبون الآيات، ولكنهم يجحدون بالآيات ويجحدون بصدقك، فحذف من كلِّ دلالة الآخر» ^(٣).

وجحودهم بالقرآن كفرٌ عنادٍ ومكابرة ^(٤).

* ومن أمثلة الجحود بالقرآن كذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٧].

وهذا حصرٌ لمن كفر بالقرآن، أنه لا يكون من أحدٍ قصده متابعة الحق ^(٥).

«وَالْجَحْدُ - كما قال الراغب: نفي ما في القلب ثباته، وإثبات ما في القلب نفيه. وفُسِّرَ هنا بالإنكار عن علم. فكأنه قيل: وما يُنكر بآياتنا مع العلم بها ﴿إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ أي: المتوغلون في الكفر، المصممون عليه؛ فإنَّ ذلك يمنعهم عن الإقرار والتسليم» ^(٦).

وكما يكون جاحد القرآن كافراً، فيكون أيضاً ظالماً، على حدِّ قوله تعالى:

(١) انظر: المعجم الوسيط (ص ١٠٧). (٢) انظر: تفسير السعدي (١٧/١٢ - ١٨).

(٣) التحرير والتنوير (٧٤/٦).

(٤) انظر: تفسير ابن عطية (٢/٢٨٦)؛ تفسير الثعالبي (١/٥١٦).

(٥) انظر: تفسير السعدي (٤/٦٦). (٦) روح المعاني (٤/٢١).

﴿إِن هُوَ إِلَّا نَزَلٌ مِّن رَّبِّكَ يَكْتُمُ الْغَيْبَ وَإِنَّهُ عَلِيمٌ مُّذِرٌ لِّلظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٩].

أي: وما يُكذِّب بالقرآن ويبخس حقه ويرده إلا الظالمون، أي: المعتدون المكابرون، الذين يعلمون الحق ويحيدون عنه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۚ كَلَّهَا قُلُوبُهُمْ وَكَانُوا مُصِئِينَ ۚ لَئِنْ لَّمْ يَكْفُرُوا بِمَا لَمْ يَكْفُرُوا لَبَدَّ لَكَ اللَّهُ بَيْنَ يَدَيْهِمْ ذِكْرًا يَوْمَئِذٍ ۚ إِنَّ الظَّالِمِينَ هُمْ أَكْثَرُ ۚ﴾ [يونس: ٩٦ - ٩٧] (١).

والظالم: هو الذي يجري على خلاف الحق بدون شبهة. فهم يُنكرون القرآن مع علمهم بأنه الحق، وذلك هو الجحود. فشان الظالمين جحد الحق، فهم لا إنصاف لهم (٢).

ولقد بين الفخر الرازي رحمه الله الفرق بين الكفر والظلم في الآيتين السابقتين قائلاً: «قال ههنا: الظالمون، ومن قبل قال: الكافرون، مع أن الكافر ظالم، ولا تنافي بين الكلامين، وفيه فائدة: وهي أنهم قبل بيان المعجزة، قيل لهم: إن لكم المزايا فلا تبطلوها بإنكار محمد فتكونوا كافرين، فلنفظ الكافر هناك كان بليغاً يمنعهم من ذلك؛ لاستنكافهم عن الكفر، ثم بعد بيان المعجزة، قال لهم: إن جحدتم هذه الآية لزمكم إنكار إرسال الرسل فتلتحقون في أول الأمر بالمشركين حكماً، وتلتحقون عند هذه الآية بالمشركين حقيقة فتكونوا ظالمين، أي: مشركين، كما بينا أن الشرك ظلم عظيم، فهذا اللفظ ههنا أبلغ، وذلك اللفظ هناك أبلغ» (٣).

جزاء الجحود:

* بين الله تعالى جزاء الجحود بالقرآن في قوله تعالى: ﴿قَالُوا نَسْنَحُّهُمَا كَمَا نُسَخِّمُ أَفْعَالَهُمْ ۖ فَهُوَ مُبْعِدٌ ۚ﴾ [الأعراف: ٥١].

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤١٨/٣).

(٢) انظر: التحرير والتنوير (٧٤/٦) (١٨٧/٢٠).

(٣) التفسير الكبير (٦٨/٢٥).

ومعنى «نَسْنَهُمْ كَمَا سَوَا» أي: نعاملهم معاملة مَنْ نسي، فَيُتْرَكُونَ فِي النَّارِ كَمَا فَعَلُوا هُمْ فِي جَحُودِهِم بِالْقُرْآنِ، فَسَمَّى اللَّهُ تَعَالَى جَزَاءَ نَسْيَانِهِم بِالنَّسْيَانِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠].

والمراد من هذا النَّسْيَانِ: أَنَّ اللَّهَ ﷻ لَا يُجِيبُ دَعَاءَهُمْ وَلَا يَرْحَمُهُمْ، وَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ كُلَّ هَذِهِ التَّشْدِيدَاتِ بِسَبَبِ جَحُودِهِم بِالْقُرْآنِ^(١).

* ومن جزاء الجحود بالقرآن كذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْقُرْآنُ فِيهِ لَعَلٌّ لِقُلُوبِكُمْ فَلْيَقُولُوا لِلَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْرَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [٧] ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءُ مَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَمْجِدُونَ﴾ [فصلت: ٢٦ - ٢٨].

ولفظ الدُّوقُ إِنَّمَا يُذَكِّرُ فِي الْقَدْرِ الْقَلِيلِ الَّذِي يُوْتَى بِهِ لِأَجْلِ التَّجَرِبَةِ، فَإِذَا كَانَ الْقَلِيلُ مِنَ الدُّوقِ عَذَابًا شَدِيدًا، فَكَيْفَ يَكُونُ حَالُ الْكَثِيرِ مِنْهُ؟

والمراد بـ «أَشْرَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ»: أَيِ أَقْبَحِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَهُ فِي الدُّنْيَا، وَهُوَ الشُّرْكُ بِاللَّهِ تَعَالَى^(٢).

فإنَّهم لَمَّا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ تَعَالَى أَحْبَطُوا أَعْمَالَهُمْ، فَضَاعَتْ تِلْكَ الْأَعْمَالُ الْحَسَنَةُ عَنْهُمْ، وَلَمْ يَبْقَ مَعَهُمْ إِلَّا الْأَعْمَالُ الْقَبِيحَةُ الْبَاطِلَةُ، فَلَا جَرَمَ لَمْ يَتَحَصَّلُوا إِلَّا عَلَى جَزَاءِ السَّيِّئَاتِ.

وهذا العذاب الشَّدِيدُ الْمُخْلَدُونَ فِيهِ «جَزَاءُ مَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَمْجِدُونَ»: أَيِ جَزَاءِ مَا كَانُوا يَلْعَنُونَ فِي قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ.

وَسَمَّى اللَّهُ تَعَالَى كَفَرَهُم بِالْقُرْآنِ جَحُودًا؛ لِأَنَّهُمْ لَمَّا عَلِمُوا أَنَّ الْقُرْآنَ بِالْغُيِّ إِلَى حَدِّ الْإِعْجَازِ، خَافُوا مِنْ أَنَّهُ لَوْ سَمِعَهُ النَّاسُ لَأَمْنُوا بِهِ، فَاسْتَخْرَجُوا تِلْكَ الطَّرِيقَةَ الْفَاسِدَةَ، وَفِي ذَلِكَ دَلَالَةٌ عَلَى عِلْمِهِمْ بِأَنَّ الْقُرْآنَ مُعْجَزٌ، وَمَعَ ذَلِكَ جَحَدُوا بِهِ حَسَدًا وَظُلْمًا وَعِنَادًا^(٣).

(٢) انظر: تفسير البغوي (٤/١١٣).

(١) انظر: المصدر نفسه (١٤/٧٧).

(٣) انظر: التفسير الكبير (٢٧/١٠٤).

المطلب الخامس

طَلَبُهُمْ تَبْدِيلَ الْقُرْآنِ

لقد طلب الكفار من الرسول ﷺ أَنْ يَأْتِيَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا، أَوْ أَنْ يُبَدِّلَهُ، وَهُمْ فِي طَلَبِهِمْ هَذَا لَمْ يَأْتُوا بِبَدْعٍ مِنَ الْقَوْلِ، بَلْ سَارُوا عَلَى نَهْجٍ مِّنْ سَبْقِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَهُوَ عَيْنُ مَا حَكَاهُ اللَّهُ تَعَالَى عَنِ الْيَهُودِ بِقَوْلِهِ: ﴿أَنظُمُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَدْعٍ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥].

«فهذا قَطْعٌ لِأَطْمَاعِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ إِيْمَانِ أَهْلِ الْكِتَابِ، أَي: فَلَا تَطْمَعُوا فِي إِيْمَانِهِمْ. وَأَخْلَافُهُمْ لَا تَقْتَضِي الطَّمَعُ فِيهِمْ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا يُحَرِّفُونَ كَلَامَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَعَلِمُوهُ، فَيَضَعُونَ لَهُ مَعَانِي، مَا أَرَادَهَا اللَّهُ؛ لِيُوهِمُوا النَّاسَ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَمَا هِيَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ. فَإِذَا كَانَتْ حَالُهُمْ فِي كِتَابِهِمْ الَّذِي يَرُونَهُ شَرْفَهُمْ وَدِينَهُمْ يَصُدُّونَ بِهِ النَّاسَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، فَكَيْفَ يُرْجَى مِنْهُمْ إِيْمَانٌ لَكُمْ؟! فِهَذَا مِنْ أَبْعَدِ الْأَشْيَاءِ»^(١).

فَهَا هُمْ أَوْلَاءُ الْمُشْرِكِينَ - الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَ اللَّهِ - يَطْلُبُونَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يُبَدِّلَ الْقُرْآنَ أَوْ يَغْيِرَهُ؛ لِأَنَّهُ لَا يُوَافِقُ أَهْوَاءَهُمْ وَشَهَوَاتِهِمْ: ﴿وَإِذَا تَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مَائِدَانَا بَيَّنَّا قَالِ الذِّبْنَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَنْتِ بِشَرِّ النَّاسِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس: ١٥].

فَقَدْ طَلَبُوا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - لَمَّا سَمِعُوا مَا غَاظَهُمْ فِيَمَا تَلَاهُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْقُرْآنِ مِنْ ذِمِّ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، وَالْوَعِيدِ الشَّدِيدِ لِمَنْ عَبَدَهَا - أَحَدَ أَمْرَيْنِ: إِمَّا الْإِتْيَانَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا الْقُرْآنِ مَعَ بَقَاءِ هَذَا الْقُرْآنِ عَلَى حَالِهِ، وَإِمَّا تَبْدِيلَ هَذَا الْقُرْآنِ بِنَسْخِ بَعْضِ آيَاتِهِ أَوْ كُلِّهَا وَوَضْعِ أُخْرَى مَكَانَهَا، مِمَّا يَطَابِقُ إِرَادَتَهُمْ، وَيُلَاحِظُ غَرَضَهُمْ. فَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَقُولَ فِي جَوَابِهِمْ: ﴿مَا يَكُونُ لِي﴾ أَي: مَا يَنْبَغِي لِي، وَلَا يَحِلُّ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي.

فنفى عن نفسه أَحَدَ الْقِسْمَيْنِ، وهو التَّبدِيل؛ لَأَنَّهُ الَّذِي يُمْكِنُهُ لَوْ كَانَ ذَلِكَ جَائِزًا، بِخِلَافِ الْقِسْمِ الْآخَرِ، وهو الْإِتْيَانُ بِقُرْآنٍ آخَرَ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَيْسَ فِي وَسْعِهِ، وَلَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ.

وهذا منه ﷺ من باب مجازاة السفهاء، إذ لا يصدر مثل هذا الاقتراح عن العقلاء بعد أن أمره الله سبحانه بذلك^(١).

وينفرد اليهود بما يلائم طبيعتهم المثلوي فيلُوبون ألسنتهم بالكتاب، أي: يميلونها عن الصحيح إلى المُحرّف. فيُنزل الله تعالى فيهم: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُؤْنَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٨]. قال ابن الجوزي رحمه الله: «ومعنى ﴿يَلُؤْنَ أَلْسِنَتَهُم﴾: يقلبونها بالتَّحريف والزَّيادة»^(٢).

وهذا يشمل التَّحريف اللَّفْظِي، والتَّحريف المَعْنَوِي، ثم هم - مع هذا التَّحريف الشَّنِيع - يوهمون أنه من الكتاب، وهم كَذِبَةٌ في ذلك، ويصرِّحون بالكذب على الله، وهم يعلمون حالهم، وسوء مغبتهم^(٣).

المطلب السادس

تبويض القرآن

إِنَّ الْأَخْذَ بِبَعْضِ الْقُرْآنِ وَتَرْكَ بَعْضِهِ الْآخَرَ هَجْرٌ لَهُ، وَمَعْصِيَةٌ لِلَّهِ تَعَالَى، بَلْ هُوَ مِنْ أَنْوَاعِ التَّكْذِيبِ بِالْقُرْآنِ الْعَظِيمِ.

وفي ذلك يقول تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَيْهِ أَشَدَّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥].

قال عامّة المفسرين - رحمهم الله تعالى: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَخَذَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَرْبَعَةَ عَهْدٍ: تَرْكَ الْقَتْلِ، وَتَرْكَ الْإِخْرَاجِ، وَتَرْكَ الْمَظَاهِرَةِ، وَفِدَاءَ

(١) انظر: تفسير الشوكاني (٢/٦٢٣).

(٢) زاد المسير (١/٣٣٥).

(٣) تفسير السعدي (١/٢٥٤).

أسراهم، فأعرضوا عن كُلِّ ما أمروا به إِلَّا الفداء، فوبَّخهم الله تعالى على ذلك بقوله: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ؟﴾^(١).

فهذا استفهام إنكاري توبيخي، أي كيف تعمَّدتم مخالفة التَّوراة في قتالكم إخوانكم، واتَّبَعْتُمُوهَا في فداء أسراهم^(٢).

فالذي آمنوا به: فداء الأسارى. والذي كفروا به: قتل بعضهم بعضاً، وإخراجهم من ديارهم، فوبَّخهم الله توبيخاً يتلى إلى يوم القيامة^(٣).

جزاء تبعض الكتاب:

قال الله تعالى مُبِيناً جزاء تبعض الكتاب: ﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥]. الخزي: هو الذُّلُّ والهوان.

وقد وقع هذا الجزاء الذي وعد الله به اليهود المتلاعبين بأوامر الله تعالى مؤفراً، فصاروا في خزي عظيم، بما ألصق بهم من الذُّلِّ والمهانة بالقتل والأسر وضرب الجزية والجلاء، وما قُدِّرَ لهم أيضاً من الذُّلِّ - في المستقبل - بين الأمم، هذا في الدنيا^(٤).

أمَّا في الآخرة فإنَّهم: ﴿يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ جزاء ما كتُمُوهُ من كتاب الله الذي بين أيديهم، فقد جاءوا بذنوب عظيم، وجُرْمٍ جسيم.

ولا ريب أنَّ أشدَّ العذاب هو الخلود في نار جهنم، عياداً بالله تعالى من هذا الحال.

قال ابن عاشور رَحِمَهُ اللهُ: «وقد دلَّت هذه الآية على أنَّ الله تعالى يُعاقب الحائدين عن الطَّريق بعقوبات في الدنيا، وعقوبات في الآخرة»^(٥).

* ومن تبعض القرآن ما ذكره الله تعالى في قوله: ﴿كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقَسِّمِينَ ۝ الَّذِينَ جَمَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ۝ فَوَيْلٌكَ لِمَنْ كَسَبَتْهُمْ أَجْمِينَ ۝ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٠ - ٩٣].

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٢٧٢/١)؛ تفسير القرطبي (٢٢/٢).

(٢) انظر: التحرير والتنوير (٥٧٣/١). انظر: تفسير الثعالبي (٨٥/١).

(٤) انظر: تفسير الشوكاني (١٠٩/١). (٥) التحرير والتنوير (٥٧٤/١).

وقد مرّ بنا سابقاً أنّ الآية الكريمة تشمل كلّ مَنْ اقتسم كتاب الله، بتكذيب بعضه وتصديق بعضه، وارْتَكَب ما نهاه الله عنه. فحالُه هذا يُشبه حالَ اليهود والنصارى الذين قَسَمُوا كتبهم السّماوية أقساماً، وجزَّوْها أجزاءً، فأمنوا ببعضِ منها وكفروا ببعض؛ اتّباعاً لشهواتهم وأهوائهم.

المطلب السابع

الإعراض عن القرآن

إنّ من أنواع التّكذيب بالقرآن العظيم الإعراض عنه، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَيْنَاكَ ءَايَاتِنَا فَنَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْسِيكَ ﴿طه: ١٢٤ - ١٢٦﴾.

والمراد بالذّكر هنا: القرآن، في قول عامّة المفسّرين.

وقال الله تعالى - أيضاً - مُخاطباً النّبي ﷺ وممتناً عليه بما أكرمه من إنزال القرآن إليه، ومبيّناً له جزاء مَنْ أَعْرَضَ عنه: ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً﴾ (٩٩) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْراً ﴿طه: ٩٩ - ١٠٠﴾.

قال ابن عاشور رحمه الله: «وتنكير ﴿ذِكْرًا﴾ للتّعظيم، أي: آيتنا كتاباً عظيماً. وقوله: ﴿مِنْ لَدُنَّا﴾ توكيدٌ لمعنى ﴿ءَاتَيْنَاكَ﴾، وتنويهٌ بشأن القرآن، بأنّه عَظِيَّةٌ كانت مخزونةً عند الله، وَخَصَّ بها خَيْرَ عِبَادِهِ ﴿طه: ١٠١﴾» (١).

جزاء الإعراض عن القرآن:

أما الآية الأولى، فقد سبق الحديث عنها بالتّفصيل:

وتقرّر أنّ معنى المعيشة الضّئيلة: هو أنواع العذاب الذي يصيب المُعرض عن القرآن من الهموم والغموم والآلام، وذلك في الدّنيا، والبرزخ، والآخرة.

فإنّ المُعرضين عن القرآن العظيم في جحيم قبل الجحيم الأكبر.

وأما حشره أعمى: فإنّه لما أَعْرَضَ عن القرآن الكريم وعميت عنه بصيرته،

(١) التحرير والتنوير (١٦/١٧٩). وانظر: تفسير أبي السعود (٦/٤٠).

أَعْمَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بَصَرَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَتَرَكَهُ فِي الْعَذَابِ كَمَا تَرَكَ الذِّكْرَ فِي الدُّنْيَا، فَجَازَاهُ عَلَى عَمَى بَصِيرَتِهِ عَمَى بَصَرِهِ فِي الْآخِرَةِ.

وَأَمَّا الْآيَةُ الثَّانِيَّةُ:

فَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى شِدَّةَ الْوَعِيدِ لِمَنْ أَعْرَضَ عَنِ الْقُرْآنِ، وَلَمْ يُؤْمِنْ بِهِ وَتَبِعَهُ، مِنْ عِدَّةٍ وَجْهٍ:

١ - يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْراً. وَالْوِزْرُ: هُوَ الْعُقُوبَةُ الثَّقِيلَةُ.

وَسُمِّيَتْ وَزْراً: لِتَشْبِيهِهَا - فِي ثِقَلِهَا عَلَى الْمُعَاقِبِ، وَصُعُوبَةِ احْتِمَالِهَا - بِالْحِمْلِ الَّذِي يَفْدَحُ الْحَامِلُ، وَيُنْقِضُ ظَهْرَهُ. فَالْمُرَادُ: حِمْلاً ثَقِيلاً مِنَ الْإِثْمِ^(١).

٢ - هُوَ مُخَلَّدٌ فِي الْوِزْرِ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿خَالِدِينَ فِيهِ﴾ [طه: ١٠١]. أَيْ: مُقِيمٌ أَبَداً فِي عَذَابِ الْوِزْرِ؛ بِسَبَبِ إِعْرَاضِهِ عَنِ الْقُرْآنِ، وَهَجْرِهِ لَهُ.

وَتَخْلِيدُهُ فِي الْوِزْرِ الْعَظِيمِ؛ لِأَنَّ الْعَذَابَ هُوَ نَفْسُ الْأَعْمَالِ، تَنْقَلِبُ عَذَاباً عَلَى أَصْحَابِهَا، بِحَسَبِ صَغَرِهَا وَكِبَرِهَا^(٢).

٣ - يَثْسُ الْحِمْلُ الَّذِي يَحْمِلُهُ، وَالْعَذَابُ الَّذِي يَعَذِّبُهُ؛ بِسَبَبِ إِعْرَاضِهِ عَنِ الْقُرْآنِ، فَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَسَاءَ لِمَنْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا﴾ [طه: ١٠١]. أَيْ: وَمَا أَسْوَأَ هَذَا الْوِزْرِ حِمْلاً بِمَعْنَى مَحْمُولاً^(٣). وَالْمُرَادُ: يَثْسُ الْحِمْلُ يَحْمِلُونَهُ، وَالْعَذَابُ الَّذِي يُعَذِّبُونَهُ^(٤).

قَالَ أَبُو السَّعُودِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فِيهِ ضَمِيرٌ مُبْهَمٌ، يُفْسِّرُهُ حِمْلًا، وَالْمَخْصُوصُ بِالذِّمِّ مَحْذُوفٌ. أَيْ: سَاءَ حِمْلًا وَزْرُهُمْ»^(٥).

طَوَائِفُ أَعْرَضَتْ عَنِ الْقُرْآنِ:

هَنَّاكَ طَوَائِفُ كَثِيرَةٌ أَعْرَضَتْ عَنِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَمَتْنَهَا عَلَى سَبِيلِ الْإِخْتِصَارِ^(٦):

(١) انظر: التفسير الكبير (٩٨/٢٢)؛ تفسير البغوي (٢٣٠/٣)؛ تفسير أبي السعود (٤١/٦).

(٢) انظر: تفسير السعدي (٢٥١/٣). (٣) انظر: التفسير الكبير (٩٩/٢٢).

(٤) انظر: المصدر السابق، والصفحة نفسها.

(٥) تفسير أبي السعود (٤١/٦). (٦) انظر: الإيمان بالكتب (ص ٣٤ - ٣٧).

١ - الرافضة: وذلك بادّعائها أنّ القرآن ناقصٌ ومحرّف، وأنّ القرآن الكامل مع الغائب الذي سيخرج في آخر الزّمان من سرداب سلّمراء^(١).

٢ - البابية والبهائية: وذلك بادّعائها نسخ القرآن الكريم، والشريعة الإسلامية بشريعة الباب والبهاء^(٢).

٣ - التيجانية: وذلك بتفضيلها أورادها وأذكارها - كصلاة الفاتح - على القرآن العظيم.

فقد قالوا: إنّ قراءة صلاة الفاتح مرّة واحدة أفضل من قراءة القرآن ستّة آلاف مرّة^(٣).

٤ - غلاة الصّوفية: وذلك بادّعائهم العلم اللدّني الذي يُوحى إليهم، ويغنيهم عن القرآن المجيد كما يزعمون، ثمّ إنّ مصدر التّلقي عندهم ليس القرآن والسنة بل يقوم على الرؤى والأحلام، والكشف، ونسخ الشريعة، ورفع التكاليف، وغير ذلك ممّا يخالف ما جاء في القرآن^(٤).

٥ - الفرق الباطنيّة: وذلك بانحرافهم في تأويل القرآن، وإغراقهم في التّأويل الباطني، وإخراج القرآن عن معانيه وحقائقه الصّحيحة، وادّعاء بعضهم نسخ الإسلام^(٥).

٦ - المشرّعون والقانونيّون: الذين أعرضوا عن تحكيم شريعة القرآن وعارضوها بزيالات أفكارهم، زاعمين أنّها لا تناسب العصر الحديث، ولا تفي بحاجاته^(٦).

(١) انظر: الشيعة والسنة، لإحسان إلهي ظهير (ص ٧٨)؛ مسألة التقريب بين أهل السنة والشيعة، د. ناصر القفاري (١/ ٢١١ - ٢١٤).

(٢) انظر: البابية عرض ونقد، لإحسان إلهي ظهير (ص ١٠٤)؛ البهائية نقد وتحليل، لإحسان إلهي ظهير (ص ٢٢٢).

(٣) انظر: التيجانية، لعلي الدخيل (ص ١١٦ - ١٢٣).

(٤) انظر: التصوف المنشأ والمصادر، لإحسان إلهي ظهير (٢٦٠ - ٢٧٥). هذه هي الصوفية، لعبد الرحمن الوكيل (ص ٧٠).

(٥) انظر: كشف أسرار الباطنية، لابن أبي الفضائل الحمّاي اليماني (ص ٥٠)؛ الحركات الباطنية، د. محمد بن أحمد الخطيب (ص ٦٦، ٣٤٩).

(٦) انظر: تحكيم القوانين، لمحمد بن إبراهيم آل الشيخ (ص ١ - ٢٠).

وفي العالم الإسلامي نشأت أحزاب ومؤسّسات علمانيّة - لا دينيّة -
أعرضت، وتعمل على أن يُعرضَ المسلمون عن القرآن الكريم عقيدةً وشرعيةً،
وتبنّت وسائل إعلاميّة مرثيّة ومسموعة وصحف ومجلاّت إبعاد الناس عن القرآن،
هذا عدا ما تفعله الماسونيّة وأنديتها - كالروتناري - في طول وعرض العالم
الإسلامي.



۱۰۰
 ۱۰۱
 ۱۰۲
 ۱۰۳
 ۱۰۴
 ۱۰۵
 ۱۰۶
 ۱۰۷
 ۱۰۸
 ۱۰۹
 ۱۱۰
 ۱۱۱
 ۱۱۲
 ۱۱۳
 ۱۱۴
 ۱۱۵
 ۱۱۶
 ۱۱۷
 ۱۱۸
 ۱۱۹
 ۱۲۰
 ۱۲۱
 ۱۲۲
 ۱۲۳
 ۱۲۴
 ۱۲۵
 ۱۲۶
 ۱۲۷
 ۱۲۸
 ۱۲۹
 ۱۳۰
 ۱۳۱
 ۱۳۲
 ۱۳۳
 ۱۳۴
 ۱۳۵
 ۱۳۶
 ۱۳۷
 ۱۳۸
 ۱۳۹
 ۱۴۰
 ۱۴۱
 ۱۴۲
 ۱۴۳
 ۱۴۴
 ۱۴۵
 ۱۴۶
 ۱۴۷
 ۱۴۸
 ۱۴۹
 ۱۵۰
 ۱۵۱
 ۱۵۲
 ۱۵۳
 ۱۵۴
 ۱۵۵
 ۱۵۶
 ۱۵۷
 ۱۵۸
 ۱۵۹
 ۱۶۰
 ۱۶۱
 ۱۶۲
 ۱۶۳
 ۱۶۴
 ۱۶۵
 ۱۶۶
 ۱۶۷
 ۱۶۸
 ۱۶۹
 ۱۷۰
 ۱۷۱
 ۱۷۲
 ۱۷۳
 ۱۷۴
 ۱۷۵
 ۱۷۶
 ۱۷۷
 ۱۷۸
 ۱۷۹
 ۱۸۰
 ۱۸۱
 ۱۸۲
 ۱۸۳
 ۱۸۴
 ۱۸۵
 ۱۸۶
 ۱۸۷
 ۱۸۸
 ۱۸۹
 ۱۹۰
 ۱۹۱
 ۱۹۲
 ۱۹۳
 ۱۹۴
 ۱۹۵
 ۱۹۶
 ۱۹۷
 ۱۹۸
 ۱۹۹
 ۲۰۰

المبحث الخامس

حُكْمُ التَّكْذِيبِ بِالْقُرْآنِ

كيف وصل القرآن إلينا:

القرآن العظيم نُقِلَ إلينا بطريق التواتر كتابةً في المصاحف، وحفظاً في الصدور، فقد كان هناك كتبةٌ للوحي يكتبون ما نزل على رسول الله ﷺ فإذا أنزلت سورةٌ أو آيةٌ بلغها نبينا الكريم ﷺ أصحابه رضي الله عنهم، وتلاها عليهم، وكتبها كتبةُ الوحي، وكتبها مَنْ كتب لنفسه.

وما تُوفِّي رسول الله ﷺ إلَّا وكلُّ آيةٍ من آيات القرآن العظيم مُدَوَّنةٌ فيما اعتاد العرب أن يُدَوِّنوا فيه من الرِّقَاع ونحوها.

وكلُّ آيةٍ من القرآن الكريم كذلك محفوظةٌ في صدور المئات من الرجال الأذكىء الأمانة، وأصبح ما يحفظونه في صدورهم مرجعاً للمسلمين في تلقِّي القرآن وروايته، بالإضافة إلى المكتوب منه.

وقد جمع أبو بكرٍ رضي الله عنه - بواسطة زيد بن ثابت، وبعض الصحابة المعروفين بالحفظ والكتابة رضي الله عنهم جميعاً - تلك المدونات وضمَّ بعضها إلى بعض وبالترتيب نفسه الذي كان رسول الله ﷺ يتلوها به وأصحابه في حياته، وصارت هذه الصُّحف وما في صدور الحفَّاظ هي مرجع المسلمين في تلقِّي القرآن وروايته. وقام على حفظ هذه المجموعة أبو بكرٍ رضي الله عنه في حياته، وخلفه عليها عمر رضي الله عنه.

ثم تركها عمر رضي الله عنه عند ابنته حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها، وأخذها من حفصة عثمان رضي الله عنه في خلافته، ونسخ منها عدَّة نسخ أرسلت إلى أمصار المسلمين.

وتناقل المسلمون القرآن كتابةً من المصحف المدوَّن، وتلقياً من الحفَّاظ أجيالاً عن أجيالٍ في عدَّة قرون، وما اختلف المكتوب منه والمحمفوظ، ولا اختلف في لفظه مسلمان من ملايين المسلمين في مختلف قارَّات العالم، وهم

يقرؤونه منذ أربعة عشر قرناً ونيّفاً، فلم يختلف فيه فرد عن فرد، ولا أمة عن أمة بزيادة ولا نقص، ولا تغيير ولا تبديل، تحقيقاً لوعده الله ﷻ في حفظ القرآن الكريم، حيث قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] ^(١).

مغزى التواتر:

ولا نزاع بين المسلمين في تواتر القرآن العظيم، ويترتب على كون القرآن متواتراً ثبوت حُجِّيَّتِهِ، أي أنَّ القرآن الكريم قطعيُّ الثبوت، فكلُّ نصٍّ نتلوه من نصوص القرآن المجيد هو النص الذي أنزله الله على نبيِّنا محمدٍ ﷺ من غير تحريف ولا تبديل.

ولذلك قال الآمدي ^(٢) رحمه الله: «اتَّفَقُوا عَلَى أَنَّ مَا نُقِلَ إِلَيْنَا مِنَ الْقُرْآنِ نَقْلًا مُتَوَاتِرًا وَعَلِمْنَا أَنَّهُ مِنَ الْقُرْآنِ حُجَّةٌ» ^(٣).

وبناء عليه: يجب الإيمان بالقرآن الكريم، وتصديقه، واتباعه، والانقياد له، ويجب الإيمان بأنه كلامُ الله تعالى وتنزيله، ولا يُشبهه شيء من كلام الخلق، ولا يقدر على مثله أحدٌ من الخلق إنَّسَهُمْ وَجَنَّهُمْ ^(٤).

ما يعنيه إنكار القرآن:

إنَّ الإيمان بالقرآن الكريم يتضمَّن الإقرارَ به وتصديقه، ولا ريب أنَّ إنكاره يُناقض هذا الإقرارَ والتَّصديقَ، فإنكاره يُناقض قولَ القلب وهو التَّصديق، كما يُناقض قولَ اللِّسان وهو الإقرار.

(١) انظر: الإتقان في علوم القرآن (ص ١٥٣ - ١٥٩).

مباحث في علوم القرآن، لمناع القطان (ص ١١٨ - ١٣٤)؛ المدخل للدراسة القرآن الكريم، لمحمد أبو شهبة (ص ٢٦٠ - ٢٨١).

(٢) هو علي بن محمد بن عبد الرحمن البغدادي، الآمدي، من أصحاب القاضي أبي يعلى، ومن كبار فقهاء الحنابلة في عصره، له مؤلفات منها: «عمدة الحاضر»، و«كفاية المسافر»، توفي سنة (٤٦٧هـ). انظر: ذيل طبقات الحنابلة (١/ ٨ - ٩).

(٣) الإحكام في أصول الأحكام (١/ ١٣٨).

(٤) انظر: التبيان في آداب حملة القرآن (ص ٩٧ - ٩٨).

وإنكاره كذلك يتضمن إنكاراً لصفة الكلام الإلهي، ونفي هذه الصفة من الإلحاد في أسماء الله تعالى، وسوء الظن بالله تعالى، وعدم قَدْر الله تعالى حق قدره. كما أن هذا الإنكار طعن في الرسول ﷺ وتنقُص له، ومشاقَّة له، واتباع لغير سبيل المؤمنين، وقد توعدَّ الله تعالى مَنْ يفعل ذلك بقوله: ﴿وَمَنْ يَشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُولَاهُ مَا أَوَّلَىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

وهذا الإنكار أيضاً هو إنكار واستهزاء بشرائع الدين وأحكامه المتلقاة من هذا الوحي، والاستهزاء بالدين كُفر؛ لأنَّ أصل الدين قائم على التعظيم^(١).

الإجماع على كُفر مَنْ أنكر القرآن:

حكى أهل العلم الإجماع على كُفر مَنْ أنكر القرآن العظيم أو بعضه - ولو كانت آية واحدة، أو حرفاً واحداً - ومَنْ حكى الإجماع:

١ - أبو عثمان الحَدَّاد^(٢) رحمه الله حيث قال: «جميع مَنْ ينتحل التَّوْحِيدَ مُتَّفَقُونَ: أَنَّ الْجَحْدَ لِحَرْفٍ مِنَ التَّنْزِيلِ كُفْرٌ»^(٣).

٢ - ابن عبد البر^(٤) رحمه الله يحكي الإجماع قائلاً:

(١) انظر: نواقض الإيمان القولية والعملية، د. عبد العزيز بن محمد العبد اللطيف (ص ٢٠١ - ٢٠٢).

(٢) هو أبو عثمان محمد بن صبيح الحَدَّاد المغربي، من فقهاء المالكية، كان عالماً بالسنن ولغة العرب، له ردود على المبتدعة، وكان عابداً صالحاً، توفي سنة (٣٠٢هـ).

انظر: سير أعلام النبلاء (١٤/٢٠٥)؛ شذرات الذهب (٢/٢٣٨).

(٣) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، للقاضي عياض (٢/١١٠٥).

(٤) هو يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر التَّمْرِي القرطبي المالكي، أبو عمر، الإمام، العلامة، حافظ المغرب، وصاحب التصانيف، ولد بقرطبة سنة (٣٦٨هـ). كان فقيهاً محدثاً عابداً ديناً فقهاً متقناً متبحراً. صنَّف تصانيف كثيرة، منها: «التَّمْهِيدُ لِمَا فِي الْمَوْطَأِ مِنَ الْمَعَانِي وَالْأَسَانِيدِ»، و«الاستيعاب في أسماء الأصحاب»، و«جامع بيان العلم وفضله»، و«الاستذكار لمذاهب علماء الأمصار». توفي بمدينة شاطبة بالأندلس سنة (٤٦٣هـ). انظر: وفيات الأعيان (٧/٦٦)؛ سير أعلام النبلاء (١٨/١٥٣)؛ تذكرة الحفاظ (٣/١١٢٨)؛ شذرات الذهب (٣/٣٨٤).

«وأجمع العلماء: أنَّ ما في مصحف عثمان بن عفان وهو الذي بأيدي المسلمين اليوم في أقطار الأرض حيث كانوا، هو القرآن المحفوظ الذي لا يجوز لأحد أن يتجاوزَه، ولا تحِلُّ الصلاةُ لمسلم إلا بما فيه... وإنما حَلَّ مصحف عثمان رضي الله عنه هذا المحل؛ لإجماع الصَّحابة وسائر الأُمَّة عليه، ولم يُجمعوا على ما سواه... ويُبيِّن لك هذا أنَّ مَنْ دَفَعَ شيئاً مما في مصحف عثمان كَفَر»^(١).

٣ - ابن قدامة المقدسي رحمته الله يحكي الإجماع أيضاً ويقول: «ولا خلاف بين المسلمين أجمعين: أنَّ مَنْ جَحَدَ آيَةً، أو كلمةً مُتَّفَقاً عليها، أو حَرْفاً مُتَّفَقاً عليه أنه كافر»^(٢).

٤ - النُّووي رحمته الله يحكي الإجماع صراحة بقوله: «أجمعت الأُمَّة: على وجوب تعظيم القرآن على الإطلاق وتزيهه وصيَّاته. وأجمعوا: على أنَّ مَنْ جَحَدَ منه حرفاً مُجْمَعاً عليه، أو زاد حرفاً لم يقرأ به أحدٌ، وهو عالمٌ بذلك فهو كافر»^(٣).

٥ - القاضي عياض رحمته الله يحكي إجماع المسلمين على كفر مَنْ أنكر القرآن، أو شيئاً منه فيقول: «اعلم أنَّ مَنْ استخفَّ بالقرآن أو بالمصحف، أو بشيء منه، أو سبَّهما، أو جَحَدَ حرفاً منه، أو كَذَّبَ بشيء ممَّا صرَّح به فيه من حُكْمٍ أو خَبَرٍ، أو أثبت ما نفاه، أو نفى ما أثبتَه، وهو عالمٌ بذلك، أو شكَّ في شيء من ذلك، فهو كافرٌ بإجماع المسلمين...»

(١) التَّهْمِيدُ لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (٤/٢٧٨ - ٢٧٩).

(٢) هو عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي، ثمَّ الدِّمشقي الصَّالحي، الحنبلي، أبو محمد، مُؤَفِّقُ الدِّين، العَلَّامةُ المَجْتَهِدُ، كان - مع تبحُّره في العلوم - ورعاً زاهداً كثيرَ العبادة، حَسَنَ الأخلاق، له مؤلفات غزيرة مفيدة، منها: «المَغْنِي فِي الفقه»، و«رُوضَةُ النَّاظِر فِي أَصُولِ الفقه»، و«مَسْأَلَةُ العُلُو»، و«ذِمُّ التَّأْوِيل»، و«فَضَائِلُ الصَّحَابَةِ». توفي بدمشق سنة (٦٢٠هـ).

انظر: سير أعلام النبلاء (٢٢/١٦٥)؛ البداية والنهاية (١٣/٩٩)؛ الدَّيْلُ على طبقات الحنابلة، لابن رجب (٢/١٣٣)؛ شذرات الذهب (٥/٨٨).

(٣) حكاية المناظرة في القرآن مع بعض أهل البدعة (ص ٣٣).

(٤) المجموع (٢/١٩٣). وانظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٦/٨٨)؛ التبيان (ص ٢٠٢).

وقد أجمع المسلمون: على أنَّ القرآنَ المتلو في جميع الأقطار، المكتوب في المصحف الذي بين أيدي المسلمين ممَّا جَمَعَهُ الدَّقَّتَانِ^(١) من أوَّل: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] إلى آخر: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [الناس: ١] كلامُ الله تعالى ووَحْيُهُ، المُنزَّل على نبيِّه محمدٍ ﷺ، وأنَّ جميع ما فيه حقٌّ.

وأنَّ مَنْ نقص منه حرفاً، قاصداً لذلك، أو بدَّلَه بحرفٍ آخر مكانه، أو زاد حرفاً آخر ممَّا لم يشتمل عليه المصحف، الذي وقع عليه الإجماعُ، وأُجمِعَ عليه أنه ليس بقرآن، عامداً لكلِّ هذا، فهو كافر^(٢).

٦ - ابن بطة^(٣) رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حيث يقول: «... وكذلك وجوب الإيمان والتَّصديق بجميع ما جاءت به الرُّسُل من عند الله، ويجمع ما قاله الله عزَّ وجلَّ فهو حقٌّ لازم، فلو أنَّ رجلاً آمَنَ بجميع ما جاءت به الرُّسُل إلَّا شيئاً واحداً، كان بِرَدِّ ذلك الشَّيء كافرأ عند جميع العلماء»^(٤).

ويقول أيضاً: «مَنْ كَذَّبَ بآيةٍ أو بحرفٍ من القرآن، أو رَدَّ شيئاً ممَّا جاء به الرُّسول ﷺ فهو كافر»^(٥).

٧ - ابن حزم^(٦) رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حيث قال: «... وإنَّ القرآنَ الذي في المصاحف

(١) جاء في «لسان العرب» (٤/٣٧١): «دَقَّتَا المصحف: جانباه وضماوته من جانبيه».

(٢) الشُّفا بتعريف حقوق المصطفى (٢/١١٠١ - ١١٠٥).

وانظر: الآداب الشَّرعية (٢/٢٧٥)؛ كَشَافُ القناع، لمنصور البُهوتي (١/٤٣٣)؛ التَّبيان في آداب حملة القرآن (ص ٢٠٢ - ٢٠٣).

(٣) هو عبيد الله بن محمد بن محمد بن حمدان العكبري، أبو عبد الله، المعروف بابن بطة، أحد علماء الحنابلة، فقيه، مُحدِّث، وله المصنَّفات الكثيرة الحافلة في فنون من العلوم. وكان مَمَّنْ يَأْمُرُ بالمعروف وينهى عن المنكر، ومن مصنَّفاتهِ الكثيرة: «السُّنن»، و«المناسك»، و«الإبانة عن شريعة الفرقة النَّاجية ومجانبة الفرق المذمومة». توفي بعكبرا سنة (٣٨٧هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (١٠/٢٨٠)؛ البداية والنهاية (١١/٣٢١ - ٣٢٢)؛ طبقات الحنابلة، لأبي يعلى (ص ٣٤٦).

(٤) الإبانة الصُّغرى (ص ٢١١). (٥) المصدر نفسه (ص ٢٠١).

(٦) هو علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظَّاهري، أبو محمد، عالم الأندلس، ولد بقرطبة =

بأيدي المسلمين شرقاً وغرباً فما بين ذلك، من أول أم القرآن، إلى آخر المعوذتين كلام الله عز وجل ووحيه، أنزله على قلب نبيه محمد ﷺ، مَنْ كَفَرَ بحرفٍ منه فهو كافر^(١).

وفصل ابن حزم في مسألة إنكار القرآن قائلًا:

«مَنْ قَالَ إِنَّ الْقُرْآنَ نَقَصَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِ النَّبِيِّ ﷺ حَرْفٌ، أَوْ زِيدَ فِيهِ حَرْفٌ، أَوْ بُدِّلَ مِنْهُ حَرْفٌ، أَوْ أَنَّ هَذَا الْمَسْمُوعَ أَوْ الْمَحْفُوظَ أَوْ الْمَكْتُوبَ أَوْ الْمُتَنَزَّلَ لَيْسَ هُوَ الْقُرْآنُ، وَإِنَّمَا هُوَ حِكَايَةُ الْقُرْآنِ، وَغَيْرَ الْقُرْآنِ، أَوْ قَالَ إِنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَنْزَلْ بِهِ جَبْرِيلُ ﷺ عَلَى قَلْبِ مُحَمَّدٍ ﷺ، أَوْ أَنَّهُ لَيْسَ هُوَ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى فَهُوَ كَافِرٌ، خَارِجٌ عَنِ دِينِ الْإِسْلَامِ؛ لِأَنَّهُ خَالَفَ كَلَامَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَسُنَنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَاجْتِمَاعَ أَهْلِ الْإِسْلَامِ»^(٢).

٨ - ابن تيمية^(٣) رحمه الله حيث قال: «مَنْ زَعَمَ أَنَّ الْقُرْآنَ نُقِصَ مِنْهُ، وَزِيدَ فِيهِ، وَكُتِمَتْ مِنْهُ آيَاتٌ، أَوْ زَعَمَ أَنَّ لَهُ تَأْوِيلَاتٍ تُسْقِطُ الْأَعْمَالَ فَلَا شَكَّ فِي كُفْرِهِ»^(٤).

= سنة (٣٨٣هـ)، كانت له ولأبيه وزارةٌ تَخْلَى عنها زهداً فيها، وكان له آراءٌ ائْتَقَدَ مِنْ أَجْلِهَا، وَكَانَ قَوِيَّ الْحُجَّةِ، سَلِيطاً عَلَى مَخَالِفِيهِ، لَهُ مَصْنُفَاتٌ كَثِيرَةٌ، مِنْهَا: «الْمَغْرِبُ فِي تَارِيخِ الْمَغْرِبِ»، وَ«الْفَصْلُ بَيْنَ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ وَالنُّحْلِ»، وَ«الْأَخْلَاقُ وَالسَّيَرُ»، وَ«الْمُحَلَّى». تَوَفَّى بِالْأَنْدَلُسِ سَنَةَ (٤٥٦هـ).

انظر: سير أعلام النبلاء (١٨/١٨٤)؛ وفيات الأعيان (١/٤٢٨)؛ تذكرة الحفاظ (٣/٣٢١).

(١) المحلى بالآثار (١/٣٢)، مسألة (٢١).

(٢) الدرر فيما يجب اعتقاده، لابن حزم (ص ٢٢٠ - ٢٢١).

(٣) هو أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام الحراني الحنبلي، أبو العباس، تقي الدين ابن تيمية، الإمام المشهود له برسوخ القدم في علوم النقل والعقل، ولد في حران سنة (٦٦١هـ) وتحول إلى دمشق، ونبغ واشتهر وأصبح مرجعاً في الفتوى، وأفتى بمسائل أودى من أجلها، وسُجِنَ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ، وَمَاتَ فِي السَّجْنِ، كَانَ آيَةً فِي التَّفْسِيرِ وَالْأَصُولِ، فَصِيحُ اللُّسَانِ، لَهُ مَصْنُفَاتٌ كَثِيرَةٌ، مِنْهَا: «دُرَرُ تَعَارُضِ الْعَقْلِ وَالنُّقْلِ»، وَقَدْ جَمَعَ الشَّيْخُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ قَاسِمٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِتَاوَاهُ فِي (٣٧ مجلداً)، تَوَفَّى سَنَةَ (٧٢٨هـ).

انظر: ذيل طبقات الحنابلة (١/٣٣٧)؛ تذكرة الحفاظ (٣/٢)؛ البداية والنهاية (١٤/١٣٢).

(٤) الصَّارِمُ الْمَسْلُوكُ عَلَى شَاتِمِ الرَّسُولِ (٣/١١٢١).

٩ - ابنُ نُجَيْمٍ الحنفي^(١) رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حيثُ كَفَرَ مَنْ أَنْكَرَ آيَةَ فَقَالَ: «وَيَكْفُرُ مَنْ أَنْكَرَ آيَةَ مِنَ الْقُرْآنِ»^(٢).

أَمَّا بَعْدُ: فهذا هو إجماع علماء المسلمين على كُفْرِ مَنْ أَنْكَرَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ، أَوْ كَذَّبَ بِهِ، أَوْ جَحَدَ مِنْهُ حَرْفًا، أَوْ زَادَ فِيهِ حَرْفًا، أَوْ بَدَّلَ حَرْفًا مِنْهُ بِحَرْفٍ آخَرَ مَكَانَهُ، عَامِدًا لِكُلِّ ذَلِكَ فَهُوَ كَافِرٌ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ.

وهنا يبرز سؤال: لماذا كان الحُكْمُ مُجْمَعًا عَلَيْهِ بِلا هَوَادَةٍ، وَإِنْ أَنْكَرَ حَرْفًا؟ لَأَنَّ الْقُرْآنَ رُوحُ الْأُمَّةِ، وَالتَّسَاهُلُ فِي حَرْفٍ وَاحِدٍ مُؤَدٌّ لِاضْمَحْلَالِهَا.



- (١) هو زَيْنُ الدِّينِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مُحَمَّدٍ، الْمِصْرِيُّ، الْحَنْفِيُّ، الشَّهِيرُ بِابْنِ نُجَيْمٍ، فَقِيهٌ أَصُولِيٌّ، مِنْ تَصَانِيفِهِ: «الْأَشْبَاهُ وَالنِّظَائِرُ»، وَ«شَرْحُ مَنَارِ الْأَنْوَارِ فِي أَصُولِ الْفَقْهِ»، وَ«الْبَحْرُ الرَّائِقُ فِي شَرْحِ كَنْزِ الدَّقَائِقِ». تَوَفِّيَ سَنَةَ (٩٧٠هـ).
- انظر: الأعلام (٦٤/٣)؛ معجم المؤلفين (٧٤٠/١).
- (٢) البحر الرائق في شرح كنز الدقائق (١٣١/٥).

المبحث السادس

أهل الكتاب وتكذيبهم بالقرآن

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: علماء أهل الكتاب يعلمون يقيناً أنَّ القرآن حق.

المطلب الثاني: كُفر مَنْ لم يؤمن بالقرآن من أهل الكتاب.

المطلب الأول

علماء أهل الكتاب يعلمون يقيناً أنَّ القرآن حق

إنَّ علماء أهل الكتاب يعلمون علماً يقيناً أنَّ القرآن حقٌّ، وأَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ وَخَاتَمِ أَنْبِيَائِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَمَعَ ذَلِكَ كَفَرُوا بِالْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَبِرِسَالَةِ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ ﷺ الَّذِي أَرْسَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِلنَّاسِ كَافَّةً، بَلْ وَأَخَذَ اللَّهُ تَعَالَى الْعَهْدَ وَالْمِيثَاقَ عَلَى جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ أَنْ يُؤْمِنُوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَيَتَابِعُوهُ إِذَا بُعِثَ وَهُمْ أَحْيَاءُ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

وَمَعَ ذَلِكَ كَتَمُوا - أَي: عُلَمَاءُ أَهْلِ الْكِتَابِ - هَذِهِ الْأَخْبَارَ وَأَمْثَالَهَا عَنْ أَتْبَاعِهِمْ، وَحَرَّفُوا بَعْضَهَا، مَحَافِظَةً عَلَى سُلْطَانِهِمْ، وَبَغْيًا وَحَسَدًا لِأُمَّةِ الْقُرْآنِ، فَكَانُوا فِي كُفْرِهِمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ أَمْرِهِمْ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا كَثِيرًا، وَتَحَمَّلُوا أَوْزَارَهُمْ إِضَافَةً إِلَى أَوْزَارِ مَنْ تَبِعَهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

وَمَعَ ذَلِكَ فَهَمَّ يَحْتَجُّونَ عَلَيْنَا بِبَعْضِ آيَاتِ مِنَ الْقُرْآنِ مِمَّا يُوَافِقُ أَهْوَاءَهُمْ أَوْ يَسْتَدِلُّونَ بِالْمُتَشَابِهَةِ - كَعَادَتِهِمْ - وَيَتْرَكُونَ الْمَحْكَمَ الْبَيِّنَ، وَحَدِيثَنَا عَنْ آيَاتِ مُحْكَمَاتِ مِنَ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ تُوضِّحُ وَتُبَيِّنُ وَتُفْصِحُ أَنَّ عُلَمَاءَ أَهْلِ الْكِتَابِ كَانُوا يَعْلَمُونَ يَقِينًا أَنَّ الْقُرْآنَ حَقٌّ وَمِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى، وَفِيمَا يَلِي بَعْضُ الْأَدَلَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى ذَلِكَ، وَهِيَ عَلَى النَّحْوِ الْآتِي^(١):

الدَّلِيلُ الْأَوَّلُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَبْقَىٰ إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نَفَقَىٰ آلِي نَحْتٍ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ وَلَئِنِّي فَازَهُبُونَ﴾ ١٥٠ وَمَا أَمَرُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا

(١) انظر: رد افتراءات المبشرين على آيات القرآن الكريم، د. محمد جمعة عبد الله (ص ٢٠١ - ٢٠٤).

أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْرَوْا بِمَا بَقِيَ ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَاتَّقُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكُنُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿البقرة: ٤٠ - ٤٢﴾.

وردت هذه الآيات الكريمة في سياق الآيات الدالة على وجوب الإيمان بالقرآن كما سبق ذكره، ونأخذ منها ما له صلة بالموضوع الذي نحن بصدده.

فإن الله تبارك وتعالى قال لليهود - الذين هم في عصر نزول القرآن -: ﴿وَمَا أَمْثَلُ بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ أي: من التوراة، وإنما عبّر عنها بذلك للإشارة إلى أن هؤلاء اليهود عرفوا التوراة وصاحبها طويلاً، فهم إذاً على علم يقيني بما في تضاعيفها يؤدّي إلى معرفة تصديق القرآن لها.

قال أبو السعود رحمته الله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ أي: لا تُسارعوا إلى الكفر به، فإنّ وظيفتكم أن تكونوا أول من آمن به؛ لما أنكم تعرفون شأنه وحقيقته بطريق التلقي ممّا معكم من الكتب الإلهية كما تعرفون أبناءكم، وقد كنتم تستفتحون به وتستبشرون بزمانه - كما سيجيء - فلا تضعوا موضع ما يُتوقّع منكم ويجب عليكم ما لا يُتَوَهّم صدوره عنكم من أول كافر به^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَشْرَوْا بِمَا بَقِيَ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: لا تستبدلوا ببيان صفة محمد صلّى الله عليه وآله عَرَضاً يسيراً من الدنيا؛ «وذلك أن رؤساء اليهود وعلماءهم كانت لهم مأكّل يُصيبونها من سفلتهم وجهالهم، يأخذون منهم كلّ عام شيئاً معلوماً من زروعهم وضروعهم ونقودهم؛ فخافوا إن هم بيّنوا صفة محمد صلّى الله عليه وآله وتابعوه أن تفوتهم تلك المأكّل؛ فغيّروا نعتهم وكتبوا اسمه، فاختراروا الدنيا على الآخرة^(٢). فهؤلاء الحمقى خالفوا أسرار قواعد الاقتصاد؛ لأنّ المعروف أن الإنسان يدفع الثمن ليأخذ ما هو أنفع له وأعزّ، وهؤلاء دفعوا الأكثر وأخذوا القليل» فوقعوا في البخس. ثمّ نهاهم الله تعالى عن شيئين: عن خلط الحقّ بالباطل، وكتمان الحقّ: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكُنُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فنهاهم الله تعالى أن

(١) تفسير أبي السعود (١/٩٥ - ٩٦). (٢) تفسير البغوي (١/٤٢).

(٣) اللبس: هو الخلط، يُقال: لَبَسَ الثوبَ يَلْبَسُ لُبْسًا، وَلَبَسَ عَلَيْهِ الْأَمْرَ يَلْبَسُ لُبْسًا، أي: خَلَطَ. والمعنى: لا تخلطوا الحقّ بالباطل.

يخلطوا الحق الذي أنزله عليهم - من صفة محمد ﷺ - بالباطل الذي يكتبونه بأيديهم، من تغيير صفة محمد ﷺ^(١).

قال البغوي رحمه الله: «والأكثر على أنه أراد: لا تلبسوا الإسلام باليهودية والنصرانية»^(٢).

وفي هذا دليل على: أن أهل الكتاب يعلمون يقيناً أن القرآن حق، ومن عند الله تعالى، ومع ذلك تركوا الإيمان به، وهجروه، واستعاضوا به ثمناً قليلاً من حطام الدنيا فبئس ما يشتررون.

الدليل الثاني: قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْهِمُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَقْنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِسْمَا أَشْرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَقِيًّا أَنْ يُنَزَّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [البقرة ٨٩ - ٩٠].

الكتاب: هو القرآن العظيم. وتنكيره: للتفخيم. ووصفه بأنه من الله تعالى: للتشريف^(٣).

ذكر المفسرون أن اليهود قبل مبعث النبي ﷺ كانوا يستنصرون على مشركي العرب، فكانوا يقولون - إذا حزبهم أمر، ودهمهم عدو: اللهم انصرنا عليهم بالنبي المبعوث في آخر الزمان، الذي نجد صفته في التوراة، فكانوا يُنصرون، وكانوا يقولون لأعدائهم من المشركين: قد أظلم زمان نبي يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلكم معه قتل عاد وثمود وإرم ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا﴾ - يعني محمداً ﷺ - من غير بني إسرائيل، وعرفوا نعتة وصفته ﴿كَفَرُوا بِهِ﴾ بغياً وحسداً^(٤).

والشاهد: أن أهل الكتاب قد علموا سلفاً بمبعث النبي ﷺ، وتيقنوا ذلك لاستنصارهم بهذا النبي، وتوعددهم بخروجه، فلما جاءهم هذا الكتاب، والنبي

= انظر: تفسير الطبري (٢٥٤/١)، تفسير البغوي (٤٢/١).

(١) انظر: تفسير السعدي (٥٦/١). (٢) تفسير البغوي (٤٢/١).

(٣) انظر: تفسير أبي السعود (١٢٨/١).

(٤) انظر: تفسير الطبري (٤١٠/١)؛ تفسير ابن كثير (١٢٥/١)؛ تفسير البغوي (٧٦/١).

الذي عرفوا، كفروا به بغياً وحسداً؛ لأنه كان من غير بني إسرائيل.

الدليل الثالث: قال تعالى - إفحاماً لهم: ﴿يَتَأْهَلُ الْكِتَابُ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ [آل عمران: ٧٠].

والمعنى: لأي سبب تكفرون بآيات الله تعالى، التي هي آيات القرآن، وقد بشرت التوراة والإنجيل بالرَّسول ﷺ ودلَّت على نبوَّته، والحال أنكم تعلمون صدق هذه الآيات، وتشهدون أنها من عند الله تعالى^(١).

وهذا يدلُّ بوضوح على أنَّ علماء أهل الكتاب يعلمون علماً يقيناً أنَّ القرآن حقٌّ ومن عند الله، فقامت الحُجَّة بذلك عليهم.

الدليل الرابع: قال تعالى - إنكاراً عليهم وتوبيخاً لهم: ﴿أَفَسِرَّ اللَّهُ أَيْتُنِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنْهُمْ مُنْزَلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [الأنعام: ١١٤].

والمعنى: قل - يا محمد - لهؤلاء القوم: عَجَباً لكم! أأُضِلُّ عن الصُّراط المستقيم، فأطلبُ حَكَمًا سوى الله ليحكم بيني وبينكم، ويفصل المُحَقَّ من المبطل، والحال أنه هو الذي أنزل إليكم القرآن مُبَيَّنًا فيه الحقُّ والباطل، وما أنتم في حاجة إليه في دينكم ودنياكم^(٢).

ثم أكَّد حقيقة نزول القرآن من عند الله تعالى، وحقيقة ما فيه، فذكر - وهو الشَّاهد معنا هنا - أنَّ الذين أوتوا الكتاب من علماء اليهود والنصارى يعلمون علم اليقين أنَّ هذا القرآن منرَّل حقاً عليكم من ربِّك، مشتَملاً على الحقِّ، كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥]. أي: نزل إلينا كما هو لم يتغيَّر فيه حرف.

وقوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ أي: فلا تكوننَّ من الشَّاكِّين في أنَّ أهل الكتاب يعلمون أنَّ القرآن منرَّل من عند ربِّك بالحق، ولا يُربِّك جحود أكثرهم وكفرهم به؛ لأنَّ عدم اعتراف بعضهم بذلك مرَّده البغي والحسد، والحرص على

(١) انظر: تفسير ابن عطية (١/٤٥٢).

(٢) انظر: تفسير أبي السعود (٣/١٧٦)؛ تفسير السعدي (٢/٦١).

مظاهر الحياة^(١)، وإذا نُهي المؤيَّد بالوحي عن ذلك، فأولى بأمته.

وهذا النهي زيادةً في التأكيد، وتثبيت اليقين كي لا يجوز في خاطره طائف من التردد في هذا اليقين، وإلا فهو - ﷺ - كإخوانه المرسلين على حجة واضحة من أمر ربّه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ [الأنعام: ٥٧].

الدليل الخامس: قال تعالى - مُقيماً الحجة عليهم من جنسهم: ﴿وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكَلَتْ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَخْزَابِ مَن يُنْكِرُ بَعْضَهُ﴾ [الرعد: ٣٦].

قال أبو السعود رحمه الله في تفسيرها: «هم المسلمون من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وكعب وأضرابهما، ومن آمن من النصارى وهم ثمانون رجلاً: أربعون بنجران، وثمانية باليمن، واثنان وثلاثون بالحبيشة» ﴿يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ إذ هو الكتاب الموعود في التوراة والإنجيل ﴿وَمِنَ الْأَخْزَابِ﴾ أي: من أحزابهم، وهم كفرتهم الذين تحزّبوا على رسول الله ﷺ بالعداوة نحو كعب بن الأشرف، والسيد العاقب، أسقفي نجران، وأتباعهما ﴿مَن يُنْكِرُ بَعْضَهُ﴾ وهو الشرائع الحادثة إنشاءً أو نسخاً، لا ما يوافق ما حرّفوه وإلا لنعى عليهم من أول الأمر، أنَّ مدار ذلك إنما هو جنایات أيديهم، وأمّا ما يوافق كتبهم فلم ينكروه، وإن لم يفرحوا به»^(٢).

فهذا يدلُّ بوضوح على أنَّ الذين أعطوا علم الكتب المنزلة من شأنهم أن يفرحوا بالكتاب الذي أنزل بعد ذلك؛ لأنّه امتداد للرّسالة الإلهية، ولا يفرح بالشّيء إلا من يعلم يقيناً أنه حق لا كذب. أمّا من يتخذون التّدین تحزّباً وتعصّباً ينكرون بعض ما أنزل عداوةً وعصبيةً، فقامت عليهم الحجة بذلك.

الدليل السادس: قال تعالى - مبشراً به: ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿أَوَّلَ يَكُنْ لَّمْ يَأْتِ أَن يَعْلَمَ عَلَمُوا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٦ - ١٩٧].

بشرت بالقرآن العظيم كتبُ الأولين وصدّفته، فنزل طبق ما أخبرت به، ففي ذكر القرآن في كتب المُتقدِّمين دليل على صحّته، وأنّه من عند الله تعالى.

ثم أقام الحجة على قريش بقوله: ﴿أَوَّلَ يَكُنْ لَّمْ يَأْتِ﴾ على صحّته، وأنّه

من الله تعالى: ﴿أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَتُو بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ الذين قد انتهى إليهم العلم، وصاروا أعلم الناس، وهم أهل الإنصاف. وكان الظنُّ الإيمان به؛ لأنَّ علماء بني إسرائيل يعلمون أنَّه الحق.

فإنَّ كلَّ شيء يحصل به اشتباه، يُرجع فيه إلى أهل الخبرة والدراية، فيكون قولهم حُجَّة على غيرهم. كما عَرَفَ السَّحرة - الذين مهزوا في علم السَّحر - صِدْقَ معجزة موسى، وأنَّه ليس بسحر. فقول الجاهلين بعد هذا، لا يؤيِّبه به^(١).

وفي الآية دليل على: أنَّ علماء بني إسرائيل يعلمون يقيناً أنَّ القرآن حقٌّ ومن عند الله تعالى، ومع ذلك تنكَّروا له، وتركوا الإيمان به، فَتَرَكَ أَكْثَرُ بني إسرائيل الإيمان به وهجروه، بغياً وحسداً.

الدليل السابع: قال تعالى - مؤكداً ذلك: ﴿الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْتَبَ مِنْ قَبْلِهِمْ بِهِمْ يَوْمُونَ﴾ (٥١) وَلَئِنْ يَتْلَوْا عَلَيْكُمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٢) أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ [القصص: ٥٢ - ٥٤].

أخبر الله تعالى عن عظمة القرآن وصدقه وأنَّ أهل العلم بالحقيقة يعرفونه، ويؤمنون به، ويقرُّون بأنَّه الحقُّ.

فالمقصود بـ ﴿الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْتَبَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ هم علماء أهل الكتاب، الذين لم يُعَيِّرُوا، ولم يُبَدِّلُوا، بل آمنوا بالقرآن الكريم وبمن جاء به.

﴿وَلَئِنْ يَتْلَوْا عَلَيْكُمْ﴾ استمعوا له، وأذعنوا وقالوا: ﴿آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا﴾؛ لموافقته ما جاءت به الرُّسل، ومُطابقتها لما ذُكِرَ في الكتب، واشتماله على الأخبار الصادقة، الموافقة للحكمة.

وهؤلاء هم الذين تنفع شهادتهم، وينفع قولهم؛ لأنَّهم لا يقولون ما يقولون إلا عن علم وبصيرة؛ لأنَّهم أهل الخبرة والدراية الحقَّة، وهو شاهدنا من إيراد الدليل.

وغيرهم لا يَدُلُّ رُدُّهم ومعارضتهم للحقِّ على شبهة فضلاً عن الحُجَّة؛ لأنَّهم ما بين جاهلٍ فيه، أو مُتجاهلٍ معاند للحقِّ.

(١) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، للكلبي. تفسير السعدي (٤٨٦/٣).

كما قال تعالى: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [الإسراء: ١٠٧].

ولذلك قال أهل الخبرة والدراية من أهل الكتاب: ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ فلذلك ثبتنا على ما مَنَّ الله به علينا من الإيمان والإسلام، فصدقنا بهذا القرآن. ولسان حالهم يقول: آمنا بالكتاب الأول، والكتاب الآخر، وغيرنا ينقض تكذيبه بهذا الكتاب، إيمانه بالكتاب الأول.

ولذلك فإنَّ الذين آمنوا بالكتابين ﴿يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ أجرأ على الإيمان الأول، وأجرأ على الإيمان الثاني؛ بسبب صبرهم على الإيمان، وثباتهم على العمل الصالح - وهذا من عظيم البلاء - ولذلك لم تُزعزعهم عن ذلك شبهة، ولم تنهم عن الإيمان، رياسة ولا شهوة؛ فاستحقوا هذا التكريم العظيم من ربِّ العالمين^(١).

الدليل الثامن: قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَقَامَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٠].

والمعنى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: أخبروني عن حالكم، إذا كان القرآن من عند الله - لا سحر، ولا مفترى كما تزعمون - وشهد شاهد عظيم الشأن من بني إسرائيل على أنه من عند الله تعالى، فأمن بلا تردّد، واستكبرتم عن الإيمان، فتطابقت أنباء الأنبياء وأتباعهم الثبلاء، واستكبرتم أيها الجهلاء الأغبياء، فهل هذا إلا أعظم وأشدُّ الكفر؟ وهو الاستكبار عن الحق بعد التمكن منه^(٢).

فالمراد بالشاهد هنا: هو الجنس، فيشمل كلَّ مَنْ كان على هذه الصفة من اليهود والنصارى^(٣). وإنَّ قال سعد بن أبي وقاصٍ رضي الله عنه: «ما سمعتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ لِأَحَدٍ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ: إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، إِلَّا لِعَبْدِ اللَّهِ ابْنِ سَلَامٍ:

(١) انظر: تفسير السعدي (٤/٣٠ - ٣١).

(٢) انظر: تفسير أبي السعود (٨/٨٠)؛ تفسير السعدي (٥/٩).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٤/١٥٧).

قَالَ: وَفِيهِ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَشَهِدْ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى مِثْلِهِ...﴾ [الاحقاف: ١١٠ (آية) (١)].

فهذا لا يعني التَّخْصِصَ، وإنما هو فرد من أفراد العموم، فيشمل لفظ «شاهد» كُلَّ مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ عَلَى صِفَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ ﷺ فِي الْإِيمَانِ بِالْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَالنَّبِيِّ الْكَرِيمِ ﷺ.

المطلب الثاني

كُفْر مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِالْقُرْآنِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ

إنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ - مع جزم علمائهم بأنَّ القرآن حقٌّ، كما سبق ذكره - ينكرون حسداً وبغياً نَسْخَ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ لَشَرِيعَتِهِمْ، وَيَدَّعُونَ أَنَّ مَنْ مَاتَ مِنْهُمْ عَلَى يَهُودِيَّتِهِ، أَوْ نَصْرَانِيَّتِهِ فِي عَهْدِ الرُّسَالَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَنَاجٍ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ تَعَالَى، وَإِنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِرِسَالَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَبِكِتَابِهِ الْكَرِيمِ.

وَلَا رَيْبَ أَنَّ هَذَا افْتِرَاءً كَاذِبٌ، وَادِّعَاءٌ بَاطِلٌ، لَيْسَ لَهُ مُسْتَدٌّ مِنَ الصَّحَّةِ، بَلِ الْكَثْرَةُ الْكَاثِرَةُ مِنَ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ تُكْذِّبُهُ، فَقَدْ تَوَالَتْ الْبَيِّنَاتُ السَّاطِعَاتُ عَلَى أَنَّ رِسَالَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ وَكِتَابَهُ الْعَظِيمَ جَاءَ لِعُقْلَاءِ الْعَالَمِينَ عَامَّةً، وَلِلْبَشَرِ كَافَّةً، وَأَصْبَحَ ذَلِكَ مَعْلُومًا مِنَ الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ بِالضَّرُورَةِ، وَصَارَ مِنَ الْمَقْطُوعِ بِهِ أَنَّ الشَّرِيعَةَ الْمُحَمَّدِيَّةَ نَاسِخَةٌ لِلشَّرِيعَةِ الْيَهُودِيَّةِ وَالْمَسِيحِيَّةِ، وَغَيْرِهِمَا مِنَ الشَّرَائِعِ السَّمَاوِيَّةِ، فَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَغَيْرِهِمْ بِرِسَالَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَبِالْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، إِيْمَانٍ إِذْعَانٍ وَانْقِيَادٍ فَهُوَ كَافِرٌ وَمُخَلَّدٌ فِي النَّارِ، وَفِيهَا يَلِي بَعْضُ النُّصُوصِ الدَّالَّةِ عَلَى ذَلِكَ، وَهِيَ عَلَى النَّحْوِ الْآتِي (٢):

النَّصُّ الْأَوَّلُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَمَسَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨١﴾﴾ بِشَكْمَا أَشْتَرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزَّلَ

(١) رواه البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب: مناقب عبد الله بن سلام ﷺ (١١٦٦/٣) (ح ٣٨١٢).

(٢) انظر: رد افتراءات المبشرين على آيات القرآن الكريم (ص ٢١٣ - ٢٢٤).

اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَنَكْفُرُ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ ﴿البقرة: ٨٩ - ٩١﴾.

لَمَّا كَانَ الْيَهُودُ الْمَعَاصِرُونَ لِلنَّبِيِّ ﷺ يَعْرِفُونَ حَقًّا أَنَّهُ النَّبِيُّ الْمُبَشِّرُ بِهِ فِي التَّوْرَةِ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ حَسَدًا وَبَغْيًا، فَقَدْ بَاعُوا حَظَّهُمَ الْحَقِيقِي - وَهُوَ الْإِيمَانُ بِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، وَمَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ مِنَ الثَّوَابِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ - وَاسْتَبَدَلُوا بِالْإِيمَانِ الْكُفْرَ بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ، وَمَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ مِنَ الْعِقَابِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

فَهُمْ قَدْ اسْتَحَقُّوا مِنْ اللَّهِ تَعَالَى غَضَبًا جَدِيدًا عَظِيمًا؛ لَكُفْرِهِمْ بِالْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، الَّذِي هُوَ فَضْلُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، أَضِيفَ هَذَا الْغَضَبُ فِي مِيزَانِ سَيِّئَاتِهِمْ عَلَى غَضَبِ اسْتَحْقَوِهِ - مِنْ قَبْلِ - لَتَضْيِيعِ التَّوْرَةِ، وَالْكَفْرِ بِعِيسَى ﷺ.

«قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمَجَاهِدٌ: الْغَضَبُ الْأَوَّلُ بِتَضْيِيعِهِمُ التَّوْرَةَ وَتَبْدِيلِهِمْ، وَالثَّانِي: بِكُفْرِهِمْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَالْقُرْآنِ.

وَقَالَ قَتَادَةُ: الْأَوَّلُ بِكُفْرِهِمْ بِعِيسَى وَالْإِنْجِيلِ، وَالثَّانِي بِكُفْرِهِمْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَالْقُرْآنِ»^(١).

فَلَعَنَهُمُ اللَّهُ، وَغَضِبَ عَلَيْهِمْ غَضَبًا بَعْدَ غَضَبٍ؛ لكَثْرَةِ كُفْرِهِمْ، وَتَوَالِي شُكُّهُمْ وَشُرْكِهِمْ.

وُوصِفَ عَذَابُ هَؤُلَاءِ الْمَكْذِبِينَ بِالْقُرْآنِ بِأَنَّهُ «مُهِينٌ» مَأْخُودٌ مِنَ الْهَوَانِ، وَهُوَ الْخُلُودُ فِي النَّارِ؛ لِأَنَّ مَنْ لَا يُخَلَّدُ مِنْ عَصَاةِ الْمُسْلِمِينَ، إِنَّمَا عَذَابُهُ كَعَذَابِ الَّذِي يُقَامُ عَلَيْهِ الْحَدُّ، لَا هَوَانُ فِيهِ، بَلْ هُوَ تَطْهِيرٌ لَهُ، كَرَجْمِ الزَّانِي، وَقَطْعُ يَدِ السَّارِقِ^(٢).

فَلَمَّا كَانَ كُفْرُهُمْ سَبَبَهُ الْبَغْيِ وَالْحَسَدِ، وَمِنْشَأُ ذَلِكَ التَّكْبَرُ، قُوبِلُوا بِالْإِهَانَةِ وَالصَّغَارِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي

(١) تفسير البغوي (١/٧٦).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٢/٢٩)؛ تفسير الثعالبي (١/٨٨ - ٨٩).

مَيْدَحُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾. أي: صاغرين حقيرين ذليلين راغمين^(١).
وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:

«يُخْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالُ الذَّرِّ فِي صُورِ الرِّجَالِ يَفْشَاهُمُ الذَّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، يُسَاقُونَ إِلَى سِجْنٍ فِي جَهَنَّمَ يُسَمَّى: بُولَسَ، تَعْلُوهُمْ نَارُ الْأَثَارِ، يُسْقَوْنَ مِنْ حُصَارَةِ أَهْلِ النَّارِ طِينَةَ الْخَبَالِ»^(٢).

ومن تكبرهم أنهم إذا قيل لهم آمنوا بالقرآن الذي أنزله الله تعالى على محمد ﷺ قالوا لا نؤمن به، ويدعون أنهم لا يؤمنون إلا بالذي أنزل عليهم، وهو التوراة، مع أن القرآن هو الحق المصدق لما في التوراة التي أنزلت عليهم. وشاهدنا في هذا النص: أن كفرهم بالقرآن كفرٌ بالتوراة نفسها؛ إذ الكل من عند الله تعالى، والكافر بذلك مخلد في النار.

النص الثاني: «قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿٩٩﴾» [البقرة: ٩٧ - ٩٩].

فاليهود لم يقتلوا الأنبياء، ويحرفوا التوراة، ويشتروا آيات الله ثمنًا قليلًا من حطام الدنيا فقط، بل زادوا على هذه الجرائم جريمة أخرى، وهي: عداوتهم للملائكة، فأضرموا العداوة لأقرب الملائكة إلى الله تعالى، جبريل عليه السلام، الذي نزل بوحى القرآن.

وقد أجمع المفسرون: على أن هذه الآيات نزلت جواباً لليهود، الذين زعموا أن جبريل عدو لهم، وأن ميكائيل ولي لهم، وذلك بعد مناظرة جرت بينهم وبين رسول الله ﷺ في المدينة^(٣). ومما جاء في هذه المناظرة:

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: «أَقْبَلْتُ يَهُودَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالُوا: يَا أَبَا

(١) تفسير ابن كثير (١/١٢٦).

(٢) زواه الترمذي (٦٥٥/٤) (ح ٢٤٩٢). وقال: «حديث حسن صحيح».

وحسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي»: (٣٠٤/٢) (ح ٢٠٢٥).

(٣) انظر: تفسير الطبري (١/٥٦٦)؛ تفسير البغوي (١/٧٩)؛ تفسير ابن كثير (١/٢٨٧).

الْقَاسِمِ، إِنَّا نَسْأَلُكَ عَنْ خَمْسَةِ أَشْيَاءَ. فَإِنْ أَنْبَأْتَنَا بِهِنَّ، عَرَفْنَا أَنَّكَ نَبِيٌّ وَاتَّبَعْنَاكَ. فَأَخَذَ عَلَيْهِمْ مَا أَخَذَ إِسْرَائِيلُ عَلَى بَنِيهِ، إِذْ قَالُوا: اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ...

[قَالَتْ يَهُودُ:] إِنَّمَا بَقِيَتْ وَاحِدَةٌ وَهِيَ الَّتِي تُبَايِعُكَ إِنْ أَخْبَرْتَنَا بِهَا، فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ نَبِيِّ إِلَّا لَهُ مَلَكٌ يَأْتِيهِ بِالْخَبَرِ، فَأَخْبِرْنَا مَنْ صَاحِبُكَ؟ قَالَ: «جِبْرِيلُ ۖ عَلَيْهِ السَّلَامُ» قَالُوا: جِبْرِيلُ ذَاكَ الَّذِي يَنْزِلُ بِالْحَرْبِ وَالْقِتَالِ وَالْعَذَابِ عَدُوَّنَا، لَوْ قُلْتَ: مِيكَائِيلُ الَّذِي يَنْزِلُ بِالرَّحْمَةِ وَالنَّبَاتِ وَالْقَطْرِ، لَكَانَ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ ۖ عَلَيْهِ: «مَنْ كَانَتْ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ ۖ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ [البقرة: ٩٧]»^(١).

ومعنى الآيات التي معنا: قل - يا محمد - لهؤلاء اليهود، الذين زعموا أن الذي منعهم من الإيمان بك، هو وليك جبريل ۖ عليه السلام، ولو كان غيره من ملائكة الله لآمَنُوا بك وصدَّقوك: إنَّ هذا الزَّعم منكم، تناقض وتهافت، وتكبر على الله تعالى.

فإنَّ جبريلَ ۖ عليه السلام هو الذي نَزَلَ الْقُرْآنَ من عند الله عزَّ وجلَّ على قلبك، وهو الذي نَزَلَ على الأنبياء قبلك، والله تعالى هو الذي أمره، وأرسله بذلك، فهو رسولٌ مَخْضُوعٌ.

وهذا الكتاب الذي نزل به جبريل - مصدقاً لما تقدَّمه من الكتب - غير مخالف لها ولا مناقض.

فالعداوة لجبريل، الموصوف بذلك، كفرٌ بالله وآياته، وعداوةٌ لله ورسوله وملائكته. فإنَّ عداوتهم لجبريل لا لذاته بل لما ينزل به من عند الله تعالى من الحقِّ على رسوله ۖ عليه السلام.

(١) رواه أحمد في «المسند» (٢٧٨/١) (ح ٢٥١٤) (٣١٠/١) (ح ٢٥١٤). وقال محققو المسند (٢٨٥/٤) (ح ٢٤٨٣): «حديث حسن». ورواه الترمذي مختصراً (ح ٣١١٧). وقال: «حسن صحيح». وقال الهيثمي في «المجمع» (٢٤١/٨ - ٢٤٢): «رواه أحمد والطبراني ورجاله ثقات». وصححه أحمد شاكر في «تعليقه على المسند» (ح ٢٤٨٣، ٢٥١٤)، و«تعليقه على تفسير الطبري» (ح ١٦٠٥). وله شاهد من حديث أنس بن مالك، رواه البخاري: (ح ٣٣٢٩، ٣٩٣٨، ٤٤٨٠).

ففعّلهم وقولهم القبيح يتضمّن الكفرَ والعداوة: للذي أنزله وأرسله، والذي أرسل به، والذي أرسل إليه^(١).

قال الشوكاني رحمه الله: «العداوة من العبد: هي صدور المعاصي منه لله، والبغض لأوليائه. والعداوة من الله للعبد: هي تعذيبه بذنبه، وعَدْمُ التَّجَاوُزِ عنه والمغفرة له»^(٢).

وفي هذه الآيات توبيخ لليهود، وبيان لكفرهم لتكذيبهم بالقرآن العظيم، وفيها إخبار من الله عز وجلّ لهم: أَنَّ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِمُحَمَّدٍ ﷺ فَاللهُ لَهُ عَدُوٌّ، وهو من الكافرين بالله، الجاحدين بآياته، الخارجين عن دينه وشرعه وهديه، المتمردين على آياته وأحكامه^(٣)، وهؤلاء هم أصحاب النار، وهم فيها خالدون.

النص الثالث: قوله تعالى: ﴿تَزَلَّ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ (٢) مِنْ قَبْلِ هَذِهِ لَلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٣﴾ [آل عمران: ٣ - ٤].

قال أبو السعود رحمه الله: «المراد بالموصول: إمّا أهل الكتابين، وهو الأنسب بمقام المُحَاجَّةِ معهم. أو جنس الكفرة، وهم داخلون فيه دخولاً أولياً»^(٤).

وقد أيّد ابنُ عاشور رحمه الله كلامَ أبي السعود، فقال: «وشمل قوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ المشركين واليهود والنصارى في مرتبة واحدة؛ لأنّ جميعهم اشتركوا في الكفر بالقرآن، وهو المراد بآيات الله - هنا - لأنّه الكتاب الوحيد الذي يصحّ أن يُوصَفَ بأنّه آيةٌ من آيات الله؛ لأنّه مُعْجِزَةٌ. وعبرَ عنهم بالموصول إيجازاً؛ لأنّ الصلّة تجمعهم»^(٥).

فأهل الكتاب كذبوا بالقرآن أصالةً، وبسائر الكتب الإلهية تبعاً؛ لأنّ التّكذيب بالمصدّق - وهو القرآن - موجبٌ لتكذيب ما يُصدّقه حتماً وأصالة وهو التّوراة والإنجيل - فعاد التّكذيب على جميع الكتب المُنزّلة.

ولذا حَكَمَ اللهُ تعالى عليهم بالكفر بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ فهم

(٢) تفسير الشوكاني (١/١٨٣).

(٤) تفسير أبي السعود (٢/٥).

(١) انظر: تفسير السعدي (١/٧٩).

(٣) انظر: تفسير الطبري (١/٥٧٧).

(٥) التحرير والتنوير (٣/١١).

جحدوا القرآن وأنكروه وردّوه بالباطل، فاستحقّوا بهذا، الكفر في الدنيا، ولهم كذلك ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ يوم القيامة، لا يقادر قدره. وحسبنا أن الله تعالى وصف عذابهم بأنّه شديد، فالجزاء من جنس العمل.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ فهذا اعتراض تذييلي، مقررّ للوعيد، ومؤكّد له، كما قال تعالى: ﴿فَلَاخِذْنُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُقَدِّرٌ﴾ [القمر: ٤٢]. فالله تعالى عزيز: أي منيع الجناب عظيم السلطان. والله تعالى ذو انتقام: أي ممّن كذب بآياته، وخالف رسله الكرام، وأنبياءه العظام^(١).

وفي الآية دليل على: أن الذي كذب بالمصدق - وهو القرآن - مُكذّب من باب أولى بما يصدّقه - وهو التوراة والإنجيل - فعاد تكذيبهم على جميع كتب الله تعالى، وهو عين الكفر، فاستحقّوا به هذا العذاب الشديد، من عزيز ذي انتقام سبحانه، فهو قادر لا يغلبه شيء، منتقم ممّن يستحقّ الانتقام.

النّص الرابع: قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ الْأَسْلَمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا أَلْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ أَوَّلُهُمْ بَيِّنًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩].

والمعنى: إنّ الذين الحقّ المرضي عند الله تعالى هو الإسلام، ولا يقبل من أحد سواه، وهو أتباع الرّسل فيما بعثهم الله به في كلّ حين، حتّى ختموا بمحمد ﷺ، فمنّ لقي الله - بعد بعثه محمد ﷺ - بدين على غير شريعته فليس بمتقبّل، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥].

فانحصر الدّين المتقبّل عند الله في الإسلام: وهو التّوحيد الخالص من شوائب الشّرك، وإخلاص العبادة لله وحده، والتزام أوامره ونواهيه، وتشريعاته^(٢).

ومن أجل ذلك ذمّ الله تعالى اليهود والنصارى لاختلافهم في أمر الإسلام،

(٢) انظر: المصدر نفسه (٢/٢٨).

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/٣٤٥).

ورسالة محمد ﷺ، بعد أن علموا بالحُجَجِ النَّبِيَّةِ والآياتِ الباهرة، والبراهين السَّاحِقَةِ (١).

فعدم إسلامهم، وكفرهم بمحمد ﷺ، والكتاب الذي أنزل إليه، لم يكن عن جهالةٍ بذلك أو شبهةٍ، وإنما كان عن استكبارٍ وحسدٍ للرَّسُولِ خاصَّةً وللعربِ عامَّةً، وحرصاً على الجاه والسُّلطان ومظاهر الحياة، فكانوا بذلك مِمَّنْ ضلَّ عن علمٍ وبيِّنةٍ.

ولذلك استحقُّوا أشدَّ العذابِ وأقساه، كما يُفهم ذلك من التَّهْدِيدِ والوعيدِ في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ إِلَهَهُ سَرِيعٌ الْحِسَابُ﴾ وهذا «تعريضٌ بالتَّهْدِيدِ؛ لأنَّ سَرِيعَ الْحِسَابِ إِنَّمَا يَبْتَدِئُ بِحِسَابِ مَنْ يَكْفُرُ بِآيَاتِهِ، وَالْحِسَابُ هُنَا كِتَابَةٌ عَنِ الْجَزَاءِ، كَقَوْلِهِ: ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَئِيٍّ﴾ [الشعراء: ١١٣]» (٢).

والشَّاهِدُ من إيراد هذا النَّصِّ: أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ جَحَدُوا الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ وكفروا به، وسيجازيهم الله تعالى ويحاسبهم على هذا التَّكْذِيبِ في نار جهنَّم خالدين فيها أبداً.

النَّصُّ الخامس: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بالدُّخُولِ في جميع شرائع الإيمان وشعبه، وليس ذلك من باب تحصيل الحاصل، بل من باب تكميل الكامل وتقريره، والاستمرار عليه، كما يقول المؤمن في كلِّ صلاةٍ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]. أي: زدنا هدىً وتثبيتاً، فأمر بالإيمان الحقِّ بالله وبرسوله والدَّوامِ عليه، وبالكتاب الذي أنزله على رسوله - وهو القرآن الكريم - وجنس الكتب الذي أنزله على رسله، كالْثَوْرَةِ والإنجيل (٣).

فهذا كُلُّهُ من الإيمان الواجب، الذي لا يكون العبد مؤمناً إلا به إجمالاً

(٢) التحرير والتنوير (٥٦/٣).

(١) انظر: تفسير السعدي (٢٣٥/١).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٤٨٣/٢).

فيما لم يصل إليه تفصيله، وتفصيلاً فيما علم من ذلك بالتفصيل؛ وذلك لأنَّ الكفر بشيء من هذه الأمور المذكورة، كالكفر بجميعها؛ لتلازمها، وامتناع وجود الإيمان ببعضها دون بعض^(١).

﴿وَمَنْ﴾ في الآية الكريمة من صيغ العموم، فاليهود والنصارى الذين يؤمنون ببعض الكتب، ويكفرون ببعضها، ويؤمنون ببعض الرُّسل ويكفرون ببعضهم لا يُعتدُّ بإيمانهم، إذ الكفر بكتاب أو برسول كفر بالكلِّ؛ لأنه لو آمنَ إيماناً صحيحاً بنبيِّه وكتابه، لآمنَ بمحمدٍ ﷺ وكتابه المُبشِّر به عندهم.

ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۝ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [النساء: ١٥٠ - ١٥١].

فالإيمان واجب بكلِّ نبيٍّ بعثه الله إلى الثقلين، فمن كفر بنبوة نبيٍّ - حسداً أو عصبيةً، أو طمعاً في حظوظ دنيوية، أو حرصاً على جاه أو سلطان - فقد كفر بسائرهم.

فلو آمن اليهود بموسى حقيقة لآمنوا بمحمدٍ ﷺ، ولو آمن النصارى بوعيسى حقيقة لآمنوا بمحمدٍ كذلك؛ فهو مذكور في كتبهم، ومُبشِّر به عندهم، ومصدق لما معهم.

والشاهد الذي معنا: أنَّ مَنْ يكفر بهذه الكتب أو ببعضها - وخاصَّة القرآن الكريم - فقد ضلَّ عن الصُّراط المستقيم، وأوغل في الضلال وأبعد فيه، ولذلك جاء وصفه في نهاية الآية: ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾.

ومعنى ﴿ضَلَّ﴾: «أي سار على غير هدى، فعندما يتوه الإنسان عن هدفه المقصود، يُقال: ضلَّ الطريق، والذي ﴿ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ هو مَنْ يذهب إلى متاهة بعيدة، والمقصود بها: متاهة الكفر.

وهناك ضلال عن الهدى يمكن استدراكه، أمَّا الضلال البعيد والغرق في

مُتَاهَةِ الْكُفْرِ فَمِنْ الصَّغْبِ اسْتَدَارَكَه^(١).

وَأَيُّ ضَلَالٍ أَبْعَدَ مِنْ ضَلَالِ مَنْ تَرَكَ طَرِيقَ الْقُرْآنِ، وَحَلَلَ الطَّرِيقَ الْمَوْصِلَةَ لَهُ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ - وَهُوَ الْكُفْرُ بِالْقُرْآنِ وَالْعِيَاذُ بِهِ - وَهَذَا مَا تَوَرَّطَ فِيهِ مَنْ كَفَرَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ بِالْقُرْآنِ الْعَظِيمِ.

النَّصُّ السَّادِسُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُتَفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۖ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ۚ فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ۖ وَمَا نَفَرَقَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ ۚ﴾ [البينة: ١ - ٤].
إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ۚ﴾ [البينة: ٦].

وَالْمَعْنَى: لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ - وَهُمْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى - وَمِنَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ عَبَدُوا الْأَوْثَانَ وَالْأَصْنَامَ مَتْرُوكِينَ هَمَلًا بِدُونِ إِرْشَادِهِمْ إِلَى الْحَقِّ، وَإِقَامَةِ الْحُجَّةِ الْوَاضِحَةِ عَلَيْهِمْ، وَهَذِهِ الْحُجَّةُ الْوَاضِحَةُ هِيَ: ﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ﴾ وَهُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ، يَتْلُو قُرْآنًا عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ - لِأَنَّهُ أُمِّيٌّ لَا يَقْرَأُ وَلَا يَكْتُبُ - صَارَ فِيمَا بَعْدَ مَكْتُوبًا فِي صَحْفٍ مَنْزُوهَةٍ عَنِ الْبَاطِلِ وَالتَّحْرِيفِ، فِيهَا آيَاتٌ مُسْتَقِيمَةٌ لَا عِوَجَ فِيهَا.

فَالْمُرَادُ بِالرَّسُولِ هُنَا قَطْعًا هُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَى جَمِيعِ الْبَشَرِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ، وَمَا اخْتَلَفَ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى فِي شَأْنِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَكِتَابِهِ، وَصَارُوا فِي ذَلِكَ شَيْعًا وَأَحْزَابًا إِلَّا مَنْ بَعْدَ مَا جَاءَتْهُمْ الْحُجَّةُ الْوَاضِحَةُ الدَّالَّةُ عَلَى صَدَقِ رِسَالَتِهِ ﷺ، وَأَنَّهُ الرَّسُولُ الْمَوْعُودُ بِهِ فِي كِتَابِهِمْ.

قَالَ أَبُو الشَّعْوَدِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا نَفَرَقَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ...﴾ الْإِنِّحْ كَلَامٌ مَسْوُوقٌ لِمَا فِيهِ التَّشْنِيعُ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ خَاصَّةً، وَتَغْلِيظُ جُنَايَاتِهِمْ بَيَانٌ أَنَّ مَا نُسِبَ إِلَيْهِمْ مِنَ الْإِنْفِكَاحِ لَمْ يَكُنْ لَاشْتِبَاهٍ فِي الْأَمْرِ، بَلْ كَانَ بَعْدَ وَضُوحِ الْحَقِّ، وَتَبَيُّنِ الْحَالِ، وَانْقِطَاعِ الْأَعْذَارِ بِالْكُلِّيَّةِ، وَهُوَ السَّرُّ فِي وَصْفِهِمْ بِإِتْيَاءِ الْكِتَابِ الْمُنْبِئِ عَنْ كِمَالِ تَمَكُّنِهِمْ مِنْ مَطَالَعَتِهِ وَالْإِحَاطَةِ بِمَا فِي تَضَاعِيفِهِ مِنَ الْأَحْكَامِ وَالْأَخْبَارِ، الَّتِي مِنْ جَمَلَتِهَا نَعُوتُ النَّبِيِّ ﷺ»^(٢).

(٢) تَفْسِيرُ أَبِي الشَّعْوَدِ (١٨٤/٩).

(١) تَفْسِيرُ الشَّعْرَاوِيِّ (٢٧١٦/٥).

ومن أجل ذلك قال رسول الله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ^(١) يَهُودِيٍّ وَلَا نَصْرَانِيٍّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنَ أَصْحَابِ النَّارِ»^(٢).

وقد أكد الله تعالى - في الآية السادسة من هذه السورة - أنَّ الكافرين بالقرآن العظيم ورسالة محمد ﷺ من أهل الكتاب والمشركين خالدون في نار جهنم، وبئس القرار، جزاء كفرهم، بعد ما جاءتهم البينة، وأنهم شرُّ الخلائق؛ لأنَّهم عرفوا الحقَّ وتركوه، فخسروا الدنيا والآخرة، وبذلك استحقُّوا أشدَّ العذاب.

وهكذا نجد دعوة الإسلام قائمة بحججها الواضحة القويَّة المتواترة على أهل الكتاب في مشارق الأرض ومغاربها، وأنَّهم مطالبون بالإيمان بمحمد ﷺ وبكتابه الذي هو حُجَّةٌ عليهم، كما هو حُجَّةٌ على غيرهم، وأنَّ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِذَلِكَ إيمانٍ إذعانٍ وانقيادٍ فهو كافر ومخلدٌ في النار.



(١) المقصود بهذه الأمة: أُمَّة الدَّعوة.

(٢) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب: وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته (١/١٣٤) (ح ١٥٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الفصل الثاني

هجر تعظيم القرآن

(الاستهزاء به)

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: تعريف الاستهزاء.

المبحث الثاني: مظاهر تعظيم القرآن.

المبحث الثالث: أساليب الكفار في استهزائهم بالقرآن.

المبحث الرابع: حكم الاستهزاء بالقرآن والاستهانة بالمصحف.

المبحث الأول

تعريف الاستهزاء

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: تعريف الاستهزاء.

المطلب الثاني: الألفاظ القرآنية القريبة من معنى الاستهزاء.

المطلب الأول

تعريف الاستهزاء

أولاً: «الاستهزاء» لغة:

جاء الاستهزاء في اللغة مصدراً مشتقاً من الفعل (هَزَأَ)، وقد ذُكر جماعةً من علماء اللغة لهذا الفعل ومشتقاته استعمالاً عديدةً، وسوف نعرض للمعاني التي تتعلق بموضوع البحث على النحو الآتي:

١ - السُّخْرِيَّة:

يقال: اسْتَهْزَأَ: سَخِرَ. والهُزْءُ والهُزُّو: السُّخْرِيَّة^(١).

٢ - الإسراع:

يقول الزَّمخْشَرِي - في بيان أصل كلمة الاستهزاء: «والاستهزاء: السُّخْرِيَّة والاستخفاف، وأصل الباب الخِفَّة - من الهُزْء وهو القَتْلُ السَّرِيع - وهزأ يهزأ: مات على المكان... وناقته تَهْزَأُ به؛ أي تُسْرِعُ، وتَخِفُّ»^(٢).

٣ - المَرْحُ في خُفْيَةٍ:

يقال: الهُزْءُ: مَرْحٌ في خُفْيَةٍ، وقد يُقال لما هو كالمرح^(٣).

وكلمة (استهزأ) تتعدَّى بـ (الباء) وتتعدَّى بـ (مِنْ)؛ فيقال: استهزأتُ به ومنه. ولذا جاء في مختار الصَّحاح: «هَزَيْ مِنْهُ وَبِهِ»^(٤).

خلاصة المعنى اللُّغَوِي:

بقول الزَّمخْشَرِي يتَّضح أصل الكلمة، ألا وهو: طلب الخِفَّة. والمعاني المذكورة - آنفاً - لا تخرج عن هذا الأصل:

(١) انظر: لسان العرب (٨٤/١٥)، مادة: (هزأ).

(٢) أساس البلاغة، للزَّمخْشَرِي (ص ١٠٤ - ١٠٥).

(٣) انظر: عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، لأحمد بن يوسف الحلبي (٢٨٩/٤).

(٤) مختار الصحاح (ص ٣٣٩).

فأما المعنى الأول: وهو السُّخْرِيَّة، فمقصدها الاستخفافُ ممَّن يسخر منه.
وأما المعنى الثاني: وهو الإسراع، ومنه موت الفجأة، فلا يخرج عن أصل
الهُزء: الخفة. فموت الفجأة موت سريع، يموت فيه الإنسان في مكانه في خِفةٍ
وسرعة.

وأما المعنى الثالث: وهو المزح في خُفْيَةٍ، فهو مزح غير واضح المعالم،
لا يدري سامعه هل هو ملاطفة أم أذية؟ وذلك لأنَّ المستهزئ - أحياناً - يلجأ إلى
أسلوب المزاح في استهزائه، لكنَّه مزاح خفي لا تتضح معالمه اتِّضاحاً جلياً.
وكذلك ما هو كالمزح^(١).

والفرق بين المزاح والاستهزاء: هو أنَّ المزاح يكون دون أذية، وأما
الاستهزاء فهو بأذية^(٢).

وبناء على ما تقدَّم: يكون معنى الاستهزاء هو الاستخفاف.

ثانياً: «الاستهزاء» اصطلاحاً:

بما أنَّ السُّخْرِيَّة مقاربةٌ لمعنى الاستهزاء مقاربة كبيرة؛ فسأورد هنا قول أبي
حامد الغزالي رحمته الله في تعريفه للسُّخْرِيَّة قائلاً: «ومعنى السُّخْرِيَّة: الاستهانة
والتَّحقير والتَّنبيه على العيوب والنِّقائص على وَجْهِ يُضْحَكُ منه، وقد يكون ذلك
بالمُحاكاة في الفعل والقول، وقد يكون بالإشارة والإيماء»^(٣).

ولقد اعتمد الألوسي رحمته الله تعريف الغزالي في تعريفه للاستهزاء^(٤).

علماً بأنَّ ما اعتمده الألوسي في تعريف الاستهزاء هو قول الغزالي السَّابِق
في السُّخْرِيَّة، ولكنَّ الألوسي جعله في الاستهزاء؛ لأنَّ السُّخْرِيَّة والاستهزاء
يؤدِّيَان معنى متقارباً.

«فالسُّخْرِيَّة إذن؛ أسلوب عدائي مصوغ بروح الفكاهة»^(٥).

(١) انظر: الآيات القرآنية الواردة في المستهزئين بالإسلام ودعائه، سامي بن وديع عبد الفتاح
(ص ١٤).

(٢) انظر: تاج العروس من جواهر القاموس (١١٧/٧).

(٣) إحياء علوم الدين (٢٧٧/٣). (٤) انظر: روح المعاني (١٤٦/١).

(٥) أسلوب السُّخْرِيَّة في القرآن الكريم، د. عبد الحليم حنفي (ص ١٥).

المطلب الثاني

الألفاظ القرآنية القريبة من معنى الاستهزاء

وردت في القرآن العظيم ألفاظٌ تقرب من معنى الاستهزاء، فمنها ما هو قريب جداً من معنى الاستهزاء، ومنها ما هو أقلُّ قرباً، ولا يدلُّ على الاستهزاء إلاً بقرينة، والقصد من إيرادها هنا هو دلالتها المباشرة على معنى الاستهزاء، إذ الاستهزاء بكلام الله تعالى وأوامره ونواهيه ورَدَّ بصيغ وألفاظ مختلفة، الحدُّ المشترك فيها: هو ترك تعظيم الوحي المنزَّل من الله تعالى، والاستهانة بالمرسلين من عباده الذين اصطفاهم.

وتُجمل هذه الألفاظ على النحو التالي:

١ - السُّخْرية.

٢ - الضَّحْكَ.

٣ - الغَمْز.

٤ - اللَّعْب.

٥ - الخَوْض.

٦ - اللَّمْز.

وفيما يلي عرض لهذه الألفاظ في ضوء السِّياق القرآني، والقصد منه هو بناء تصوُّر واضح حول معنى الاستهزاء من خلال آيات القرآن الكريم وسياقاتها المختلفة، ويتمُّ تسليط الضَّوء فيها على اللَّفظة القرآنية المرادة فقط خشية الإطالة^(١).

أولاً: السُّخْرية:

* يقول تعالى عن نوح عليه السلام مع قومه: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكَلَّمَا مَرْ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ نَعْلَمُوكَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾ [هود: ٣٨ - ٣٩].

(١) انظر: الآيات القرآنية الواردة في المستهزئين بالإسلام ودعائه (ص ١٦ - ٢٣).

والذي يراد من الوقوف عند معنى الآية الكريمة - في هذا المقام - هو تسليط الضوء على عبارة: ﴿سَخِرُوا مِنْهُ﴾.

ومعنى ﴿سَخِرُوا مِنْهُ﴾: استهزؤوا به.

يقول الراغب الأصفهاني رحمته الله: «سخرت منه، واستسخرته، للهاء منه، قال تعالى: ﴿قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾»^(١).

فقوم نوح عليه السلام يستهزئون به؛ لأنه يصنع السفينة وينذرهم بأن الله تعالى سيغرق الكافرين.

وبالجهة المقابلة، نوح عليه السلام يقول لقومه: إِنْ تَسْخَرُوا مِنِّي وَمِنَ الَّذِينَ مَعِيَ لَظُنٌّ أَنْ عَمَلْنَا غَيْرُ مَشْرٍ ﴿إِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ مِنَّا الْآنَ؛ لِأَنَّ عَمَلَنَا مُنْجٍ، وَعَمَلُكُمْ لَيْسَ مُقْتَضِراً عَلَى الضِّيَاعِ، بَلْ هُوَ مُوجِبٌ لِمَا تَوَعَدُونَ مِنَ الْعَذَابِ^(٢).

ثانياً وثالثاً: الضحك والغمز:

* يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿١٢﴾ [المطففين: ٢٩ - ٣٠].

هاتان الآيتان الكريمتان تعرضان صورتين من صور استهزاء الكفار بالمؤمنين.

فأما الصورة الأولى فهي: الضحك من المؤمنين:

إذ إن استهزاء الكفار بالمؤمنين قد تجاوز الشعور القلبي إلى ضحك يصدر نتيجة الاستهزاء الممكنون في صدورهم.

فمجرد الضحك لا يدل على الاستهزاء دون قرينة؛ لأن أسباب الضحك تتعدد، فخرج الاستهزاء هنا على شكل ضحك يُسمع صوته، ويُرى صاحبه فاكهاً. ولذا يقول الراغب الأصفهاني رحمته الله: «استعير الضحك للسخرية»^(٣).

وأما الصورة الثانية فهي: الغمز استهزاء بالمؤمنين:

(١) المفردات في غريب القرآن (ص ٢٢٧).

(٢) انظر: نظم الدرر في تناسب الآي والسور، لإبراهيم بن عمر البقاعي (٩/ ٢٨٤ - ٢٨٥).

(٣) المصدر السابق (ص ٥٠١).

ويدلُّ له قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ [المطففين: ٣٠].

والغمز: هو الإشارة بالجفون والحواجب^(١).

فقد كان الكفار إذا مرَّ بهم المؤمنون - وهم في مجالسهم - يستهزئون بهم على طريق الغمز.

فمجرد الغمز لا يدلُّ على الاستهزاء دون قرينة؛ لأنَّ أسبابه تتعدَّد أيضاً كما هو الحال في الضحك، فخرج الاستهزاء هنا على شكل الغمز.

فمن خلال هاتين الصورتين يتبيَّن أنَّ الضحك والغمز لفظان قريبان في معنهما لمعنى الاستهزاء.

رابعاً وخامساً: الخوض واللَّعب:

* يقول تعالى: ﴿وَلَمَّا كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ [التوبة: ٦٥].

تعرض هذه الآية الكريمة مشهداً من حادثة وقعت من المنافقين في غزوة تبوك، فقد أخرج الإمام الطبري رحمته الله بسنده إلى عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: «قال رجلٌ في غزوة تبوك في مجلس: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء، أرغب بطونا، ولا أكذب ألسنة، ولا أجبن عند اللقاء! فقال رجلٌ في المجلس: كذبت، ولكيئك منافق، لأخبرنَّ رسول الله ﷺ، فبلغ ذلك النبي ﷺ ونزل القرآن، قال عبد الله بن عمر: فأنا رأيته متعلقاً بحَقَب^(٢) ناقة رسول الله ﷺ، تنكبه الحجارة^(٣)، وهو يقول: يا رسول الله، إنَّما كُنَّا نخوض ونلعب، ورسول الله ﷺ يقول: ﴿أَبَايَهُ وَمَا يَنْبُؤُهُمْ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ (١٥) لَا تَمْنُزُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِسْمِنَا ﷺ﴾ [التوبة: ٦٥ - ٦٦]»^(٤).

(١) انظر: ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة، الطاهر أحمد الزاوي (٤١٧/٣)؛ فتح البيان في مقاصد القرآن، لصديق بن حسن القنوجي (ص ٣٩٤).

(٢) (الحَقَب): بفتح الحاء والقاف، حَبْلٌ يُشَدُّ بِهِ الرَّحْلُ فِي بَطْنِ الْبَعِيرِ.

انظر: لسان العرب (٢٥٢/٣)، مادة: (حقب).

(٣) (نَكَبَتِ الْحِجَارَةُ): أي لثَمَتِ الحجارة رجله وظفَّره، أي آذته وأصابته.

انظر: لسان العرب (٢٧٥/١٤)، مادة: (نكب).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (٣٣٣/١٤ - ٣٣٥) (رقم ١٦٩١١، ١٦٩١٢، ١٦٩١٦).

لقد تعلَّل المنافقون بأنَّ ما فعلوه كان خوفاً ولعباً، فردَّ عليهم النَّبي ﷺ بأنَّ هذا هو عين الاستهزاء، قائلاً لهم: ﴿أَيُّ اللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾. والخوض: هو المشي في الماء، ثم استعمل في كلِّ دخول فيه تلوُّث وأذى^(١).

واللَّعب: يُقارب معنى الاستهزاء، حيث يقول القرطبي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الهاء: السُّخْرية واللَّعب»^(٢).

وكلمة «الخوض» تُشعرنا بمعنى في منتهى الدِّقَّة؛ لأنَّ الذي يخوض في الماء لا يدري إلى أيِّ موقع تقع قدماه، وربما وقعتا في هُوَّة، أو ربَّما وقعتا على شيء جارح، لكنَّ الذي يسير على اليابسة، فالطَّرِيق واضحة أمامه، يضع قدمه حيث يرى أماناً واستقراراً وثباتاً، ومن هذا الباب أصبح الخوض وصفاً للكلام في الباطل^(٣).

فهذا الخوض وهذا اللَّعب هو عين الاستهزاء، بقرينة أنَّ النَّبي ﷺ لم يلتفت إلى ما اعتدروا به، بل أنزلهم منزلة المستهزئين بخوضهم ولعبهم. سادساً: اللَّمز:

* يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ [التوبة: ٧٩].

تعرض هذه الآية الكريمة استهزاء المنافقين بالمؤمنين المتصدِّقين، فإذا جاء رجل من الصَّحابة، فتصدَّق بشيء كثير، قال المنافقون: هذا مُراءٍ، وإذا جاء آخر فتصدَّق بصاع، قال المنافقون: إنَّ الله لغنيٌّ عن صدقة هذا، فنزلت الآية. * عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «لَمَّا أُمِرْنَا بِالصَّدَقَةِ كُنَّا نَتَحَامَلُ»^(٤)، فَجَاءَ أَبُو

= وقال محمود شاكر - في تعليقه على الطبري: «صحيح الإسناد».

(١) انظر: تفسير القرطبي (١٨٢/٨)؛ لسان العرب (٢٤٦/٤)، مادة: (خوض).

(٢) تفسير القرطبي (٢٠٧/١).

(٣) انظر: تفسير الشعراوي (٣٧٠٩/٦).

(٤) (تتحامل): أي نحمل الحمل على ظهورنا بالأجرة، ونتصدَّق منها.

انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٤٤٣/١).

عُقِيلَ بِنُصْفِ صَاعٍ، وَجَاءَ إِنْسَانٌ بِأَكْثَرِ مِنْهُ، فَقَالَ الْمُتَأَفِّقُونَ: إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنْ صَدَقَةِ هَذَا، وَمَا فَعَلَ هَذَا الْآخَرُ إِلَّا رِثَاءً، فَتَنَزَّلَتْ: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ الآية^(١).

قال البخاري رحمه الله: «يَلْمِزُونَ: يَعْيُونَ»^(٢).

والمراد هنا تسليط الضوء على كلمة (اللمز):

يقول الراغب الأصفهاني رحمه الله في معنى اللمز: «الاغتيال وتتبع المعاب»^(٣).

وقيل: هو تتبع المعاب في الحضور، وقيل: هو تعييب الناس باللسان^(٤)، وقيل هو: المواجهة بالعيب^(٥)، وقيل هو: الطعن في الأنساب^(٦).

وعلى كل حال، فمعنى اللمز: هو تعييب الناس، وهو نوع من أنواع الاستهزاء.



(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب: قوله: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ (١٤٣١/٣) (ح ٤٦٦٨).

(٢) صحيح البخاري (١٤٣١/٣). (٣) المفردات في غريب القرآن (ص ٤٥٤).

(٤) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٤/٤٢٨).

(٥) انظر: التحرير والتنوير (٣٠/٤٧٢). (٦) انظر: تفسير القرطبي (٢٠/١٨١).

المبحث الثاني

مظاهر تعظيم القرآن

إذا كنّا في مَعْرِض الحديث عن مظهر من مظاهر هجر القرآن العظيم، وهو ترك تعظيمه، والاستهزاء به، فإنّه من الضّروري - بعد استعراض معنى الاستهزاء - أن نبيّن موقف المؤمنين من القرآن وتعظيمهم له؛ ذلك ليتبيّن للجميع أنّ لكتاب الله تعالى المكانة العظيمة والمنزلة الجليلة في قلب كلّ مؤمن بالله، إذ هو كلام الله عزّ وجلّ، ولا يماثل شيئاً من كلام الخلق، ولا يقدر على مثله أحد من الخلق، وتعظيمه وإجلاله دليل على تعظيم الله سبحانه وخشيته، فليس فيما نرى ونسمع كتاب أحيط به من الإجلال والتّقديس والتّعظيم والاحترام من جميع الجوانب، وفي صور متعدّدة كالقرآن الكريم.

ولذلك أجمع أهل العلم - من السّلف والخلف - على وجوب احترام المصحف وتعظيمه وتكريمه، كما أجمعوا على حرمة امتهانه، فيجب تعظيمه وإجلاله، والدّبّ عنه أمام تحريف الغالين وانتحال المبطلين^(١).

ولمّا كان المصحف الكريم أشرف كتاب في الوجود؛ لما تضمّنه بين دفتيه من كلام الخالق المعبود جلّ جلاله، تأكّدت في حقّه جملة من الآداب المرعية المستلزمة لطائفة من مظاهر تعظيمه القولية والفعليّة، وهذه الآداب منها ما جاء به نصّ عن الشّارع الحكيم فالتزمه المؤمنون؛ لأنّه أصبح تكليفاً، ومنها ما وضعوه والتزموه دون نصّ؛ إيماناً في تعظيمهم القرآن، ودليلاً على تمكّن حبّ القرآن في قلوبهم، وإذا كانت كثرة الأسماء تدلّ على شرف المسمّى، فإنّ من شرف القرآن العظيم تعدّد هذه الآداب، وهي على النّحو الآتي:

(١) انظر: نواقض الإيمان القولية والعملية (ص ٣٩٢).

أولاً: ملاحظة آداب التلاوة والالتزام بها:

فمن الآداب المتأكدة حال التلاوة ما يلي:

- ١ - اشتراط الطهارة لملامسته، مع إحسان الجلسة والاستعداد التام لها بالسواك، وقطع المشغلات والملهيات، والبعد عن الصّوارف والمعوقات^(١).
- ٢ - اجتناب أكل الثوم والبصل قبل القراءة، فقد ذهب بعض السلف إلى كراهية أكل الثوم والكراث والبصل، والامتناع منه قبل قراءة القرآن، إكراماً وتقديراً لكلام الله تعالى.

قال قتادة رضي الله عنه: «ما أكلت الكراث منذ قرأت القرآن»^(٢).

- ٣ - يستحب للقارئ في غير الصلاة أن يستقبل القبلة؛ لأنّ تلاوة القرآن عبادةً يُتقرب بها إلى الله تعالى، فناسب فيها استقبال القبلة، ولأنّ في ذلك تعظيماً لكلام الله تعالى، ويستحب كذلك أن يجلس متخشعاً بسكينة ووقار في أدب وخضوع، كجلوسه بين يدي مُعلّمه، هذا هو الأكمل، ولو قرأ قائماً أو مضطجماً أو على فراشه أو غير ذلك من الأحوال جاز، ولكن دون الأولى^(٣).

- ٤ - يستحب - أيضاً - عند إرادة الشروع في القراءة الاستعاذة والبسملة، في قول جمهور العلماء، امثالاً لأمر الله تعالى بقوله: ﴿إِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨]^(٤).

- ٥ - أن يكظم الشخص ثناؤه ما استطاع، ولا يرفع به صوته، إذ هو قبيح لا يجمل بالعاقل، ويتأكد هذا في حق المسلم الذي يقرأ كلام الله عز وجل.
- عن مجاهد رضي الله عنه أنه قال: «إذا تناءبت وأنت تقرأ القرآن فأمسك عن القراءة حتّى يذهب ثناؤك»^(٥).

(١) انظر: أخلاق حملة القرآن (ص ٧٣)؛ التبيان في آداب حملة القرآن (ص ٥٨ - ٦١، ١٥١ - ١٥٤).

(٢) رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص ٥٥).

(٣) انظر: التذكار في أفضل الأذكار (ص ١٠٨).

(٤) انظر: التبيان في آداب حملة القرآن (ص ٦٣ - ٦٤).

(٥) رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص ٥٦)؛ والآجري في «أخلاق حملة القرآن» (ص ٧٥).

٦ - اجتناب الضحك واللَّغَط والحديث أثناء القراءة أو سماعها، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤] ^(١).

٧ - حضور القلب عند التلاوة، وتدبُّر المقروء والمسموع، إذ لا خير في عبادة لا فقه فيها، وأن يقرأ كما يقرأ العبد كتاباً خصَّه به مولاه، يأمره فيه وينهاه.

وهذا ما أكَّد عليه ابن القيم رحمته الله بقوله: «إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألْقِ سمعك، واحضر حضور مَنْ يخاطبه مَنْ تكلم به سبحانه منه إليه، فإنَّه خطاب منه لك على لسان رسوله صلَّى الله عليه وآله» ^(٢).

ثانياً: التَّادِب مع المصحف:

فمن الآداب المُتأكِّدة في حَقِّ المُصَحِّف ما يلي:

١ - تحاشي التَّصْغِير في اسمه ورسمه وحجْمه، وَيُطالَب مَنْ يكتبه بتحسين خَطِّه وتجميله، وأن يكتبه على ورق يليق بمقامه.

قال الحكيم الترمذي ^(٣) رحمته الله: «وَمَنْ حُرِّمَتْ: أَنْ تُجَلَّلَ تَخْطِيطُهُ إِذَا خَطَّطْتَهُ. وَعَنْ أَبِي حَكِيمَةَ: أَنَّهُ كَانَ يَكْتُبُ الْمَصَاحِفَ بِالْكُوفَةِ، فَمَرَّ عَلَيَّ عليه السلام فَنَظَرَ إِلَى كِتَابِهِ فَقَالَ لَهُ: أَجِلُّ قَلَمُكَ، فَأَخَذْتُ الْقَلَمَ فَقَطَطْتُ ^(٤) مِنْ طَرَفِهِ قَطًّا، ثُمَّ كَتَبْتُ، وَعَلَيَّ عليه السلام قَائِمٌ يَنْظُرُ إِلَى كِتَابَتِي؛ فَقَالَ: هَكَذَا، نَوَّرَهُ كَمَا نَوَّرَهُ اللَّهُ تَعَالَى» ^(٥).

(١) انظر: منهج السلف في العناية بالقرآن الكريم، د. بدر البدر (ص ١٧ - ٢٢).

(٢) الفوائد (ص ٣).

(٣) هو أبو عبد الله، محمد بن علي بن الحسن الحكيم الترمذي، الحافظ، الزَّاهد، كان ذا رحمة ومعرفة، له فضائل وحجَم ومواعظ، تعرَّض لمحنة فأخرج من ترمذ. من مصنفاته: «علل العبودية»، «ختم الأولياء»، «الصَّلاة ومقاصدها». توفي سنة (٣٢٠هـ)، عاش نحواً من (٨٠ سنة).

انظر: طبقات الشافعية (٢/ ٢٠)؛ سير أعلام النبلاء (١٣/ ٤٣٩).

(٤) قَطَّ الشَّيْءُ: قَطَعَهُ عَرْضاً، وَيَابَهُ رَدًّا. وَمِنْهُ قَطَّ الْقَلَمُ.

انظر: مختار الصحاح (ص ٢٥٦)، مادة: (قطط).

(٥) نواذر الأصول في أحاديث الرسول صلَّى الله عليه وآله (٣/ ٢٥٥ - ٢٥٦). وانظر: تفسير القرطبي (١/ ٤٤).

وقال القرطبي رحمته الله - معللاً وجوب العناية بكتابة المصحف:

«وذلك أشبه بالإجلال والتعظيم، ألا ترى إلى الناس إذا أرادوا مكتبة ملك أو سلطان تحرّوا لها من القراطيس أكبرها وأمتنها وأنقاها، ومن الخطوط أحسنها وأفخمها، ومن المداد أبرقه وأشدّه سواداً، وفرّجوا الشُّطور، ولم يقرمطوها، لئلا يكون قد ضُيِّبَ بشيء مما كانت الحاجة إليه في مكتبتها، فيكونوا قد ضيّعوا قدره، فكتاب الله أولى بمثل ذلك التَّجِيل، وأيضاً فإنَّ الكتاب كلُّما كان أكبر كان من الضَّياع أبعد»^(١).

٢ - الحذر من إضافة شيء إليه، أو زخرفته، أو تحليته، أو كتابته بأحد النّقدين، أو كتابته بالأعجمية، أو اتّخاذه مُتَجَرّاً.

فلم يكن من هدي سلفنا الصّالح - رحمهم الله تعالى - تزيينُ المصاحف وتحليتها بالذهب والفضّة، إذ هو مباهاة وتفاخر، وتبذير وإسراف، وبذل للأموال فيما لا فائدة فيه، كما أنّ في ذلك كسراً لقلوب الفقراء والمساكين وحرماناً لهم ممّا فيه منفعتهم وسدّ عوزهم وحاجتهم، وليس هذا هو الواجب تجاه كلام الله تعالى، بل الواجب تلاوته، وتدبره، والتأثّر به، والعمل بما فيه، والوقوف عند حدوده، والتّحاكم إليه^(٢).

والمروي عن السّلف في كراهية ذلك كثير:

* فعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا زَخَرَفْتُمْ مَسَاجِدَكُمْ وَحَلَيْتُمْ مَصَاحِفَكُمْ فَالدِّبَارُ^(٣) عَلَيْكُمْ»^(٤).

(١) التذكار في أفضل الأذكار (ص ١١٧).

(٢) انظر: منهج السلف في العناية بالقرآن الكريم (ص ٢٩).

(٣) يُقَالُ: دَبَّرَ الْقَوْمُ يَدْبُرُونَ دِبَاراً: هَلَكُوا. وَأَذْبُرُوا: إِذَا وَلَّى أَمْرُهُمْ إِلَى آخِرِهِ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ بَاقِيَةٌ. «لسان العرب» (٢٧٣/٤)، مادة: «دبر».

(٤) رواه الترمذي في: «نوادير الأصول» (٢٥٦/٣) عن أبي الدرداء، وَوَقَّعَ ابْنُ الْمُبَارَكِ فِي: «الزُّهْد» (٢٧٥/١)، رقم (٧٩٧)؛ وعبد الرزاق في «مصنّفه» (١٥٤/٣) (رقم ٥١٣٢).

انظر: فيض القدير (٣٦٦/١) (ج ٦٥٨)؛ كشف الخفا ومزيل الإلباس، للعجلوني (٩٥/١) (ج ٢٤٢).

وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (١٦٢/١) (ج ٥٨٥) بلفظ: «إِذَا زَخَرَفْتُمْ مَسَاجِدَكُمْ،

* وعن أبي وائل شقيق بن سلمة قال: «مُرَّ على عبد الله - يعني ابن مسعود - بمصحف قد زُين بالذهب فقال: إِنَّ أَحْسَنَ مَا زُيِّنَ بِهِ الْمُصْحَفُ تِلَاوَتُهُ بِالْحَقِّ»^(١).

* وعن ابن عباس رضي الله عنه: «أَنَّهُ كَانَ إِذَا رَأَى الْمُصْحَفَ قَدْ فُضِّضَ أَوْ ذُهِبَ قَالَ: أَتَغْرُونَ بِهِ السَّارِقَ، وَزَيْتُهُ فِي جَوْفِهِ»^(٢).

قال الحكيم الترمذي رحمته الله: «وَمِنْ حُرْمَتِهِ: أَلَّا يُخْلَى بِالذَّهَبِ، وَلَا يُكْتَبَ بِالذَّهَبِ، فَتَخْلُطَ بِهِ زِينَةُ الدُّنْيَا»^(٣).

٣ - الحذر من استنباره، أو توسده، أو رميه عند وضعه أو مناولته، أو مدُّ الرُّجُلَيْنِ إليه، أو التَّروُّجَ به، أو استعمال الشِّمَالِ فِي تَنَاوُلِهِ وَأَخْذِهِ، أَوْ تَصْغِيرِ اسْمِهِ. وَأَلَّا يُقَالَ: سُورَةٌ صَغِيرَةٌ.

قال الحكيم الترمذي رحمته الله: «وَمِنْ حُرْمَتِهِ: أَلَّا يَتَوَسَّدَ الْمُصْحَفَ، وَلَا يَعْتَمِدَ عَلَيْهِ، وَلَا يَرْمِي بِهِ إِلَى صَاحِبِهِ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُنَاقِلَهُ. وَمِنْ حُرْمَتِهِ: أَلَّا يُصَغَّرَ الْمُصْحَفُ»^(٤).

ومن ذلك أنهم كرهوا تصغير كلمة (مصحف) لما قد يدلُّ عليه التَّصْغِيرُ مِنَ الْإِحْتِقَارِ وَالْإِمْتِهَانِ وَالضُّعْفِ.

فعن سعيد بن المسيب^(٥) رحمته الله قال: «لَا تَقُولُوا مُصْحَفٌ وَلَا مَسِيحِدٌ، مَا

= وَخَلَيْتُمْ مُصَاحِفَكُمْ، فَالذَّمَّارُ عَلَيْكُمْ». و«السُّلْسَلَةُ الصَّحِيحَةُ» (٣/٣٣٦) (ح ١٣٥١) بلفظ: «إِذَا زُوِّقْتُمْ مَسَاجِدَكُمْ، وَخَلَيْتُمْ مُصَاحِفَكُمْ، فَالذَّمَّارُ عَلَيْكُمْ».

(١) رواه ابن أبي شيبة في «مصنّفه» (٦/١٤٩) (رقم ٣٠٢٣٥)؛ والطبراني في «المعجم الكبير» (٩/١٧٠) (رقم ٨٨٤٦)؛ وعبد الرزاق في «مصنّفه» (٤/٣٢٣) (رقم ٧٩٤٧). وانظر: المصاحف، لابن أبي داود (ص ١٦٨)؛ التذكار في أفضل الأذكار (ص ١٢٠).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «مصنّفه» (٦/١٤٩) (رقم ٣٠٢٣٣).

وانظر: المصاحف (ص ١٦٨)؛ التذكار (ص ١٢٠).

(٣)(٤) نواذر الأصول في أحاديث الرسول ﷺ (٣/٢٥٦). وانظر: تفسير القرطبي (٢/٤٥).

(٥) هو الإمام سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب القرشي المخزومي، من أئمة التابعين وعلمائهم الأثبات، ومن الفقهاء الكبار، قال ابن حجر: «من كبار الثانية، اتَّفَقُوا عَلَى أَنَّ مُرْسَلَاتِهِ أَصَحُّ الْمَرَاسِيلِ»، وقال ابن المديني: «لَا أَعْلَمُ فِي التَّابِعِينَ أَوْسَعَ عِلْمًا مِنْهُ». مات بعد الثَّعْنَيْنِ هَجْرِيَّةً، وَقَدْ نَازَهُ الثَّمَانِينَ.

كان لله فهو عظيم حسن»^(١).

وعن إبراهيم النخعي^(٢) رحمته قال: «كانوا يكرهون أن يصغروا المصحف، وكان يقال عَظُمُوا كتابَ الله»^(٣).

وقال رجل لأبي العالية^(٤) رحمته: «سورة صغيرة، فقال: أنت أصغر منها، وأما القرآن فكلُّه عظيم»^(٥).

وفي رواية قال: «أنت أصغر وألأم، القرآن كلُّه عظيم»^(٦).

٤ - الحذر من وضع شيء فوقه، أو بين أوراقه، أو حمله حال دخول الأماكن الممتلئة، أو السفر به إلى أرض العدو، أو تعريضه لأي نوع من أنواع الأقدار، كأن يبُلَّ إصبعه بالريق عند تقليب ورقة. أو تعريضه لمظانٍ امتهانه أو التَّيل من قُدسيته، كأن يُمكن منه الصِّغار أو المجانين أو الكفار.

قال الحكيم الترمذي رحمته: «وَمِنْ حُرْمَتِهِ: إِذَا وَضَعَ الْمُصْحَفَ إِلَّا يَتْرَكُهُ مَنْشُورًا، وَإِلَّا يَضَعُ فَوْقَهُ شَيْئًا مِنَ الْكُتُبِ حَتَّى يَكُونَ أَبَدًا عَالِيًا عَلَى سَائِرِ الْكُتُبِ. وَأَنْ يَضَعَهُ فِي حِجْرِهِ إِذَا قَرَأَهُ، أَوْ عَلَى شَيْءٍ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَلَا يَضَعُهُ عَلَى الْأَرْضِ، وَإِلَّا يَمْحُوهُ مِنَ اللَّوْحِ بِالْبِزَاقِ، وَلَكِنْ يَغْسِلُهُ بِالْمَاءِ. وَإِذَا غَسَلَهُ بِالْمَاءِ أَنْ يَتَوَقَّى

= انظر: تقريب التهذيب (١/٣٠٥ - ٣٠٦) (ت ٢٦٠).

(١) رواه ابن سعد في: «الطبقات» (٥/١٣٧)؛ والذهبي في: «السير» (٤/٣٣٨)؛ وابن أبي شيبه في «مصنفه» (٦/١٤٨) (رقم ٣٠٢٢٨).

(٢) هو إبراهيم بن يزيد بن قيس بن الأسود النخعي، أبو عمران، الكوفي الفقيه، ثقة إلا أنه يرسل كثيراً، توفي رحمته سنة (٩٦هـ)، وعمره (٥٠) سنة.

انظر: تقريب التهذيب (١/٤٦).

(٣) رواه ابن أبي شيبه في «مصنفه» (٢/١٤٨) (رقم ٣٠٢٢٥).

وانظر: المصاحف (ص ١٥١).

(٤) هو رفيع بن مهران الرِّياحي، من بني تميم، بصري، وثقه يحيى بن معين، وأبو زرعة، وقال في «تقريب التهذيب»: «ثقة كثير الإرسال»، توفي رحمته سنة (٩٠هـ).

انظر: تقريب التهذيب (١/٢٥٢).

(٥) رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص ٥٩).

وانظر: التذكار في أفضل الأذكار (ص ١٢١).

(٦) المصاحف (ص ١٧١)؛ غاية النهاية في طبقات القراء، لابن الجوزي (١/٢٨٥).

التَّجَاسَاتِ مِنَ الْمَوَاضِعِ، وَالْمَوَاضِعِ الَّتِي تُوطَأُ؛ فَإِنَّ لَتِلْكَ الْغَسَالَةَ حَرَمَةً، وَأَنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا مِنَ السَّلَفِ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَشْفِي بِغَسَالَتِهِ. وَأَلَّا يَتَّخِذَ الصَّحِيفَةَ إِذَا بَلِيتَ وَدَرَسْتَ وَقَايَةً لِلْكِتَابِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ جَفَاءٌ عَظِيمٌ، وَلَكِنْ يَمْحُوهَا بِالْمَاءِ»^(١).

٥ - الحذر من كتابته على الأرض، أو حوائط المساجد وغيرها، أو الكتابة في حواشيه، أو جلده، كما يفعله كثير من طلاب المدارس.

قال الحكيم الترمذي رحمته الله: «وَمِنْ حُرْمَتِهِ: أَلَّا يُكْتَبَ عَلَى الْأَرْضِ، وَلَا عَلَى حَائِطٍ، كَمَا يُفْعَلُ بِهِ فِي الْمَسَاجِدِ الْمُحَدَّثَةِ... وَرَأَى عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ ابْنًا لَهُ يَكْتُبُ الْقُرْآنَ عَلَى حَائِطٍ فَضَرَبَهُ»^(٢).

وقد عمد بعض الحاقدين من أعداء القرآن في الآونة الأخيرة، أن يطبعوا بعض الآيات القرآنية على الملابس الداخلية، أو الأحذية، أو الأوراق التي تُغْلَفُ فيها المشتريات كيداً بالمسلمين، ومحاولة منهم لانتقاص قدر هذا الكتاب الكريم، ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]^(٣).

٦ - الحذر من استعماله في غير ما جعل له، كالتثقيب به، أو تعليقه كحُرْزٍ، أو زينة، أو اقتنائه لمجرد التبرُّك به، إلى غير ذلك من أنواع الاستعمالات التي لم يأذن الشرع بمثلها^(٤).



(١) نواذر الأصول في أحاديث الرسول ﷺ (٣/٢٥٤). وانظر: تفسير القرطبي (١/٤٣).

(٢) المصدر نفسه (٣/٢٥٧). وانظر: تفسير القرطبي (١/٤٥).

(٣) انظر: كيف نحيا بالقرآن، نبيه زكريا عبد ربه (ص ٩٤ - ٩٥).

(٤) انظر: المُتَحَفُّ في أحكام المُضَحَّف (ص ٢٢ - ٢٣).

المبحث الثالث

أساليب الكفار في استهزائهم بالقرآن

يَتَبَيَّنْ لَنَا مِمَّا سَبَقَ أَنَّ مِنْ أَخْلَاقِ الْمُؤْمِنِينَ تَعْظِيمَ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ وَتَوْقِيرَهُ بِعَدِ الْإِيمَانِ بِهِ وَاتِّبَاعِهِ، وَعَلَى النَّقِیْضِ مِنْ ذَلِكَ نَجِدُ الَّذِينَ كَفَرُوا، حَيْثُ الِاسْتِخْفَافُ وَالسُّخْرِيَّةُ وَالتَّهَكُّمُ بِالْقُرْآنِ الْمُنْزَلِ، وَالرَّسُولِ الْمُرْسَلِ.

فَهَؤُلَاءِ الْكَفَّارُ اتَّخَلَوْا أَسَالِيبَ شَتَّى فِي اسْتِهْزَائِهِمْ بِالْقُرْآنِ الْعَظِيمِ:

فَمَرَّةٌ يَضْحَكُونَ اسْتِهْزَاءً حَالِ سَمَاعِهِمْ لِلْقُرْآنِ.

وَمَرَّةٌ يَتَعَجَّبُونَ مِنْ عَدَمِ نَزُولِ الْوَحْيِ عَلَى أَعْيَانِهِمْ وَكِبَرَاتِهِمْ.

وَمَرَّةٌ يَدَّعُونَ أَنَّ الْقُرْآنَ إِفْكٌ مَفْتَرٍ، وَأَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ.

وَمَرَّةٌ يَتَغَامَزُونَ فِيهَا بَيْنَهُمْ اسْتِهْزَاءً بِالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ وَاسْتِخْفَافاً بِهِ.

وَأَعْظَمُ ذَلِكَ كُلُّهُ تَنْذَرُهُمْ بِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ.

وَقَدْ ذُكِرَتْ هَذِهِ الْأَسَالِيبُ الْكُفْرِيَّةُ الِاسْتِهْزَائِيَّةُ وَسُطِّرَتْ فِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ؛

لَتَقُومَ الْحُجَّةُ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا، وَفِيهَا يَلِي يَتِمُّ تَسْلِيطُ الضُّوءِ عَلَى هَذِهِ الْأَسَالِيبِ

الِاسْتِهْزَائِيَّةِ بِالتَّفْصِيلِ.

الأسلوب الأول: الاستهزاء والضحك حال سماع القرآن:

* يُخْبِرُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ بِالَّذِي يَتَنَاجَى بِهِ رُؤَسَاءُ قُرَيْشٍ حِينَ

جَاؤُوا يَسْتَمْعُونَ قِرَاءَةَ الرَّسُولِ ﷺ سِرّاً فَقَالَ: ﴿مَنْ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمْعُونَ ۚ إِذْ يَسْتَمْعُونَ

إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَنبَيْعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ [الإسراء: ٤٧].

فَالْآيَةُ الْكَرِيمَةُ تَبَيَّنُ الْكِيفِيَّةَ الَّتِي يَتَلَقَّى بِهَا الْكَفَّارُ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ؛ حَيْثُ إِنَّهُمْ

يَتَلَقُّونَهُ وَيَسْتَمْعُونَ إِلَيْهِ اسْتِمَاعَ اسْتِهْزَاءٍ، وَتَلَقَّى اسْتِهْزَاءٍ؛ لَا سَمَاعَ إِيمَانٍ، وَلَا

تَلَقَّى إِيمَانٍ.

فالله تعالى أخبر نبيه ﷺ بالحالة التي يتلبس بها الكفار حين سماعهم القرآن العظيم: ﴿ثُمَّ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى﴾ أي: نحن أعلم وقت يستمعون إليك بما يستمعون به؛ إنهم يستمعون متلبسين بالاستهزاء. ونحن أعلم بما يتناجون به فيما بينهم وقت تناجهم؛ إنهم يتناجون بالاستهزاء بك^(١). وفي هذا وعيد لهم بقدر ما كان عزاء للنبي ﷺ.

وقولهم: ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَنحُورًا﴾ بيان للاستهزاء^(٢).

قال الزمخشري في قوله تعالى ﴿بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ﴾: «من الهُزء بك وبالقرآن»^(٣). ومثله قال الألوسي^(٤).

وقال ابن جزي في قوله تعالى ﴿ثُمَّ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ﴾: «كانوا يستمعون القرآن على وجه الاستهزاء»^(٥).

والخلاصة: أنهم كانوا يستمعون إلى القرآن وهم متلبسون بالاستهزاء والاستخفاف والسخرية والتهمك. فهذا الذي منعهم من الانتفاع بالقرآن عند سماعه؛ لأن مقاصدهم سيئة، ولم يكن استماعهم لأجل الاسترشاد وقبول الحق، ومن كان بهذه الحالة لم يفده الاستماع شيئاً^(٦).

الضحك من القرآن:

قال تعالى - موبخاً الكفار ومنكراً عليهم: ﴿أَفَرَأَيْتَ هَذَا الْمَدِيتَ تَصْبِيحُونَ﴾^(٧) وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَكُونُ^(٨) سَئِدُونَ [النجم: ٥٩ - ٦١].

تبين هذه الآية الكريمة - أيضاً - حال الكفار حين سماعهم للقرآن الكريم، أنهم يتعجبون استنكاراً له، ويضحكون استهزاء وسخرية به.

فالاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ هَذَا الْمَدِيتَ تَصْبِيحُونَ﴾ للتوبيخ^(٩).

والإشارة إلى القرآن، وتعجبهم منه: إنكاره^(٨).

(٢) انظر: روح المعاني (٥/١٧٧).

(٤) انظر: المصدر السابق (٥/١٧٦).

(٦) انظر: تفسير السعدي (٣/١١٢).

(٨) التسهيل لعلوم التنزيل (٤/١٤٣).

(١) انظر: تفسير الشوكاني (٣/٣٣٢).

(٣) الكشف (٢/٦٢٧).

(٥) التسهيل لعلوم التنزيل (٢/٣١٤).

(٧) انظر: تفسير القرطبي (١٧/١٢٢).

قال أبو السعود رحمته الله في قوله ﴿وَتَضَحَّكُون﴾: «استهزاء، مع كونه أبعد شيء من ذلك»^(١). وكذا قال الزمخشري^(٢)، والقرطبي^(٣)، والشوكاني^(٤)، والسمرقندي^(٥)، وابن عاشور^(٦).

وكان حقاً عليكم أن تبكوا عند سماعكم للقرآن، فتركتم ذلك وأتيتم بضده^(٧). وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ سَخِرْتُمْ﴾ «أي: لاهون، أو مستكبرون، من سَمَدَ البعير إذا رفع رأسه، أو مغنون؛ لتشغلوا الناس عن استماعه، من السمود بمعنى الغناء على لغة حمير»^(٨).

والشاهد: أن الله تعالى أنكر عليهم استهزاءهم بالقرآن وتعجبهم وضحكهم منه، مع أنه خير الكلام وأفضله، وأشرفه.

فهذا يدل على جهلهم وضلالهم وعنادهم، وقلة عقولهم، وإلا فهو أحسن الحديث، إذا حدث صدق، وإذا قال قولاً، فهو القول الفضل، ليس بالهزل، هو القرآن العظيم، الذي لو أنزل على جبل، لرايته خاشعاً متصدعاً من خشية الله. بل ينبغي أن تتأثر منه النفوس، وتلين له القلوب، وتبكي له العيون، سماعاً لأمره ونهيهِ، وإصغاء لوعده ووعيدهِ، والتفاتاً لأخباره الصادقة الحسنة^(٩).

الأسلوب الثاني: التعجب من عدم نزول الوحي عليهم:

* ذَكَرَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا أَنَّ كَفَّارَ مَكَّةَ أَنْكَرُوا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَصَّ نَبِيَّهٖ مُحَمَّدًا رحمته الله بإنزال القرآن عليه، ولم ينزله على أحد آخر منهم، فحكى الله تعالى ما قالوه استهزاءً وحسداً: ﴿أَنزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [ص: ٨].

والاستفهام للإنكار، والتقدير: كيف يكون ذلك ونحن الرؤساء والأشراف^(١٠). ومنشأ هذا الإنكار هو التكذيب والاستهزاء بالقرآن، وبمن أنزل عليه.

(١) تفسير أبي السعود (١٦٦/٨).

(٢) انظر: الكشاف (٤/٤٣٠).

(٣) انظر: تفسير القرطبي (١٧/١٢٢).

(٤) انظر: تفسير الشوكاني (٥/١٤٢).

(٥) انظر: تفسير السمرقندي (٣/٣٤٨).

(٦) انظر: التحرير والتنوير (٢٧/١٥٧).

(٧) انظر: التفسير الكبير (٢٩/٢٥).

(٨) تفسير أبي السعود (٨/١٦٦).

(٩) انظر: تفسير السعدي (٥/١٣٣).

(١٠) انظر: تفسير الشوكاني (٤/٤٢١).

* وقد حكى الله تعالى مقولتهم هذه في موضع آخر من كتابه العزيز، والتي تدل على تكذيبهم بالقرآن الكريم واستهزائهم به: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ ۚ أَهْمَرُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ [الزخرف: ٣١ - ٣٢].

ويعنون بالقريتين: مكة والطائف. وبالرجلين من القريتين: الوليد بن المغيرة في مكة، وعروة بن مسعود الثقفي في الطائف، زاعمين أنهما أحق بالنبوة؛ لكثرة أموالهما^(١).

والهمزة في قوله: ﴿أَهْمَرُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ للإنكار عليهم، وتجهلهم، والتعجب من اعتراضهم، وسخريتهم، وأن يكونوا هم المدبرين لأمر النبوة^(٢). وفي الآية الكريمة دليل على أن أهواءهم لا تصلح لأن تكون متبعة؛ لأن القرآن لو أنزل على أحد الرجلين المذكورين - وهو كافر يعبد الأوثان - فلا فساد أعظم من ذلك^(٣).

فإذا كانت معاش العباد وأرزاقهم الدنيوية بيد الله تعالى، وهو الذي يقسمها بين عباده، بحسب حكمته، فرحمته الدينية، التي أعلاها النبوة والرسل أولى وأحرى.

مع العلم أن النبي ﷺ أعظم الرجال قدراً، وأعلاهم فخراً، وأكملهم عقلاً، وأغزرهم علماً، وأكملهم خلقاً، وأوسعهم رحمة، وأهداهم وأتقاهم، وأحسنهم رأياً وعزماً وحزماً، لكنّه الاستهزاء بالقرآن العظيم، والتكذيب به، والحسد للنبي ﷺ هو الذي قادهم إلى هذا الاقتراح الساقط^(٤).

الأسلوب الثالث: ادّعاؤهم بأنّ القرآن إفك مفترى، وأساطير الأولين:

* عندما يشتدّ الحقد، ويعجز الظالم عن الردّ المقنع، يتهم بالاختلاق: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن هَٰذَا إِلَّا فُكٌّ أَفْتَرْتُهُ وَآيَاتُهُ عَلَىٰ قَوْمٍ مَّخْرُوجَةٍ فَقَدْ جَاءُوا ظُلُمًا وَزُورًا﴾ [الفرقان: ٤].

(١) انظر: أضواء البيان (٦/٣٣٧).

(٢) انظر: الكشف (٤/٢٥٢).

(٣) انظر: المنصرد السابق (٥/٣٤٢).

(٤) انظر: تفسير السعدي (٤/٤٤٥).

ذكر جلّ وعلا في هذه الآية الكريمة استهزاء الكفار بالقرآن وبالرّسول محمد ﷺ، الذي أوجب لهم كفرهم وتكذيبهم.

والإفك: الكذب، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ﴾ [النور: ١١].

والافتراء: اختلاق الأخبار، أي: ابتكارها، وهو الكذب عن عمد.

وقولهم: ﴿وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ أرادوا بالقوم الآخرين اليهود.

ومقصودهم من هذا الاستهزاء الكفري: أن القرآن المُخْتَلَق والمُتَنَكَّر، لا يخلو من مجموع الأمرين، وهما:

أن يكون افتري بعضه من نفسه، وأعانه قوم على بعضه^(١).

وليتهم اكتفوا بذلك، بل أضافوا إليه استهزاء آخر لا يقلُ كفراً عن سابقه: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥].

والأساطير: جمع أسطورة، وهي القصة المسطورة، ومقصودهم: أن القرآن قِصَصُ الْأَوَّلِينَ وأساطيرهم.

والاكتتاب: افتعال من الكتابة. فيفيد قولهم: ﴿اكْتَتَبَهَا﴾ أنه تكلف أن يكتبها. والمعنى: أنه سأل مَنْ يكتبها له، أي: ينقلها، فكان إسناد الاكتتاب إليه إسناداً مجازياً؛ لأنه سببه.

والقرينة: ما هو مقرر لدى الجميع، من أنه ﷺ أمي لا يكتب، ومن قولهم: ﴿فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ﴾ لأنه لو كتبها لنفسه لكان يقرأها بنفسه. فالمعنى: استنسخها.

وقولهم: ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي: تُملى عليه طرفي الشَّهَار، كناية عن كثرة الممارسة لتلقي الأساطير؟! فأيُّ استهزاء أعظم وأشدُّ من ذلك؟^(٢).

وهذا القول الاستهزائي الكفري فيه عدَّةٌ عظام:

«منها: رميهم الرّسول، الذي هو أبرُّ النَّاس وأصدقهم، بالكذب، والجرأة العظيمة.

(١) انظر: التحرير والتنوير (١٩/١٣ - ١٤). (٢) انظر: المصدر نفسه (١٥/١٩).

ومنها: إخبارهم عن هذا القرآن، الذي هو أصدق الكلام وأعظمه وأجله، بأنه كذب وافتراء. ومنها: أن في ضمن ذلك، أنهم قادرون على أن يأتوا بمثله، وأن يضاهي المخلوق الناقص من كل وجه، للمخالق الكامل من كل وجه بصفة من صفاته، وهي الكلام. ومنها: أن الرسول، قد علّمت حاله، وهم أشدّ الناس علماً به، أنه لا يكتب، ولا يجتمع بمن يكتب له، وهم قد زعموا ذلك^(١).

الأسلوب الرابع: استخدام أعضاء الجسم بقصد الاستهزاء:

* قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرِيكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢٧]. هذه الأعضاء التي خلقها الله تعالى للإنسان؛ خلقها ليعبده بها، وكذلك لي شكر الإنسان ربه على نعمائه، ولكن عندما يكفر الإنسان يستخدم هذه الأعضاء في معصية الله تعالى، والاستهزاء بدينه. فالآية الكريمة تعرض لنا مشهداً عملياً للمنافقين عندما تنزل سورة على النبي ﷺ حيث ينظر هؤلاء المنافقون إلى بعضهم؛ يتغامزون استهزاءً بالقرآن الكريم واستخفافاً به.

وهذا ما بيّنه الرازي رحمه الله بقوله: «هذا نوع آخر من مخازي المنافقين، وهو أنه كلما نزلت سورة مشتملة على ذكر المنافقين وشرح فضائحهم، وسمعوها تأدّوا من سماعها، ونظر بعضهم إلى بعض نظراً مخصوصاً دالاً على الطعن في تلك السورة والاستهزاء بها وتحقير شأنها، ويحتمل ألا يكون ذلك مختصاً بالسورة المشتملة على فضائح المنافقين، بل كانوا يستخفّون بالقرآن، فكلّموا سمعوا سورة استهزؤوا بها وطعنوا فيها، وأخذوا في التّغامز والتّضحك على سبيل الطّعن والهُزء»^(٢).

كانهم عند سماع تلك السورة يتأدّون ويتضايقون ويريدون أن يخرجوا من

(٢) التفسير الكبير (١٦/١٨٥).

(١) تفسير السعدي (٣/٤٢٧ - ٤٢٨).

المسجد، زاعمين أنهم لا يصبرون على استماع القرآن، ويغلب عليهم الضحك استهزاءً بالقرآن، فيخافون أن يُفتضح أمرهم بين المؤمنين، ولذلك يتناجون فيما بينهم: ﴿هَلْ يَرِنُكُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾ أي: هل يرى استهزاءكم وتغامزكم أحد فينقل ذلك إلى محمد؟^(١).

والشاهد هنا: قوله تعالى: ﴿نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ فكأنهم تكلموا بأعينهم ونظراتهم، كلام استهزاء وسخرية.

قال الزمخشري في قوله تعالى ﴿نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾: «تغامزوا بالعيون إنكاراً للوحي وسخرية به»^(٢).

الأسلوب الخامس: التندر بالله وآياته:

* قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِإِلَهِهِمْ وَإِبِلِهِمْ وَرُسُلِهِمْ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٥٥﴾ لَا تَسْتَدْرِكُوا قَدِّ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ تَقِفْ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ فَغَابَتْ عَنْهُمْ آيَاتُهُمْ كَانُوا يُجْرِمُونَ﴾ [التوبة: ٦٥ - ٦٦].

ورد في سبب نزولها روايات في غزوة تبوك - كما تقدم ذكره - منها: قول بعض المنافقين الذين كانوا معه ﷺ: «ما رأينا مثل قرأتنا هؤلاء، أرغب بطوناً، ولا أكذب ألسناً، ولا أجبن عند اللقاء»^(٣).

يخبر الله تعالى رسوله ﷺ أنه لو سأل المنافقين عن استهزائهم به وبالقرآن - وهم سائرون معه إلى تبوك - لقالوا معتردين: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ أي: نلهو بالحديث؛ لنقطع به الطريق ولم نقصد الاستهزاء^(٤).

فويخهم الله تعالى على استهزائهم - بمن لا يصلح الاستهزاء به - بقوله: ﴿أَبِإِلَهِهِمْ وَإِبِلِهِمْ وَرُسُلِهِمْ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ «والاستفهام للتفريع والتوبيخ»^(٥). فلم

(١) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل (٢/٨٨). (٢) الكشاف (٢/٣١٠).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/٣٣٣ - ٣٣٥) (رقم: ١٦٩١١، ١٦٩١٢، ١٦٩١٦)؛ وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، كما في «الدر المنثور».

وقال محمود شاكر - في «تعليقه على الطبري»: «صحيح الإسناد».

(٤) انظر: زاد المسير (٣/٤٦٥)؛ تفسير الجلالين (١/٢٥١).

(٥) تفسير الشوكاني (٢/٣٧٧)؛ وانظر: التحرير والتنوير (١٠/١٤١).

يعبأ باعتذارهم، ولم يقبل هذا الاعتذار؛ لأنهم كانوا كاذبين فيه، فأنزلهم منزلة المعترف بهذا الاستهزاء، حتى وُبِّحُوا بهذه الجريمة التَّكْرَارُ^(١). ولذلك لم يقبل منهم هذا العذر المكذوب.

عاقبة الاستهزاء بالقرآن:

قال الله تعالى: ﴿لَا تَصْنَدِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾.

قال البغوي رحمته الله: «فإن قيل: كيف قال: كفرتم بعد إيمانكم، وهم لم يكونوا مؤمنين؟ قيل: معناه: أظهرتم الكفر بعدما أظهرتم الإيمان»^(٢).

قال ابن العربي رحمته الله: «لا يخلو أن يكون ما قالوه من ذلك جدًّا أو هزلًا، وهو كيفما كان كفر؛ فإنَّ الهزل بالكفر كفر، لا خلاف فيه بين الأمة. فإنَّ التَّحْقِيقَ أخو الحقِّ والعلم، والهزل أخو الباطل والجهل»^(٣).

وهو ما أكَّده ابن الجوزي رحمته الله بقوله: «وهذا يدلُّ على أنَّ الجِدَّ واللَّعِبَ في إظهار كلمة الكفر سواء»^(٤).

ففي هذه الآيات الكريمات دليل على أنَّ مَنْ أَسَرَ سريرةً - ولا سيَّما السَّريرة التي يمكر فيها بدين الله تعالى، ويستهزئ به وبآياته ورسوله - فإنَّ الله تعالى يُظهِرها ويفضح صاحبها، ويعاقبه أشدَّ العقوبة.

وأنَّ مَنْ استهزأ بكتاب الله أو بِسُنَّةِ رسوله الثَّابِتة عنه، أو سخر بذلك، أو تنقَّصه، فإنه كافر بالله العظيم، وأنَّ التَّوْبَةَ مقبولة من كلِّ ذنب، وإن كان عظيمًا^(٥).

(١) انظر: تفسير النسفي (٩٧/٢). (٢) تفسير البغوي (٣٠١/٢).

(٣) هو محمد بن عبد الله بن محمد، أبو بكر، المعروف بابن العربي الإشبيلي، المالكي، الإمام، العلامة، الحافظ، كان فقيهاً عالماً زاهداً عابداً، له تصانيف. منها: «أحكام القرآن»، و«عارضة الأحوزي في شرح جامع الترمذي»، و«المحصول في الأصول». توفي سنة (٥٤٣هـ).

انظر: وفيات الأعيان (٢٩٦/٤)؛ سير أعلام النبلاء (١٩٧/٢٠).

(٤) أحكام القرآن (٥٤٣/٢)؛ تفسير القرطبي (١٨٢/٨).

(٥) زاد المسير (٤٦٥/٣). (٦) انظر: تفسير السعدي (٢٦٢/٢).

المبحث الرابع

حكم الاستهزاء بالقرآن والاستهانة بالمصحف

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: الفرق بين القرآن والمصحف.

المطلب الثاني: حكم الاستهزاء بالقرآن.

المطلب الثالث: حكم الاستهانة بالمصحف.

المطلب الأول

الفرق بين القرآن والمصحف

أولاً: معنى القرآن:

«القرآن» لغة:

اتَّفَقَ أَهْلُ اللُّغَةِ - رَحِمَهُمُ اللَّهُ - عَلَى أَنَّ لَفْظَ «قُرْآن» اسْمٌ وَلَيْسَ بِفِعْلٍ وَلَا حَرْفٍ، لَكِنَّهُمْ اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنْ جِهَةِ الْاِسْتِقَاقِ أَوْ عَدَمِهِ، وَمِنْ جِهَةِ كَوْنِهِ مَهْمُوزاً أَوْ غَيْرَ مَهْمُوزٍ، وَمِنْ جِهَةِ كَوْنِهِ مُصَدِراً أَوْ وَضْفاً، عَلَى أَقْوَالٍ عِدَّةٍ، تُجْمَلُ فِيهَا يَلِي (١):

١ - أَنَّهُ «اسْمٌ عَلَمٌ غَيْرُ مَنْقُولٍ» أَي: جَامِدٌ.

٢ - أَنَّهُ «مَهْمُوزٌ» (٢) مُشْتَقٌّ مِنْ: «قَرَأَ» بِمَعْنَى: «تَلَا».

٣ - أَنَّهُ «مَهْمُوزٌ» مُشْتَقٌّ مِنْ: «الْقَرَأَ» بِمَعْنَى: «الْجَمْعُ».

٤ - أَنَّهُ «غَيْرُ مَهْمُوزٍ» مُشْتَقٌّ مِنْ: «قَرَنْتُ الشَّيْءَ بِالشَّيْءِ».

٥ - أَنَّهُ «غَيْرُ مَهْمُوزٍ» مُشْتَقٌّ مِنْ: «الْقَرَأَيْنِ».

ويظهر - والله أعلم - أَنَّ أَرْجَحَ هَذِهِ الْأَقْوَالِ هُوَ الْقَوْلُ الثَّانِي؛ لِقُرْبِ اِسْتِقَاقِهِ مِنْ كَلِمَةِ الْقُرْآنَ لَفْظاً وَمَعْنَى (٣).

فَالْقُرْآنُ مُصَدَّرٌ «قَرَأَ» بِمَعْنَى: «تَلَا» كَالرُّجْحَانِ وَالْغُفْرَانِ، ثُمَّ نُقِلَ مِنَ الْمَصْدَرِ وَجُعِلَ اسْماً لِلْكَلامِ الْمُنَزَّلِ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ.

ويشهد له قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاقْرَأْهُ قُرْآنَهُ﴾ [القيامة: ١٨].

(١) انظر: معجم مقاييس اللغة (٣٩٦/٢)، المصباح المنير (ص ٢٥٩)، لسان العرب (١/

١٢٨ - ١٣١)، القاموس المحيط (ص ٦٢)، مختار الصحاح (ص ٢٤٩)، المفردات في

غريب القرآن (ص ٤٠٠)، النهاية في غريب الحديث والأثر (٣٠/٤ - ٣١).

(٢) معنى «مهموز»: أن الهمزة في لفظ «القرآن» أصلية، من: «قرأ».

(٣) انظر: المدخل لدراسة القرآن الكريم، أ. د. محمد أبو شهبه (ص ١٩ - ٢٣).

أي: قراءته.

وقول حسان بن ثابت يرثي عثمان رضي الله عنه:

ضَحَّوْا بِأَشْمَطِ عُثْوَانَ السُّجُودِ بِهِ يُقَطِّعُ اللَّيْلَ تَسْبِيحاً وَقُرْآنًا
أي قراءة^(١).

«القرآن» اصطلاحاً:

ذَكَرَ العلماء - رحمهم الله - للقرآن الكريم تعريفاً اصطلاحياً يُقَرَّبُ معناه ويميِّزه عن غيره، فعرفوه بأنه: «كَلَامُ اللَّهِ، الْمُنَزَّلُ عَلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، الْمُفَجَّرُ بِلَفْظِهِ، الْمُتَعَبَّدُ بِتِلَاوَتِهِ، الْمَكْتُوبُ فِي الْمَصَاحِفِ، الْمُنْقُولُ بِالتَّوَاتُرِ».

وغاية العلماء من ذكر هذه القيود بشكل عام، هي تحديدُ المُعَرَّفِ، بحيث يكون التعريفُ دالاً عليه دلالةً واضحة، مانعاً من دُخُولِ غَيْرِهِ فيه^(٢).

ثانياً: معنى المصحف:

«المصحف» لغة:

الأصل المشهور في ضبط كلمة: «مُصْحَف» بضم الميم، ويجوز «مِصْحَفُ» بكسرها، وهي لغة تميم.

والمصحف لغة: اسمٌ لكلِّ مجموعة من الصُّحُفِ المكتوبة ضُمَّت بين دَفَّتَيْنِ، وجاء في (اللِّسَان) عن الأزهري^(٣) رحمته الله: «وإنما سُمِّيَ المصحفُ

(١) انظر: الإتيان في علوم القرآن (ص ١٣٧).

(٢) انظر: البحر المحيط في أصول الفقه، للزركشي (١/ ٤٤١)؛ المستصفى (١/ ٦٤)؛ مباحث في علوم القرآن (ص ٢٠)؛ فيض الرحمن في الأحكام الفقهية الخاصة بالقرآن، د. أحمد سالم ملحم (٢١ - ٢٩).

(٣) هو محمد بن أحمد بن الأزهر بن طلحة بن نوح الأزهرى الهروى، الشافعى (أبو منصور)، ولد في هراة بخراسان سنة (٢٨٢هـ)، عني بالفقه أولاً، ثم غلب عليه علم العربية، فرحل في طلبه وقصد القبائل وتوسّع في أخبارهم، فاشتهر بالعربية، وكان متفقاً على فضله وثقته ودرايته وورعه. ومن أشهر مصنفاته: «تهذيب اللغة»، و«تفسير القرآن»، و«علل القراءات». توفي سنة (٣٧٠هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (١٠/ ٢٢٦)؛ طبقات الشافعية (١٠/ ٢)؛ وفيات الأعيان (١/ ٦٣٥).

مصحفاً؛ لأنه أضحف، أي جعل جامعاً للصحف المكتوبة بين الدفتين^(١) ومقتضى كلام الفيروزآبادي^(٢) رحمته الله: أن المصحف (بالضم): اسم مفعول من أضحفه إذا جمعه. والمصحف (بالفتح): موضع الصحف، أي: مجمع الصفائف. والمصحف (بالكسر): آلة تجمع الصحف^(٣).

«المصحف» اصطلاحاً:

المصحف في اصطلاح العلماء - رحمهم الله - هو اسم للمكتوب فيه كلام الله تعالى بين الدفتين^(٤).

ويصدق المصحف على ما كان حاوياً للقرآن كله، أو كان ممّا يُسمى مصحفاً عرفاً ولو قليلاً كخزب، على ما صرح به القليوبي^(٥) رحمته الله، أو أقل من ذلك كورقة فيها بعض سورة، أو لوحاً، أو كتفاً مكتوبة^(٦).

«وقيل للقرآن مصحف؛ لأنه جُمِعَ من الصفائف المتفرقة في أيدي الصحابة، وقيل: لأنه جَمَعَ وحوى - بطريق الإجمال - جميع ما كان في كتب الأنبياء، وصُحِفَهم، (لا) بطريق التفصيل»^(٧).

- (١) انظر: لسان العرب (٧/ ٢٩٠ - ٢٩١)، مادة: (صحف).
- (٢) هو محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم الفيروزآبادي الشيرازي، الشافعي، لغوي مشارك في عدة علوم، ولد بكازرون من أعمال شيراز سنة (٧٢٩هـ)، وله مصنفات كثيرة منها: «القاموس المحيط»، و«بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز»، و«البلغة في ترجمة أئمة النحاة واللغة»، و«المرقاة الوفية في طبقات الحنفية»، وغيرها. توفي بزييد سنة (٨١٧هـ). انظر: شذرات الذهب (٧/ ١٢٦)...
- (٣) انظر: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (١/ ٨٦).
- (٤) انظر: الموسوعة الفقهية، لمجموعة من الباحثين (٥/ ٣٨).
- (٥) هو أحمد بن أحمد بن سلامة القليوبي - نسبة لقرية قلوب بشرقية مصر - الشافعي (شهاب الدين أبو العباس) عالم مشارك في كثير من العلوم. توفي في أواخر شوال سنة (١٠٦٩هـ). من مؤلفاته: «البدور المنورة في الأحاديث المشتهرة»، و«تعبير المنامات»، و«المصاييح السنية في طب خير البرية» وغيرها. انظر: معجم المؤلفين (١/ ٩٤).
- (٦) انظر: حاشية الدسوقي على الشرح الكبير (١/ ١٢٥)؛ حاشية القليوبي على منهاج الطالبين (١/ ٣٥).
- (٧) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (١/ ٨٧).

الفرق بين القرآن والمصحف: من خلال الاستعراض اللغوي للفظ: «قرآن»، ولفظ: «مصحف». وما تبعه من تعريف اصطلاحى لهما، نستطيع أن ندرك الفرق بينهما، فيقال في الفرق بينهما: إن «المصحف»: اسمٌ للمكتوب من القرآن الكريم، المجموع بين الدفتين، و«القرآن»: اسمٌ لكلام الله تعالى المكتوب في المصاحف^(١).

المطلب الثاني

حكم الاستهزاء بالقرآن

المسلمون كلهم مجمعون على وجوب احترام كلام الله تعالى، وتعظيمه، وصيافته عن العيوب والنقائص. فالقرآن كلام الله عز وجل، وهو صفة من صفاته، والله تعالى لم ينزل متكلاً إذا شاء، كما دلّ عليه الكتاب، والسنة، وقاله علماء الإسلام. فلاستهزاء بكلام الله تعالى، أو كتابه، أو محاولة إسقاط حرمة ومهابته كفر صريح لا يُنازع فيه أحد، قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْدِرُوا فَمَا كَفَرْتُمْ بِهِ إِنَّكُمْ لَمُنْكَرُونَ﴾ [التوبة: ٦٥ - ٦٦].

هذه الآية الكريمة نصٌ في كفر من استهزأ بالله تعالى، وآياته، ورسوله، سواء استحل ذلك أو لم يستحل، فمجرد الاستهزاء بالمذكورات ردة عن الدين بإجماع علماء المسلمين، ولو لم يقصد حقيقة الاستهزاء، كأن يكون مازحاً أو هازلاً.

وقد جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ، مَا يَتَّبِعُ فِيهَا، يَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ، أَبَعَدَ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ»^(٢).

(١) انظر: بذائع الصنائع في ترتيب الشرائع، للكاساني (٨/٣ - ٩).

(٢) رواه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب: التَّكَلُّمُ بِالْكَلِمَةِ يَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ (٢٢٩٠/٤) (ح ٢٩٨٨).

وعن بلال بن الحارث المزني صاحب رسول الله ﷺ يقول: سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ، فَيَكْتُبَ اللَّهُ لَهُ بِهَا رِضْوَانَهُ إِلَى يَوْمٍ يَلْقَاهُ، وَإِنْ أَحَدَكُمْ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ، فَيَكْتُبَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا سَخَطُهُ إِلَى يَوْمٍ يَلْقَاهُ»^(١). وإذا كان هذا الوعيد المذكور في مجرد كلمة، فكيف بمن يستهزئ بكلمات الله تعالى؟!

الإجماع على كفر الاستهزاء بالقرآن:

وقد أجمعت الأمة على كفر مَنْ استهزأ بالقرآن العظيم، أو بشيء منه، ولو كانت آية واحدة، ومَنْ صرَّح بحكاية الإجماع: القاضي عياض، والإمام النووي، والقاضي ابن فرحون المالكي - رحمهم الله تعالى - وفيما يلي نقل أقوال العلماء في ذلك:

- ١ - القاضي عياض رَحِمَهُ اللَّهُ يحكي إجماع المسلمين على كفر من استهزأ بالقرآن العظيم، أو بشيء منه، فيقول: «اعلم أَنَّ مَنْ استخَفَّ بالقرآن أو بالمصحف، أو بشيء منه، أو سبَّهما... فهو كافر بإجماع المسلمين»^(٢).
- ٢ - الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ يحكي الإجماع صراحةً بقوله: «وأجمعوا على أَنَّ مَنْ استخَفَّ بالقرآن، أو بشيء منه... كَفَر»^(٣).
- ٣ - القاضي ابن فرحون المالكي^(٤) رَحِمَهُ اللَّهُ يحكي إجماع أهل العلم على كفر

(١) رواه الترمذي، كتاب الزهد، باب: ما جاء في قلَّة الكلام (٣/٣٨٢) (ح ٢٤٢١). وقال: «حديث حسن صحيح».

وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن الترمذي»: (٢/٢٦٩) (ح ١٨٨٨).

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى (٢/١١٠).

(٣) المجموع (٢/١٩٣). وانظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٦/٨٨).

(٤) هو إبراهيم بن علي بن محمد بن أبي القاسم بن فرحون اليعمري، المدني، المالكي (أبو الوفاء) ولد بالمدينة (٧١٩هـ)، وتفقه، وبرع، وصنّف، وجمع، وولي قضاء المدينة. توفي سنة (٧٩٩هـ). من مصنفاته: «شرح مختصر ابن الحاجب»، و«الديباج المذهب في أعيان المذهب». انظر: الدرر الكامنة (١/٤٨)؛ شذرات الذهب (٦/٣٥٧).

من استخفَّ بالقرآن، قائلاً: «وَمَنْ اسْتَخَفَّ بِالْقُرْآنِ، أَوْ بِشَيْءٍ مِنْهُ، أَوْ جَعَلَهُ، أَوْ حُرَفًا مِنْهُ، أَوْ كَذَّبَ بِشَيْءٍ مِنْهُ، أَوْ أَثْبَتَ مَا نَفَاهُ، أَوْ نَفَى مَا أَثْبَتَهُ عَلَى عِلْمٍ مِنْهُ بِذَلِكَ، أَوْ شَكَّ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، فَهُوَ كَافِرٌ بِإِجْمَاعِ أَهْلِ الْعِلْمِ»^(١).

٤ - الإمام الشافعي ^(٢) رحمه الله حيث قال :

«... مَنْ ذَكَرَ كِتَابَ اللَّهِ، أَوْ مُحَمَّدًا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، أَوْ دِينَ اللَّهِ بِمَا لَا يَنْبَغِي... فَقَدْ نَقَضَ عَهْدَهُ، وَأَحْلَلْ دَمَهُ، وَبَرِئَتْ مِنْهُ ذِمَّةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَذِمَّةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ» (۳).

وكذلك نُقِلَ عن الشَّافعي أنه سئل عَمَّنْ هزل بشيء من آيات الله، أنه قال: هذا كافر، واستدلَّ بقوله تعالى: ﴿قُلْ أَيَاللّهِ وَمَا يَلِينُهُ وَرَسُولُهُ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٥) لَا تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَكُفُّوا عَنْهُ أَوْ يَكُولُ لَكُمْ بِمَنِّكُمْ بِهِ إِسْمِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥ - ٦٦] (٤).

٥ - شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ حيث قال:

«وليس لأحد استعمال القرآن لغير ما أنزل الله له... ثم إن أخرجه مخرج الاستخفاف بالقرآن، والاستهزاء به، كَقَر صَاحِبِهِ»^(٥).

٦ - نصوص علماء الحنفية رحمهم الله تعالى:

*** جاء في الفتاوى البرازية:**

«ادخال القرآن في المزاح، والدُّعابة كفر؛ لأنَّه استخفاف به»^(٦).

*** وفي يتيمة الفتاوى:**

«مَنْ اسْتَخَفَّ بِالْقُرْآنِ، أَوْ بِالْمَسْجِدِ، أَوْ بِنَحْوِهِ مِمَّا يُعَظَّمُ فِي الشَّرْعِ كَفَرٌ».

(١) تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام (٢/٢١٤).

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن إدريس القرشي المظلي الشافعي، إمام المذهب الشافعي، اتفق على ثقته وإمامته وعدالته وحسن سيرته، له أشعار كثيرة، من مؤلفاته: كتاب «الأم»، و«الرسالة». ولد سنة (١٥٠هـ)، وتوفي سنة (٢٠٤هـ).

انظر: وفيات الأعيان (٤/١٦٣).

(٣) مختصر اختلاف العلماء، للجصاص (٣/٥٠٥).

(٤) انظر: الصارم المسلول، لابن تيمية (ص ٥١٤).

(٥) مختصر الفتاوى المصرية - لابن تيمية، اختصار: محمد بن علي البعلبي (ص ٥٧٨).

(٦) الفتاوى النزائية، لابن النياز (٣/٣٣٨).

* وفي جواهر الفقه:

«مَنْ قِيلَ لَهُ: أَلَا تَقْرَأُ الْقُرْآنَ، أَوْ أَلَا تُكْثِرُ قِرَاءَتَهُ؟ فَقَالَ: شَبِعْتُ أَوْ كَرِهْتُ، أَوْ أَنْكَرْتُ آيَةَ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، أَوْ غَابَ شَيْئًا مِنَ الْقُرْآنِ... كُفْرٌ».

* وفي الفتاوى الظهيرية:

«مَنْ قَرَأَ آيَةَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلَى وَجْهِ الْهَزْلِ يَكْفِرُ»^(١).

أما بعد: فهذا هو المنقول عن علماء المسلمين على كفر مَنْ استهزأ بالقرآن العظيم، أو بشيء منه، عامداً متعمداً.

عقوبة المستهزين بكلام الله تعالى:

من المنكر العظيم في القرن العشرين اتِّخَاذُ آيَاتِ الْقُرْآنِ هُزْوَاً عَنْ طَرِيقِ الْغِنَاءِ وَالْعَزْفِ عَلَيْهَا بِالْمَوْسِيقِيِّ، فَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ - الَّذِي هُوَ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى - لَهُ قَدْرُهُ وَمَكَانَتُهُ فِي قُلُوبِ الْمُسْلِمِينَ، فَلَا سِتْخَفَافَ بِحَرَمَتِهِ، وَالْإِسْتِهْزَاءُ بِشَيْءٍ مِنْهُ جَرَمٌ كَبِيرٌ، وَذَنْبٌ عَظِيمٌ.

والله تعالى يقول: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا هُزْؤٌ﴾ [الطارق: ١٣ - ١٤]. فكلُّ مَنْ اتَّخَذَ شَيْئاً مِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ لِلْهَزْلِ وَالْغِنَاءِ، وَالرَّقْصِ وَالطَّرْبِ، فَقَدْ اتَّخَذَهَا هُزْوَاً وَلَعِباً.

وقد توعدَّ الله المستهزين بكلامه وآياته، بِالْعَذَابِ الْمُهِينِ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئاً اتَّخَذَهَا هُزْوَاً أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [الجاثية: ٤٩].

وفي قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسِفُكُمْ كَمَا نَسِفْنَا لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّخَذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزْوَاً وَغَرَّبُوا الدِّينَ فَأَلَيْكُمُ الْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْمَعُونَ﴾ [الجاثية: ٣٤ - ٣٥].

فينبغي أن يُحَاسِبَ كُلُّ مَنْ يَسْتَخَفُّ بِالْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ وَيَسْتَحْذُهَا لِلْغِنَاءِ وَالطَّرْبِ وَاللَّعِبِ، فَإِذَا لَمْ يُحَاسِبْ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ، فَقَدْ يَنْفَتِحُ بَابٌ وَاسِعٌ لِلتَّلَاعِبِ بِشَعَائِرِ الْإِسْلَامِ، وَالطَّعْنِ فِي الذَّاتِ الْإِلَهِيَّةِ، وَصِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالطَّعْنِ بِأَعْظَمِ شَيْءٍ يَفْتَخِرُ بِهِ الْمُسْلِمُونَ.

(١) تهذيب رسالة البدر الرشيد في الألفاظ المكفرات، لمحمد بن إسماعيل الرشيد (ص ٢٢).

(٢٣). وانظر: شرح الفقه الأكبر لأبي حنيفة النعمان، لملا علي قاري (ص ٢٥٠ - ٢٥٤).

المطلب الثالث

حكم الاستهانة بالمصحف

مرَّ بنا سابقاً في الفرق بين القرآن والمصحف، أنَّ المصحف: اسمٌ للمكتوب من القرآن الكريم، المجموع بين الدُّفَّتين. فينبغي أن يكون له من التقدير والاحترام والتَّعظيم والصَّيانة من العيوب والنَّقائص، لما يحتويه من كلام الله تعالى.

والاستهانة - عياداً بالله - بالمصحف، أو بشيء منه، لها صور متعدِّدة: كاتِّخاذِ الفأل منه، أو الاتِّكاء والتَّوسُّد عليه، أو إتلافه وتمزيقه، أو الكتابة عليه، أو إدخاله في أماكن التَّخلِّي، أو الوصية بدفنه مع الميت في قبره، أو إلقائه في القاذورات، أو بلِّه بالريق، أو بلع شيء منه، أو تخطئه، أو تركه على الأرض، أو اتِّخاذه وتعليقه للبركة من غير قراءة فيه، أو تلويثه، أو جحد شيء منه، أو وطئه بالرجل أو مدَّها إليه، أو الجلوس عليه، أو وضع شيء فوقه، أو سبه، أو الاستخفاف به، إلى غير ذلك من الصُّور الكثيرة التي تكلم عنها أهل العلم، وأوردوها في مصنفاتهم، وحذروا من فعلها والاستهانة بها. وسيكون الحديث عن بعض هذه الصُّور الفجَّة، مع ذكر شيء من حكمها، فيما قاله أهل العلم في ذلك.

صور من الاستهانة بالمصحف:

* الصُّورة الأولى: الاتِّكاء والتَّوسُّد على المصحف.

* حُكم الاتِّكاء: صرَّح غير واحد من أهل العلم بحرمه الاتِّكاء على المصحف؛ لكون ذلك امتحاناً وقلةً احترام له، وهو الذي نصَّ عليه القرطبي في تفسيره^(١) وتذكاره^(٢)، وحكاه غير واحد من الحنابلة عن ابن عبد القوي رحمته الله^(٣).

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن (١/٢٩).

(٢) انظر: التذكار في أفضل الأذكار (ص ١٨٥).

(٣) هو محمد بن عبد القوي بن بدران بن عبد الله المقدسي، المزدائي (أبو عبد الله) فقيه، محدِّث، نحوي، ناظم. ولد سنة (٦٣٠هـ) بمردا من قرى نابلس، وأفتى وُصِّف، وتوفي =

قال ابن مُفلح^(١) رحمته الله: «قال ابن عبد القوي في كتابه مجمع البحرين: إنه يحرم الاتكاء على المصحف، وعلى كتب الحديث، وما فيه شيء من القرآن، اتفاقاً»^(٢).

* **حكم توسّد المصحف**^(٣): المستقرئ لنصوص العلماء في هذا الشأن يخلص إلى أنَّ القول بتحريم توسّد المصحف على سبيل الامتحان محلّ وفاق بينهم؛ بل صرّح بعضهم باعتبار قصد الامتحان للقرآن كفر وردّة من فعله.

أمّا إذا انتفى عن التوسّد قصد الامتحان والابتدال، فلاهل العلم في حكمه ثلاثة أقوال: التّحريم، والكراهة، والإباحة^(٤).

والرّاجح في التّوسّد: أنه محرّم على الإطلاق؛ لأنّ صورة الامتحان في التّوسّد حاصلّة، ويستثنى من ذلك حال الصّرورات؛ لكونها تُبيح المحظورات.

وقد صرّح بالتّحريم جمع من أهل العلم: كالنّووي^(٥)، والزّركشي^(٦)،

= بدمشق سنة (٦٩٩هـ). ومن مصنفاته: «القصيدة الدّالية في الآداب الشّريّة»، و«المنتقى في شرح العمدة لابن مالك في النّحو»، و«كتاب طبقات الأصحاب».

انظر: ذيل طبقات الحنابلة (٣٤٢/٢).

(١) هو محمد بن مُفلح بن محمد بن مفرج المقدسي، الدّمشقي، الحنبلي (أبو عبد الله) فقيه، أصولي، محدّث، ولد سنة (٧١٠هـ) ببيت المقدس، وأخذ عن المرّزي، والذهبي، والسّبيكي، وغيرهم. درّس، وأفتى، وناظر، وحّدث، وناب في الحكم عن القاضي جمال الدّين المرّداوي، وتوفي بدمشق سنة (٧٦٣هـ). ومن مصنفاته: «الآداب الشّريّة»، و«شرح المتقى».

انظر: الدّرر الكامنة (٢٦١/٤)؛ شذرات الذهب (١٩٩/٦).

(٢) الآداب الشّريّة (٢٩٧/٢).

(٣) المقصود بتوسّد المصحف هنا: جعله تحت الرّأس عند النّوم، أو تحت الوساد.

قال ابن الأثير رحمته الله في «النّهاية» (١٨٢/٥): «الوسادُ والوسادة: المِخْدَةُ. والجمع: وسائدٌ، وقد وسّدته الشّيء فتوسّده، إذا جعلته تحت رأسه».

(٤) انظر تفصيل هذه الأقوال في كتاب: المِخْدَةُ في أحكام المصحف (ص ٤٧٢ - ٤٧٣).

(٥) انظر: التبيان في آداب حملة القرآن (ص ٢٣٢).

(٦) هو محمد بن عبد الله بن بهادر المصري، الزّركشي، الشّافعي (أبو عبد الله) فقيه، أصولي، محدّث، أديب، تركي الأصل، مصري المولد سنة (٧٤٥هـ)، رحل إلى الشّام وسمع من علمائها، انقطع للعلم واشتغل بالتّدريس والإفتاء. وتوفي بمصر سنة (٧٩٤هـ).

من تصانيفه: «الثّكت على البخاري»، و«البحر المحيط في أصول الفقه». انظر: الدّرر الكامنة (٣٩٧/٣)؛ شذرات الذهب (٢٣٥/٦).

(٧) انظر: البرهان في علوم القرآن (١٠٧/٢).

والهيتمي^(١)، وابن قدامة^(٢)، وغيرهم.

* الصورة الثانية: إتلاف المصحف وتمزيقه.

* حكمها: لا خلاف بين أهل العلم - رحمهم الله - في تحريم إتلاف المصاحف على وجه الاستخفاف، بل قد صرح بعضهم بكون ذلك باباً من أبواب الردّة^(٣)، والعياذ بالله من هذا الحال.

فإن كان الإتلاف لا على وجه الاستخفاف، ويمكن الانتفاع به، فلا يجوز إتلافه، صرح بذلك غير واحد من أهل العلم، كابن عبد الهادي الحنبلي^(٤) رحمه الله حيث قال: «ولا يجوز دفن مصحف صحيح، ولا غسله»^(٥).

الحالات التي يجوز فيها إتلاف المصاحف:

جوز أهل العلم - رحمهم الله - إتلاف المصاحف إذا تحقق فيها واحد من جملة أسباب^(٦):

- ١ - إذا كانت عتيقة بالية قد تعطل نفعها.
- ٢ - إذا تنجّست بما يتعذر معه تطهيرها.
- ٣ - إذا دخلها خلل يُخاف معه على الجهال من الضلال، إمّا لكثرة السقط فيها، أو كثرة اللّحن، أو دُسّ فيها ما ليس منها، أو كان رُسْمُها مخالفاً لرسم المصحف الإمام.

(١) انظر: الفتاوى الحديثية (ص ١٦٣). (٢) انظر: المغني (٣/ ١٥٠).

(٣) انظر: التبيان في آداب حملة القرآن (ص ٢٠٢)؛ مجموع فتاوى ابن تيمية (١٢/ ٣٨٢)؛ الآداب الشرعية (٢/ ٢٩٧).

(٤) هو جمال الدين يوسف بن حسن بن أحمد بن حسن بن عبد الهادي، الحنبلي، ولد سنة (٨٤٠هـ) من أهل الصّالحية بدمشق. محدث، فقيه، نحوي، صرفي، مشارك في عدّة علوم، وتوفي بدمشق سنة (٩٠٩هـ). من تصانيفه الكثيرة: «النهاية في اتصال الرواية»، و«الميرة في حلّ مشكل السيرة»، و«إرشاد السالك إلى مناقب مالك»، وغيرها. انظر: شذرات الذهب (٨/ ٤٣).

(٥) مغني ذوي الأفهام، لابن عبد الهادي (ص ٢٥).

(٦) انظر: الإتيقان في علوم القرآن (٢/ ١٧٢)؛ تفسير القرطبي (١/ ٥٤ - ٥٥)؛ الآداب الشرعية (٢/ ٢٩٦)؛ المعيار المغرب، للونشريسي (١/ ٢٩ - ٣٠)؛ تحفة المحتاج وحواشيها، للهيتمي (١/ ٣٢٣ - ٣٢٤)؛ المثنف في أحكام المصحف (ص ٣٧ - ٤١).

- * **الصورة الثالثة: إدخال المصحف في أماكن التخلي.**
- * **حكمها:** لا خلاف بين أهل العلم في حظر إدخال المصحف في أماكن التخلي ونحوها لغير ضرورة؛ لكون الدخول بها مع انتفاء الضرورة ضرباً من الامتهان، وإخلالاً بما يجب لها من التعظيم.
- وجمهور أهل العلم - رحمهم الله - على تحريم الدخول بالمصحف إلى الخلاء، وأماكن قضاء الحاجة، سواء كان ذلك في البنيان أو خارجها، ما لم تدع إلى ذلك ضرورة^(١).
- * **الصورة الرابعة: إدخال المصحف في القبر.**
- * **حكمها:** صرح غير واحد من أهل العلم بتحريم دفن المصحف مع الميت في القبر؛ لكون ذلك بدعة في الدين، إذ لم ينقل عن السلف الصالح أنهم فعلوه، وفيه تعريض المصحف للتلوث بصدید الميت إذا انفجر.
- وقد أفتى بعض أهل العلم بوجوب نبش القبر إذا دفن فيه مصحف، لا سيما إذا طمّع بالانتفاع بالمصحف، بأن يخرج سليماً، وأمن من كشف عورة الميت.
- وبعضهم أفتى بعدم انفاذ وصية من أوصى بدفن المصحف معه؛ لأنه يؤول إلى امتهان القرآن وتلوينه، وهو أمر محرّم^(٢).
- * **الصورة الخامسة: بلع شيء من المصحف.**
- * **حكمها:** الظاهر من كلام أهل العلم - رحمهم الله - أنه لا يجوز لأحد أن يتلع شيئاً من المصحف، لا على سبيل الاستشفاء، ولا غيره؛ لكونه بدعة في الدين، وامتهاناً للكتاب المبين، وذلك بتعريضه لأخلاق الجوف المستقذرة، وقد صرح غير واحد من أهل العلم بتحريم بلع قرطاس كتب فيه قرآن، أو اسم من أسماء الله تعالى، وممن صرح بذلك: الهيثمي^(٣).
-
- (١) انظر: الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف على مذهب الإمام أحمد، للمرداوي (١/٩٤)؛ حاشية ابن عابدين (١/١١٩)؛ المغني (١/١٥٨).
- (٢) انظر: تحفة المحتاج (٣/١٢٧)؛ حاشية ابن عابدين (١/٦٧٠)؛ المعيار المعرب (١/٣١٩).
- (٣) انظر: الفتاوى الحديثة (ص ١٦٥).

والرَّملي (٢٨١)، والعبَّادي (٣) (٤) من علماء الشَّافعية - رحمهم الله جميعاً.

* الصورة السادسة: التَّبْرُك بالمصحف.

* حكمها: إِنَّ التَّبْرُك بالمصحف بوضعه في المنزل، أو المكتب، أو السَّيَّارة، دُونَ القراءة فيه البَتَّة، يُعَدُّ ضرباً من البدع، وصورة فِجَّة من صور هجره والاستهانة به، واستعماله في غير ما أنزل له (٥).

فقد جاء عن أبي أمامة رضي الله عنه أنه قال: «اقْرَؤُوا الْقُرْآنَ وَلَا تَعْرُتْكُمْ هَذِهِ الْمَصَاحِفُ الْمُعَلَّقَةُ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُعَذِّبُ بِالنَّارِ قُلُوباً وَعَى الْقُرْآنِ» (٦).

وجاء في (الآداب الشرعية) عن ابن الجوزي رحمته الله: «ولنبغي لمن كان عنده مصحف، أن يقرأ فيه كلَّ يوم آيات يسيره؛ لئلا يكون مهجوراً» (٧).

* الصورة السَّابعة: تلوُّث المصحف.

* حكمها: لا خلاف بين أهل العلم - رحمهم الله - في تحريم تلوُّث المصحف بأيِّ نوع من أنواع الملوِّثات؛ بل صرَّح بعض أهل العلم بأنه لا يحل تلوُّث المصحف بما هو مستقذر، ولو كان ذلك طاهراً، كالريق أو البزاق مثلاً.

(١) هو محمد بن أحمد بن حمزة الرَّملي، المنوفي، المصري، الشَّافعي، ولد بالقاهرة سنة (٩١٩هـ) وولي إفتاء الشَّافعية، ومن تصانيفه: «نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج للتَّووي»، و«شرح العقود في النُّحو»، و«غاية البيان في شرح زبدة الكلام». توفي سنة (١٠٠٤هـ). انظر: معجم المؤلفين (٦١/٣).

(٢) انظر: نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج (١٢٦/١).

(٣) هو أحمد بن قاسم العبَّادي، القاهري، الشَّافعي (شهاب الدِّين) عالم، فقيه. توفي بالمدينة سنة (٩٩٤هـ). من تصانيفه: «غاية الاختصار في فروع الفقه الشَّافعي»، و«الحواشي والنُّكات والفوائد»، و«المحركات على مختصر السَّعد في المعاني والبيان» وغيرها. انظر: معجم المؤلفين (٢٣٠/١).

(٤) انظر: حاشية العبَّادي على تحفة المحتاج (١٥٦ - ١٥٥/١).

(٥) انظر: الإتقان في علوم القرآن (١٧٠/٢).

(٦) رواه الرازي في «فضائل القرآن وتلاوته» (ص ١٥٤) (رقم ١٢٥)؛ والبخاري في «خلق أفعال العباد» (٨٧/١) (رقم ٢٧٣)؛ وابن أبي شَيْبَةَ في «مصنفه» (١٣٣/٦) (رقم ٣٠٠٧٩)؛ والدارمي في «سننه» (٣٠٦/٢) (رقم ٣٣١٩)؛ وصحَّح إسناده الحافظ ابن حجر في «فتح الباري»: (٧٩/٩).

(٧) الآداب الشرعية (٣٠٩/٢).

ولقد اشدَّ تكبر بعض أهل العلم على مَنْ اعتاد بَلَّ الإصبع بريقه عند تقليب ورق المصحف ليسهل عليه ذلك، ولو لم يكن بصنيعه هذا قاصداً لتلوين المصحف^(١).

فإنْ توفَّر قَصْدُ التَّلْوِينِ فالظَّاهر أَنَّ القول بتكفيره محلٌّ وفاق بين أهل العلم. ونصَّ أبو الوفاء ابن عقيل الحنبلي^(٢) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - في فنونه - على أَنَّ مَنْ قَصَدَ كَتَبَ القرآن بنجس إهانةً له، فالواجب قتله^(٣).

* الصُّورة الثَّامِنَةُ: وطء المصحف.

* حكمها: لا خلاف بين أهل العلم - رحمهم الله - في كفر مَنْ وَضَعَ رجله على المصحف مستخفاً به؛ وكون ذلك باباً من أبواب الرَّذَّة، وصنيعاً يُشعر بإسقاط حرمة المصحف، وكذلك الجلوس مباشرة على المصحف استخفافاً به^(٤).

فإنْ كان مضطراً إلى وطء المصحف، أو الجلوس عليه فقد صرَّح بعدم كفره غير واحد من أهل العلم، إعمالاً للعمومات الدَّالة على رفع الإثم عن المضطر.



(١) انظر: حاشية الشرواني على تحفة المحتاج (١/١٥٣).

(٢) هو علي بن عقيل بن محمد بن عقيل، الحنبلي (أبو الوفاء) عالم فقيه، أصولي، مقرئ، واعظ. ولد ببغداد سنة (٤٣١هـ)، له مؤلفات كثيرة في الفقه وأصوله، من أشهرها: «كتاب الفنون في شتى العلوم - فيما يزيد عن مائتي مجلد»، و«الفصول»، و«المفردات»، و«عمدة الأدلة». توفي سنة (٥١٣هـ).

انظر: الدليل على طبقات الحنابلة (١/١٤٢)؛ سير أعلام النبلاء (١٢/١٠٣).

(٣) انظر: الفروع، لابن مفلح (١/١٩٣)؛ كشاف القناع عن متن الإقناع (٦/١٦٨).

(٤) انظر: الشفا بتعريف حقوق المصطفى (٢/٣٠٤)؛ قواعد الأحكام، لابن عبد السلام (١/١٩)؛ التبيان، للنووي (ص ٢٠٢، ٢٣٢)؛ الفروع (١/١٩٣)؛ تحفة المحتاج وحواشيه (١/٦١، ١٦٠)؛ الفتاوى الهندية، للشيخ نظام وجماعة من علماء الحنفية بالهند (٥/٣٢٢)؛ حاشية ابن عابدين (٣/٥٦).

الفصل الثالث

هجر استماع القرآن

وفيه ستة مباحث:

المبحث الأول: تعريف السَّماع وأنواعه.

المبحث الثاني: مظاهر هجر استماع القرآن.

المبحث الثالث: آداب استماع القرآن.

المبحث الرابع: فضائل استماع القرآن.

المبحث الخامس: حُكْمُ الاستماعِ للقرآن وحُكْمُ الإعراضِ عنه.

المبحث السادس: الآثار الحسنة لاستماع القرآن.

المبحث الأول

تعريف السَّماع وأنواعه

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: تعريف السَّماع.

المطلب الثاني: أنواع السَّماع.

المطلب الثالث: أقسام النَّاس في سماع القرآن.

المطلب الأول

تعريف السَّماع

أولاً: «السَّماع» لغة:

جاء السَّماع في اللغة مصدراً مشتقاً من الفعل (سَمِعَ) الذي يدلُّ على إدراك الشيء بالأذن. كما في قوله تعالى: ﴿... أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].
يُقال: سَمِعَ الشيءَ - بالكسر - (سَمِعاً) و(سَمَاعاً)، وقد يُجمع على (أَسْمَاع) و(جَمْعُ الأَسْمَاعِ) (أَسَامِع)^(١).

استعمالات «السَّمع» في القرآن:

ذكر عدد من علماء اللغة لهذا الفعل ومشتقاته استعمالات عديدة، وسوف نعرِّضُ للمعاني التي وردت في القرآن، وتتعلَّق بموضوع البحث على النحو الآتي:

- ١ - يأتي السَّمع بمعنى القبول والعمل كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْقَمِيِّ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعْ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [النمل: ٨١].
أي: ما تُسمع إِلَّا مَنْ يؤمن بها، وأراد بالإسماع ههنا القبول والعمل بما يسمع؛ لأنه إذا لم يقبل ولم يعمل فهو بمنزلة مَنْ لم يسمع^(٢).
- ٢ - يأتي السَّمع بمعنى الاستجابة، كما في قول المصلي: (سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمَدَهُ).
أي: أجاب الله حَمْدَهُ وتقبَّله، وكما في دعائه ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ دُعَاءٍ لَا يُسْمَعُ»^(٣). أي: لا يُستجاب ولا يعتدُّ به، فكأنه غير مسموع^(٤).

(١) انظر: معجم مقاييس اللغة (١/٥٧٠)؛ لسان العرب (٦/٣٦٣)، مادة: (سمع).

(٢) انظر: مختار الصحاح (ص١٥٤)، مادة: (سمع).

(٣) رواه النسائي، كتاب الاستعاذة، باب: الاستعاذة من نفس لا تشيع (٨/٢٦٣) (ح٥٤٦٧)؛ وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن النسائي»: (٣/١١١٢) (ح٥٠٥٠).

(٤) انظر: لسان العرب (٦/٣٦٤).

٣ - يُعَبَّرُ بِالسَّمْعِ تارةً عن الأذن، كما في قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ [البقرة: ٧]. أي: طبع عليها بطابع لا يدخلها الإيمان، فلا يسمعون ما يفيدهم^(١).

٤ - يُعَبَّرُ بِالسَّمْعِ تارةً عن الفعل (أي: إدراك الشيء بالأذن)، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٢]^(٢).

٥ - يُعَبَّرُ بِالسَّمْعِ تارةً عن الفهم، كما في قولهم: (لم تسمع ما قلت) أي: لم تفهم، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور: ٥١]. أي: فهمنا وارتسمنا.

وكما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا﴾ [الأنفال: ٢٣]. أي: أفهمهم بأن جعل لهم قوَّةً يفهمون بها^(٣).

ثانياً: «السَّماع» اصطلاحاً:

* عَرَّفَهُ الْمُناوِي^(٤) رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله: «السَّماع: فَهْمُ (السَّامِع) ما كُوشِفَ به من البيان»^(٥). والمقصود هنا: سماع التدبر والتفكير لا مجرد السَّماع.

* وذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ حقيقته بقوله: «وحقيقة السَّماع: تنبيه القلب على معاني المسموع، وتحريكه عنها طلباً أو هرباً، وحباً أو بغضاً»^(٦).

(١) انظر: تفسير السعدي (١/٣٥).

(٢) انظر: المفردات في غريب القرآن (ص ٢٤٨)، مادة: (سمع).

(٣) انظر: المصدر نفسه (ص ٢٤٩).

(٤) هو عبد الرؤوف بن علي بن زين العابدين بن يحيى بن محمد الحدادي ثم المناوي، القاهري، الشافعي، ولد سنة (٩٥٣هـ)، وتوفي سنة (١٠٢١هـ)، نبغ في العربية والتفسير والحديث والأدب، وقد خلط بعضهم بينه وبين ابنه محمد بن عبد الرؤوف المتوفى سنة (١٠٢٢هـ)، ولابنه هذا شرح على التائية الكبرى للفارسي. ولعبد الرؤوف المناوي تصانيف كثيرة منها: «الجامع الأزهر من حديث النبي الأنور»، و«إتحاف الناسك بأحكام المناسك»، و«الجواهر المضية في الأحكام السلطانية» وغيرها.

انظر: مقدمة فيض القدير شرح الجامع الصغير، للمناوي (١/٩ - ١٠).

(٥) التوقيف على مهمات التعاريف، للمناوي (ص ١٩٧).

(٦) مدارج السالكين (١/٥١٧).

فالاستماع إذاً: هو قصد السَّماع بغية فهم المسموع، أو الاستفادة منه^(١).

ثالثاً: الفرق بين (السَّماع) و(الاستماع) و(الإنصات):

يتعيّن علينا - قبل الدُّخول في غمار مباحث «استماع القرآن» - أن نفرّق بين السَّماع، والاستماع، والإنصات^(٢).

١ - السَّماع: هو مجرّد استقبال الأذن للذبذبات صوتية من مصدر مُعيّن، دون إعارتها انتباهاً مقصوداً. فقد يكون بقصد، أو بدون قصد. فالإنسان يسمع كلّ ما يقال حوله، وقد يتنبه إلى ما يسمع وقد لا يتنبه.

٢ - الاستماع: هو مهارة يُعطي فيها المستمعُ اهتماماً خاصاً، واهتماماً مقصوداً لما تلقّاه أذنه من أصوات؛ ليتمكّن من استيعاب ما يُقال.

فلنلاحظ هنا أنّ مرتبة الاستماع أعلى من السَّماع؛ لأنّ الاستماع لا بدّ أن يتوقّف فيه القصد، ولذلك أمرنا الله تعالى عند تلاوة القرآن علينا بقوله: ﴿فَاسْتَمِعُوا﴾ ولم يقل: «اسمعوا».

٣ - الإنصات: هو المرتبة الأعلى؛ لأنّ فيه تركيزاً أكبر، من الانتباه والإصغاء والسُّكون، من أجل هدف محدّد.

السَّمع أهمُّ حاسةً للتلقّي:

ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ الاستماع مهارةٌ تحتاج إلى درجة من التّركيز وصفاء الذّهن، وغالباً ما يلازمها سكونٌ وإنصات؛ لإدراك المعاني المقصودة التي يتحقّق بها غرض المُلقّي، فالإحساس بالسَّمع مركز هامٌّ من مراكز الإدراك والفهم، لما يجري حول الإنسان من أحداث.

والإنسان الرّاشد يتعلّم عن طريق السَّمع، أكثر ممّا يتعلّم عن طريق آية حاسةٍ أخرى، وقد يكون ذلك عائداً لأسباب عدّة، منها: أنّ مدى السَّمع أكبر ممّا تصل إليه آية حاسةٍ أخرى منفردة كالبصر مثلاً، وأنّ أوّل ما يعمل من حواسّ عند

(١) انظر: المصباح المنير (ص ١٥٠)، مادة: (سمع)؛ الفروق في اللّغة (ص ٨١)؛ حاشية القليوبي على شرح المنهاج (٢٩٧/٣).

(٢) انظر: المعجم الوسيط (ص ٤٤٩).

الإنسان هو السَّمع، وهو أيضاً آخر حاسة تموت، وهو من ناحية التركيب الفيزيولوجي للدماغ أعمق في التركيب من الحواس الأخرى كالبصر مثلاً، ولعلّ هذا من أسرار تقديمه في معظم الآيات، إن لم نقل جميع الآيات، التي جمعت بين السَّمع والبصر، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦] (١).

المطلب الثاني

أنواع السَّماع

قسّم العلامة ابن القيم رحمته الله «السَّماع» إلى ثلاثة أنواع، وأطال في ذلك وأجاد، وخلاصة هذه الأنواع فيما يلي (٢):

النوع الأول: السَّماعُ المَرَضِيّ:

فهذا السَّماع قد أمر الله به عباده، وأثنى على أهله، ورضي عنهم به، وذمّ المعرضين عنه ولمنهم، وجعلهم أضلّ من الأنعام سبيلاً، وهم القائلون في النار: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠].

فالله تعالى أوردتهم النار؛ لأنهم أعرضوا عن سماع آياته المتلوة التي أنزلها على رسله عليه السلام.

السَّماع المَرَضِيّ يَمُرُّ بثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: سماع الإدراك.

وفي هذه المرحلة يكون السَّماع بحاسة الأذن، كما في قول مؤمني الجن: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۖ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾ [الجن: ١ - ٢]. وقولهم: ﴿يَقُومَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣٠].

(١) انظر: أثر سماع القرآن الكريم على مستوى الأمن النفسي (رسالة ماجستير تخصص علم النفس التربوي) - جامعة اليرموك - الأردن) للباحثة: عندليب بنت أحمد عبد الله (ص ١٣ - ١٤).

(٢) انظر: مدارج السالكين (١/ ٥١٧ - ٥٢٣).

المرحلة الثانية: سماع الفهم.

وهذا السَّماع منفي عن أهل الإعراض والغفلة بقوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ﴾ [الروم: ٥٢].

كما أنه منفي عن الكفار بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُقِرُّونَ﴾ [الأنفال: ٢٣]. أي: لو علم الله عز وجل في هؤلاء الكفار قبولاً وانقياداً لأفهمهم، ولأفهمهم قد سمعوا سَمْعَ الإدراك ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُقِرُّونَ﴾ أي: ولو أفهمهم لما انقادوا، ولا انتفعوا بما فهموا؛ لأن في قلوبهم من داعي التَّوَلَّى والإعراض ما يمنعهم عن الانتفاع بما سمعوه.

المرحلة الثالثة: سماع القبول والإجابة.

ومن أمثلة ذلك: قول المؤمنين: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور: ٥١]. فإن هذا سَمْعٌ قبول وإجابة، مثمر للطاعة.

وسماع القبول والإجابة متضمن للمراتب الثلاث؛ لأن المؤمنين أدركوا المسموع، وفهموه، واستجابوا له، فاستحقوا بذلك محبة الله لهم، ورضاه عنهم، نسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم.

فكل سماع في القرآن مَدَحُ الله أصحابه، وأثنى عليهم، وأمر به أوليائه؛ فهو هذا السَّماع.

وهو سماع الآيات، لا سماع الأبيات، وسماع القرآن، لا سماع مزامير الشيطان، وسماع كلام رب الأرض والسَّماء، لا سماع قصائد الشعراء، وسماع الأنبياء والمرسلين، لا سماع المغنين والمطربين. فحرام على قلب قد تربى على غذاء السَّماع الشَّيطاني، أن يجد شيئاً من ذلك في سماع القرآن.

فهذا السَّماع حادٍ يحدو القلوب، إلى جوار عَلام الغيوب، وسائق يسوق الأرواح إلى ديار الأفراح، فليس في نعيم أهل الجنة أعلى من رؤيتهم وجه الله محبوبهم ﷻ عياناً، وسماع كلامه منه^(١).

(١) انظر: المصدر نفسه (١/٤٨٥).

النوع الثاني: السَّمَاعُ المنهِي عنه: فقد جاء في سماعه: وهذا سماع يُبغضه الله ويكرهه، وقد نهى عنه، ومدح المعرضين عنه، وهو سماع كلِّ ما يضرُّ العبد في قلبه ودينه؛ كسماع الباطل كله، وكسماع اللغو الذي مدح التَّاركين لسماعه والمعرضين عنه بقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا سَكَبُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ [القصص: ٥٥]. وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢].

واللغو في اللغة: كلُّ ما هو باطل، ولا يفيد فائدة^(١). ومعنى ﴿مَرُّوا كِرَامًا﴾: أكرموا أنفسهم عن الدُّخول فيه. قال ابن مسعود رضي الله عنه: «إنَّ الغناء يُنبِت النَّفاق في القلب كما ينبِت الماء البقل»^(٢).

النوع الثالث: السَّمَاعُ المباح:

لم يتحدث ابن القيم رحمته الله عن أمثلة للسماع المباح، وقد فصل أبو حامد الغزالي رحمته الله أنواعه، وذكر منها: غناء الحجاج لأشعار تصف الكعبة، والمقام، وزمزم، وسائر المشاعر؛ لما في ذلك من تهيج الشوق إلى حج بيت الله تعالى، ومنها: ما يعتاده النَّاسُ لتحريض النَّاسِ على الغزو، ومنها: السَّماع في أوقات الشرور تأكيداً للشرور وتهيجاً له، إن كان ذلك الشرور مباحاً^(٣).

المطلب الثالث

أقسام النَّاسِ في سماع القرآن^(٤)

انقسم النَّاسُ - مسلمهم وكافرهم، برُّهم وفاجرهم - في سماعهم للقرآن العظيم إلى أربعة أصناف، كما ذكر ذلك ابن تيمية رحمته الله^(٥):

الصَّنْفُ الأوَّل: مُعرض مُمتنع عن سماع القرآن:

وهؤلاء هم أئمة الكفر الذين قال الله فيهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْقَوَا فِيهِ لَكُمْ ثَقَلِيُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

(١) انظر: تفسير السمعاني (٤/٣٥). (٢) انظر: تفسير البغوي (٣/٣٠٣).

(٣) انظر: إحياء علوم الدين (٢/٢٧٧ - ٢٧٩).

(٤) المقصود بسماع القرآن هنا: سماع القبول والإجابة.

(٥) انظر: مجموع الفتاوى (١٦/٨ - ١٥).

الصَّنْف الثاني: سَمِعَ الصَّوْتَ وَلَمْ يَفْقَهُ الْمَعْنَى:

وهؤلاء هم عامة الكفار، من المشركين وأهل الكتاب والمنافقين، وأمثلة ذلك كثيرة في الآيات القرآنية، كقوله تعالى: ﴿وَمَثَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكْمٌ عُمْى فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]. وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلاًّ آيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ [الأنعام: ٢٥].

ومثل هؤلاء - الذين يسمعون الصَّوْتَ ولا يفقهون المعنى - كمثال من يعلم وصفاً مذموماً، ويكون هو متصفاً به، أو بعضاً من جنسه، ولا يعلم أنه داخل فيه.

وهؤلاء شرٌ - عند الله تعالى - من شرار الدواب؛ لأنَّ الله أعطاهم أسماعاً وأبصاراً وأفئدة؛ ليستعملوها في طاعة الله، فاستعملوها في معاصيه^(١)، فهؤلاء لا خير فيهم بنص كلام الله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَقُولُونَ﴾ (٢٢) ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢ - ٢٣].

ودلَّت الآية الكريمة على أنه ليس كلُّ مَنْ سَمِعَ وفقه يكون فيه خير، بل قد يفقه ولا يعمل بعلمه، فلا ينتفع به ولا يكون فيه خير، ودلَّت أيضاً على أنَّ إسماع التفهيم إنما يُطلب لمن فيه خير؛ لأنَّه هو الذي ينتفع به^(٢).

الصَّنْف الثالث: فَقِهَ الْمَعْنَى وَلَمْ يَقْبَلْهُ:

وهؤلاء هم اليهود الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿مَنْ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَادْعِنَا لَيْتَ بِالسِّنِينَ وَطَعْنَا فِي الَّذِينَ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمِعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِنْ لَمِنْهُمْ اللَّهُ بِكَفَرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٤٦]. وقال تعالى فيهم: ﴿أَفَنظُمُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ

(١) انظر: تفسير السعدي (١٩٦/٢).

(٢) تأمل نماذج أيضاً لهذا الصَّنْف من الناس في آيات السُّور الآتية، وأرقامها: (يونس: ٤٢ -

(٤٤) [الإسراء: ٤٥ - ٤٧] (الكهف: ٥٧) [الأنفال: ٢٠].

قَرِيبٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿البقرة: ٧٥﴾.

فاليهود وإن سمعت قلوبهم الخطابَ وفقهته لا تقبله، ولا تؤمن به، لا تصديقاً له، ولا طاعةً، وإن عرفوه، كما أخبر تعالى عنهم بقوله: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَحَرِّفُونَهُ كَمَا يَحَرِّفُونَ آيَاتِهِمْ﴾ [البقرة: ١٤٦].

ولا يقتصر الأمر على اليهود فقط، ففي عالمنا اليوم نجد طوائف من العلمانيين والعقلانيين وغيرهم الذين يفقهون المعنى ولا يقبلونه.

الصَّنْفُ الرَّابِعُ: سَمِعَ الْقُرْآنَ سَمَاعَ فِقْهِ وَقَبُولٍ:

وهؤلاء هم المؤمنون بالقرآن العظيم، المنقادون له ظاهراً وباطناً، وقد أثنى الله تعالى عليهم في مواضع كثيرة من القرآن، منها:

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَنْقُومَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَنْقُومَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيَجْزِيَكَم مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٢٩ - ٣١].



المبحث الثاني

مظاهر هجر استماع القرآن

وفيه مطلبان:

- المطلب الأول: مظاهر هجر استماع القرآن لدى الكفار.
- المطلب الثاني: مظاهر هجر استماع القرآن لدى المسلمين.

المطلب الأول

مظاهر هجر استماع القرآن لدى الكفار

لولا أن الله ﷻ ذَكَرَ في كتابه الكريم أن أقواماً أَعْرَضُوا وَاِمْتَنَعُوا عَنْ
استماع القرآن - طوعاً واختياراً - لما كان يتصوّر المؤمن، ذو الفطرة السليمة، أن
أحداً من البشر يجرؤ على حرمان نفسه - في الدنيا - من التلذذ بكلام الله تعالى،
وعلى هلاكها في الآخرة.

وهذا النوع من البشر - المعرض عن سماع القرآن - لا خير فيه، بل هو من
شرار الدواب، الذين وهب الله تعالى لهم أسماعاً وأبصاراً وأفئدة، ومع ذلك
استعملوها فيما يعود عليهم بالضرر، وجحدوا نعمة الله وهم يعلمون.

وإعراض الناس عن استماع القرآن يأخذ مظاهر عديدة: فتارة بالتواصي
بعدم السماع، وتارة بالإعراض والاستكبار عن السماع، وتارة بالتعامي والتصام
عن السماع، وتارة بالاستهزاء حال السماع، وتارة بالضجر والتأفف، وتارة
بالإزلاق بالعيون، وتارة بالتهاون والتغافل عن السماع، وهذا ما سنتناوله
بالتفصيل والبيان، من خلال بسط مظاهر هجر استماع القرآن لدى الكفار.

١ - الإعراض عن سماع القرآن:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا
جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَلَنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا
إِذَا أُنذِرُوا﴾ [الكهف: ٥٧].

فمن أكبر الجرم، وأعظم الظلم للنفس أن يُعرض الإنسان عن القرآن
العظيم، الذي فيه سعادته في الدنيا، ونجاته يوم القيامة، فلم يفتح مسامعه
للآيات البينات، ولم يتذكر بما ذُكر به، ونسي ما قَدَّمَتْ يده من الكفر
والمعاصي ولم يتفكر في عاقبتها.

فجاءت عقوبته من جنس عمله: بأن سُدَّتْ عنهم أبواب الهداية، وجُعِلَتْ

الأغطية المحكمة على قلوبهم، وجعل الصمم في آذانهم يمنعهم من وصول الآيات، ومن سماعها على وجه الانتفاع بها، جزاء وفاقاً.

* وحكى الله تعالى - في موضع آخر - إعراض الكفار عن القرآن العظيم بقوله: ﴿مَثَرًا وَلَئِنْ قَالُوا فَاعْرِضْ أَعْرَضَ كُلُّهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ①﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ وَلَئِنْ آدَاتِنَا وَفَرٌّ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ فَاغْمَلْ إِنَّا نَحْنُ غَمْلُونَ ﴿[فصلت: ٤ - ٥].

تُبين هذه الآية الكريمة أن أكثر الخلق معرضون عن القرآن الكريم، لا يسمعون له سماع قبول وإجابة، وإن كانوا قد سمعوه سماعاً تقوم به الحجة الشرعية عليهم^(١).

وتبجح المعرضون: بأن قلوبهم في أغطية فلا تصل إليها الآيات، وآذانهم صماء فلا تسمع الآيات المتلوّة، وضربوا حجاباً معنوياً بينهم وبين النبي الكريم ﷺ؛ لقطع جميع منافذ الاتصال، إمعاناً في العناد من جهة، وبغية تبئيسه ﷺ من جهة أخرى؛ ليكفّ عن دعوتهم بالقرآن العظيم، لما كانوا يجدونه في قلوبهم من وقع آياته عليهم، فأى إعراض أكبر من ذلك؟^(٢).

٢ - الاستكبار عن سماع القرآن:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِ ءَايَتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ وَقْرًا فَنَسَوْنَهُ بِعَذَابِ آلِيمٍ﴾ [لقمان: ٧].

فهذا أعظم من مجرد الإعراض؛ لأن إعراضه إعراض استكبار، لا إعراض قريظ في الخير وزهد فيه فحسب، ولذلك بُشّر هذا المستكبر المعرض عن القرآن الكريم، بالعذاب المؤلم لقلبه وبدنه في الآخرة، جزاء لاستكباره عن سماع القرآن في الدنيا.

* ولا يليق بمن يعرض عن القرآن، ويتكبر عن سماع آياته إلا التهديد والتنكيل، والسخرية منه، قال الله تعالى في موضع آخر: ﴿وَلِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ②﴾ يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ تَنَلَّى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَنَسَوْنَهُ بِعَذَابِ آلِيمٍ ﴿[الباقية: ٧ - ٨].

فتصوّر هذه الآيات الكريمات جانباً من استقبال المشركين للقرآن،

(١) انظر: تفسير السعدي (١/ ٧٤٤). (٢) انظر: في ظلال القرآن (٥/ ٣١٠٨).

وإصرارهم على باطلهم، واستكبارهم عن سماع كلمة الحق المبين، ومكابرتهم في هذا الحق كأنه لم يطرق آذانهم.

وهذه الصورة البغيضة تتكرر في كل زمان ومكان، فكم في الأرض من يسمع آيات الله تتلى عليه، ثم يُصِرُّ مستكبراً كأنه لم يسمعها؛ لأنها لا تُوافق هواه، ولا تسير مع مألوفه، ولا تعاونه على باطله، ولا تُقرِّئه على شره، ولا تتمشى له مع اتجاه^(١).

٣ - التواصي بعدم سماع القرآن:

من أبرز مظاهر هجر سماع القرآن: ما دعا إليه أئمة الكفر - وصية لا تبعاهم - بعدم السماع للقرآن الكريم ابتداء، خشية أن يؤمنوا به بعد استماعهم له، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَقْلِقُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

ولكن مكرهم ذهب أدراج الرياح وغلب القرآن العظيم؛ لأنه يحمل سرَّ الغلب، إنه الحق؛ والحق غالب مهما جهد المبطلون^(٢).

ومن مظاهر التواصي فيما بينهم بعدم سماع القرآن: أن بعضهم يُعَنِّفُ بعضاً ويلومه، ويعيب عليه، إذا ما حاول - قاصداً أو ناسياً - سماع القرآن، يقول الله تعالى حاكياً هذا التواصي فيما بينهم: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ رَبِّهِمْ تُخَذِّلُ إِلَّا أَسْتَمِعُوهُ وَهُمْ يَلْعَنُونَ ۝ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَأَ التَّجْوَى لِلَّذِينَ ظَلَمُوا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَكَ السِّحَرَ وَأَنْتَ تَبْصُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢ - ٣].

لقد نعتوا القرآن بالسحر، ونعتوا أنفسهم بالإبصار، وحقيقة الأمر على غير ذلك، فما القرآن إلا وحي مؤثر من خالقهم، وما ادَّعَاوَهُمُ الإبصار إلا محاولة تبرير ضعيفة، وهروب منهزمة، يسترون تحتها ما في نفوسهم، من استكبار وعتو، وتواصي على عدم الانصياع للحق، وحرص على استخدام كل الأساليب الإعلامية، التي تمنع وصول أي أثر لهذا البث القرآني المؤثر في النفوس^(٣).

(١) انظر: المصدر نفسه (٣٢٢٤/٥). (٢) انظر: المصدر نفسه (٣١٢٠/٥).

(٣) انظر: الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم، د. محمد عطا أحمد يوسف، مجلة الشريعة =

٤ - البطش بمن يقرأ القرآن:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا نُنُلِّ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا بِيَنَنْتِ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرُ يَكَادُرُونَ بِسُطُورِ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا﴾ [الحج: ١٧٢].

ومن أبرز مظاهر هجر سماع القرآن: أن تغضب النفوس، وتعبس الوجوه، ويصيب القلوب من الغم والحزن والكرامية لدى سماع القرآن.

فهذا هو حال الكفار عند سماعهم للقرآن العظيم، تكاد هذه الكرامية لسماع الآيات أن تتحول إلى البطش والفتك بمن يقرأ عليهم القرآن.

٥ - التعمي والتصام عن القرآن:

كان النبي ﷺ يجتهد في إيصال حقائق القرآن الإيمانية إلى قومه ولا يزيدهم ذلك إلا تصميماً على الكفر، وتمادياً في الغي، فقال تعالى مبيناً حالهم: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَقُولُونَ ۖ وَمِنْهُمْ مَّن يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ﴾ [يونس: ٤٢ - ٤٣].

فقد كان فريق منهم يستمعون إلى النبي ﷺ - وقت قراءته للوحي - لا على وجه الاسترشاد، بل على وجه التفرج والتكذيب، وتطلب العثرات، وهذا استماع غير نافع، فقد انسَدَّ عليهم باب التوفيق، وحُرموا من فائدة الاستماع.

فلو جهر النبي ﷺ بالقرآن، فإنهم لا يستمعون القول. فإذا كان من المحال إسماع الأصم، الذي لا يعقل الكلام، فهؤلاء المتصامون كذلك، ممتنع إسماعك إياهم إسماعاً ينتفعون به.

وحتى نظرهم إليك لا يفيدهم؛ لأنهم تعاملوا عن الحق، فكما أنك لا تهدي العمي، فكذلك لا تهدي هؤلاء. فإذا فسدت عقولهم، وأسماعهم، وأبصارهم - التي هي الطرق الموصلة إلى العلم ومعرفة الحقائق - فأنت لهم أن يهتدوا؟^(١).

والمقصود من ذلك: تسلية النبي ﷺ، بأن هؤلاء المتعامين المتصامين قد بلغوا في مرض العقل إلى حيث لا يقبلون العلاج. والطبيب إذا رأى مريضاً لا

= والدراسات الإسلامية - جامعة الكويت (عدد: ٣٦) (شعبان ١٤١٩) (ص ٦٩ - ٧٠).

(١) انظر: تفسير السعدي (٢/ ٣٢١).

يقبل العلاج أعرض عنه، ولم يستوحش من عدم قبوله للعلاج، فكذلك وجب عليك - أيها النبي الكريم ﷺ - ألا تستوحش من إعراضهم عن سماع القرآن^(١).

* وبين الله تعالى - في موضع آخر - أن صممهم وعماهم كان بسبب كونهم في ضلال مبين: ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْأَعْمَى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الزخرف: ٤٠].

* وفي موضع ثالث تبين أن حالتهم أعظم من الصمم؛ لأن الأصم قد يستطيع السمع إذا صبح به، وهؤلاء زالت عنهم تلك الاستطاعة^(٢): ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [الكهف: ١٠١].

٦ - الاستهزاء حال سماع القرآن:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣١].

يُخبر تبارك وتعالى عن كفر قريش وعتوهم وتمردهم وعنادهم ودعواهم الباطل عند سماع آياته إذا تلى عليهم أنهم يقولون - استهزاءً: ﴿قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾.

قال ابن الجوزي رحمه الله: «وفي قوله: ﴿قَدْ سَمِعْنَا﴾ قولان: أحدهما: قد سمعنا منك ولا نُطيعك والثاني: قد سمعنا قبل هذا مثله»^(٣).

«ومن عجيب بهتانهم أن الرسول ﷺ تحداهم بمعارضة سورة من القرآن، فعجزوا عن ذلك وأفحموا، ثم اعتدروا بأن ما في القرآن أساطير الأولين، وأنهم قادرون على الإتيان بمثل ذلك»^(٤).

٧ - الضجر والتأفف.

يستشعر الكفار ثقل هذا القرآن على نفوسهم، ويتضجرون بما يجدون فيه

(١) انظر: التفسير الكبير (١٧/٨١).

(٢) انظر: المصدر نفسه (٢١/١٤٧).

(٣) زاد المسير (٣/٢٦٤).

(٤) التحرير والتنوير (٩/٨٣).

من عجائب الخطاب وروائع البيان، فلا يسعهم إلا أن يُعرضوا عن سماعه، ويطلبوا النبي الكريم ﷺ أن يأتي بقرآن غيره، أو يبدله، ويسجل القرآن عَرْضَهُمْ هذا في قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَقِيَ بَشَرًا مِثْلَ هَذَا أَوْ يَدُلُّهُ قُلٌ مَا يَكُونُ لَهُمْ أَنْ أُتْلَى مِنْ تَلْفَافٍ نَفِيقٌ إِنْ أَتَيْتُمْ إِلَّا مَا يُؤْتَى إِلَيْكُمْ إِنْ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُمْ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس: ١٥].

إنه طلب عجيب لا يصدر عن جد، إنما يصدر عن عبث وهزل، وعن جهل كذلك بوظيفة هذا القرآن العظيم وجدية تنزيله^(١).

فقبَّحهم الله، ما أجراهم على الله، وأشدَّهم ظلماً، وإعراضاً عن سماع كتابه! كيف يتجرَّؤون بهذه المقولة: ﴿أَتَيْتُمْ بَشَرًا مِثْلَ هَذَا أَوْ يَدُلُّهُ قُلٌ مَا يَكُونُ لَهُمْ أَنْ أُتْلَى مِنْ تَلْفَافٍ نَفِيقٌ﴾ أي: ما ينبغي، ولا يليق بي ذلك؛ فلاني رسول محض، ليس لي من الأمر شيء.

فهذا قول خير البرية، وأدبه مع أوامر ربه ووحيه. فكيف بهؤلاء السفهاء الضالين، أفلا يخافون عذاب يوم عظيم؟^(٢).

٨ - بُغْضُ سَمَاعِ الْقُرْآنِ وَكَرَاهِيَةُ قَارِئِهِ:

جارحة العين خلقها الله للرؤية، وقد يصدر عنها بعض الحركات، أو الإشارات التي تنبئ عن حالة صاحبها النفسية، والقرآن الكريم يسجل حركة حادة لجارحة العين، تصدر من المعاندين من أهل الكفر عند سماعهم للقرآن، يقول سبحانه: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَنْ سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُمْ لَمَجْذُومُونَ﴾ [القلم: ٥١].

«الزَّلَقُ: بفتحين - زَلَلُ الرَّجُلِ مِنْ مَلَامَسَةِ الْأَرْضِ مِنْ طِينٍ عَلَيْهَا أَوْ دَهْنٍ»^(٣). فالإزلاق - إذا - حركة في قَدَمِ الْإِنْسَانِ، تجعلها تزلق، وتفقد توازنها وثباتها على الأرض. وقيل في معنى يزلقونك: يصيبونك بأعينهم.

(١) انظر: في ظلال القرآن (٣/١٧٧٠). (٢) انظر: تفسير السعدي (٢/٣٠٨).

(٣) التحرير والتنوير (٢٩/١٠٠).

وقيل: ليس المراد أنهم يصيبونك بأعينهم كما يصيب العائن بعينه ما يعجبه، وإنما أراد أنهم ينظرون إليك إذا قرأت القرآن نظراً شديداً بالحدادة والبغضاء، يكادُ يُسقطك^(١).

«فهذه النظرات تكاد تُؤثر في أقدام الرسول ﷺ فتجعلها تزل وتزلق، وتفقد توازنها على الأرض وثباتها! وهو تعبير فائق عما تحمله هذه النظرات من غيظ وحنق، وشر وحسد، ونقمة وضغن، وحمى وسُم، مصحوبة هذه النظرات المسمومة بالسب القبيح، والشتم البذيء، والافتراء الذميمة: ﴿يَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾»^(٢).

٩ - التهاون والتغافل عن سماع الوحي:

قال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٦].

يُخبر الله تعالى عن المنافقين في بلادتهم وقلة فهمهم حيث كانوا يحضرون عند النبي ﷺ فيسمعون كلامه وتلاوته ظاهراً، وفي حقيقة الأمر لم يُصغوا أسماعهم.

فإذا خرجوا قال بعضهم - لمن شاء من المؤمنين الذين علموا وانتفعوا: ماذا قال محمد ﷺ [آنفاً؟

فمنهم: مَنْ يقول هذا استخفافاً. أي: ما معنى ما قال، وما نفعه، وما قدره؟ ومنهم: مَنْ كان يقول ذلك جهالةً ونسياناً؛ لأنه كان في وقت الكلام مُقبلاً على الدنيا، فكان القول يمرُّ عليه صفحاً^(٣).

وهذا من أعظم مظاهر هجر سماع الوحي؛ لأنهم حضروا بأبدانهم، وغابت قلوبهم وعقولهم، فهم يسمعون الأصوات فقط، دون أن يعوا مضمون القول. فهؤلاء هم المنافقون الذين ختم الله على قلوبهم؛ لعدم توجُّههم نحو الخير أصلاً.

(١) انظر: تفسير البغوي (٤/٤٥٦)، تفسير القرطبي (١٨/٢٤٤).

(٢) في ظلال القرآن (٦/٣٦٧١).

(٣) انظر: المحرر الوحي في تفسير الكتاب العزيز (٥/١١٤).

المطلب الثاني

مظاهر هجر استماع القرآن لدى المسلمين

لا يقتصر هجر استماع القرآن على الكفار أو المنافقين بل يتعداه إلى فئات من المسلمين الذين تشبَّهوا بهؤلاء بإعراضهم - في كثير من الأحيان - عن سماع القرآن العظيم، مع إيمانهم به، ونحن لا نقصد بعرضنا لمظاهر هجر استماع القرآن عند المسلمين - هنا - عقد مقارنة بينهم، وبين الكفار، أو الجمع بين الحدَّ المشترك بينهما في هجر السَّماع، فشَتان بين هجر الكفار، وبين هجر المسلمين للسَّماع، فالمقصود: هو التَّنبية على هذا السلوك الغير لائق من المسلم في التَّعامل مع القرآن، وأنَّه بذلك قد يتشَبَّه بالكافرين، فهل يرضى لنفسه هذا الشَّبه؛ لعلَّه يرتدُّ ويعود إلى رشده!

وهذا الإعراض يأخذ عدَّة مظاهر: فربَّما يكون بالتَّشاغل بالغناء أو قنوات البثِّ الفضائي عن سماع القرآن، وربَّما يكون بالصَّياح والضَّوضاء في مجالس القرآن، أو يكون بالإعراض عن تفهِّم القرآن وتدبُّره حال سماعهم بأمور مباحة أو محرَّمة، وهذا ما سنتناوله بالتَّفصيل والبيان، من خلال النُّقاط الآتية:

١ - التَّشاغل بالغناء عن استماع القرآن:

من أبرز المظاهر التي أدَّت بكثير من المسلمين - إلَّا مَنْ رحم الله - إلى هجر القرآن الكريم: استماع الغناء والموسيقى، ويلحق بذلك عكوف كثير من جمهور المسلمين أمام قنوات البثِّ الفضائي لمشاهدة ما حرَّم الله تعالى عليهم من ألوان الفسق والفجور، ولا أزيدُ في هذا المقام على كلام ابن القيم رحمته الله - الذي أجاد وأفاد بقلمه العذب السَّيَّال - وهو يصف لنا تأثير الغناء على النَّاس، في صدِّهم عن استماع القرآن العظيم، إذ يقول:

«ومن مكايد عدوِّ الله ومصايده، التي كاد بها مَنْ قَلَّ نصيبه من العلم والعقل والدين، وصاد بها قلوب الجاهلين والمبطلين: سماع المُكَّاء، والتَّضديد، والغناء بالآلات المحرَّمة، الذي يصدُّ القلوب عن القرآن، ويجعلها عاكفة على الفسوق والعصيان. فهو قرآن الشَّيْطان، والحجاب الكثيف عن الرَّحمن، وهو

رُفِية اللُّواط والزُّنَا، وبه يَنَالُ العاشق من معشوقه غاية المَنَى. كاد به الشَّيْطَانُ
النُّفُوسَ المَبْطَلَةَ، وَحَسَّنَ لها مَكْرًا مِنْهُ وَغُرُورًا، وَأَوْحَى إِلَيْهَا الشُّبُهَ البَاطِلَةَ عَلَى
حُسْنِهِ فَقَبِلَتْ وَخِيَهُ وَاتَّخَذَتْ لِأَجَلِهِ الْقُرْآنَ مَهْجُورًا.

فلو رَأَيْتَهُمْ عِنْدَ ذِيكَ السَّمَاعِ وَقَدْ خَشَعَتْ مِنْهُمْ الْأَصْوَاتُ، وَهَدَأَتْ مِنْهُمْ
الْحَرَكَاتُ. وَعَكَفَتْ قُلُوبُهُمْ بِكَلِمَتِهَا عَلَيْهِ. وَانصَبَتْ انصَابَةً وَاحِدَةً إِلَيْهِ، فَتَمَايَلُوا لَهُ
وَلَا كَتَمَائِلَ النَّشْوَانِ، وَتَكَسَّرُوا فِي حَرَكَاتِهِمْ وَرَقْصِهِمْ، أَرَأَيْتَ تَكْسُرُ الْمَخَانِثَ
وَالنَّشْوَانَ؟...

فِيَا رَحْمَةً لِلشَّقُوفِ وَالْأَرْضِ مِنْ ذَلِكَ تِلْكَ الْأَقْدَامِ، وَيَا سَوَاتِنَاهُ مِنْ أَشْبَاهِ
الْحَمِيرِ وَالْأَنْعَامِ، وَيَا شِمَاتَةَ أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ بِالَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ خَوَاصُّ الْإِسْلَامِ،
قَضَوْا حَيَاتَهُمْ لَذَّةً وَطَرِبًا، وَاتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا. مَزَامِيرَ الشَّيْطَانِ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ
مِنْ اسْتِمَاعِ سُورِ الْقُرْآنِ، وَلَوْ سَمِعَ أَحَدُهُمُ الْقُرْآنَ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ لَمَا حَرَّكَ لَهُ
سَاكِنًا، وَلَا أَرْعَجَ لَهُ قَاطِنًا، وَلَا أَثَارَ فِيهِ وَجْدًا، وَلَا قَدَحَ فِيهِ مِنْ لَوَاعِجِ الشُّوقِ
إِلَى اللَّهِ زَنْدًا، حَتَّى إِذَا ثَلَّى عَلَيْهِ قُرْآنَ الشَّيْطَانِ، وَوَلَجَ مَزْمُورُهُ سَمْعَهُ، تَفَجَّرَتْ
يَنَابِيعُ الْوَجْدِ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى عَيْنِيهِ فَجَرَّتْ، وَعَلَى أَقْدَامِهِ فَرَقَصَتْ، وَعَلَى يَدَيْهِ
فَصَفَّقَتْ، وَعَلَى سَائِرِ أَعْضَائِهِ، فَاهْتَزَّتْ وَطَرِبَتْ، وَعَلَى أَنْفَاسِهِ فَتَصَاعَدَتْ، وَعَلَى
زَفَرَاتِهِ فَتَزَايَدَتْ، وَعَلَى نِيرَانِ أَشْوَاقِهِ فَاشْتَعَلَتْ.

فِيَا أَيُّهَا الْفَاتِنُ الْمَفْتُونُ، وَالْبَائِعُ حَظَّهُ مِنْ اللَّهِ بِنَصِيئِهِ مِنَ الشَّيْطَانِ صَفْقَةً
خَاسِرَ مَغْبُونٍ، هَلَّا كَانَتْ هَذِهِ الْأَشْجَانُ، عِنْدَ سَمَاعِ الْقُرْآنِ؟^(١).

وَيُضِيفُ ابْنُ الْقَيْمِ رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي مَوْضِعٍ آخَرَ - مَبْيِّنًا الْفَرْقَ بَيْنَ ذَوْقِ الْمُتَقَدِّمِينَ
مِنَ السَّلَفِ الصَّالِحِ، وَالْمُتَمَثِّلِ فِي حُبِّ اسْتِمَاعِ الْقُرْآنِ، وَبَيْنَ ذَوْقِ الْمُتَأَخِّرِينَ،
وَالْمُتَمَثِّلِ فِي حُبِّ سَمَاعِ مَزْمَارِ الشَّيْطَانِ، قَائِلًا:

«وَالسَّلَفُ الصَّالِحُ كَانُوا يَجِدُونَ الْأَذْوَاقَ الصَّحِيحَةَ الْمُتَّصِلَةَ بِاللَّهِ فِي الْأَعْمَالِ
الصَّحِيحَةِ الْمَشْرُوعَةِ، وَفِي قِرَاءَةِ كِتَابِ اللَّهِ وَتَدْبِيرِهِ وَاسْتِمَاعِهِ، وَفِي مُزَاحِمَةِ الْعُلَمَاءِ
بِالرُّكْبِ، وَفِي الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَفِي الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ،

وفي الحب في الله، والبغض فيه، وتوابع ذلك. فصار ذوق المتأخرين إلا من رحم الله في السماع^(١) والدَّفِّ والمَوَاصِيل والأغاني المطربة، وفي الصُّور المستَحْسَنَة والرَّقص والزَّغَفَات، وتعطيل ما يُحِبُّه الله ويرضاه من عباديته المخالفة لهوى النفوس.

فشتان بين ذوق الألحان وذوق القرآن، وبين ذوق العود والطنبور، وذوق «المؤمنين» و«النور»، وبين ذوق الزَّمَرِ وذوق «الزُّمَرِ»، وبين ذوق النّاي وذوق «اقتربت الساعةُ وانتشَقَ القَمَرُ»، وبين ذوق المواصيل والشَّبابات وذوق «يس» و«الصَّافَاتِ»، وبين ذوق غناء الشُّعر، وذوق سورة «الشُّعراء»، وبين ذوق سماع المكاء والتَّصَدِيَة، وذوق «الأنبياء»، وبين الذُّوق على سماع تُذَكِّرُ فيه العُيُونُ السُّود والخُصُور والقُدُود، وذوق سماع سورة «يونس» و«هود»، وبين ذوق الواقفين في طاعة الشَّيْطَان على أقدامهم صَوَافً؛ وذوق الواقفين في خدمة الرَّحْمَنِ في سورة «الأنعام» و«الأعراف»، وبين ذوق الواصلين على طرب المثلث والمثاني، وذوق العارفين عند استماع «القرآن العظيم» و«السَّبع المثاني»، وبين ذوق أولي الأقدام الصَّافَاتِ في حظيرة سماع الشَّيْطَان، وذوق أصحاب الأقدام الصَّافَاتِ بين يدي الرَّحْمَنِ^(٢).

رحم الله ابن القيم رحمةً واسعة، كيف لو رأى تطوُّر هذه المعازف القديمة إلى آلات حديثة، كالكمنجة، والقانون، والأورج، والبيانو، والغيتار، وغيرها، بل إنها في الطَّرب والنَّشوة والتَّأثير أشدُّ أثراً من المعازف القديمة التي ورد تحريمها في بعض الأحاديث.

وتتفاقم المصيبة ويعظم الجرم إذا عُرض الغناء اليوم بصورة فجّة وفاضحة ومزرية في ما يُسمَّى بـ «الفيديو كليب»، فكيف لقلوب ترى وتسمع هذه الفضائح والمنكرات، أن تُقبل - بعد ذلك - على استماع القرآن العظيم؟!

(١) اليَزَاعُ: القَصْبَة التي يُصفر بها الرَّاعي. انظر: لسان العرب (٤٤٣/١٥)، مادة: (يرع).

(٢) كشف الغطاء عن حُكم سماع الغناء، لابن القيم (ص ١٠٧ - ١٠٨)، تحقيق: ربيع بن أحمد خلف.

٢ - سماع الطَّرب:

من مظاهر هجر استماع القرآن طَرَبُ السَّماع إلى صوت القارئ والانفعال بجماله وعذوبته والاشتغال به عن تدبُّر آياته والانتفاع به، فلا يَتَعَطَّون في مواضع العِظَة ولا ينتهون في مواضع النَّهي، بل الأشدُّ من ذلك تراهم ينفعلون برفع الأصوات بعباراتٍ من مثل: «الله»، «الله يفتح عليك»، «يا سلام»، «الله الله»، «زدنا يا سيدنا الشيخ زدنا» والشيخ يقرأ قوله تعالى: ﴿فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ [الحاقة: ٣٢]، فماذا يريد من الزيادة؟! وهذا السَّماع بدعة محدثة، وصارفة عن فهم وتدبُّر القرآن العظيم والانتفاع بمواعظه.

جاء في (الفتاوى الهندية):

«رفع الصَّوت عند سماع القرآن والوعظ مكروه، وما يفعله الذين يدَّعون الوجود^(١) والمحبة لا أصل له، ويُمْنَع الصُّوفية من رفع الصَّوت وتخريق الثياب^(٢)».

فأين نحن من سلفنا الصَّالح؟ وهم القدوة، وقد اتَّخذنا القرآن أغاني، فالقارئ يتفنَّن في التَّنْغيم والتَّلحين، ويخرج به عن سنن التَّرتيل وقواعد التَّجويد، ويعيد الآية عند استحسان السَّامعين للتَّغمة وطلبهم الإعادة، والسَّامع يستخفُّه الطَّرب، لا من معاني القرآن، بل من حسن التَّوقيع، وأفانين الألحان، ولو أنَّ أعجمياً - لا يعرف القرآن - سمع هؤلاء لحسب أنَّهم يردِّدون ألحان المطربين لا كلام ربِّ العالمين.

وهذا النَّوع من المستمعين عن آيات الله معرضون، لا يفقهون شيئاً ممَّا يسمعون، ولا يُحدث سماع القرآن في قلوبهم من الأثر إلَّا ما تُحدثه أغنية أو لحن. بل ربَّما تأثروا بكلمات بعض الأغاني أكثر من تأثرهم بسماع القرآن.

فكيف يرجون ثواباً، ويقصدون التَّعبُّد بالقراءة والسَّماع، والأمر على ما وصفنا - حال سماعهم: من حركات طائشة، وكلمات مبتدعة، وصياح

(١) المقصود بالوجود: المحبة والهوى. انظر: لسان العرب (٢١٨/١٥)، مادة: (وجد).

(٢) الفتاوى الهندية (٣١٩/٥).

وَصَوْضَاءَ، واستحساناً لِلنَّعْمَاتِ، وإغراءً بِالْمَزِيدِ مِنْهَا، وطلباً لِلإِعَادَةِ لِلآيَةِ لِحَسَنِ التَّوْقِيعِ، وانتهاكاً لِحَرَمَةِ الْمَسَاجِدِ، وتجاوزاً فِي الْقِرَاءَةِ لِلْحُدُودِ الْمَرْيُوءَةِ عَنْ أَثْمَةِ الْقُرْآنِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى.

فأين خَشْيَةُ اللَّهِ، والخوف منه عند سَمَاعِ آيَاتِ الْعَذَابِ الَّتِي تَنْخَلَعُ مِنْ هَوْلِهَا الْقُلُوبُ؟ وأين الْإِنْصَاتُ وَالْخُشُوعُ وَالتَّفَكُّرُ؟ وأين التَّوْبَةُ وَالِاسْتِغْفَارُ مِنَ الذُّنُوبِ عند استماع كَلَامِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؟^(١)

٣ - التَّشَاغُلُ عَنْ اسْتِمَاعِ الْقُرْآنِ :

وهو حال كثير من المسلمين - إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ - حيث يستمعون إلى القرآن العظيم وقلوبهم مغلقة وأذانهم صمًا، فلا يفقهون شيئاً ممَّا يسمعون، ولا يُعَيِّرُونَهُ اهْتِمَامًا؛ لِأَنَّ الْمُعْرِضَ لَا يَسْمَعُ حَقِيقَةً، وَإِذَا سَمِعَ لَا يَعِي، أَجْسَامُهُمْ حَاضِرَةٌ، وَعُقُولُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ غَائِبَةٌ، يَسْمَعُونَ الْأَصْوَاتَ دُونَ أَنْ يَفْهَمُوا مَضْمُونِ الْقَوْلِ؛ لِأَنَّ قُلُوبَهُمْ قَدْ حُجِبَتْ عَنْ اسْتِمَاعِ الْقُرْآنِ بِأَنْوَاعٍ مِنَ الْمَعَاصِي وَالْآثَامِ؛ مِنْ هَوًى، أَوْ لَهْوٍ مُحَرَّمٍ، أَوْ انشغالٍ بِالدُّنْيَا عَلَى حَسَابِ الْآخِرَةِ، وَلَهُمْ نَصِيبٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا تُلِيَ عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا وَلَمْ يُسْتَكْبَرِكُمْ أَكَّانَ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَسَّرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: ٧].

وتراهم يتحدَّثون ويضحكون، وربما تَلَفَّظُوا بِبِذْيِ الْكَلَامِ وَالْقُرْآنِ يَتْلَى عَلَى مَسَامِعِهِمْ، أَوْ لَعِبُوا النَّرْدَ أَوْ الْوَرَقَ وَالْقُرْآنَ يَتْلَى، أَوْ سَبَّ أَحَدُهُمْ وَفَجَّرَ وَشَتَمَ وَالْقُرْآنَ يُتْلَى عَلَى مَسَامِعِهِ، وَرَبَّمَا كَانُوا عَلَى حَالٍ تُعَاكِسُ حَالِ الْآيَةِ الَّتِي تَتْلَى عَلَيْهِمْ؛ فَتَرَى أَحَدَهُمْ يُلَاحِقُ امْرَأَةً بِنِظَرَاتِهِ وَالْقَارِئُ يَتْلُو: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [النور: ٣٠]. أَوْ يَسُبُّ وَيَشْتُمُ وَالْقَارِئُ يَتْلُو: ﴿خُذِ الْعَقَا وَامْرَأَتَهُ بِالْعَرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]. أَوْ يَسِيءُ لَجَارِهِ وَيُؤْذِيهِ وَالْقَارِئُ يَتْلُو: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنُبِ﴾ [النساء: ٣٦]^(٢).

(١) انظر: القرآن: آداب تلاوته وسماعه، لحسين محمد مخلوف (ص ٢٤ - ٢٦)؛ فقه قراءة القرآن الكريم (ص ٤٩).

(٢) انظر: أنوار القرآن (ص ١٥٦).

وقد حذر الله تعالى المؤمنين من الإعراض عن استماع القرآن؛ لئلا يكون حالهم - في هذا الإعراض - كحال الكفار الذين أعرضوا عن سماع كلام الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ (١٧) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢٠ - ٢١].

إنَّ سماع القرآن ليس بالتمني والتحلي، والادّعاء بمجرد السّماع، لكنّه ما قر في القلوب وصدّفته الأعمال. فهؤلاء الكفار ادّعوا السّماع، وهو ممّا حذر الله منه المؤمنين في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ فدعواهم فارغة لا حقيقة لها؛ لأنّهم سمعوا بأذانهم فقط دون قلوبهم، فأخبر الله تعالى أنّهم لا يسمعون سماع تدبّر واتّعاظ، ولذلك أنزلهم منزلة من لم يسمع أصلاً، بجعل سماعهم بمنزلة العدم. فنهى الله تعالى المؤمنين أن يكون حالهم كحال هؤلاء في الإعراض عن استماع مواعظ القرآن وحُججه^(١).

وهو ما أكّد عليه القرطبي رحمه الله بقوله: «فدلّت الآية على أنّ قول المؤمن: سمعتُ وأطعتُ، لا فائدة فيه ما لم يظهر أثر ذلك عليه بامتثال فعله. فإذا قَصُر في الأوامر فلم يأتها، واعتمد التّواهي فافتحمها، فأبى سَمْع عنده وأبى طاعة! وإنّما يكون حينئذ بمنزلة المنافق الذي يُظهر الإيمان، ويُسِرُّ الكفر؛ وذلك هو المراد بقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ يعني بذلك المنافقين، أو اليهود، أو المشركين»^(٢).



المبحث الثالث

آداب استماع القرآن

آداب استماع القرآن

أمرُ الله النَّبِيِّينَ والمؤمنين بالاستماع:

ذكر الله تبارك وتعالى حال المؤمنين عند استماع آيات القرآن المجيد، بأنَّهم يَلْقُونَ إليها الأسماع في إصغاء وخشوع، وأدب وخضوع، وصمت وادِّكار، وتفكُّر واعتبار، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

وقبل ذلك أمر الله تعالى النَّبِيِّينَ بالاستماع للوحي عند تلاوته، ونهاهم عن الانشغال عن الاستماع لما يوحى بأيِّ شيء، ولو بتلاوة الوحي نفسه، قال تعالى لموسى ﷺ: ﴿وَأَنَا أَخَذْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾ [طه: ١٣]. وكان النبي ﷺ إذا قرأ عليه جبريل ﷺ القرآن تعجَّل بالقراءة خلفه خشية النسيان، فقال الله له: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۚ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۚ فَإِذَا قَرَأَهُ فَالْبَعْثُ فُورَانَهُ ۚ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: ١٦ - ١٩]. وقال للمؤمنين: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]. فقد جعل الله تعالى الاستماع والإنصات للتلاوة مناط الرَّحمة؛ لِيَعْلَم أَنَّ اللُّغُو عند قراءته والتَّصَدِيق والمكاء، والجَلْبَة والضَّوضاء من موانع الرَّحمة، وهو يتنافى مع آداب الاستماع الذي يُحِبُّه الله تعالى ويرضى عنه، من سكون الجوارح، وغيض البصر، والإصغاء بالسَّمْع، وحضور القلب، والعزم على العمل^(١).

والاستماع الصَّحيح قد جعله سفيان الثوري^(٢) رَحِمَهُ اللهُ بداية العلم المؤدِّي إلى

(١) انظر: فتح الرحمن في بيان هجر القرآن (ص ٩٩ - ١٠١).

(٢) هو سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري، نسبة إلى (ثور) أحد أجداده، ولد سنة (٩٧هـ)، وكان إماماً من أئمة المسلمين في العلم والفقه والحديث، ثقة، حجة، ثبتاً، حتى قال عنه =

العمل، فقال: «أَوَّلُ الْعِلْمِ الْإِسْتِمَاعُ، ثُمَّ الْإِنْصَاتُ، ثُمَّ الْحِفْظُ، ثُمَّ الْعَمَلُ، ثُمَّ النَّشْرُ»^(١).

والقارئ والسَّامع شريكان في فضل التَّلاوة وآدابها، إِلَّا أَنَّ الْقَارِئَ لَانْشِغَالَهُ بِنُطْقِ الْآيَاتِ وَمَخَارِجِ الْحُرُوفِ، وَحِرْصِهِ عَلَى النُّطْقِ الصَّحِيحِ، وَخَوْفِهِ الْخَطَأَ، وَخَاصَّةً إِذَا كَانَتْ قِرَاءَتُهُ فِي جَمْعٍ مِنَ النَّاسِ، فَلَهُ آدَابُهُ...

فَالْقَارِئُ آلَتُهُ اللَّسَانُ، وَاللِّسَانُ يُعَبِّرُ عَمَّا فِي الْقَلْبِ وَالْعَقْلِ، وَمَعْنَى هَذَا أَنَّ قَلْبَهُ يَسْبِقُ لِسَانَهُ، وَأَمَّا الْمُسْتَمِعُ فَآلَتُهُ الْأُذُنُ الَّتِي تَصُبُّ فِي الْقَلْبِ وَالْعَقْلِ، فَأُذُنُهُ تَسْبِقُ قَلْبَهُ، فَلِهَذَا الْإِعْتِبَارُ لَهُ آدَابُهُ الْخَاصَّةُ بِهِ.

وبشكل عامٍّ فَإِنَّ آدَابَ الْإِسْتِمَاعِ هِيَ آدَابُ التَّلاوةِ مَعَ بَعْضِ الْفُرُوقِ بَيْنَهُمَا بِسَبَبِ ظُرُوفِ السَّمْعِ، وَاخْتِلَافِهَا عَنْ ظُرُوفِ التَّلاوةِ أحياناً.

وقد حصر أبو حامد الغزالي رحمته الله: الآداب الباطنة لقارئ القرآن، في عشرة آداب^(٢)، وأسهب في سردها، فقمتُ باختصارها وتغيير سياقها إلى آداب الاستماع - باعتبار اشتراك السَّامع والقارئ في القرآن، هذا بسماعه، وهذا بقراءته - وأضفتُ إلى ذلك شيئاً من كلام العلامة ابن القيم، وبعض أهل العلم، وخرجتُ هذه الآداب في حُلَّةٍ جديدةٍ تتناسب وحال السَّمْعِ، وهي على التَّحْوِ التَّالِي^(٣):

= ابن معين وغيره: «أمير المؤمنين في الحديث»، توفي بالبصرة سنة (١٦١هـ).
انظر: الطُّبَقَاتُ الْكُبْرَى (٦/٣٧١ - ٣٧٤)؛ البداية والنهاية (١٠/١٣٤).
(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري (١/٢٨٧). وانظر: سنن الدَّارِمِيِّ (١٠٧١) (رقم ٣٣٠) بلفظ آخر.

(٢) هي:

- | | | |
|---------------------|-------------------|--|
| ١ - فهم أصل الكلام. | ٢ - التَّعْظِيمُ. | ٣ - حضور القلب. |
| ٤ - التَّدْبِيرُ. | ٥ - التَّنْهَمُ. | ٦ - التَّخَلِّيُ عَنْ مَوَانِعِ الْفَهْمِ. |
| ٧ - التَّخْصِيسُ. | ٨ - التَّأَثُّرُ. | ٩ - التَّرْقِيُّ. |
| ١٠ - التَّبَرِّيُّ. | | |

انظر: إحياء علوم الدِّين (١/٢٨٠ - ٢٨٨).

(٣) انظر: كيف نتأدَّب مع المصحف، لمحمد رجب فرجاني (ص ٢١٧ - ٢٢٨)؛ كيف نتعامل مع القرآن العظيم، د. يوسف القرضاوي (ص ١٩٨ - ٢٠٨)؛ حقُّ التَّلاوة، حسني شيخ عثمان (ص ٣٩٩ - ٤٠٠).

١ - تعظيم المتكلم:

ينبغي لسامع القرآن أن يحضر في قلبه عظمة المتكلم، فهو ربُّ الأرباب، مالك كلِّ شيء، قيُّوم السَّمَاوَات والأَرْض، ويستحضر صفات الكمال والجمال والجلال في قلبه، وهو يستمع إلى كلام ربِّ العزَّة، ويعلم أن ما يُتلى ليس من كلام البشر، وكما أن ظاهر غلاف المصحف وورقه محفوظ عن ظاهر بشرة اللّمس إلّا إذا كان متطهراً، فكذلك معاني القرآن - بحكم عزّه وجلاله - محجوبة عن قلب الإنسان إلّا إذا كان متطهراً من كلِّ رجس، ومستنيراً بنور التّعظيم والتّوقير.

وكما لا يصلحُ لِلْمَسِّ غلاف المصحف كلُّ يَدٍ، فلا يصلح لتلاوة حروفه كلُّ لسانٍ، ولا لنيل معانيه كلُّ قلب، ولا لسماع آياته كلُّ أذن.

٢ - استشعار عظمة الكلام وعلوّه:

بمعنى أن يستشعر عظمة القرآن، وأن هذه العظمة هي من عظمة المتكلم به سبحانه، لذا فهو ليس كلام البشر، ولا يقاربه كلام أحد من البشر بوجه من الوجوه، وأنّه يعلو ولا يُعلَى عليه، وأنّه محكم النّظم، دقيق المعنى، لا تعارض فيه، ولا اختلاف، والسَّعِيدُ مَنْ وَفَّقَ إلى فهم واستشعار معانيه، وعلى مستمعه أن يتأمّل في فضل الله تعالى ولطفه بخلقه، حيث خاطبهم بهذا الكلام العظيم الشّريف، وتكفّل - تفضلاً منه ورحمةً - بتفسير إفهامهم إيّاه. ولولا ذلك لعجزت أفهام العباد عن إدراك كلام الله الذي تجلّى في شكل كلماتٍ وحروفٍ منظّومة ومسموعة أو مكتوبة.

ولولا تثبيت الله عزَّ وجلَّ لموسى عليه السلام لما أطاق سماع كلامه، كما لم يُطَقَّ الجبل تجلّي ذي العرش فصار دكّاً، وغيره من البشر - سوى الأنبياء - من باب أولى.

٣ - حضور القلب عند السّماع:

ومعنى حضور القلب: هو أن يكون القلب متأهباً في شوقٍ إلى تلقّي ما تسمعه الأذن لا ينصرف عنه، فقد تكون الأذن سامعةً والقلب مشغولاً بهمومٍ أو

خواطر، ولذلك ينبغي على مستمع القرآن الكريم أن يطرد حديث النفس أثناء استماعه، ويتولّد هذا من التعظيم، فإنّ المعظم لكلام الله يستبشر به، ويأنس له، ولا يغفل عنه.

٤ - تدبّر المسموع:

وهو وراء حضور القلب مباشرة، فإنّه ربّما لا يتفكّر في غير القرآن، ولكنّه يقتصر على سماعه دون تدبّر، والمقصود الأعظم من القراءة والسماع هو التدبّر، والله تعالى ما أمر القارئ بالتّرتيل ظاهراً بقوله: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ [المزل: ٤]. إلّا ليحصل التدبّر له، وللمستمع في الباطن، إذ لا خير في عبادة لا فقه فيها، ولا قراءة لا تدبّر فيها.

أحوال النَّاس في انتفاعهم بالقرآن:

ذكر ابن القيم رحمته الله حال النَّاس عند سماعهم للقرآن العظيم وانتفاعهم به، مشرشداً ومهتدياً بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]. قائلاً: «النَّاس ثلاثة:

الأول: رجل قلبه ميّت، فذلك الذي لا قلب له، فهذا ليست الآية ذكرى في حقه.

الثاني: رجل له قلب حيّ مستعدّ، لكنّه غير مستمع للآيات المتلوّة... وقلبه مشغول عنها بغيرها، فهو غائب القلب ليس حاضراً، فهذا أيضاً لا تحصل له الذكرى، مع استعداده ووجود قلبه.

والثالث: رجل حيّ القلب مُستعدّ، ثلّبت عليه الآيات، فأصغى بسمعه، وألقى السَّمْع وأحضر قلبه، ولم يشغله بغير فهم ما يسمعه، فهو شاهد القلب، مُلقّي السَّمْع، فهذا القسم هو الذي يتفّع بالآيات المتلوّة.

فالأول: بمنزلة الأعمى الذي لا يبصر.

والثاني: بمنزلة البصير الطّامح ببصره إلى غير جهة المنظور إليه، فكلاهما

لا يراه.

والثالث: بمنزلة البصير الذي قد حدّق إلى جهة المنظور، وأتبعه بصره،

وقابله على توسط من البُعد والقُرب، فهذا هو الذي يراه»^(١).

٥ - تفهّم الآيات المسموعة:

فيتأمل معاني أسماء الله تعالى وصفاته وأفعاله؛ ليستدلّ بعظمة الفعل على عظمة الفاعل، ويتأسى بأحوال الأنبياء والصّديقين والأولياء والصّالحين والمُتّقين، ويعتبر بأحوال الكافرين والمكذّبين والظّالمين والمنافقين والمتكبرين.

وبالجملة فإنّ القرآن يشتمل على ما تحتاج إليه البشريّة في الدُّنيا، وما ينتظرها في الآخرة، ففيه العقيدة، والتّشريع، والسُّلوك، فعلى المستمع - عندما يستمع شيئاً ممّا ذُكر - أن يتمثله في قلبه، ويتخيّله في نفسه، ويتصوّره في عقله، حتى يتأثّر به في كلّ حال.

«فإذا حصل المؤثّر، وهو القرآن؛ والمحلّ القابل، وهو القلب الحيّ؛ ووجد الشّرط، وهو الإصغاء؛ وانتفى المانع، وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب وانصرافه عنه إلى شيء آخر - حصل الأثر، وهو الانتفاع والتّدكّر»^(٢).

٦ - التّخلّي عن موانع الفهم:

إنّ أكثر النّاس مُنعوا من فهم معاني القرآن المجيد لأسباب وحُجُب أسدّ لها الشّيطان على قلوبهم فعميت عليهم عجائب أسرار القرآن.

موانع فهم القرآن:

هناك موانع وحُجُب كثيرة تحول دون فهم السّامع لكلام الله تعالى، وقد تحدّث الغزاليّ عن أهمّها، وحصرها في أربعة أمور^(٣)، وهي على التّحو التّالي:

أولاً: أن تكون الهمة منصرفةً إلى تحقيق الحروف، وهو أن يستمع السّامع وهمته منصرفة إلى تتبّع القارئ، كيف يُخرج الحروف من مخارجها، يتربّص به وينتظر منه الخطأ ليشنّع عليه، وذلك دون الالتفات إلى معاني الكلمات، وهذه

(٢) الفوائد (ص ١٦).

(١) مدارج السالكين (١/ ٤٧٥).

(٣) انظر: إحياء علوم الدّين (١/ ٢٨٤).

وسوسة من الشيطان الرجيم؛ ليصرف الناس عن تفهم معاني الآيات والكلمات.
ثانياً: أن يكون مقلداً لمذهب سمعه بالتقليد، وجمد عليه، وثبت في نفسه
التعصب له بمجرد الاتباع للمسموع، من غير وصول إليه ببصيرة ومشاهدة.
كحال الفرق التي ضلت في جانب العقيدة، وأولت الأسماء والصفات إماً
بالتمثيل، أو التعطيل، أو غير ذلك.

ثالثاً: أن يكون مُصرّاً على ذنب، أو متصفاً بكبر، أو مبتلى - في الجملة -
بهوى في الدنيا مطاع، فإن ذلك سبب ظلمة القلب وصدئه، وهو كالصدأ على
المرآة يمنع انعكاس المرئيات عليها، وذلك يمنع الحق من أن يتجلى في القلب،
وهو أعظم وأخطر حجاب.
رابعاً: أن يمتدح حصر معاني آيات القرآن العظيم فيما تلقته من تفسير.

٧ - أن يُقدّر - في نفسه - أنه المقصود بكل آية سمعها:

فإن سمع أمراً أو نهياً فليستشعر أنه المقصود بذلك الأمر أو النهي، وإن
سمع وعداً أو وعيداً قدر كذلك أنه الموعود أو المتوعد، وإن سمع قصص
الأولين قدر أنه المقصود بسياق العبر والعظات وحسن الأخلاق التي بها، فيقوم
نفسه على هداها.

وقد أكد ابن القيم رحمته الله على هذا المعنى بقوله: «إذا أردت الانتفاع
بالقرآن: فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألق سمعك، واحضر حضور من
يخاطبه به من تكلم به سبحانه منه إليه، فإنه خطاب منه لك على لسان
رسوله ﷺ»^(١).

٨ - التأثر بالآيات المسموعة:

وهو أن يتأثر قلبه بآثار مختلفة باختلاف الآيات، فيكون له - بحسب كل
فهم - حالة من الحزن والخوف والأمل والرجاء والاستبشار.
فعلى سبيل المثال: يرتعد خوفاً عند الوعيد وذكر النار، ويستبشر فرحاً عند

(١) المصدر السابق (ص ١٥).

الوَعْد وذكر الجنة، ويُطأطئ رأسه خضوعاً عند ذكر الله تعالى وأسمائه الحسنى وصفاته العلى، ويخفُضُ صوته وينكسر في باطنه حياةً من قبح مقالة الكفار ما يستحيل على الله عزَّ وجلَّ، كذكرهم لله تعالى ولداً وصاحبةً، وغير ذلك من الأمور الدالة على عدم تعظيمهم لله تعالى، وقلة أدبهم في دعاويهم.

٩ - الترقى في استماع القرآن:

والمقصود بذلك: أن يترقى إلى أن يسمع الكلام من الله تبارك وتعالى، لا من نفسه إن كان قارئاً، ولا من غيره إن كان سامعاً.

درجات القراءة والسماع ثلاث:

أدناها: أن يقدّر العبد كأنه يسمعه من الله تعالى، واقفاً بين يديه؛ والله ناظر إليه ويسمع منه، فيكون حاله حينئذٍ هو: التَّمَلُّق والتَّضَرُّع والابتهاال.

الثانية: أن يشهد بقلبه كأنَّ الله عزَّ وجلَّ يراه ويخاطبه بالطفافه، ويناجيه بإنعامه، فحاله هنا: الحياء والتَّعْظِيم، والإصغاء والفهم.

الثالثة: أن يرى في الكلام المتكلِّم، وفي الكلمات الصِّفَات، فلا ينظر إلى نفسه ولا إلى سماعه، ولا إلى تعلُّق الإنعام به، من حيث إنه مُنْعَم عليه، بل يكون مقصورَ الهمِّ على المتكلِّم، موقوفَ الفكر عليه، كأنَّه مستغرق بمشاهدة المتكلِّم عن غيره. وهذه درجة المقرِّبين، وما قبلها درجة أصحاب اليمين، وما خرج عن ذلك فهي درجات الغافلين.

وعن الدرَّجة العليا أخبر جعفر بن محمد الصادق^(١) رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فقال: «والله لقد تجلَّى اللهُ عزَّ وجلَّ لخلقه في كلامه، ولكنَّهم لا يُبصرون»^(٢).

ففي مثل هذه الدرَّجة تعظم الحلاوة ولذَّة المناجاة. ولذلك قال بعض

(١) هو أبو عبد الله جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أجمعين، الشَّهير بجعفر الصادق؛ لصدقه في مقالته. ولد سنة (٨٠هـ)، فضَّله أشهر من أن يُذكر، وهو من الأئمة الثُّغاب الفقهاء المشاهير، أخرج له البخاري ومسلم وسائر أصحاب السنن، توفي سنة (١٤٨هـ) ودفن بالقيع.

انظر: تقريب التهذيب (١/١٣٢)؛ وفيّات الأعيان (١/٣٢٧).

(٢) إحياء علوم الدِّين (١/٢٨٧). وانظر: فيض القدير (٦/٢٨٥).

الحكماء: «كنتُ أقرأ القرآن، فلا أجد له حلاوة، حتَّى تلوته كأني أسمعه من رسول الله ﷺ يتلوه على أصحابه، ثمَّ رُفعت إلى مقام فوقه، كنت أتلوه كأني أسمعه من جبريل عليه السلام يُلقيه على رسول الله ﷺ، ثمَّ جاء الله بمنزلة أخرى، فأنا الآن أسمعه من المتكلِّم به، فعندها وجدتُ له لذَّةً ونعيمًا لا أصبر عنه»^(١).

١٠ - التَّبَرُّؤُ مِنَ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ حَالِ السَّمَاعِ:

إذ لا حول ولا قوَّة إلا بالله العليِّ العظيم، فيتحاشى النَّظَرُ إلى نفسه بعين الرِّضَا والتَّزْكِيَةِ، فإذا سمع آيات الوعد والمدح للصَّالحين، فلا يشهد لنفسه بالصَّلاح، بل يتشوّق إلى أن يُلحِقَهُ الله عزَّ وجلَّ بهم، وإذا سمع آيات المقت وذمَّ العصاة والمقصَّرين شهد على نفسه، وقدَّر أنَّه المخاطب خوفًا وإشفاقًا. قيل ليوסף بن أسباط^(٢) رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «إذا قرأت القرآن بماذا تدعو؟ فقال: بماذا أدعو!! استغفر الله عزَّ وجلَّ من تقصيري سبعين مرَّة»^(٣).



(١) المصدر نفسه (٢٨٨/١).

(٢) هو يوسف بن أسباط بن واصل الشَّيباني الكوفي (أبو محمد)، الزَّاهد الصَّالح، له مواعظ وحِكَم، نَزَل قريَّة يُقال لها: سيلحين، بين أنطاكية وحلب، قال يحيى بن معين: ثقة. وقال العجلي: صاحب سُنَّة وخبر. وقال الخطيب البغدادي: كان صالحاً عابداً إلا أنَّه يغلط في الحديث كثيراً. وقال البخاري: كان قد دَفَن كُتبه فصار لا يجيء بحديثه كما ينبغي. كان من عبَاد أهل الشَّام وقرَّائهم، توفِّي سنة (١٩٥هـ).

انظر: تهذيب التَّهذيب (٣٥٨/١١)؛ الوافي بالوفيات، للصفدي (٤٥/٢٩).

(٣) إحياء علوم الدِّين (٢٨٨/١).

المبحث الرابع

فضائل استماع القرآن

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: استماع القرآن سبب لرحمة الله.

المطلب الثاني: استماع القرآن سبب لهداية الثقلين.

المطلب الثالث: استماع القرآن سبب لخشوع القلب وبكاء المين.

فضائل استماع القرآن

القرآن مُتَعَبَّدٌ بِسَمَاعِهِ:

إذا كان القرآن العظيم يُتَعَبَّدُ بتلاوته؛ لأنه كتابٌ مبارك، فإنَّ من بركته أنه مصدر للخير العَظيم، فهو أيضاً يُتَعَبَّدُ بِسَمَاعِهِ.

وكان رسول الله ﷺ يُحِبُّ أَنْ يَسْمَعَ القرآنَ من غيره، وأمر عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن يقرأ عليه القرآن وهو يستمع له، فخشع لسماع القرآن منه، حتى ذرفت عيناه الشريفتان ﷺ كما سيأتي معنا لاحقاً.

وطلَّبُ استماع القراءة من القارئ حَسَنَ الصَّوْتِ الذي يجيد التلاوة أمرٌ متَّفَقٌ على استحبابه، وهو عادة الأخيار، والصالحين من سلف هذه الأمة، فللتلاوة المُتَقَنَّة أكبر الأثر في فهم معاني القرآن، وزيادة الإيمان قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢].

«وجه ذلك: أنهم يُلْقُونَ له السَّمْعَ، ويُحْضِرُونَ قُلُوبَهُمْ لتدبره فعند ذلك، يزيد إيمانهم»^(١). فهؤلاء المؤمنون عند استماعهم لآيات القرآن العظيم يُلْقُونَ إليها الأسماع في إصغاء وخشوع، وأدب وخضوع، وتفكير واعتبار.

وأما الكافر بخلاف المؤمن، فإنه إذا سمع كلام الله تعالى لا يتأثر به، ولا يتغيَّر حاله، بل يبقى مستمراً على كفره وطغيانه وجهله وضلاله إلا مَنْ أراد له الله تعالى السَّعادة في الدنيا والآخرة واستجاب للقرآن وقليل ما هم، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [الأنفال: ١٢٤].

(١) تفسير السعدي (١٨٨/٢).

وَجَسَدُهُ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ» [التوبة: ١٢٤ - ١٢٥]^(١). ولا بد من التَّقْيُّد بهدي رسول الله ﷺ عند الاستماع من الإنصات، والاستجابة له ثم التدبُّر الذي يزيل الغشاوة، ويحرك القلوب للعمل. وفضائل استماع القرآن العظيم كثيرة ومتنوعة، سيكون الحديث عن أهمها من خلال المطالب الآتية:

المطلب الأول

استماع القرآن سبب لرحمة الله

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

لقد أمر الله سبحانه عباده بالاستماع للقرآن والإنصات له لينتفعوا به ويتدبروا ما فيه من الحكم والمصالح وليتوصلوا بذلك إلى رحمة الله تعالى.

«قال اللّيث: يقال: ما الرّحمة إلى أحد بأسرع منها إلى مستمع القرآن؛ لقول الله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾. و«لعلّ» - من الله - واجبة»^(٢).

أي: لعلكم تنالون الرّحمة وتفوزون بها بامثال أمر الله تعالى.

«والفرق بين الاستماع والإنصات: أن الإنصات في الظاهر، بترك التّحدث أو الاشتغال بما يشغل عن استماعه. وأما الاستماع له، فهو أن يُلقَى سمعه، ويُحضر قلبه، ويتدبر ما يسمع.

فإن من لازم على هذين الأمرين، حين يُتلى كتاب الله، فإنه ينال خيراً كثيراً، وعِلماً غزيراً، وإيماناً مستمراً متجدّداً، وهدي متزايداً، وبصيرة في دينه. ولهذا رتب الله حصول الرّحمة عليهما.

فدلّ ذلك، على أن من ثلّي عليه الكتاب، فلم يسمع له ولم ينصت، أنه محروم الحظ من الرّحمة، قد فاته خير كثير»^(٣).

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١٤٣/٦) (٢) تفسير القرطبي (٢٣/١).

(٣) تفسير السعدي (١٨٥/٢).

وليس هناك سبب نزول يُخَصِّصُ الآية بالصلاة المكتوبة وغير المكتوبة، ذلك أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. والأقرب أن يكون ذلك عاماً لا يُخَصِّصُه شيء، فالاستماع إلى هذا القرآن والإنصات له هو الأليق بكتاب الله العظيم، وبجلال قائله سبحانه.

وحيثما قُرئ القرآن، واستمعت له النفس وأنصت، كان ذلك أرجى لأن تعي وتتأثر وتستجيب؛ فكان ذلك أرجى أن تُرَحِّمَ في الدنيا والآخرة جميعاً^(١).

وقد أخبر النبي ﷺ أن الاجتماع للقرآن وتدارسه واستماعه له فوائد عظيمة وجليلة، منها حصولهم على رحمة الله تعالى، في قوله ﷺ: «وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ، وَيَتَدَارِسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَعَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ»^(٢).

المطلب الثاني

استماع القرآن سبب لهداية الثقلين

لقد بينَ الله تعالى أن القرآن العظيم مصدر الهداية في الدنيا والآخرة، ومن تمسك به تلاوةً واستماعاً وتدبراً وعملاً فلن يضل ولن يشقى، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هُمْ أَقْرَبُ وَيُخْرِجُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَمْعَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩].

واستماع القرآن خاصة من الأعمال الصالحة الجليلة التي بشر القرآن أصحابها بالهداية، ووصفهم بأنهم أصحاب عقول سليمة وراشدة، في قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادَ ۝ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ١٧ - ١٨].

هذا من حزمهم وعقلهم أنهم يتبعون أحسن الأقوال، و﴿القول﴾ في الآية

(١) انظر: في ظلال القرآن (٣/١٤٢٥).

(٢) رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: فضل الاجتماع على تلاوة القرآن، وعلى الذكر (٤/٢٠٧٤) (ج ٢٦٩٩).

جنس، يشمل كل قول، فهم يستمعون جنس القول، ليميزوا بين ما ينبغي إثارة، مما ينبغي اجتنابه.

ولا شك أن أحسن القول على الإطلاق هو كلام الله تعالى، ثم كلام رسوله ﷺ، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ زَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَبِهًا﴾ [الزمر: ٢٣]. وأحسن الكتب المنزلة من كلام الله تعالى هذا القرآن العظيم.

وهنا فائدة مهمة وهي: أنه تعالى لما أخبر عن هؤلاء الممدوحين، أنهم يستمعون القول فيتبعون أحسنه، كأن سائلاً يسأل: هل من طريق إلى معرفة أحسنه، حتى نتصف بصفات أولي الألباب، وحتى نعرف أن من أثره على غيره فهو من أولي الألباب؟

قيل له: نعم، أحسنه ما نص الله تعالى عليه بقوله: ﴿اللَّهُ زَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَبِهًا...﴾ الآية.

فهؤلاء الذين يستمعون القرآن العظيم ويتبعونه هم الذين هداهم الله تعالى لأحسن الأخلاق والأعمال الظاهرة والباطنة، وهؤلاء هم أولوا العقول الزكية. ومن لبهم وحزمهم، أنهم عرفوا الحسن وغيره، وآثروا ما ينبغي إثارة على ما سواه. وهذا علامة العقل، بل لا علامة للعقل سوى ذلك، فإن الذي لا يميز بين حسن الأقوال وقبيحها، ليس من أهل العقول الصحيحة. أو الذي يميز، لكن غلبت شهوته عقله، فبقى عقله تابعاً لها، فلم يؤثر الأحسن، كان ناقص العقل^(١).

والقرآن الكريم بوصفه كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه يحمل مقومات الهداية الذاتية، والتي إذا تجرد المستمع إليه من شوائب النفس وعبادة الهوى، تمكنت الهداية من قلب مستمعه.

ولذلك جعل الله تعالى سماع القرآن العظيم من أسباب هداية الكفار ودخولهم في الإسلام، قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦].

وأثر استماع القرآن من الهداية غير مقتصر على الإنس فقط، بل يتعداهم إلى الجن أيضاً، فقد جعل الله تعالى استماع القرآن سبباً لهداية الجن ودخولهم في الإسلام، قال الله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن: ١ - ٢].

فهؤلاء نفر من الجن أراد الله تعالى لهم الخير فصرفهم إلى رسوله ﷺ، لسماع القرآن الكريم، ولتقوم عليهم الحجة، وتمَّ عليهم النعمة، ويكونوا منذرين لقومهم. وذلك: أنهم لما حضروه قالوا: أنصتوا. فلما أنصتوا، فهموا معانيه، ووصلت حقائقه إلى قلوبهم، ثم ولَّوا إلى قومهم منذرين ومبشرين.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ۝ قَالُوا يَنْقُومُنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٢٩ - ٣٠].

والناس يخسرون الخسارة التي لا يعارضها شيء بالانصراف عن هذا القرآن العظيم، وإن الآية الواحدة لتصنع أحياناً في النفس - حين تسمع لها وتُنصت - أعاجيب من الانفعال والتأثر والاستجابة والطمأنينة والراحة، والثقل البعيدة في المعرفة الواعية المستنيرة، مما لا يدركه إلا مَنْ ذاقه وعرفه^(١).

ونأمل معي هذه اللقطة الجميلة في قول الجن: ﴿أَنْصِتُوا﴾ وما توحى به من أهمية الإنصات حال السماع للقرآن، وأن الإنصات سبب في انفتاح القلب للمعاني القرآنية، فيكون الإنصات هو الخطوة الأولى في طريق الهداية، ولو أن كفار قريش وغيرهم أنصتوا كما أنصت الجن إلى القرآن لاهتدوا إلى الحق، ولكنهم رفضوا الإنصات ابتداءً، فامتنعت عنهم الهداية، وإلا، فكلام الله، قطعي الدلالة على أن كل مَنْ استمع إليه وأنصت تحققت له الهداية، بصريح قوله سبحانه: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هُوَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، فليت شعري، هل من منصب إلى كلام الله؛ لتحقيق له الهداية!

المطلب الثالث

استماع القرآن سبب لخشوع القلب وبكاء العين

المؤمنون عند تلاوتهم لكتاب الله تعالى أو استماعهم له تخشع قلوبهم وتذرف عيونهم، ويُقبلون على ربهم راغبين راغبين، ومن ذنوبهم مستغفرين، وفي رضاه طامعين، ومن غضبه وعقابه وجلين.

ذلك كان شأن الصحابة رضي الله عنهم عند استماعهم وتلاوتهم للقرآن العظيم وقدوتهم في ذلك نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إمام الخاشعين الذي قال عنه ابن مسعود رضي الله عنه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أقرأ عليّ» قال: قلت: أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: «إني أشتهي أن أسمعه من غيري». قال: فقرأت النساء حتى إذا بلغت: «فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا» [النساء: ٤١]. قال لي: «كف، أو أمسك» فرأيت عينيه تذرفان^(١).

وعند مسلم: قال ابن مسعود رضي الله عنه: رفعت رأسي، أو عمزني رجل إلى جني فرفعت رأسي، فرأيت دموعه تسيل. وفي رواية: فبكى^(٢).

«قال ابن بطال: يحتمل أن يكون أحب أن يسمعه من غيره ليكون عرض القرآن سنة، ويحتمل أن يكون لكي يتدبره ويفهمه، وذلك أن المستمع أقوى على التدبر، ونفسه أخلى وأنشط لذلك من القارئ؛ لاشتغاله بالقراءة وأحكامها»^(٣).

ومن الفوائد التي ذكرها النووي رحمته الله عند شرحه لهذا الحديث: «استحباب استماع القراءة، والإصغاء لها، والبكاء عندها، وتدبرها، واستحباب طلب القراءة من غيره ليستمتع له، وهو أبلغ في التفهم، والتدبر من قراءته بنفسه، وفيه تواضع أهل العلم والفضل ولو مع أتباعهم»^(٤).

(١) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: البكاء عند قراءة القرآن (١٦٢٧/٣) (ح ٥٠٥٥)، وباب: من أحب أن يستمع القرآن من غيره (١٦٢٥/٣) (ح ٥٠٤٩).

(٢) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل استماع القرآن وطلب القراءة من حافظ للاستماع، والبكاء عند القراءة والتدبر (٥٥١/١) (ح ٨٠٠).

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري (١١٧/٩).

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي (٣٢٩/٦).

وهذه هي سنة الأنبياء وطريقتهم جميعاً - عليهم السلام - عند استماعهم لكلام الله تعالى وآياته تفيض أعينهم بالدموع، وتخضع وتخشع قلوبهم وتتأثر من كلام الرحمن جلّ جلاله، قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجِبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨].

فهؤلاء الأنبياء العظماء من أبرز صفاتهم أنهم إذا سمعوا آيات الله تعالى تتلى عليهم تأثروا تأثراً عظيماً، يحصل لهم منه البكاء والسجود، وقشعريرة الجلد، ولين القلوب والجلود كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]. ﴿وَبُكِيًّا﴾ جمع بكاء^(١).

عن أبي معمر قال: «قرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه سورة مريم، فسجد، وقال: هذا السجود، فأين البكائي؟ يريد البكاء»^(٢).

فهؤلاء الأنبياء - عليهم السلام - ومن معهم ممن هدى الله تعالى واجتنبى من الصالحين من ذريتهم، صفتهم البارزة إذا استمعوا لآيات الرحمن تتلى عليهم ﴿خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ لأنهم أتقياء أصحاب قلوب حيّة، ترتعش قلوبهم لذلك، فلا تسعفهم الكلمات للتعبير عما يُخالج مشاعرهم من تأثر، فتفيض أعينهم بالدموع ويخرون لعظمة الله وكلامه سُجَّدًا وبُكِيًّا^(٣).

وهذه هي صفة أهل العلم كذلك، أنهم إذا استمعوا لكلام الله تعالى تأثروا فبكوا وزادهم ذلك خشوعاً وعلماً و يقيناً، كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله: ﴿لَئِنْ أَوْثَرْنَا أَلْعَلَّامَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۖ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۖ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَسْكُوتُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩].

قال القرطبي رحمته الله: «هذه مبالغة في صفتهم ومدح لهم وحق لكل من توسم

(١) انظر: أضواء البيان (٤/ ٣٣٠).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٧٣/ ١٦ - ٧٤)، وأورده السيوطي في «الدّر المنثور» (٤/ ٢٧٧)، ونسبه إلى ابن أبي حاتم، وابن جرير، والبيهقي في «الشعب»، عن عمر رضي الله عنه.

(٣) انظر: في ظلال القرآن (٤/ ٢٣١٤).

بالعلم وحَصَلَ منه شيئاً أن يجري إلى هذه المرتبة، فيخشع عند استماع القرآن ويتواضع ويذل. وفي مسند الدارمي أبي محمد^(١) عن التَّيْمِيِّ قال: مَنْ أوتي من العلم ما لم يُبَكِّه لَخَلِيقٍ أَلَّا يكون أوتي علماً [ينفعه]؛ لأن الله تعالى نَعَتَ العلماء، ثم تلا هذه الآية^(٢). ذكره الطَّبْرِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أيضاً^(٣).

والأذقان جمع دَقَن، وهو مجتمع اللَّحْيَيْن. وقال الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الأذقان عبارة عن اللَّحْي، أي يضعونها على الأرض في حال السُّجود، وهو غاية التَّواضع^(٤).



(١) هو عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام السمرقندي، الدارمي، الحافظ، محدث، حافظ، مفسر، فقيه، طَوَّفَ الأقاليم، ولد سنة (١٨١هـ)، ومن تصانيفه: «سنن الدارمي»، و«الثلاثيات»، توفي سنة (٢٥٥هـ).

انظر: تذكرة الحفاظ (٢/١٠٥)؛ تهذيب التهذيب (٥/٢٩٤).

(٢) رواه الدارمي في «سننه»، كتاب المقدمة، باب مَنْ قال: العلمُ الخشيةُ وتقوى الله (١/٨٥) (رقم ٢٩١).

(٣) انظر: جامع البيان (١٥/١٢١).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٠/٣٤٧ - ٣٤٨). وانظر: تفسير البيضاوي (٣/٤٧١)؛ تفسير ابن كثير (٥/١٣٤).

المبحث الخامس

حُكْم الاستماع للقرآن وحُكْم الإعراض عنه

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: حُكْم الاستماع للقرآن.

المطلب الثاني: حُكْم الإعراض عن استماع القرآن.

المطلب الأول

حُكْم الاستماع للقرآن

الأصل أنَّ الاستماع إلى تلاوة القرآن الكريم - حين يقرأ - واجب، إن لم يكن هناك عذر مشروع لترك الاستماع، وهو قول عامة المفسرين ويدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

قال أبو حيان الأندلسي رحمته في معنى الآية: «أمر باستماعه إذا شرع في قراءته، وبالإنصات، وهو السكوت مع الإصغاء إليه؛ لأنَّ ما اشتمل على هذه الأوصاف من البصائر والهدى والرحمة حريٌّ بأن يُصغى إليه، حتَّى يحصل منه للمنصت هذه النتائج العظيمة، وينتفع بها، فيستبصر من العمى، ويهتدي من الضلال، ويرحم بها»^(١).

(مسألة): اختلف أهل التأويل في الحال التي يجب على السامع استماع القرآن والإنصات له إلى عدَّة أقوال، أوصلها ابن الجوزي رحمته إلى خمسة أقوال^(٢)، وأشهرها قولان:

القول الأوَّل: إنَّ ظاهر الآية يقتضي وجوب الاستماع والإنصات - عند قراءة القرآن - في الصلَاة وغيرها. وهو الرَّاجح إن شاء الله تعالى.

قالوا: صحيح أنَّ الآية نزلت لنسخ جواز الكلام أثناء الصلَاة، إلَّا أنَّ العبرة لعموم اللَّفظ لا لخصوص السَّبب، ولفظها يعمُّ قراءة القرآن في الصلَاة وغيرها، وهو قول أكثر أعلام المفسِّرين.

وممَّن ذهب إلى ذلك: القرطبي^(٣)، والشوكاني^(٤)، وأبو السَّعود^(٥)، والثَّعالبي^(٦)،

(١) البحر المحيط (٤/٤٥٢). (٢) انظر: زاد المسير (٣/٢٣٨).

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن (٧/٣٥٣).

(٤) انظر: فتح القدير (٢/٢٨٠).

(٥) انظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم (٣/٣١٠).

(٦) انظر: الجواهر الحسان في تفسير القرآن (٢/٧٨).

وابن جزى الكلبي^(١)، والسعدي^(٢)، رحمهم الله تعالى ونقل أبو حيّان - في تفسيره - عن الحسن البصري رحمته الله قوله: «هي على عمومها، ففي أي موضع قرئ القرآن، وجب على كل حاضر استماعه، والشكوت عنده»^(٣).

ثم قال أبو حيّان رحمته الله: «والظاهر استدعاء الاستماع والإنصات إذا أخذ في قراءة القرآن، ومتى قرئ»^(٤).

القول الثاني: إنَّ المراد من ذلك الإنصات في الصلّاة، وفي الخطبة. وهو اختيار الإمام ابن جرير الطبري^(٥)، وتبعه في ذلك الحافظ ابن كثير^(٦) رحمهما الله تعالى؛ لوجود الأدلة على وجوب الإنصات والاستماع لقراءة القرآن في هذين الموضعين، وعدم وجوبه في غيرهما.

الرد على القول الثاني:

ردّ الشوكاني رحمته الله على مَنْ خصَّ الإنصات في الصلّاة دون غيرها بقوله: «قيل: هذا الأمر خاصٌّ بوقت الصلّاة عند قراءة الإمام، ولا يخفّاك أنَّ اللفظ أوسع من هذا، والعام لا يُقصر على سببه، فيكون الاستماع والإنصات عند قراءة القرآن في كلِّ حالة، وعلى أيِّ صفة ممّا يجب على السّامع»^(٧).

وردّ الثعلبي رحمته الله - كذلك - على مَنْ قصر الإنصات على حالة الخطبة دون غيرها بقوله: «وأما قول مَنْ قال: إنّها في الخطبة - فضعيف؛ لأنَّ الآية مكيّة،

(١) هو محمد بن أحمد بن جزي الكلبي المالكي (أبو القاسم) من أهل غرناطة، ولد سنة (٦٩٣هـ) عكف على العلم واشتغل بالنظر والتدوين، كان فقيهاً حافظاً. نبغ في الأصول والقراءات، والحديث، والتفسير، والأدب. ألف الكثير في شتى الفنون، توفي وهو يمرض الثامن يوم معركة طريف سنة (٧٤١هـ). من مؤلفاته: «تقريب الوصول إلى علم الأصول»، و«وسيلة المسلم في تهذيب صحيح مسلم»، و«أصول القراء السّنة غير الإمام نافع» انظر: طبقات المفسرين (٨٥/٢).

(٢) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل (٥٩/٢).

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٣١٤/١).

(٤) البحر المحيط (٤٥٢/٤). المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٥) انظر: جامع البيان (١٦٢/٩).

(٦) انظر: تفسير القرآن العظيم (٢٨٦/٢).

(٧) فتح القدير (٢٩٦/٢).

والخطبة لم تكن إلا بعد الهجرة، وألفاظ الآية - على الجملة - تتضمن تعظيم القرآن وتوقيره، وذلك واجب في كل حالة^(١).

(مسألة): هل وجوب الإنصات للقرآن مطلق أم مقيد؟

قد يؤدي حمل هذه الآية على ظاهرها والقول بالوجوب إلى حرج، فقد يُقرأ القرآن بمحضر صانع في صنعه، أو مُدرّس في المدرسة، أو الجامعة أو نحوها، فلو وجب عليه الاستماع وجوباً مطلقاً لوقع الناس في الحرج. وخاصة ما نراه في بعض الأحيان من قراءة القرآن في المساجد، وفي الشوارع، وعند بائعي أشرطة التسجيل. ثم قد يقرأ قارئ في الصلاة جهراً فهل يجب على الناس الاستماع له؟

وربما وقعت التلاوة بصوت مرتفع في أماكن الاشتغال، ويكون السامع في حالة اشتغال، كالأسواق التي بُنيت لتعاطي أسباب الرزق، والبيوت في حالة انشغال أهل البيت في الكنس والطبخ والتنظيف وغير ذلك. ومن الخطأ رفع قراءة القرآن في المآذن - خارج الصلاة - كما يفعل في بعض البلاد الإسلامية، وقد يوجد قرب المسجد المرضى والمشغولون، والنائمون.

وهكذا نجد صوراً كثيرة يُقرأ فيها القرآن جهراً، ولا يمكن الجمع بين استماع القرآن وأداء المصالح الأخرى - التي تقدّمت - في آن واحد، فلم يجعل الله قلبين في جوف البشر. لذلك فالآية ليست على عمومها الظاهر مطلقاً^(٢).

وهذا ما أشار إليه ابن عاشور رَحِمَهُ اللهُ بقوله: «وقد اتفق علماء الأمة على أن ظاهر الآية بمجرّده في صور كثيرة مؤوّل، فلا يقول أحد منهم بأنه يجب على كل مسلم إذا سمع أحداً يقرأ القرآن أن يشتغل بالاستماع ويُنصت، إذ قد يكون القارئ يقرأ بمحضر صانع في صنعه، فلو وجب عليه الاستماع لأمر بترك عمله،

(١) الجواهر الحسان في تفسير القرآن (٧٨/٢).

(٢) انظر: الأحكام الشرعية لقراءة القرآن الكريم، د. محمود أحمد الأطرش (ص ٦٣)؛ كيف تتوجّه إلى العلوم والقرآن الكريم مصدرها، د. نور الدين عتر (ص ٧٧).

ولكنهم اختلفوا في محمل تأويلها: فمنهم من خصّها بسبب رأوا أنه سبب نزولها، ...

ومنهم من أبى أمر الاستماع على إطلاقه القريب من العموم، ولكنهم تأولوه على أمر التدب، وهذا الذي يؤخذ من كلام فقهاء المالكية^(١).

وأما فقهاء الحنفية فقد اختلفوا في وجوب الإنصات: هل هو وجوب عيني، أو وجوب كفائي؟ فقد جاء في حاشية ابن عابدين^(٢): «الأصل أن الاستماع للقرآن فرض كفاية؛ لأنه لإقامة حقّه، بأن يكون مُلتفتاً إليه غير مُضَيّع، وذلك يحصل بإنصات البعض، كما في ردّ السّلام، حين كان لرعاية حقّ المسلم، كفى فيه البعض عن الكلّ».

ونقل الحموي عن أستاذه قاضي القضاة يحيى، الشّهير بمنقاري زاده: أن له رسالة حقّق فيها، أن سماع القرآن فرض عين^(٣).

وبناء على ما تقدّم: يُمكن الجمع بين الأقوال في مسألة الإنصات للقرآن، بأن يُقال: الاستماع والإنصات للقرآن الكريم يدور حكمه بحسب المقام الذي يقرأ فيه.

فإن كان في الصّلاة، أو كان المقام - الذي يقرأ فيه - مقام قراءة للقرآن، كان تنتفي عن السّامع موانع الإنصات - المعتبرة شرعاً - فيجب عليه الاستماع والإنصات.

أمّا ما عدا ذلك من الأحوال المختلفة، التي يتنقل بينها المسلم من عمل، أو حديث أهل، أو جلوس على طعام، أو تدارس للفقّه أو العلم في المساجد والمدارس والجامعات، أو ما أشبه ذلك - فالاستماع والإنصات يُستحب ولا

(١) التحرير والتنوير (٤١١/٨).

(٢) هو محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز بن عابدين الدمشقي، فقيه الديار الشّامية، وإمام الحنفية في عصره، ولد سنة (١١٩٨هـ) ومن مصنفاته: «ردّ المختار على الدرّ المختار» المعروف بحاشية ابن عابدين، و«عقود اللّآلي في أسانيد العوالي»، و«الرّحيق المختوم في القرائض». توفي بدمشق سنة (١٢٥٢هـ).

انظر: معجم المؤلفين (١٤٥/٣)؛ الأعلام (٤٢/٦).

(٣) حاشية ابن عابدين (٥٤٦/١).

يجب. ويُعذر المستمع - والحالة هذه - بترك الاستماع لتلاوة القرآن الكريم، ولا يكون أثماً بذلك.

وإنما سقط إثم ترك الاستماع للقرآن في حالات الاشتغال دفْعاً للحرج عن النَّاسِ. قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ١٧٨] ^(١).

المطلب الثاني

حُكْمُ الإِعْرَاضِ عَنْ اسْتِمَاعِ الْقُرْآنِ

الإِعْرَاضُ عَنْ اسْتِمَاعِ الْقُرْآنِ لَا يَخْلُو إمَّا أَنْ يَكُونَ إِعْرَاضاً مَعَ عَدَمِ الْإِيمَانِ بِهِ، وَعَدَمِ الْانْقِيَادِ وَالتَّسْلِيمِ لَهُ، وَعَدَمِ قَبُولِهِ. أَوْ إِعْرَاضاً عَنْ سَمَاعِهِ مَعَ الْإِيمَانِ بِهِ، وَالتَّسْلِيمِ لَهُ، وَقَبُولِهِ. فَلِكُلِّ حُكْمِهِ الَّذِي يَتَعَلَّقُ بِهِ، وَيَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ، وَهَذَا مَا سَتَتَاوَلُهُ بِالتَّفْصِيلِ فِي هَذَا الْمَطْلَبِ، مِنْ خِلَالِ النِّقَاطِ الْآتِيَةِ:

أولاً: الإِعْرَاضُ عَنْ اسْتِمَاعِ الْقُرْآنِ مَعَ عَدَمِ الْإِيمَانِ بِهِ:

هذا النوع من الإِعْرَاضِ هُوَ إِعْرَاضُ الْكُفَّارِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُنَافِقِينَ - النَّفَاقِ الْأَكْبَرِ الْمَخْرُجِ عَنِ الْمِلَّةِ، الَّذِينَ أَعْرَضُوا عَنْ سَمَاعِ الْقُرْآنِ بِالْكُلِّيَّةِ مَعَ عَدَمِ الْإِيمَانِ بِهِ، وَعَدَمِ الْانْقِيَادِ لَهُ ظَاهِراً وَبَاطِناً.

وبادئ ذي بدء يُقَالُ:

إِنَّ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ تَعَالَى يَتَضَمَّنُ طَاعَةً وَانْقِيَاداً، وَتَسْلِيماً وَقَبُولاً، كَمَا قَالَ الْمَرْوُزِيُّ ^(٢) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي مَعْنَى الْإِيمَانِ: «الْإِيمَانُ بِاللَّهِ: أَنْ تُؤَحِّدَهُ، وَتُصَدِّقَ بِهِ بِالْقَلْبِ وَاللِّسَانِ، وَتَخْضَعَ لَهُ، وَلَأْمَرِهِ، بِإِعْطَاءِ الْعِزْمِ لِلْأَدَاءِ لِمَا أَمَرَهُ، مَجَانِباً

(١) انظر: الموسوعة الفقهية (٨٦/٤)؛ فقه قراءة القرآن الكريم (ص ٥١).

(٢) هو الإمام أبو عبد الله، مُحَمَّدُ بْنُ نَصْرِ بْنِ الْحَجَّاجِ الْمَرْوُزِيِّ، فقيه، أصولي، محدث، حافظ. ولد ببغداد سنة (٢٠٢هـ)، ونشأ ببنسأبور، وتفقه بمطهر على أصحاب الشافعي. قال الحاكم عنه: «إمام عصره بلا مُدَافعة في الحديث». وقال الذهبي: «يقال: إنه كان أعلم الأئمة باختلاف العلماء على الإطلاق». سكن سمرقند إلى أن توفي بها سنة (٢٩٤هـ). من مصنفاته: «الصلاة»، «الوتر»، «الورع»، «قيام الليل»، «المسائل في النجوم» وغيرها. انظر: سير أعلام النبلاء (٣٣/١٤ - ٤٠).

للاستكفاف، والاستكبار، والمعاندة، فإذا فعلت ذلك لزمّت محابّه، واجتنبت مسأخطه^(١).

وإذا كان الإيمان يُعَدُّ خضوعاً واستجابة وقبولاً لدين الله تعالى، فإنّ الإِعْرَاضَ يُنافي ذلك ويضاده، ومنه الإِعْرَاضُ بالكُلِّيَّةِ عن استماع القرآن، إمّا توصياً بعدم سماعه، أو إِعْرَاضاً واستكباراً عن سماعه، أو تعامياً وتوصاماً عن سماعه، أو استهزاءً به حال السَّماع بالضَّجَر والتَّأَقُّف، أو إزلاقاً بالعيون حال السَّماع، أو تهاوناً وتغافلاً عن سماعه، على ما تقدّم تفصيل ذلك في: «مظاهر هجر استماع القرآن لدى الكفار».

فهذه المظاهر من الإِعْرَاض تُعَدُّ ناقضاً من نواقض الإيمان العملية، وهو الإِعْرَاضُ التَّامُّ عن سماع القرآن العظيم، وتُعَدُّ كذلك تكذيباً بالرَّسُول ﷺ، بل توليًّا عن طاعته، وامتناعاً عن اتِّباع ما أنزل إليه من الوحي، ومن ثمّ فهو كُفْرٌ مخرج عن الملة.

ويذكر ابن القيم رحمه الله الفرق بين المُعْرِضِ المُفْرَط وبين العاجز قائلاً: «كلُّ مَنْ أَعْرَضَ عَنِ الْاهْتِدَاءِ بِالْوَحْيِ - الَّذِي هُوَ ذِكْرُ اللَّهِ - فَلَا يَدُّ أَنْ يَقُولَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: ﴿يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَنْسُ الْفَرِيقَ﴾ [الزخرف: ٣٨].

فإن قيل: فهل لهذا عذر في ضلاله إذا كان يحسب أنّه على هدى، كما قال تعالى: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٠].

قيل: لا عذر لهذا وأمثاله من الضَّلال، الذي منشأه الإِعْرَاضُ عن الوحي، وما جاء به الرَّسُول ﷺ، ولو ظنَّ أنه مهتدٍ، فإنّه مفرطٌ بإِعْرَاضِهِ عَنْ اتِّبَاعِ دَاعِي الْهُدَى، فإذا ضلَّ فإنَّما أُتِيَ من تفريطه وإِعْرَاضِهِ، وهذا بخلاف مَنْ كان ضلاله لعدم بلوغ الرِّسالة، وعجزه عن الوصول إليها، فذاك له حُكْمٌ آخر، والوعيد في القرآن إنّما يتناول الأوّل، وأمّا الثَّاني فإنَّ الله لا يعذب أحداً إلّا بعد إقامة الحجة عليه^(٢).

ويقول ابن كثير رحمه الله عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾

(٢) مفتاح دار السعادة (١/٤٣ - ٤٤).

(١) تعظيم قدر الصلّة (١/٣٩٢).

مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ﴿١٠١﴾ خَلِيدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا ﴿طه: ٩٩-١٠١﴾: «وهذا عامٌّ في كلِّ مَنْ بلغه القرآن من العرب والعجم، وأهل الكتاب وغيرهم، كما قال تعالى: ﴿لَا تُذَكِّرُكُم بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

فكلُّ مَنْ بلغه القرآن فهو نذير له وداع، فَمَنْ اتَّبَعَهُ هُدًى، وَمَنْ خَالَفَهُ وأعرض عنه ضلٌّ وشقي في الدنيا، والنَّارُ موعده يوم القيامة»^(١).

وبناءً على ما تقدّم: فإنَّ الإعراض عن استماع القرآن بالكلية ينافي الإيمان ويضاده، بل هو حقيقة النفاق الأكبر، الذي حكاها الله تعالى عن المنافقين في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَمَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُتَفَقِّهِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١].

فالذي يهجر القرآن، فلا يؤمن به، ولا يسمعه، ولا يصفى إليه، فهو كافر خارج عن ملة الإسلام.

ثانياً: الإعراض عن استماع القرآن مع الإيمان به:

قد يُعْرِضُ المسلم - أحياناً - عن استماع القرآن العظيم مع إقراره بأنَّ القرآن كلام الله تعالى يجب اتّباعه؛ بسبب تكاسلٍ وتهاون، أو ضعف إيمان، أو تشاغل عنه بمال، أو بنين، أو غناء ونحوه من متابعة البثّ الفضائي.

وربّما تجد بعض المسلمين لا يستمعون إلى القرآن الكريم إلا نادراً؛ عند حلول شهر رمضان مثلاً، أو عند نزول مصيبة به، كمرض أو وفاة قريب له، أو غير ذلك من الأمور التي تُلجّئُه إلى استماع القرآن.

فلا ريب - والحالة هذه - أنه مُقَصَّرٌ ومُواخِذٌ بإعراضه عن استماع القرآن، لكن من الصُّعوبة بمكان تعميم حكم واحد وتنزيله على هذه الأحوال المختلفة في صورها، والحدُّ المشترك بينها هو: هجر استماع القرآن قلةً أو كثرة.

ومن المتفق عليه - فيما سبق - أنها معصية لله، مؤاخِذٌ بسببها؛ لأنه قَصْرٌ، وأعرض باختياره عن استماع القرآن الكريم، ويتوقّف كون هذه المعصية كبيرة أو صغيرة على نوع المخالفة ذاتها، فأمره إلى الله - والله أعلم.

المبحث السادس

الآثار الحسنة لاستماع القرآن

وفيه سبعة مطالب:

المطلب الأول: الإعجاز التأثيري للقرآن.

المطلب الثاني: أثر استماع القرآن في الملائكة.

المطلب الثالث: أثر استماع القرآن في النبي ﷺ.

المطلب الرابع: أثر استماع القرآن في المؤمنين.

المطلب الخامس: أثر استماع القرآن في أعدائه وخصومه.

المطلب السادس: أثر استماع القرآن في النصارى.

المطلب السابع: أثر استماع القرآن في الجن.

المطلب الأول

الإعجاز التأثيري للقرآن

إنَّ المتأمل لوجوه الإعجاز القرآني يجده تعدَّى حدود المعاني والمعارف، فلا يقتصر إعجازه فقط على عظمة سبكه ونظمه، أو على ما يحويه من معارف غير متعارضة وعلوم ظاهرة، وما يتضمَّنه من أخبار ثابتة، بل مع كلِّ هذه الوجوه نجد وجهاً آخر غاية الأهميَّة، وهو تأثيره في سامعيه، فالقرآن له تأثير عجيب على سامعيه، يظهر في صور وأشكال متعدِّدة، فبمجرَّد الاستماع إليه - وإن لم يفهم المقصود منه - تجد القلوب قد انفتحت، والنُّفوس قد اطمأنت، والهدوء والسكينة قد حلَّا بمستمعه، وهذا الإعجاز التأثيري يتعدَّى مَنْ آمَن به إلى مَنْ أنكره أو كَفَّر به. ولهذا فقد اختار أبو سليمان الخطَّابي رحمته الله الإعجاز التأثيري للقرآن كأهمِّ وجِّه من وجوه الإعجاز فيه، فقال - في رسالته (بيان إعجاز القرآن):

«قلتُ: في إعجاز القرآن وجَّةٌ آخر، ذهب عنه النَّاسُ، فلا يكاد يعرفه إلَّا الشَّاذ من آحادهم، وذلك صنيعة بالقلوب، وتأثيره في النُّفوس، فإنَّك لا تسمع كلاماً غير القرآن - منظوماً ولا منثوراً - إذا قرَّع السَّمع خلص له إلى القلب من اللَّذَّة والحلاوة في حالٍ، ومن الرُّوعة والمهابة في أخرى، ما يخلص منه إليه، تستبشر به النُّفوس، وتنشرح له الصُّدور، حتَّى إذا أخذت حطَّها منه، عادت إليه مرتاعة قد عراها الوجيب والقلق، وتغشَّاهم الخوف والفرق، تقشعرُّ منه الجلود، وتنزعج له القلوب، يحول بين النَّفس ومضمراتها وعقائدها الرَّاسخة فيها؛ فكم من عدوٍّ للرَّسول صلَّى الله عليه وآله من رجال العرب وفتَّاكها أقبلوا يريدون اغتياله وقتله، فسمعوا آيات من القرآن، فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم، أن يتحوَّلوا عن رأيهم الأوَّل، وأن يركنوا إلى مسالمته، ويدخلوا في دينه، وصارت عداوتهم موالاةً، وكفرهم إيماناً»^(١).

(١) بيان إعجاز القرآن، للخطَّابي (ص ٧٠ - ٧١)، فيمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، =

إذاً في القرآن العظيم سرٌّ خاصٌ، يشعر به كلٌّ مَنْ يواجه نصوصه ابتداءً، قبل أن يبحث عن مواضع الإعجاز فيها. يشعر أنَّ هنالك شيئاً ما وراء المعاني التي يدركها العقل من التعبير. وأنَّ هنالك عنصراً ما ينسكب في الحسِّ بمجرد الاستماع لهذا القرآن. يدركه بعض النَّاس واضحاً ويدركه بعض النَّاس غامضاً. هذا العنصر الذي ينسكب في الحسِّ، يصعب تحديد مصدره: أهو العبارة ذاتها؟ أهو المعنى الكامن فيها؟ أهو الصُّور والظلال التي تُشعُّها؟ أهو التأثير القرآني الخاصُّ المتميِّز عن سائر القول المصوغ من اللُّغة؟ أهى هذه العناصر كلُّها مجتمعة؟ أم إنَّها هي شيء آخر وراءها غير محدود؟^(١)

دراسة معاصرة تُثبت تأثير القرآن:

في محاولة للكشف عن تأثير القرآن على سامعيه، استُعملت أجهزة المراقبة الإلكترونية، المزودة بالحاسوب؛ لقياس أيِّ تغييرات فسيولوجية، عند عددٍ من المتطوعين الأصحاء، أثناء استماعهم لتلاوات قرآنية، وقد تمَّ تسجيل وقياس أثر القرآن الكريم، عند عددٍ من المسلمين المتحدِّثين بالعربية بالنسبة لغير المتحدِّثين بالعربية. مسلمين كانوا أو غير مسلمين. فقد ثلثت عليهم مقاطع من القرآن الكريم باللُّغة العربية، ثمَّ ثلثت عليهم ترجمة هذه المقاطع باللُّغة الإنجليزية. وفي كلِّ هذه المجموعات أثبتت التجاربُ المبدئية وجود أثر مهْدئ للقرآن بنسبة (٩٧٪) لدى هذه المجموعات التجريبية، وهذا الأثر ظهر في شكل تغييرات فسيولوجية، تدلُّ على تخفيف درجة توتُّر الجهاز العصبي التلقائي.

ولقد ظهر من الدِّراسات المبدئية أنَّ تأثير القرآن على التوتُّر، يمكن أن يعزى إلى عاملين:

الأوَّل: صوت القرآن الكريم في كلمات عربية، يَغُضُّ النَّظْرَ عَمَّا إذا كان المستمع قد فهمها أو لم يفهمها، ويَغُضُّ النَّظْرَ عن إيمان المستمع.

= للخطابي، والرماني، والجرجاني - تحقيق: د. محمد زغلول سلام وآخرين. دار المعارف - مصر ١٣٧٦ هـ.

(١) انظر: في ظلال القرآن (٦/٣٣٩٩).

الثاني: معنى المقاطع القرآنية، حتى ولو كانت مُقتَصَرة على التَّرجمة الإنجليزية، بدون الاستماع إلى الكلمات القرآنية باللغة العربية^(١).

المطلب الثاني

أثر استماع القرآن في الملائكة

تحبُّ الملائكة الكرام ﷺ استماع القرآن الكريم، وتحفُّ مجالسه، وتنزل أحياناً لاستماعه وللإنصات له، وقد وضَّحت الأدلة - من الكتاب والسنة - هذا الأمر، وبيَّته بياناً شافياً، فمن ذلك:

* قوله تبارك وتعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ آيَلٍ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨].

والمقصود بقوله ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾: «قال مجاهد: صلاة الفجر»^(٢). أي أنَّ القرآن الذي يتلوه الإمام في صلاة الفجر تشهد له وتحضره الملائكة (ملائكة الليل وملائكة النهار)^(٣).

وإنما عبَّر عن صلاة الصُّبح بقرآن الفجر؛ لأنَّ القرآن يقرأ فيها أكثر من غيرها، وهذا هو هُذي النبي ﷺ في إطالة القراءة في صلاة الفجر أكثر من غيرها في سائر الصَّلوات المفروضة، فكان يقرأ فيها ما بين السَّتين إلى المائة آية^(٤).

* عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «فَضَّلَ صَلَاةَ الْجُمُعِ عَلَى صَلَاةِ الْوَاحِدِ خَمْسٍ وَعِشْرُونَ دَرَجَةً، وَتَجْتَمِعُ مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ وَمَلَائِكَةُ النَّهَارِ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ». يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ: أَقْرَأُوا إِنَّ شِئْنَكُمْ: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾^(٥).

(١) انظر: أثر سماع القرآن الكريم على مستوى الأمن النفسي (ص ١٢ - ١٣)، نقلاً عن: المؤتمر السنوي السابع عشر للجمعية الطَّيِّبة الإسلامية بأمريكا الشمالية، ١٩٨٤م.

(٢) صحيح البخاري (١٤٦١/٣).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٥٥/٣)؛ تفسير القرطبي (٢٩٨/٢).

(٤) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل (١٧٧/٢).

(٥) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب: ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ (١٤٦١/٣).

* ومن أثر استماع القرآن في الملائكة الكرام ﷺ استغراقهم في السَّماع حتَّى كادوا يَظهرون للنَّاس وذلك عندما تنزَّلت ودنت من الصَّحابي الجليل أُسيد بن حُضير ؓ وهو يقرأ في صلاة اللَّيل، والشَّاهد من الحديث: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال له - بعد أن أخبره أُسيد ؓ بما حصل له تلك اللَّيلة: «تِلْكَ الْمَلَائِكَةُ دَنَتْ لِصَوْتِكَ، وَلَوْ قَرَأْتَ لِأَصْبَحْتَ يَنْظُرُ النَّاسُ إِلَيْهَا، لَا تَتَوَارَى مِنْهُمْ»^(١).

ومن فوائد الحديث: فضيلة الجهر بقراءة القرآن في صلاة اللَّيل، وأنها سبب لحضور الملائكة ودنوَّها من القارئ.

وأشار قوله ﷺ: «لَا تَتَوَارَى مِنْهُمْ» إلى أَنَّ الملائكة - لاستغراقهم في الاستماع - كادوا يظهرون للناس على خلاف جبلَّتهم من الاختفاء، الذي هو من شأنهم^(٢).

* وعن عليّ ؓ أنه أَمَرَ بالسُّوَالِكِ، وقال: قال رسولُ الله ﷺ: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا تَسَوَّكَ ثُمَّ قَامَ بِصَلَاةٍ، قَامَ الْمَلَكُ خَلْفَهُ، فَيَسْتَمِعُ لِقِرَاءَتِهِ، فَيَذْنُو مِنْهُ - أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا - حَتَّى يَضَعَ فَاهُ عَلَى فِيهِ، فَمَا يَخْرُجُ مِنْ فِيهِ شَيْءٌ مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا صَارَ فِي جَوْفِ الْمَلِكِ، فَطَهَّرُوا أَقْوَاهُمْ لِلْقُرْآنِ»^(٣).

* ومن أثر استماع القرآن في الملائكة كذلك، أنها تحفُّ مجالس القرآن لتستمع وتنصت، فعن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ:

«وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ، وَيَتَذَكَّرُونَ بِهِ بَيْنَهُمْ،

(١) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: نزول السَّكينة والملائكة عند قراءة القرآن (١٦١٧/٣) (ح ٥٠١٨).

(٢) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨١/٩).

(٣) رواه المنذري في «الترغيب»، واللفظ له، كتاب الطَّهارة، باب: التَّغْيِيبُ فِي السُّوَالِكِ وَمَا جَاءَ فِي فَضْلِهِ (١٠٢/١) (ح ٢١٥)؛ والبيهقي في «السُّنَنِ الْكُبْرَى»، باب: تَأْكِيدُ السُّوَالِكِ عِنْدَ الْقِيَامِ إِلَى الصَّلَاةِ (٣٨/١) (ح ١٦١)؛ وعبد الرزاق في «مُصَنَّفِهِ»، باب: حَسَنُ الصَّوْتِ (٤٨٧/٢) (ح ٤٨٨٤)؛ وابن أبي شَيْبَةَ فِي «مُصَنَّفِهِ»، باب: مَا ذُكِرَ فِي السُّوَالِكِ (١٥٦/١) (ح ١٧٩٩)؛ وصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ التَّغْيِيبِ وَالتَّرْهِيْبِ»: (٢٠٤/١) (ح ٢١٥)؛ وَالسَّلْسَلَةُ الصَّحِيْحَةُ: (٢١٤/٣) (ح ١٢١٣).

إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ^(١)، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ^(٢).

المطلب الثالث

أثر استماع القرآن في النبي ﷺ

كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَحِبُّ اسْتِمَاعَ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ؛ وَتَطْيِيبَ نَفْسِهِ حِينَ اسْتِمَاعِهِ لَهُ، وَيُظْهِرُ أَثَرَ الاسْتِمَاعِ عَلَيْهِ بِالتَّأَثُّرِ وَالْخُشُوعِ وَالْبُكَاءِ. وَلَا عَجَبَ مِنْ ذَلِكَ فَهُوَ أَرْقُ النَّاسِ قَلْبًا، وَأَسْرَعُهُمْ دَمْعَةً، وَأَعْظَمُهُمْ تَأَثُّرًا بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، فَقَدْ كَانَ أَعْرَفَ الْخَلْقِ بِاللَّهِ، وَأَشَدَّهُمْ لَهُ خَشْيَةً. وَمِنْ هَذِهِ الْمَوَاقِفِ الْمُبَارَكَةِ مَا يَلِي:

١ - عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَفْرَأُ عَلَيْ» قَالَ: قُلْتُ: أَفْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أَنْزَلَ؟ قَالَ: «إِنِّي أَشْتَهِي أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي». قَالَ: فَقَرَأْتُ النِّسَاءَ حَتَّى إِذَا بَلَغْتُ: «فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا» [النساء: ٤١]. قَالَ لِي: «كُفْ، أَوْ أَمْسِكْ» فَرَأَيْتُ عَيْنَيْهِ تَذْرِفَانِ^(٣).

وَعِنْدَ مُسْلِمٍ: قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: رَفَعْتُ رَأْسِي، أَوْ غَمَزَنِي رَجُلٌ إِلَى جَنْبِي فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَرَأَيْتُ دُمُوعَهُ تَسِيلُ. وَفِي رِوَايَةٍ: فَبَكَى^(٤).

٢ - قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَوْ رَأَيْتَنِي وَأَنَا أَسْتَمِعُ^(٥) لِقِرَاءَتِكَ الْبَارِحَةَ! لَقَدْ أَوْتَيْتَ مِزْمَارًا^(٦) مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ»^(٧).

(١) حَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ: أَيِ دَارَتْ حَوْلَهُمْ.

انظر: النهاية في غريب الحديث (١/٤٠٨)، مادة: (حفف).

(٢) رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: فضل الاجتماع على تلاوة القرآن، وعلى الذكر (٤/٢٠٧٤) (ح ٢٧٠٠).

(٣) رواه البخاري (٣/١٦٢٧) (ح ٥٠٥٥)، وتقدم تخريجه في المبحث الرابع.

(٤) رواه مسلم (١/٥٥١) (ح ٨٠٠)، وتقدم تخريجه في المبحث الرابع.

(٥) قوله: (لَوْ رَأَيْتَنِي وَأَنَا أَسْتَمِعُ) الواو فيه للحال. وجواب لو محذوف، أي: لأعجبك ذلك.

(٦) المراد بالمزمار هنا: الصوت الحسن. انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٦/٨٠).

(٧) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: استحباب تحسين الصوت بالقرآن (١/٥٤٦) (ح ٧٩٣).

٣ - عن عائشة، رَؤِجِ النَّبِيِّ ﷺ، قالت: أَبْطَأْتُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةً بَعْدَ الْعِشَاءِ. ثُمَّ جِئْتُ فَقَالَ: «إِنَّ كُنْتُ؟». قُلْتُ: كُنْتُ أَسْتَمِعُ قِرَاءَةَ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِكَ لَمْ أَسْمَعْ مِثْلَ قِرَاءَتِهِ وَصَوْتِهِ مِنْ أَحَدٍ. قَالَتْ: فَقَامَ وَقُمْتُ مَعَهُ حَتَّى اسْتَمَعْتُ لَهُ. ثُمَّ انْتَفَتَ إِلَيَّ فَقَالَ: «هَذَا سَالِمٌ، مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ. الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ فِي أَمْنِي مِثْلَ هَذَا»^(١).

٤ - ولا أدلَّ عَلَى مَحَبَّةِ النَّبِيِّ ﷺ لاسْتِمَاعِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مِنْ قَوْلِ فَاطِمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أَسْرَّ إِلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ: «أَنْ جَبْرِيلُ كَانَ يُعَارِضُنِي بِالْقُرْآنِ كُلِّ مَنِيَّةٍ، وَإِنَّهُ عَارِضُنِي الْقَامَ مَرَّتَيْنِ، وَلَا أَرَاهُ إِلَّا حَضَرَ أَجْلِي»^(٢).

قال ابن حجر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَالْمُعَارِضَةُ: مِفَاعِلَةٌ مِنَ الْجَانِبَيْنِ، كَأَنَّ كَلَامَهُمَا كَانَ تَارَةً يَقْرَأُ وَالْآخَرُ يَسْتَمِعُ»^(٣).

وختلاصة القول: إِنَّ الْمَوَاقِفَ وَالْمَوَاضِعَ الَّتِي تُبْرَزُ تَأْثَرُ النَّبِيِّ ﷺ عِنْدَ اسْتِمَاعِهِ لِلْقُرْآنِ كَثِيرَةٌ، يَبْدُو أَنَّ ذَلِكَ لَا غَرَابَةَ فِيهِ، إِذْ كَيْفَ لَا يَتَأَثَّرُ الرَّسُولُ ﷺ بِالْقُرْآنِ وَهُوَ أَتَقَى الْخَلْقَ، وَعَلَيْهِ أَنْزَلَ الْقُرْآنَ؟ وَقَدْ رَأَى الْمَلَائِكَةَ، وَغُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ، وَسَمِعَ صَرِيرَ الْأَقْلَامِ، وَرَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ مَا رَأَى؟ فَتَأَثَّرَهُ بِالْقُرْآنِ أَمْرٌ لَا يَحْتَاجُ إِلَى دَلِيلٍ أَوْ بَرَهَانٍ.

المطلب الرابع

أثر استماع القرآن في المؤمنين

إِنَّ أَثَرَ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ فِيمَنْ يَسْمَعُهُ لَيْسَ خَاصًّا بِالْمَلَائِكَةِ الْكَرَامِ، أَوْ بِالنَّبِيِّ ﷺ فَقَطْ، بَلْ يَمْتَدُّ لِيَشْمَلَ سَائِرَ الْبَشَرِ؛ مُؤْمِنَهُمْ وَكَافِرَهُمْ، وَلَكِنَّ الْأَثَرَ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الشَّخْصِ نَفْسَهُ؛ فَإِذَا كَانَ الْقُرْآنُ يُحَدِّثُ أَثْرًا فِي قَلْبٍ وَنَفْسٍ

(١) رواه ابن ماجه، كتاب الصَّلَاةِ، باب: فِي حَسَنِ الصَّوْتِ بِالْقُرْآنِ (٤٢٥/١) (ح ١٣٣٨)؛ وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ سُنَنِ ابْنِ مَاجَه» (٢٢٣/١) (ح ١١٠٠).

(٢) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: كَانَ جَبْرِيلُ يُعْرِضُ الْقُرْآنَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ (٣/١٦١٢).

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٥٥/٩).

الكافر، إلا أن هذا الأثر لا ينعكس على حياته، ولا على سلوكه، بل يُحاول أن يكتُم هذا الأثر كي لا يظهر على ملامحه، ويفتضح أمره، فيتلاشى أثر القرآن أمام عناده واستكباره، أمّا المؤمنون فقد امتثلوا آيات الله تعالى، لتعمل في قلوبهم عملها من التأثير والخوف والخشوع وزيادة الإيمان، ويظهر هذا التأثير جلياً في انفعالاتهم وملاحظتهم عند سماعهم للقرآن، وكذلك يظهر في سلوكهم وحياتهم، ولتستبج بعض الآيات التي حَبَّرت عن ذلك وأظهرته، ومنها:

١ - يقول تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْكِتَابِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلاَ لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

هكذا كان الصَّحابة رضي الله عنهم يتأثرون عند قراءة القرآن أو سماعه، لرقّة في قلوبهم، وخشوعاً وخضوعاً عند كلام الله تعالى، مع ما يكون من الوجَل والخوف والبكاء، فعن عبد الله بن عروة بن الزبير قال: قلت لجَدَّتِي أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها: «كيف كان أصحابُ رسول الله يفعلون إذا قُرئ القرآن؟ قالت: كانوا كما نعتهم الله عزَّ وجلَّ تدمع أعينهم وتقشعر جلودهم»^(١).

وكثير من العلماء الذين تناولوا قضية إعجاز القرآن بالبحث والتصنيف، يستشهدون بهذه الآية على ما للقرآن من تأثير في نفوس سامعيه، وخاصة إذا كانت مؤمنة بالله تعالى^(٢).

وقد أجرى ابن كثير رحمه الله مقارنة بين نوعين من المتلقين لهذه الآية، فقال: «هذه صفة الأبرار، عند سماع كلام الجبار، المهيمن العزيز الغفار، لما يفهمون منه من الوعد والوعيد، والتخويف والتهديد، تقشعر منه جلودهم من الخشية والخوف، ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ لما يرجون ويؤمنون من رحمته ولطفه، فهم مخالفون لغيرهم من الكفار من وجوه:

أحدها: أن سماع هؤلاء هو تلاوة الآيات، وسماع أولئك نغمات الآيات،

(١) تفسير البغوي (٧٧/٤)، الدر المنثور (٧/٢٢٢).

(٢) انظر: الإعجاز التأثري للقرآن الكريم، د. محمد عطا أحمد، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة الكويت (عدد ٣٦) (شعبان ١٤١٩) (ص ٥٣).

من أصوات القينات^(١).
 الثاني: أنهم إذا قُليت عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً، بأدب وخشية، ... لم يكونوا عند سماعها متشاغلين لاهين عنها، بل مُصغين إليها، فاهمين بصيرين بمعانيها؛ فهذا يعملون بها، ويسجدون عندها عن بصيرة لا عن جهل ومتابعة لغيرهم.

الثالث: أنهم يلزمون الأدب عند سماعها، كما كان الصحابة رضي الله عنهم عند سماعهم كلام الله - من تلاوة رسول الله ﷺ - تقشعروا جلودهم، ثم تلين مع قلوبهم إلى ذكر الله. لم يكونوا يتصارخون ويتكلفون ما ليس فيهم، بل عندهم من الثبات والسكون والأدب والخشية ما لا يلحقهم أحد في ذلك؛ ولهذا فازوا بالقدح المَعْلَى في الدنيا والآخرة^(٢).

٢ - ومن الآيات التي تُظهر أثر استماع القرآن في المؤمنين، قوله تعالى:
 ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

لقد حاز المؤمنون - عند ربهم - درجة سامقة رفيعة؛ لتأثرهم بالقرآن المجيد، تأثراً عملياً صادقاً، له نتائج في واقع حياتهم وحياة مجتمعهم.

وقد وصف الصحابيُّ الجليل أبو الدرداء رضي الله عنه هذا الوجَل المذكور في الآية، بقوله لشهر بن حوشب: «الوجَل في القلب كإحراق السَّعْفَةِ، أما تجد له قشعريرة؟ قال (شهر بن حوشب): بلى. قال: إذا وجدت ذلك في القلب فادع الله، فإن الدعاء يذهب ذلك»^(٣).

فهذا الوجَل ارتعاشٌ قلبيٌّ تنتاب المؤمن حين يُتلى عليه القرآن العظيم، بما فيه من أوامر ونواهٍ وزواجر، فيغشاه جلاله، ويتنفض منه مهابةٌ، ويتمثل عظمة الله إلى جانب تقصيره، فينبعث إلى العمل والطاعة^(٤).

ولقد واجه سيد قطب رحمه الله مثل هذه الحالة فقال: «كنت بين رفقة نسمر

(١) القينات: المَعْنِيَات.

(٢) تفسير ابن كثير (٩٢/٧).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٢٤/٦) (رقم ١٥٧٠٥)؛ والسيوطي في «الدر المنثور» (١١/٤).

(٤) انظر: في ظلال القرآن (١٤٧٥/٣).

حينما طَرَقَ أَسْمَاعُنَا صَوْتُ قَارِئٍ لِلْقُرْآنِ مِنْ قَرِيبٍ، يَتْلُو سُورَةَ النُّجْمِ. فَانْقَطَعَ بَيْنَنَا الْخَدِيثُ، لِنَسْتَمَعَ وَنَنْصِتَ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ. وَكَانَ صَوْتُ الْقَارِئِ مُؤَثِّرًا وَهُوَ يَرْتِلُ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا حَسَنًا. وَشَيْئًا فَشَيْئًا عِشْتُ مَعَهُ فِيمَا يَتْلُوهُ...

فَلَمَّا سَمِعْتُ: ﴿فَاعْبُدُوا اللَّهَ وَاعْبُدُوا﴾ [النجم: ٦٢]. كَانَتِ الرَّجْفَةُ قَدْ سَرَتْ مِنْ قَلْبِي حَقًّا إِلَى أَوْصَالِي، وَاسْتَحَالَتْ رَجْفَةُ عَضَلِيَّةٍ مَادِيَّةٍ ذَاتَ مَظْهَرٍ مَادِّيٍّ، لَمْ أَمْلِكْ مَقَاوِمَتَهُ. فَظَلَّ جَسْمِي كُلَّهُ يَخْتَلِجُ، وَلَا أَتَمَالِكُ أَنْ أَثْبِتَهُ، وَلَا أَنْ أَكْفِكَفَ دُمُوعًا هَاتِتَةً، لَا أَمْلِكُ احْتِبَاسَهَا مَعَ الْجُهْدِ وَالْمَحَاوَلَةِ^(١).

٣ - وَنَخْتِمُ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ الَّتِي تُظْهِرُ أَثَرَ اسْتِمَاعِ الْقُرْآنِ فِي الْمُؤْمِنِينَ، وَهِيَ قَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّا نُنَزِّلُ عَلَيْهِمْ مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَكَبَّرُوا وَسَجَدُوا لِأَمْرِهِمْ وَصَدَّقُوا خُرُوجَهُمْ وَكَانَ تِلْكَ آيَاتُ الْكُرْآنِ الَّتِي نُنَزِّلُ بِالْحَقِّ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٢]. فَهَذَا ثَنَاءٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، الَّذِينَ مِنْ وَصْفِهِمُ التَّائِبُ وَالْبَكَاءُ عِنْدَ سَمَاعِهِمْ لآيَاتِ الرَّحْمَنِ، وَلَمْ يَكُونُوا كَالَّذِينَ إِذَا سَمِعُوا آيَاتَ اللَّهِ خَرُّوا عَلَيْهَا صَمًّا وَعُمِيَانًا. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنه: «المراد به القرآن خاصة، وأنهم كانوا يسجدون ويكونون عند تلاوته»^(٢).

وَقَالَ النَّوَوِيُّ رحمته الله: «البكاء عند تلاوة القرآن صفة العارفين، وشعار الصالحين»^(٣). وَلِهَذَا قَرَأَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه سُورَةَ مَرْيَمَ فَسَجَدَ، وَقَالَ: «هَذَا السُّجُودُ، فَأَيْنَ الْبَكْيُ؟» يَرِيدُ: فَأَيْنَ الْبَكَاءُ^(٤).

وَكَانَ عَبْدُ الْأَعْلَى التِّيمِيُّ رحمته الله يَقُولُ: «مَنْ أُوتِيَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَا يُبْكِيهِ لِخَلْقٍ إِلَّا يَكُونُ أُوتِيَ عِلْمًا؛ لِأَنَّ اللَّهَ نَعَتَ الْعُلَمَاءَ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۖ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۖ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَسْكُوتُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الاسراء: ١٠٧ - ١٠٩]»^(٥).

(١) المصدر نفسه (٦/٣٤٢١). (٢) تفسير القرطبي (١١/١٢٧).

(٣) التبيان في آداب حملة القرآن (ص ٤٤)؛ فتح الباري شرح صحيح البخاري (٩/٩٨).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/١٢٩) (رقم ٢٣٧٧٩)؛ وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/٢٤١٢).

(٥) رواه ابن المبارك في «الزهد» (ص ٤١) (رقم ١٢٥)؛ والطبري في «تفسيره» (٩/٢٢٣).

(رقم ٢٢٨٠٠).

المطلب الخامس

أثر استماع القرآن في أعدائه وخصومه

بلغ تأثير القرآن العظيم مبلغاً خرق به العادة المعهودة من تأثير الكلام في النفوس، واستيلائه على قلوب المخاطبين استيلاءً كالقهر وما هو بالقهر، وفعله في قلوبهم كالسحر وما هو بالسحر، لا يختص ذلك بالأنصار دون الخصوم، ولا بمخالفيه دون مخالفه، ولقد أثر في الأعداء كما أثر في الأتباع، ويبان ذلك على النحو التالي:

١ - تأثر عتبة بن ربيعة بالقرآن:

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، أنه قال: اجتمعت قريش يوماً فقالوا: انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر، فليأت هذا الرجل الذي فرق جماعتنا، وشئت أمرنا، وعاب ديننا، فليكلّمه ولينظر ماذا يرثى عليه.

- فجاءه عتبة بن ربيعة^(١) وكلّمه كلاماً طويلاً، حتى إذا فرغ عتبة، قال له النبي ﷺ: «فرغت يا أبا الوليد؟» قال: نعم.

فقال رسول الله ﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حَمْدٌ نَزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝ كَذَّبَتْ فَضِلَّتْ مَا إِنَّمْ قَرَأْنَا عَرَبِيًّا لَقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ فِي ذَاتِنَا وَقَدْ وَمِنَ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ فَاغْمَلْ إِنَّا نَحْنُ غَمْلُونَ﴾ [فصلت: ١ - ٥].

واستمر النبي ﷺ يقرأ حتى بلغ قوله تعالى: «فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَافَةً مِّثْلَ صَافَةِ عَادٍ وَثَمُودَ» [فصلت: ١٣].

فأمسك عتبة على فيه، وناشده الرحم أن يكف عنه، ثم قام عتبة إلى أصحابه.

فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله، لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به.

(١) هو عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي، كان من عتاة المشركين، وأشدّهم على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين حرباً وإيذاء، كان ممن دعا عليهم رسول الله ﷺ بأعيانهم. انظر: البداية والنهاية (٣/ ٢٧٣).

- وكان فيما قال لهم: يا معشر قريش: أطيعوني واجعلوها بي، خلُّوا بين هذا الرّجل وبين ما هو فيه واعتزلوه، فوالله ليكوننّ لقوله الذي سمعتُ نبأ... قالوا: سَحَرَكَ اللهُ يا أبا الوليد بلسانه^(١).

هكذا كان أثر سماع القرآن في أعدائه يُعتبر مفاجأة مذهلة، لم تعتدها آذانهم ولا عقولهم، ولم يعهدوا في ثقافتهم مثل هذا الخطاب الذي فاق - في بلاغته وتأثيره - كل ما سمعته آذانهم من قبل - شعراً كان أو نثراً.

٢ - تأثر زعماء المشركين بالقرآن:

زعماء المشركين مع عنادهم كان يُسارق بعضهم بعضاً، فربّما خرج أحدهم في جُحج الليل المظلم ما يُخرجه إلّا استيلاء القرآن على مشاعره، يبحث عمن يتلو القرآن في هدأة الليل، وقد أرحى سدوله؛ فهذا أبو سفيان ابن حرب، وأبو جهل بن هشام، والأخنس بن شريق خرجوا ليلة؛ ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي من الليل في بيته، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتّى إذا طلع الفجر تفرّقوا، فجمعهم الطريق فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً ثمّ انصرفوا... وحصل في الليلة الثانية ما حصل في الأولى... وحين التقوا في الليلة الثالثة، قال بعضهم لبعض: لا نبرح حتّى نتعاهد ألا نعود، فتعاهدوا على ذلك ثمّ تفرّقوا.

هكذا كان تأثير القرآن في الأعداء، يخلع منهم القلوب، فيطير النّوم من عيونهم، ويبحثون عن سكن لها حتّى إذا ما وجدوه وكادوا أن يستكينوا له

(١) انظر: دلائل النبوة، لإسماعيل بن محمد الفضيل التيمي الأصبهاني (٢/ ٢٢٠ - ٢٢٢) (رقم ٢٥٨)؛ ومسند أبي يعلى (٣/ ٣٥٠) (رقم ١٨١٨)؛ ومصنّف ابن أبي شيبة (٣٣٠٧) (رقم ٣٦٥٦٠). وقال عنه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ٢٠): «رواه أبو يعلى، وفيه الأجلح الكندي، وثقّه ابن معين وغيره، وضقّفه النسائي وغيره، وثقّه رجاله ثقات». وفي رواية أخرى: أن الذي سمع من النبي ﷺ سورة فصلت وحدثت معه هذه القصة هو الوليد بن المغيرة. انظر: تفسير الطبري (٢٨/ ١٥٥ - ١٥٧)؛ الدرر المشور (٧/ ٣٠٨).

أخذتهم العزة بالإثم، فارتدوا على أديارهم ما يمنهم إلا العناد. ولهذا حين سأل الأخنس أبا جهل عن رأيه فيما سمعه من النبي ﷺ قال: ماذا سمعت!! تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاذبنا على الركب وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه!! والله لا نؤمن أبداً ولا نصدقه^(١).

٣ - تأثر الطفيل بن عمرو بالقرآن:

تحكي لنا كتب السيرة قصة رجل من اليمن من قبيلة دوس قدم مكة في العام الحادي عشر من النبوة، ألا وهو الطفيل بن عمرو الدوسي رضي الله عنه، فاستقبله أهل مكة قبل وصوله إليها، وبذلوا له أجلاً تحيةً وأكرم تقدير، وقالوا له: «إِنَّكَ قَدِمْتَ بلادنا، وإنَّ هذا الرَّجُلَ - وهو الذي بين أظهرنا - فرَّق جماعتنا، وضَّعت أمرنا، وإنما قوله كالسحر يُفرِّق بين المرء وابنه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجه، وإنما نخشى عليك وعلى قومك ما قد حلَّ علينا، فلا تُكلمه، ولا تسمع منه، قال: فوالله ما زالوا بي، حتى أجمعتُ ألا أسمع منه شيئاً، ولا أَكلمه حتى حشوتُ في أذني - حين غدوتُ إلى المسجد - كُرْسُفاً؛ فرَقاً من أن يبلِّغني شيء من قوله. قال: فغدوتُ إلى المسجد، فإذا رسولُ الله ﷺ قائمٌ يُصلي عند الكعبة، فقمْتُ قريباً منه، فأبى الله إلا أن يُسمِعني بعض قوله، فسمعتُ كلاماً حسناً، فقلتُ في نفسي: واثكل أمياه، والله إني لرجل لبيب شاعر، ما يخفي عليَّ الحسنُ من القبيح، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرَّجُل ما يقول؟ فإن كان ما يقول حسناً، قبلتُ، وإن كان قبيحاً، تركتُ. قال: فمكثتُ حتى انصرف رسولُ الله ﷺ إلى بيته، فتبعته حتى إذا دخل بيته دخلتُ عليه، فقلتُ: يا محمد! إنَّ قومك قد قالوا لي: كذا وكذا، فوالله ما برحوا يُخوفوني أمرَكَ حتى سددتُ أذني بِكُرْسُفٍ لثلاً أسمع قولك، ثم أبى الله إلا أن يُسمِعني، فسمعتُ قولاً حسناً، فاعرض عليَّ

(١) انظر: سيرة ابن إسحاق (١٦٩/٤)؛ والسيرة النبوية، لابن هشام (١٥٧/٢)؛ ودلائل النبوة (٢٠٦/٢)؛ الدر المنثور (٢٩٩/٥)؛ وتفسير ابن كثير (٤٥/٣)؛ والجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح، لابن تيمية (٣٧٩/٥)؛ والخصائص الكبرى، للسيوطي (١٩٢/١).

أمرك، فعرض عليّ رسول الله ﷺ الإسلام، وتلا عليّ القرآن، فلا والله ما سمعتُ قولاً قطُّ أحسنَ منه، ولا أمراً أعدلَ منه، فأسلمتُ، وشهدتُ شهادة الحقّ»^(١).

٤ - تأثر جُبَيْر بن مُطعم بالقرآن:

عن جُبَيْر بن مُطعم رضي الله عنه، قال: «سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ، يَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ بِالطُّورِ، فَلَمَّا بَلَغَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ﴾ (٣٥) أَمْ خُلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يَوقُونَ (٣٦) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكِ أَمْ هُمْ الْمُصْطَبُونَ﴾ [الطور: ٣٥ - ٣٧]. كَادَ قَلْبِي أَنْ يَظِيرَ»^(٢).

قال ابن كثير رحمه الله: «وكان جُبَيْرٌ - لما سمع هذا - بعد مشركاً على دين قومه، وإنما كان قديم في فداء الأسارى بعد بدر، وناهيك بمن تَوَثَّرَ قراءته في المشرك المَصْرُ على الكفر، فكان هذا سبب هدايته، ولهذا كان أحسن القراءات ما كان عن خشوع من القلب»^(٣).

٥ - حادثة سجود المشركين مع المسلمين:

إذا كنا قد عرضنا لأثر القرآن على أعدائه في صور فردية، تصدر عن أفراد بعينهم، فليس أبلغ ولا أعمق في الدلالة على مدى أثر القرآن على سامعيه من أعدائه من تلك الصورة الجماعية، حيث ضرب لنا كفار قريش مثلاً واقعياً يبين أثر القرآن العظيم على قلوبهم - رغم كفرهم - فلم يتمالكوا أنفسهم عندما قرأ رسول الله ﷺ «النَّجْم» وسجد، فسجدوا وهم مشركون، وهم يمارون في التوحي والقرآن، وهم يجادلون في الله ورسوله، وإنما سجدوا تحت وطأة القرآن، وسلطانه على الكون كله.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «سَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ بالنَّجْمِ، وَسَجَدَ مَعَهُ الْمُسْلِمُونَ

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد (٣/ ٦٢٤ - ٦٢٥). وانظر: السيرة النبوية، لابن هشام

(٢) (٢٢٦/٢)؛ ودلائل النبوة، للبيهقي (٥/ ٣٦٠)؛ ودلائل النبوة، للأصبهاني (١/ ٢١٢)؛

وتاريخ مدينة دمشق (٢٥/ ١٣)؛ والبداءة والنهاية (٣/ ٩٩).

(٣) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب: سورة الطور (٨/ ٥٨) (ج ٤٨٥٤).

(٣) فضائل القرآن (ص ١٩٤).

والمُشْرِكُونَ، وَالْجِنُّ وَالْإِنْسُ^(١).

٦ - تأثر أهل المدينة بالقرآن:

صدق القائلون: «فُتِحَتِ الْأَمْصَارُ بِالسَّيْفِ، وَفُتِحَتِ الْمَدِينَةُ بِالْقُرْآنِ»^(٢). فقد كان القرآن الكريم هو السِّلَاحُ الحاسم في تحويل أهل المدينة - خزرجهم وأوسهم - من الشُّركِ والوثنية إلى الإسلام والقرآن.

ففي بيعة العقبة الأولى دار هذا الحوار بين النبي ﷺ، ونفر من خزرج المدينة - وكانوا سِتَّةَ نفرٍ:

قال لهم رسول الله ﷺ: «مَنْ أَنْتُمْ؟» قالوا: نفر من الخزرج. قال: «مَنْ مَوَالِي الْيَهُودِ؟» - أي: حلفائهم - قالوا: نعم. قال: «أَفَلَا تَجْلِسُونَ أَكُلَّكُمْ؟» قالوا: بلى. فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله تعالى، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن، فأمنوا وصدَّقوا^(٣).

وبعد ذلك أرسل النبي ﷺ مصعبَ بنِ عمير، وعبدَ الله ابنَ أمِّ مكتوم ﷺ إلى المدينة؛ ليعلمَا النَّاسَ القرآنَ^(٤).

المطلب السادس

أثر استماع القرآن في النَّصاري

أخبر الله تبارك وتعالى بأنَّ بعض النَّصاري استمعوا للقرآن العظيم، وتأثروا به، ممَّا دفعهم إلى الإيمان بالرسول ﷺ والدُّخُول في الإسلام، بعد ما فاضت أعينهم بالدَّمْعِ ممَّا عرفوا من الحقِّ.

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب: ﴿فَأَنذَرْتُ لَهُمْ وَعِصُوا﴾ (٣/١٥٤٥) (ح ٤٨٦٢).

(٢) الشُّفا بتعريف حقوق المصطفى (١/٢١٧).

(٣) انظر: السيرة النبوية، لابن هشام (٢/٢٧٧)؛ دلائل النبوة، للبيهقي (٢/٤٣٤)؛ فتح الباري شرح صحيح البخاري (٧/٢٢٠)؛ تاريخ الإسلام، للذهبي (١/٢٩٠)؛ صفة الصفوة، لابن الجوزي (١/١٢٠).

(٤) انظر: السيرة النبوية، لابن هشام (٢/٤٣٤)؛ الكامل في التاريخ، لابن الأثير (٢/٦٧)؛ فتح الباري شرح صحيح البخاري (٧/٢٦٠).

ولم يُسمَّ الله تعالى لنا أسماء هؤلاء القوم من النصارى، ويمكن أن يُراد بهم النجاشي وأصحابه، أو غيرهم ممن أثر فيهم استماع القرآن، وذلك بأنهم أقرب الناس وداداً للمؤمنين.

قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرُّكَ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَتَلُوا نَبِيَّكَ وَرَحْمَتَنَا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٧﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ رَأَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضٌ مِنَ الدَّمْعِ وَمَا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٨﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٩﴾ فَأَنبَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا فَجَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [المائدة: ٨٢ - ٨٥].

اللام في قوله: ﴿لَتَجِدَنَّ﴾ لام القسم، والمقصود منها التأكيد، وزادته نون التوكيد تأكيداً. والتقدير: قَسَمًا إِنَّكَ تَجِدُ الْيَهُودَ وَالْمَشْرِكِينَ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلْمُؤْمِنِينَ.

والسبب في ذكر اليهود مع المشركين: هو اجتماع الفريقين على عداوة المسلمين، فقد أُلِفَ بينهم بغض الإسلام؛ فاليهود: للحسد على مجيء النبوة من غيرهم، والمشركون: للحسد على أن سَبَقَهُم المسلمون بالهداية إلى الدين الحق ونبذ الباطل.

وذكر الله تعالى أن النصارى أَلْيَنُ عَرِيكةً من اليهود وأقرب إلى المسلمين منهم في قوله: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرُّكَ﴾.

والمقصود: أن النصارى أقرب الناس من أهل الملل المخالفة للإسلام. فهذان طرفان في معاملة المسلمين: ﴿أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً﴾ و﴿أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً﴾.

وبين الطرفين فَرْقٌ متفاوتة في بغض المسلمين، مثل المجوس والصابئة وعبد الأوثان أو المعطلة^(١).

(١) انظر: التفسير الكبير (٥٦/١٢)؛ التحرير والتنوير (١٨٣/٥).

والسبب في اقتراب مودة النصارى من المسلمين: هو وجود القسيسين^(١) والرهبان^(٢) بينهم، لما هو معروف بين العرب من حسن أخلاق القسيسين والرهبان، وتواضعهم وتسامحهم. وكانوا منتشرين في جهات كثيرة من بلاد العرب يعمرّون الأديرة والصوامع والبيع، وأكثرهم من عرب الشام، الذين بلغتهم دعوة النصرانية عن طريق الروم، فقد عرفهم العرب بالزهد ومسالمة الناس، فوجود هؤلاء فيهم، وكونهم رؤساء دينهم، كان سبباً في صلاح أهل ملّتهم^(٣).

قال الطبري رحمه الله: «والصواب في ذلك من القول عندنا أن يقال: إنّ الله تعالى ذكره أخبر عن النّصر الذين أثنى عليهم من النصارى بقرب مودّتهم لأهل الإيمان بالله ورسوله، أنّ ذلك إنّما كان منهم؛ لأنّ منهم أهل اجتهد في العبادة وترهيب في الدّيارات والصّوامع، وأنّ منهم علماء بكتبهم وأهل تلاوة لها، فهم لا يبعدون من المؤمنين لتواضعهم للحقّ إذا عرفوه، ولا يستكبرون عن قبوله إذا تبينوه؛ لأنّهم أهل دين واجتهد فيه ونصيحة لأنفسهم في ذات الله، وليسوا كاليهود الذين قد ذرّبوا بقتل الأنبياء والرّسل ومعاندة الله في أمره ونهيه، وتحريف تنزيله الذي أنزله في كتبه»^(٤).

ويعضد هذا: ما ذكره الطبري^(٥)، والواحدي^(٦)، وكثير من المفسرين. عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما: أنّ المعنيّ في هذه الآية ثمانية من نصارى الشام، كانوا في بلاد الحبشة، وأتوا المدينة سنة سبع للهجرة، مع اثنين وستين راهباً من الحبشة، مصاحبين للمسلمين الذين رجعوا من هجرتهم بالحبشة، وسمعوا القرآن وأسلموا.

(١) القسيسون: هم خطباء النصارى وعلمائهم، واجلّهم: قسيس وقس أيضاً، وقد يُجمع على قسوس. انظر: المفردات في غريب القرآن (ص ٤٠٤)، مادة: «قسس». تفسير الطبري (٣/٧).

(٢) الرّهبان: جمع راهب، مثل رُكبان جمع راكب، وقُرسان جمع فارس. والراهب من النصارى: المنقطع في دَيْرٍ أو صومعة للعبادة. مشتق من الرّهبية، وهي الخوف. انظر: المفردات في غريب القرآن (ص ٢٠٩)، مادة: «رهب». تفسير الطبري (٣/٧).

(٣) انظر: التحرير والتنوير (١٨٤/٥). تفسير الطبري (٤/٧).

(٤) انظر: المصدر نفسه (٢/٧).

(٦) انظر: تفسير الواحدي (١/٣٣٢).

فالإشارة إليهم في هذه الآية تذكير بفضلهم، وهي من آخر ما نزل^(١).

تأثر القسيسين والرهبان بسماع القرآن:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣].

إذا سمع هؤلاء القسيسون والرهبان القرآن العظيم يتلى عليهم «اهتزت مشاعرهم، ولانت قلوبهم، وفاضت أعينهم بالدمع تعبيراً عن التأثير العميق العنيف بالحق الذي سمعوه. والذي لا يجدون له في أول الأمر كفاءً من التعبير إلا الدمع الغزير - وهي حالة معروفة في النفس البشرية حين يبلغ بها التأثير درجة أعلى من أن يفي بها القول، فيفيض الدمع؛ ليؤدي ما لا يؤديه القول؛ وليطلق الشحنة الحبيسة من التأثير العميق»^(٢).

المقصود بفيض العين:

وفيض العين من الدمع فيه وجهان:

- ١ - أن أعينهم تمتلئ من الدمع حتى يسيل منها، كفيض النهر. وفيض الإناء، وهو سيلانه عند شدة امتلائه.
 - ٢ - أن المراد المبالغة في وصفهم بالبكاء، فجعلت أعينهم، كأنها تفيض بأنفسها^(٣).
- وسبب فيضها: «ما عرفوا عند سماع القرآن من أنه الحق الموعود به»^(٤).

تأثر النجاشي وأساقفته بسماع القرآن:

حصلت قصة أخرى - قبل ذلك - للنجاشي وأساقفته عند استماعهم للقرآن يتلى عليهم:

فعن أم سلمة رضي الله عنها، أنها قالت في شأن هجرتهم إلى الحبشة، (بلاد

(١) انظر: التحرير والتنوير (١٨٦/٥). (٢) في ظلال القرآن (٩٦٢/٢).

(٣) انظر: تفسير الطبري (٥/٧)؛ التفسير الكبير (٥٧/١٢).

(٤) التحرير والتنوير (١٨٧/٥).

النَّجَاشِي). . . فقال النَّجَاشِي^(١): فهل معكم شيء مما جاء به؟ وقد دعا أساقفته، فأمرهم فنشروا المصاحف حوله.

فقال لهم جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه: نعم، فقرأ عليهم صدراً من: سورة كهيعص. فبكى - والله - النَّجَاشِي حتى أخضل لحيتَه، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم^(٢).

المطلب السابع

أثر استماع القرآن في الجن

أمر الله تعالى رسوله ﷺ بأن يُعلِّمَ المسلمين وغيرهم بأنَّ الله عزَّ وجلَّ أوحى إليه وقوع حَدِيثٍ عظيم في دعوته المباركة، أقامه الله تكريماً لنبيِّه الكريم ﷺ، وتنوياً بالقرآن العظيم، وهو أن سَخَّرَ له نفراً من الجن للاستماع للقرآن، والاهتداء به؛ وهو من الأدلة التي تدلُّ على أنَّ الجنَّ استمعوا القرآن من النبيِّ ﷺ، فأمنوا به، وصدَّقوه، وانقادوا له، وذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۖ يَهْدِي إِلَى الْرُشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرَكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن: ١ - ٢].

وَيَعِدُّ إِيْمَانُ الْجِنِّ بالنبيِّ ﷺ، وتأثرهم بالقرآن، تأييداً من الله تعالى لنبيِّه

(١) النَّجَاشِي: لَقِبَ يُلَقَّبُ به ملوك الحبشة، كما يقال لملك الفُرس: كسرى، ولملك الروم: قيصر، ونجاشي الحبشة المعنوي هنا هو: أضحية بن أبحر، وكان ملكاً صالحاً، ليبياً ذكياً، وعالمًا عادلاً، شهد له الرسول ﷺ بالإسلام والصَّلاح، وصُلِّيَ عليه حين مات، وهو الذي أوى المسلمين في هجرتهم إلى الحبشة، وأكرمهم، ودفع عنهم أذى قريش. توفيَّ تلكَ سنة (٩هـ)، وقيل: قبل ذلك.

انظر: السيرة النبوية، لابن كثير (٢/٢٩ - ٣٠).

(٢) قِطْعَةٌ من خبر مُطَوَّل، رواه: ابن إسحاق في «المغازي» (١/٢١١)؛ وابن هشام في «السيرة النبوية» (١/٢١٧)؛ وأحمد في «المسند» (١/٢٠١) (ح ١٧٤٥) (٥/٢٩٠ - ٢٩٢) (ح ٢٢٦٤٥)؛ وأورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/٢٤ - ٢٧). وقال: «رواه أحمد، ورجاله رجال الصَّحيح، غير ابن إسحاق، وقد صرَّح بالسَّماع».

وضَّحَّح إسناده: الألباني في «تخريج فقه السنَّة» (ص ١٥٤)، والأرنؤوط في «تخريج زاد المعاد» (٣/٢٩).

الكریم ﷺ، حيث جعله مُصَدِّقاً عند الثقلين، ومعظماً في العالمين، وذلك لم يحصل لرسول قبله.

الحكمة من نزول القرآن بخبر الجن:

أشار ابن عاشور رحمه الله إلى الحكمة من نزول القرآن بخبر الجن قائلاً: «والمقصود من نزول القرآن بخبر الجن: توبيخ المشركين بأن الجن - وهم من عالم آخر - علموا القرآن، وأيقنوا بأنه من عند الله، والمشركون - وهم من عالم الإنس، ومن جنس الرسول ﷺ المبعوث بالقرآن، وممن يتكلم بلغة القرآن - لم يزالوا في ريب منه، وتكذيب وإصرار، فهذا موعظة للمشركين بطريق المضادة لأحوالهم»^(١).

وقال رحمه الله في موضع آخر: «والذين أمر الرسول ﷺ بأن يقول لهم إنه أوحى إليه بخبر الجن: هم جميع الناس الذين كان النبي ﷺ يبلغهم القرآن، من المسلمين والمشركين، أراد الله إبلاغهم هذا الخبر؛ لما له من دلالة على شرف هذا الدين، وشرف كتابه، وشرف من جاء به، وفيه إدخال مسرة على المسلمين، وتعريض للمشركين؛ إذ كان الجن قد أدركوا شرف القرآن، وفهموا مقاصده، وهم لا يعرفون لغته، ولا يدركون بلاغته، فأقبلوا عليه، والذين جاءهم بلسانهم، وأدركوا خصائص بلاغته، أنكروه، وأعرضوا عنه»^(٢).

وقد جاء مثل ذلك عن الرازي رحمه الله، وأشار إليه بقوله: «وفيه فوائد.

إحداها: أن يعرفوا بذلك أنه ﷺ كما بُعث إلى الإنس، فقد بُعث إلى الجن. وثانيها: أن تعلم قريش أن الجن - مع تمردهم - لما سمعوا القرآن عرفوا إعجازه، فآمنوا بالرسول. وثالثها: أن يعلم القوم أن الجن مكلفون كالإنس. ورابعها: أن يعلم أن الجن يستمعون كلامنا ويفهمون لغاتنا. وخامسها: أن يظهر أن المؤمن منهم يدعو غيره من قبيلته إلى الإيمان، وفي كل هذه الوجوه مصالح كثيرة إذا عرفها الناس»^(٣).

(١) التحرير والتنوير (٢٦/٤٨ - ٤٩). (٢) المصدر نفسه (٢٩/٢٠٥ - ٢٠٦).

(٣) التفسير الكبير (٣٠/١٣٦).

وعلى كل حال: فهؤلاء النَّفَر من الجن حصل لهم شرف توحيد الله تعالى، ومعرفة أسمائه وصفاته، وصدق رسوله ﷺ، وصدق القرآن، والتأثر بسماعه، فصاروا من خيرة المخلوقات، فأكرموا - في الدنيا - بشرف الدَّعوة إلى الله تعالى، وأكرموا - في الآخرة - بالفوز بالجنة، فلم يكونوا مِمَّنْ ذَرَأَ الله لجهنم من الجن والإنس.

وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّذِرِينَ ۖ﴾ (١٧) قَالُوا يَنْقُومُنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَّا طَرِيقٌ مُّسْتَقِيمٌ ۖ يَنْقُومُنَا أَجِبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَإِمَائِهِمْ يَقْتُلُوهُمْ يُغْنِيكُمْ مِّنْ دُونِهِمْ وَيُجْزِمُكُم مِّنْ عَذَابِ آلِهِمْ ۖ وَمَنْ لَا يُجِيبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿[الأحقاف: ٢٩ - ٣٢].

* وأما الأدلة من السنة: فهناك الأحاديث الكثيرة والروايات المتكاثرة التي ثبتت تأثر الجن بما سمعوه من القرآن، وأقتصر في هذا الصدد على رواية - في صحيح البخاري - وردت عن ابن عباس رضي الله عنهما حيث قال:

«انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه، عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين، فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب، قال: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فانظروا ما هذا الأمر الذي حدث. فانطلقوا، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، ينظرون ما هذا الأمر الذي حال بينهم وبين خبر السماء، قال: فانطلق الذين توجهوا نحو تهامة^(١) إلى رسول الله ﷺ بنحلة^(٢)، وهو عامد إلى

(١) (تهامة): اسم لكل مكان غير عالٍ من بلاد الحجاز، سميت بذلك لشدة حرها اشتقاقاً من التَّهْم بفتحين، وهو شدة الحر وسكون الليل.

(٢) (نحلة): موضع بين مكة والطائف، قال البكري: على ليلة من مكة. وهي التي يُنسب إليها بطن نخل. انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨/ ٨٦٠).

سُوقٍ عُكَاظٍ^(١)، وَهُوَ يُصَلِّي بِأَصْحَابِهِ صَلَاةَ الْفَجْرِ، فَلَمَّا سَمِعُوا الْقُرْآنَ تَسَمَّعُوا لَهُ^(٢)، فَقَالُوا: هَذَا الَّذِي خَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، فَهَذَا لَكُمْ رَجْعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ، فَقَالُوا: يَا قَوْمَنَا ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ ① يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَأَمَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿[الجن: ١ - ٢] . وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ [الجن: ١] . وَإِنَّمَا أُوحِيَ إِلَيْهِ قَوْلُ الْجِنِّ^(٣) .

ومن الفوائد التي ذكرها ابن حجر رحمته الله - بعد شرحه للحديث - قوله: «وفي الحديث إثبات وجود الشياطين والجن، وأنها لمسمى واحد، وإنما صاروا صنفين باعتبار الكفر والإيمان، فلا يقال لمن آمن منهم إنه شيطان،... وأن الاعتبار بما قضى الله للعبد من حسن الخاتمة، لا بما يظهر منه من الشر، ولو بلغ ما بلغ؛ لأن هؤلاء الذين بادروا إلى الإيمان، بمجرد استماع القرآن، لو لم يكونوا عند إبليس في أعلى مقامات الشر، ما اختارهم للتوجه إلى الجهة التي ظهر له أن الحدث الحادث من جهتها. ومع ذلك فغلب عليهم ما قضى لهم من السعادة بحسن الخاتمة، ونحو ذلك قصة سحرة فرعون^(٤)» .

وقد عَقَّبَ ابن كثير رحمته الله - بعد أن أوردَ الطُّرُقَ والروايات، التي تفيد استماع الجن للقرآن وتأثرهم به - قائلاً: «فهذه الطُّرُق كلها تدلُّ على أنه ﷺ ذهب إلى الجن قَصْداً، فتلا عليهم القرآن، ودعاهم إلى الله ﷻ، وشرع الله لهم على

(١) (سُوقٍ عُكَاظٍ): هو موسم معروف للعرب. بل كان من أعظم مواسمهم، وهو نخل في وادٍ بين مكة والطائف، وهو إلى الطائف أقرب، بينهما عشرة أميال، وهو وراء قرن المنازل بمرحلة من طريق صنعاء اليمن. وقال البكري: أول ما أحدث قبل الفيل بخمس عشرة سنة، ولم تزل سُوقاً إلى سنة تسع وعشرين ومائة، فخرج الخوارج الحرورية فنهبوا ففتركت إلى الآن، وكانوا يُقيمون به جميع شوال، يتبايعون ويتفاخرون، وتنشد الشعراء ما تجدد لهم، وقد كثر ذلك في أشعارهم كقول حسان:

سَأَنْشُرُ إِنْ حَبِيتُ لَكُمْ كَلَاماً يُنْشَرُ فِي الْمَجَامِعِ مِنْ عُكَاظٍ

انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨/٨٥٥).

(٢) (تَسَمَّعُوا لَهُ): أي قصدوا لسماع القرآن، وأصغوا إليه.

(٣) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب: تفسير سورة الجن: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ (٢/١٥٧٣) (ح ٤٩٢١).

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨/٨٦١).

لسانه ما هم محتاجون إليه في ذلك الوقت. وقد يحتمل: أن أول مرة سمعوه يقرأ القرآن لم يشعر بهم، كما قاله ابن عباس رضي الله عنه. ثم بعد ذلك وفدوا إليه كما رواه ابن مسعود.

وأما ابن مسعود رضي الله عنه فإنه لم يكن مع رسول الله ﷺ حال مخاطبته للجن ودعائه إياهم، وإنما كان بعيداً منه، ولم يخرج مع النبي ﷺ أحد سواه، ومع هذا لم يشهد حال المخاطبة، هذه طريق البيهقي.

وقد يحتمل: أن يكون أول مرة خرج إليهم لم يكن معه ابن مسعود ولا غيره، كما هو ظاهر سياق الرواية الأولى من طريق الإمام أحمد، وهي عند مسلم. ثم بعد ذلك خرج معه ليلة أخرى، والله أعلم^(١).

* ومما يدل - كذلك - على صدق إيمان الجن وتأثرهم بسماع القرآن العظيم، أنهم قابلوا الآيات التي تلى عليهم بالشكر القولي.

فعن جابر رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ؛ على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها فسكتوا، فقال:

«لَقَدْ قَرَأْتَهَا عَلَى الْجِنِّ لَيْلَةَ الْجِنِّ، فَكَانُوا أَحْسَنَ مَرْدُوداً مِنْكُمْ، كُنْتُ كُلَّمَا أَتَيْتُ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٣]^(٢)، قالوا: لا بِشَيْءٍ مِنْ نِعَمِكَ رَبَّنَا نَكْذُبُ، فَلَكَ الْحَمْدُ»^(٣).



(١) تفسير ابن كثير (٢٩٧/٧). (٢) وتكررت بعدها (٣٠) مرة.

(٣) رواه الترمذي (٣٩٩/٥) (ح ٣٢٩١)؛ والحاكم في «المستدرک» (٥١٥/٢) (ح ٣٧٦٦) وقال: «صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه». ووافقه الذهبي. وحسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي»: (١١٢/٣) (ح ٢٦٢٤). و«الصحيح»: (١٨٣/٥) (ح ٢١٥٠).

الفصل الرابع

هجر تعلم القرآن وتعليمه

وفيه خمسة مباحث:

المبحث الأول: مظاهر هجر تعلم القرآن وتعليمه.

المبحث الثاني: آداب مُعلِّم القرآن ومُتعلِّمه.

المبحث الثالث: فضائل تعلم القرآن وتعليمه.

المبحث الرابع: أحكام تعلم القرآن وتعليمه.

المبحث الخامس: همّة السلف في تعلم القرآن وتعليمه.

المبحث الأول

مظاهر هجر تعلُّم القرآن وتعليمه

الإعراض عن تعلُّم القرآن وتعليمه - في الواقع المُعاصر - يأخذ مظاهر عدّة، فربّما كان تشاغلاً بأمر من أمور الدُّنيا، أو كان زهداً في تعلُّم القرآن وتعليمه، أو كان تكاسلاً عن التَّعلُّم والتَّعليم، أو جهلاً بفضائل تعلُّم القرآن وتعليمه، أو غير ذلك.

وفي هذه المُجالة سنُجمل مظاهر هجر تعلُّم القرآن وتعليمه في النُّقاط الآتية:
أولاً: مظاهر هجر تعلُّم القرآن:

- ١ - قلة احتساب الأجر، وضعف النِّية في تعلُّم القرآن.
- ٢ - العبث والفوضى في مجلس التَّعليم، وعدم الانضباط.
- ٣ - الانتظام لفترة وجيزة من الوقت، ثم ترك حلقة التَّعليم بلا رجعة.
- ٤ - كثرة الغياب أو التَّأخُّر في المجيء إلى حلقة التَّعليم.
- ٥ - عدم وضوح الهدف والغاية من تعلُّم القرآن.
- ٦ - عدم التزام الأدب في حمل المصحف ووضعه، أو الكتابة عليه، أو تمزيق بعض أوراقه من قِبَل صغار المتعلِّمين.
- ٧ - التَّقصير في الحفظ والمراجعة والأداء، وعدم الحرص على تحسين المستوى في ذلك.
- ٨ - عدم تخصيص أوقات لمراجعة القرآن.
- ٩ - الانقطاع عن حلقة التَّعليم لفترات طويلة، ثم العودة.
- ١٠ - التَّسرُّب من حلقة التَّعليم، وإيهام الأهل بالذهاب إليها والانتظام فيها، مع أن الواقع خلاف ذلك.

- ١١ - اعتناء المتعلّمين بالكَمِّ دون الكيف أثناء عملية التّعليم.
- ١٢ - انحراف أذهان الطّلاب، بل وأجسادهم إلى مواطن اللّعب واللّهو نتيجة قربها من مكان حلقة التّعليم^(١).
- ١٣ - جعلُ تعلّم القرآن وسيلة لنيل جوائز مسابقات تحفيظ القرآن، أو للتّعيين في وظيفة إمام مسجد، أو للتّدريس في مدرسة أو حلقة تحفيظ، أو للقبول في جامعة أو كليّة، أو للقراءة في المآثم والعزاء.
- ١٤ - عدم استشعار فضائل تعلّم القرآن.
- ١٥ - جعلُ تعلّم القرآن مقتصرًا على المراحل الدّراسية النظامية مع عدم كفايتها.
- ١٦ - تعلّم الفقه والحديث وعلوم الشّريعة الأخرى قبل القرآن الكريم.
- ١٧ - تقدّم السن مع عدم تعلّم القرآن حيّاءً أو تكبراً.
- ١٨ - الحصول على شهادات عالية في مختلف التّخصّصات مع عدم إتقان القرآن الكريم.
- ١٩ - الزّهد في تخصّصات علوم القرآن والتّجويد.
- ٢٠ - تبوؤ المناصب المختلفة في الوزارات والشّركات والمؤسّسات والهيئات مع ضعف العناية بتعلّم القرآن.
- ٢١ - بعض الفسّاق يتعلّمون التّجويد لتحسين مخارج الحروف من أجل أداء أفضل في الغناء، زعموا!!

ثانياً: مظاهر هجر تعليم القرآن:

- ١ - إقبال المعلّم على تعليم القرآن لدافعٍ مادّي بحت، واعتبار التّدريس مجرد أداء وظيفي لا غير.
- ٢ - استعمال معلّم القرآن طّلابه في نيل مآربه ومصالحه الخاصّة.

(١) انظر: نحو أداء متميّز لحلقات تحفيظ القرآن الكريم، سلسلة تصدر عن المنتدى الإسلامي (ص ٥٢ - ٥٦).

- ٣ - الإقبال على تعليم أبناء الأغنياء دون الفقراء.
- ٤ - قلة احتساب الأجر في تعليم القرآن، وضعف النية.
- ٥ - عدم استشعار فضائل تعليم القرآن.
- ٦ - عدم تفرُّغ المعلّم للحلقة ذهنياً أو زمنياً، أو إتيانه إليها مُتَهَكّ القوى، خائر الجسد.
- ٧ - كثرة غياب المعلّم أو تأخّره في المجيء إلى حلقة التّعليم.
- ٨ - تصدّر المعلّمين غير المتقنين لتدريس القرآن.
- ٩ - سوء الخُلُق مع المتعلّمين، وعدم الرّفق بهم، وعدم الصّبر على أخطائهم.
- ١٠ - ألا يكون المعلّم قلوة حسنة لطلّابه في المظهر، أو السّلوكة.
- ١١ - سوء القيام بتأديب المتعلّمين إفراطاً أو تفريطاً.
- ١٢ - عدم وضوح الهدف والغاية من تعليم القرآن.
- ١٣ - ازدياد شخصيّة معلّم القرآن في وسائل الإعلام.



المبحث الثاني

آداب مُعَلِّم القرآن ومُتَعَلِّمه

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: آداب مشتركة بين مُعَلِّم القرآن ومُتَعَلِّمه.

المطلب الثاني: آداب مُعَلِّم القرآن.

المطلب الثالث: آداب مُتَعَلِّم القرآن.

المطلب الأول

آداب مشتركة بين معلّم القرآن ومتعلّمه

معلّم القرآن ومتعلّمه شريكان في المسؤولية الجسيمة الملقاة على عاتقهما، وهي حمل كتاب الله تعالى؛ وهذه نعمة عظيمة، ومِنَّة جليلة، تستوجب الشكر الدائم، وهي في الوقت ذاته حُجّة لهما أو عليهما، فلا بدّ لهما من التحلّي بمجموعة من آداب؛ للمحافظة على هذه النعمة الكبيرة، مع الأخذ في الاعتبار أنّ معلّم القرآن مُضاعف المسؤولية.

وسأقتصر في هذا الشأن على ذكر أدبين مهمّين، بل هما أصلان عظيمان يجب العمل بهما؛ لأنهما كالأساس للبناء، فلا يقوم الفرع إلّا بأصل، وهما على النحو الآتي:

١ - التمسك بمنهج السلف في الاعتقاد:

يعدّ الالتزام بأصل الاعتقاد الذي كان عليه السلف الصّالح، وبراءة المرء من المُحدثات والبدع من أكبر منن الله عليه.

وسلامة الاعتقاد مطلب شرعي، ومن أوّل الصّفات التي ينبغي أن يتحقّق بها معلّم القرآن ومتعلّمه.

ذلك أنّ رجل العقيدة السّلفية سهم يندفع في تحقيق أهدافه، قد أنارت عقيدته بصيرته، فهو يعيش ويموت من أجلها، ويرضى بكلّ أذى في سبيلها، ويبذل جهده ووقته وكلّ غالٍ ونفيس في ظلّها، فرجل العقيدة السّلفية أعظم دُخْرِ لها، وأكبر رصيد نُعْدُه في سبيل نصرتها^(١).

وسلامة الاعتقاد من المقوّمات الأساسيّة لمعلّم القرآن، الذي يتصدّى للتعليم والتّربية في حلّقات القرآن؛ لأنّ ذلك يُثمر الاستقرار القلبي، فيصبح اعتقاده

(١) انظر: المسؤولية، د. محمد أمين المصري (ص ٤٠).

القلبي متوافقاً مع قوله اللَّفْظِي، وسلوكه العملي^(١).
ورجل العقيدة الصّحيحة يستطيع أن يحقق أهداف الحَلَقَاتِ القرآنيّة، بغرس بذرة الإيمان في نفوس الناشئة، وبناء لبنة عقيدة التّوحيد الخالصة، بحيث يجتمع تعلّم القرآن مع نقاء الفطرة، فتنمو الثّمرة، وتؤتي أكلها، فيحصل النّفع بإذن الله^(٢).

ولقد كان أئمة القراء الأوائل على هذا المنهج الواضح في التمسك بمنهج السلف في الاعتقاد، والتّحذير من البدع والضّلالات.

فعلى سبيل المثال نجد أنّ الإمام المقرئ عثمان بن سعيد (أبا عمرو الدّاني رحمته الله)^(٣) ألف: (الرّسالة الوافية لمذهب أهل السنة في الاعتقادات وأصول الديانات)، التي تنضح بمعتقد أهل السنة والجماعة، وتمتاز بسبك الأدلة في مواضعها، كما أنّها خلت من علم الكلام^(٤).

وفي منظومته الموسومة بـ (الأرجوزة المنبهة) - وهي قصيدة رجزية تقع في نحو (١٣٠٠) بيت - أوضح أصول القراءة ومتعلقاتها، وأصول الدّين، فذكر من صفات الشيوخ الذين يؤخذ عنهم العلم ما يلي^(٥).

فَاقْصِدْ شُيُوخَ الْعِلْمِ وَالرُّوَايَةِ وَمَنْ سَمَا بِالْفَهْمِ وَالدِّرَايَةِ

(١) انظر: مهارات التدريس في الحلقات القرآنية، د. علي بن إبراهيم الزهراني (ص ٦٨).

(٢) انظر: المقومات الشخصية لمعلّم القرآن الكريم، د. حازم سعيد حيدر (ص ٩).

(٣) هو عثمان بن سعيد (أبو عمرو الدّاني) المالكي، ويقال له: ابن الصّيرفي، وعُرف بالدّاني لسكناه دانيّة، ولد سنة (٣٧١هـ)، كان أحد الأئمة في علم القرآن وروايته، وتفسيره ومعانيه وطرقه وإعرابه. قال الذهبي رحمته الله: «وما زال القراء معترفين ببراعة أبي عمرو الدّاني وتحقيقه وإتقانه، وعليه عملتهم فيما ينقله من الرّسم والتّجويد والوجوه». توفي سنة (٤٤٤هـ). له أكثر من مائة مصنّف، منها: «التيسير في القراءات السبع»، والمقنع في رسم المصحف ونقطه، والبيان في عدّ آي القرآن.

انظر: طبقات الحفاظ، للسيوطي (١/٤٢٨)؛ سير أعلام النبلاء (١٨/٧٧).

(٤) انظر: الرّسالة الوافية لمذهب أهل السنة في الاعتقادات وأصول الديانات، لأبي عمرو الدّاني، تحقيق: د. محمد بن سعيد القحطاني - مقدّمة المحقّق: (ص ٨ - ٩).

(٥) انظر: الأرجوزة المنبهة على أسماء القراء والرّواة وأصول القراءات وعقد الديانات بالتّجويد والدّلالات، تحقيق: محمد بن محققان الجزائري (ص ١٦٨).

مِمَّنْ رَوَى وَقَيَّدَ الْأَخْبَارًا
وَقَهَمَ اللُّغَاتِ وَالْإِعْرَابَا
وَحَفِظَ الْخِلَافَ وَالْحُرُوفَا
وَجَمَعَ التَّفْسِيرَ وَالْأَحْكَامَا
وَصَحَّبَ النُّسَاكَ وَالْأَخْيَارَا
وَاتَّبَعَ السُّنَّةَ وَالْجَمَاعَةَ
وَقَالَ أَيْضاً^(١):

وَجَانِبِ الْأَرَادِلِ الْمُبْتَدِعَةَ
وَقَالَ فِي بَيَانِ بَعْضِ مَسَائِلِ الْعَقِيدَةِ^(٢):

بِكُلِّ مَا جَاءَ بِهِ الْقُرْآنُ
عَنِ الْأَيْمَةِ عَنِ النَّبِيِّ
وَشَاعَ فِي النَّاسِ قَدِيماً وَانْتَشَرَ
فِي كُلِّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ
سُبْحَانَهُ مَنْ قَادِرٌ لَطِيفٌ
وَأَنَّنَا نَرَاهُ بِالْأَبْصَارِ
كَرُؤْيَةِ الْبَذْرِ بِلَا غَمَامٍ
وَمِنْ عُقُودِ السُّنَّةِ الْإِيمَانُ
وَبِالْحَدِيثِ الْمُسْنَدِ الْمَرْوِيِّ
فَمِنْ صَحِيحٍ مَا أَتَى بِهِ الْأَثَرُ
نُزُولُ رَبِّنَا بِلَا امْتِرَاءٍ
مِنْ غَيْرِ مَا حَدٌّ وَلَا تَكْثِيفٍ
وَرُؤْيَةُ الْمُهَيِّمِينَ الْجَبَّارِ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلَا اِزْدِحَامٍ

٢ - الإخلاص لله تعالى:

يجب على كلِّ مكلف أن يُخلص قصده لله تعالى في سائر أعماله الظاهرة والباطنة، فكيف بمن ارتبط بكتاب الله تعالى تعلماً وتعليماً؟

وقد أمر الله تعالى بإخلاص العمل له - وهو الذي يراد به وجهه الله تعالى لا غيره - في قوله: ﴿وَمَا أُمُورًا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ آلَاتِهِمْ﴾ [البينة: ٥].

(١) انظر المصدر نفسه (ص ١٧٤).

(٢) وهم أهل السنة والجماعة، والفرقة الناجية من أهل الحديث، المتبعون لما كان عليه صدر هذه الأمة.

(٣) انظر: المصدر نفسه (ص ١٧٨، ١٩٤ - ١٩٥).

قال القشيري^(١) رحمه الله: «الإخلاص: إفراؤ الحق سبحانه في الطاعة بالقصد، وهو أن يُريد بطاعته التّقرّب إلى الله سبحانه دون شيء آخر من تصنّع لمخلوق، أو اكتساب صفة حميدة عند النّاس، أو محبة مدح من المخلوق، أو معنى من المعاني سوى التّقرّب إلى الله تعالى.

ويصحّ أن يُقال: الإخلاص تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين»^(٢).
والله تبارك وتعالى ابتلى عباده بالشّريعة؛ ليظهر منهم حسن العمل، فقال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

قال الفضيل بن عياض رحمه الله: «أخلصه وأصوبه، وإنّ العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يُقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يُقبل، حتى يكون خالصاً وصواباً. والخالص: إذا كان لله عزّ وجلّ، والصّواب: إذا كان على السّنة»^(٣).

وقد يؤدّي عدم الإخلاص في تعلّم القرآن وتعليمه إلى إلقاء صاحبه في النّار، والعياذ بالله:

فقد جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُفْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ، رَجُلٌ اسْتَشْهَدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتُ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتَشْهَدْتُ. قَالَ كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ: جَرِي، فَقَدْ قِيلَ: ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ. وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ، وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا. قَالَ: فَمَا عَمِلْتُ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ، وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ. قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ

(١) هو أبو القاسم، عبد الكريم بن هوزان بن عبد الملك بن طلحة بن محمد النّيسابوري، القشيري، الشّافعي، صوفي، مفسّر، فقيه، أصولي، محدّث، واعظ، ولد سنة (٣٧٦هـ)، وتوفي بنيسابور سنة (٤٦٥هـ). من تصانيفه: «التّيسير في التّفسير»، و«الفصول في الأصول»، و«الجواهر الثّمانية».

انظر: سير أعلام النبلاء (١١/١٩٨)؛ طبقات الشّافعية (٣/٢٤٣).

(٢) الرّسالة القشيرية، لعبد الكريم القشيري (ص ٢٠٧ - ٢٠٨). وانظر: التّبيان في آداب حملة القرآن (ص ٤٢).

(٣) انظر: جامع العلوم والحكم (١/٢٤)؛ تفسير البغوي (٨/١٧٦).

تَعَلَّمَتِ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأَتِ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ: ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُجِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ... الحديث^(١).

ولذلك يعدُّ العمل الخالي من النية الصالحة كالجنة الهامدة، التي لا روح فيها، وقد فرض الله عزَّ وجلَّ عبوديةً على المسلم في كلِّ عمل يعملُه، وممَّا لا مرأى فيه أنْ تعلِّم القرآن وتعليمه من أجلَّ القربات وأعظمها أجراً، وكلَّمَا أخلص المرء لله لم يتعثَّر في سيره، وأعطى توفيقاً بقدر ما في قلبه من الصدق والإخلاص^(٢).

ولِعَظُمَ هذا الأمر وأهميته في مقاصد المكلفين، وفيما يتعبَّدون به ربُّهم، تمنَّى ابن أبي جمرة الأندلسي^(٣) رَحِمَهُ اللهُ أَنْ يَتَفَرَّغَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ كَيْ يَعْلَمَ النَّاسَ مقاصدهم، فقال: «وددت أَنَّهُ لو كان من الفقهاء مَنْ ليس له شُغْلٌ إِلَّا أَنْ يُعَلِّمَ النَّاسَ مقاصدهم في أعمالهم، ويقعدَ للتَّدرِّس في أعمال النِّيات ليس إلَّا، فَإِنَّهُ مَا أَتَى عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ إِلَّا مِنْ تَضْيِيعِ ذَلِكَ»^(٤).

ويرتبط بهذا بالضرورة: ألا يقصد بتعلُّم القرآن وتعليمه توصُّلاً إلى غرض من أغراض الدُّنيا من مال، أو رياسة، أو وجاهة، أو ارتفاع على أقرانه، أو ثناء عند النَّاس، أو صرف وجوه النَّاس إليه، أو نحو ذلك^(٥).

قال الله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠]. وقال: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ تَعَلَّمَ عِلْماً مِمَّا يُنْتَفَى بِهِ

(١) رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب: مَنْ قَاتَلَ لِلرِّيَاءِ وَالشُّمْعَةِ اسْتَحَقَّ النَّارَ (٣/١٥١٤) (ج ١٩٠٥).

(٢) انظر: المقومات الشخصية لمعلم القرآن الكريم (ص ١٢).

(٣) هو عبد الله بن أبي جمرة السبتي، المالكي، خطيب غرناطة (أبو محمد) توفي وهو على المنبر يوم الجمعة سنة (٧١٠هـ).

انظر: ذيل التقييد في رواية البسن والمسانيد، لأبي الطيب الفاسي (٢/٧٠).

(٤) المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات، لابن الحاج (١/٣).

(٥) انظر: التبيان في آداب حملة القرآن (ص ٤٦).

وَجْهَ اللَّهِ ﷻ، لَا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضاً مِنَ الدُّنْيَا، لَمْ يَجِدْ عَرَفَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» يعني: رِيحَهَا^(١).

وعن كُتُبِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُجَارِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ، أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، وَيَصْرِفَ بِهِ وَجْهَهُ النَّاسِ إِلَيْهِ، أَدْخَلَهُ اللَّهُ النَّارَ»^(٢).

قَالَ الذَّهَبِيُّ^(٣) ﷺ: «قَدْ يَكُونُ طَلَبُ الْعِلْمِ - الَّذِي هُوَ الْوَاجِبُ وَالْمُسْتَحَبُّ الْمُتَأَكَّدُ - مَذْمُوماً فِي حَقِّ بَعْضِ الرِّجَالِ كَمَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُجَارِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ، وَيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، وَلِيَصْرِفَ بِهِ الْأَعْيْنَ إِلَيْهِ، أَوْ لِيُعْظَمَ وَيُقَدَّمَ، وَيُنَالَ مِنَ الدُّنْيَا الْمَالَ وَالْجَاهَ وَالرُّفْعَةَ، فَهَذَا أَحَدُ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ تُسَجَّرُ بِهِمُ النَّارُ»^(٤).

وتأتي أهمية تصفية النية من الشوائب، وإخلاصها لله تعالى في فاعلية العملية التعليمية والتربوية من كونها أساساً لقبول عمل المعلم والمتعلم ورفع عملهما الصالح، ومن الجانب الآخر فإنّ معلّم القرآن قدوة لطلّابه، فإذا كان خالي الوفاض أو مُكَدَّر المورّد في هذه الصّفة، فكيف يُؤثّر في المتعلّمين، ويحقّق أهدافه التّعليمية والتّربوية؟^(٥).

(١) رواه أبو داود، كتاب العلم، باب: في طلب العلم لغير الله (٣/٣٢٣). (ح ٣٦٦٤)؛ وصحّحه الألباني في «صحيح سنن أبي داود»: (٢/٦٩٧) (ح ٣١١٢).

(٢) رواه الترمذي، كتاب العلم، باب: فيمن يطلب بعلمه الدنيا (٥/٣٢). (ح ٢٦٥٤)؛ وحسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي»: (٢/٣٣٧) (ح ٢١٣٨).

(٣) هو الإمام محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز بن عبد الله التركماني الأصل، الفارقي، ثم الدمشقي، الذهبي، الشافعي (أبو عبد الله) محدث، مؤرخ، ولد بدمشق سنة (٧٥٩هـ)، وسمع بها وبجلب وبنابلس وبمكة وبمصر، وسمع منه خلق كثير، كان إماماً في الحفظ، والجرح والتعديل، توفي بدمشق سنة (٨١٩هـ) ودفن بمقبرة الباب الصغير. وله تصانيف كثيرة منها: «ميزان الاعتدال في نقد الرجال»، و«طبقات الحفاظ»، و«الإعلام بوقيات الأعلام»، و«تجريد أسماء الصحابة»، و«سير أعلام النبلاء».

انظر: طبقات الشافعية (٥/٢١٦)؛ الدرر الكامنة (٣/٣٣٧).

(٤) طلب العلم وأقسامه، للذهبي (ص ٢١٠ - ٢١١).

(٥) انظر: المقومات الشخصية لمعلّم القرآن الكريم (ص ١٣).

المطلب الثاني

آداب معلّم القرآن

من المعلوم بداهة أنّ الفرع يتبع الأصل، وأنّه لا يستقيم الظلّ والعودُ أعوج، وأنّ لكلّ مقتدٍ مثلاً يحتذيه.

والمعلّمون بعامة، ومعلّمو القرآن بخاصّة هم القدوة لطلّابهم، فالواجب على معلّم القرآن أن يسلك مسلكاً حسناً في تعليم من يعلمهم، فلا يريهم من نفسه ما ينفرهم، ويتحلّى بصفات الحلم والرّافة والأمانة، والصّدق والإخلاص، وأنّ يحنو عليهم كما يحنو على أبنائه.

وقد اعتنى معلّمو القرآن من السّلف الصّالح بطلّابهم، فأؤلّوهم كلّ رعاية وعناية، وكانوا قدوة صالحة لهم في حبّ كلام الله تعالى وتعظيمه والإقبال عليه، مع التّحلي بأخلاقه، والتأدّب بأدابه، ورعاية حقوقه، وأقبلوا على طلّابهم بكلّ حفاوة وترغيب، وشملوهم بكلّ عطف ولين، ومَحَضُوا لهم النّصيحة وتابعوهم بالتّوجيه والتّسديد والإرشاد.

ومن هنا كان اهتمام علماء المسلمين بوضع عدد من القواعد والضّوابط أو الآداب التي يجب أن يلتزم بها معلّمو القرآن الكريم أثناء قيامهم بهذه المهمّة الشّريفة المباركة، ومن هؤلاء: الأجرّي^(١)، وأبو حامد الغزالي^(٢)، والنّووي^(٣) وغيرهم، رحمهم الله تعالى.

فلا بدّ لمعلّم القرآن أن يلتزم جملةً من الآداب؛ ليكون على قدر المسؤوليّة، والمهمّة الجسيمة الملقاة على عاتقه، والتي منها:

١ - الاستقامة على دين الله تعالى:

المقصود من ذكر صفة الاستقامة لمعلّم القرآن، التّنبية على أن يواظب قوله

(١) انظر: أخلاق حملة القرآن (ص ٣٥ - ٦٥).

(٢) انظر: إحياء علوم الدين (١/ ٤٨) وما بعدها.

(٣) انظر: التبيان في آداب حملة القرآن (ص ٤١ - ٥٩).

وعمله ما يحمل من كلام الله؛ ليكون القرآن العظيم حجةً له، لا عليه، وليرفعه الله به، وينفع بتعليمه.

والاستقامة صفة تجعل من معلّم القرآن أنموذجاً كريماً، وقدوة صالحة في نظر طلابه، والمقصود بالاستقامة هنا هو الصدق والأمانة، والعدل والوفاء، والالتزام بأحكام الشرع الحنيف، والتمسك بالكتاب والسنة ظاهراً وباطناً.

فقد ذكر العلماء أنّ من شرط معلّم القرآن وصفته أن يكون ثقةً مأموناً، ضابطاً، متزهاً عن أسباب الفسق، ومُسقطات المروءة^(١).

وينبغي له كذلك أن يكون ملتزماً بالفرائض والواجبات، ومحافظاً على المندوبات بحسب الاستطاعة، مجتنباً للمجرّمات، مبتعداً عن المكروهات بقدر الطاقة، محاسباً نفسه على هفواته وزلاته، حريصاً على ما يصلح دينه^(٢).
عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «ينبغي الحامل القرآن أن يُعرف بليته إذا الناس نائمون، وبناهارة إذا الناس مُفطرون، وبورعه إذا الناس يخلطون، ويتواضعه إذا الناس يختالون، وبحزنه إذا الناس يفرحون، وببكائه إذا الناس يضحكون، وبصمته إذا الناس يخوضون»^(٣).

ومما ينبغي لمعلّم القرآن الاعتناء به، أن يُحافظ ويدوم على تلاوة القرآن، دون الاكتفاء بالتسميع للطلبة عند المراجعة، فيقتصر على سماع القرآن دون تلاوته، ممّا يوقعه في هجر تلاوة القرآن.

وممّا يجب على المعلّم أن يأخذ نفسه به، وينشئ طلابه عليه، البعد عن الأساليب المبتدعة في القراءة، التي أحدثت بعد القرون المفضّلة^(٤).

(١) انظر: منجد المقرئين ومرشد الطالبين، لابن الجزري (ص ٥٨).

(٢) انظر: المدارس والكتاتيب القرآنية وفتات تربوية وإدارية، سلسلة تصدر عن المنتدى الإسلامي (ص ١٣).

(٣) رواه أحمد في «كتاب الزهد» (ص ١٦٢)؛ وأبو نعيم في «الحلية» (٢/٢٢٩)؛ والسخاوي في «جمال القراء» (ص ٢٨)؛ وابن أبي شيبه في «مصنفه» (٧/٢٣١) (رقم ٣٥٥٨٤)؛ والنووي في «التبيان» (١/٢٩)؛ والسيوطي في «الدر المنثور» (٧/٢١)؛ والآجوري في «أخلاق حملة القرآن» (ص ٥٠).

(٤) انظر: المقوّمات الشخصية لمعلّم القرآن الكريم (ص ١٣ - ١٤).

٢ - حسن الخلق مع المتعلّمين :

من المبادئ المهمّة التي ينبغي لمعلّم القرآن أن يعتني بها، ويعرف حدودها وثمارها الأخرويّة والدنيويّة هو حسن الخلق، ويتأكّد هذا - في حقّ معلّم القرآن - من جانبين :

أ - أنّه من حملة كتاب الله، فهو من العلماء، والعلماء هم ورثة الأنبياء في العلم، فكذاك ينبغي عليهم أن يرثوهم في الأخلاق، وقد أثنى الله تعالى على نبيه الكريم ﷺ بأعظم خلة يتحلّى بها بشر، فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَمَلَكٌ خَلَقَ عَظِيمٌ﴾ [القلم: ٤].

ب - أنّ من تصدّى لتعليم النّاس ومخالطتهم، ينبغي أن يتحلّى بحسن السياسة وتدبير الأمور؛ لأنّه سيواجه منهم ما يكره في بعض الأحيان^(١).
وقد اعتنى السلف الصّالح بهذا وامثلوه قولاً وعملاً، وسيرهم العطرة مع طلابهم خير شاهد على ذلك^(٢).

* فقد جاء عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنّه كان يقول: «تعلّموا العلم، وتعلّموا للعلم السّكينة والحلم، وتواضعوا لمن تعلّمون، ولا تكونوا جبابرة العلماء، فلا يقوم عملكم مع جهلكم»^(٣). فإذا كان العلم هو: القرآن، فالمسؤوليّة أعظم.

* وهم بهذا الصّنيع يسرون على هدي القرآن، ويمثلون أمره: «كان أبو العالية رضي الله عنه إذا دخل عليه أصحابه وطلّابه ليقرئهم رَحَبَ بهم، ووطأ كنفه لهم، وألان القول معهم، ثمّ يقرأ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]»^(٤).

* وقد ذكر من ترجم للإمام المقرئ نافع بن أبي نعيم المدني رضي الله عنه - أحد

(١) انظر: المصدر نفسه (ص ١٥).

(٢) انظر: منهج السلف في العناية بالقرآن الكريم (ص ٩٨ - ١٠٠).

(٣) رواه أحمد في «الزهد» (ص ١٧٧)؛ والأجري في «أخلاق حملة القرآن» (ص ٦١)؛ وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ١٣٥).

(٤) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٢٢١). وانظر: سير أعلام النبلاء (٤/ ٢١١).

القراء السبعة - أن من أسباب إقبال الطلاب على أخذ القراءة عنه وملازمته، ما كان عليه من حسن الخلق، وصباحة الوجه وطلاقة، وكرمه وجوده على طلابه وغيرهم، يقول عيسى بن مينا قالون: «كان نافع من أظهر الناس خلقاً، ومن أحسن الناس قراءة، وكان زاهداً جواداً»^(١).

وجاء أيضاً عنه: «كان يُسهّل القرآن لمن قرأ عليه»^(٢).

فلا غرابة - بعد ذلك - أن نجد من أهل العلم من يُعنى بهذا الجانب، ويؤكد عليه في مواضع مختلفة من مصنفاته؛ لما له من أثر إيجابي في تقوية الروابط الاجتماعية بين المعلم والمتعلم، ومن ذلك:

* ما قاله الماوردي^(٣) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ومن أدبهم: ألا يُعنفوا متعلماً، ولا يُحقّروا ناشئاً، ولا يستصغروا مُبتدئاً، فإنّ ذلك أدعى إليهم وأعطف عليهم، وأحث على الرغبة فيما لديهم»^(٤).

* ومن الآداب التي ذكرها النووي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في حقّ معلّمي القرآن:

«وينبغي ألا يتعاطم على المتعلّمين بل يلين لهم، ويتواضع معهم، فقد جاء في التواضع لأحاديث الناس أشياء كثيرة معروفة، فكيف بهؤلاء الذين هم بمنزلة أولاده، مع ما هم عليه من الاشتغال بالقرآن، مع ما لهم عليه من حقّ الصُحبة وتردّدهم عليه»^(٥).

(١) معرفة القراء الكبار (ص ٦٥)؛ غاية النهاية في طبقات القراء (٢/٣٣٣).

(٢) غاية النهاية في طبقات القراء (٢/٣٣٣).

(٣) هو أبو الحسن علي بن محمد المشهور بالماوردي الإمام الفقيه، قيل له الماوردي؛ لعمل عائلته بصناعة ماء الورد وبيعته، ولد سنة (٣٦٤هـ) بالبصرة، وطلب فيها العلم على المذهب الشافعي، ثم رحل إلى بغداد وتعلّم على يد رئيس الشافعية هناك الشيخ الإسفرائيني، ثم تقلّد رئاسة الشافعية بعده، وله مؤلفات عديدة منها: «الحاوي الكبير»، و«الأحكام السلطانية» وغيرها. توفي سنة (٤٥٠هـ).

انظر: البداية والنهاية (١٢/٨٥)؛ طبقات الشافعية (٥/٢٦٧).

(٤) أدب الدنيا والدين، للماوردي (ص ٩١).

(٥) التبيان في آداب حملة القرآن (ص ٥٤).

٣ - بذل النصيحة للمتعلّمين:

ينبغي لمعلّم القرآن أن ينصح المتعلّمين، وببذل لهم كلّ ما عنده من علم، فالنصيحة من صفات الأنبياء ﷺ قال الله تعالى مُخْبِرًا عَنْ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَأَنَا لَكَ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٨]، وقال عن نوحٍ ﷺ: ﴿وَأَنْصَحُ لَكَ﴾ [الأعراف: ٦٢].

وأصل النصّح: إخلاص النّيّة من شوائب الفساد في المعاملة؛ بخلاف الفش^(١).

* وعلى المعلّم أن يبادر إلى سؤال المتعلّمين، ويستدّهم بالفائدة، ويحرّضهم على أخذ ما عنده من علم، كما فعل عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه مع طلابه حيث قال لهم: «سلوني، فوالله لا تسألوني عن شيء يكون إلى يوم القيامة إلّا حدّثكم به، وسلّوني عن كتاب الله، فوالله ما منه آية إلّا وأنا أعلم بليلٍ تزلت أم بنهار، أم بسهلٍ أم بجبلٍ... أيّها النّاس تعلّموا العلم، واعملوا به، ومن أشكل عليه شيء من كتاب الله فليسألني عنه»^(٢).

* وعن سعيد بن جبّير^(٣) رضي الله عنه قال: «إِنَّ مَنَّمَا يَهْمُنُنِي، أَنِّي وَقَدْتُ أَنَّ النَّاسَ، قَدْ أَخَذُوا مَا مَعِيَ مِنَ الْعِلْمِ»^(٤).

ومن وصايا المعلّمين لطلابهم والأمة من بعدهم - إضافة لما سبق^(٥).

* عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «إِنَّمَا هَذِهِ الْقُلُوبُ أَوْعِيَةٌ، فَاشْغُلُوهَا بِالْقُرْآنِ».

(١) انظر: حق القرآن الكريم على الناس (ص ١٧٣).

(٢) رواه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ١١٤ - ١١٥).

وانظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨/ ٥٩٩).

(٣) هو سعيد بن جبّير بن هشام الأسدي، مولاهم، الكوفي، أبو عبد الله، وقيل: أبو محمد، من أئمة السلف، من الطبقة الثالثة، ومن الفقهاء والعلماء الصالحين الثقات، وكان عابداً فاضلاً ورعاً، خرج مع ابن الأشعث على الحجاج والي بني أمية، فلمّا تمكّن منه الحجاج قتله، وذلك سنة (٩٥هـ)، وعمره (٤٩)، وقيل (٤٧) سنة.

انظر: تهذيب التهذيب (٤/ ١١ - ١٤).

(٤) رواه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ١١٦ - ١١٧)؛ وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٢٨٣)؛ والمزي في «تهذيب الكمال» (١٠/ ٣٦٧).

(٥) انظر: منهج السلف في العناية بالقرآن (ص ٩٢ - ٩٣).

ولا تشغلوها بغيره»^(١) .

* وكان أبو العالية رضي الله عنه يقول لطلابه: «تعلّموا القرآن، فإذا تعلّمتموه فلا ترغبوا عنه، وإياكم وهذه الأهواء فإنّها تُوقع بينكم العداوة والبغضاء، وعليكم بالأمر الأوّل الذي كانوا عليه قبل أن يتفرّقوا»^(٢) .

* وقال مالك بن دينار رضي الله عنه: «ماذا زرع القرآن في قلوبكم يا أهل القرآن إن القرآن ربيع المؤمن، كما أنّ الغيث ربيع الأرض»^(٣) .

* وفي حثّ المتعلّمين على تعاهد الحفظ، يقول الضّحّاك بن مزاحم رضي الله عنه: «ما من أحد تعلّم القرآن فنسيه إلّا بذنب يُحدّثه؛ لأنّ الله تعالى يقول: ﴿وَمَا أَصْبَحْكُمْ مِنْ مَّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]، وإن نسيان القرآن من أعظم المصائب»^(٤) .

٤ - التدرّج في التّعليم والتّربية:

البداية بتعليم الأصول والكلّيات قبل الفروع والجزئيات، يُعدّ السّلم السّوي في مراتب التّعليم، وهو أدعى لثبات العلم ورسوخه لدى المتعلّم.

(١) رواه أبو نعيم في «الحلية» (١/١٣١). (٢) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٢/٢١٨).

(٣) هو مالك بن دينار البصري (أبو يحيى) من موالى بني سامة بن لؤي القرشي، كان عالماً زاهداً، كثير الورع، قنوعاً، له مناقب عديدة، وأثار شهيرة، قال ابن حجر رضي الله عنه: «صدوق عابد، من الخامسة». توفّي سنة (١٣١هـ) بالبصرة قبل الطّاعون بيسير. انظر: وفيات الأعيان (٤/١٣٩)؛ تقريب التهذيب (١/٥١٧).

(٤) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٢/٣٥٨).

(٥) هو الضّحّاك بن مزاحم الهلالي، الخراساني، تابعي، جليل، إمام في التّفسير، قال الثّوري رضي الله عنه: «خذوا التّفسير عن أربعة: مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبّار، والضّحّاك». قال في تقريب التهذيب: «صدوق، كثير الإرسال». وثقه ابن حبان وأحمد، وضعّفه يحيى بن سعيد القطان، توفّي سنة (١٠٥هـ).

انظر: البداية والنهاية (٩/٢٢٣)؛ تقريب التهذيب (١/٢٧٣).

(٦) رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص ١٠٤)؛ وابن المبارك في «الزّهّد» (ص ٨٥)؛ وابن أبي شيبة في «مصنّفه» (١٠/٤٧٨)؛ وابن كثير في «فضائل القرآن» (ص ٢٢٢).

وقد قرّر المنهج النبوي المبارك هذه الطريقة في التعليم:

عَنْ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: «كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، وَنَحْنُ فِتْيَانٌ حَزَاوِرَةٌ^(١)، فَتَعَلَّمْنَا الْإِيمَانَ قَبْلَ أَنْ نَتَعَلَّمَ الْقُرْآنَ، ثُمَّ تَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ، فَأَزْدَدْنَا بِهِ إِيْمَانًا^(٢)».

وسرى هذا المنهج على الصحابة الكرام صموماً، فقد أخبر ابن عمر رضي الله عنهما - وهو من صغار الصحابة - فقال: «لقد عشتُ بُرْهَةً من دهري وإنَّ أحدنا يُؤْتَى الْإِيمَانَ قَبْلَ الْقُرْآنِ، وَتَنْزِلُ السُّورَةُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَتَتَعَلَّمُ حِلَالَهَا وَحُرَامَهَا، وَمَا يَنْبَغِي أَنْ نَقِفَ عِنْدَهُ مِنْهَا، كَمَا تُعَلَّمُونَ أَنْتُمْ الْقُرْآنُ...»^(٣).

ثمَّ بيّن ابن عمر رضي الله عنهما أنَّ هذا المنهج طرأ عليه تغيير في جيل التابعين، فقال عن بعض مَنْ شَاهَدَ طَرِيقَتَهُ فِي تَعَلُّمِ الْقُرْآنِ:

«... ثُمَّ لَقَدْ رَأَيْتُ رِجَالاً يُؤْتَى أَحَدُهُمُ الْقُرْآنُ قَبْلَ الْإِيمَانِ، فَيَقْرَأُ مَا بَيْنَ فَاتِحَةِ الْكِتَابِ إِلَى خَاتَمَتِهِ، مَا يَدْرِي مَا أَمْرُهُ، وَلَا زَاوِرُهُ، وَمَا يَنْبَغِي أَنْ يَقِفَ عِنْدَهُ مِنْهُ، يَشْرَهُ نَثْرَ الدَّقَلِ^(٤)»^(٥).

وهذه حقيقة مرّة نلاحظها اليوم في بعض رُوَادِ حِلَقِ الْقُرْآنِ، وَمَنْ يَحْفَظُ الْقُرْآنَ، فَتَجِدُ الْوَاحِدَ مِنْهُمْ مِنْ أَبْعَدِ النَّاسِ خُلُقاً وَأَدْباً وَسُلُوكاً عَمَّا يَحْفَظُهُ فِي صَدْرِهِ مِنَ الْقُرْآنِ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِلتَّحَوُّلِ عَنِ الْمَنْهَجِ الصَّحِيحِ فِي الْإِخْذِ وَالتَّلْقِي، فَأَصْبَحَ الْأَمْرُ مَجْرَدَ أَلْفَاظٍ يَرُدُّهَا وَيَحْفَظُهَا، دُونَ أَنْ يَكُونَ لَهَا مَسْلَكٌ إِلَى قَلْبِهِ. وَلِهَذَا يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُعَلِّمٍ لِلْقُرْآنِ أَنْ يَكُونَ حَكِيماً فِي تَعْلِيمِهِ، مُتَفَهِّماً لِمَا

(١) (حَزَاوِرَةٌ): جَمْعُ حَزَوْرٍ وَحَزَوْرٍ، وَهُوَ الَّذِي قَارَبَ الْبُلُوغَ، النِّهَايَةَ فِي غَرِيبِ الْحَدِيثِ وَالْأَثَرِ (١/ ٣٨٠).

(٢) رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهَ فِي «الْمَقْدَمَةِ» (١/ ٢٣) (ح ٦١).

(٣) رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي «الْأَوْسَطِ». انْظُرْ: مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ فِي زَوَائِدِ الْمَعْجَمَيْنِ، لِلْهَيْثَمِيِّ (١/ ٤٨٢)، وَحَسَنَةُ الْمُحَقِّقِ؛ وَالشَّيْطَوِيِّ فِي «الدَّرِّ الْمُنْشُورِ» (٢/ ٦٩)؛ وَابْنُ بَيْهَقٍ فِي «السُّنَنِ الْكُبْرَى» (٣/ ١٢٠) (رَقْمُ ٥٠٧٣)؛ وَالْحَاكِمُ فِي «الْمُسْتَدْرَكِ» (١/ ٩١) (رَقْمُ ١٠١). وَقَالَ: «صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَلَا أَعْرِفُ لَهُ عِلَّةً، وَلَمْ يَخْرُجَاهُ». وَقَالَ الذَّهَبِيُّ: «عَلَى شَرْطِهِمَا وَلَا عِلَّةَ لَهُ».

(٤) (الدَّقَلُ): رَدِيءُ الثَّمَرِ وَبَاسِئُهُ. النِّهَايَةَ فِي غَرِيبِ الْحَدِيثِ (٢/ ١٢٧).

(٥) تَمَّتْ الْحَدِيثُ نَفْسَهُ.

يعطيه، قال تعالى: ﴿كُونُوا رَئِيفِينَ يَمَا كُنْتُمْ تُكَلِّمُونَ الْكُتُبَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩].

قال ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿كُونُوا رَئِيفِينَ﴾: «حُلَمَاءَ فُقَهَاءَ»^(١). وقال الإمام البخاري رحمته الله^(٢): «وَيُقَالُ: الرَّبَّانِيُّ الَّذِي يُرَبِّي النَّاسَ بِصِفَارِ الْعِلْمِ قَبْلَ كِبَارِهِ»^(٣).

فالمعلّم اللبيب هو الذي يبدأ بالأمور السهلة الواضحة، قبل المسائل الدقيقة الشائكة^(٤)، فيراعي مدارك المتعلّمين، ومستوياتهم، وأعمارهم، ويعطي كلّ ما يناسبه^(٥).

وعلى ضوء ما سبق فإنّه يتعيّن على معلّم القرآن استخدام أسلوب التدرج في التعليم والتأديب؛ لأنّ الوصول بالمتعلّم إلى الكمال التربوي لا يتم إلّا بالتدرج، وأيّ استعجال في التعليم، أو التربية في الحلقات القرآنية، دون مراعاة هذه القاعدة، فإنّه يعني الفشل التربوي، والإخفاق في تحقيق الأهداف التربويّة^(٦).

٥ - الرّفق بالمتعلّمين:

يُعَدُّ الرّفق من الأصول المهمّة في التعليم والتربية؛ لأنّ الرّفق ما كان في شيء إلّا زانه، وما تُزَع من شيء إلّا شأنه، والله تعالى رفيق يحبّ الرّفق: عن عائشة رضي الله عنها أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «بَا عَائِشَةُ! إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ

(١) صحيح البخاري (٥٠/١).

(٢) هو الإمام محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي البخاري (أبو عبد الله) صاحب أصحّ كتاب بعد كتاب الله، وهو صحيح البخاري، اتّفقت الأمة على إمامته في الحديث، قال ابن حجر: «جَبَلُ الْحَفِظِ، وإمام الدنيا في فقه الحديث». توفي سنة (٢٥٦هـ)، وعمره (٦٢) سنة. انظر: تقريب التهذيب (١٤٤/٢).

(٣) صحيح البخاري (٥٠/١).

(٤) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري (٢١٣/١).

(٥) انظر: المقوّمات الشّخصية لمعلّم القرآن الكريم (ص ٣٥ - ٣٦).

(٦) انظر: مهارات التدريس في الحلقات القرآنية (ص ٢٢٢)؛ نحو أداء متميز لحلقات تحفيظ القرآن الكريم (ص ٤٥ - ٥٧).

الرَّفْقُ، وَيُعْطِي عَلَى الرَّفْقِ^(١) مَا لَا يُعْطِي عَلَى الصُّلْفِ، وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ^(٢).

وعلى معلّم القرآن أن يسلك بالمتعلّمين سبيل الرّفق في التّعليم، فلا يشدّد عليهم، ولا يلقاهم بما يكرهون؛ لئلاّ ينفروا من قول الحقّ واتباع الهدى. ولأهميّة الرّفق في التّعليم أوصى به النبي ﷺ في قوله: «عَلِّمُوا وَيَسِّرُوا، وَلَا تُعَسِّرُوا، وَبَشِّرُوا وَلَا تُنْفِرُوا، وَإِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْكُتْ»^(٣).

وتزداد أهميّة التّعليم برفق لدى الصّغار، الذين يحملون في حناياهم أحاسيس مرهفة، أو لدى غلاظ الطّباع، الذين لم يتأدّبوا بعلم، أو مجالسة، ممّا يُحمّل المعلّم عبئاً كبيراً ومسؤوليّة زائدة، يحتسب أجرها عند الله تعالى. ويُعتبر النبي ﷺ أكبر المعلّمين، وأعظمهم في العالم؛ إذ ساهم - برفقه وحلمه وحسن خلقه - في ضبط سلوك الكبار والصّغار، والعرب والعجم، وأهل المدن والبادية، مستخدماً أساليب التّربية والتّعليم التّدرّجي، والرّفق، واليسر، والرّحمة، ممّا أدّى إلى ضبط سلوك ملايين البشر ضبطاً ذاتياً، فكوّن المعلومات والمهارات، والعقائد الصّحيحة، والاتّجاهات الرّاسخة، على مدى الزّمن^(٤).

ومن صور رفق المعلّم بالمتعلّم: ألاّ يُردّد لكونه غير صحيح النّية بطلبه القرآن، قال النووي رحمه الله: «قال العلماء: ولا يمتنع من تعليم أحد لكونه غير صحيح النّية، فقد قال سفيان وغيره: طلبهم للعلم نية. وقالوا: طلبنا العلم لغير الله، فأبى أن يكون إلّا لله. معناه: كانت عاقبته أن صار لله تعالى»^(٥).

(١) (ويُعْطِي عَلَى الرَّفْقِ): أي يُثِيبُ عليه ما لا يُثِيبُ على غيره. وقيل: يتأتّى به من الأغراض، ويسهل من المطالب، ما لا يتأتّى بغيره. انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (١٦/١٤٥).

(٢) رواه مسلم، كتاب البر والصّلة والآداب، باب: فضل الرّفق (٢٠٠٤/٤) (ح ٢٥٩٣).
(٣) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٩٥/١) (ح ٢٤٥٥)؛ وأحمد في «المسنّد» (٢٨٣/١) (رقم ٢٥٥٦)؛ وصحّحه الألباني في «السلسلة الصّحيحة»: (٣/٣٦٤) (ح ١٣٧٥)؛ و«صحيح الأدب المفرد»: (ص ١٠٩) (ح ١٨٤).

(٤) انظر: حق القرآن الكريم على الناس (ص ١٧٤ - ١٧٥).

(٥) التّبيان في آداب حملة القرآن (ص ٥٨). وانظر: تذكرة السامع والمتكلّم في أدب العالم والمتعلّم (ص ٤٧)؛ منجد المقرّئين ومرشد الطالبين (ص ٦٣).

ومن صور الرفق كذلك: أن يتحوّل المعلّم الرّد اللطيف على المتعلّم حين خطئه، قال الأجزري رحمته الله - في أخلاق المقرئ: «ويشفي لمن قرأ عليه القرآن فأخطأ فيه، أو غلط ألا يعتفه، وأن يرفق به، ولا يجفو عليه، فإنّي لا آمن أن يجفو عليه فينفر عنه، وبالحريّ ألا يعود إلى المسجد»^(١).

وهذا كلام دقيق من عالم حكيم مجرب، فالعنف من أسباب الثّور والابتعاد، فلا بدّ أن يكون رّد المعلّم على المتعلّم بطريقة لطيفة، لا تعنيف فيها ولا زجر، ولا استعجال، ويتمنّى بقلبه أن يفتح الله تعالى على الطالب ليأتي بالصواب، فإن عجز أرشده بأن يأتي بآية قبلها، فهو أدعى لاستذكاره واستحضاره، فإن غلب عليه الخطأ أرشده إلى التّوبة من الذّنوب، والمراجعة المتّقنة، والبعد عن كلّ سبب يؤدّي لضعف الحفظ^(٢).

٦ - الصّبر على المتعلّم:

خلّق الصّبر من الأخلاق العظيمة التي من تحلّى بها نال العلا، ومعلّم القرآن يحتاج إلى الصّبر في رسالته العظيمة، فهو من الهداة إلى الله تعالى، المتمسّكين بكتابه، فهو من أئمة الدّين الذين يحتاجون للصّبر واليقين، وهما ركن الإمامة، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ آيَةً يَهْتَدُونَ بِآيَاتِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

وقال عنه النبي صلى الله عليه وآله: «وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ»^(٣).

قال ابن رجب^(٤) رحمته الله: «وَالضِّيَاءُ: هو النّور الذي يحصل فيه نوع حرارة وإشراق كضياء الشّمس، بخلاف القمر فإنّه نور مخض، فيه إشراق بغير إحراق،

(١) - أخلاق حملة القرآن (ص ٦٠).

(٢) - انظر: المقومات الشخصية لمعلّم القرآن الكريم (ص ٣٨ - ٣٩).

(٣) - رواه مسلم، كتاب الطهارة، باب: فضل الوضوء (٢٠٣/١) (ج ٢٢٣).

(٤) - هو عبد الرحمن بن أحمد بن رجب البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (أبو الفرج) الحافظ، المحدث، الفقيه، الواعظ، ولد ببغداد سنة (٧٣٦هـ)، يُعدّ أعرف أهل عصره بالعلل، وتتبع الطّرق. توفي سنة (٧٩٥هـ). وله مصنفات عديدة، منها: «شرح جامع الترمذي»، و«لطائف المعارف»، و«ذيل طبقات الحنابلة». انظر: شذرات الذهب (٣٣٩/٦)؛ طبقات الحفاظ (ص ٥٤٠).

قال الله ﷻ: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥]. ولمّا كان الصّبر شاقاً على النفوس، يحتاج إلى مجاهدة النفس وحبسها، وكفّها عمّا تهواه، كان ضياءً^(١).

والمراد أنّ الصّبر كلّ خير، وهو محمود، ولا يزال صاحبه مستضيئاً مهتدياً مستمراً على الصّواب^(٢). فلا بدّ للمعلّم من الصّبر على الجلوس الطويل للتعليم والقراءة، والصّبر على أخلاق المتعلّمين وما يصدر عنهم - أحياناً - من نقائص، فهو محتاج دائماً للصّبر.

وقد حثّ النووي رحمه الله المعلّمين على الصّبر على جفاء بعض المتعلّمين وسوء أدبهم فقال: «وينبغي أن يحنّ على الطّالب، ويعتني بمصالحه، كاعتنائه بمصالح ولده ومصالح نفسه، ويُجري المتعلّم مجرى ولده في الشّفقة عليه، والاهتمام بمصالحه، والصّبر على جفائه، وسوء أدبه، ويعذّره في قلة أدبه في بعض الأحيان، فإنّ الإنسان مُعرّض للنقائص، لا سيّما إذا كان صغير السن»^(٣).

ومن صور الصّبر على جفاء المتعلّمين وشدّتهم أحياناً: ما جاء عن أبي بكر شعبة بن عيّاش^(٤) رحمه الله أنه قال: «تعلّمتُ من عاصم^(٥) القرآن، كما يتعلّم الصبيّ من المعلّم، فلقي منّي شدّة، فما أحسن غير قراءته، وهذا الذي أحدثك به من القراءات، إنّما تعلّمته من عاصم تعلّماً»^(٦).

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ٥٨٠ - ٥٨١).

(٢) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٣/ ١٠١).

(٣) التبيان في آداب حملة القرآن (ص ٥٣).

(٤) هو أبو بكر بن عيّاش بن سالم الأسدي الكوفي، المقرئ، الحنّاط، مشهور بكنيته، والأصحّ أنّها اسمه. وقد اختلف في اسمه على عشرة أقوال. ثقة، عابد، إلّا أنه لمّا كبر ساء حفظه، وكتابه صحيح. توفي سنة (١٩٤هـ) وقد قارب المائة.

انظر: تقريب التهذيب (١/ ٦٢٤).

(٥) هو عاصم بن بهدلة، وهو ابن أبي النّجود، الأسديّ بالولاء، الكوفيّ (أبو بكر) المقرئ. صدوق له أوهام. حجة في القراءة. توفي سنة (١٢٨هـ).

انظر: تقريب التهذيب (١/ ٢٨٥).

(٦) سير أعلام النبلاء (٨/ ٥٠٢)؛ معرفة القراء الكبار (١/ ١٣٧).

من دواعي الصَّبر: «لأنَّ المتعلِّم إذا كان يفتقر إلى شيء من العلوم، فإنه لا بدَّ له من الصَّبر، فلا غنى للمعلِّم عن الصَّبر، فربَّما كان المتعلِّم بطيء الفهم، ضعيف الحفظ - وهي حالة لا يدَّ له فيها، فهي خارجة عن إرادته - فإنَّ استعجاله فلن يحقق معه هدفًا، وربَّما أربكه، فيكون سبباً في اضطرابه وتلجُّله بالقراءة، وبذلك يتعسر عليه الحفظ والفهم»^(١).

«ومما يؤكِّد ضرورة الصَّبر على المتعلِّمين في الحلقات القرآنية في هذا العصر أكثر من أيِّ وقتٍ مضى: ما أفرزه التَّقدُّم المعرفي، والتَّقني، وانتشار وسائل الاتِّصال التي جعلت العالم كقرية واحدة، فأدَّى ذلك إلى اتِّساع ثقافة التَّلاميذ، وزيادة حجم التَّنافُض السلوكي عند الجماعات المرجعية للمعلِّم، كلُّ هذا أوجد عنده مشكلات وسلوكيات متنوِّعة غير التي كانت بالأمس.

وهذا يتطلَّب جهداً من المعلِّم في الحلقات القرآنية، ويحتاج إلى الحلم، والصَّبر، والتَّدرُّج؛ لينجح في معالجة تلك المشكلات، ويغرس في نفوسهم الأخلاق الحسنة، ويحقِّق أهداف الحلقات التربويَّة، وبدون هذا الخلق قد يتسرَّب التَّلاميذ من الحلقات، فلا يعودون إليها؛ لأنَّ المعلِّم إذا لم يحلِّم ويصبر كان ما يُفسد أكثر ممَّا يصلح»^(٢).

المطلب الثالث

آداب متعلم القرآن

سبق الكلام عن جملة من الآداب التي ينبغي أن يلتزمها معلِّم القرآن الكريم أثناء تصديِّه لهذه المهمَّة العظيمة، وهناك - كذلك - آداب لا بدَّ أن يتحلَّى بها متعلِّم القرآن، لا تقلُّ أهميَّة عن آداب معلِّمه؛ لتساعد المعلِّم على المضي في تعليمه.

وقد أشار بعض العلماء الأجلاء إلى جملة من الآداب التي ينبغي للمعلِّم

(١) انظر: كيف نتأدب مع المصحف (ص ١٣٢).

(٢) مهارات التدريس في الحلقات القرآنية (ص ٧٥ - ٧٦). وانظر: المقومات الشخصية لمعلم القرآن الكريم (ص ٣٩ - ٤٠).

أن يضعها نصب عينيه، ويلزم نفسه بتطبيقها أثناء قيامه بعملية التعلم، ومن هؤلاء: **الْأَجْرِيُّ** ^(١)، وأبو حامد الغزالي ^(٢)، والتَّوَوِي ^(٣) وغيرهم رحمهم الله تعالى، وهي على النحو الآتي:

١ - تطهير القلب:

هذا شرط أساس في تعلُّم القرآن الكريم، فهو كالزَّرع لا ينبت إلا في تربة خصبة صالحة، أما الأرض السَّيْحَة أو المريضة فلا ينبت فيها زرع، وإن نَبَت بعض الشيء لا ينمو، وإن نما لا يُثمر، وإن أثمر لا يأتي بجيد الثمر، فالقرآن الكريم لا ينمو ولا يُثمر إلا في القلب الطَّيب الصَّالح الطَّاهر، فلا بد أن يكون المتعلِّم نظيفاً طاهراً من رذائل الأخلاق ومذموم الأوصاف والعادات؛ لأنَّ تعلُّم القرآن عبادة القلب، وصلاة السِّر، وكما لا تصحُّ الصَّلَاة إلا بالطَّهارة الظَّاهرة للبدن والملابس والمكان، فكذلك لا تصحُّ العبادة الباطنة - عبادة القلب - إلا بطهارته من التَّفَاق والمكر والخبث، والحقد والحسد والعداوة والبغضاء ^(٤).

ومن أجل ذلك أكَّد النبي ﷺ على أهمية صلاح القلب لإصلاح الأعضاء كلِّها في قوله: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ» ^(٥).

٢ - الرُّهْد في الدُّنْيَا:

فلا تكون الدُّنْيَا ومطالبها أكبر همِّه، وكلَّ شُغله، فيتخفَّف منها ما استطاع؛ وذلك لأنه جَنَّد نفسه وعقله لطلب أشرف العلوم - علم القرآن - وما دام كذلك ينبغي أن يكرِّس جهده، ويجمع همِّته على التَّحْقِيق والإجادة حتَّى يحصل له حفظ

(١) انظر: أخلاق حملة القرآن (ص ٦٧ - ٧١).

(٢) انظر: إحياء علوم الدين (٤٨/١) وما بعدها.

(٣) انظر: التبيان في آداب حملة القرآن (ص ٦١ - ٦٩).

(٤) انظر: إحياء علوم الدين (٤٨/١)؛ التبيان في آداب حملة القرآن (ص ٦١).

(٥) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب: فَضِّلَ مَنْ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ (٤١/١) (ج ٥٢)، ومسلم،

كتاب المساقاة، باب: أَخَذَ الْحَلَالَ وَتَرَكَ الشُّبُهَات (١٢١٩/٣) (ج ١٥٩٩).

القرآن وفهمه والعمل به^(١). يقول الإمام الشافعي رحمته الله: «لا يُفلح في هذا الشأن - يعني بلوغ شرف العلم - إلا من أكل أبويه، وأثلف ماله، وجعل المسألة أمامه، وأغلق دكانه، وأحرق قلبه الجوع، وتعلق في شعره القمل، ولم يقل واغريته»^(٢). وأنشد بعضهم:

يَقْدِرُ الْكَلْدُ تَكْتَسِبُ الْمُتَعَالِي وَمَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ طَلَبَ الْهَلَاكِ
تَرُومُ الْعِلْمَ ثُمَّ تَنَامُ لَيْلًا يَخُوضُ الْبَحْرَ مَنْ طَلَبَ اللَّأَلِي^(٣)
«وقال بعضهم: العلم لا يُحصَلُ إلا باستناد الحجر، واقتراض المدر، وإدمان الجوع والشهر المعمر»^(٤). وقال آخر: لن يُدرك العلم من لا يُطيل درسه، ولا يَكُدُّ نفسه»^(٥).

٣ - التواضع للمعلم:

* قديماً قالوا: (ضاع العلم بين كبرياء وحياء). فالكبرياء والغرور يمنعان صاحبهما عن السؤال والاستفادة، والحياء كذلك يمنعه، فالأول منعاً من إظهار جهله، والثاني خجلاً وخوفاً، وكلاهما من آفات العلم. إلا أن الكبرياء أشد وأعظم، ففيه سوء أدب.

وإذا كان المعلم مطالباً بالتواضع، فالمتعلم أولى أن يطلب منه ذلك، وإذا كان يتصادف أحياناً أن يكون المعلم أصغر من المتعلم، أو أقل منصباً، فإن هذا لا يسقط هذا المطلب، ولذا قيل:

الْعِلْمُ حَرْبٌ لِلْفَتَى الْمُتَعَالِي كَالسَّيْلِ حَرْبٌ لِلْمَكَانِ الْعَالِي^(٥)

يقول أبو حامد الغزالي رحمته الله: «فلا ينبغي لطالب العلم أن يتكبر على المعلم، ومن تكبره على المعلم أن يستنكف عن الاستفادة، إلا من المرموقين

(١) انظر: إحياء علوم الدين (١/٥٠٠).

(٢) نشر طي التعريف في فضل حملة العلم الشريف، لجمال الدين محمد الحيشي، (٧٨٢هـ) (١/١٨٧ - ١٨٨).

(٣) انظر: ديوان الإمام الشافعي (١/٩٠). (٤) المصدر السابق (١/١٨٧).

(٥) انظر: التبيان في آداب حملة القرآن (ص ٦٢).

المشهورين، وهو عين الحماقة، فإن العلم هو سبب النجاة والسعادة، ومن يطلب مهرباً من سبع ضار يقتترسه، لم يفرق بين أن يرشده إلى الهرب، مشهور أو خامل، وضراوة سباع النار بالجهال بالله، أشد من ضراوة كل سبع^(١).

ومن صور تواضع المتعلمين مع مشايخهم، وتذللهم لأجل الإفادة منهم:

* ما جاء في سيرة التابعي الجليل عمرو بن قيس الملائني رحمته الله ^(٢)، كان إذا أتى الرجل من أهل العلم جنى على ركبتيه، ثم يقول: «علّمني ممّا علّمك الله»، يتأول قوله تعالى: ﴿عَلَّمَ أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦]^(٣).

* وكان سعيد بن جبيرة رحمته الله يُجِلُّ شيخه ابن عباس رحمته الله، ويعرف له قدره، ولوّد أن قبل رأسه احتراماً له، يقول: «كنت أسمع الحديث من ابن عباس، فلز أذن لي لقبّلت رأسه»^(٤).

* ومن تواضع سفيان الثوري رحمته الله، واعترافه لشيخه (الإمام عمرو بن قيس الملائني رحمته الله) بالفضل في تعليمه، وتوجيهه، وصبره على ذلك، ما قاله: «عمرو بن قيس هو الذي أدبني، وعلّمني قراءة القرآن، وعلّمني الفرائض»^(٥).

٤ - الدّعاء للمعلّم والاعتراف بفضله:

ينبغي للمتعلّم أن يعترف بفضله معلّمه عليه، وأن يُقرّ بأنّ العلم الذي أفاده إنّما كان من جهة معلّمه، فمن حقّه عليه أن يدعو له، كما جاء عن ابن عمر رحمتهما الله قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «مَنْ أَتَى إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافَتْهُ، فَإِنْ لَمْ تَحِلُّوا، فَادْعُوا لَهُ، حَتَّى يَعْلَمَ أَنْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ»^(٦).

(١) إحياء علوم الدين (١/٥٠).

(٢) هو الإمام المقرئ عمرو بن قيس الملائني، سُمّي بذلك؛ لأنه كان يبيع الملاء (أبو عبد الله) من عبّاد أهل الكوفة وقرائهم، قال أبو زرعة: «ثقة، مأمون»، وقال ابن حجر: «ثقة، متقن، عابد، من السادسة، مات سنة بضع وأربعين».

انظر: تقريب التهذيب (١/٤٢٦)؛ سير أعلام النبلاء (٦/٢٥٠).

(٣) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٥/١٠٢).

(٤) حلية الأولياء (٤/٢٨٣)؛ طبقات ابن سعد (٢/٣٧٠).

(٥) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٥/١٠١)؛ وانظر: سير أعلام النبلاء (٦/٢٥٠).

(٦) رواه أحمد في «المسند» (٢/٦٨) (ح ٥٣٦٥)؛ والبخاري في «الأدب المفرد»، باب: =

قال السُّعدي^(١) رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «وَيَنْبَغِي لِلْمُتَعَلِّمِ أَنْ يُحَسِّنَ الْأَدَبَ مَعَ مُعَلِّمِهِ، وَيَحْمَدَ اللَّهَ إِذْ يَسَّرَ لَهُ مَنْ يَعْلَمُهُ مِنْ جِهَلِهِ، وَيُحْيِيهِ مِنْ مَوْتِهِ، وَيُوقِظُهُ مِنْ سِنْتِهِ، وَيَنْتَهِزَ الْفُرْصَةَ كُلَّ وَقْتٍ فِي الْأَخْذِ عَنْهُ، وَيُكْثِرَ مِنَ الدُّعَاءِ لَهُ حَاضِرًا وَغَائِبًا»^(٢).

ومن صور الدُّعَاءِ لِلشُّيُوخِ:

* ما جاء عن يحيى بن سعيد القطان^(٣) رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «أَنَا أَدْعُو اللَّهَ لِلشَّافِعِيِّ، أَخْصُهُ بِهِ»^(٤).

ومن صور الدُّعَاءِ لِلشُّيُوخِ، وَالاعْتِرَافَ لَهُمْ بِالْفَضْلِ:

* ما قاله الإمام أحمد^(٥) رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «هَذَا الَّذِي تَرُونَ، كُلُّهُ أَوْ عَامَّتُهُ مِنَ الشَّافِعِيِّ، وَمَا بَثُّ مِنْذُ ثَلَاثِينَ سَنَةً إِلَّا وَأَنَا أَدْعُو اللَّهَ لِلشَّافِعِيِّ، وَأَسْتَغْفِرُ لَهُ»^(٦).

= مَنْ صُنِعَ إِلَيْهِ مَعْرُوفٌ فَلْيُكَافَأْهُ (٨٥/١) (ح ٢١٦)؛ وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ الْأَدَبِ الْمَفْرَدِ» (ص ٩٨) (ح ٢١٥٨)؛ وَ«الصَّحِيحَةُ» (١١٠/١) (ح ٢٥٤).

(١) هُوَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ نَاصِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ نَاصِرِ آلِ سَعْدِيٍّ مِنْ قَبِيلَةِ تَمِيمٍ، نَشَأَ فِي بِلَادِ الْقَصِيمِ، وَدَرَسَ عَلَى عُلَمَاءِ الْحَنْبَلَةِ هُنَاكَ، وَكَانَ ذَا مَعْرِفَةٍ تَامَّةٍ فِي الْفِقْهِ، وَكَانَ مُشْتَغَلًا بِكُتُبِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ وَابْنِ الْقَيِّمِ وَاسْتَفَادَ مِنْ ذَلِكَ خَيْرًا كَثِيرًا. لَهُ كِتَابٌ: «تَيْسِيرُ الْكَرِيمِ الرَّحْمَنِ فِي تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَنَانِ»، وَ«الْقَوْلُ السُّدِيدُ فِي مَقَاصِدِ التَّوْحِيدِ» وَغَيْرُهُمَا. تُوُفِّيَ سَنَةَ (١٣٧٦هـ). انْظُرْ: مَقْدَمَةُ كِتَابِ «تَيْسِيرِ الْكَرِيمِ الرَّحْمَنِ».

(٢) الْفَتَاوَى السَّعْدِيَّةُ (ص ١٠١).

(٣) هُوَ يَحْيَى بْنُ سَعِيدِ الْقَطَّانِ، إِمَامُ الْحَدِيثِ وَالْجَرَحِ وَالتَّعْدِيلِ، ثِقَةٌ، مُتَّقِنٌ، حَافِظٌ، وَإِمَامٌ قَدَوَةٌ، مِنْ كِبَارِ الطَّبَقَةِ الثَّاسِعَةِ، تُوُفِّيَ سَنَةَ (١٩٨هـ)، وَعَمَرُهُ (٧٨) سَنَةً. انْظُرْ: تَقْرِيبُ التَّهْذِيبِ (٢/٢٤٨).

(٤) تَارِيخُ مَدِينَةِ دِمَشْقَ (٣٢٤/٥١)؛ مَعْجَمُ الْأَدْبَاءِ، لِيَنَاقُوتِ الْحَمَوِيِّ (٢١٠/٥)؛ تَارِيخُ الْإِسْلَامِ (٣١٤/١٤).

(٥) هُوَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ بْنُ هَلَالٍ بْنِ أَسَدِ الشَّيْبَانِيِّ (أَبُو عَبْدِ اللَّهِ) وَلَدَ سَنَةَ (١٦٤هـ) بِبَغْدَادٍ، رَحَلَ إِلَى سَائِرِ الْأَقْطَارِ، اشتهر بالحفظ والإتقان، مع الثَّقَمَةِ وَالصَّلَاحِ، وَالْقُوَّةِ فِي الْحَقِّ وَاتِّبَاعِ السُّنَّةِ، وَبَلَغَتْ شَهْرَتُهُ الْآفَاقَ، خَاصَّةً بَعْدَمَا وَقَفَ وَقَفَتِهِ الْمَشْهُورَةَ أَمَامَ بَدْعَةِ الْقَوْلِ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ، وَبِهَا أَعَزَّ اللَّهُ أَهْلَ السُّنَّةِ إِلَى الْيَوْمِ، تُوُفِّيَ سَنَةَ (٢٤١هـ). انْظُرْ: الْبَدَايَةُ وَالتَّهْذِيبُ (١٠/٣٢٥).

(٦) تَهْذِيبُ التَّهْذِيبِ (٩/٢٥)؛ تَهْذِيبُ الْكَمَالِ (٢٤/٣٦٥).

٥ - اختيار المعلم الأصلح والأعلم:

ليُتَخَيَّرَ المتعلِّمُ المعلمَ الأكثرَ ديانةً وصلاًحاً، فلا ينبغي له أن يقصد من المعلمين إلا مَنْ ثَبَتَ أَهْلِيَّتَهُ الْعِلْمِيَّةَ وَظَهَرَتْ دِيانَتُهُ^(١).

* عن محمد بن سيرين^(٢) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «إِنَّ هَذَا الْعِلْمَ دِينٌ، فَانْظُرُوا عَمَّنْ تَأْخُذُونَ دِينَكُمْ»^(٣).

* يقول أبو العالية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كَنت أُرْحِلُ إِلَى الرَّجُلِ مَسِيرَةَ أَيَّامٍ، فَأَوَّلُ مَا أَتَفَقَّدُ مِنْ أَمْرِهِ صَلَاتُهُ، فَإِنْ وَجَدْتُهُ يَقِيمُهَا وَيَتِمُّهَا، أَقَمْتُ وَسَمِعْتُ مِنْهُ، وَإِنْ وَجَدْتُهُ يُضَيِّعُهَا، رَجَعْتُ وَلَمْ أَسْمَعْ مِنْهُ، وَقُلْتُ: هُوَ لَغَيْرِ الصَّلَاةِ أَضْيَعُ»^(٤).

ومن أمثلة اختيار المعلم الأعلم:

* ما جاء عن أبي بكر شعبة بن عياش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ قَالَ: «مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَقْرَأَ مِنْ عَاصِمٍ، فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ، وَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَفْقَهَ مِنَ الْمَغِيرَةِ - يَعْنِي: ابْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَارِثِ الْمَخْزُومِيِّ^(٥) - فَلَزِمْتُهُ»^(٦).

(١) انظر: التبيان في آداب حملة القرآن (ص ٦٢).

(٢) هو محمد بن سيرين بن أبي عمرة البصري، أبو بكر، إمام وقته. مولى أنس بن مالك. قال الذهبي: «كَانَ فَقِيهًا، إِمَامًا، غَزِيرَ الْعِلْمِ، ثَقَّةً، ثَبَتًا، عَلَّامَةً فِي التَّعْبِيرِ، رَأْسًا فِي الْوَرَعِ». توفي سنة (١١٠هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (٤/٢٠٦)؛ تذكرة الحفاظ (١/٧٧)؛ تهذيب التهذيب (٩/٢١٤).

(٣) رواه مسلم في «مقدمة صحيحه» (١/١٤).

(٤) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٢/٢٢٠). وانظر: تاريخ مدينة دمشق (١٧٦/١٨)؛ الرحلة في طلب الحديث، لأبي بكر البغدادي (ت ٤٦٣هـ) (١/٩٣)؛ صفة الصفوة (٣/٢١٢).

(٥) هو المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث بن عبد الله المخزومي، من الطبقة الأولى من أصحاب مالك من أهل المدينة، ولد سنة (١٢٤هـ). قيل: لا بأس به، خُزَّجَ عَنْهُ الْبُخَارِيُّ. وقال يحيى: هو ثقة. كان فقيه المدينة بعد الإمام مالك، عَرَضَ عَلَيْهِ الْمُرْشِدُ الْقَضَاءَ بِالْمَدِينَةِ قَائِمًا، وَقَالَ: وَاللَّهِ - يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - لَأَنْ يَخْتَلِقَنِي السُّلْطَانُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الْقَضَاءِ، فَأَعْلَاهُ. وَلَوْ كُتِبَ فَقَّهٌ قَلِيلَةً، تَوَفِّيَ سَنَةَ (١٨٨هـ).

انظر: اللبائج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، لابن فرحون (١/٣٤٧).

(٦) انظر: معرفة القراء الكبار (١/١٣٨)؛ سير أعلام النبلاء (٨/٥٠٣).

٦ - التَّكْبِيرُ إِلَى مَجْلِسِ الدَّرْسِ :
الأصل في المتعلم أن يجتهد ويجهد في تعلم القرآن الكريم، بل كان السلف الصالح يتسابقون إلى مجالس العلم ويكثرون في الحضور إليها، ومن أمثلة ذلك :
* قول محمد بن علي السلمي رحمته الله : « قمت ليلة للأذان الأكبر لأخذ التوبة على ابن الأخرم ^(١) ، فخرجت إلى مسجد معاوية، فوجدت قد سبقني ثلاثون قارئاً، فلم تلحقني التوبة إلى العصر ^(٢) » .

٧ - التَّحَلِّيُ بِالْأَدَبِ فِي مَجْلِسِ التَّعْلِيمِ :
من الأفضل للمتعلم : ألا يجيء إلى القرآن إلا وهو في كامل الحال، متطهراً نظيفاً، ولا يتخطى رقاب الناس، بل يجلس حيث ينتهي به المجلس، إلا أن يأذن له المعلم في التقدم أو يعلم من حالهم إثارة ذلك .
والتأدب ليس مطلوباً من المتعلم تجاه معلمه فقط : بل هو مطلوب منه تجاه زملائه، وحاضري مجلس العلم، فهذا جزء أساس من تأدبه مع المعلم وصيانة مجلسه .
ومن مظاهر هذا التأدب : ألا يرفع صوته من غير حاجة، ولا يضحك، ولا يُكثر الكلام من غير حاجة، ولا يعبت يديه ولا غيرها، ولا يلتفت يميناً ولا شمالاً بلا داع، بل يكون متوجّهاً إلى المعلم مُصغياً إلى كلامه .
وعلى المتعلم : أن يكون على درجة من دقة الملاحظة، بحيث لا يقرأ على المعلم إذا لاحظ انشغال قلبه، وملّكه، وضيقه وحزنه وجوعه وعطشه ونعاسه وقلقه، ونحو ذلك ممّا يحول بينه وبين الوفاء بمهمة التعليم، وفقاً لما يجب أن يكون من كمال النشاط وعلو الهمة ^(٣) .

(١) هو محمد بن النضر بن مرّ بن الحرّ الرُّبَيعي الدُّمَشقي بن الأخرم (أبو الحسن) كانت له حلقة عظيمة بجوامع دمشق، يقرؤون عليه من بعد الفجر إلى العصر، قال الشَّنبُوزي : « قرأت عليه فما رأيت أحسن معرفة منه بالقرآن، ولا أحفظ، وكان يحفظ تفسيراً كثيراً ومعاني » . توفي رحمته الله سنة (٣٤١هـ)، وعمره (٨١ سنة) .

انظر : سير أعلام النبلاء (٥٦٤/١٥) .

(٢) تاريخ مدينة دمشق (١٢٣/٥٦) . وانظر : معرفة القراء الكبار (٢٩٢/١) .

(٣) انظر : التبيان في آداب حملة القرآن (ص ٦٥) .

ومن أمثلة مراعاة المتعلم ظروف معلّمه وعدم إزعاجه، والحرص على راحته:

* ما قاله الأعمش^(١) رحمته الله: «ما رأيت مثل طلحة - يعني ابن مصرف الياامي^(٢) - إذا كنت قائماً فقعدت قطع القراءة، وإن كنت محتبياً فجللت حبوتي قطع القراءة، كراهية أن يكون قد أمّلي»^(٣).

* وقال أيضاً: «كان طلحة بن مصرف يجيئني فأقرّيه، فلا يطلبني حتى أخرج، فإن تنحنت أو سعلت قام»^(٤).

* وحكى أيضاً أدب هذا المتعلم معه، فقال: «كان طلحة يجيء فيجلس على الباب فتخرج الجارية وتدخل، لا يقول لها شيئاً، حتّى أخرج فيجلس ويقرأ، فما ظنكم برجل لا يخطئ ولا يلحن، فإن استندت على الحائط - أي: من الجهد والتعب - قال: السّلام عليكم، ويذهب»^(٥).

ويرتبط بهذا: أن يتحمّل المتعلم ما قد يظهر من المعلم من جفوة، ويلتمس له العذر، بحيث لا تصدّه هذه الجفوة عن تقبّل ما يُلقّيه عليه من معلومات، وإذا جافاه المعلم، ابتداءً هو بالاعتذار إليه، وأظهر أنّ الذنب له، والعتب عليه، فذلك أنفع له في الدنيا والآخرة، وأبقى لقلب المعلم له^(٦).

وقيل في هذا الشأن: مَنْ لم يصبر على ذلّ التعلّم بقي عمره في عميّة الجهالة، ومَنْ صبر عليه آل أمره إلى عزّ الآخرة والدنيا.

(١) هو سليمان بن مهران الكاهلي (أبو محمد)، المشهور بالأعمش، ولد سنة (٦٠هـ)، من الأئمّة الثقات، قال ابن سعد: «وكان الأعمش صاحب قرآن وفرائض وعلم بالحديث». وعدّه ابن سعد في الطبقة الرابعة، من الكوفيين، وثقه ابن معين وأبو حاتم، وقال أبو زرعة: إمام، توفي سنة (١٤٨هـ).

انظر: الطبقات الكبرى (٣٤٢/٦)؛ الجرح والتعديل (١٤٦/٤ - ١٤٧).

(٢) هو طلحة بن مصرف بن عمرو بن كعب الياامي (أبو عبد الله) كوفي، تابعي، من الخامسة، ثقة، كان من أقرأ أهل الكوفة وخيارهم، وهو أحد الثلاثة الذين ختموا القرآن على الأعمش. توفي رحمته الله سنة (١١٢هـ).

انظر: معرفة الثقات (٤٧٩/١)؛ تقريب التهذيب (٢٨٣/١).

(٣) رواه أبو نعيم في «الحلية» (١٨/٥). وانظر: صفة الصفوة (٩٦/٣).

(٤) رواه أبو نعيم في «الحلية» (١٨/٥). (٥) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٦) انظر: تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم (ص ٩١).

وقال ابن عباس رضي الله عنه: ذلّت طالباً، فعزّزتُ مطلوباً^(١).

وقد أحسن مَنْ قال:

مَنْ لَمْ يَذُقْ طَعْمَ الْمَذَلَّةِ سَاعَةً قَطَعَ الزَّمَانَ بِأَسْرِهِ مَذْلُولاً^(٢)
وغنيّ عن البيان: أنّ من أهمّ واجبات المتعلّم، أن يكون حريصاً على
التعلّم، مواظباً في جميع الأوقات التي يتمكّن منه فيها، ولا يقنع بالقليل مع
قدرته على الكثير، ولا يُحمّل نفسه ما لا يُطيق مخافة الملل، وضياح ما استوعبه
وحصّله، وهذا يختلف باختلاف النَّاس والأحوال^(٣).

وإذا كنّا نركّز على واجبات المتعلّم؛ فإنّنا نذكّره بأنّ ذلك - أولاً وآخر -
لمصلحته، بالحفاظ على المعلّم هادئ البال، وصافي الذّهن؛ ليُخرِجَ أثمن ما
عنده.



(١) انظر: تفسير ابن كثير (٢/٢٤٨)؛ مفتاح دار السعادة (١/١٦٨)؛ كشف الخفا ومزيل

الإلباس (١/٥٠٥)؛ إحياء علوم الدين (١/٩).

(٢) انظر: التبيان في آداب حملة القرآن (ص ٦٦).

(٣) انظر: القرآن الكريم: رؤية تربوية، د. سعيد إسماعيل علي (ص ٤٧٣ - ٤٧٤)؛ منهج
السلف في العناية بالقرآن الكريم (١٠٤ - ١١١).

المبحث الثالث

فضائل تعلم القرآن وتعليمه

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: مُعَلِّمُ الْقُرْآنِ وَمُتَعَلِّمُهُ مُتَشَبَّهٌ بِالْمَلَائِكَةِ وَالرُّسُلِ.

المطلب الثاني: خَيْرُ النَّاسِ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ.

المطلب الثالث: تَعَلُّمُ الْقُرْآنِ وَتَعْلِيمُهُ خَيْرٌ مِنْ كُنُوزِ الدُّنْيَا.

المطلب الرابع: مَنْ عَلَّمَ آيَةً كَانَ لَهُ ثَوَابُهَا مَا تُلِّيَتْ.

المطلب الخامس: ثَوَابُ مَنْ يُعَلِّمُ الصَّغَارَ الْقُرْآنَ.

فضائل تعلّم القرآن وتعليمه

ترغيب الإسلام في العلم:

لقد رَغِبَ الإسلامُ في تعلُّم العلم وتعليمه بعامة، وحثَّ عليه؛ من ذلك قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، ففي الآية دعوة إلى طلب العلم والحرص عليه، وقد جعله الله تعالى معياراً للتفاضل بين النَّاسِ، فقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، ولا غرابة في ذلك، بالعلم يُعبد الله تعالى، وبه يُعرف، وبه تستقيم الدنيا؛ لذا جعله ذلك من أفضل العبادات التي يتقرب بها المرء إلى ربِّه جلَّ جلاله؛ ففي الحديث عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا. وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ، كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا»^(١).

وثواب العلم يصل إلى الإنسان بعد موته مادام يُتَنَفَّعُ به، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»^(٢).

قال ابن القيم رحمه الله: «وهذا من أعظم الأدلة على شرف العلم وفضله وعظم ثمرته؛ فَإِنَّ ثَوَابَهُ يَصِلُ إِلَى الرَّجُلِ بَعْدَ مَوْتِهِ مَادَامَ يُتَنَفَّعُ بِهِ، فَكَأَنَّهُ حَيٌّ لَمْ يَنْقُطْ عَمَلُهُ مَعَ مَا لَهُ مِنْ حَيَاةِ الذِّكْرِ وَالثَّنَاءِ، فَجَرَيَانُ أَجْرِهِ عَلَيْهِ إِذَا انْقَطَعَ عَنِ النَّاسِ

(١) رواه مسلم، كتاب العلم، باب: مَنْ سَنَّ سَنَةً حَسَنَةً أَوْ سَيِّئَةً، وَمَنْ دَعَا إِلَى هُدًى أَوْ ضَلَالَةٍ (٢٠٦٠/٤) (ح ٢٦٧٤).

(٢) رواه مسلم، كتاب الوصية، باب: مَا يَلْحَقُ الْإِنْسَانَ مِنَ الثَّوَابِ بَعْدَ وَفَاتِهِ (١٢٥٥/٣) (ح ١٦٣١).

ثَوَابُ أَعْمَالِهِمْ حَيَاةً ثَانِيَةً^(١).

وتفاوتت درجات العلم ومنازله بحسب الموضوع الذي تتناوله، ولا شك أنَّ أشرف العلوم وأجلها هو العلم بكتاب الله تعالى، فيكون مَنْ تَعَلَّمَهُ وَعَلَّمَهُ لغيره أشرف ممن تَعَلَّمَ غير القرآن، وإنَّ عِلْمَهُ.

وقد حرص سلف الأمة الصَّالح عليه السلام على تعلُّم القرآن وتعليمه، وعُرِفَ هذا الحرص في سلوك خيارهم وأصفيائهم، وقُدُّوْهُمْ في ذلك مُعَلِّمُ الْبَشَرِيَّةِ وَهَادِي الْإِنْسَانِيَّةِ، رسول الله ﷺ الذي أنزل عليه القرآن، وهو أعرف الناس بمنزله. والحديث عن فضائل تعلُّم القرآن العظيم وتعليمه يتمثل في المطالب الآتية:

المطلب الأول

مُعَلِّمُ الْقُرْآنِ وَمُتَعَلِّمُهُ مُتَشَبِّهٌ بِالْمَلَائِكَةِ وَالرُّسُلِ

كفى معلِّمُ القرآن ومُتَعَلِّمُهُ شرفاً وفخراً أنهم متشبهون بالملائكة والرُّسُل الكرام، فقد بعث الله تعالى جبريل عليه السلام ليعلمَ النَّبِيَّ ﷺ، قال الله ﻋَﻠَﻴْهِ السَّلَامُ: ﴿مَلَكُهُ مَدِيدُ الْقُوَى﴾ [النجم: ٥].

فها هو معلِّمُ الرُّسُولِ الأوَّل جبريل عليه السلام، أفضلُ الملائكة الكرام وأقواهم وأكملهم، نزل بالوحي على النَّبِيِّ ﷺ، وجبريل عليه السلام شديد القوى الظَّاهِرة والباطنة. فهو قويٌّ على فعل ما أمره الله تعالى، قويٌّ على إيصال الوحي إلى النَّبِيِّ ﷺ وتعليمه إياه، ومنعه من اختلاس الشَّيَاطِينِ له، أو زيادتهم فيه ما ليس منه، وهذا مِنْ حِفْظِ الله تعالى لوحيه من جهة، ومن عناية الله تعالى برسوله محمد ﷺ من جهة أخرى، أَنْ أَرْسَلَ إِلَيْهِ مُعَلِّمًا كَرِيمًا قَوِيًّا أَمِينًا^(٢).

وَمَدْحُ الْمُعَلِّمِ مَدْحٌ لِلْمُتَعَلِّمِ فَلَوْ قَالَ عِلْمُهُ جَبْرِيلُ، وَلَمْ يَصِفْهُ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الْحَمِيدَةِ الْعَظِيمَةِ مَا كَانَ يَحْصُلُ لِلنَّبِيِّ ﷺ هَذِهِ الْفَضِيلَةُ الظَّاهِرَةُ^(٣).

«وهذه الآية الكريمة قد تَضَمَّنَتْ أمرين:

أحدهما: أَنَّ هَذَا الْوَحْيَ الَّذِي مِنْ أَعْظَمِهِ هَذَا الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ، عِلْمُهُ جَبْرِيلُ النَّبِيِّ ﷺ بِأَمْرِ مِنَ اللَّهِ.

(٢) انظر: تفسير السعدي (٥/١٢٢).

(١) مفتاح دار السعادة (١/١٧٥).

(٣) انظر: التفسير الكبير (٢٨/٢٤٥).

والثاني: أَنَّ جبريل شديد القوة.

وهذان الأمران جاءا مُوضَّحين في غير هذا الموضع.

أما الأول منهما: وهو كون جبريل نزل عليه بهذا الوحي وعَلَّمَهُ إِيَّاهُ، فقد جاء مُوضَّحاً في آيات من كتاب الله، كقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٩٧]. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ لَنَزَّلَ رَبِّيَ الْغَلِيظَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٤].

... وأما الأمر الثاني: وهو شدة قوة جبريل النَّازل بهذا الوحي، فقد ذَكَرَهُ في قوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [٥١] ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ١٩ - ٢٠] (١).

المطلب الثاني

خَيْرُ النَّاسِ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ

إِنَّ تَعَلُّمَ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ وَالْقِيَامَ بِتَعْلِيمِهِ وَبَيَانِ مَعَانِيهِ وَأَحْكَامِهِ لِلنَّاسِ مِنْ أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ وَأَجَلِّ الْقُرْبِ، يَحْظَى مُتَعَلِّمُهُ وَمُعَلِّمُهُ بِالْخَيْرِ وَالْفَضْلِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ تَحْضُرُ عَلَى تَعَلُّمِ الْقُرْآنِ وَتَعْلِيمِهِ؛ لِأَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى، فَكَانَ خَيْرُ النَّاسِ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ مَنْ اشْتَغَلَ بِهِ، وَمِنْ هَذِهِ الْأَحَادِيثُ:

١ - عَنْ عَثْمَانَ بْنِ عَفَّانٍ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ» (٢).

٢ - وَعَنْ عَثْمَانَ بْنِ عَفَّانٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ أَفْضَلَكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ» (٣).

(١) أضواء البيان (٧/٧٠٣).

(٢) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: خيركم من تعلم القرآن وعلمه (٣/١٦٢٠) (ح ٥٠٢٧)؛ وأبو داود، كتاب الصلاة، باب: في ثواب قراءة القرآن (٢/٧٠) (ح ١٤٥٢).

(٣) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: خيركم من تعلم القرآن وعلمه (٣/١٦٢٠) (ح ٥٠٢٨).

«وقد سُئِلَ الثوري عن الجهاد وإِقراء القرآن^(١)، فرَجَّحَ الثاني واختَجَّ بهذا الحديث^{(٢)(٣)}.

فهذه شهادةٌ حقٌّ لأهل القرآن بأنهم خيرُ النَّاسِ وأفضلهم، فلم يقل خيركم أو أفضلكم أكثركم مالاً أو أولاداً، ولا أوسعكم عقاراً أو نحو ذلك من حطام الدنيا الزَّائل.

وهذه هي صفات المؤمنين الصَّادقين المُتَّبِعِينَ للرَّسُول ﷺ، فهم يحرصون على تعلُّم القرآن وتركِية نفوسهم به، كما يحرصون على تعليم الآخرين وإرشادهم لهديه والدَّعوة إليه فيكون نفعاً متعدداً.

«ولا شكَّ أنَّ الجامع بين تعلُّم القرآن وتعليمه مكملٌ لنفسه ولغيره، جامع بين النَّفع القاصر والنَّفع المتعدِّي ولهذا كان أفضل، وهو من جملة مَنْ عَنِ ﷺ بقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنَ قَوْلًا وَمَنْ كَمَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣]. والدَّعاء إلى الله يقع بأمور شتى من جملتها تعليم القرآن وهو أشرف الجميع، وعكسه الكافر المانع لغيره من الإسلام كما قال تعالى: ﴿فَنَزَّلْنَا مِنْ كَذِبٍ يُكَاذِبُ اللَّهُ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ [الأنعام: ١٥٧]^(٤).

وخير الناس وأفضلهم مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ حقَّ تعلُّمه، وعَلَّمَهُ حقَّ تعليمه، ولا يَتِمَّكُنْ من هذا إلَّا بالإحاطة بالعلوم الشرعية أصولها وفروعها، ومثُلُ هذا الإنسان يُعَدُّ كاملاً لنفسه مكملًا لغيره فهو أفضل المؤمنين مطلقاً، وقد ورد عن عيسى عليه السلام: «مَنْ عَلِمَ وَعَمِلَ وَعَلَّمَ يُدْعَى فِي الْمَلَائِكَةِ عَظِيمًا» والفرد الأكمل من هذا الجنس هو النبي ﷺ، ثم الأشبه فالأشبه^(٥).

قال القرطبي رحمه الله: «قال العلماء: تعليم القرآن أفضل الأعمال؛ لأن فيه

(١) أي: تعليمه للناس.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٩٧/٩).

(٣) كلام الإمام سفيان الثوري رحمه الله ينسحب على الجهاد غير المُتَّعِينَ، أما إذا انتهكت حرمت المسلمين وتعيَّن الجهاد فُدِمَ على إِقراء القرآن.

(٤) المصدر نفسه (٩٦/٩).

(٥) انظر: عون المعبود شرح سنن أبي داود (٢٢٩/٤).

إِعَانَةً عَلَى الدِّينِ، فَهُوَ كَتَلَقَيْنِ الْكَافِرَ الشَّهَادَةَ لِيُسَلِّمَ^(١).
 وبعض أهل العلم حَمَلَ الحديثين بخير النَّاسِ وأفضلهم باعتبار التَّعَلُّمِ
 والتَّعْلِيمِ: قَالَ الطَّبِيبِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَيُّ خَيْرِ النَّاسِ بِاعْتِبَارِ التَّعَلُّمِ وَالتَّعْلِيمِ مَنْ تَعَلَّمَ
 الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»^(٢).

مَعْنَى التَّعَلُّمِ وَالتَّعْلِيمِ:

«تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَتَعْلِيمُهُ يَتَنَاوَلُ تَعَلُّمَ حُرُوفِهِ وَتَعْلِيمَهَا، وَتَعَلَّمَ مَعَانِيَهُ وَتَعْلِيمَهَا،
 وَهُوَ أَشْرَفُ قِسْمَي تَعَلُّمِهِ وَتَعْلِيمِهِ؛ فَإِنَّ الْمَعْنَى هُوَ الْمَقْصُودُ، وَاللَّفْظُ وَسِيلَةٌ إِلَيْهِ،
 فَتَعَلُّمُ الْمَعْنَى وَتَعْلِيمُهُ تَعَلُّمُ الْغَايَةِ وَتَعْلِيمَهَا، وَتَعَلُّمُ اللَّفْظِ الْمُجَرَّدِ وَتَعْلِيمُهُ تَعَلُّمُ
 الْوَسَائِلِ وَتَعْلِيمُهَا، وَبَيْنَهُمَا كَمَا بَيْنَ الْغَايَاتِ وَالْوَسَائِلِ»^(٣).

* وَهَذَا مَسْأَلَتَانِ مِنَ الْأَهَمِيَةِ بِمَكَانٍ أَوْرَدَهُمَا الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عِنْدَ
 شَرْحِهِ لِهَذَا الْحَدِيثِ، وَأَجَابَ عَلَيْهِمَا:

(الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى): «إِن قِيلَ: فَيُلْزَمُ عَلَى هَذَا أَنْ يَكُونَ الْمُقَرَّرُ أَفْضَلَ مِنْ
 الْفَقِيهِ.

قُلْنَا: لَا؛ لِأَنَّ الْمُخَاطَبِينَ بِذَلِكَ كَانُوا فَقَهَاءَ النُّفُوسِ لِأَنَّهُمْ كَانُوا أَهْلَ
 اللُّسَانِ، فَكَانُوا يَدْرُونَ مَعَانِيَ الْقُرْآنِ بِالسَّلَاقَةِ أَكْثَرَ مِمَّا يَدْرِيبُهَا مَنْ بَعْدَهُمْ
 بِالْاِكْتِسَابِ، فَكَانَ الْفَقْهُ لَهُمْ سَجِيَّةً، فَمَنْ كَانَ فِي مِثْلِ شَأْنِهِمْ شَارِكُهُمْ فِي ذَلِكَ،
 لَا مَنْ كَانَ قَارِئًا أَوْ مُقَرَّرًا مَحْضًا لَا يَفْهَمُ شَيْئًا مِنْ مَعَانِي مَا يَقْرُؤُهُ أَوْ يُقَرَّرُهُ»^(٤).

(الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَّةُ): «إِن قِيلَ: فَيُلْزَمُ أَنْ يَكُونَ الْمُقَرَّرُ أَفْضَلَ مِمَّنْ هُوَ أَعْظَمُ
 غِنَاءً فِي الْإِسْلَامِ بِالْمُجَاهَدَةِ وَالرِّبَاطِ وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالتَّهْنِي عَنِ الْمُنْكَرِ مِثْلًا.

قُلْنَا: حَرْفُ الْمَسْأَلَةِ يَدُورُ عَلَى النَّفْعِ الْمُتَعَدِّيِّ، فَمَنْ كَانَ حَصُولُهُ عِنْدَهُ أَكْثَرَ
 كَانَ أَفْضَلَ، فَلَعَلَّ «مِنْ» مُضْمَرَةٌ فِي الْخَبَرِ، وَلَا بَدَّ مَعَ ذَلِكَ مِنْ مِرَاعَاةِ الْإِحْلَاصِ
 فِي كُلِّ صَنْفٍ مِنْهُمْ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ الْخَيْرِيَّةُ وَإِنْ أُطْلِقَتْ لَكُنْهَا مَقِيدَةُ بَنَاسٍ

(١) التذكار في أفضل الأذكار (ص ١٤٤). (٢) المصدر السابق، والصفحة نفسها.

(٣) مفتاح دار السعادة (١/٧٤).

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٩/٩٦).

مخصوصين خُوطبوا بذلك كان اللّائق بحالهم ذلك، أو المراد خير المتعلّمين مَنْ يُعَلِّمُ غيره لا مَنْ يقتصر على نفسه، أو المراد مراعاة الحيثيّة؛ لأن القرآن خير الكلام، فمتعلّمه خيرٌ مِنْ مُتعلِّمٍ غيره بالنسبة إلى خيريّة القرآن، وَكَيْفَمَا كَانَ فهو مخصوص بِمَنْ عِلْمٌ وَتَعْلَمُ بحيث يكون قد عِلِمَ ما يجبُ عليه عَيْنًا^(١).

المطلب الثالث

تَعْلُمُ الْقُرْآنَ وَتَعْلِيْمُهُ خَيْرٌ مِنْ كُنُوزِ الدُّنْيَا

١ - عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَنَحْنُ فِي الصُّفَّةِ^(٢). فَقَالَ: «أَيْكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَغْدُوَ^(٣) كُلُّ يَوْمٍ إِلَى بَطْحَانَ^(٤) أَوْ إِلَى الْعَقِيقِ^(٥) فَيَأْتِيَ مِنْهُ بِنَاقَتَيْنِ كَوُمَاوَيْنِ^(٦)، فِي غَيْرِ إِنْهُمْ وَلَا قَطْعِ رَحِمٍ؟» فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! نُحِبُّ ذَلِكَ. قَالَ: «أَفَلَا يَغْدُو أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَسْجِدِ فَيَعْلَمُ أَوْ يَقْرَأَ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ﷻ

(١) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٢) (الصُّفَّةُ): موضعٌ مُظْلَلٌ من المسجد النبوي الشريف كان فقراء المهاجرين يأوون إليه، وهم المسنون بأصحاب الصُّفَّة، وكانوا أضياف الإسلام.

انظر: لسان العرب (٢٤٦٤/٤)، مادة: (صف).

(٣) (يغلو): أي: يذهب في الغدوة وهي أول النهار.

(٤) (بطحان): بضم الباء وسكون الطاء، وقيل: بالفتح والسكون، وقيل بالفتح والكسر، وهو أحد أودية المدينة الثلاثة، وهي: بطحان والعقيق وقناة.

انظر: معجم البلدان (٥٢٩/١).

وسمّي بطحان بذلك: لسعته وانساطه من البطح، وهو البسط.

انظر: عون المعبود شرح سنن أبي داود (٢٣١/٤).

(٥) (العقيق): قيل: أراد العقيق الأصغر، وهو على ثلاثة أميال أو ميلين من المدينة، وخصّهما بالذكر؛ لأنهما أقرب المواضع التي يُقام فيها أسواق الإبل إلى المدينة، والظاهر أنّ (أو) للتنويع.

انظر: عون المعبود (٢٣١/٤).

(٦) (كوماوين): مثنى كوما، فقلبت الهمزة في التثنية واوًا، وناقة كوما: عظيمة السنام طوليتها وأصل الكوم العلو، أي: فيحصل ناقتين عظيمتي السنام، وهي من خيار مال العرب.

انظر: لسان العرب (٣٩٥٨/٥)، مادة: (كوم)، عون المعبود (٢٣١/٤).

خَيْرٌ لَهُ مِنْ نَاقَتَيْنِ. وَثَلَاثٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلَاثٍ. وَأَرْبَعٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَرْبَعٍ. وَمِنْ أَعْدَائِهِنَّ مِنَ الْإِبِلِ»^(١).

٢ - وعند أبي داود بلفظ:

«أَيْكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَغْدُوَ إِلَى بُطْحَانَ، أَوْ الْعُقَيْقِ، فَيَأْخُذَ نَاقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ زَهْرَاوَيْنِ^(٢) بِغَيْرِ إِثْمٍ^(٣) بِاللَّهِ ﷻ وَلَا يَقْطَعَ رَحِمَ^(٤)»^(٥)، قَالُوا: كُلُّنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «فَلَاَنْ يَغْدُوَ أَحَدُكُمْ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى الْمَسْجِدِ فَيَتَعَلَّمَ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ﷻ خَيْرٌ لَهُ مِنْ نَاقَتَيْنِ، وَإِنْ ثَلَاثُ ثَلَاثٍ مِثْلُ أَعْدَائِهِنَّ مِنَ الْإِبِلِ»^(٥).

لقد ضَرَبَ النَّبِيُّ ﷺ هذا المثل بصورة عجيبة معبرة في الحث على تعلُّم القرآن العظيم والحث على قصد بيوت الله تعالى لتعلُّم القرآن؛ لما فيها من السَّكينة والطمأنينة، ولقطع علائق القلب عن شواغل الدُّنيا، وبيِّن أنَّ آيةً واحدةً يتعلَّمها المسلم خير من الدُّنيا وما فيها.

«والحاصل أنه ﷺ أراد ترغيبهم في الباقيات وتزهيدهم من الفانيات فذكره هذا على سبيل التَّمثيل والتَّقريب إلى فهم العليل، وإلَّا فجميع الدُّنيا أحقر من أن يُقَابَلَ بمعرفة آية من كتاب الله تعالى، أو بثوابها من الدَّرجات العُلى»^(٦).

وسبب التَّمثيل بالإبل: أنها كانت أحرَّ وأثمنَ أموال العرب في صدر الإسلام، لا يملكها إلَّا الأغنياء منهم، فرغَّب النَّبِيُّ ﷺ أصحابه إلى ما هو أفضل

(١) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل قراءة القرآن في الصَّلَاة وتعلُّمه (٥٥٢/١) (ح ٨٠٣)؛ وابن حبان في «صحيحه»، كتاب العلم، باب: الحث على تعلُّم كتاب الله (٣٢١/١) (ح ١١٥).

(٢) (زهراوين): أي: سُميتان مائلتين إلى البياض من كثرة السَّمَنِ.

(٣) (بغير إثم): كسرة وعَصَب، سَمَى موجب الإثم إثمًا مجازاً.

(٤) (ولا قطع رحم): أي: بغير ما يوجبه، وهو تخصيص بعد تميم. انظر: عون المعبود (٢٣١/٤).

(٥) رواه أبو داود، كتاب الصَّلَاة، باب: في ثواب قراءة القرآن (٧١/٢) (ح ١٤٥٦)؛ وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٢٧٣/١) (ح ١٢٩٢).

(٦) عون المعبود شرح سنن أبي داود (٢٣١/٤).

من ذلك، بأن يكون لهم رصيد من الحسنات عند الله ﷻ أعظم من الإبل عند أصحابها في الدنيا، وذلك بأن يتعلموا كلام الله تعالى، فكل آية يتعلمها المسلم هي في ميزان حسناته أفضل من ناقة عظيمة السنام، سالمة من العيوب لو تصدَّق بها^(١).

قال ابن حبان رحمه الله - بعد أن أوردَ هذا الحديث في صحيحه: «هذا الحديث أَضْمَرَ فِيهِ كَلِمَةٌ، وَهِيَ: (لَوْ تَصَدَّقَ بِهَا) يَرِيدُ بِقَوْلِهِ: فَيَتَعَلَّمُ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ نَاقَتَيْنِ، وَثَلَاثَ خَيْرٌ مِنْ ثَلَاثٍ لَوْ تَصَدَّقَ بِهَا؛ لِأَنَّ فَضْلَ تَعَلُّمِ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ أَكْبَرَ مِنْ فَضْلِ نَاقَتَيْنِ وَثَلَاثٍ وَأَعْدَادَهُنَّ مِنَ الْإِبِلِ لَوْ تَصَدَّقَ بِهَا؛ إِذَا مُحَالٌ أَنْ يُشَبَّهَ مَنْ تَعَلَّمَ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فِي الْأَجْرِ بِمَنْ نَالَ بَعْضَ حَطَامِ الدُّنْيَا»^(٢).

وهذا الذي ذَكَرَهُ ابْنُ حَبَانَ هُنَا حَسَنٌ وَجَمِيلٌ، يُذَكِّرُنَا بِأَجْرِ التَّكْبِيرِ إِلَى صَلَاةِ الْجُمُعَةِ، وَفِيهِ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ اخْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ غُسْلَ الْجَنَابَةِ ثُمَّ رَاحَ، فَكَانَ مَا قَرَّبَ بَدَنَةً...» الحديث^(٣).

وَلَا شَكَّ أَنَّ أَجْرَ تَعَلُّمِ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى عَظِيمٌ كَبِيرٌ إِذَا قَسَّاهُ عَلَى مَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الْآنْفِ الذَّكَرُ مِنْ أَنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا حَضَرَ صَلَاةَ الْجُمُعَةِ فِي السَّاعَةِ الْأُولَى فَكَانَ مَا تَصَدَّقَ بِبَدَنَةٍ، أَيْ: بِنَاقَةٍ.

وَفِي الْحَدِيثِ وَصِفَتُ النَّاقَةِ بِأَنَّهَا كَوْمَاءُ زَهْرَاءَ، أَيْ: عَظِيمَةُ السَّنامِ، كَثِيرَةُ اللَّحْمِ، مَائِلَةٌ إِلَى الْبَيَاضِ مِنْ عَظْمِ السَّمَنِ، هِيَ مِنْ خِيَارِ أَمْوَالِ الْعَرَبِ آنَذَاكَ. وَهَذَا الْفَضْلُ مِنَ التَّصَدَّقِ بِمَجْرَدِ نَاقَةٍ، كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ التَّكْبِيرِ إِلَى صَلَاةِ الْجُمُعَةِ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

وَقَدْ رَغَّبَ النَّبِيُّ ﷺ فِي تَعَلُّمِ الْخَيْرِ وَتَعْلِيمِهِ لِلنَّاسِ، وَهَدَاهُ كَأَجْرِ حَاجٍّ، تَامًا حَاجَّتُهُ فِي قَوْلِهِ: «مَنْ غَدَا إِلَى الْمَسْجِدِ لَا يُرِيدُ إِلَّا أَنْ يَتَعَلَّمَ خَيْرًا أَوْ يُعَلِّمَهُ، كَانَ لَهُ

(١) انظر: الأحاديث والآثار الواردة في فضائل سور القرآن (ص ٣١ - ٣٢).

(٢) الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان (١/٣٢٢).

(٣) رواه البخاري، كتاب الجمعة، باب: فضل الجمعة (١/٢٦٤) (ح ٨٨١).

كَأَجْرِ حَاجٍّ، نَامًا حَبَّتُهُ^(١).

ولا ريب أن تعلم القرآن وتعليمه يأتي في مقدمة الخير الذي يُعَلِّمُ أو يُتَعَلَّمُ؛ ذلك أنه كلام الله جلَّ جلاله.

وفي حديث آخر أخبر النبي ﷺ أَنَّ متعلِّم الخير ومُعلِّمه بمنزلة المجاهد في سبيل الله تعالى بقوله: «مَنْ جَاءَ مَسْجِدِي هَذَا، لَمْ يَأْتِهِ إِلَّا لِيُخَيَّرَ يَتَعَلَّمْهُ أَوْ يُعَلِّمَهُ، فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. وَمَنْ جَاءَ لِيُغَيِّرَ ذَلِكَ فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الرَّجُلِ يَنْظُرُ إِلَى مَتَاعٍ غَيْرِهِ»^(٢).

وجديرٌ بِمتعلِّم القرآن ومُعلِّمه أن يُنَزَّلَ منزلة المجاهد في سبيل الله تعالى؛ ذلك أنه جاهد نفسه وهواها، وجاهد الشيطان، وصبر وصابر ورابط في هذه الحِلَقِ المباركة، وترك الدنيا وزينتها، فاستحق هذا الشرف العظيم تفضلاً من الله تعالى ومِنَّة.

وكان الصَّحابة وتابعوهم أحرص الناس على تعلُّم وتعليم كتاب الله ﷻ وحثَّ الناس وتشجيعهم على احتساب الأجر في ذلك، وفيما يأتي طائفة من أخبارهم المباركة:

١ - عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «لَوْ جُعِلَ لِأَحَدٍ خَمْسُ قَلَانِصَ^(٣)؛ إِنْ صَلَّى الْغَدَاةَ بِالْقَرْيَةِ لَبَاتَ يَقُولُ لِأَهْلِهِ: لَقَدْ آتَى لِي أَنْ أَنْطَلِقَ. وَاللَّهِ لَا يَقْعُدُ أَحَدُكُمْ فَيَتَعَلَّمُ خَمْسَ آيَاتٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، فَلَهُنَّ خَيْرٌ لَهُ مِنْ خَمْسِ قَلَانِصَ وَخَمْسِ قَلَانِصَ»^(٤).

(١) رواه الطبراني في «الكبير» (٩٤/٨) (ح ٧٤٧٣)؛ والمنذري في «الترغيب والترهيب»، كتاب العلم، باب: الترغيب في الرحلة في طلب العلم (ح ٣)، وقال: «رواه الطبراني في الكبير بإسناد لا بأس به». وقال الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١/١٤٥) (ح ٨٦): «حسن صحيح». والحاكم في «المستدرک» (١/١٦٩) (ح ٣١١) يلفظ: «... أجر معتبر تام العمرة» وصحَّحه على شرط البخاري، ووافقه الذهبي.

(٢) رواه ابن ماجه في «المقدمة»، باب: فضل العلماء والحث على طلب العلم (١/٨٢) (ح ٢٢٧)، وصحَّحه الألباني في «صحيح ابن ماجه»: (١/٤٤) (ح ١٨٦).

(٣) (القلائص): جَمْعُ قَلَوَص، وهي النَّاقَةُ الشَّابَّةُ، وتُجْمَعُ عَلَى قِلَاصٍ وَقُلُصٍ أَيْضاً. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٤/١٠٠).

(٤) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٦/١٣٣) (رقم ٣٠٠٧٥).

٢ - عن أبي عبيدة عن أبيه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «أَنَّهُ كَانَ يُقْرَأُ الْقُرْآنَ، فَيُحَرَّرُ بِالْآيَةِ، فَيَقُولُ لِلرَّجُلِ: خُذْهَا، فَإِنَّ اللَّهَ لَيُخَيِّرَ مِمَّا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ»^(١).

٣ - وعن الأعمش قال: مَرَّ أَعْرَابِي بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، وَهُوَ يُقْرَأُ قَوْماً الْقُرْآنَ، أَوْ قَالَ: وَعِنْدَهُ قَوْمٌ يَتَعَلَّمُونَ الْقُرْآنَ، فَقَالَ: مَا يَصْنَعُ هَؤُلَاءِ؟ فَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: «يُقْتَسَمُونَ مِيرَاثَ مُحَمَّدٍ ﷺ»^(٢).

وَأَجْرُ تَعْلُمٍ وَتَعْلِيمِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ لَيْسَ حَكْراً عَلَى الصَّحَابَةِ الْكِرَامِ وَتَابِعِيهِمْ، وَإِنَّمَا هُوَ لِكُلِّ مَنْ يَحْذُو حَذْوَهُمْ وَيَسِيرُ عَلَى خُطَاهِمِ الْمُبَارَكَةِ فِي تَعْلُمِ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ، نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى مِنْ فَضْلِهِ وَمَنِّهِ وَكَرَمِهِ، إِنَّهُ جَوَادٌّ كَرِيمٌ.

المطلب الرابع

مَنْ عَلَّمَ آيَةً كَانَ لَهُ ثَوَابُهَا مَا تُلَيْتُ

لَا رَيْبَ أَنَّ تَعْلِيمَ النَّاسِ الْقُرْآنَ الْعَظِيمِ مِنَ النَّفْعِ الْمُتَعَدِّي، وَهُوَ مِمَّا يُلْحَقُ الْمُعَلِّمُ مِنْ عَمَلِهِ الصَّالِحِ وَحَسَنَاتِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ.

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ مِمَّا يُلْحَقُ الْمُؤْمِنَ مِنْ عَمَلِهِ وَحَسَنَاتِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ، عِلْماً عَلَّمَهُ وَنَشَرَهُ، وَوَلَدًا صَالِحًا تَرَكَهُ، وَمُصْحَفًا وَرَّثَهُ، أَوْ مَسْجِدًا بَنَاهُ أَوْ بَيْتًا لِابْنِ السَّبِيلِ بَنَاهُ، أَوْ نَهْرًا أَجْرَاهُ، أَوْ صَدَقَةً أَخْرَجَهَا مِنْ مَالِهِ فِي صِحَّتِهِ وَحَيَاتِهِ. يُلْحَقُهُ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِ»^(٣).

(١) رواه أبو عبيد القاسم في «فضائل القرآن» (ص ٥٢). وانظر: فضائل القرآن، لابن الضريس (ص ٤٧)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٦٦/٧): «رواه الطبراني، ورجاله ثقات».

(٢) رواه أبو عبيد القاسم في «فضائل القرآن» (ص ٥١)؛ وأورده الحافظ الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٢٣/١ - ١٢٤)، باب: فضل العالم والمتعلم، من رواية الطبراني في «الأوسط» وقال: «إسناده حسن».

وانظر: جامع الأصول (١/٢٩١ - ٢٩٢)، وهو فيهما عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) رواه ابن ماجه، في «المقدمة» واللفظ له، باب: ثواب معلم الناس الخير (١/٨٨) =

وتعليم النَّاسِ القرآنَ داخلٌ في قوله ﷺ: «عَلِّمًا عَلَّمَهُ وَنَشَرَهُ».

وكذلك فإنَّ تعليم النَّاسِ القرآنَ العظيمَ داخلٌ في عموم الدَّلالة على الخير، والمشار إليه في قوله ﷺ: «مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ»^(١).

قال النووي رحمه الله: «فيه فضيلة الدَّلالة على الخير والتَّنبيه عليه والمساعدة لفاعله، وفيه فضيلة تعليم العلم ووظائف العبادات، لا سيما لمن يعمل بها مِنَ الْمُتَعَبِّدِينَ وغيرهم. والمراد بـ (مثل أجر فاعله) أنَّ له ثواباً بذلك الفعل كما أنَّ لفاعله ثواباً، ولا يلزم أن يكون قَدْرُ ثَوَابِهِمَا سواء»^(٢).

«وذهب بَعْضُ الأئمة إلى أن المثل المذكور في هذا الحديث ونحوه إنما هو بغير تضعيف.

وقال القرطبي: إنَّه مثله سواء في القَدْر والتَّضعيف؛ لأنَّ الثَّواب على الأعمال إنما هو بِفَضْلِ من الله يهبه لمن يشاء على أيِّ شيء صَدَرَ منه، خصوصاً إذا صَحَّت النية التي هي أصل الأعمال في طاعةٍ عَجَزَ عن فِعْلِهَا لِمَانِعٍ مَنَعَ منها، فلا بُغْدَ في مساواة أجر ذلك العاجز لأجر القادر والفاعل، أو يزيد عليه»^(٣).

وفي رأي القرطبي رحمه الله ما يُضَاعَفُ الأمل في الدَّلالة على العمل.

وقد جاء أجر تعليم القرآن منصوصاً عليه صراحة حتَّى لو كانت آيَةٌ واحدة في قوله ﷺ: «مَنْ عَلَّمَ آيَةَ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ﷻ، كَانَ لَهُ ثَوَابُهَا مَا ثَلَيْتْ»^(٤).

= (ح ٢٤٢)؛ وابن خزيمة في «صحيحه» (١٢١/٤) (ح ٢٤٩٠)؛ وحسنه المُناوي في «فيض القدير» (٥٤٠/٢) (ح ٢٤٩٧)؛ ووافقه الألباني في: «صحيح ابن ماجه» (٤٦/١) (ح ١٩٨)؛ و«صحيح الجامع» (٤٤٣/١) (ح ٢٢٣١)؛ و«أحكام الجنائز» (١٧٦)؛ و«الإرواء» (١٠٧٩).

(١) رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب: فضل إعانة الغازي في سبيل الله (١٥٠٦/٣) (ح ١٨٩٣).

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي (٤١/١٣ - ٤٢).

(٣) عون المعبود شرح سنن أبي داود (٢٦/١٤ - ٢٧).

(٤) صحَّحه الألباني في «السُّلسلة الصَّحيحة» (٣٢٣/٣) (ح ١٣٣٥) وقال: «أخرجه سهل

القَطَّان في: «حديثه عن شيخه» (٢/٢٤٣/٤).

ثم ساق رجالَ الإسناد وقال: «وهذا إسناد جيّد عزيز، رجاله ثقات، رجال مسلم، غير محمد بن النجهم، وهو ابن هارون، الكاتب السمرى، ترجمه الخطيب (١٦١/٢) برواية جماعة من الثقات عنه، وقال: «وقال الدَّارقطني: ثقة، صدوق».

وهذا من الآثار الحسنة التي تكتب في ميزان معلّم القرآن؛ لأنه كان السبب المباشر في تعليمها.

ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ﴾ [يس: ١٢].

«فالمراد بـ ﴿مَا قَدَّمُوا﴾ ما عملوا من الأعمال قبل الموت؛ شُبّهَتْ أعمالهم في الحياة الدنيا بأشياء يُقَدِّمونها إلى الدّار الآخرة كما يُقَدِّم المسافر ثقله وأحماله.

وأما الآثار فهي آثار الأعمال وليست عَيْن الأعمال بقرينة مقابلته بـ ﴿مَا قَدَّمُوا﴾ مثل ما يتركون من خير أو يثير بين الناس وفي النفوس^(١) مثل ما يتركون وللمفسرين قولان في قوله تعالى: ﴿وآثَرَهُمْ﴾:

القول الأوّل: نُكْتُب أعمالهم التي باثروها بأنفسهم، وآثارهم التي أثروها من بعدهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

ويشهد له قوله ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْءٌ. وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»^(٢).

«فكلُّ خيرٍ عمل به أحدٌ من النّاس، بسبب علم العبد، وتعليمه، أو نصحه، أو أمره بالمعروف، أو نهيه عن المنكر، أو علم أودعه عند المتعلمين، أو في كُتُب يُنتفع بها في حياته وبعد موته، أو عمل خيراً، من صلاة، أو زكاة، أو صدقة، أو إحسان، فاقتدى به غيره، أو عمل مسجداً، أو محلاً من المحال، التي يرتفق بها النّاس، وما أشبه ذلك، فإنها من آثاره، التي تُكْتُب له، وكذلك عمل الشر»^(٣).

(١) التحرير والتنوير (٢٢/٢٠٤).

(٢) رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب: الحث على الصدقة ولو بشق تمر أو كلمة طيبة (٢/٧٠٥) (ح ١٠١٧).

(٣) تفسير السعدي (٤/٢٣٠).

القول الثاني: إِنَّ المراد بذلك آثارُ خطائهم إلى الطَّاعة أو المعصية.

ويشهد له قولُ جابر بن عبد الله رضي الله عنه، قال: خَلَّتِ البِقَاعُ حَوْلَ الْمَسْجِدِ فَأَرَادَ بَنُو سَلَمَةَ أَنْ يَنْتَقِلُوا إِلَى قُرْبِ الْمَسْجِدِ. فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. فَقَالَ لَهُمْ: «إِنَّهُ بَلَفَنِي أَنْكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَتَقَلُّوا قُرْبَ الْمَسْجِدِ» قَالُوا: نَعَمْ. يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَدْ أَرَدْنَا ذَلِكَ. فَقَالَ: «يَا بَنِي سَلَمَةَ! دِيَارُكُمْ، تُكْتَبُ آثَارُكُمْ^(١)، وَدِيَارُكُمْ، تُكْتَبُ آثَارُكُمْ^(٢)».

قال ابن كثير رحمته الله: «وهذا القول لا تنافي بينه وبين الأول، بل في هذا تنبيه ودلالة على ذلك بطريق الأولى والأخرى، فإنه إذا كانت هذه الآثار تُكْتَبُ، فَلَا بُدَّ تَكْتَبُ تلك التي فيها قُدوة بهم من خير أو شر بطريق الأولى^(٣)».

المطلب الخامس

ثَوَابُ مَنْ يُعَلِّمُ الصَّغَارَ الْقُرْآنَ

أولى الناس بتعليم القرآن العظيم هم أولادنا الصغار، وهذا التعليم سنة مُبْتَعَةٌ عند سلفنا الصالح رضي الله عنهم أجمعين:

١ - فعن سعيد بن جبيرة رضي الله عنه قال: إِنَّ الَّذِي تَدْعُوهُ الْمُفْصَلُ هُوَ الْمُحْكَمُ. قَالَ: وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنه: تُوَفِّي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَأَنَا ابْنُ عَشْرِ سِنِينَ وَقَدْ قَرَأْتُ الْمُحْكَمَ^(٤).

٢ - وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ رضي الله عنه، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه: جَمَعْتُ الْمُحْكَمَ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْتُ لَهُ: وَمَا الْمُحْكَمُ؟ قَالَ - أَيُّ ابْنِ عَبَّاسٍ -: الْمُفْصَلُ^(٥).

(١) (دياركم، تُكْتَبُ آثَارُكُمْ): معناه الزَّمُوا دِيَارَكُمْ، فإنكم إذا لزمتموها كُتِبَتْ آثَارُكُمْ وخطاكم الكثيرة إلى المسجد. «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٦٩/٥).

(٢) رواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب: فضل كثرة الخطا إلى المساجد (١/٤٦٢) (ح ٦٦٥).

(٣) تفسير ابن كثير (٥٩١/٦).

(٤) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: تعليم الصبيان القرآن (١٦٢٢/٣) (رقم ٥٠٣٥).

(٥) رواه البخاري، الكتاب نفسه، والباب نفسه، (١٦٢٢/٣) (رقم ٥٠٣٦).

قال ابن كثير رحمه الله: «فيه دلالة على جواز تعليم القرآن في الصِّبَا، وهو ظاهر، بل قد يكون مُسْتَحَبًّا أو واجباً؛ لأنَّ الصَّبِيَّ إذا تعلَّم القرآن بلغ وهو يعرف ما يُصَلِّي به، وحفظه في الصِّغَرِ أولى من حفظه كبيراً، وأشدُّ علوقاً بخاطره، وأرسخ وأثبت، كما هو المعهود من حال الناس»^(١).

جزاء الوالدين:

أما أجر الوالدين اللذين يعلمان أولادهما كتاب الله ﷻ ويصبران على ذلك، فهو أجر عظيم يتناسب وتعبهما وصبرهما وتحملهما المشقة في ذلك، بأنَّ يُكْسُوا خُلَّتَيْنِ لا يقوم لهما أهل الدنيا:

فعن بُرَيْدَةَ بنِ الْحُصَيْبِ رضي الله عنه قال: كُنْتُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: «إِنِ الْقُرْآنَ يَلْقَى صَاحِبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يَنْشَقُّ عَنْهُ قَبْرُهُ كَالرَّجُلِ الشَّاحِبِ»^(٢)، فيقول له: هَلْ تَعْرِفُنِي؟ فيقول: مَا أَعْرِفُكَ، فيقول: أَنَا صَاحِبُكَ الْقُرْآنَ الَّذِي أَظْمَأْتِكَ فِي الْهَوَاجِرِ^(٣)، وَأَسَهَرْتَ لَيْلَكَ، وَإِنَّ كُلَّ تَاجِرٍ مِنْ وَرَاءِ تِجَارَتِهِ، وَإِنَّكَ الْيَوْمَ مِنْ وَرَاءِ كُلِّ تِجَارَةٍ، فَيُعْطَى الْمُلْكَ بِمِيزَانِهِ، وَالْخُلْدَ بِشِمَالِهِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ، وَيُكْسَى وَالِدَاهُ خُلَّتَيْنِ لَا يَقُومُ لَهُمَا أَهْلُ الدُّنْيَا، فيقولان: بِمِ كَسِينَتِنَا هَذَا؟ فيقال: بِأَخْذِ وَلَدِكُمَا الْقُرْآنَ.

ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: اقْرَأْ، وَاصْبِرْ فِي دَرَجِ الْجَنَّةِ وَحُرْفِهَا، فَهُوَ فِي صُعُودٍ مَا دَامَ يَقْرَأُ، هَذَا^(٤) كَانَ، أَوْ تَرْتِيلًا^(٥)،^(٦)

(١) فضائل القرآن (ص ٢٢٦).

(٢) (الشَّاحِبُ): هو المتغيَّر اللون لعارض من مرض، أو سفر، أو نحوهما.

(النهاية في غريب الحديث والأثر) (٢/٤٤٨)، مادة: (شحب).

(٣) (الهِوَاَجِرُ): جَمْعُ هَاجِرَةٍ، وهو نصف النَّهَارِ عِنْدَ زَوَالِ الشَّمْسِ إِلَى الْعَصْرِ، عِنْدَ اشْتِدَادِ الْحَرِّ.

انظر: (النهاية في غريب الحديث) (٥/٢٤٤)، مادة: (هجر).

(٤) (هَذَا): الِهَذَا وَالِهَذَا بفتح الهاء: هو سرعة القراءة وسرعة القطع، يقال: هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدُهُ هَذَا: إِذَا أَسْرَعَ فِي قِرَائَتِهِ وَسُرَّوَهُ.

انظر: لسان العرب (٦/٤٦٤٣)، مادة: (هذ).

(٥) (ترتيلًا): ترتيل القراءة: هو التَّأَنِّي فِيهَا وَالتَّمَهُّلُ وَتَبْيِينُ الْحُرُوفِ وَالْحَرَكَاتِ.

(النهاية في غريب الحديث والأثر) (٢/١٩٤)، مادة: (رتل).

(٦) رواه مطولاً أحمد في «المستند» (٥/٢٣٨) (ج ٢٣٠٠) وقال محققو المستند (٣٨/٤٢) =

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً إلى النبي ﷺ قال: «... وَيُكَسِّي وَالِدَاهُ حُلَّتَيْنِ، لَا تَقُومُ لَهُمَا الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، فَيَقُولَانِ: يَا رَبِّ! أَنَّى لَنَا هَذَا؟» فَيَقَالُ: بِتَعْلِيمٍ وَلَدِكُمَا الْقُرْآنَ... الحديث (١).

وَحَقٌّ لِهَٰذَيْنِ الْوَالِدَيْنِ أَنْ يَعْجَبَا وَيَذْهَبَا مِنْ هَذَا الْإِنْعَامِ الْعَظِيمِ الَّذِي حَصَلَا عَلَيْهِ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبَانِ، فَعِنْدَمَا يُكَسِّي هَٰذَانِ الْوَالِدَانِ حُلَّتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنْ حُلَلِ الْجَنَّةِ أَعْلَى وَأَثَمَنِ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، يَتَسَاءَلَانِ فِي دَهْشَةٍ: مِنْ أَيْنَ لَنَا مِثْلُ هَاتَيْنِ الْحُلَّتَيْنِ وَلَيْسَ لَنَا - فِيمَا نَعْلَمُ - مِنَ الْعَمَلِ وَالطَّاعَاتِ مَا يُوْهِلُّنَا لِلْفَوْزِ بِهَذِهِ الْكِرَامَةِ الْعَظِيمَةِ؟

فَيَجَابَانِ: بِتَعْلِيمٍ وَلَدِكُمَا الْقُرْآنَ وَصَبْرِكُمَا عَلَيْهِ وَإِخْلَاصِ التَّصَبُّحِ لَهُ. وَهَكَذَا فَإِنَّ صَاحِبَ الْقُرْآنِ مِنْ أَبْرَرِ النَّاسِ بِوَالِدَيْهِ، وَلَوْ عَلِمَ كُلُّ الْوَالِدَيْنِ مَا يَحْصُلُ لَهُمَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْكِرَامَةِ وَالرَّفْعَةِ بِأَخْذِ وَلَدِهِمَا لِلْقُرْآنِ الْعَظِيمِ لِبَادِرٍ إِلَى دَفْعِ أَوْلَادِهِمَا دَفْعاً، وَحُثِّمَ حُثّاً عَلَى تَعَلُّمِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَتِلَاوَتِهِ وَتَدْبِيرِهِ (٢).
وقد أَحْسَنَ الشَّاطِبِيُّ (٣) كَلَامَهُ حِينَ قَالَ:

= (ح ٢٢٩٥٠): «إِسْنَادُهُ حَسَنٌ فِي الْمُنَاقِبَاتِ وَالشَّوَاهِدِ، مِنْ أَجْلِ بَشِيرِ بْنِ الْمُهَاجِرِ الْقُتَيْبِيِّ، وَيَاقِي رِجَالَهُ ثِقَاتُ رِجَالِ الشُّبَّانِ، وَحَسَنُهُ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (١/٦٢)، وَبَلْعَضِهِ شَوَاهِدُ يَصُحُّ بِهَا».
ورواه ابن أبي شيبة في «مُصَنَّفِهِ» (١٢٩/٦) (ح ٣٠٠٤٥)؛ وَعَبْدُ الرَّزَّاقِ فِي «مُصَنَّفِهِ» (٣/٣٧٤) (ح ٦٠١٤).

وَذَكَرَهُ الْبُوصَيْرِيُّ فِي «مُصْبَاحِ الرُّجَاةِ» (١٨٧/٣) (ح ١٣٢١) وَقَالَ: «هَٰذَا إِسْنَادُ رِجَالِهِ ثِقَاتٌ». وَذَكَرَهُ الْهَيْثَمِيُّ فِي «مَجْمَعِ الزَّوَادِ» (١٥٩/٧)، وَقَالَ: «رَوَى ابْنُ مَاجَةَ مِنْهُ طَرَفًا، وَرَوَاهُ أَحْمَدُ، وَرِجَالُهُ رِجَالُ الصَّحِيحِ».
ورواه مُخْتَصَرُ الْحَاكِمِ فِي «الْمُسْتَدْرَكِ» (٧٤٢/١) (ح ٢٠٤٣) وَقَالَ: «حَدِيثٌ صَحِيحٌ الْإِسْنَادُ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ وَلَمْ يَخْرُجْ لَهُ»، وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ. وَابْنُ مَاجَةَ (١٢٤٢/٢) (ح ٣٧٨١)؛ وَأَحْمَدُ فِي «الْمُسْنَدِ» (٣٥٢/٥) (ح ٢٣٠٢٦).

(١) رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي «الْأَوْسَطِ» (٥١/٦) (ح ٥٧٦٤)؛ وَأَوْرَدَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «السِّيَلَةِ الصَّحِيحَةِ» (٧٩٢/٦) (ح ٢٨٢٩) وَقَالَ: «الْحَدِيثُ حَسَنٌ أَوْ صَحِيحٌ؛ لِأَنَّهُ لَهُ شَاهِدٌ مِنْ حَدِيثِ بَرِيدَةَ بِنْتِ الْحَصْبِيِّ مَرْفُوعاً بِتَمَامِهِ».

(٢) انْظُرْ: أَنْوَارُ الْقُرْآنِ (ص ١٨١ - ١٨٢).

(٣) هُوَ الْقَاسِمُ بْنُ فَيْزَةَ - وَمَعْنَاهُ بَلَّغَهُ عَجَمُ الْأَنْدَلُسِ: الْحَدِيدُ بْنُ خَلْفٍ بْنِ أَحْمَدَ الشَّاطِبِيِّ =

فَيَا أَيُّهَا الْقَارِي بِهِ مُتَمَسِكاً مُجَلَّلاً لَهُ فِي كُلِّ حَالٍ مُبَجَّلَا
هَنِيشاً مَرِيثاً وَالِدَاكَ عَلَيْهِمَا مَلَابِسُ أَنْوَارٍ مِنَ الثَّجَالِ وَالْحَلَا
فَمَا ظَنُّكُمْ بِالنَّجْلِ عِنْدَ جَزَائِهِ أَوْلَيْكَ أَهْلُ اللَّهِ وَالصَّفْوَةُ الْمَلَا^(١)

وهذا مِنَ الآثارِ الحسنة التي تُكتب في ميزان الوالدين، لأنهما السَّببُ المباشر في تعليم هذا الولد، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ﴾ [يس: ١٢]. كما مرَّ بنا في المطلب الرَّابع من هذا المبحث.

فليتنافس في هذا الآباء ما دام صلاح الأولاد راجعاً إليهم في النِّهاية، ثمَّ لما يترتَّب على ذلك من البعد عن مواطن الشرِّ إلى مجال الخير.



= الرَّعِينِي الأندلسي، ولد ضريراً سنة (٥٤٨هـ) بشاطبة، من الأندلس، كان أعجوبة في الذكاء، كثيرَ الفنون، غايةً في القراءات، حافظاً للحديث، بصيراً بالعربية، شافعي المذهب. قال ابن خَلِّكان: «كان إذا قُرئَ عليه صحيح البخاري ومسلم والموطأ، تُصَحِّح النُّسخ من حِفْظِهِ». توفي بمصر سنة (٥٩٠هـ)؛ انظر ترجمته بتوسُّع في مقدمة كتابه: حُرُز الأمانِي ووجه التَّهاني في القراءات السَّبع (ص ٣ - ١٠).
(١) انظر: حُرُز الأمانِي ووجه التَّهاني في القراءات السَّبع (ص ١٢ - ١٣).

المبحث الرابع

المبحث الرابع

أحكام تعلم القرآن وتعليمه

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: حكم تعلم القرآن وتعليمه.

المطلب الثاني: حكم تعليم القرآن لغير المسلم.

المطلب الثالث: حكم أخذ الأجرة على تعليم القرآن.

أحكام تعلم القرآن وتعليمه

ثبت عنه ﷺ أنه حرص على تعليم أصحابه القرآن، إمّا بنفسه، وإمّا بتوكيل بعض أصحابه للقيام بهذه المهمة العظيمة.

ومن النوع الأول ما ورد عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعَلِّمُنَا الْقُرْآنَ، فَإِذَا مَرَّ بِسُجُودِ الْقُرْآنِ سَجَدَ وَسَجَدْنَا مَعَهُ»^(١).

ولاشتهار هذا الأمر عن رسول الله ﷺ صار أصلاً يُقَاسُ عليه غيره، ومن هذا القبيل قول جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعَلِّمُنَا الْاسْتِخَارَةَ فِي الْأُمُورِ كَمَا يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ»^(٢).

فإذا طرأ ما يمنع رسول الله ﷺ من مباشرة ذلك بنفسه وكَلَّ بعض أصحابه للقيام بمهمة تعليم القرآن - وهذا من النوع الثاني -

ومنه ما ورد عن عبادة بن الصّاميت رضي الله عنه قال: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُشْفَلُ، فَإِذَا قَدِمَ رَجُلٌ مُهَاجِرٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ دَفَعَهُ إِلَى رَجُلٍ مِنَّا يُعَلِّمُهُ الْقُرْآنَ»^(٣).

وعن أبي موسى رضي الله عنه: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَ مُعَاذًا وَأَبَا مُوسَى إِلَى الْيَمَنِ، فَأَمَرَهُمَا أَنْ يُعَلِّمَا النَّاسَ الْقُرْآنَ»^(٤).

(١) رواه أحمد في «المسند» (١٥٧/٢) (ح ٦٤٦١)، وقال محققو المسند (٤٨٧/١٠) (ح ٦٤٦١): «حديث صحيح». ورواه مسلم بنحوه في: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب: سجود التلاوة (٤٠٥/١) (ح ٥٧٥).

(٢) رواه البخاري، كتاب التهجد، باب: ما جاء في التطوع مثني مثني (٣٤٦/١) (ح ١١٦٢).

(٣) رواه أحمد في «المسند» (٣٢٤/٥) (ح ٢٢٨١٨)، وقال محققو المسند (٤٢٦/٣٧) (ح ٢٢٧٦٦): «إسناده حسن».

والحاكم في «المستدرک» (٤٠١/٣) (ح ٥٥٢٧)، وقال: «صحيح الإسناد، ولم يخرجاه». والطبراني في «مسند الشافعين» (ح ٢٢٣٧)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٤٤٤/١).

(٤) رواه أحمد في «المسند» (٣٩٧/٤) (ح ١٩٥٦٢)، وقال محققو المسند (٣١٥/٣٢) =

وعلى هذا النَّهْجِ سارَ السَّلَفُ الصَّالِحُ بعدَ رسولِ الله ﷺ، بحيثَ لم يَخْلُ عصرٌ من مُعَلِّمي القرآنِ الحريصينَ على تبليغه للنَّاسِ، وقد أثمرتَ جهودُ هؤلاءِ الأخيارِ وأدَّتْ إلى تواترِ القرآنِ جيلاً بعدَ جيلٍ حتى وصلَ إلينا - بحمدِ الله تعالى - عَصاً طرياً^(١).

والحديثُ عن حُكْمِ تَعَلُّمِ القرآنِ وتعليمِهِ يَتِمُّثَلُ في المطالبِ الآتية:

المطلب الأول

حُكْمُ تَعَلُّمِ الْقُرْآنِ وَتَعْلِيمِهِ

تَعَلُّمُ الْقُرْآنِ وتعليمُهُ فرضُ كفايةٍ على المسلمين، فإذا قامَ به البعضُ سقطَ الإثمُ عن الباقيين، إلَّا ما نصَّحَ به الصَّلَاةُ مِنَ الْقُرْآنِ بِالْإِجْمَاعِ^(٢)، وهو الفاتحة؛ لأنَّ من القواعدِ المتقرَّرةِ في الشريعةِ أنَّ ما لا يَتِمُّ الواجبُ إلَّا به فهو واجبٌ، والصَّلَاةُ واجبةٌ ولا تَتِمُّ إلَّا بقراءةِ الفاتحة^(٣).

وأما ما سوى الفاتحة فتعلُّمُهُ فرضُ كفايةٍ على الجميع، ومستحبٌ بالإجماع^(٤)، والأدلةُ على ذلك - بالإضافة لما تقدَّم - متوافرةٌ، فمنها:

١ - عن عثمان بن عفَّان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»^(٥).

٢ - وعن عثمان بن عفَّان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: «إِنَّ أَفْضَلَكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ

= (ح ١٩٥٤٤): «إسناده حسن، رجاله ثقات رجال الشيخين، غير طلحة بن يحيى - وهو ابن طلحة بن عبيد الله التيمي - فمن رجال مسلم».

(١) انظر: الأحاديث والآثار الواردة في فضائل سور القرآن الكريم (ص ٢٤ - ٢٦).

(٢) انظر: مراتب الإجماع، لابن حزم (ص ١٥٦)؛ الإقناع، للحجاوي (١/١٤٨)؛ منتهى الإرادات، لابن النجار (١/١٠٤)؛ حاشية الروض المربع، لابن قاسم (٢/٢٠٧).

(٣) انظر: الأحكام الفقهية الخاصة بالقرآن الكريم (ص ١١ - ١٢).

(٤) انظر: المصادر السابقة، والصفحات نفسها.

(٥) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: خيركم من تعلَّم القرآن وعلمه (٣/١٦٢٠) (ح ٥٠٢٧)؛ وأبو داود، كتاب الصلاة، باب: في ثواب قراءة القرآن (٢/٧٠).

(ح ١٤٥٢).

الْقُرْآنُ وَعَلَّمَهُ^(١)

٣ - عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: سمعتُ النبي ﷺ يقول: «خُذُوا الْقُرْآنَ مِنْ أَرْبَعَةٍ، مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، وَسَالِمٍ، وَمُعَاذٍ، وَأَبِي إِبْنِ كَعْبٍ»^(٢). وهذا الحديث يُبَيِّنُ لَنَا أَهَمِّيَّةَ اخْتِذِ الْقُرْآنَ مِنْ مَصْدَرِهِ الْأَوْثَقِ.

٤ - ما رواه حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أَنَّ النبي ﷺ قال له - بعد مُحَادَثَةِ جَرَتْ بَيْنَهُمَا، فِي التَّحْذِيرِ مِنَ الْفِتَنِ: «يَا حَذِيفَةَ، تَعَلَّمْ كِتَابَ اللَّهِ وَاتَّبِعْ مَا فِيهِ» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ^(٣) الْحَدِيثِ.

٥ - عن أَبِي أُمَامَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تَعَلَّمُوا الْقُرْآنَ، فَإِنَّهُ شَافِعٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، تَعَلَّمُوا الْبَقْرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ، تَعَلَّمُوا الزَّهْرَاوَيْنِ...»^(٤) الْحَدِيثِ. وَمَنْ صَرَّحَ مِنَ الْعُلَمَاءِ بِأَنَّ تَعَلُّمَ الْقُرْآنِ وَتَعْلِيمَهُ فَرَضُ كِفَايَةِ النَّوَوِيِّ وَالسَّيُوطِيِّ^(٥).

* قَالَ النَّوَوِيُّ رحمته الله: «تَعْلِيمُ الْمُتَعَلِّمِينَ فَرَضُ كِفَايَةٍ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَنْ يَصْلَحُ لَهُ إِلَّا وَاحِدٌ تَعَيَّنَ عَلَيْهِ، وَإِنْ كَانَ هُنَاكَ جَمَاعَةٌ يَحْصُلُ التَّعْلِيمُ بَعْضُهُمْ: فَإِنْ امْتَنَعُوا كُلُّهُمْ أَتَمُّوا، وَإِنْ قَامَ بِهِ بَعْضُهُمْ سَقَطَ الْحَرَجُ عَنِ الْبَاقِينَ، وَإِنْ طُلِبَ مِنْ

(١) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: خيركم مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ (٣/١٦٢٠) (ح ٥٠٢٨).

(٢) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: الْقُرَّاءُ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ (٣/١٦١٣) (ح ٤٩٩٩)؛ وَكِتَابُ مَنَاقِبِ الْأَنْصَارِ، باب: مَنَاقِبِ أَبِي بِنِ كَعْبٍ رضي الله عنه (٣/١١٦٥) (ح ٣٨٠٨).

(٣) رواه أبو داود، كتاب الفتن والملاحم، باب: ذِكْرُ الْفِتَنِ وَدَلَالَتُهَا (٤/٩٦) (ح ٤٢٤٦)؛ وَحُسْنُهُ الْأَلْبَانِي فِي «صَحِيحِ سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ»: (٣/٨٠٠) (ح ٣٥٧١).

(٤) رواه أحمد في «المسند» (٤/٢٥١) (ح ٢٢٢١١)؛ وَعَبْدُ الرَّزَّاقِ فِي «مُسْتَدْرَكِهِ» (٣/٣٦٥) (ح ٥٩٩١)؛ وَالطَّبْرَانِيُّ فِي «الْكَبِيرِ» (٨/٢٩١) (ح ٨١١٨)؛ وَقَالَ مُحَقِّقُو الْمُسْنَدِ (٣٦/٤٨١) (ح ٢٢١٥٧): «حَدِيثٌ صَحِيحٌ، رَجَالُهُ ثِقَاتٌ، رِجَالُ الصَّحِيحِينَ».

(٥) هُوَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ الْخَضِيرِيُّ، الْمِصْرِيُّ، الشَّافِعِيُّ، تَشَأَ فِي الْقَاهِرَةِ يَتِيمًا، وَقَرَأَ عَلَى جَمَاعَةٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ، وَهُوَ كَثِيرُ الْمُؤَلَّفَاتِ، وَمِنْ أَشْهُرِ مُؤَلَّفَاتِهِ: «الْبَدْرُ الْمُنْتَوَرُ فِي التَّفْسِيرِ بِالْمَأْثُورِ»، وَ«الْجَامِعُ الصَّغِيرُ فِي الْحَدِيثِ» وَغَيْرُهُمَا. تَوَفَّى سَنَةَ (٩١١هـ).
انظر: شذرات الذهب (٨/٥١)؛ الْبَدْرُ الطَّالِعُ (١/٣٢٨).

أحدهم وامتنع، فأظهر الوجهين أنه لا يأثم، لكن يُكره له ذلك إن لم يكن له عذر^(١).

* وهو ما قرره السيوطي رحمه الله حيث قال: «اعلم أن حفظ القرآن فرض كفاية على الأمة... وتعليمه أيضاً فرض كفاية»^(٢).

المطلب الثاني

حُكْم تعليم القرآن لغير المسلم

اختلف الفقهاء - رحمهم الله - في حُكْم تعليم القرآن لغير المسلم على ثلاثة أقوال: الجواز، وعدمه، والكراهة.

والرَّاجح في ذلك - والله أعلم بالصواب: جواز تعليم القرآن لغير المسلم إذا رُجِيَ إسلامه، وعدم جواز تعليمه إذا لم يُرَجَ إسلامه.

وبهذا قال الحنفية^(٣)، وهو الوجه الصحيح عند الشافعية^(٤).

واستدلوا على ذلك من القرآن، والسنة، والمعقول:

أولاً: من القرآن:

قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦٦].

فإقامة المشرك المستجير - الذي طلب الجوار - عند النبي ﷺ لا تخلو من عرض الإسلام عليه، وإسماعه القرآن، وتعليمه إيَّاه^(٥).

ثانياً: من السنة:

ما جاء في الكتاب الذي أرسله النبي ﷺ إلى ملك الروم هرقل: «بِسْمِ اللَّهِ

(١) التبيان في آداب حملة القرآن (ص ٥٦). (٢) الإتيان في علوم القرآن (١/ ٢٦٤).

(٣) انظر: فتاوى قاضي خان (١/ ١٣٦)؛ الفتاوى الهندية (٥/ ٣٢٣).

(٤) انظر: المهذب في فقه الإمام الشافعي، للشيرازي (٢/ ٧٢)؛ التبيان في آداب حملة

القرآن (ص ٧)؛ المجموع (٢/ ٧١)؛ روضة الطالبين وعمدة المفتين، للنووي (٥/ ١٩٠).

(٥) انظر: التحرير والتنوير (١٠/ ٢٥ - ٢٦).

الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ، مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى هَرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ، سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى، أَمَّا بَعْدُ: فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدَعَايَةِ الْإِسْلَامِ، أَسْلِمْ تَسْلِمًا، وَأَسْلِمْ يَوْمَئِذٍ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الْأَرِيسِيِّينَ، وَ: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَالُوا إِنَّا كَلِمَةٌ سَوَامٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَقْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤] ^(١).

وجه الدلالة: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قد بعث إلى الكفار بهذا الكتاب؛ ليعرفوا ما فيه ويتدبروه ليسلموا، وهو مُشتمل على آية من كتاب الله تعالى، فدلَّ على جواز تعليم القرآن لغير المسلم إذا رُجِّي إسلامه.

ثالثاً: من المعقول:

إِنَّ فِي تَعْلِيمِ الْقُرْآنِ لَغَيْرِ الْمُسْلِمِ دَعْوَةً لَهُ لِلْإِسْلَامِ، وَتَرْغِيباً لَهُ فِي الدُّخُولِ فِيهِ، وَالْإِطْلَاعِ عَلَى مَحَاسِنِهِ وَأَحْكَامِهِ السَّامِعَةِ، أَمَّا إِذَا لَمْ يُرْجَ إِسْلَامُهُ فَلَا فَائِدَةَ فِي ذَلِكَ، بَلْ رُبَّمَا أَدَّى ذَلِكَ إِلَى تَعَرُّضِ الْقُرْآنِ لِلْإِهَانَةِ فَلَا يَجُوزُ ^(٢).

المطلب الثالث

حُكْمُ أَخْذِ الْأَجْرَةِ عَلَى تَعْلِيمِ الْقُرْآنِ

بادئ ذي بدء يُقال: الأصل أَنَّ رَوَاتِبِ الْمُوظَّفِينَ الَّذِينَ يَحْتَاجُ إِلَيْهِمُ الْمُسْلِمُونَ فِي أُمُورِهِمُ الْعَامَّةِ، مِنَ الْقَضَاةِ، وَالْمَحْتَسِبِينَ، وَمَنْ يَنْفِذُونَ الْحُدُودَ، وَالْمِفْتِينَ، وَالْأَتَمَّةَ، وَالْمُدْرُسِينَ، وَنَحْوَهُمْ مِنْ كُلِّ مَنْ فَرَّغَ نَفْسَهُ لِمَصْلَحَةِ الْمُسْلِمِينَ، فَيَسْتَحِقُّ الْكَفَايَةَ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ لَهُ وَلِمَنْ يَعُولُهُ. وَيَخْتَلِفُ ذَلِكَ بِاخْتِلَافِ الْأَعْصَارِ وَالْبُلْدَانِ لِاخْتِلَافِ الْأَحْوَالِ وَالْأَسْعارِ.

وعليه فلا خلاف بين الفقهاء في جواز أَخْذِ الرِّزْقِ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ عَلَى تَعْلِيمِ الْقُرْآنِ؛ لِأَنَّ هَذَا الرِّزْقَ لَيْسَ أَجْرَةً مِنْ كُلِّ وَجْهٍ بَلْ هُوَ كَالْأَجْرَةِ ^(٣).

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب: ﴿قُلْ يَأَهْلَ الْكِتَابِ قَالُوا إِنَّا كَلِمَةٌ سَوَامٌ...﴾ الآية (١٣٨١/٣) (ح ٤٥٥٣).

(٢) انظر: الأحكام الفقهية الخاصة بالقرآن الكريم (ص ٥٨٧ - ٥٨٩).

(٣) انظر: حاشية ابن عابدين (٢٨٠/٣ - ٢٨٢)؛ المغني (٤١٧/٦)؛ مطالب أولي النهى =

ولأنما وقع الخلاف في الاستئجار لتعليم القرآن والحديث والفقه ونحو ذلك من العلوم الشرعية على ثلاثة أقوال:

القول الأول: لا يجوز أخذ الأجرة على تعليم القرآن:

وبهذا قال المتقدمون من الحنفية^(١)، والإمام أحمد في رواية عنه، وبها أخذ أكثر أصحابه^(٢).

واستدلوا على ذلك بأدلة من الكتاب، والسنة، والمعقول:

أولاً: من الكتاب:

١ - قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا وَكْرًا لِلْعَالَمِينَ﴾

[الأنعام: ٩٠].

٢ - قوله تعالى: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

[الشعراء: ١٠٩، ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠].

قال الشنقيطي رحمه الله: «ويؤخذ من هذه الآيات الكريمة: أن الواجب على أتباع الرسل من العلماء وغيرهم أن يبذلوا ما عندهم من العلم مجاناً من غير أخذ عوض عن ذلك، وأنه لا ينبغي أخذ الأجرة على تعليم كتاب الله تعالى، ولا على تعليم العقائد والحلال والحرام»^(٣).

٣ - قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْأَلُوا بِمَا فِيكُمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة: ٤١].

قال القرطبي رحمه الله: «وهذه الآية وإن كانت خاصة ببني إسرائيل فهي تناول

= في شرح غاية المنتهى، لمصطفى السيوطي الرحباني (٣/٦٤١)؛ الموسوعة الفقهية (٨/٢٥٢) (١٤/١٣).

(١) انظر: المبسوط، للشيخ سيوطي (٣٧/١٦)؛ تحفة الفقهاء، لعلاء الدين السمرقندي (١/٣٥٧)؛ فتاوى قاضي خان (٢/٣٢٥)؛ الهداية (٣/٢٤٠)؛ المختار، للموصلي (٢/٥٩)؛ الفتاوى البازية (٣٧/٥)؛ مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر، لإدريس أفندي (٢/٣٨٤ - ٣٨٥).

(٢) انظر: الكافي، لابن قدامة (٢/٣٠٣ - ٣٠٤)؛ المغني (٦/١٣٩ - ١٤٠)؛ الفروع (٤/٤٣٥)؛ الإنصاف (٦/٤٥)؛ الإقناع (٢/٢٩٤ - ٣٠١)؛ دليل الطالب، لمرعني الحنبلي (١٤٢/١٢٤٢).

(٣) أضواء البيان (٣/١٨).

مَنْ فَعَلَ فَعَلَهُمْ، فَمَنْ أَخَذَ رَشْوَةً عَلَى تَغْيِيرِ حَقٍّ أَوْ إِبْطَالِهِ، أَوْ امْتَنَعَ مِنْ تَعْلِيمِ مَا وَجَبَ عَلَيْهِ، أَوْ آدَاءِ مَا عَلِمَهُ وَقَدْ تَعَيَّنَ عَلَيْهِ حَتَّى يَأْخُذَ عَلَيْهِ أَجْرًا فَقَدْ دَخَلَ فِي مَقْتَضَى الْآيَةِ^(١).

ثَانِيًا: مِنَ السُّنَّةِ:

١ - ما جاء عن عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رضي الله عنه قَالَ: عَلَّمْتُ نَاسًا مِنْ أَهْلِ الصُّفَّةِ الْكِتَابَ وَالْقُرْآنَ، فَأَهْدَى إِلَيَّ رَجُلٌ مِنْهُمْ قَوْسًا. فَقُلْتُ: لَيْسَتْ بِمَالٍ وَأَرْمِي عَنْهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﷻ؟ لَأَتِيَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَلَأَسْأَلَنَّهُ فَأَتِيَتْهُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! رَجُلٌ أَهْدَى إِلَيَّ قَوْسًا، مِمَّنْ كُنْتُ أَعْلَمُهُ الْكِتَابَ وَالْقُرْآنَ، وَلَيْسَتْ بِمَالٍ وَأَرْمِي عَنْهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، قَالَ: «إِنْ كُنْتَ تُحِبُّ أَنْ تُطَوَّقَ طَوَقًا مِنْ نَارٍ، فَاقْبَلْهَا»^(٢).

وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى قَالَ عُبَادَةُ رضي الله عنه: مَا تَرَى فِيهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ: «جَمْرَةٌ بَيْنَ كَفَيْكَ تَقْلَدُهَا» أَوْ «تَمْلَقُهَا»^(٣).

٢ - ما جاء عن أَبِي بِنِ كَعْبٍ رضي الله عنه قَالَ: عَلَّمْتُ رَجُلًا الْقُرْآنَ، فَأَهْدَى إِلَيَّ قَوْسًا، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «إِنْ أَخَذْتَهَا أَخَذْتَ قَوْسًا مِنْ نَارٍ» فَردَّدْتُهَا^(٤).

٣ - ما جاء عن أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَخَذَ عَلَى تَعْلِيمِ الْقُرْآنِ قَوْسًا، فَلَلَهُ اللَّهُ قَوْسًا مِنْ نَارٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٥).

(١) الجامع لأحكام القرآن (١/٣٤٥).

(٢) رواه أبو داود، كتاب الإجارة، باب: في كسب المعلم (٣/٢٦٤) (ح ٣٤١٦)؛ والحاكم في «المستدرک» (٢/٤٨) (ح ٢٢٧٧)، وقال: «صحيح الإسناد، ولم يخرجاه». وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن أبي داود»: (٢/٦٥٥) (ح ٢٩١٥).

(٣) رواه أحمد في «المسند» (٥/٣٢٤) (ح ٢٢٨١٨)؛ وأبو داود (٣/٢٦٥) (ح ٣٤١٧)؛ وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن أبي داود»: (٢/٦٥٥) (ح ٢٩١٦).

(٤) رواه ابن ماجه، كتاب التجارات، باب: الأجر على تعليم القرآن (٢/٧٣٠) (ح ٢١٥٨)؛ وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه»: (٢/٨١) (ح ١٧٥١).

(٥) رواه البيهقي في «السنن»، باب: مَنْ كره أخذ الأجرة عليه (٦/١٢٦) (ح ١١٤٦٥)؛ وأبو نعيم في «الحلية» (٦/٨٦)؛ وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع»: (٢/١٠٣٦) (ح ٥٩٨٢)؛ و«الصَّحِيحَةُ» (١/١١٣) (ح ٢٥٦).

ثالثاً: من المعقول:

إِنَّ تَعْلِيمَ الْقُرْآنِ لَا يَقَعُ إِلَّا قَرِيبَةً لِلَّهِ تَعَالَى، فَلَمْ يَجْزِ اخْذَ الْعَوَظِ عَلَيْهِ كَالصَّلَاةِ^(١).

القول الثاني: يجوز اخذ الأجرة على تعليم القرآن:

وبهذا قال بعض المتأخرين من الحنفية^(٢)، وبه قال المالكية^(٣)، والشافعية^(٤)، والإمام أحمد في رواية عنه^(٥)، وابن حزم^(٦).

واستدلوا على ذلك بأدلة من السنة، والمعقول:

أولاً: من السنة:

١ - ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنه: أَنَّ نَفَرًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ مَرُّوا بِمَاءٍ، فِيهِمْ لَدِيغٌ أَوْ سَلِيمٌ، فَعَرَضَ لَهُمْ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْمَاءِ، فَقَالَ، هَلْ فِيكُمْ مِنْ رَاقٍ، إِنَّ فِي الْمَاءِ رَجُلًا لَدِيغًا أَوْ سَلِيمًا، فَانْطَلَقَ رَجُلٌ مِنْهُمْ، فَقَرَأَ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ عَلَى شَاءٍ، فَبَرَأَ، فَجَاءَ بِالشَّاءِ إِلَى أَصْحَابِهِ، فَكَرِهُوا ذَلِكَ وَقَالُوا: أَخَذْتَ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ أَجْرًا، حَتَّى قَدِمُوا الْمَدِينَةَ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَخَذَ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ أَجْرًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ أَحَقَّ مَا أَخَذْتُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا كِتَابُ اللَّهِ»^(٧).

(١) انظر: الكافي (٣٠٤/٢)؛ المغني (١٤١/٦)؛ كشاف القناع (١٢/٤).

(٢) انظر: المبسوط (٣٧/١٦)؛ فتاوى قاضي خان (٣٢٥/٢)؛ الهداية شرح بداية المبتدي، للمرغيناني (٢٤٠/٣)؛ المختار (٥٩/٢)؛ الفتاوى البزازية (٣٧/٥)؛ مجمع الأنهر (٢/٣٨٤)؛ حاشية ابن عابدين (٥٥/٦).

(٣) انظر: المدونة الكبرى، للإمام مالك (٤١٩/٤)؛ الكافي في فقه أهل المدينة، لابن عبد البر (٧٥٥/٢)؛ بداية المجتهد ونهاية المقتصد، لابن رشد (٢٢٣/٢)؛ الفواكه الدواني، للنفراوي (١٦٤/٢)؛ بلغة السالك لأقرب المسالك، للصاوي (٢٤٧/٢).

(٤) انظر: روضة الطالبين (١٨٧/٥)؛ التبيان في آداب حملة القرآن (ص ٤٥)؛ فتح الجواد بشرح الإرشاد، للهيتمي (٥٩٠/١)؛ مغني المحتاج، لمحمد الشرييني (٣٤٤/٢)؛ إعانة الطالبين على حل ألفاظ فتح المعين، للسيد البكري (١١٣/٣).

(٥) انظر: الكافي (٣٠٣/٢)؛ المغني (١٤٠/٦)؛ مجموع الفتاوى (٢٠٥/٣٠)؛ الفروع (٤/٤٣٥)؛ الإنصاف (٤٥/٦).

(٦) انظر: المحلى (١٩٣/٨).

(٧) زواه البخاري، كتاب الطب، باب: الشروط في الرقية بفاتحة الكتاب (١٨٣٣/٤) (ح ٥٧٣٧).

٢ - ما جاء عن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه: أَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم اتَّوَا عَلَى حَيٍّ مِنْ أَخْيَاءِ الْعَرَبِ فَلَمْ يَقْرُوهُمْ، فَبَيَّنَمَا هُمْ كَذَلِكَ، إِذْ لُدِغَ سَيْدُ أُولَئِكَ، فَقَالُوا: هَلْ مَعَكُمْ مِنْ دَوَاءٍ أَوْ رَاقٍ؟ فَقَالُوا: إِنَّكُمْ لَمْ تَقْرُونَا، وَلَا نَفْعُ حَتَّى تَجْعَلُوا لَنَا جُعْلًا، فَجَعَلُوا لَهُمْ قَطِيعًا مِنَ الشَّاءِ، فَجَعَلَ يَقْرَأُ بِأَمْرِ الْقُرْآنِ، وَيَجْمَعُ بُزَاقَهُ وَيَتْفَلُّ، فَبَرَأَ فَأَتَوْا بِالشَّاءِ، فَقَالُوا: لَا نَأْخُذُهُ حَتَّى نَسْأَلَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم، فَسَأَلُوهُ فَضَحِكَ وَقَالَ: «وَمَا أَذْرَاكَ أَنَّهَا رُقِيَّةٌ، خَلُّوْهَا وَاضْرِبُوا لِي بِسَهْمٍ»^(١).

وجه الدلالة: دَلَّ الْحَدِيثُ عَلَى جَوَازِ اخْذِ الْجُعْلِ عَلَى تَعْلِيمِ الْقُرْآنِ، وَإِذَا جَازَ اخْذَ الْجُعْلِ جَازَ اخْذَ الْأَجْرِ؛ لِأَنَّهُ فِي مَعْنَاهُ^(٢).

٣ - ما جاء في حَدِيثِ الْوَاهِبَةِ الْمَشْهُورِ، الَّذِي رَوَاهُ سَهْلُ بْنُ سَعْدٍ السَّاعِدِيُّ رضي الله عنه مِنْ قَوْلِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم لِلرَّجُلِ:

«مَاذَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ». قَالَ: مَعِيَ سُورَةٌ كَذَا وَسُورَةٌ كَذَا، عَدَدَهَا، فَقَالَ: «تَقْرُؤُهُنَّ عَنْ ظَهْرِ قَلْبِكَ». قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «أَذْهَبَ فَقَدْ مَلَكَتْكَهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ»^(٣).

وجه الدلالة: دَلَّ الْحَدِيثُ عَلَى جَوَازِ تَعْلِيمِ الْقُرْآنِ عَوَضًا فِي النِّكَاحِ، وَقَائِمًا مَقَامَ الْمَهْرِ، وَإِذَا جَازَ ذَلِكَ جَازَ اخْذُ الْأَجْرَةِ عَلَيْهِ فِي الْإِجَارَةِ^(٤).

٤ - ما رَوَاهُ خَارِجَةُ بْنُ الصَّلْتِ عَنْ عَمِّهِ رضي الله عنه: أَنَّهُ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، فَاسْتَلَمَ، ثُمَّ أَقْبَلَ رَاجِعًا مِنْ عِنْدِهِ، فَمَرَّ عَلَى قَوْمٍ عِنْدَهُمْ رَجُلٌ مَجْنُونٌ مُوثَّقٌ بِالْحَدِيدِ، فَقَالَ أَهْلُهُ: إِنَّا حَدَّثْنَا أَنَّ صَاحِبَكُمْ هَذَا^(٥)، قَدْ جَاءَ بِخَيْرٍ، فَهَلْ عِنْدَكَ

(١) رواه البخاري، كتاب الطب، باب: الرقي بفاتحة الكتاب (٤/١٨٣٢) (ح ٥٧٣٦).

(٢) انظر: المغني (٦/١٤٠).

(٣) رواه البخاري، كتاب النكاح، باب: تزويج المُعْسَرِ (٣/١٦٣٨) (ح ٥٠٨٧)؛ ومسلم،

كتاب النكاح، باب: الصَّدَاقُ وَجَوَازُ كَوْنِهِ تَعْلِيمَ قُرْآنٍ وَخَاتَمَ حَدِيدٍ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ قَلِيلٍ وَكَثِيرٍ (٢/١٠٤٠) (ح ١٤٢٥).

(٤) انظر: المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(٥) قال ابن حجر رحمته الله: «قيل اسمه: علاقة بن صحرار، وقيل: عبد الله بن عثير».

انظر: تقريب التهذيب (٢/٥٧٣).

(٦) يعنون النبي صلى الله عليه وسلم.

شيءٌ تُداويه؟ فرقيته بفاتحة الكتاب، فَبَرَأَ، فأعطوني مائة شاةٍ، فأتيتُ رسولَ الله ﷺ، فأخبرته، فقال:

«هَلْ إِلَّا هَذَا»^(١)؟ وقال مُسَدِّدٌ في مَوْضِعٍ آخَرَ: «هَلْ قُلْتَ غَيْرَ هَذَا؟ قُلْتُ: لَا! قال: «خُذْهَا، فَلَقَمَرِي لَمَنْ أَكَلَ بِرُقِيَّةٍ بَاطِلٍ»^(٢)، لَقَدْ أَكَلْتُ بِرُقِيَّةٍ حَقًّا»^(٣)،^(٤).

ثانياً: من المَقُول:

إنَّه يجوز أخذ الرِّزْق من بيت المال على تعليم القرآن، فجاز أخذ الأجرة عليه، كبناء المساجد والقناطر^(٥).

القول الثالث: يجوز أخذ الأجرة على تعليم القرآن عند الحاجة:

وهذا وَجْهٌ في مذهب الحنابلة^(٦)، وهو اختيار ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ^(٧).

* وَلَمْلَهُمْ قَالُوا بِذَلِكَ جَمْعاً بَيْنِ الْأَدْلَةِ السَّابِقَةِ.

* وَعَمَلًا بِعَمُومِ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى - فِي وَلِيِّ الْيَتِيمِ: ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعِفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ٦].

قال الشَّيْخُ طِي: رَحِمَهُ اللهُ: «الذي يظهر لي - والله تعالى أعلم - أَنَّ الإنسان إذا لم تدعه الحاجة الضَّرورية فالأولى له ألا يأخذ عَوْضاً على تعليم القرآن، والعقائد، والحلال والحرام للأدلة الماضية. وإن دعت الحاجة أَخَذَ بِقَدْرِ الضَّرورة من بيت مال المسلمين؛ لأنَّ الظَّاهر أَنَّ المَأخُوذَ من بيت المال من قبيل الإعانة على

(١) أي: هل قُلْتَ إِلَّا فاتحة الكتاب.

(٢) جواب الشَّرْطِ محذوف، تقديره: فعليه وَزَرُهُ وإِثْمُهُ.

(٣) أي: فلا وَزَرَ عليك. انظر: عون المعبود شرح سنن أبي داود (٢٧٧/٩).

(٤) رواه أبو داود، كتاب الطب، باب: كيف الرُّقْي؟ (١٣/٤) (ح ٣٨٩٦)؛ وأحمد في «المسند» (٢١٠/٥) (ح ٢١٨٨٤)؛ والحاكم في «المستدرک»، كتاب فضائل القرآن، باب: أخبار في فضائل القرآن جملة (٧٤٧/١) (ح ٢٠٥٥)، وقال: «صحيح الإسناد، ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي. وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٧٣٧/٢) (ح ٣٢٩٧)؛ و«الصَّحِيحة» (٤٤/٥) (ح ٢٠٢٧).

(٥) انظر: المغني (١٤١/٦).

(٦) انظر: الفروع (٤٣٥/٤)؛ الاختيارات الفقهية (ص ١٣٥)؛ حاشية الروض المربع (٣٢٠/٥).

(٧) انظر: الاختيارات الفقهية (ص ١٥٣ - ١٥٤)؛ مجموع الفتاوى (١٩٢/٣٠ - ١٩٣ - ٢٠٥).

القيام بالتَّعليم لا من قِليل الأجرة. والأولى لمن أغناه الله أن يتعَقَّف عن أخذ شيء في مقابل التَّعليم للقرآن والعقائد والحلال والحرام^(١).

الترجيح:

يبدو أنَّ أغلب الأدلة في المسألة لم تسلم من ورود مناقشات عليها، وأقرب الأقوال إلى الصَّواب - والله أعلم - هو القول الثالث، القائل: بجواز أخذ الأجرة على تعليم القرآن عند الحاجة، وعدم جواز الأخذ عند عدمها؛ لما في ذلك من الجمع بين الأدلة وإعمالها جميعاً^(٢).

ضوابط أخذ الأجرة على تعليم القرآن:

١ - الأصل في تعليم القرآن هو الاحتساب، وعدم أخذ العَوَض عليه، وهو عمل الأنبياء عليهم السَّلام.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «أما تعليم القرآن والعلم بغير أجرة، فهو أفضل الأعمال، وأحبُّها إلى الله، وهذا ممَّا يُعلم بالاضطرار من دين الإسلام، ليس هذا ممَّا يخفى على أحد ممَّن نشأ بديار الإسلام. والصَّحابة والتَّابعون وتابعو التَّابعين، وغيرهم من العلماء المشهورين عند الأُمَّة بالقرآن والحديث والفقه، إنَّما كانوا يعملون بغير أجرة، ولم يكن فيهم من يعمل بأجرة أصلاً...»

وتعليم القرآن والحديث والفقه وغير ذلك بغير أجرة لم يتنازع العلماء في أنَّه عمل صالح، فضلاً من أن يكون جائزاً^(٣).

٢ - إذا كان معلِّم القرآن ميسور الحال ترك أخذ الأجرة، عملاً بأحاديث المنع، وجعل تعليمه زكاةً لعلمه. أمَّا إذا كان المعلِّم غير ميسور الحال وذو عيال - كما هو عليه واقع أكثر معلِّمي القرآن اليوم - فلا بأس أن يأخذ على ذلك الأجرة، عملاً بأحاديث الجواز^(٤).

(١) أضواء البيان (٢٢/٣).

(٢) انظر: الأحكام الفقهية الخاصة بالقرآن الكريم (ص ٧٣٢ - ٧٤٤).

(٣) مجموع الفتاوى (٣٠/٢٠٤ - ٢٠٥).

(٤) انظر: الثَّمَر الدَّانِي من صحِيحة الألباني في فضائل القرآن وأحكامه، إبراهيم المُنَاوِي (ص ٨٧).

قال ابن تيمية رحمته الله: «وَمَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الْمُحْتَاجِ وَغَيْرِهِ - وَهُوَ أَقْرَبُ - قَالَ: الْمُحْتَاجُ إِذَا اكْتَسَبَ بِهَا أَمْكُهُ أَنْ يَنْوِيَ عَمَلَهَا لِلَّهِ، وَيَأْخُذُ الْأَجْرَةَ لِيَسْتَعِينُ بِهَا عَلَى الْعِبَادَةِ؛ فَإِنَّ الْكَسْبَ عَلَى الْعِيَالِ وَاجِبٌ أَيْضاً، فَيُؤَدِّي الْوَاجِبَاتُ بِهَذَا»^(١).

٣ - إذا كان معلّم القرآن من الفقراء الذين يتكسّبون بما لا يكفي معاشهم من أيّ عمل آخر - وهم كثير - فخير لهم أن يستغنوا بتعليم القرآن عن سؤال الناس.

وقد نقل ابن تيمية عن الإمام أحمد رحمته الله قوله: «أجرة التّعليم خير من جوائز السُّلطان، وجوائز السُّلطان خير من صلة الإخوان»^(٢).

٤ - إذا جاز للمعلّم أن يأخذ الأجرة على تعليمه القرآن مع حاجته إلى هذه الأجرة، فليس معناه أن يستغلّ ظروف الناس وحاجتهم إليه، كأن يكون وحيداً في قرية، أو منطقة ما، ولا منافس له من المعلّمين، ويجد إقبال الرّاغبين في تعلّم القرآن شديداً فيطلب ويغالي في طلبه، ولكن يأخذ بعفاف، ويقنع بالكفاف، ولا يعرض القرآن للمساومة.

٥ - ومن ناحية أخرى ينبغي ألاّ يَضِنَّ راغبو التّعلم بأموالهم ولا يستكثروا ما ينفقون، بل ينبغي أن يوجّهُوا نيّاتهم في العطاء إلى إقراض الله قرضاً حسناً، ويكون اعتقادهم هو قول الله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُكُورٍ مِائَةٌ حَبًّا وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبَعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿[البقرة: ٢٦١ - ٢٦٢].

وبهذا يكون تعليم القرآن ميداناً تجتمع فيه فضائل العفة والقناعة من المعلّمين، والإنفاق بكرم وسخاء في سبيل الله من الرّاغبين في التّعليم^(٣).

٦ - إنَّ القول بجواز الاستعجار على تعليم القرآن وأخذ الأجرة على ذلك ضرورة تقتضيها مصلحة المحافظة على كتاب الله، وتعليمه لمن لا يحسنون

(٢) المصدر السابق (٣٠/١٩٣).

(١) المصدر السابق (٣٠/٢٠٧).

(٣) انظر كيف تعادب مع المصحف (ص ١٢٦ - ١٢٩).

قراءته؛ لأنَّ معلِّمي القرآن كغيرهم يسعون في معاشهم، وخصوصاً بعد أن قُطعت إعطياتهم من بيت المال، فحتى يتفرَّغ المعلمون لتعليم القرآن لا بدَّ من أجرة تُدفع لهم.

٧ - تعليم القرآن للمسلمين لا يقلُّ أهميَّة عن جمعه، ونسخه، وتوزيعه على الأمصار، ونقْطه، وشكْله من حيث المساهمة في حفظه وتعليمه. ولَمَّا كان تعليم القرآن حسبةً لوجه الله تعالى قد أصبح نادراً، فاقضى الأمر القول بجواز تعليمه بأجرة، بشرط أن يكون محتاجاً إليها.

فلو لم يُفتح باب التَّعليم بأجرة لذهب القرآن، ولا يُنكر تغيير الأحكام بتغير الأزمان^(١).



(١) انظر: فيض الرَّحمن في الأحكام الفقهية الخاصة بالقرآن (ص ٣٨٧ - ٣٨٨ - ٣٩٤).

المبحث الخامس

وهيئة السلف في تعليمه

هَمَّةُ السَّلَفِ فِي تَعْلُمِ الْقُرْآنِ وَتَعْلِيمِهِ

المطلب الأول: علو هَمَّةِ الْمُعَلِّمِينَ.

المطلب الثاني: علو هَمَّةِ الْمُتَعَلِّمِينَ.

المطلب الأول

علوُّ همّة المعلمين

الهمّة رزق من الله تعالى، والله ييسط رزقه لمن يشاء ويقدر، ومن حكمته سبحانه أن فاضل بين خلقه في قواهم العملية، كما فاضل بينهم في قواهم العلمية.

ولقد فقه السلف الصالح عن الله تعالى أمره، وتدبروا حقيقة الدنيا، ومصيرها إلى الآخرة، فاستوحشوا من فتنها، وتجاغت جنوبهم عن مضاجعها، وتناءت قلوبهم من مطامعها، وارتفعت همّتهم على السّافسف، ولقد حفلت تراجمهم بأخبار زاخرة تشي بعلو همّتهم في الثبات على دين الله، وقوة عزيمتهم في حمل راية الدين، وتبليغ العلم الشرعي لطلّابه^(١).

وجلوس معلّمي القرآن السنين الطوال لتعليم الناس القرآن وتبيين معانيه وأحكامه ليس بالشّيء اليسير، فهو يحتاج إلى توضّحات جسام، وهمّة عالية، وتفريغ للأوقات، وصبر ومصابرة، ورغم ازدحام أوقاتهم بأعباء ومسؤوليات كثيرة يحتاجون إليها، كان تعليمهم القرآن شغلهم الشاغل.

وهذه بعض النماذج المنقولة عن السلف الصالح تُبين شيئاً من علو همّتهم في تعليم كتاب الله. سأذكر كلّ واحد منها تحت عنوان يدلّ عليه اجتهاداً منّي، ودون تعليق عليها؛ لأنّها من الوضوح بمكان، إلّا ما اقتضى الحال بيانه أو أهمّيته، وهي على النحو الآتي:

١ - ترك الأوطان لأجل تعليم القرآن:

من مهامّ ولاية الأمر القيام بتوجيه الأئمّة القراء لتعليم الناس كتاب الله تعالى، أداء للأمانة وقياماً بحق الرّعاية لهم.

(١) انظر: علو همّة، لمحمد أحمد المقدم (ص ٢٠٩).

قال محمد بن كعب القرظي^(١) رحمته الله: «جَمَعَ القرآن خمسة: معاذ بن جبل، وعُبادَةُ بن الصَّامِت، وأبو الدَّرْداء، وأبيّ، وأبو أيوب. فلَمَّا كَانَ زمنَ عمر، كتب إليه يزيد بن أبي سفيان: إنَّ أهل الشَّام قد كثروا، وملؤوا المدائن، واحتاجوا إلى مَنْ يَعْلَمُهم القرآن ويفقَّهم، فأعني برجال يَعْلَمُونهم. فدعا عمر الخمسة، فقال: إنَّ إخوانكم قد استعانوني مَنْ يَعْلَمُهم القرآن ويفقَّهم في الدِّين، فأعينوني - يرحمكم الله - بثلاثة منكم إن أحببتم، وإن انتدب ثلاثة منكم فليخرجوا. فقالوا: ما كنَّا لتساهم، هذا شيخ كبير - لأبي أيوب - وأمَّا هذا فسقيم - لأبيّ - فخرج معاذ، وعُبادَةُ، وأبو الدَّرْداء.

فقال عمر: ابدؤوا بحمص، فإنَّكم ستجدون النَّاس على وجوه مختلفة، منهم مَنْ يَلْقَن^(٢)، فإذا رأيتم ذلك، فوجَّهوا إليه طائفة من النَّاس، فإذا رضيتم منهم، فليقيم بها واحد، وليخرج واحد إلى دمشق، والآخر إلى فلسطين. قال: فقدموا حمص فكانوا بها، حتَّى إذا رضوا من النَّاس أقام بها عُبادَةُ بن الصَّامِت، وخرج أبو الدَّرْداء إلى دمشق، ومعاذ إلى فلسطين، فمات في طاعون عَمَواس^(٣). ثم صار عُبادَةُ بعد إلى فلسطين وبها مات، ولم يزل أبو الدَّرْداء بدمشق حتَّى مات^(٤).

٢ - تأسيس مدارس وحلِّق تحفيظ القرآن:

يعتبر أبو الدَّرْداء رحمته الله مؤسساً لمدارس وحلقات تحفيظ القرآن الكريم، فقد تصدَّر للإقراء - كما سبق - في دمشق وهناك أسَّس هذا العمل العظيم:

(١) هو محمد بن كعب بن سليم (أبو أسعد) القرظي، المدني. ولد سنة (٤٠هـ)، كان قد نزل الكوفة مدَّة. ثقة، عالم. توفي سنة (١٢٠هـ).

انظر: تقريب التهذيب (١/٥٠٤).

(٢) يَلْقَن: يفهم ويحفظ. انظر: القاموس المحيط (٤/٢٦٨)، مادة: (لقن).

(٣) عَمَواس: مدينة قرب بيت المقدس. وكان الطَّاعون بها سنة (١٨هـ). انظر: معجم البلدان (٤/١٥٧).

(٤) سير أعلام النبلاء (٢/٣٤٤)؛ وانظر: الطبقات الكبرى (٢/٣٥٧)؛ التاريخ الصغير، للبخاري (١/٤١).

عن سويد بن عبد العزيز رضي الله عنه قال: «كان أبو الدرداء رضي الله عنه إذا صلى الغداة في جامع دمشق اجتمع الناس للقراءة عليه، فكان يجعلهم عشرة عشرة، وعلى كل عشرة عريفاً، ويقف هو في المحراب يرمقهم ببصره، فإذا غلط أحدهم رجع إلى عريفه، فإذا غلط عريفهم رجع إلى أبي الدرداء يسأله عن ذلك»^(١).

وعن مسلم بن مشكم رضي الله عنه قال: قال لي أبو الدرداء رضي الله عنه: «اعدد من في مجلسنا. قال: فجاؤوا ألفاً وستمائة ونيّفاً فكانوا يقرؤون ويتسابقون عشرة عشرة، فإذا صلى الصبح، انفتل وقرأ جزءاً فيحدّقون به يسمعون ألفاظه»^(٢).

٣ - لم تشغله الإمارة عن تعليم القرآن:

فهذا أبو موسى الأشعري رضي الله عنه (أمير البصرة في عهد عمر)، لم تمنعه إمارة البصرة، وكثرة مسؤولياته، من تعليم الناس القرآن.

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «بعثني الأشعري إلى عمر، فقال عمر: كيف تركت الأشعري؟ فقلت: تركته يعلم الناس»، فقال عمر رضي الله عنه: «إنه كَيْسٌ، ولا تُسمعها إياه»^(٣).

٤ - جلس لتعليم القرآن أربعين سنة:

عن سعد بن عبيدة قال: «وأقرأ أبو عبد الرحمن في إمرة عثمان حتى كان الحجاج رضي الله عنه»^(٤)^(٥).

ومعنى ذلك: أنه علّم الناس القرآن في مسجد الكوفة أربعين سنة، فقد بدأ

(١) معرفة القراء الكبار (٤١/١). (٢) سير أعلام النبلاء (٣٤٦/٢).

(٣) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٣٤٥/٢). وانظر: سير أعلام النبلاء (٣٩٠/٢)؛ كنز العمال (٢٦٠/١٣) (رقم ٣٧٥٥٢).

(٤) هو الحجاج بن يوسف بن الحكم بن أبي عقيل بن مسعود بن عامر بن مُعْتَب بن قسي - وهو ثقيف - الثَّقَفي، عاملُ عبد الملك بن مروان على العراق وخراسان، كان حازماً قوياً ظالماً، وأمه: الفارعة بنت همام بن عروة بن مسعود الثَّقَفي، مات مريضاً مُسلّطاً عليه الزّمهرير سنة (٩٥هـ)، وشهد مرضه الحسن البصري، وله: (٥٤ سنة).

انظر: وفيات الأعيان (٢٩/١ - ٥٤)؛ سير أعلام النبلاء (٣٤٣/٤).

(٥) صحيح البخاري (١٦٢٠/٣).

يَعْلَمُ الْقُرْآنَ فِي خِلَافَةِ عَثْمَانَ بْنِ عَفَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى أَيَّامِ الْحَجَّاجِ، وَهُوَ الَّذِي رَوَى عَنْ عَثْمَانَ حَدِيثَ: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ» ^(١).

قَالَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيُّ: «وَذَلِكَ الَّذِي أَقْعَدَنِي مَقْعَدِي هَذَا» ^(٢).
وَمَعْنَى قَوْلِ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيِّ: «وَذَلِكَ الَّذِي أَقْعَدَنِي مَقْعَدِي هَذَا».
«أَيُّ: أَنَّ الْحَدِيثَ الَّذِي حَدَّثَ بِهِ عَثْمَانُ فِي أَفْضَلِيَّةِ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ حَمَلَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَنَّ قَعْدَ يُعَلِّمُ النَّاسَ الْقُرْآنَ لِتَحْصِيلِ تِلْكَ الْفَضِيلَةِ» ^(٣).
وَمَنْ أَجَلَ ذَلِكَ أَتْنِي عَلَيْهِ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ وَدَعَا لَهُ بِالْخَيْرِ فَقَالَ:
«كَفَّلَهُ وَأَثَابَهُ، وَأَتَاهُ مَا طَلَبَهُ وَرَامَهُ، آمِينَ» ^(٤).

٥ - عِلْمُ الْقُرْآنِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ سَنَةً:

(الإمام المُقَرَّرُ نَافِعُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي نَعِيمٍ الْمَدَنِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) أَحَدُ الْقُرَّاءِ السَّبْعَةِ، أَقْرَأَ النَّاسَ دَهْرًا طَوِيلًا يَزِيدُ عَنْ سَبْعِينَ سَنَةً؛ لِأَنَّهُ مِمَّنْ طَالَ عَمْرُهُ ^(٥).
وَقَدْ ذَكَرَ الذَّهَبِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عِدَدًا مِمَّنْ أَقْرَأَهُمْ نَافِعٌ فَقَالَ: «وَأَقْرَأَ النَّاسَ دَهْرًا طَوِيلًا، فَقَرَأَ عَلَيْهِ مِنَ الْقَدَمَاءِ: مَالِكٌ، وَإِسْمَاعِيلُ بْنُ جَعْفَرٍ، وَعِيسَى بْنُ وَرْدَانَ الْحَذَّاءُ، وَسُلَيْمَانُ بْنُ مُسْلِمٍ بَنِ جَمَازٍ. وَمِمَّنْ بَعْدَهُمْ: إِسْحَاقُ الْمُسَيْبِيُّ، وَالْوَاقِدِيُّ، وَيَعْقُوبُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ سَعْدٍ، وَقَالُونَ، وَوَرَشٌ، وَإِسْمَاعِيلُ بْنُ أَبِي أُوَيْسٍ، وَهُوَ آخِرُ مَنْ قَرَأَ عَلَيْهِ مَوْتًا» ^(٦).

٦ - لَقِّنَ الْعَمِيَّانَ دَهْرًا طَوِيلًا:

(الإمام أَبُو مَنْصُورِ الْخَيَّاطِ الْبَغْدَادِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) تَخَرَّجَ عَلَى يَدَيْهِ عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنْ

(١) رَوَاهُ الْيَخَاوِيُّ، كِتَابُ فَضَائِلِ الْقُرْآنِ، بَابُ: خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ (٣/١٦٢٠) (ح-٢٧/٥٠).

(٢) الْمَصْدَرُ السَّابِقُ، وَالْمَصْفُوحَةُ نَفْسُهَا.

(٣) فَتْحُ الْبَارِي شَرْحُ صَحِيحِ الْبَخَارِيِّ (٩/٩٧).

(٤) فَضَائِلُ الْقُرْآنِ (ص ٢٠٧).

(٥) انْظُرْ: مَعْرِفَةُ الْقُرَّاءِ الْكِبَارِ (١/٦٤).

(٦) الْمَصْدَرُ نَفْسُهُ (١/١٠٧ - ١٠٨).

(٧) هُوَ الْإِمَامُ الْقُدُورَةُ الْمُقَرَّرُ (أَبُو مَنْصُورٍ) مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ عَلِيٍّ الْبَغْدَادِيُّ الْخَيَّاطُ الرَّاهِدُ =

قُرَأَ القرآن، وقد وصفه الذهبي رحمته الله بقوله: «جلس لتعليم كتاب الله دهرًا، وتلا عليه أمم»^(١).

وقد لقّن العميان دهرًا لله، وكان يُنفق عليهم، حتّى بلغ عدد مَنْ أقرأهم مِنَ العميان سبعين نفْسًا. قال الذهبي: «ومَنْ لقّن القرآن لسبعين ضريبًا، فقد عمل خيراً كثيراً»^(٢).

وجاء في «السّير» عن السّمعاني رحمته الله قال: «رُويَ (أبو المنصور) بعد موته، فقال: غفر الله لي بتعليمي الصّبيان الفاتحة»^(٣).

٧ - احتساب أجر التّعليم عند الله تعالى:

بلغ ورع معلّمي القرآن - من السّلف الصّالح - مبلغاً عظيماً في عدم أخذ الأجرة على تعليم القرآن، ومن ذلك:

* ما جاء عن أبي عبد الرّحمن السّلمي رحمته الله، أنّه جاء وفي الدّار جلال وجُرُر، فقالوا: بعث بها عمرو بن حُرَيْث رحمته الله^(٤)، لأنّك علّمت ابنه القرآن. فقال: «رُدّه، إنّنا لا نأخذ على كتاب الله أجرًا»^(٥).

* وما جاء عن ابن عُقْدَة رحمته الله^(٦) أنّه كان يؤدّب ابن هشام الحرّاز، فلمّا حدّق الصّبي وتعلّم، وجّه إليه أبوه بدنانير، فردّها، فظن ابن هشام أنّها استقلّت

= قال السّمعاني: «صالح، ثقة، عابد، مُلقّن، له ورْدٌ بين العشاءين يَسْنَع، وكان صاحب كرامات». توفي سنة (٤٩٩هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (١٩/٢٢٢ - ٢٢٤).

(١) سير أعلام النبلاء (١٩/٢٢٢). (٢) المصدر نفسه (١٩/٢٢٢٣).

(٣) المصدر نفسه (١٩/٢٢٤). وانظر: معرفة القراء الكبار (١/٤٥٨).

(٤) هو الصّحابي الجليل: عمرو بن حُرَيْث بن عمرو بن عثمان القرشيّ المخزوميّ (من صغار الصّحابة) قيل: بأنّه ولد قبل الهجرة بستين، ولي إمارة الكوفة أيّام زياد وابنه عبيد الله، وتوفي رحمته الله بها سنة (٨٥هـ). انظر: الإصابة في تمييز الصّحابة، لابن حجر (٢/٥٣١).

(٥) انظر: الطّبقات الكبرى (٦/١٧٣)؛ سير أعلام النبلاء (٤/٢٦٩)؛ معرفة القراء الكبار (١/٥٥).

(٦) هو أحمد بن محمد بن سعيد بن عبد الرّحمن (أبو العبّاس) الكوفي، المعروف بالحافظ ابن عُقْدَة، ولد سنة (٢٠٩هـ)، وعقْدَة لقّب لأبيه النّحوي؛ لعلّمه بالتّصريف والنّحو، توفيّ سنة (٣٣٢هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (١٥/٣٤١)؛ تاريخ بغداد (٥/١٥).

فأضعفها له، فقال: «ما ردذتها استقلالاً، ولكن سألني الصبي أن أعلمه القرآن، فاختلط تعليم النحو بتعليم القرآن، ولا أستحل أن آخذ منه شيئاً، ولو دفع إلي الدنيا»^(١).

* وما رواه فضيل بن جعفر، قال: «خرج الحسن من عند ابن هبيرة فإذا هو بالقرءاء على الباب، فقال: ما أجلسكم ها هنا، تريدون الدخول على هؤلاء، أما والله ما مخالطتهم بمخالطة الأبرار، تفرقوا، فرّق الله بين أرواحكم وأجسادكم، خصفتهم نعالكم، وشمرت ثيابكم، وجززتم رؤوسكم، فضختم القرءاء فضحكهم الله تعالى، أما والله لو زهدتم فيما عندهم، لرغبوا فيما عندكم، ولكنكم رغبتم فيما عندهم، فزهدوا فيما عندكم، فأبعد الله من أبعده»^(٢).

المطلب الثاني

علو همة المتعلمين

إنّ عالي الهمة يجود بالنفس والنفس في سبيل تحصيل غايته، وتحقيق بغيته؛ لأنه يعلم أنّ المكارم محفوفة بالمكاره، وأنّ المصالح والخيرات، واللذات والكمالات كلّها لا تنال إلّا بحظّ من المشقة، ولا يُغبر إليها إلّا على جسر من التعب.

لولا المشقة ساد الناس كلّهم الجود يُفقر، والإقدام قتال^(٣)

ويدلّ على تفاوت الهمم أنّ من الناس من ينشط للسهر في سماع سمر، ولا يسهل عليه السهر في تعلّم القرآن العظيم، ومنهم من يحفظ بعض القرآن، ولا يتوق إلى التمام، ومنهم من يعرف قليلاً من الفقه، ومنهم منوع بصلاة ركعتين في الليل، ومنهم من يطلب معالي الأمور، دون أن تكون له إرادة وسعي في

(١) انظر: تاريخ بغداد (١٥/١٥)؛ سير أعلام النبلاء (٣٤٤/١٥).

(٢) رواه أبو بكر الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (٧٨/١) (رقم ٤٦١)؛ وأبو نعيم في «الحلية» (٢/١٥١)؛ وأبو القاسم في «تاريخ مدينة دمشق» (٣٧٧/٤٥)، وانظر: سير أعلام النبلاء (٥٨٦/٤).

(٣) البيت للمتنبي.

تحقيقها، فهذا مغترٌّ بالأمانى الكاذبة^(١).

وما نيل المطالب بالتمني ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

وما استغصى على قوم منال إذا الإقدام كان لهم ركابا^(٢)

يقول العلامة ابن القيم رحمه الله في هذا الشأن:

«وقد أجمع عقلاء كل أمة على أن النعيم لا يدرك بالنعيم، وأن من أثر الراحة، فاتته الراحة، وأن بحسب ركوب الأهوال، واحتمال المشاق تكون الفرحة واللذة، فلا فرحة لمن لا هم له، ولا لذة لمن لا صبر له، ولا نعيم لمن لا شقاء له، ولا راحة لمن لا تعب له، بل إذا تعب العبد قليلاً، استراح طويلاً، وإذا تحمّل مشقة الصبر ساعة قاده لحياة الأبد، وكل ما فيه أهل النعيم المقيم فهو صبر ساعة، والله المستعان، ولا قوة إلا بالله»^(٣).

وتعلم القرآن الكريم أشرف ما رغب فيه الراغب، وأفضل ما طلب وجد فيه الطالب، وأنفع ما كسبه واقتناه الكاسب، والمقصود من ذلك كله هو لفت الأنظار إلى علو همة السلف الصالح في تعلم القرآن الكريم وبذل الغالي والنفيس من أجل ذلك، وهذه بعض النماذج العالية من سيرتهم العطرة، وهي على النحو الآتي:

١ - الرحلة من أجل تعلم القرآن:

* جاء عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «والله الذي لا إله غيره، ما أنزلت سورة من كتاب الله، إلا أنا أعلم أين أنزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله، إلا أنا أعلم فيمن أنزلت، ولو أعلم أحداً أعلم مني بكتاب الله، تبلغه الإبل، لركبته إليه»^(٤).

(١) انظر: علو الهمة (ص ٢٥).

(٢) البيتان لأحمد شوقي.

(٣) مفتاح دار السعادة (٢/٨٥).

(٤) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: القراء من أصحاب النبي ﷺ (٣/١٦١٣).

(ح ٥٠٠٢)؛ ومسلم بنحوه، كتاب فضائل الصحابة، باب: من فضائل عبد الله بن مسعود وأمه ﷺ (٤/١٩١٣) (ح ٢٤٦٣).

* وجاء عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: «لو أعيتني آية من كتاب الله تعالى، فلم أجد أحداً يفتحها عليّ إلا يترك القماد^(١) لرحلت إليه»^(٢).

* وجاء أيضاً عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «لو أعلم أن أحداً تبلغنيه الإبل أحدث عهداً بالعرضة الأخيرة^(٣) مني لأتته، أو لتكلفت أن أتته»^(٤).

٢ - ملازمة الشيوخ وعرض القراءة عليهم:

من علو همة المتعلمين ملازمة شيوخهم وعرضهم القراءة عليهم عدة مرات مع العلم بتفسير الآيات وفقه أحكامها ومسائلها، والأمثلة على هذا من سيرهم العطرة كثيرة جداً، ومنها:

* ما اشتهر من ملازمة التابعي الجليل مجاهد بن جبر رضي الله عنه لشيخه جبر الأمة ابن عباس رضي الله عنه ملازمة شديدة.

قال مجاهد رضي الله عنه: «عرضت القرآن على ابن عباس ثلاث عرصات، أوقفه عند كل آية أسأله، فيمن نزلت، وكيف كانت»^(٥).

* وقال عبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة: «رأيت مجاهداً سأل ابن عباس عن تفسير القرآن ومعه ألواح، فيقول له ابن عباس: اكتب، حتى سألته عن التفسير كله»^(٦).

* واشتهر عنه أنه أخذ التفسير أيضاً عن جملة من الصحابة، كابن عمر، وجابر بن عبد الله، وأبي سعيد الخدري، وأبي هريرة، وغيرهم رضي الله عنهم.

(١) برك القماد: بكسر الباء وفتحها، وكسر الغين وضمها. وهو موضع أقصى حجر باليمن. انظر: معجم البلدان (١/٣٩٩ - ٤٠٠).

(٢) رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص ١٠١). وانظر: سير أعلام النبلاء (٢/٣٤٢).

(٣) العرضة الأخيرة: هي التي عرضها النبي ﷺ عام ثوئي، على جبريل عليه السلام.

(٤) رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص ١٠٢)؛ وسعيد بن منصور في «سننه» (١/٢٤٦) (رقم ٥٩).

(٥) انظر: سنن الدارمي (١/٢٥٤) (رقم ٢١٢٠)؛ تفسير الطبري (١/٨٥)؛ حلية الأولياء (٣/٢٨٠)؛ الطبقات الكبرى (٥/٤٦٦)؛ معرفة القراء الكبار (ص ٣٧)؛ سير أعلام النبلاء (٤/٤٥٠).

(٦) تفسير الطبري (١/٩٠)؛ مجموع فتاوى ابن تيمية (١٣/٣٦٩).

روى السمرقندي في مقدمة تفسيره بسنده... عن ابن لمجاهد قال: «قال رجل لأبي: أنت الذي تُفسّر القرآن برأيك، فبكى أبي ثم قال: إني إذا لجريء، لقد حملتُ التفسير عن بضعة عشر رجلاً من أصحاب النبي ﷺ»^(١).

* ومن الأئمة الذين اشتهروا بطول ملازمة الشيوخ والإفادة من علومهم، نافع بن أبي نعيم المدني رَحِمَهُ اللهُ، حيث قال: «قرأتُ على سبعين من التابعين»^(٢).

٣ - الإقبال على الشيوخ والإفادة منهم:

* جاء في ترجمة علي بن حمزة الكسائي رَحِمَهُ اللهُ، ما قاله خلف بن هشام البزار: «كنت أحضر بين يدي الكسائي، وهو يقرأ على الناس، وينقطون مصاحفهم بقراءته عليهم»^(٤).

* وقال أبو بكر محمد بن القاسم بن الأنباري: «كانوا يُكثرون عليه حتّى لا يضبط الأخذ عليهم، فيجمعهم، ويجلس على كرسي، ويتلو القرآن من أوّله إلى آخره، وهم يسمعون ويضبطون عنه، حتّى المقاطع والمبادئ»^(٥).

٤ - تحمّل الشدائد والصّعاب بغية تعلّم القرآن:

* جاء عن أبي بكر شعبة بن عياش رَحِمَهُ اللهُ أنه قال: «اختلفتُ إلى عاصم -

(١) تفسير السمرقندي (٣٦/١). وانظر: التفسير والمفسرون (١٠٧/١).

(٢) السبعة في القراءات، لابن مجاهد البغدادي (٦١/١)؛ العبر في خبر من غبر، للذهبي (٢٥٧/١)؛ معرفة القراء الكبار (١٠٧/١)؛ سير أعلام النبلاء (٣٣٦/٧).

(٣) هو علي بن حمزة بن عبد الله بن بهمن بن فيروز (أبو الحسن) الأسدي، مولا هم الكوفي، إمام في النحو واللغة والقراءات، ولد سنة (١٢٠هـ) ولقب بالكسائي: لكساء أحرم فيه، وقيل: لأنه التّف في كساء وهو يتلو على حمزة. قال ابن الأنباري: «اجتمع فيه أنه كان أعلم الناس بالنحو، وواحدهم في الغريب، وواحدهم في علم القرآن». قراءته هي إحدى القراءات السبع المتواترة. ومن مصنفاته: «معاني القرآن»، ومختصر في النحو. توفي سنة (١٨٩هـ).

انظر: وفيات الأعيان (٢٥٩/٣)؛ سير أعلام النبلاء (١٣١/٩).

(٤) السبعة في القراءات (٧٨/١)؛ نَقَط المصاحف، لأبي عمرو الداني (١٣/١)؛ معرفة القراء الكبار (١٢٢/١).

(٥) الوافي بالوفيات (٤٨/٢١)؛ معرفة القراء الكبار (١٢٣/١).

يعني: ابن أبي التَّجُود - نحواً من ثلاث سنين، في الحرِّ والشتاء والمطر، حتَّى ربَّما استحييت من أهل مسجد بني كاهل^(١).

* وجاء عن محمد بن علي السُّلَمي رحمته الله أنه قال: «قمت ليلة سَحَرًا لآخذ التَّوْبَةَ على ابن الأخرم، فوجدت قد سبقني ثلاثون قارئاً»، وقال: «لم تدركني التَّوْبَةُ إلى العصر»^(٢).

مَنْ يُطِيقُ أَنْ يَفْعَلَ مَا فَعَلَهُ السُّلَمي فِي زَمَانِنَا؟ وَمَنْ مِنَ الْآبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ يَرْضَى أَنْ يَخْرُجَ وَلَدُهُ مِنَ السَّحَرِ وَظُلْمَةِ اللَّيْلِ؛ لَتَعْلُمَ الْقُرْآنَ، وَلَا يَعُودَ إِلَّا بَعْدَ الْعَصْرِ؟!

٥ - تَعْلُمُ الْقُرْآنَ قَبْلَ عُلُومِ الشَّرِيعَةِ الْآخَرَى:

* جاء عن ابن خزيمة^(٣) رحمته الله أنه قال: «استأذنتُ أباي فِي الْخُرُوجِ إِلَى قَتِيْبَةٍ، فَقَالَ: اقْرَأِ الْقُرْآنَ أَوَّلًا حَتَّى أَذِنَ لَكَ، فَاسْتَظْهَرْتُ الْقُرْآنَ، فَقَالَ لِي: امْكُثْ حَتَّى تَصْلِيَ بِالْخِتْمَةِ، فَفَعَلْتُ، فَلَمَّا عَيْدُنَا، أَذِنَ لِي، فَخَرَجْتُ إِلَى مَرَوْ، وَسَمِعْتُ بِمَرَوْ الرُّوْدَ مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ هِشَامٍ، صَاحِبِ هَشِيمٍ، فَنَعِيَ إِلَيْنَا قَتِيْبَةً»^(٤).

فَهَذَا مِنْ عُلُوِّ هِمَّةِ السَّلَفِ الصَّالِحِ أَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَدِيثَ وَالْفَقْهَ إِلَّا لِمَنْ حَفِظَ الْقُرْآنَ أَوَّلًا؛ لِأَنَّهُ أَهَمُّ الْعُلُومِ وَأَسَاسُهَا.

٦ - تَرَكَ الْوَطْنَ وَالْمَالَ مِنْ أَجْلِ تَعْلُمِ الْقُرْآنِ:

* جاء فِي سِيرَةِ يَحْيَى بْنِ وَثَّابِ الْأَسَدِيِّ^(٥) رحمته الله أَنَّهُ دَخَلَ هُوَ وَأَبُوهُ

(١) سير أعلام النبلاء (٥٠٢/٨). (٢) المصدر نفسه (٥٦٥/١٥).

وانظر: تاريخ مدينة دمشق (١٢٣/٥٦)؛ معرفة القراء الكبار (٢٩٢/١).

(٣) هو محمد بن إسحاق بن خزيمة، الحافظ الفقيه (أبو بكر) السُّلَمي النِّسَابُوري الشَّافعي، صاحب التَّصَانِيف. ولد (سنة ٢٢٣هـ) وعُني فِي حَدَاثِهِ بِالْحَدِيثِ وَالْفَقْهِ حَتَّى صَارَ يُضْرَبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي سَعَةِ الْعِلْمِ وَالْإِتْقَانِ. وَكَانَ لَهُ عِظَمَةٌ فِي النُّفُوسِ وَجَلَالَةٌ فِي الْقُلُوبِ؛ لِعِلْمِهِ وَدِينِهِ وَاتِّبَاعِهِ الشُّنَّةَ. تَوَفِّيَ (سنة ٣١١هـ). انظر: تذكرة الحفاظ (٢٥٩/٢).

(٤) تاريخ الإسلام (٤٢٤/٢٣)؛ سير أعلام النبلاء (٣٧١/١٤)؛ تذكرة الحفاظ (٧٢٢/٢).

(٥) هو الإمام يحيى بن وَثَّابِ الْأَسَدِيِّ الْكُوفِيِّ، شَيْخُ الْمُقَرَّرِينَ فِي زَمَانِهِ، ثَقَّةٌ، عَابِدٌ، مِنْ الرَّابِعَةِ. قَالَ الْأَعْمَشُ رحمته الله: «يَحْيَى بْنُ وَثَّابٍ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ قِرَاءَةً، وَرَبَّيْمَا اسْتَهْيَتْ =

الكوفة، وكانت يومئذ حاضرة العلم والعلماء، فطلب من أبيه البقاء بها؛ ليتعلم كتاب الله ﷻ، وسنة نبيه ﷺ، بملازمة خلق أهل العلم فيها، مؤثراً ذلك على الذهاب إلى بلده برفقة أهله، قائلاً لأبيه: «يا أبت اني آثرُ العلم على المال»، فأذن له والده في المقام بالكوفة، فأقبل على القرآن الكريم، فقرأ على أصحاب عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، حيث لم يدركه، فقرأ على علقمة بن قيس، والأسود بن يزيد، وأبي عبد الرحمن السلمي، وغيرهم^(١).

٧- حفظ القرآن بالروايات العشر:

كثيراً ما نقرأ في سير العلماء الكبار أنَّ الواحد منهم قد حفظ القرآن عند سنِّ العاشرة أو بعدها بقليل، ولكن أن يُحفظ القرآن بالروايات العشر فهذا من النَّادر، ويدلُّ على علوِّ في همة المتعلم:

* جاء في ترجمة زيد بن الحسن الكندي^(٢) رحمته الله أنه: «حفظ القرآن وهو صغير مُميز، وقرأه بالروايات العشر، وله عشرة أعوام، وهذا شيء ما تهيأ لأحد قبله، ثم عاش حتَّى انتهى إليه علوُّ الإسناد في القراءات والحديث»^(٣).



= تقبيل رأسه؛ لحسن قراءته، وكان إذا قرأ لم تحس في المسجد حركة، كأن ليس في

المسجد أحد». وقال أيضاً: «كنتُ إذا رأيته قلت هذا قد وقف للحساب».

انظر: تقريب التهذيب (٥٩٨/١)؛ معرفة القراء الكبار (١/٦٤).

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٣٧٩/٤).

(٢) هو زيد بن الحسن بن زيد بن الحسن بن سعيد الكندي (أبو اليمن) الملقب: تاج الدين،

البغدادي المولد (سنة ٥٢٠هـ)، الدمشقي الدار والوفاة (سنة ٥٩٧هـ)، المقرئ، النحوي،

المحدث، الأديب، كان أواحد عصره في فنون الآداب، وعلو السماع، قال الذهبي رحمته الله:

«قرأ القرآن تلقيناً على أبي محمد، سبط الخطاط، وله نحو من سبع سنين، وهذا نادر».

انظر: وفيات الأعيان (٢/٣٣٩)؛ معرفة القراء الكبار (٢/٥٨٦).

(٣) سير أعلام النبلاء (٣٤/٢٢).

الفصل الخامس

هجر تلاوة القرآن

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: مظاهر هجر تلاوة القرآن.

المبحث الثاني: أسباب هجر التلاوة.

المبحث الثالث: آداب وأحكام تلاوة القرآن.

المبحث الرابع: فضائل تلاوة القرآن.

المبحث الأول

مظاهر هجر تلاوة القرآن

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: مظاهر هجر التلاوة.

المطلب الثاني: بدع التلاوة.

المطلب الأول

مظاهر هجر التلاوة

هجر تلاوة القرآن الكريم - في الواقع المعاصر - يأخذ مظاهر عدّة، وتتفاوت هذه المظاهر فيما بينها من حيث درجة تعاضمها حسب الحالة ذاتها، وحسب صاحبها؛ فربّما كان تشاغلاً بأمرٍ من أمور الدُّنيا، أو كان زهداً في أجر التلاوة، أو تكاسلاً عنها، أو جهلاً بفوائدها الكثيرة وثمارها الياينة، أو غير ذلك.

ومظاهر هجر التلاوة تُجمل في نقاطٍ عدّة، وهي:

- ١ - الانقطاع عن التلاوة لفترات طويلة، فبعضهم لا يتلو القرآن إلاّ يوم الجمعة، أو في شهر رمضان، أو في الحجّ أو العمرة، أو عند نزول مصيبة، أو فقد قريب.
- ٢ - قلة التلاوة والزُّهد في أجزائها.
- ٣ - هجر التلاوة في البيوت، أو في وسائل التَّنقُّل المريحة أثناء السَّفر، كالطَّائرات، والسيَّارات، والقطارات، والسُّفن.
- ٤ - اعتناء القارئ بالكَمِّ دون الكيف أثناء التلاوة.
- ٥ - الجهل بأحكام التَّجويد، وعدم الحرص على تعلُّمها وتطبيقها.
- ٦ - عدم الخشوع أثناء التلاوة، فكثيراً ما يجول الفكر في كلِّ مكان عند تلاوة القرآن.
- ٧ - ترك الالتزام بأداب التلاوة، ومنها: اختيار الزَّمان والمكان المناسبين، والاستعاذة قبلها، وحسن الوقف والابتداء، والوقوف عند رؤوس الآيات، والتَّسبيح عند آيات التَّسبيح، والتَّعوُّذ عند آيات العذاب، وسؤال الرِّحمة عند آيات الرِّحمة، والسُّجود عند المرور بآية سجدة، وهكذا.
- ٨ - عدم التزام الأدب في حمل المصحف أو وضعه أثناء التلاوة، وبعض صغار القراء ربّما كتبوا على مصاحفهم أو مرَّقوا بعض أوراقها.

٩ - عدم تخصيص أوقات لتلاوة القرآن، بل رُبَّمَا كانت التلاوة في الأوقات المفضولة.

١٠ - عدم استشعار فضائل وثمرات تلاوة القرآن.

١١ - قلة احتساب الأجر وضعف النية في التلاوة.

١٢ - ضعف الهمة وعدم الصبر على هذه العبادة العظيمة.

١٣ - عدم وضوح الهدف والغاية من قراءة القرآن.

١٤ - جعل تلاوة القرآن وسيلة ومطية لنيل حظوظ دنيوية، كالقراءة في المآتم والعزاء، وافتتاح الحفلات، وسائر المناسبات الشرعية كشهر رمضان.

١٥ - الحصول على شهادات عالية في مختلف التخصصات العلمية والأدبية مع عدم إتقان تلاوة القرآن.

١٦ - تبوء المناصب القيادية في الوزارات والشركات والهيئات والمؤسسات مع عدم إجادة التلاوة.

١٧ - لما يفعله بعض الفساق من تلاوة القرآن بقصد تقوية مخارج الحروف؛ لأداء أفضل في الغناء!!

١٨ - القراءة بقصد التبرُّك بالقرآن دون أن يتبع ذلك عمل وتطبيق لما يتلوه.

المطلب الثاني

بَدْعُ التَّلَاوَةِ

ابتدع بعض القراء في قراءة القرآن أشياء كثيرة لا تحل؛ لأنها إما زيادة على الجَدِّ المتَّفَق عليه في تلاوة القرآن، وإما نقص عن ذلك.
ومن هذه الأمور المبتدعة في التلاوة ما يلي:

١ - التَّنَطُّعُ في القراءة، والوسوسة في مخارج الحروف:

ومعنى ذلك: التعسف والإسراف المتكلف في القراءة، وعدم القراءة بسهولة واستقامة، كما أمر تعالى بقوله: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤] وقوله

تعالى: ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢]. وعدم إعطاء الحروف حقها من الصفات والأحكام، والخروج بذلك كله إلى التجويد المتكلف.

ومما ذكره ابن القيم رحمته الله في سياق حديثه عن مصائد الشيطان لبعض القراء: «ومن ذلك الوسوسة في مخارج الحروف، والتنطع فيها... ومن تأمل هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وإقراره أهل كل لسان على قراءتهم يتبين له أن التنطع والتشدد، والوسوسة في إخراج الحروف ليس من سنته»^(١).

٢ - الخروج بالقراءة عن لحن العرب^(٢) إلى لحن العجم:

قال ابن القيم رحمته الله: «قال محمد بن قتيبة في (مشكل القرآن): وقد كان الناس يقرؤون القرآن بلغاتهم، ثم خلف من بعدهم قوم من أهل الأمصار وأبناء العجم ليس لهم طبع اللغة، ولا علم التكلف، فهفوا في كثير من الحروف، وزلوا وأخلوا، ومنهم رجل ستر الله عليه عند العوام بالصلاح، وقربه من القلوب بالدين. فلم أر فيمن تتبعت في وجوه قراءته أكثر تخليطاً ولا أشد اضطراباً منه؛ لأنه يستعمل في الحرف ما يدعه في نظيره. ثم يؤصل أصلاً ويخالفه إلى غيره بغير علة، ويختار في كثير من الحروف ما لا مخرج له إلا على طلب الحيلة الضعيفة، هذا إلى نبذه في قراءته مذاهب العرب وأهل الحجاز، بإفراطه في المد والهمز والإشباع، وإفحاشه في الإضجاع والإدغام، وحمله المتعلمين على المذهب الضعيف، وتفسيره على الأمة ما يسره الله تعالى، وتضييقه ما فسحه. ومن العجب أنه يقرئ الناس بهذه المذاهب، ويكره الصلاة بها. ففي أي موضع

(١) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان (١/٢٥٢، ٢٥٤).

(٢) معنى اللحن: جاء في «لسان العرب» (١٢/٢٥٥): «اللحن، واللحن، واللحن، واللحن، واللحن: ترك الصواب في القراءة». وجاء في «المفردات في غريب القرآن» (ص ٤٢٥): «اللحن: صرّف الكلام عن سننه الجاري عليه، إما بإزالة الإعراب، أو التضعيف، وهو المذموم». وجاء في «النهاية في غريب الحديث والأثر» (٤/٢٤١): «اللحن: الميل عن جهة الاستقامة. يقال: لحن فلان في كلامه، إذا مال عن صحيح المنطق». فمعنى لحن العرب، أو لحن العرب: هي قراءة الإنسان بحسب جبلته وطبيعته على طريقة العرب العزباء الذين نزل القرآن بلغتهم. انظر: القرآن الكريم: تاريخه وآدابه، لإبراهيم علي عمر (ص ٢٠١).

تُسْتَعْمَلُ هَذِهِ الْقِرَاءَةُ، إِنْ كَانَتْ الصَّلَاةُ لَا تَجُوزُ بِهَا؟^(١)

٣ - الْقِرَاءَةُ بِالْحَانَ أَهْلِ الْفَسْقِ وَالْفُجُورِ^(٢):

وَصَفَّ أَبُو بَكْرٍ الطَّرْطُوشِي^(٣) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خَالَ أَصْحَابِ الْأَلْحَانِ - الَّذِينَ ظَهَرُوا فِي الْقُرُونِ الرَّابِعِ - أَنَّ مَقْصُودَهُمْ مِنْ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ وَسَمَاعِهِ هُوَ الْوُصُولُ إِلَى الطَّرَبِ وَالنَّعْمَاتِ وَالْأَلْحَانِ، لَا تَدْبُرُ الْقُرْآنَ، وَتَفْهَمُ مَعَانِيَهُ، فَقَالَ: «فَالْتَّالِي مِنْهُمْ وَالسَّامِعُ لَا يَقْصِدُونَ»^(٤) فَهَمَّ مَعَانِيَهُ؛ مِنْ أَمْرٍ، أَوْ نَهْيٍ، أَوْ وَعْدٍ، أَوْ وَعِيدٍ، أَوْ وَعْظٍ، أَوْ تَخْوِيفٍ، أَوْ ضَرْبٍ مَثَلٍ، أَوْ اقْتِضَاءٍ حُكْمٍ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا أُنْزِلَ بِهِ الْقُرْآنُ، وَإِنَّمَا هُوَ لِلذَّيْفِ وَالطَّرَبِ وَالنَّعْمَاتِ وَالْأَلْحَانِ؛ كَنَقْرِ الْأَوْتَارِ، وَأَصْوَاتِ الْمَزَامِيرِ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ ﷻ يَذُمُّ قَبْرِيشًا: «وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً» [الأنفال: ٣٥]^(٥).

وَلِذَلِكَ لَا تَتَعَجَّبْ وَلَا تَأْخُذْكَ الدَّهْشَةُ وَالْحَيْرَةُ عِنْدَمَا تَجِدُ فِي تَرَاجُمِ بَعْضِ مَشَاهِيرِ الْقُرَّاءِ - فِي زَمَانِنَا - بِأَنَّهُ عَارِفٌ بِالْحَانَ الْمَوْسِيقِيِّ وَالْغِنَاءِ، حَتَّى صَرَخَ بَعْضُهُمْ فِي الْإِذَاعَةِ عِنْدَمَا كَانَ يُسَالُ عَنْ سَبَبِ شَهْرَتِهِ؟ فَأَجَابَ: الْفَضْلُ فِي ذَلِكَ يَرْجِعُ إِلَى تَعَلُّمِ الْأَلْحَانِ الْمَوْسِيقِيَّةِ! وَلَقَدْ تَعَلَّمْتُ السُّلَمَ الْمَوْسِيقِيَّ مِنْ بَعْضِ الْفَنَّانِينَ!^(٦)

(١) إِغَاثَةُ الْلَّهْفَانِ مِنْ مَصَائِدِ الشَّيْطَانِ (١/٢٥٢ - ٢٥٣).

(٢) لَابِنُ الْكَيْتَالِ الدَّمَشْقِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الْمَتَوَفَّى سَنَةَ (٩٢٩ هـ) رِسَالَةً بِاسْمِ: «الْأَنْجَمُ الزَّوَاهِرِ، فِي تَحْرِيمِ الْقِرَاءَةِ بِلُحُونِ أَهْلِ الْفَسْقِ وَالْكَبَائِرِ» وَهِيَ مَخْطُوطَةٌ. انْظُرْ: تَصْحِيحُ الدُّعَاءِ (ص ٢٦٥).

(٣) هُوَ أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ الْوَلِيدِ بْنِ خُلْفِ بْنِ سَلِيمَانَ الْأَنْدَلُسِيِّ، الطَّرْطُوشِيُّ، عَالِمٌ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ. وَطَّرَطُوشَةُ: هِيَ آخِرُ حَدِّ الْمُسْلِمِينَ مِنْ شِمَالِي الْأَنْدَلُسِ. وَلِدَ سَنَةَ (٤٥١ هـ). قَالَ ابْنُ يَشْكُوَالٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كَانَ إِمَامًا، عَالِمًا، زَاهِدًا، وَرِعًا، دِينًا، مُتَوَاضِعًا، مُتَقَشِّفًا، مُتَقَلِّلًا مِنَ الدُّنْيَا، رَاضِيًا بِالْيُسْرِ»، تَوَفَّى سَنَةَ (٥٢٠ هـ). وَمِنْ مَصْنُفَاتِهِ: «تَحْرِيمُ الْغِنَاءِ»، وَ«بِرُّ الْوَالِدَيْنِ»، وَ«الرَّدُّ عَلَى الْيَهُودِ».

انْظُرْ: وَفَيَاتُ الْأَعْيَانِ (٤/٢٦٢)؛ النُّجُومُ الزَّاهِرَةُ (٥/٢٣١).

(٤) أَيُّ: لَا يَرِيدُونَ. (٥) الْحَوَادِثُ وَالْبَدْعُ (ص ٨٧).

(٦) انْظُرْ: فَتْحُ الرَّحْمَنِ فِي بَيَانِ هَجْرِ الْقُرْآنِ (ص ٣٢).

٤ - قراءة الأنغام والتَمْطِيط: وتسمى أيضاً: «قراءة التَرْقِيس»؛ لأنه يُدْخِلُهَا أحياناً رَكْضَ وَرَكْل - أي: ضرب بالقدمين.

وقيل: معنى التَرْقِيس: أَنَّ الشَّخْصَ يُرْقِصُ صَوْتَهُ كَالْمَتَكَمِّلِ الَّذِي يَفْعَلُ الرَّقْصَ. وقال بعضهم: هو أن يروم السَّكْتَ عَلَى السَّاكِنِ، ثُمَّ يَنْفِرُ عَنْهُ مَعَ الْحَرَكَةِ فِي عَدْوٍ وَهَرُولَةٍ^(١). قال الشَّيْخُ بَكْرُ أَبُو زَيْدٍ^(٢) - حَفِظَهُ اللَّهُ - عَنْ بَدْعَةِ التَّرْقِيسِ: «وَكُنْتُ أَظْنُهَا مِمَّا انْقَرَضَ، لَكِنِّي شَاهَدْتُهَا لَدَى بَعْضِ الطَّرِيقَةِ، فِي سَاحَةِ مَسْجِدِ الْحُسَيْنِ بِمَصْرَ عَامَ (١٣٩١هـ)، وَهُمْ فِي غَايَةِ مِنَ الْاسْتِغْرَاقِ، وَالْإِغْتِرَارِ بِمُشَاهَدَةِ النَّاسِ لَهُمْ، فَلَمَّا نَاصَحْتُ أَحَدَهُمْ وَجَدْتُهُ فِي غَايَةِ مِنَ الْجَهْلِ، وَالْإِنْصِرَافِ عَنِ النَّصْحِ»^(٣).

٥ - قراءة التَّحْزِينِ وَالتَّطْرِيبِ:

وهو أن يترك القارئ طباعه وعادته في التلاوة، ويأتي بها على وجه آخر، كأنه حزين يكاد أن يبكي من خشوع وخضوع. وإنما نُهي عن قراءة التَّحْزِينِ وَالتَّطْرِيبِ لما فيها من الرِّياءِ مِنْ جِهَةٍ، وَمِنْ تَرْدِيدِ الْأَصْوَاتِ، وَكَثْرَةِ التَّرْجِيعَاتِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى^(٤).

٦ - قراءة التَّحْرِيفِ:

وهو أنَّ عِدَّةً مِنَ الْقُرَّاءِ يَقْرَءُونَ بِصَوْتٍ وَاحِدٍ، وَيَقْطَعُونَ الْقِرَاءَةَ، فَيَأْتِي

- (١) انظر: القرآن الكريم: تاريخه وأدابه (ص ٢٠٢).
- (٢) هو بكر بن عبد الله أبو زيد، ينتهي نسبه إلى سويد بن زيد القضاعي، من قبيلة بني زيد القضاعية المشهورة في حاضرة الوشم، وعالية نجد، وفيها ولد عام (١٣٦٥هـ)، وبجانب دراسته النظامية، لديه نحو عشرين إجازة من علماء الحرمين والرياض والمغرب والشام والهند وأفريقيا وغيرها. ومن أبرز مشايخه العلامة محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله، حيث لازمه نحو عشر سنين، وله مشاركات قيمة في التأليف بلغت زهاء السبعين مؤلفاً.
- انظر: فتاوى اللجنة الدائمة (١٥/٧ - ٢٣).
- (٣) تصحيح الدعاء (ص ٢٦٦).
- (٤) انظر: جمال القراء، للسخاوي (٢/٥٢٨).

بعضهم ببعض الكلمة، والآخر ببعضها الآخر، فيقولون في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (أفل تعقلون) بحذف الألف، و(قال آمناً) بحذف الواو، ويمدّون بما لا يمدُّ؛ ليستقيم لهم الطريق التي سلكوها.

فهؤلاء المُحَرِّفَةُ يحافظون على مراعاة الأصوات، ولا ينظرون إلى ما يترتب على ذلك من الإخلال بالثواب، فضلاً عن الإخلال بتعظيم كلام الجبار^(١).

٧ - قراءة التَّعْزِيدِ:

ومعناه أَنَّ الشَّخْصَ يُرْعِدُ صَوْتَهُ بِالْقُرْآنِ، كَأَنَّهُ يَرْعِدُ مِنْ بَرْدٍ أَوْ أَلَمٍ أَصَابَهُ. ومن المناسب أن أسوق كلاماً نفيساً وجامعاً للذهبي رحمته الله وهو يندب حال أكثر القراء في عصره، حيث يقول:

«الْقُرَاءُ الْمُجَوِّدَةُ: فِيهِمْ تَنْطَعٌ وَتَحْرِيرٌ زَائِدٌ يُوْذِي إِلَى أَنَّ الْمُجَوِّدَ الْقَارِئَ يَبْقَى مَصْرُوفَ الْهِمَّةِ إِلَى مِرَاعَاةِ الْحُرُوفِ وَالتَّنْطَعِ فِي تَجْوِيدِهَا؛ بَحِثْ يَشْغَلُهُ ذَلِكَ عَنْ تَدَبُّرِ مَعَانِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، وَيَصْرِفُهُ عَنِ الْخُشُوعِ فِي التَّلَاوَةِ لِلَّهِ، وَيُخْلِيهِ قُوَى النَّفْسِ مُزْدَرِئاً بِحِفَاطِ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، فَيَنْظُرُ إِلَيْهِمْ بَعِينُ الْمَقْتِ، وَبِأَنَّ الْمُسْلِمِينَ يَلْحَنُونَ، وَبِأَنَّ الْقُرَاءَ لَا يَحْفَظُونَ إِلَّا شَوَادَّ الْقِرَاءَةِ، فَلَيْتَ شَعَرِي أُنْتُ مَاذَا عَرَفْتُ، وَمَا عَلِمْتُ؟ فَأَمَّا عَمَلُكَ فَغَيْرُ صَالِحٍ، وَأَمَّا تِلَاوَتُكَ فَثَقِيلَةٌ عَرِيَّةٌ عَنِ الْخُشْيَةِ وَالْحُزْنِ وَالْخَوْفِ، فَاللَّهُ يُؤَفِّقُكَ وَيُبْصِّرُكَ رُشْدَكَ، وَيُوقِظُكَ مِنْ رَقْدَةِ الْجَهْلِ وَالرِّيَاءِ».

وَصَلُّهُمْ قِرَاءَ النَّعْمِ وَالتَّمْطِيطِ: وَهَؤُلَاءِ مَنْ قَرَأَ مِنْهُمْ بِقَلْبٍ وَخَوْفٍ، قَدْ يُنْتَفِعُ بِهِ فِي الْجُمْلَةِ، فَقَدْ رَأَيْتُ مَنْ يَقْرَأُ صَاحِحاً، وَيُطْرِبُ وَيُبْكِي، وَرَأَيْتُ مَنْ إِذَا قَرَأَ قَسَى الْقُلُوبَ، وَأَبْرَمَ النَّفُوسَ، وَبَدَّلَ كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَسَوَاهُمْ حَالاً الْجَنَائِزَةَ.

وَأَمَّا الْقِرَاءَةُ بِالرُّوَايَاتِ وَبِالْجَمْعِ: فَأَبْعَدُ شَيْءٍ عَنِ الْخُشُوعِ، وَأَقْدَمُ شَيْءٍ عَلَى التَّلَاوَةِ بِمَا يَخْرُجُ عَنِ الْقَصْدِ، وَشَعَارِهِمْ فِي تَكْثِيرِ وَجْهِهِمْ حَمْزَةً، وَتَغْلِيطِ تِلْكَ اللَّامَاتِ، وَتَرْقِيقِ الرَّاءَاتِ.

(١) انظر: الإتيان في علوم القرآن (١/٢٧٠).

اقرأ يا رجل وأعفنا من التَّغْلِيظِ، والتَّرْقِيقِ، وفرط الإمالة، والمدود،
ووقوف حمزة، فإلى كم هذا؟^(١)
وآخر منهم إن حَضَرَ في ختمة، أو تلا في محراب؛ جعل ديدنه إحضار
غرائب الوجوه، والسَّكْتِ، والتَّهَوُّعِ بالتَّسْهِيلِ، وأتى بكلِّ خلاف، ونادى على
نَفْسِهِ: أنا أبو فلان، فاعرفوني فإني عارف بالسَّعِيعِ.
إيش يُعمل بك؟ لا صَبَّحَكَ اللهُ بخير، إنك حبر منجنيق، ورصاص على
الأفئدة»^(٢).

ولذلك أشار بعضهم فقال:

حُدُودُ حُرُوفِ الذِّكْرِ فِي لَفْظِ قَارِئٍ
فَإِنِّي رَأَيْتُ الْبَعْضَ يَتْلُو الْقُرْآنَ لَا
فَمِنْهُمْ بِتَرْقِيقٍ وَلَحْنٍ وَضَجَّةٍ
فَمَا كُلُّ مَنْ يَتْلُو الْقُرْآنَ يُقِيمُهُ
فَلَزَرُ نُطْقٍ أَعْجَامٍ وَمَا اخْتَرَعُوا بِهِ
فِي قَارِئِ الْقُرْآنِ أَجْمَلُ أَدَاءِهِ
يَحْدِرُ وَتَحْقِيقِي وَدَوْرُ مُرْتَلَا
يُرَاعِي حُدُودَ الْحَرْفِ وَزْنَ وَمَنْزِلَا
وَمِنْهُمْ بِتَرْعِيدٍ وَنَوْحٍ تَبْدَلَا
وَلَا كُلُّ مَنْ يَقْرَأُ مَجْمَلَا
وَحُذْرُ نُطْقٍ غُرْبٍ بِالْفَضَاحَةِ سُؤْلَا
يُضَاعِفُ لَكَ الرَّحْمَنُ أَجْرًا فَأَجْزَلَا^(٣)

٨ - هَذِهِ كَهَذَّ الشَّعْرِ:

أما هذه «حذراً» بمعنى إدراج القراءة مع مراعاة أحكامها وسرعتها بما
يوافق طبعه، ويخفُّ عليه، فلا تدخل تحت النهي، بل هذه من أنواع القراءة
المشروعة.

٩ - القراءة بالإدارة:

وهي تناوب المجتمعين في القراءة جماعياً آيةً، أو آيات، أو سورة، أو
سوراً، إلى أن يتكاملوا بالقراءة، وهذا بخلاف الاجتماع المشروع لطلاب
القرآن.

(١) بيان زغل العلم والطلب، للدَّهْلَبِيِّ (ص ٢٥ - ٢٧).

(٢) القرآن الكريم: تاريخه وآدابه (ص ٢٠٢ - ٢٠٣).

١٠ - قراءة القرآن في مجلس شرب الدخان:

اشتد نكير العلماء على مَنْ قرأ القرآن الكريم وهو يشرب الدخان، أو في مجلس يشرب فيه، وأفردت فيه رسائل لبعض علماء مصر.

١١ - القراءة والإقراء بشواذ القراءات:

وممّا قاله ابن الجوزي رحمته الله في سياق ذكر تلبس إبليس على بعض القراء: «فمن ذلك: أن أحدهم يشتغل بالقراءات الشاذة وتحصيلها، فيفني أكثر عمره في جمعها، وتصنيفها، والإقراء بها، ويشغله ذلك عن معرفة الفرائض والواجبات، فربما رأيت إمام مسجد يتصدى للإقراء، ولا يعرف ما يفسد الصلاة، وربما حمله حب التصدر - حتى لا يرى بعين الجهل - على ألا يجلس بين يدي العلماء ويأخذ عنهم العلم، ولو تفكروا لعلموا أن المراد حفظ القرآن وتقويم ألفاظه، ثم فهمه، ثم العمل به، ثم الإقبال على ما يصلح النفس ويظهر أخلاقها، ثم الشاغل بالمهم من علوم الشرع.

ومن الغبن الفاحش: تضييع الزمان فيما غيره الأهم، قال الحسن البصري: أنزل القرآن ليعمل به، فاتخذ الناس تلاوته عملاً. يعني أنهم اقتصروا على التلاوة، وتركوا العمل به»^(١).

١٢ - جمع القراءات في مجلس واحد:

يقع بعض القراء في نوع من الرياء والشمعة والمباهاة حين يجمع بين قراءتين فأكثر، في آية واحدة، في الصلاة أو خارجها في مجامع الناس. وليس من ذلك بيانها في دروس التفسير، وإظهار وجوه القراءات من المعلمين للمتعلمين^(٢).

وهذا ما صرح به ابن تيمية رحمته الله بقوله: «وأما جمعها - القراءات - في الصلاة، أو في التلاوة فهو بدعة مكروهة، وأما جمعها لأجل الحفظ والدّرس

(١) تلبس إبليس (ص ١٣٠).

(٢) انظر تصحيح الدعاء (ص ٢٦٩ - ٢٧٢).

فهو من الاجتهاد الذي فعّله طوائف في القراءة^(١) وقال الحُصَري^(٢) رَحِمَهُ اللهُ: «فَلْيَعْلَمِ إِخْوَانُنَا الْقُرَّاءَ - وَفَقَّهَهُمُ اللهُ - أَنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ حَمَلَهُمْ أَمَانَةَ تِلَاوَةِ كِتَابِهِ، وَأَلْزَمَهُمْ فِيهَا التَّأَدُّبَ بِآدَابِهِ، وَالِاتِّبَاعَ لِسُنَّةِ رَسُولِهِ فِيهَا، وَالنَّهْيَ عَمَّا فِيهِ إِخْلَالٌ بِحَقِّهَا، أَوْ ابْتِدَاعٌ فِيهَا، وَالْقِرَاءَةَ سُنَّةً مَأْثُورَةً، وَجَعَلَ جَزَاءَ تَقْصِيرِهِمْ فِي ذَلِكَ مُضَاعَفًا بِقَدْرِ مَا مَنَحَهُمُ اللهُ مِنَ الْعِلْمِ بِأَحْكَامِ التَّلَاوَةِ؛ لِذَلِكَ أَدْعُوهُمْ - هِدَانِي اللهُ وَإِيَّاهُمْ - إِلَى الْقِيَامِ بِحَقِّ كِتَابِهِ وَتَرْكِ مَا اعْتَادُوهُ فِي هَذَا الْعَصْرِ مِنَ الْجَمْعِ بَيْنَ الْقِرَاءَاتِ فِي الْمَحَافِلِ، فَإِنَّهُ - كَمَا نَصَّ عَلَيْهِ الْأَثَمَةُ الثَّقَاتِ، وَهُمْ الْقُدُوةُ فِي هَذَا الشَّأْنِ - بِدْعَةٌ مُسْتَحْدَثَةٌ، غَيْرُ مَعْرُوفَةٍ، لَا عِنْدَ السَّلَفِ، وَلَا عِنْدَ الْخَلْفِ»^(٣).

١٣ - قول السامع للقارئ «الله، الله»:

فهذه الفاظ شريفة ينبغي ألا يوظفها السامع للقارئ، والمطلوب هو التدبُّر والاستماع والإنصات، كما قال تعالى: «وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ» [الأعراف: ٢٠٤].

١٤ - التزام قول «صدق الله العظيم» بعد التلاوة:

قول القائل: «صدق الله العظيم» في نفسها حقٌّ، لكن لم يثبت عن النبي ﷺ، أَنَّهُ قالها بعد الانتهاء من تلاوة القرآن مع كثرة قراءته وسماعه للقرآن، وكذلك لم يُعهد عن الصدر الأوَّل رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ كانوا يتلفظون بذلك عند الانتهاء من تلاوتهم، ولم يُعرف ذلك عند السلف الصالحين من بعد الصحابة^(٤).

(١) مجموع الفتاوى (١٣/٤٠٤).

(٢) هو محمود بن خليل الحُصَري، شيخ المقارئ المصرية، ولد سنة (١٣٣٥هـ) وكان صاحبَ مخارج قويَّة، وذا صوت رزين، وكان ممَّن يتَّبِع السلف الصالح في طريقتهم في قراءة كتاب الله تعالى فما يجيد عنه قيد أنملة. وهو أوَّل مَنْ سَجَّل المصحف المَرْتَل للإذاعة، وأوَّل مَنْ أَوْفَد بعثات دينية بالخارج، لتلاوة القرآن الكريم في العالم الإسلامي. توفي سنة (١٤٠١هـ). انظر: الموسوعة الميسرة في تراجم أئمة التفسير والإقراء والنحو واللغة (٣/٢٥٩٢ - ٢٥٩٣).

(٣) القرآن: آداب تلاوته وسماعه (ص ٢٩).

(٤) انظر: فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء (٤/١٤٩)، فتوى رقم (٣٣٠٣).

فالتزام هذا الذكر «صدق الله العظيم» بعد قراءة القرآن التزام مُخترع مُحدث لا دليل عليه، وكلُّ مُحدث في العبادات فهو بدعة^(١).

١٥ - بدع قراءة الفاتحة:

هناك بدع كثيرة ومتنوعة تتعلق بقراءة الفاتحة، ومن ذلك:

- * قراءة الفاتحة بنية قضاء الحاجات، وتفريج الكربات، وهلاك الأعداء!
- * قراءة الفاتحة عند شرط خطبة الزواج، واعتقادهم أنَّ قراءتها عهد لا يُنقض، أو أنها تعدل أربعة وأربعين يمينا^(٢).
- * قول بعضهم - بعد قراءة القرآن: الفاتحة^(٣).
- * قول بعضهم: الفاتحة على روح فلان عند أي مناسبة^(٤).
- * قراءة الفاتحة بعد الدعاء من البدع^(٥).
- * قراءة الفاتحة بعد صلاة الفريضة^(٦).
- * قراءة الفاتحة جهراً بعد التسليم من صلاة الجنازة، وعند رأس الميت، والمناداة بقراءة الفاتحة عند المرور بالمقابر^(٧).

١٦ - قراءة القرآن عند القبر:

قال ابن تيمية رحمته الله: «والقراءة على الميت بعد موته بدعة»^(٨).
وأكد ذلك تلميذه ابن القيم رحمته الله بقوله: «وكان من هديه عليه السلام، تعزية أهل الميت، ولم يكن من هديه أن يجتمع للعزاء، ويُقرأ له القرآن، لا عند قبره ولا

(١) انظر: تصحيح الدعاء (ص ٢٩١ - ٢٩٢).

(٢) انظر: السنن والابتدعات، لمحمد بن أحمد بن عبد السلام الشقيري (ص ١٩١ - ١٩٢)؛ فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء (٥٣٨/٢)، فتوى رقم: (٨٩٤٦).

(٣) انظر: بدع القراء القديمة والمعاصرة، د. بكر أبو زيد (ص ٢١).

(٤) انظر: أحكام الجنائز وبدعها، للألباني (ص ٧).

(٥) انظر: فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء (٥٢٨/٢)، فتوى رقم: (٥٨٨١).

(٦) انظر: المصدر نفسه (٥٣٩/٢)، فتوى رقم: (٩٥٠٩).

(٧) انظر: تصحيح الدعاء (ص ٢٧٦). (٨) الاختيارات الفقهية (ص ٩٢).

غيره، وكلُّ هذا بدعة حادثة مكروهة^(١).
وأورد هنا كلاماً نفيساً للألباني رحمته الله، حيث يقول في السياق نفسه: «وقراءة القرآن عند زيارة المقابر، أو عندها، لا أصل له في السُّنَّة، إذ لو كانت القراءة مشروعة لفعلها رسول الله ﷺ وعلمها أصحابه، لا سيما وقد سأله عائشة رضي الله عنها وهي من أحبِّ النَّاسِ إليه - عمّا تقول إذا زارت المقابر، فعلمها السَّلام والدُّعاء، ولم يعلمها أن تقرأ الفاتحة أو غيرها من القرآن؛ فلو أنَّ القراءة كانت مشروعة لما كُتِمَ ذلك عنها، كيف وتأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز كما تقرّر في علم الأصول، فكيف بالكتمان^(٢)».



(١) زاد المعاد في هدي خير العباد (١/٥٢٧).

(٢) أحكام الجنائز وبيدعها (ص ٢٤١).

المبحث الثاني

أسباب هجر التلاوة

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: الانشغال بالدُّنيا.

المطلب الثاني: ضعف الهمة.

المطلب الثالث: الجهل بثمرات قراءة القرآن.

المطلب الرابع: تقديم العلوم الأخرى على القرآن.

المطلب الخامس: الحرب المعلنة على القرآن واللغة.

أسباب هجر التلاوة

تمهيد:

كثير من المسلمين هجروا تلاوة القرآن هَجْراً لم تعرفه الأمة من قبل، فربما تمرُّ الأيام والأسابيع بل الشهور على بعض أبناء أمة القرآن، وأمة اقرأ، من غير أن يفتح مصحفاً، أو يقرأ آيات من كتاب الله، سوى التلاوة أثناء الصلاة، على الرغم من حرصهم الشديد على قراءة الصحف والمجلات، ومتابعة الفضائيات بلهف وشوق، والتي تعرض أخبار أهل اللُهو والفساد. ولكن من بيوت خربة، وصدور جوفاء تعيش بيننا، ولا تدري عن هذا الخراب شيئاً.

وهذه المظاهر المتنوعة لهجر تلاوة القرآن - التي تقدّم ذكرها - لها أسباب كثيرة ومتعددة تختلف من شخص لآخر، وسأبرز - في عجالة - أهم الأسباب التي تؤدي إلى هجر التلاوة، من خلال المطالب الآتية:

المطلب الأول

الانشغال بالدنيا

لقد انشغل النَّاس بالدنيا انشغالاً أدّى بهم إلى مواصلة الليل بالنَّهار؛ لسدِّ حاجاتهم الماديّة فضلاً عن الضَّروريّة، وقَلَّما يجد أحدهم وقتاً يقرأ فيه القرآن أو يستمع، فما أن يعود إلى بيته فيجد نفسه منهكاً متعباً يتمنّى رؤية الفراش، جرّاء لهائه وراء المصالح الدُّنيوية.

ولا أجد لهذا الصَّنْف من النَّاس مثلاً إلا ما قاله رسول الله ﷺ: «فَوَاللَّهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسِطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا، كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُلْهِيَكُمْ كَمَا أَلْهَتْهُمْ»^(١).

(١) رواه البخاري واللفظ له، كتاب الرِّفَاق، باب: ما يُخَذَّرُ مِنَ زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَالتَّنَافُسِ فِيهَا =

ولو يعلم هؤلاء الغاية التي خلَقُوا من أجلها؛ لتغيَّر حالهم، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥١) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿[الذاريات: ٥٦-٥٨]...
فهذا تصريح بأن الله تعالى خلَقهم لعبادته، فحقَّ عليهم أن يعتنوا بما خلَقوا من أجله، وأن يعرضوا عن حظوظ الدنيا بالرُّهْد فيها، فإنها دار نفاق لا محلَّ لإخلاد، ومركب عبور لا منزل حبور، فمُلْكها يفنى، وجديدها يبلى، وكثيرها يقل، وعزیزها يذل، وحيثها يصوت، وخيرها يفوت، ولهذا كان الأيقاظ من أهلها هم العباد، وأعقل الناس فيها هم الرُّهَّاد، وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ دَلًّا خَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥]...

فيلبغى للعاقل أن يعمل للأخرة، ويسعى لها، وأن يأخذ من الدنيا بقدر ما يوصله إلى الآخرة، قال الله تعالى: ﴿وَأَتَّبِعْ فِيهَا مِثْلَ مَا اتَّبَعْتَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَفْسَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُقْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤٧]...

ولقد أحسن القائل:
 إِنَّ اللَّهَ عِبَادًا فُطِنَا طَلَّقُوا الدُّنْيَا وَخَافُوا الْفِتْنَا
 نَظَرُوا فِيهَا فَلَمَّا عَلِمُوا أَنَّهَا لَيْسَتْ لِحَيِّ وَطْنَا
 جَعَلُوهَا لَجَّةً وَاتَّخَذُوا صَالِحَ الْأَعْمَالِ فِيهَا سَفْنَا^(١)

المطلب الثاني

ضعف الهمة

ضعف الهمة من الأمراض التي تكاد تعصف بالكثير من المسلمين، فلا تكاد تجد من يحافظ على شيء، أو يهتم به؛ لضعف الهمة، فما أن يمسك المرء المصحف يوماً حتى يتركه أياماً.

(١) انظر: رياض الصالحين للنووي (ص ٣)؛ فتح الرحمن في بيان هجر القرآن (ص ٢٢-٢٤).
 (٢٠١٩/٤) (ج ٦٤٢٥)، ومسلم، كتاب الرُّهْد والرفاق (٢٢٧٣/٤) (ج ٢٩٦٦)...

وقد تَضَعُفُ الهمةُ عن مطلبٍ من مطالب الدنيا، أمّا عن مطلبٍ من مطالب الآخرة فلا، وهذا ابن القيم رحمته الله يتحدث عن ضعف الهمة بقوله: «لا شيء أقبح بالإنسان أن يكون غافلاً عن الفضائل الدنيّة، والعلوم النّافعة، والأعمال الصّالحة، فمن كان كذلك فهو من الهَمَجِ الرَّعاع، الذين يُكْثِرُونَ الماء، ويغفلون الأسعار، إن عاش عاش غير حميد، وإن مات مات غير فقيد، فقدهم راحة للبلاد والعباد، ولا تبكي عليهم السّماء، ولا تستوحش لهم الفبراء...»

وهذا الصّنف شرُّ البريّة، يُضَيِّقُونَ الدّيار، ويغفلون الأسعار، وعند أنفسهم أنهم يعلمون، ولكن ظاهراً من الحياة الدّنيا، وهم عن الآخرة هم غافلون، ويعلمون ولكن ما يضرهم ولا ينفعهم، وينطقون ولكن عن الهوى ينطقون، ويتكلّمون ولكن بالجهل يتكلّمون...»^(١).

ومن الأدوية النّبويّة لعلاج ضعف الهمة: المداومة على الأعمال الصّالحة والاستمرار عليها، وإن قلّت.

فعن عائشة رضي الله عنها: أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وآله دَخَلَ عَلَيْهَا وَعِنْدَهَا امْرَأَةٌ، قَالَ: «مَنْ هَذِهِ؟» قَالَتْ: فُلَانَةٌ - تَذْكُرُ مِنْ صَلَاتِهَا - قَالَ: «مَهْ، عَلَيْكُمْ بِمَا تَطِيقُونَ، فَوَاللَّهِ لَا يَمَلُّ اللَّهُ حَتَّى تَمَلُّوا». وَكَانَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيْهِ مَا دَاوَمَ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ^(٢).

قال ابن الجوزي رحمته الله: «إنما أحبّ الدائم لمعتين: أحدهما: أن المُقْبِلَ على الله صلى الله عليه وآله بالعمل، إذا تركه من غير عذر، كان كالمُعْرِضِ بعد الوصل، فهو مُعْرِضٌ لِلذَّمِّ، ولهذا ورد الوعيد في حقِّ مَنْ حَفِظَ آيَةً ثُمَّ نَسِيَهَا^(٣)، وإن كان قبل

(١) مفتاح دار السعادة (١/١١٠، ١١٤).

(٢) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب: أحبّ الدّين إلى الله أدومُه (٣٨/١) (ح ٤٣).

(٣) الحديث الوارد في ذلك ضعيف، ولفظه: عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «عَرِضْتُ عَلَيَّ أَجُورُ أُمَّتِي، حَتَّى الْقَدَاةُ يُخْرِجُهَا الرَّجُلُ مِنَ الْمَسْجِدِ، وَعَرِضْتُ عَلَيَّ ذُنُوبُ أُمَّتِي، فَلَمْ أَرْ ذَنْبًا أَعْظَمَ مِنْ سُورَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ، أَوْ آيَةٍ أَوْيَتْهَا رَجُلٌ ثُمَّ نَسِيَهَا». رواه الترمذي (١٧٨/٥) (ح ٢٩١٦) وقال: «هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وذاكرت به محمد بن إسماعيل (أي: البخاري) فلم يعرفه واستغربه». وفي الحديث المُطَلِّبُ (الرّأوي عن أنس) لم يُعرف له سماعاً من الصّحابة، كما صرّح بذلك البخاري وابن المديني رحمهما الله. الشيخان

حِفْظُهَا لَا يَتَعَيَّنُ عَلَيْهِ الْحِفْظُ، وَلَكِنَّهُ أَعْرَضَ بَعْدَ الْمَوَاصِلَةِ، فَلَاقَ بِهِ الْوَعِيدَ، وَكَذَلِكَ يُكْرَهُ أَنْ يُوَثِّرَ الْإِنْسَانُ بِمَكَانِهِ مِنَ الصَّفِّ الْأَوَّلِ؛ لِأَنَّهُ كَالرَّائِبِ عَنِ الْقُرْبِ إِلَى اللَّهِ ﷻ، وَلِهَذَا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو: «لَا تَكُنْ مِثْلَ فُلَانٍ، كَانَ يَقُومُ اللَّيْلَ فَتَرَكَ قِيَامَ اللَّيْلِ»^(١).

وَالثَّانِي: أَنَّ مُدَاوِمَ الْخَيْرِ مُلَازِمٌ لِلخِدْمَةِ، فَكَأَنَّهُ يَتَرَدَّدُ إِلَى بَابِ الطَّاعَةِ كُلِّ وَقْتٍ، فَلَا يُنْسَى مِنَ الْبِرِّ لَتَرُدُّهُ، وَلَيْسَ كَمَنْ لَازِمَ الْبَابَ يَوْمًا دَائِمًا ثُمَّ انْقَطَعَ شَهْرًا كَامِلًا»^(٢).

وَفِي الْحَدِيثِ عِدَّةُ فَوَائِدَ ذَكَرَهَا النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ: «وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ كَمَالُ شَفَقَتِهِ ﷺ وَرَأْفَتُهُ بِأَمَّتِهِ؛ لِأَنَّهُ أَرْشَدَهُمْ إِلَى مَا يَصْلِحُهُمْ، وَهُوَ مَا يُمْكِنُهُمُ الدَّوَامُ عَلَيْهِ بِلَا مَشَقَّةٍ وَلَا ضَرَرٍ، فَتَكُونُ النَّفْسُ أَنْشَطَ وَالْقَلْبُ مَنْشَرِحًا فَتَنْتِمُ الْعِبَادَةُ، بِخِلَافِ مَنْ تَعَاطَى مِنَ الْأَعْمَالِ مَا يَشَقُّ، فَإِنَّهُ بِصَدْدٍ أَنْ يَتْرَكَهُ، أَوْ بَعْضَهُ، أَوْ يَفْعَلُهُ بِكُلْفَةٍ، وَبِغَيْرِ انْشِرَاحِ الْقَلْبِ فِي فَوْتِهِ خَيْرٌ عَظِيمٌ...

وَفِيهِ الْحِثُّ عَلَى الْمُدَاوِمَةِ عَلَى الْعَمَلِ، وَأَنَّ قَلِيلَهُ الدَّائِمُ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ يَنْقَطِعُ. وَإِنَّمَا كَانَ الْقَلِيلُ الدَّائِمُ خَيْرًا مِنَ الْكَثِيرِ الْمُنْقَطِعِ؛ لِأَنَّ بَدْوَامَ الْقَلِيلِ تَدْوِمُ الطَّاعَةِ، وَالذِّكْرِ، وَالْمِرَاقِبَةِ، وَالنِّيَّةِ، وَالْإِخْلَاصِ، وَالْإِقْبَالِ عَلَى الْخَالِقِ ﷻ، وَيُثْمَرُ الْقَلِيلُ الدَّائِمُ بِحَيْثُ يَزِيدُ عَلَى الْكَثِيرِ الْمُنْقَطِعِ أَضْعَافًا كَثِيرَةً»^(٣).

وَهَكَذَا كَانَ عُلَمَاؤُنَا - رَحِمَهُمُ اللَّهُ - أَعْرَفَ بِدَقَائِقِ النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ مِنْ عُلَمَاءِ النَّفْسِ الْيَوْمِ.

= وَضَعْفُهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «ضَعِيفِ سَنَنِ التِّرْمِذِيِّ» (ص ٣٥١) (ح ٥٥٨)؛ وَ«ضَعِيفُ الْجَامِعِ الصَّغِيرِ» (٩/٤) (ح ٣٧٠٢).

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ، كِتَابُ التَّهَجُّدِ، بَابُ: مَا يُكْرَهُ مِنْ تَرْكِ قِيَامِ اللَّيْلِ لِمَنْ كَانَ يَقُومُهُ (١/٣٤٣) (ح ١١٥٢)؛ وَمُسْلِمٌ، كِتَابُ الصَّيَامِ، بَابُ: النَّهْيُ عَنْ صَوْمِ الدَّهْرِ... (٤١٨/٢) (ح ١١٥٩).

(٢) كَشَفُ الْمُشْكَلِ مِنْ حَدِيثِ الصَّحِيحِينَ (٤/٢٧٨ - ٢٧٩).

(٣) صَحِيحُ مُسْلِمٍ بِشَرْحِ النَّوَوِيِّ (٦/٧١).

المطلب الثالث

الجهل بثمرات قراءة القرآن

إنَّ جهل الكثير من أبناء المسلمين بثمرات تلاوة القرآن، وفضائلها من الثواب المترتب على ذلك، والمصالح الدنيويَّة والأخرويَّة، لمن أكبر الدَّواعي لهجر التلاوة، وعدم الاعتناء بها والحرص عليها.

ولو يعلم المسلم ما في تلاوة القرآن العظيم من الفضل العظيم، والثَّواب الجزيل، ومنزلة قارئه في الدُّنيا والآخرة؛ لجعله أنيسه أثناء اللَّيل وأطراف النَّهار، وما غفل عنه طرفة عين.

ومن ثمرات التَّلاوة التي جاءت بها الأحاديث الصَّحيحة، والآثار الواردة عن الصَّحابة والتَّابعين ما يلي:

- ١ - أن قارئ القرآن في مصناف العظماء، ومن أفضل النَّاس، وأعلامهم درجة.

- ٢ - يُكتب للقارئ عن كلِّ حرفٍ حسنةٌ، والحسنةُ بعشر أمثالها.

- ٣ - تشمل القارئ ظلَّة الرَّحمة، ويحاط بالملائكة، وتنزل عليه السَّكينة.

- ٤ - يُضيء الله قلب القارئ، ويقيه ظلمات يوم القيامة، ويُبعد عنه الشَّدائد.

- ٥ - القارئ رائحته زكيَّة، ومذاقه حلُّو كالأترجة، ومن هنا فهو جليس صالح يقترب إليه الصَّالحون العاملون؛ ليشمُّوا من عطره، وينفحوا من شذاه.

- ٦ - قارئ القرآن لا يحزنه الفزع الأكبر؛ لأنَّه في حماية الله، ولأنَّ القرآن يشفع له.

- ٧ - قارئ القرآن سبب في رحمة والديه، وإغداقهما بالنَّعيم، جزاء قراءة ابنتهما.

- ٨ - قارئ القرآن يوقى إلى قَمَّة المعالي في الجنَّة، ويصعد إلى ذُرَّة النِّعيم.

- ٩ - يغبط الصَّالحون قارئ القرآن ويتمنُّون أن يكونوا في درجته السَّامية عند الله تعالى، ويودُّون أن يعملوا مثله.

- ١٠ - قارئ القرآن تدعو له الملائكة الكرام بالرحمة والمغفرة.

- ١١ - قارئ القرآن مُستمسك بالعروة الوثقى، ويتمتع بالشفاء الناجع، ويُعصم من الزَّيغ، وينجو من الشَّدائد.
- ١٢ - قارئ القرآن من أهل الله وخاصَّته المتقرِّبين إليه، ومن العاملين السَّعُوفين بطاعة الله والقانتين له^(١).
- ١٣ - قارئ القرآن يرتفع به درجات في الدُّنيا أيضاً، إذ يرفع الله به أقواماً، ويخفض آخرين، ممَّن أعرضوا عنه أو هجروه.
- ١٤ - قارئ القرآن يُكتب عند الله من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات، والقانتين والقانتات.
- ١٥ - الماهر بالقرآن يُبعث يوم القيامة مع السَّفرة الكرام البررة.
- ١٦ - قارئ القرآن تبتعد عنه الشَّياطين، وتخرج من بيته.
- ١٧ - قارئ القرآن يستنير عقله، ويمتلئ قلبه بالحكمة، وتتفجَّر منه ينابيع العلم.
- ١٨ - قارئ القرآن فيه قَبَسٌ من النُّبوة، غير أنَّه لا يُوحى إليه.
- ١٩ - حامل القرآن لا يجهل مع مَنْ يجهل؛ لأنَّ القرآن في خوفه، يحميه من الحدة والغضب.
- ٢٠ - بتلاوة القرآن الكريم تهمر القلوب والبيوت، ويُعمَّها الخير والبركة.
- ٢١ - تلاوة القرآن تُورث القلب خشوعاً، والتَّفكير صفاءً.
- ٢٢ - قارئ القرآن يسأل الله تعالى به فيجيبه، ولا سيَّما عند دعاء الختم، فضلاً عن الله تعالى وكرماً.
- ٢٣ - أهل القرآن يذكُرهم الله ﷻ فيمنَّ عنده، وكفى بذلك فضلاً وشرافاً.
- ٢٤ - في تلاوة القرآن غنى لأهله، تَسَعِدُ به قلوبهم كما يَسَعِدُ صاحب الأموال بماله، وهو غنى لا دَخَلَ فيه^{(٢)(٣)}.

(١) انظر: تعليق مصطفى محمد عمارة على «الترغيب والترهيب»، للمنفرد (٢/٣٥٨).

(٢) انظر: موسوعة فضرة النعيم (٤/١١٨٣).

(٣) انظر: المبحث الرابع «فضائل تلاوة القرآن» من هذا الفصل.

المطلب الرابع

تقديم العلوم الأخرى على القرآن

من تلبس إبليس على بعض الناس أن يشغله بطلب شتى العلوم سوى علم الكتاب والسنة، ويوهمه أنه على سبيل نجاة ما دام يطلب العلم، فأى علم حصل من فاته علم الكتاب والسنة؟ وأي خير فاته؟ بل القرآن العظيم مُقدّم في الطلب حتى على تعلم السنة.

قال حذيفة رضي الله عنه: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَدِيثَيْنِ، رَأَيْتُ أَحَدَهُمَا وَأَنَا أَنْتَظِرُ الْآخَرَ: حَدَّثَنَا: «أَنَّ الْأَمَانَةَ نَزَلَتْ فِي جَذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ، ثُمَّ عَلِمُوا مِنَ الْقُرْآنِ، ثُمَّ عَلِمُوا مِنَ السُّنَّةِ»^(١).

قال ابن حجر رحمته الله: «قوله: (ثُمَّ عَلِمُوا مِنَ الْقُرْآنِ، ثُمَّ عَلِمُوا مِنَ السُّنَّةِ) كذا في هذه الرواية بإعادة (ثُمَّ)، وفيه إشارة إلى أنهم كانوا يتعلمون القرآن قبل أن يتعلموا السنن، والمراد بالسنن: ما يتلقونه عن النبي ﷺ واجباً كان أو مندوباً»^(٢).

فعدم المنهجية لدى كثير من طلاب العلم، وعدم التلقي عن العلماء يجعلهم يتخبطون في الطلب حتى يقدموا كلام البشر على كلام رب البشر، ويقبلوا على حفظ المتون في شتى الفنون، وما حفظوا كلام الله الذي هو أساس العلوم وأهمها وأهمها، وما هكذا فعل السلف الصالح، ولا هذه طريقتهم في طلب العلم، ولم يكن هذا هديهم المبارك^(٣).

قال شعبة بن الحجاج^(٤) رحمته الله - لأصحابه: «يا قوم إنكم كلّمّا تقدّمتم في

(١) رواه البخاري، كتاب الفتن، باب: إذا بقي في حُثالة من الناس (٢٢١٧/٤) (ح ٧٠٨٦).

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٥٠/١٣).

(٣) انظر: الكلمات الحسان (ص ٥).

(٤) هو شعبة بن الحجاج بن الورد العتكي، مولا هم، الواسطي، ثم البصري، أبو بسطام، من الثقات الأئمة الحفاظ المتيقنين، قال ابن حجر رحمته الله: «كان الثوري يقول: هو أمير المؤمنين في الحديث، وهو أول من فُتّش بالعراق عن الرجال، وذُبّ عن السنة، وكان عابداً، من السابعة». توفي سنة (١٦٠هـ). انظر: تقريب التهذيب (١/٣٥١).

الحديث تأخّرتهم في القرآن^(١) ودخل بعض فقهاء مصر على الإمام الشافعي رحمته الله المسجد، وبين يديه المصحف، فقال لهم: «شغلكم الفقه عن القرآن، إني لأصلي العتمة وأضع المصحف في يدي، فما أطبقه حتى الصبح»^(٢).

فما الذي شغلنا - في هذا الزمان - عن القرآن؟ فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، نتوب إلى الله من ضياع الأوقات والأعمار.

وسئل ابن تيمية رحمته الله عن الذي يُقدّم في الطلب: حفظ القرآن أو العلم؟ فأجاب قائلاً: «أما العلم الذي يجب على الإنسان عيناً كعلم ما أمر الله، وما نهى الله عنه، فهو مُقدّم على حفظ ما لا يجب من القرآن، فإنّ طلب العلم الأوّل واجب، وطلب الثاني مُستحب، والواجب مُقدّم على المستحب.

وأما طلب حفظ القرآن: فهو مُقدّم على كثير ممّا تُسمّيه النَّاس علماء: وهو إمّا باطل، أو قليل النّفع. وهو أيضاً مُقدّم في التّعلّم في حقّ مَنْ يريد أن يتعلّم علم الدّين من الأصول والفروع، فإنّ المشروع في حقّ مثل هذا في هذه الأوقات أن يبدأ بحفظ القرآن، فإنّه أصل علوم الدّين، بخلاف ما يفعله كثير من أهل البدع من الأعاجم وغيرهم، حيث يشتغل أحدهم بشيء من فضول العلم من الكلام، أو الجدل، والخلاف، أو الفروع النّادرة، أو التّقليد الذي لا يحتاج إليه، أو غرائب الحديث التي لا تثبت ولا ينتفع بها، وكثير من الرّياضيّات التي لا تقوم عليها حُجّة، ويترك حفظ القرآن الذي هو أهمّ من ذلك كلّ»^(٣).

وليس في هذا دعوة إلى التّكاسل أو التّباطؤ عن تحصيل العلم النّافع، ونخصّ العلم المدني الذي يعمل على تقدّم الأُمَّة ورقّيّها، فنحن مع الدّاعين إلى الأخذ بأسباب الحياة والرّقيّ بالأُمَّة، ولكننا نعتب على مَنْ يُحاولون إيهامنا - ظلماً وبهتاناً - أنّ هذه العلوم تكفي، محاولين تصنيف العلم إلى شرعي، وغير شرعي، وأنّ لكلّ طّلابه ودارسيه، بل إنّنا نرى أنّ دراسة هذه العلوم ضرورة شرعيّة تأثم

(١) سير أعلام النبلاء (٢٢٣/٧)؛ تذكرة الحفاظ (١٩٦/١)؛ حلية الأولياء (١٤٥/٧).

(٢) البرهان في علوم القرآن (٤٦٢/١). وانظر: إحياء علوم الدّين (٢٧٩/١).

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية (٥٤/٢٣ - ٥٥).

المطلب الخامس

لَمَّا عَجَزَ أَعْدَاءُ اللَّهِ عَنِ السَّيْطَرَةِ عَلَى بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ عَنْ طَرِيقِ الْغَزْوِ الْعَسْكَرِيِّ، إِذَا بِهِمْ يَلْجَأُونَ إِلَى حِيلٍ مَآكِرَةٍ، وَطُرُقٍ مُلْتَوِيَةٍ؛ لِلْقَضَاءِ عَلَى الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ عَنْ طَرِيقِ الْغَزْوِ الْفِكْرِيِّ، وَعَمَلُوا عَلَى إِبْعَادِ الْمُسْلِمِينَ عَنْ كِتَابِهِمُ - الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ - الَّذِي مِنْهُ يَسْتَمْتِدُّونَ مِنْهُمْ وَأَسْلُوبِ حَيَاتِهِمْ، وَيَتَضَحَّ ذَلِكَ مِنْ خِلَالِ تَصْرِيحَاتِهِمُ الْمَعْلَنَةِ.

* ما قاله جلاستون - رئيس وزراء إنجلترا - وقد وقف في أواخر القرن الماضي في مجلس العموم البريطاني، وقد أمسك بيده القرآن المجيد، ووصاح في أعضاء البرلمان، قائلاً: «إن العقبة الكنود أمام استقرارنا بمستعمراتنا في بلاد المسلمين هي شيثان، ولا بدّ من القضاء عليهما مهلاً كلفنا الأمر: أولهما: هذا الكتاب، وسكت قليلاً، بينما أشار بيده الأخرى نحو الشرق، وقال: هذه الكعبة»^(١).

* وقال أيضاً: «ما دام هذا القرآن موجوداً في أيدي المسلمين، فلن تستطيع أوروبا السيطرة على الشرق، ولا أن تكون هي نفسها في أمان»^(٢).

* وقال أيضاً: «لن تستقيم حالة الشرق ما لم يُرفع الحجاب عن وجهه

ولقد لقيت العلاقة المتينة والرابطة القويّة بين اللّغة العربيّة وعلوم الإسلام المختلفة أنظاراً أعداء الإسلام، فقاموا بالتّخطيط والتّدير للهجوم على لغة القرآن بكلّ ما أوتوا من قوّة، مستخدمين كلّ الوسائل الممكنة من أجل القضاء على هذه

- (١) الحركات النسائية في الشرق وصلتها بالاستعمار والصهيونية العالمية، لمحمد فهمي عبد الوهاب (ص ٧)، ط ١، (١٩٦١)، القاهرة: دار الفكر العربي.
- (٢) الإسلام على مفترق الطرق، لمحمد أسد (ص ٣٩)، ط ١، (١٩٦٢)، بيروت: دار الفكر العربي.
- (٣) المرأة ومكانتها في الإسلام، لأحمد عبد العزيز الخطيب (ص ١٢)، ط ١، (١٩٦٢)، بيروت: دار الفكر العربي.

اللغة العظيمة - لغة القرآن - والنَّيل منها، لا لكونها لغة من اللغات الحيَّة التي يتكلَّم بها قوم أو جنس معيَّن، بل لكونها لغة القرآن الكريم، ولغة المسلمين التي يتوقَّف عليها فهم الدِّين، واستيعاب أحكامه وتعاليمه.

وكان هاجس الوحدة بين المسلمين ممَّا يقلق أعداء الإسلام، وبما أنَّ هذه اللغة من العوامل الرَّئيسة في توحيد الأُمَّة الإسلاميَّة، رأى أعداؤها أنَّ تحطيم هذه اللغة سيساعد بلا شك في تفتيت الوحدة الكبرى المأمولة بين الشُّعوب الإسلاميَّة، وسيُضعف الأمل في تحقيقها في العصر الحاضر^(١).

* وها هو أحد الغربيِّين يقول: «مضى توارى القرآن ومدينة مكَّة من بلاد العرب، يمكننا حينئذٍ أن نرى العربيَّ يتدرَّج في سبيل الحضارة، التي لم يُبعده عنها إلاَّ محمد ﷺ وكتابه، ولا يمكن أن يتوارى القرآن حتَّى تتوارى لغته»^(٢).

إذن هدف هؤلاء الأعداء هو إقصاء القرآن عن التَّأثير في حياة الأُمَّة، لا ليتدرَّجوا في سبيل الحضارة كما يزعمون، ولكن ليسهل عليهم إذلال هذه الأُمَّة، وضمان تبعيَّتها للغرب.

* وهذا الحاكم الفرنسي في الجزائر: يقول - في ذكرى مرور مائة سنة على استعمار الجزائر: «إنَّا لن ننتصر على الجزائريِّين ما داموا يقرؤون القرآن، ويتكلَّمون العربية، فيجب أن نزيل القرآن العربيَّ من وجودهم، ونقتلع اللِّسان العربيَّ من ألسنتهم»^(٣).

* وهذا اللُّورد كرومر يقول: «جئت لأمحو ثلاثاً: القرآن، والكعبة، والأزهر»^(٤).

* وكان الجنديُّ الإيطالي: يرتدي لباس الحرب قادماً لاحتلال بلاد الإسلام، وهو يُنشدُّ^(٥) بأعلى صوته: «يا أمَّاه! أتمِّي صلاتك... ولا تبكي...»

(١) انظر: لغة القرآن: مكائنها والأخطار التي تهددها، د. إبراهيم أبو عباة.

(٢) الفصحى لغة القرآن، لأنور الجندبي (ص ١٦٦)؛ أباطيل وأسما، لمحمود شاكر (ص ١٥٨).

(٣) قادة الغرب يقولون: دمروا الإسلام أيدو أهله، لجلال العالم (ص ٣١).

(٤) الخنجر المسموم الذي طعن به المسلمون، لأنور الجندبي (ص ٢٩).

(٥) هذه الأنشودة المشهورة تُسمَّى: (أغنية الفاشيست) كانت جيوش الطليان الجَّوَّارة تترنَّم بها =

بل اضحكي وتأملني... ألا تعلمين أن إيطاليا تدعوني... وأنا ذاهب إلى طرابلس فرحاً مسروراً... لأبذل دمي في سبيل سحق الأمة الملعونة... ولأحارب الديانة الإسلامية... سأقاتل بكل قوتي لمحو القرآن...»^(١).

أساليب الأعداء في محاربة القرآن ولغته:

اتَّخذوا في ذلك أساليب شتى، منها:

- ١ - الازدراء بحفظة القرآن الكريم، والعلماء، والدعاة، وتصويرهم بصورة قبيحة حتى يُحال بينهم وبين مجتمعاتهم.
 - ٢ - الشُّخْرة من اللغة العربية - لغة القرآن الكريم -، ومهاجمتها من حين لآخر، والدعوة إلى العامية، وإحياء اللهجات المحلية، ورفع شأن اللغات الأخرى؛ مما أدى إلى إهمال تدريس اللغة العربية في المراحل التعليمية المختلفة، حتى نشأ جيل من أبناء المسلمين يجهل القراءة في المصحف، ولا يكاد يقرأ سطرًا صحيحًا، على الرغم من حصوله على أعلى الشهادات، وإتقانه العديد من اللغات الأخرى، ولا حول ولا قوة إلا بالله.
 - ٣ - إغراق المجتمعات المسلمة بالحشد الهائل من الصحف والمجلات، التي تبعد عن الله، وتُقرب من الشيطان، وتنتشر الفاحشة والرذيلة، وأصدق وصف لها أنها: حمالة للكذب، قتالة للوقت.
 - ٤ - تدمير عقيدة المسلمين وأخلاقهم وذلك من خلال البث المباشر، والقنوات الفضائية التي تُعرض على شاشات التلفاز^(٢).
- وقد كان لهذه الأساليب الماكرة أثر كبير في انشغال المسلمين عن كتاب ربهم بمتابعتهم لهذه القنوات الفضائية، وتلك الصحف والمجلات؛ فهجروا تلاوته، فضلًا عن هجر أحكامه، وآدابه، والعمل بما فيه.

= برقة وبصوت واحد، وهي تسير مدججة بالسلاح في طرق طرابلس.
انظر: عودة الحجاب، لمحمد بن أحمد المقدم (ص ٩٣).

(١) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، د. محمد محمد حسين (١٥٧/٢).
وانظر: القومية والغزو الفكري (ص ٢٠٨).

(٢) انظر: فتح الرحمن في بيان هجر القرآن (ص ٢٩).

آداب وأحكام تلاوة القرآن

تمهيد:

من حقّ كتاب الله علينا أن نُدّاوم على تلاوته، ونُكثّر من قراءته، ذلك أنّ القلوب يغشاها الرّينُ بمباشرة المعاصي والآثام، فيذهب بصفائها كما يغشى الصّدأ وجه المِرآة والسّيف، وقراءة القرآن تُزيل هذا الغطاء وتُعيد القلب المؤمن إلى حالة الإيمان والنّقاء، وتُجدّد فيه محبّة العمل الصّالح والرّغبة في اكتسابه.

وما تقرب المتقربون إلى ربّهم الكريم بأفضل من تلاوة كتابه المجيد، والوقوف عند معانيه وحدوده؛ فحريّ بنا أن نُضرب بسهم وافر من ذلك، ومن رحمة الله بعباده وفضله عليهم: أن شرّع لهم ما يتعبّدون به إليه سبحانه.

ولقد جاء الإسلام بآداب عامّة شملت جوانب الحياة، فبعدما رسخت العقيدة الصّحيحة في قلوب النّاس ناداهم القرآن العظيم وندبهم الرّسول الأمين ﷺ إلى هذه الآداب العالية.

ومن تلك الآداب: آداب الاستئذان، والسّلام، والمجالس، والكلام، والنّوم، والأكل والشّرب، والجوار، والعطاس والتّثاؤب، وعشرة النّساء، وغير ذلك في كلّ ميادين الحياة الدّنيا، وهناك آداب الشّعائر الإسلاميّة، كأداب الصّلاة، والزّكاة، والصّوم، والحجّ، وغيرها من العبادات.

ومن هنا: كان من باب أولى أن تكون للقرآن آدابه، فهو أحقُّ بالأدب وأجدر أن يتأدّب معه النّاس؛ لأنّه كلام الله تعالى، والقارئ يتلو كلام ربّ العالمين، فكان من الأليق أن يكون المسلم في حالة المناجاة لربّه في أحسن هيئة وأكمل صورة، ولا يكون ذلك إلّا بسلوكه هذا المسلك.

وقد أولى سلفنا الصّالح هذا الأمر عنايةً بالغة، معتمدين في ذلك على نصوص الوحيين: الكتاب والسّنة، وما أدّاه إليه اجتهادهم وحرصهم على تعظيم

القرآن وإجلاله، فالتزموا آداباً في التعامل معه، وسلكوا طرقاً شتى تدلُّ على احترامه وتوقيره عندهم، يَدْعُونَ غيرهم إلى ذلك إذ أَنَّهُم القدوة والأسوة، ويحذرون من كلِّ قولٍ أو تصرفٍ فيه تنقُّصه، أو الإخلال بمنزلته، بل يُنكرون على مَنْ يُخلُّ بآدابه، وبما يجب تجاهه، أو يتهاون في ذلك، وهذا الاحترام والإجلال موصولٌ لحملته وأهله المعتنين به، فهم أهل الله وخاصته.

ولكي تكون التلاوة نافعةً تُعطي ثمارها من التدبُّر والتأثر والاستقامة، وتؤدي كما كان يؤدِّيها رسول الله ﷺ وصحابته الكرام رضي الله عنهم، فلا بدَّ من ملاحظة آدابها وأحكامها، والالتزام بذلك قبيل التلاوة وأثناءها^(١)، وهي على النحو الآتي.

١ - إخلاص النية لله تعالى:

ينبغي أن يكون قارئ القرآن الكريم مُخلصاً في نيته، متجرداً من كلِّ غرض دنيوي، يبتغي الأجر والثواب من المولى تبارك وتعالى، وأن يحذر الرياء والإعجاب بالنفس؛ لأنَّ التلاوة أحدُ أفعال المكلف التي يُشترط لصحتها وقبولها عند الله تعالى النية الخالصة لوجهه الكريم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ بِالْحَقِّ فَاغْتَبِ اللَّهَ مَخْلَصاً لَهُ الذِّكْرُ ۝ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٢ - ٣].

قال النووي رحمه الله في سياق كلامه عن آداب قارئ القرآن: «وينبغي ألا يقصد به توصلاً إلى غرض من أغراض الدنيا من مال، أو رياسة، أو وجاهة، أو ارتفاع على أقرانه، أو ثناء عند الناس، أو صرف وجوه الناس إليه، أو نحو ذلك»^(٢).

(٢) من أشهر الذين تحدثوا عن آداب تلاوة القرآن الكريم: أبو بكر الأجرى في «أخلاق حملة القرآن» (ص ٧٣ - ٨٣)؛ وأبو حامد الغزالي في «إحياء علوم الدين» (١/ ٢٨٠ - ٢٨٨)؛ والقرطبي في «التذكار في أفضل الأذكار» (ص ١٧١ - ١٨٩)؛ والنووي في «التيان في آداب حملة القرآن» (٩٥ - ١٩٥)؛ و«الأذكار» (ص ١٥٣ - ١٦٦)؛ وابن مفلح في «الآداب الشرعية» (٣٠١/ ٢ - ٣١٢)؛ وابن قدامة المقدسي في «مختصر منهاج القاصدين» (ص ٥٤ - ٥٧)؛ والشوطي في «الإتقان في علوم القرآن» (ص ٢٥٦ - ٢٨١).

(٢) التيان في آداب حملة القرآن (ص ١٨ - ١٩).

٢ - العمل بالقرآن :

وذلك بتحليل حاله، وتحريم حرامه، والوقوف عند نهيه، والامتناع بأمره، والعمل بمحكمه، والإيمان بمتشابهه، وإقامة حدوده وحروفه.

ولقد ورد نهى شديد، ووعد أكيد، فيمن آتاه الله القرآن ثم لم يعمل به، فقد جاء من حديث سُمرة بن جندب رضي الله عنه في رؤيا النبي ﷺ الطويلة: «... قَالَ: انْطَلِقْ، فَانْطَلَقْنَا، حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ عَلَى قَفَاهُ، وَرَجُلٌ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِهِ بِفِهْرٍ، أَوْ صَخْرَةٍ، فَيَسْدُخُ بِهِ رَأْسَهُ، فَإِذَا ضَرَبَهُ تَذَمَّدَ الْحَجَرُ، فَانْطَلَقَ إِلَيْهِ لِيَاخُذَهُ، فَلَا يَرْجِعُ إِلَى هَذَا، حَتَّى يَلْتَمِسَ رَأْسَهُ، وَعَادَ رَأْسُهُ كَمَا هُوَ، فَعَادَ إِلَيْهِ فَضَرَبَهُ، قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: انْطَلِقْ...».

(ثُمَّ بَيَّنَ لَهُ ذَلِكَ ﷺ)

«... وَالَّذِي رَأَيْتُهُ يَسْدُخُ رَأْسَهُ، فَرَجُلٌ عَلَّمَهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ، فَنَامَ عَنْهُ بِاللَّيْلِ، وَلَمْ يَعْمَلْ فِيهِ بِالنَّهَارِ، يُفْعَلُ بِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ...» الحديث ^(١).

٣ - إجلال القرآن وتعظيمه :

يجدر بقارئ القرآن الكريم أن يراعي أثناء تلاوته لكتاب الله تعالى ما يتناسب وعظمة القرآن وجلاله فيستشعر أنه يناجي الله تبارك وتعالى، وأن الله يُناجيه، ويجتنب كل ما من شأنه أن يُخلَّ بأدب المناجاة كالضحك، والحديث، والعبث باليد، والنظر إلى ما يلهي، أو لا يجوز النظر إليه، ونحو ذلك ^(٢).

٤ - تلاوة القرآن على طهارة :

يُستحب للقارئ أن يقرأ القرآن وهو على وضوء وطهارة، وهذا أيضاً من إجلال القرآن الكريم:

* عن أبي الجُهَيْنِم رضي الله عنه قال: «أَقْبَلَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ نَحْوِ بَيْتٍ جَمَلٍ، فَلَقِيَهُ

(١) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب: ما قيل في أولاد المشركين (٤١١/١) (ج ١٣٨٦).

(٢) انظر: المصدر السابق (ص ١٢٠).

رَجُلٌ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ، حَتَّى أَقْبَلَ عَلَى الْحِدَارِ، فَمَسَحَ بِوَجْهِهِ وَيَدَيْهِ، ثُمَّ رَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ^(١).

فإذا كان هذا في مُجَرَّد رَدِّ السَّلَام؛ فلأن يكون في تلاوة كتاب الله تعالى - التي هي أعظم الذِّكْرِ - من باب أولى^(٢).

* وعن المُهَاجِرِ بْنِ قُنْفُذٍ: أَنَّهُ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَبُوءُ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ حَتَّى تَوَضَّأَ، ثُمَّ اغْتَدَرَ إِلَيْهِ، فَقَالَ:

«إِنِّي كَرِهْتُ أَنْ أَذْكَرَ اللَّهَ ﷻ إِلَّا عَلَى طَهْرٍ»، أَوْ قَالَ: «عَلَى طَهَارَةٍ»^(٣).

قال النووي رحمه الله: «فإن قرأ مُخَدِّثاً جاز ذلك بإجماع المسلمين، والأحاديث فيه كثيرة معروفة. قال إمام الحرمين: ولا يقال ارتكب مكروهاً، بل هو تارك للأفضل»^(٤).

٥ - اختيار الوقت المناسب:

تلاوة القرآن العظيم جائزة في كل الأوقات، ولا تُكره في شيء منها بسبب ذلك الوقت نفسه، وهناك أوقات لها أولوية يتجلى الله تعالى فيها على عباده، وتنزل فيها فيوضات رحمته، وأفضلها ما كان في الصَّلَاة. ثم ما كان في الثلث الأخير من الليل وقت السَّحَر، ثم قراءة الليل، ثم قراءة الفجر، ثم قراءة الصُّبْح، ثم باقي أوقات النَّهَارِ^(٥).

وتزداد المثوبة مع ازدياد المشقة في قراءة القرآن والاستعداد لها، قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ يَمَلِّ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧]. ومع وجود أولوية

(١) رواه البخاري، كتاب التَّيَمُّم، باب: التَّيَمُّمُ فِي الْحَضَرِ، إذا لم يجد الماء وخاف قَوَتْ الصَّلَاةُ (١/١٢٦) (ج ٣٣٧).

(٢) انظر: الكلمات الحسان (ص ٢٠٢).

(٣) رواه أبو داود (٥/١) (ج ١٧)؛ وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٦/١) (ج ١٣).

(٤) التبيان في آداب حملة القرآن (ص ٩٧).

(٥) انظر: المصدر نفسه (ص ١٨٩)؛ المجموع (٢/١٩١)؛ الأذكار (ص ١٥٦)؛ الإتقان في علوم القرآن (١/٢٩٢).

لبعض الأوقات في قراءة القرآن، فإنَّ المسلم مدعوٌّ إلى قراءة القرآن في أيِّ وقت يتسنى له ذلك. سواء كان في عمله، أو بيته، أو سفره، أو حضره، أو وقت راحته.

ومع كثرة مشاغل الحياة الدنيا وضغوطها في العصر الحاضر، يجدرُ بالمسلمين أن يتهزوا كلَّ فرصة لهذه العبادة الجليلة، وقد تيسَّر ذلك ما لم يتيسَّر من قَبْلُ قراءة واستماعاً، بما قدَّمه العلم من مصاحف بأحجام متنوعة، أو أجزاء متفرقة من القرآن، أو تسجيلات مسموعة أو مرئية^(١).

٦ - اختيار المكان المناسب:

يُستحب أن تكون التلاوة في مكان نظيف مُختار، ولهذا استحبَّ جماعة من أهل العلم أن تكون قراءة القرآن في المسجد؛ لكونه جامعاً للطَّائفة وشرف البقعة^(٢)، وحبذا لو خَصَّص المسلم ركناً في بيته يفرِّغه من الموانع والشواغل والتشويش، ويُبعد عنه الضجيج والضياح والكلام الدنيوي ولعب الأطفال وعيبتهم^(٣).

وقد ذكر القرطبي رحمته الله من آداب تلاوة القرآن: «ألا يُقرأ في الأسواق، ولا في مواطن اللغو واللغو، ومجمع السفهاء، ألا ترى أن الله تعالى ذكَّرَ عباده الرَّحمن وأثنى عليهم بأنهم: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢]. هذا المرور بنفسه، فكيف إذا مرَّ بالقرآن الكريم تلاوةً بين ظهري أهل اللغو ومجمع السفهاء؟»^(٤).

وأما التلاوة في الطَّريق، وعلى الرَّاحلة، ونحو ذلك، فالصَّحيح أنها جائزة، غير مكروهة إذا لم ينشغل القارئ عن قراءته.

فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُعْقِلٍ رضي الله عنه قَالَ: «رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ، وَهُوَ

(١) انظر: كيف تتوجه إلى العلوم والقرآن الكريم مصدرها (ص ٣٩).

(٢) انظر: التبيان في آداب حملة القرآن (ص ١٠٠) ٧٧٢.

(٣) انظر: مفاتيح للتعامل مع القرآن (ص ٥١).

(٤) التذكار في أفضل الأذكار (ص ١٨٤ - ١٨٥).

يَقْرَأُ عَلَى رَأْسِهِ سُورَةَ الْفَتْحِ^(١) وهي سُنَّةٌ لا بد من إحياؤها في ركوبنا للمختلف وسائل التنقل المريحة في هذا الزمان خصوصاً أن بعض رحلات التنقل البرية، أو الجوية، أو البحرية تستغرق الساعات الطوال وربما الأيام المتتابعة. فإن انشغل عنها كانت مكروهة مخافة الخلط، كما تكره القراءة في الأماكن الممتلئة، مثل الحمام وغيرها^(٢) وعلى كل حال: فينبغي أن يكون المكان خالياً من كل ما يشغل البال، وينحصر من وجوده الوسواس والاشتغال، فإن ذلك أقرب إلى حضور القلب، وأبعد عن الرياء والمباهاة، وأعون على تدبر ما يتلوه من الآيات، ولا ريب أن هذه الحالة مما يخالفها^(٣).

٧- حُسْنُ الْجِلْسَةِ واستقبال القبلة: لا بد للقارئ من جلسة مناسبة وهينة صالحة تظهر فيها عبوديته لله، ويزر فيها تذله وخضوعه؛ ليكون ذلك أعون على الانتفاع بالتلاوة. قال القرطبي رحمه الله: «يُستحب أن يستوي له قاعداً إن كان في غير صلاة، ولا يكون متكئاً»^(٤) أفضل اتجاه استقبال القبلة:

ويستحب للقارئ أن يستقبل القبلة^(٥)؛ لأن هذا أفضل اتجاه، والقبلة هي الجهة التي يتوجه إليها العابدون، والداعون، والمتقربون إليه تعالى، كيف وقد حثهم على ذلك بقوله: «قُلْ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ» [البقرة: ١٤٤].

قال النووي رحمه الله: «وهذا هو الأكمل، ولو قرأ قائماً، أو مضطجاً، أو في

(١) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب القراءة على الدابة (٣/١٦٢١) (ج ٥، ص ٣٤).

(٢) انظر: التبيان في آداب حملة القرآن (ص ١٠٢).

(٣) انظر: الكلمات الحسان (ص ٢٠٣). (٤) التذكار في أفضل الأذكار (ص ١٧٢).

(٥) انظر: المصدر نفسه (ص ١٧٢)، التبيان في آداب حملة القرآن (ص ١٠٢).

فراشه، أو غير ذلك من الأحوال جاز، وله أجر، ولكن دون الأول^(١).
وذلك لأن الله تعالى يقول: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَكَيُّ فِي حِجْرِي وَأَنَا حَائِضٌ، فَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ»^(٢).

وهذه من الأفعال التي كان يعملها رسول الله ﷺ أحياناً لبيان جوازها، ولكن يُؤخذ منها أنه ﷺ كان يقرأ القرآن في سائر أحواله.
وقد ثبت عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «إِنِّي لَأَقْرَأُ حِزْبِي»^(٣) وَأَنَا مُضْطَجِعَةٌ عَلَى سِرِيرِي»^(٤).

٨ - استحباب تنظيف الفم بالسَّوَاك:

يُستحب للقارئ أن ينظف فاه بالسَّوَاك^(٥)؛ تأديباً مع كلام الله وإجلالاً له، وتطهيراً لفمه، وإرضاءً لربه، ولأنَّ التَّلاوة عبادة لسانية فتتطلب الفم وتطيبه عند ذلك أدب حسن.

عن عائشة رضي الله عنها، عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «السَّوَاكُ مَطْهَرَةٌ لِلْفَمِ، مَرْضَاةٌ لِلرَّبِّ»^(٦).
وكان النَّبِيُّ ﷺ يَتَأَدَّبُ مع كلام ربه تعالى، ويطيب فاه بالسَّوَاك في قيامه لصلاة اللَّيْلِ: عن حُذَيْفَةَ رضي الله عنه قال: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ، إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ، يَشُوصُ فَاهُ بِالسَّوَاكِ»^(٧).

(١) التبيان في آداب حملة القرآن (ص ١٠٤).

(٢) رواه مسلم، كتاب الحيض، باب: الاضطجاع مع الحائض في لحاف واحد (٢٤٦/١) (ح ٣٠١).

(٣) هو مقدار معلوم من القرآن تُواظب عليه فتقرؤه يوماً.

(٤) رواه الفريابي في «فضائل القرآن»، (ص ٢٣٠) (رقم ١٥٤)؛ وأبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص ١١٩) (رقم ١٩١، ١٩٢).

(٥) انظر: الأذكار (ص ١٦٠)؛ التبيان (ص ٩٥).

(٦) رواه النسائي (١٠/١) (ح ٥)؛ وصححه الألباني في «صحيح سنن النسائي» (٤/١) (ح ٥)؛ والإرواء (١٠٤/١) (ح ٦٥)؛ و«صحيح الجامع» (١/٦٨٨) (ح ٣٦٩٥).

(٧) رواه البخاري، كتاب الوضوء، باب: السَّوَاك (٩٨/١) (ح ٢٤٥).

وَيُسْتَأْنَسُ لَذَلِكَ أَيْضاً بِقَوْلِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام: «إِنَّ أَفْوَاهَكُمْ طُرُقُ
لِلْقُرْآنِ، فَطَيَّبُوهَا بِالسَّوَاكِ»^(١).

٩ - الاستعاذة عند افتتاح التلاوة:

يُسَنُّ لِلْقَارِئِ الاستعاذة قبل التلاوة، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿إِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨].

فهذا أمر من الله تعالى لعباده على لسان نبيه عليه السلام، إذا أرادوا قراءة القرآن أن يستعينوا بالله من الشيطان الرجيم، وهو أمر ندب وليس بواجب^(٢). والاستعاذة ليست آية من القرآن بالإجماع.

والحكمة منها ظاهرة؛ وهي ألاَّ يُلبَسَ الشيطان على القارئ قراءته ويخلط عليه، ويمنعه من التدبر والتفكير^(٣).

* وجاء عن أبي سعيد الخدري، قال: كان رسول الله عليه السلام، إذا قام من الليل كبر ثم يقول:

«سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، وَتَبَارَكَ اسْمُكَ، وَتَعَالَى جَدُّكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ». ثُمَّ يَقُولُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» ثلاثاً. ثُمَّ يَقُولُ: «اللَّهُ أَكْبَرُ كَبيراً» ثلاثاً، «أَعُوذُ بِاللَّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ مِنْ هَمَزِهِ»^(٤) وَنَفْخِهِ^(٥) وَنَفْسِهِ^(٦)، ثُمَّ يَقْرَأُ^(٧).

(١) رواه ابن ماجه (١٠٦/١) (ح ٢٩١)؛ وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (١/٥٣) (ح ٢٣٦)؛ و«الصحيحه» (٢١٤/٣) (ح ١٢١٣).

(٢) انظر: التبيان في آداب حملة القرآن (ص ١٠٦)؛ التذكار في أفضل الأذكار (ص ١٧٣)؛ الإتيان في علوم القرآن (١/٢٦٢).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٤/٦٠٨).
(٤) همزة: همَزُ الشَّيْطَانِ الْإِنْسَانُ هَمَزاً: هَمَسَ فِي قَلْبِهِ وَشَوَّاساً. وَهَمَزَاتُ الشَّيْطَانِ: خَطَرَاتُهُ الَّتِي يُخْطِرُهَا بِقَلْبِ الْإِنْسَانِ.

انظر: لسان العرب (١٥/١٣٢)؛ مادة: (همز).
(٥) (نَفْخُهُ): النَّفْخُ: الْكِبَرُ؛ لِأَنَّ الْمُتَكَبِّرَ يَتَعَاطَمُ وَيَجْمَعُ نَفْسَهُ وَنَفْسَهُ، فَيَحْتَاجُ أَنْ يَنْفُخَ. انظر:

لسان العرب (١٤/٢٢٨)، مادة: (نفخ).
(٦) (نَفْسُهُ): النَّفْسُ: الشَّعْرُ. وَشُمِّي النَّفْسُ شَعراً؛ لِأَنَّهُ كَالشَّيْءِ يَنْفُثُهُ الْإِنْسَانُ مِنْ فِيهِ، مِثْلَ الرُّقِيَّةِ. انظر: لسان العرب (١٤/٢٢٣)، مادة: (نفث).

(٧) رواه أبو داود (١/٢٠٦) (ح ٧٧٥)؛ وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» =

الآية والحديث فيهما صيغتان للاستعاذة:

الأولى: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

الثانية: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه. فيستحب للقارئ أن يعمل بهذه وهذه. البدء بالاستعاذة خاص بالقرآن الكريم:

لا تُشرع الاستعاذة بين يدي كلام محبوب غير قراءة القرآن العظيم، فبعض الناس يذكر الاستعاذة عند البدء بذكر حديث أو موعظة، ونحو ذلك، فهذا لا أصل له^(١). وهو مقتضى ما نبه عليه ابن القيم رحمته الله في سياق فوائد الاستعاذة - إذ قال: «ومنها: أن الاستعاذة قبل القراءة إعلام بأن المأني به بعدها القرآن؛ ولهذا لم تُشرع الاستعاذة بين يدي كلام غيره، بل الاستعاذة مقدّمة وتنبية للسامع أن الذي يأتي بعدها هو التلاوة، فإذا سمع السامع الاستعاذة استعدّ لسماع كلام الله تعالى، ثم شرع ذلك للقارئ، وإن كان وحده، لما ذكرنا من هذه الحكيم وغيرها»^(٢).

١٠ - البسملة^(٣): بسم الله الرحمن الرحيم

ودليل سُنِّيها: ما جاء عن أنس رضي الله عنه، قال: بَيَّنَّا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ذاتَ يَوْمٍ بَيْنَ أَظْهُرِنَا، إِذْ أَغْفَى إِغْفَاءَةً، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مُتَبَسِّمًا، فَقُلْنَا: مَا أَضْحَكَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَالَ: «أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آيَةٌ أَنْفَأُ سُورَةٍ، فَقَرَأْتُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ». ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۝ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝﴾ [الكوثر] الحديث^(٤).

= (١٤٨/١) (ج ٧٠١).

(١) انظر: تصحيح الدعاء (ص ٢٧٣).

(٢) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان (٩٢/١).

(٣) جاء في كتاب «تصحيح الدعاء» (ص ٢٧٤): «عبارة البسملة: نَحْنُ لِقَوْلِكَ: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» بخلاف: «التسمية» فهي عبارة عن قول: «بِسْمِ اللَّهِ» وقيل: «عن ذكر الله، بأي لفظ كان، وحصل تسمُّع في الإطالة».

(٤) رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب: حُجَّةٌ مَنْ قَالَ: «البسملة آية من أول كل سورة»، =

ومعنى ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾: أي «بدأت بعون الله وتوفيقه وبركته، وهذا تعليم من الله تعالى لعباده ليدذكروا اسم الله تعالى عند افتتاح القراءة وغيرها؛ حتى يكون الافتتاح ببركة اسم الله»^(١). فالإتيان بالبسملة من باب التبرُّك والتَّيَمُّن بذكر اسم الله^(٢).

فينبغي للقارئ أن يحافظ على قراءة ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ في أوَّل كلِّ سورة، سوى سورة (التَّوْبَةِ) فإنَّ أكثر العلماء قالوا: إنَّها آية، حيث كُتِبَتْ في المصحف، وقد كُتِبَتْ في أوائل السُّور كلها إلَّا سورة (التَّوْبَةِ). وذلك لأنَّ الصَّحابة الكرام ؓ اختلفوا فيما بينهم: هل هي تتمة لسورة الأنفال أو أنَّها سورة مستقلة بذاتها، قرأوا أن يفصلوها في المصحف ولا يضعوا قبلها البسملة^(٣).

١١ - حَضَرَ الْفِكْرُ أَثْنَاءَ التَّلَاوَةِ:

لا بدَّ من الإقبال بالكلية على القراءة، وتفريغ النَّفْس من شواغلها، قبل البدء بالتلاوة؛ وذلك لأنَّ الملهيات تُلْحِقُ على النَّفْس وتُغْرِضُ لها. كذلك ينبغي أن يُحْصَرَ الْفِكْرُ على القرآن وحده، ويُمْنَع من الشُّرود والتَّجَوُّل في مُغْرِبَات الحياة الدُّنيا.

ومن تفريغ النَّفْس من شواغلها ألا يكون القارئ جائعاً، أو عطشاً، أو مهموماً قليلاً مضطرباً، أو يعيش في برد شديد، أو حرٌّ مؤذٍ، أو جالساً في مكان

= سوى براءة (٣٠٠/١) (ح ٤٠٠).

(١) تفسير السمرقندي (٣٧/١)؛ تفسير القرطبي (٩٨/١).

(٢) ذَكَرَ الْعَزُّ بْنُ عَبْدِ السَّلَامِ ﷺ فَائِدَةً جَامِعَةً فَقَالَ: «أَفْعَالُ الْعِبَادِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ: مَا سُنَّتْ فِيهِ التَّسْمِيَةُ: كَالْوُضُوءِ، وَالْفَسْلِ، وَالتَّيَمُّمِ، وَذَبْحِ الْمَنَاسِكِ، وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، وَمَنْعُهُ أَيْضاً مَبَاحَاتٍ كَالْأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَالْجَمَاعِ، وَمَا لَمْ تُسَنَّ فِيهِ: كَالصَّلَاةِ، وَالْأَذَانِ، وَالْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ، وَالْأَذْكَارِ، وَالذَّعْوَاتِ. وَمَا تَكْرَهُ: وَهِيَ الْمُحَرَّمَاتُ؛ لِأَنَّ الْغُرُضَ مِنَ التَّسْمِيَةِ: التَّيَرُّكُ فِي الْفِعْلِ الْمَشْتَمَلِ عَلَيْهِ، وَالْحَرَامِ لَا يُرَادُ كَثَرَتُهُ وَبِرَكَتُهُ، وَكَذَلِكَ الْمَكْرُوهُ».

نقلًا عن: تصحيح الدعاء (ص ٢٧٤).

(٣) انظر: التبيان في آداب حملة القرآن (ص ١٠٦)؛ التذكار في أفضل الأذكار (ص ١٧٣)؛ الإتيان في علوم القرآن (١/٢٦٣).

عام، ينظر فيه للغادين والرائحين وينشغل بهم، أو جالساً أمام التلّافاز، عيناه في القرآن، وأذناه تستمع إلى التلّافاز، (١) يشغله ما يشغل من غير القرآن، فإذا ما حصر القارئ فكره أثناء التلاوة وجعله مع القرآن، فسيخرج بزاوٍ عظيم من التلاوة (٢).

١٢ - استحباب الترتيل وكراهية السرعة المفرطة:

اتفق العلماء - رحمهم الله - على استحباب الترتيل (٣). قال الله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤].

أي: يَبِّن القرآن إذا قرأته تبييناً، وترسل فيه ترسلًا (٤).

والتبيين يحصل بعدم الاستعجال في القراءة، وذلك بتوفيتها حقها من الإشباع (٥).

قال البغوي رحمه الله: «ترتيل القراءة: التائي والتّمهل، وتبيين الحروف والحركات، تشبيهاً بالثغر المرتل، وهو المشبه بنور الأقحوان» (٦).

وقال الرازي رحمه الله: «الترتيل: هو أن يذكر الحروف والكلمات مُبيناً ظاهرة والفائدة فيه: أنه إذا وقعت القراءة على هذا الوجه فهم من نفسه معاني تلك الألفاظ، وأفهم غيره تلك المعاني، وإذا قرأها بالسرعة لم يفهم، ولم يفهم، فكان الترتيل أولى» (٧).

وجاء في (التسهيل لعلوم التنزيل): «الترتيل: هو التّمهل، والمد، وإشباع الحركات، وبيان الحروف، وذلك مُعين على التفكر في معاني القرآن، بخلاف الهذ الذي لا يفقه صاحبه ما يقول» (٨).

(١) انظر: مفاتيح للتعامل مع القرآن (ص ٥٣ - ٥٤).

(٢) انظر: التبيان في آداب حملة القرآن (ص ١١٤).

(٣) انظر: تفسير الطبري (١٤/ ١٥٣)؛ وجاء في (مختار الصحاح) (ص ٩٨): «والترتيل في القراءة: الترسل فيها والتبيين من غير بُغي».

(٤) انظر: لسان العرب (١١/ ٢٦٥)، مادة: «رتل».

(٥) شرح السنة (٢/ ٤٦٥).

(٦) التفسير الكبير (١/ ٦٠).

(٧) (٤/ ١٥٧).

ومما تقدم يتبين لنا أَنَّ الترتيل أقرب إلى الإجلال والتقدير، وأشدُّ تأثيراً في القلوب، فكيف وقد أُمِرَ به وأكدَّ عليه في الشرع، ففعله التزام بهدي النبي ﷺ في تلاوة القرآن.

وقد امثال ﷺ أَمَرَ رَبَّهُ فَرَّقَلَ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً:

* فعن قتادة رضي الله عنه قَالَ: سَأَلْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ عَنْ قِرَاءَةِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «كَانَ يُمَدُّ مَدًّا»^(١).

* وعن قتادة رضي الله عنه قَالَ: سُئِلَ أَنَسٌ: كَيْفَ كَانَتْ قِرَاءَةُ النَّبِيِّ ﷺ؟ فَقَالَ: «كَانَتْ مَدًّا، ثُمَّ قَرَأَ: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» يَمُدُّ بِسْمِ اللَّهِ، وَيَمُدُّ بِالرَّحْمَنِ، وَيَمُدُّ بِالرَّحِيمِ»^(٢).

* وَتَصِفُ حَفْصَةُ رضي الله عنها قِرَاءَةَ النَّبِيِّ ﷺ فتقول: «كَانَ يَقْرَأُ بِالسُّورَةِ فَيُرْتِّلُهَا، حَتَّى تَكُونَ أَطْوَلُ مِنْ أَطْوَلِ مِنْهَا»^(٣).

التَّحذِيرُ مِنَ الاسْتِعْجَالِ فِي التَّلَاوةِ:

كره كثير من السلف من الصحابة ومن بعدهم؛ العجلة المفرطة في تلاوة القرآن الكريم، ولو كان الباعث على ذلك الحصول على قدر أكبر من الحسنات؛ لأن الاستعجال يُفَوِّتُ مصلحةً كبرى، وهي تدبر آيات القرآن، والتأثر بها.

* وللصَّحَابِيِّ الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه كلامٌ في ذمِّ الإسراع في تلاوة القرآن: فقد جاءه رجل فقال له: إِنِّي لَأَقْرَأُ الْمُفْصَلَ فِي رَكْعَةٍ.

فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: «هَذَا كَهَذَا الشَّعْرِ»^(٤)؟ إِنَّ أَقْوَاماً يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ

(١)(٢) رواهما البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: مدّ القراءة (٣/١٦٢٥) (ج ٥، ٥٠٤٥).

(٣) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: جواز النافلة قائماً وقاعداً (١/٥٠٧) (ج ٣، ٧٣٣).

(٤) (هَذَا كَهَذَا الشَّعْرِ): نصبه على المصدر. أي أنهذ القرآن هذا، فتسرع فيه كما تسرع في قراءة الشعر. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٥/٢٥٤). وقال النووي رحمته الله: «قوله (كهذا الشعر) معناه: في حفظه وروايته لا في إنشاده وترتيله؛ لأنه يُرْتَّلُ في الإنشاد والترنم، في العادة». (صحيح مسلم بشرح النووي) (٦/١٠٥).

تَرَايَهُمْ^(١). وَلَكِنْ إِذَا وَقَعَ فِي الْقَلْبِ فَرَسَخَ فِيهِ، نَفَعَ^(٢).
 * وعن أبي جَمْرَةَ^(٣) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «قُلْتُ لَابْنِ عَبَّاسٍ: إِنِّي سَرِيعُ الْقِرَاءَةِ،
 وَإِنِّي أَقْرَأُ الْقُرْآنَ فِي ثَلَاثٍ، فَقَالَ: لَأَنْ أَقْرَأَ الْبَقْرَةَ فِي لَيْلَةٍ فَأَدْبِرَهَا وَأَرْتُلَهَا؛ أَحَبُّ
 إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْرَأَ كَمَا تَقُولُ»^(٤).

وفي رواية: «فَإِنْ كُنْتَ فَاعِلًا لَا بُدَّ، فَاقْرَأْ قِرَاءَةً تُسْمِعُ أذُنَيْكَ وَيَعْبِهَ
 قَلْبُكَ»^(٥).

* وَسُئِلَ مُجَاهِدٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَجُلَيْنِ: قَرَأَا أَحَدُهُمَا الْبَقْرَةَ، وَقَرَأَ الْآخَرُ الْبَقْرَةَ
 وَآلَ عِمْرَانَ، فَكَانَ رُكُوعُهُمَا وَسُجُودُهُمَا وَجُلُوسُهُمَا سَوَاءً. أَيُّهُمَا أَفْضَلُ؟ قَالَ:
 الَّذِي قَرَأَ الْبَقْرَةَ. ثُمَّ قَرَأَ مُجَاهِدٌ: «وَقَرَأْنَا فَرَقْنَاهُ لِلْقُرْآنِ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكِّ وَزَلَّاتُهُ
 نَزِيلًا» [الإسراء: ١٠٦]^(٦).

قال القرطبي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يُسْتَحَبُّ أَنْ يُؤَدَّى لِكُلِّ حَرْفٍ حَقُّهُ مِنَ الْأَدَاءِ حَتَّى يَبْرُزَ

- (١) (لَا يُجَاوِزُ تَرَايَهُمْ): أَي لَا يَجَاوِزُ الْقُرْآنُ تَرَايَهُمْ لِيَصِلَ إِلَى قُلُوبِهِمْ، فَلَيْسَ حَظُّهُمْ مِنْهُ إِلَّا
 مَرُورُهُ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ. وَالْقُرْآنِيُّ: جَمْعُ تَرْقُوعَةٍ، وَهِيَ الْعِظَمُ الَّذِي بَيْنَ ثَغْرِ النَّحْرِ وَالْعَاتِقِ،
 وَهِيَ تَرْقُوعَتَانِ مِنَ الْجَانِبَيْنِ. انْظُرْ: النِّهَايَةَ فِي غَرِيبِ الْحَدِيثِ وَالْأَثَرِ (١/١٨٧).
- (٢) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: ترتيل القراءة واجتناب الهذ، وهو
 الإفراط في الشُّرْعَةِ (١/٥٦٣) (ح ٨٢٢).
- (٣) هو نصر بن عمران الضَّبْعِيُّ البَصْرِيُّ، أَحَدُ الْأَثَمَةِ الثَّقَاتِ، أَقَامَ مَعَ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا
 بِالْبَصْرَةِ شَهْرَيْنِ. تَوَفَّى سَنَةَ (١٢٧هـ). انْظُرْ: سِيرَ أَعْلَامِ النَّبَلَاءِ (٥/٢٤٣).
- (٤) رواه ابن كثير في «فضائل القرآن» (ص ٢٣٦). وقال محققه (أبو إسحاق الحويني):
 «إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ». وَرَوَاهُ أَبُو عُبَيْدٍ فِي «فَضَائِلِ الْقُرْآنِ» (ص ٧٤)، وَالْأَجَرِيُّ فِي «أَخْلَاقِ
 حِمْلَةِ الْقُرْآنِ» (ص ٨٩).
- (٥) رواه البيهقي في «السنن الكبرى» (٢/٣٩٦) (رقم ٣٨٧٦) و(٣/١٣) (رقم ٤٤٩١)؛ وَفِي
 «شُعَبِ الْإِيمَانِ» (٤/٣٩٢) (رقم ٢١٥٩)؛ وَابْنُ الْمُبَارَكِ فِي «الزُّهْدِ» (١/٤٢٢) (رقم
 ١١٩٨). وَقَالَ مُحَقِّقُ «الْفَضَائِلِ» (أَبُو إِسْحَاقَ الْحَوْيْنِي): «إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ». انْظُرْ: حَاشِيَةُ
 «الْفَضَائِلِ» (ص ٢٣٧).
- (٦) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/٢١٩) (رقم ٢٢٧٨٣)؛ وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي «مُصَنَّفِهِ» (٢/
 ٢٥٦) (رقم ٨٧٣٥)؛ وَالْأَجَرِيُّ فِي «أَخْلَاقِ حِمْلَةِ الْقُرْآنِ» (ص ٩٠)؛ وَابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي
 «الاسْتِذْكَارِ» (٢/٤٧٨) (رقم ٢١٥٠).

الكلام باللفظ تملأاً...، وإذا كان له بكل حرف عشر حسنات، فينبغي له ألا يهمل حرفاً أثبتته إمام، فيكون قد أتى على جميع القرآن، ولم يُبق شيئاً، فتكون ختمة أصح من ختمة إذا ترخص بحذف ما لا يضر حذفه، ألا ترى أن صلاة من استوى في جميع شرائطها أتم ممن ترخص بترك ما يجوز تركه»^(١).

(مسألة) أيهما أفضل الترتيل وقلة القراءة أو السرعة مع كثرتها؟

قال بعضهم: إن ثواب قراءة الترتيل أجلُّ قدرًا، وثواب الكثرة أكثر عددًا؛ لأن بكل حرف عشر حسنات^(٢).

ولقد تناول ابن حجر رحمته الله هذه المسألة بالتحقيق وفصل فيها قائلاً: «والتحقيق أن لكل من الإسراع والترتيل جهة فضل، بشرط أن يكون المسرع لا يخل بشيء من الحروف والحركات والشكوك الواجبات، فلا يمتنع أن يفضل أحدهما الآخر وأن يستويا، فإن من رتل وتأمل كمن تصدق بجوهرة واحدة ثمينة، ومن أسرع كمن تصدق بعدة جواهر لكن قيمتها قيمة الواحدة، وقد تكون قيمة الواحدة أكثر من قيمة الأخريات، وقد يكون بالعكس»^(٣).

١٣ - استحباب تحسين الصوت بالقرآن:

نقل النووي رحمته الله الإجماع على ذلك، فقال: «أجمع العلماء رحمهم الله من السلف والخلف من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم من علماء الأمصار أئمة المسلمين على استحباب تحسين الصوت بالقرآن»^(٤).

يدل على ذلك ما رواه البزء رحمته الله قال: «سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ: ﴿وَالَّذِينَ وَالَّذِينَ﴾ [التين: ١] فِي الْعِشَاءِ، وَمَا سَمِعْتُ أَحَدًا أَحْسَنَ صَوْتًا مِنْهُ، أَوْ قِرَاءَةً»^(٥).

(١) التذكار في أفضل الأذكار (ص ١٧٥).

(٢) انظر: النشر في القراءات العشر (٢٠٨/٩)؛ الإتيان في علوم القرآن (ص ٢٦٤).

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨٩/٩).

(٤) التبيان في آداب حملة القرآن (ص ١٤٤).

(٥) رواه البخاري، كتاب الأذان، باب: القراءة في العشاء (٢٤٦/١) (ج ٧٦٩).

وفي استحباب تحسين الصَّوت بالقرآن وردت أحاديث عدَّة، منها:

* ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَمْ يَأْذَنْ اللَّهُ لشيءٍ ما أَذِنَ لِنَبِيِّ يَتَقَنَّى بِالْقُرْآنِ»^(١).

قال ابن كثير رحمته الله: «ومعناه أَنَّ الله تعالى ما استمع لشيء، كاستماعه لقراءة نبيٍّ يجهر بقراءته ويحسنها، وذلك أَنَّهُ يجتمع في قراءة الأنبياء طيبُ الصَّوت لكمال خلقهم وتمام الخشية، وذلك هو الغاية في ذلك، وهو ﷺ يسمع أصوات العباد كلَّهم برَّهم وفاجرهم»^(٢).

* وما رواه أبو هريرة رضي الله عنه - أيضاً - قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَقَنَّ بِالْقُرْآنِ»^(٣).

* وما رواه البراء بن عازب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رَبِّئُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ»^(٤).

«والمراد من تحسين الصَّوت بالقرآن: تطريبه، وتحزينه، والتَّخْشُعُ به»^(٥).

وذكر ابن القيم رحمته الله الحكمة من استحباب تزيين القرآن بالصَّوت، فقال:

«لأنَّ تزيينه، وتحسين الصَّوت به، والتَّطْرِبَ بقراءته أَوْقَعُ في النُّفوس، وأدعى إلى الاستماع والإصغاء إليه، ففيه تنفيذٌ لِلْقَظهِ إلى الأسماع، ومعانيه إلى القلوب؛ وذلك عَوْنٌ على المقصود، وهو بمنزلة الحلاوة التي تُجْعَلُ في الدَّواءِ لِتُنْفِذَهُ إلى موضع الدَّاءِ، ... لا تُخْرِجُ الكلامَ عن وضعه، ولا تحوِّلُ بين السَّامِعِ وبين فُهمه، ولو كانت متضمَّنةً لزيادة الحروف كما ظنَّ المَانِعُ منها؛ لأَخْرَجَتِ الكلمةَ عن مواضعها، وخالت بين السَّامِعِ وبين فُهمها، ولم يَنْدِرْ ما معناها، والواقع بخلاف ذلك»^(٦).

(١) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن (٣/١٦١٩) (ح ٥٠٢٣).

(٢) فضائل القرآن (ص ١٧٧ - ١٧٨).

(٣) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب: «وَأَمَرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ أَتَمَّهَرُوا بِهِ» [الملك: ١٣-١٤/٢٣٥١] (ح ٧٥٢٧).

(٤) رواه أبو داود (٢/٧٤) (ح ١٤٦٨) وصحَّحه الألباني في «صحيح مسند أبي داود» (١/٢٧٥) (ح ١٣٠٣).

(٥) فضائل القرآن، لابن كثير (ص ١٩٠).

(٦) زاد المعاد في هدي خير العباد (١/٤٨٩-٤٩٠).

قال النووي رحمته الله: «يستحب تحسين الصَّوت بالقراءة وترتيبها، ما لم يخرج عن حدِّ القراءة بالتَّمطيط، فإن أفرط حتَّى زاد حرفاً، أو أخفاه فهو حرام»^(١).

بين التَّغْنِي المَحْمُود والمَلْمُوم:

قال ابن القيم رحمته الله: «وَفَضَّلُ النَّزاعِ، أَنْ يُقالَ: التَّطْرِيبُ والتَّغْنِي على وجهين: أحدهما: ما اقتضته الطَّبيعة، وسمحت به من غير تكَلُّف، ولا تمرين ولا تعليم، بل إذا خُلِّي وطَبَعَه، واسترسلت طبيعته؛ جاءت بذلك التَّطْرِيب والتَّلحين، فذلك جائز، وإن أعان طبيعته بفضل تزيين وتحسين، كما قال أبو موسى رحمته الله للنَّبِيِّ صلَّى الله عليه وآله: «لو عَلِمْتُ أَنَّكَ تَسْمَعُ لِحَبْرَتِهِ لَكَ تَحْيِيرًا»^(٢)،... فهذا هو الذي كان السَّلَفُ يَفْعَلُونَهُ، ويستمعونَهُ، وهو التَّغْنِي الممدوح المَحْمُود، وهو الذي يتأثر به الثَّالِي والسَّامِع،...

الوجه الثَّاني: ما كان من ذلك صِناعَةً من الصَّنائع... كما يُتَعَلَّمُ أصواتُ الغناء بأنواع الألحان البسيطة، والمرغبة على إيقاعات مخصوصة، وأوزانٍ مخترعة، لا تحصل إلَّا بالتَّعَلُّم والتَّكَلُّف، فهذه هي التي كَرَّها السَّلَف، وعابوها، وذمُّوها، ومنعوا القراءة بها...

وكلُّ مَنْ له عِلْمٌ بأحوال السَّلَف، يعلم قطعاً أنَّهم بُرِّءوا من القراءة بالألحان الموسيقي المُتَكَلِّفَة التي هي إيقاعات وحركات موزونة معدودة محدودة، وأنَّهم اتَّقَى الله مِنْ أَنْ يَقْرَؤُوا وَيُسَوِّغُوا، ويعلم قطعاً أنَّهم كانوا يَقْرَؤُونَ بالتَّحْزِين والتَّطْرِيب، وَيُحَسِّنُونَ أصواتَهُم بالقرآن، وَيَقْرَؤُونَهُ بِسَجَى تارة، وبَطَرِبٍ تارة، وبِشَوْقٍ تارة، وهذا أمر مركوزٌ في الطَّباع تقاضيه، ولم يَنْه عنه الشَّارع، مع شدَّة تقاضِي الطَّباع له، بل أرشد إليه وندب إليه، وأخبر عن سماع الله لِمَنْ قرأ به»^(٣).

والمقصود الأعظم من تحسين الصَّوت: هو أن يكون قنطرة إلى تدبُّر القرآن وتفهُمِهِ، والخشوع والخضوع والانقياد للطَّاعة.

(١) التبيان في آداب حملة القرآن (ص ٢٤٥ - ١٤٦).

(٢) رواه ابن حبان في «صحيحه» (١٦/١٦٩) (ح ٧١٩٧)، والحاكم في «المستدرک» (٣/ ٥٢٩) (ح ٥٩٦٦). وقال: «صحيح الإسناد، ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

(٣) زاد المعاد في هدي خير العباد (١/ ٤٩٢ - ٤٩٣).

١٤ - النَّهْيُ عَنِ الْقِرَاءَةِ بِالْأَلْحَانِ الْمُطَرَّبَةِ^(١):

القرآن الكريم ينزه ويجلّ ويعظم عن تلاوته بالأصوات والنغمات المُحدثة،
المرجبة على الأوزان، والأوضاع الملهية وأصوات المزامير^(٢).

ولقد حذر النبي ﷺ من زمانٍ يأتي يتخذ الناس فيه القرآن للغناء والمزامير:
فمن عَلِمَ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ خِصَالًا سِتًّا:
إِمْرَةَ السُّقْمَاءِ، وَكَثْرَةَ الشُّرْطِ، وَقَطِيعَةَ الرَّحِمِ، وَبَيْعَ الْحُكْمِ، وَاسْتِخْفَافَ بِالْدَّمِ، وَتَشَوُّا
يَتَّخِذُونَ الْقُرْآنَ مَزَامِيرَ، يُقَدِّمُونَ الرَّجُلَ لَيْسَ بِأَفْقَهُمْ وَلَا أَهْلَهُمْ، مَا يُقَدِّمُونَهُ إِلَّا
لِيُغْنِيَهُمْ»^(٣).

قال الإمام مالك^(٤) رحمه الله: «وَلَا تُغْجِبْنِي الْقِرَاءَةُ بِالْأَلْحَانِ، وَلَا أَحْبُّهَا فِي
رَمَضَانَ وَلَا فِي غَيْرِهِ؛ لِأَنَّهُ يُشَبِّهُ الْغِنَاءَ، وَيُضْحِكُ بِالْقُرْآنِ، فَيُقَالُ: فَلَانٌ أَقْرَأَ مِنْ
فُلَانٍ»^(٥)،^(٦).

(١) المراد بالألحان المطرّبة: هي التي تشبه الغناء، وربما وقع ذلك من بعض أئمة المساجد
في زماننا هذا، علما أم لم يعلموا، فيخيل لك عند سماع قراءتهم أنك تسمع أغنية، من
تقلب الصّوت، وتغيير النغمات، نسأل الله لنا ولهم الهداية.
انظر: كتاب الآداب، فؤاد الشلهوب (ص ٢٥).
(٢) انظر: فضائل القرآن، لابن كثير (ص ١٩٥).

(٣) رواه أحمد في «المسند» (٤٩٤/٣) (ح ١٦٠٨٣)؛ وأبو عبيد في «فضائل القوّان»
(ص ١٦٦)؛ وابن كثير في «فضائل القرآن» (ص ١٩٧)؛ وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٧/
٥٢٩) (ح ٣٧٧٣٦)؛ وابن عبد البر في «المُتهيد» (١٤٧/١٨) و«الاستذكار» (١١٨/٣)؛
وصححه الألباني في «الصّحیحة» (٧٠٩/٢) (ح ٩٧٩)؛ و«صحيح الجامع» (٥٤٣/١) (ح ٢٨١٢).

(٤) هو مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي (أبو عبد الله) الإمام الفقيه،
والمحدث الحافظ، إمام دار الهجرة، وأحد الأئمة الأربعة، يُنسب إليه المذهب
المالكي، روى عن كثير من التابعين، وروى عنه خلق كثير من المحدثين الحفاظ، وكان
في غاية الدقّة والثقة في الحديث، ويُعدّ في الطبقة السابعة من التابعين من أهل المدينة،
له مصنفات أشهرها: «الموطأ»، توفي سنة (١٧٩هـ) وعمره (٨٥) سنة.
انظر: تقريب التهذيب (٢/٢٨٢)؛ البداية والنهاية (١٠/١٧٤).

(٥) أي: يصير فيه نوع تنافس قد يفضي إلى العداوة!
(٦) المدخل إلى كتاب الإكلیل، لأبي عبد الله الحاکم (٣/١١٠)؛ الجواهر والبدر (ص ٨٣).

وجاء في (الآداب الشرعية): «وكره أحمد قراءة الألحان، وقال: هي بدعة»^(١). وقد سئل الإمام أحمد رحمته الله عن القوم يجتمعون، ويقرأ لهم القارئ قراءة حزينة؟ فقال: «إن كان يقرأ بقراءة أبي موسى رضي الله عنه فلا بأس». وقال في قراءة الألحان: «أخذوها من الغناء لا تسمع منهم»^(٢).

أسباب تحريم الألحان المطربة:

ذكر أهل العلم عدة أسباب في تحريم الألحان المطربة، منها^(٣):

- ١ - تشبيه القرآن الكريم بمزمار الشيطان.
 - ٢ - تنزيه القرآن الكريم عن محاولة تحريفه.
 - ٣ - القرآن معجز بلفظه ونظمه، والألحان تغيره.
- وجاء في (مطالب أولي النهى): «فإن حصل معها (أي الألحان) تغيير نظم القرآن، كجعل الحركات حروفاً حرم ذلك. وسئل الإمام أحمد عن ذلك؟ أي عن تغيير نظم القرآن. فقال للسائل: ما اسمك؟ فقال: محمد. فقال أيسرك أن يقال: يا محمد؟ فقال: لا»^(٤).
- ٤ - الطرب وتهيج الطباع.

ذكر ابن الجوزي رحمته الله شيئاً من تليس إبليس على الوعاظ والقصاص فقال: «ومنهم من يتحرك الحركات التي يوقع بها على قراءة الألحان. والألحان التي أخرجوها اليوم مشابهة للغناء، فهي إلى التحريم أقرب منها إلى الكراهة، والقارئ يطرب، والقاصُّ يُشِدُّ الغزل»^(٥).

٥ - تلهي عن تدبر القرآن.

٦ - تغيير الكلمات والحركات الصحيحة إلى غير ذلك، كزيادة حرف، أو نقصانه، وإدغام ما لا ينبغي أن يدغم، واستخدام المد في غير موضعه، وإسقاط الهمز، وهكذا.

(١) (٣٠١/٢).

(٢) انظر: القصاص والمذكرين، لعبد الرحمن بن علي القرشي (ص ٣٦١).

(٣) انظر: مطالب أولي النهى (٥٩٨/١)؛ القصاص والمذكرين (٣٦١/١).

(٤) (٥٩٨/١). (٥) تليس إبليس (ص ١٥١).

قال الطُّرْطُوشِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي مَعْرِضِ حَدِيثِهِ عَنْ أَصْحَابِ الْأَلْحَانِ وَتَغْيِيرِهِمْ
لِلْقِرَاءَةِ الصَّحِيحَةِ، إِلَى مَا يُوَافِقُ أَهْوَاءَهُمْ، وَأَذْوَاقَهُمِ الْفَاسِدَةَ: «فَنَقَلُوا الْقِرَاءَةَ إِلَى
أَوْضَاعِ لُحُونِ الْأَغَانِي، فَمَدُّوا الْمَقْصُورَ، وَقَصَرُوا الْمَمْدُودَ، وَحَرَّكُوا السَّاكِنَ،
وَسَكَّنُوا الْمُتَحَرِّكَ، وَزَادُوا فِي الْحَرْفِ، وَنَقَصُوا مِنْهُ، وَجَزَمُوا الْمُتَحَرِّكَ، وَحَرَّكُوا
الْمَجْزُومَ؛ لَاسْتِيفَاءِ نَعَمَاتِ الْأَغَانِي الْمُطْرِبَةِ»^(١).

ما أشبه اللَّيْلَةَ بِالْبَارِحَةِ:

بعض قرّاء الإذاعات يقرؤون القرآن على ألحان الأغاني (الثوثة الموسيقية)،
بل لديهم قواعد تُدرّس من خلالها الموسيقى والألحان من طلعات ونزلات
يلتزمون بها للتطريب والتلحين بالقرآن، فكيف يحصل الخشوع في مجلس كهذا؟
فالسّامع إمّا أن يكون مأخوذاً بجمال الصّوت، أو متقرّزاً من شدّة التّكلّف!

وبعضهم يحضر حفلات الغناء في الصّف الأوّل وعليهم العمائم، من أجل
أن يلتقطوا اللّحن المناسب كي يقرؤوا به في الإذاعة، ولذلك ذمّ النبيّ الكريم ﷺ
هؤلاء ذمّاً عظيماً، وأخبر - وهو الصّادق المصدوق - أنّه سيأتي قوم في آخر
الزّمان يقرؤونه بهذه الصّفة، يجعلهم القرآن مثل الأغاني.

فالخلاصة: أنّ هذا الفعل الذي يُقصد به التّطريب والعبث بالمدود وزيادة
الحركات أو التّأوهات، مذموم وصاحبه آثم^(٢).

١٥ - وجوب تدبّر القرآن:

تدبّر القرآن الكريم هو المقصود الأعظم والمطلوب الأهم من التّلاوة، وبه
تنشرح الصّدور، وتستنير القلوب، ولقد تضافرت النّصوص على وجوب تدبّر آيات
الكتاب العزيز، ومن ذلك:

قوله تعالى: ﴿كَتَبْنَا الْقُرْآنَ لِتُدَّبَّرَ آيَاتُهُ لِيُذَكِّرُوا الْبَشَرَ﴾ [ص: ٢٩].

قال السيوطي رَحِمَهُ اللهُ: «وصفة ذلك: أن يشغل قلبه بالتّفكير في معنى ما يلفظ
به، فيعرف معنى كلّ آية، ويتأمّل الأوامر والنّواهي، ويعتقد قبول ذلك؛ فإن كان

(١) الحوادث والبدع (ص ٨٥).

(٢) انظر: من القصص النبوي، محمد صالح المنجد (ص ٨١ - ٨٢).

مِمَّا قَصَّرَ عَنْهُ فِيمَا مَضَى اعْتَذَرَ وَاسْتَغْفَرَ، وَإِذَا مَرَّ بِآيَةِ رَحْمَةِ اسْتَبْشَرَ وَسَأَلَ، أَوْ عَذَابٍ أَشْفَقَ وَتَعَوَّذَ، أَوْ تَنْزِيهِ نَزَّهَ وَعَظَّمَ، أَوْ دَعَاءٍ تَضَرَّعَ وَطَلَبَ^(١).

وقد ندَّد الله تعالى بصورة الاستفهام بِمَنْ لَا يَفْتَحُ عَقْلَهُ وَقَلْبَهُ لَتَفْهَمَ الْقُرْآنَ مِنْ أَجْلِ إِدْرَاكَ مَا فِيهِ مِنْ حِكْمٍ وَأَسْرَارٍ وَمَوَاعِظٍ وَتَشْرِيعَاتٍ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤].

فليست العبرة - في التلاوة - أن يقرأ القرآن مرَّاتٍ متعدِّدة دون أن يصاحبها إدراك لما يقرأ، والتَّرتيل والتَّدبُّر مع قَلَّةٍ مقدار القراءة أفضل من سرعة القراءة مع كثرتها؛ لأنَّ المقصود الأعظم من التلاوة هو الفهم والتَّدبُّر.

والإسراع في التلاوة يدلُّ على عدم الوقوف على المعنى بصورة كاملة، وبالشَّكل المطلوب، ومن أجل ذلك كانت القراءة بتمهُّل خطوة نحو التَّدبُّر، ثُمَّ العمل^(٢).

١٦ - استحباب البكاء أثناء التلاوة:

يستحب للقارئ أن يبكي أثناء تلاوته للقرآن، فإن لم يكن بكاء فليتبكَّ، والبكاء من خشية الله تعالى، وعند تلاوة آياته، من صفات العارفين، وشعار عباد الله الصَّالحين، قال تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٩]^(٣).

* وروى عبد الله بن الشَّحِير رحمته الله قال: «أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي، وَلَجَوْفُهُ أَرِيزٌ كَأَرِيزِ الْمَرْجَلِ^(٤) - يَعْنِي: يَبْكِي»^(٥).

(١) الإتيان في علوم القرآن (ص ٢٦٥).

(٢) انظر: دعوة إلى تدبر القرآن الكريم (ص ٤١).

(٣) انظر: تفسير البغوي (٣/١٤١)؛ التبيان في آداب حملة القرآن (١/٢٨٥)؛ الإتيان في علوم القرآن (١/٢٨٥).

(٤) «المرجل» قَدْرٌ مِنْ نَحَاسٍ، وَقَدْ يُطْلَقُ عَلَى قَدْرٍ يُطْبَعُ فِيهَا، وَلَعَلَّ الْمُرَادَ فِي الْحَدِيثِ. قَالَ الطَّبْرِيُّ رحمته الله: «أَرِيزُ الْمَرْجَلِ صَوْتُ غُلْيَانِهِ، وَمِنْهُ الْأَرُ، وَهُوَ الْإِزْعَاجُ».

انظر: عون المعبود شرح سنن أبي داود (٣/١٢١).

(٥) رواه النسائي (٣/١٣) (ح ١٢١٤)؛ وابن خزيمة في «صحيحه» (٢/٥٣) (ح ٩٠٠)؛ وابن حبان في «صحيحه» (٢/٤٣٩) (ح ٦٦٥)؛ والحاكم في «المستدرک» (١/٣٩٦) (ح ٩٧١)، =

* وفي رواية أخرى: «وفي صدره أزيزٌ كأزيزِ الرَّحَى»^(١) مِنْ الْبُكَاءِ^(٢) ﷺ^(٣).

* وقال عبد الله بن شداد^(٤): «سَمِعْتُ نَشِيجَ عُمَرَ^(٥)، وأنا في آخرِ الصُّفوفِ، يقرأ: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]^(٦).

* وقال الحسن البصري ﷺ: «والله يا ابن آدم، لئن قرأت القرآن ثُمَّ آمَنْتَ به، ليطولن في الدنيا حزنك، وليشتدن في الدنيا خوفك، وليكثرن في الدنيا بكائك»^(٧).

= وقال: «صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه». ووافقه الذهبي. وصححه الألباني في «صحيح سنن النسائي» (١/ ٢٦٠) (ح ١١٥٦).

(١) (أَزِيزُ الرَّحَى) صوتها وحررتها.
(٢) (مِنْ الْبُكَاءِ) أي من أجله. انظر: عون المعبود (٣/ ١٢١).
(٣) رواه أبو داود (١/ ٢٣٨) (ح ٩٠٤)؛ وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (١/ ١٧٠) (ح ٧٩٩).

(٤) هو عبد الله بن شداد بن الهاد، تابعي كبير، له رؤية، ولأبيه ضجة.
انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري (٢/ ٢٦٧).

(٥) النَّشِيجُ: قال ابن فارس ﷻ: «نَشَجَ الباكي: عَصَّ بالبكاء في حلقه من غير انتخاب» «معجم مقاييس اللغة» (٢/ ٥٦٠)، وقيل: النَّشِيجُ: صوتٌ معه ترجيع كما يردد الصَّبي بكاءه في صدره.

وقيل: هو أشدُّ البكاء. انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري (٢/ ٢٦٧).
(٦) رواه البخاري تعليقا، كتاب الأذان، باب: إذا بكى الإمام في الصَّلَاة (١/ ٢٢٥).

قال ابن حجر ﷻ: «وهذا الأثر وصله سعيد بن منصور عن ابن عيينة عن إسماعيل بن محمد بن سعد سمع عبد الله بن شداد بهذا. وزاد: (في صلاة الصُّبح).

«فتح الباري شرح صحيح البخاري» (٢/ ٢٦٧).
وانظر: سنن سعيد بن منصور (٥/ ٤٠٥) (ح ١١٣٨)؛ ورواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (١/ ٣١٢) (رقم ٣٥٦٥)؛ (٧/ ٢٢٤) (رقم ٣٥٥٢٧)؛ وعبد الرزاق في «مصنفه» (٢/ ١١٤) (رقم ٢٧١٦).

(٧) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١٣٣)؛ والمزي في «تهذيب الكمال» (٦/ ١١٢)؛ والذهبي في «تاريخ الإسلام» (٧٠/ ٥٧)؛ و«سير أعلام النبلاء» (٤/ ٥٧٥)؛ وأحمد في «الزهد» (٢٥٩/ ١).

وعن جابر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ صَوْتًا بِالْقُرْآنِ، الَّذِي إِذَا سَمِعْتُمُوهُ يَقْرَأُ، حَسِبْتُمُوهُ يَخْشَى اللَّهَ»^(١).

قال أبو حامد الغزالي رحمته الله: «البكاء مستحب مع القراءة...، وإنما طريق تكلف البكاء أن يحضر قلبه الحزن، فمن الحزن ينشأ البكاء...، ووجه إحضار الحزن أن يتأمل ما فيه من التهديد والوعيد والموائيق والعهود، ثم يتأمل تقصيره في أوامره وزواجره، فيحزن لا محالة ويبكي، فإن لم يحضره حُزن وبكاء كما يحضر أرباب القلوب الصّافية فليكن على فَقْدِ الحزن والبكاء، فإن ذلك أعظم المصائب»^(٢).

وليس المقصود بالبكاء - الذي حثَّ عليه السلف - ما يفعله بعضهم من ضراخ وعويل ونحيب، فهذا خروج عن الطريق القويم.

فأين هؤلاء من هدي النبي ﷺ في البكاء، وبكاء الصّحب الكرام رضي الله عنهم الذين وصفهم الله تبارك بقوله: «اللَّهُ زَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَبِهًا مَثَانِي نَقْشِرُهُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ» [الزمر: ٢٣]^(٣).

قال ابن تيمية رحمته الله: «وما يحصل عند السماع والذكر المشروع من وجل القلب، ودمع العين، واقشعرار الجسوم، فهذا أفضل الأحوال التي نطق بها الكتاب والسنة.

أمّا الاضطراب الشديد والغشي والموت والصّيحات فهذا إن كان صاحبه مغلوباً عليه لم يُلَمَّ عليه، كما قد يكون في التّابعين ومن بعدهم، فإنّ منشأ قوّة الوارد على القلب مع ضعف القلب والقوّة»^(٤).

١٧ - استحباب الجهر بالقرآن إذا لم تترتب عليه مفسدة:

وردت أحاديث تقتضي استحباب رفع الصوت بالقراءة، وأخرى تقتضي الإسرار وخفض الصوت:

(١) رواه ابن ماجه (٤٢٥/١) (ح ١٣٣٩)؛ وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (١).

(٢) (٢٢٤/١) (ح ١١٠٤). انظر: «الفتاوى» (٢٧٧/١). وانظر: التبيان في آداب حملة القرآن (٤٥/١).

(٣) انظر: كتاب الآداب (ص ٢٧) (٤) مجموع الفتاوى (٥٢٢/٢٢).

فمن الأول: لما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه: «أنه سمع النبي ﷺ يقول: «ما أذن الله لشئٍ ما أذن لنبِيِّ حَسَنِ الصَّوْتِ بِالْقُرْآنِ يَجْهَرُ بِهِ»^(١).
ومن الثاني:

ما جاء عن عقبه بن عامر الجهني رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «البَّاهِرُ بِالْقُرْآنِ كَالْبَّاهِرِ بِالصَّدَقَةِ، وَالْمُسِرُّ بِالْقُرْآنِ كَالْمُسِرِّ بِالصَّدَقَةِ»^(٢).
الجمع بين الحديثين:

يكون الجهر أفضل؛ لأنَّ فائدته تتعدَّى إلى السَّامِعِينَ، فالعمل فيه أكثر، ويوقظ قلب القارئ، ويجمع همَّه إلى الفكر، ويصرف سَمْعَهُ إليه، ويطرد النَّوْمَ، ويزيد في النَّشاط، بشرط ألاَّ يؤذي غيره من مصلٍّ أو نائمٍ أو غيرهما. فمتى حضره شيء من هذه النَّيات فالجهر أفضل.
ويكون الإسرار أفضل إذا خاف على نفسه الرِّياء، أو تأذَّى مصلُّون، أو نيام بجهره^(٣).

ويستدلُّ لهذا الجمع: بما جاء عن أبي سعيد، قال: اغتكَفَ رسولُ الله ﷺ، في المَسْجِدِ، فَسَمِعَهُمْ يَجْهَرُونَ بِالْقِرَاءَةِ، فَكَشَفَ السُّتْرَ وقال: «أَلَا إِنَّ كَلِّكُمْ مُنَاجَ رَبِّهِ، فَلَا يُؤْذِينَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا، وَلَا يَرْفَعُ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الْقِرَاءَةِ» أَوْ قَالَ: «فِي الصَّلَاةِ»^(٤).

(١) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب: الماهر بالقرآن... (٢٣٥٨/٤) (ح ٧٥٤٤).

(٢) رواه أبو داود (٣٨/٢) (ح ١٣٣٣)؛ والترمذي (١٨٠/٥) (ح ٢٩١٩)؛ والنسائي (٨٠/٥) (ح ٢٥٦١)؛ وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٢٧٤/١) (ح ١١٨٤)؛ و«صحيح سنن الترمذي» (١٠/٣) (ح ٢٣٣١)؛ و«صحيح سنن النسائي» (٥٤١/٢) (ح ٢٤٠١).

(٣) انظر: الإتقان في علوم القرآن (ص ٢٧١)؛ التبيان في آداب حملة القرآن (ص ١٣٥)؛ المجموع (١٨٩/٢)؛ فيض القدير (٤٥٧/١).

(٤) رواه أبو داود (٣٨/٢) (ح ١٣٣٢)؛ وابن خزيمة في «صحيحه» (١٩٠/٢) (ح ١١٦٢)؛ وأحمد في «المسند» (٩٤/٣) (ح ١١٩١٥)؛ و«صحيح سنن أبي داود» (٢٤٧/١) (ح ١١٨٤).

«وقال بعضهم: يستحب الجهر ببعض القراءة والإسرار ببعضها؛ لأنَّ المُسرَّ قد يملُ فيأنس بالجهر، والجاهر قد يكلُ فيستريح بالإسرار»^(١).

ومن المفاسد المترتبة على الجهر في غير موضعه ما حكاه ابن الجوزي رحمته الله بقوله: «وقد البس إبليس على قوم من القراء فهم يقرؤون القرآن في منارة المسجد بالليل بالأصوات المجمعمة المرتفعة، الجزء والجزأين، فيجمعون بين أذى الناس في منعهم من النوم، وبين التعرض للرياء، ومنهم من يقرأ في مسجده وقت الأذان؛ لأنَّه حين اجتماع الناس في المسجد»^(٢).

أجر التلاوة مترتب على التلظُّظ بها؛

لا بدُّ من النطق بالقراءة، والتلظُّظ بالتلاوة لحصول الأجر، فبعض الناس يقرأ القرآن بدون تحريك الشفتين، قراءة صامتة، فلا يحصل بذلك على فضيلة القراءة.

ولا بأس من النظر في القرآن الكريم من غير قراءة وذلك لتدبره وتعقله وفهم معانيه، لكنَّه لا يعتبر قارئاً، إلَّا إذا تَلَقَّظ بالقرآن، وحرك شفثيه، عند ذلك يثبت له أجر التلاوة، ولو لم يُسمِعْ من حوله؛ لما جاء عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه، قال سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «أَقْرَأُوا الْقُرْآنَ، فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعاً لِأَصْحَابِهِ»^(٣).

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ ﴿أَلَمْ﴾ حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلَاَمٌ حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ»^(٤).

ولا يعتبر قارئاً إلَّا إذا تَلَقَّظ بذلك، كما نصَّ عليه أهل العلم^(٥).

(١) الإتيان في علوم القرآن (ص ٢٧١). (٢) تلييس إبليس (ص ١٤٣).

(٣) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل قراءة القرآن وسورة البقرة (١/ ٥٥٣) (ح ٨٠٤).

(٤) رواه الترمذي (١٧٥/٥) (ح ٢٩١٠) وقال: «حسن صحيح غريب» وصحَّحه الحاكم، وأقرَّه الذهبي. وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٩/٣) (ح ٢٣٢٧)؛ و«صحيح الجامع» (١١٠٣/٢) (ح ٦٤٦٩).

(٥) انظر: من فتاوى سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز، مجلة البحوث الإسلامية بالرياض =

ملکیت : ملکیت

تثاؤب أثناءها.

ولا يقطع التلاوة لأجل أمور الدنيا تأدباً مع كلام الله، واحتراماً له، ومن ذلك اجتناب الضحك واللَّغَط والحديث خلال القراءة، إلا كلام يضطر إليه، وليتبه من كيد الشَّيْطَان الذي يلبس عليه قراءته، أو يشغله عنها^(١).

إِذَا يُكْرِهَ قَطَعَ التَّلَاوَةَ بِدُونِ عَذْرِ مُعْتَبَرٍ؛ لِمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ مِنْ عَدَمِ تَعْظِيمِ
كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى. قَالَ الْحَلِيمِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَأَنَّ كَلَامَ اللَّهِ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُؤَثَّرَ عَلَيْهِ كَلَامُ
غَيْرِهِ» (٢).

وقال القرطبي رحمته الله: «يُسْتَحَبُّ إِذَا أَخَذَ فِي سُورَةٍ لَمْ يَشْغَلْ عَنْهَا حَتَّى يَفْرَغَ مِنْهَا إِلَّا مِنْ ضَرُورَةٍ. وَكَذَلِكَ إِذَا أَخَذَ فِي الْقِرَاءَةِ لَمْ يَقْطَعْهَا سَاعَةً فَسَاعَةً، وَلَا يَخْلُلُهَا بِكَلَامِ الْأَدْمِيِّينَ مِنْ غَيْرِ ضَرُورَةٍ؛ فَإِنَّ فِيهِ اسْتِخْفَافًا بِالْقُرْآنِ كَمَا لَوْ قَطَعَ مِكَالَةٌ أَحَدٍ، فَيَحْدُثُ غَيْرُهُ مَعْنَى هُوَ دُونَهُ، فَإِنَّ فِيهِ اسْتِخْفَافًا بِذَلِكَ، وَلَئِنْ فِي إِتْبَاعِ الْقُرْآنِ بَعْضُهُ بَعْضًا بِالْقِرَاءَةِ مِنَ الْبَهْجَةِ مَا يَظْهَرُ عِنْدَ الْإِتْبَاعِ، وَيَخْفَى عِنْدَ التَّقْطِيعِ، وَفِي سَلْبِ زِينَةِ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ. فَلِذَلِكَ كَانَ مَكْرُوهًا» ^(٣).

وَيُسْتَأْنَسُ فِي اسْتِحْبَابِ اتِّصَالِ الْقِرَاءَةِ وَعَدَمِ قَطْعِهَا: بِمَا رَوَاهُ التَّابِعِيُّ الْجَلِيلُ نَافِعٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حَيْثُ قَالَ: «كَانَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إِذَا قَرَأَ الْقُرْآنَ لَمْ يَتَكَلَّمْ حَتَّى يَفْرُغَ مِنْهُ، فَاحْذَتْ عَلَيْهِ يَوْمًا، فَقَرَأَ سُورَةَ الْبَقَرَةِ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى مَكَانٍ قَالَ: تَذَرِي فِيهِ أَنْزَلْتُ؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: أَنْزَلْتُ فِي كَذَا وَكَذَا، ثُمَّ مَضَى» ^(٤).

= (عدد: ٥١) (ربيع أول ١٤١٨هـ) (ص ١٣٩ - ١٤٠).

(١) انظر: التبيان في آداب حملة القرآن (ص: ١٢٠).

(٢) الإتقان في علوم القرآن (ص ٢٧٤). (٣) التذكار في أفضل الأذكار (ص ١٧٤).

(٤) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب: ﴿يَسْأَلُكُمْ رَبُّ لَكُمْ﴾. [البقرة: ٢٢٣] (٣)

(۱۳۶۸) (ج ۴۵۲۶). میا قلچقچه و نال یزید بن یزیدنا میریہ غفرلہ اللہ عنہما کے وقت پر ہوا۔ بقلا

فهذه عادة ابن عمر رضي الله عنهما أنه لا يقطع تلاوة القرآن إلا لأمر جليل، ومصلحة راجحة، كشر علم ونحوه.

١٩ - أن يُحسِّنَ الابتداء والوقف أثناء التلاوة:

قال النووي رحمته الله: «يُستحب للقارئ إذا ابتدأ من وسط السورة أن يبتدئ من أول الكلام المرتبط بعضه ببعض، وكذلك إذا وقف يقف على المرتبط وعند انتهاء الكلام، ولا يتقيد في الابتداء ولا في الوقف بالأجزاء والأحزاب والأعشار، فإن كثيراً منها في وسط الكلام المرتبط، ولا يغتر الإنسان بكثرة الفاعلين لهذا الذي نهينا عنه ممن لا يراعي هذه الآداب، وامثل ما قاله السيد الجليل أبو علي الفضيل بن عياض رحمته الله: لا تستوحش طرق الهدى لقلة أهلها، ولا تغتر بكثرة السالكين الهالكين^(١)، ولهذا المعنى قال العلماء: قراءة سورة بكمالها أفضل من قراءة قدرها من سورة طويلة؛ لأنه قد يخفى الارتباط على كثير من الناس أو أكثرهم في بعض الأحوال والمواطن^(٢).

٢٠ - من السنة: الوقوف عند رؤوس الآيات:

يسنُّ لقارئ القرآن أن يقف عند رأس كل آية، اقتداء برسول الله ﷺ.
فمن أم سلمة رضي الله عنها قالت: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْطَعُ قِرَاءَتَهُ، يَقْرَأُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. ثُمَّ يَقِفُ ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾. ثُمَّ يَقِفُ. وَكَانَ يَقْرَأُهَا: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾»^(٣).

وفي رواية أخرى - قالت أم سلمة رضي الله عنها: «يَقْطَعُ قِرَاءَتَهُ آيَةً آيَةً»^(٤).

- (١) انظر: الآداب الشرعية (١/٢٨١). (٢) الأذكار (ص ١٦٣). (٣) رواه الترمذي (١٨٥/٥) (ح ٢٩٢٧) واللفظ له: والحاكم في «المستدرک» (٢/٢٥٢) (ح ٢٩١)، وقال: «حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه. وله شاهد بإسناد صحيح على شرطهما، عن أبي هريرة رضي الله عنه». وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (١٣/٣) (ح ٢٣٣٦). (٤) أي: يقف عند كل آية. انظر: غون المعبود (١١/٥٢٤). (٥) رواه أبو داود (٣٧/٤) (ح ٤٠٠١)؛ وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٢/٧٥٦) (ح ٣٣٧٩). (٦) (٢٩/٢٧) (ح ١٨٠١) (ص ١٨٠١) (ح ١٨٠١) (ص ١٨٠١).

فالوقوف على رؤوس الآي من كمال القراءة، ولو تلا بضع آيات بنفس واحد صحَّ وجاز^(١).

٢١ - من السُّنَّة: أن يُسَبِّح عند آية التَّسْبِيح، ويتعوَّذ عند آية العذاب، ويسأل عند آية الرَّحمة:

ودليل ذلك ما ورد في حديث حذيفة رضي الله عنه وصلاته مع رسول الله ﷺ - قال: «... ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ فَقَرَأَهَا، يَقْرَأُ مُتَرَسِّلاً، إِذَا مَرَّ بِآيَةِ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ، وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ...» الحديث^(٢).

قال النووي رحمته الله: «فيه استحباب هذه الأمور لكل قارئ في الصَّلَاة وغيرها، ومذهبنا استحبابه للإمام والمأموم والمنفرد»^(٣).

بل هذا مذهب جماهير أهل العلم - رحمهم الله - أن هذا السؤال والاستعاذة والتَّسْبِيح مستحبُّ لكل قارئ سواء كان في الصَّلَاة أم في خارجها. وخالف في ذلك أبو حنيفة رحمته الله، فقال: يُكره ذلك في الصَّلَاة، والصَّواب قول الجمهور^(٤).

قال الحسين بن علي الكرايسي^(٥) رحمته الله: «بُتَّ مع الشَّافعي غير ليلة، فكان يصلي نحو ثلث الليل، فما رأيته يزيد على خمسين آية، فإذا أكثر فمائة، وكان لا يمرُّ بآية رحمة إلا سأل الله لنفسه وللمؤمنين أجمعين، ولا يمرُّ بآية عذاب إلا تعوَّذ منها وسأل النِّجاة لنفسه ولجميع المسلمين. قال: فكأنما جُمِعَ له الرَّجَاءُ

(١) انظر: فيض الرحمن في الأحكام الفقهية الخاصة بالقرآن (ص ٤٩١).

(٢) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل (١/٥٣٦)، (ج ٧٧٢).

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي (٦/٦٢).

(٤) انظر: الثيبان في آداب حملة القرآن (ص ١١٩).

(٥) هو الحسين بن علي بن يزيد الكرايسي، البغدادي (أبو علي) الفقيه، صاحب الشَّافعي، قال ابن حجر رحمته الله: «أصدوق، فاضل، تكلم فيه أحمد لمسألة اللفظ، كان من بحور العلم، ذكياً، فطناً، فصيحاً لساناً. وقع بينه وبين الإمام أحمد هجران بسبب مسألة التَّلَفُّظ بالقرآن، فهجره لذلك العلماء. توفي سنة (٢٤٨هـ).

انظر: تقريب التهذيب (١/١٦٧)؛ سير أعلام النبلاء (١٢/٧٩ - ٨٢).

والرهبة جميعاً»^(١).

٢٢ - من السنة: الإمساك عن القراءة عند غلبة النعاس:

* والأصل فيه: ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قام أحدكم من الليل، فاستعجم القرآن»^(٢) على لسانه، فلم يذر ما يقول، فليضطجع»^(٣).

* وعلة الإمساك عن القراءة: بينها النبي ﷺ في حديث عائشة رضي الله عنها - حيث قال: «إذا نَعَسَ أَحَدُكُمْ فِي الصَّلَاةِ، فَلْيَرْقُدْ حَتَّى يَذْهَبَ عَنْهُ النَّوْمُ. فَإِنْ أَحَدَكُمْ إِذَا صَلَّى وَهُوَ نَاعِسٌ، لَعَلَّهُ يَذْهَبُ يَسْتَفْهِرُ»^(٤) فَيَسْبُ نَفْسُهُ»^(٥).

وهو إرشاد لطيف منه ﷺ، وفيه تتبين سماحة الإسلام ويُسر تكاليفه، وفيه درء مفسدة عظيمة عن قارئ القرآن، أو المصلي حتى لا يدعو على نفسه من حيث أراد الخير وهو لا يشعر بذلك، وفيه صيانة للقرآن الكريم عن الهذمة والكلام المعجم^(٦).

٢٣ - من السنة: السُّجود عند المرور بآية سجدة:

من آداب تلاوة القرآن أن يسجد عند تلاوة الآيات التي فيها سجود اقتداءً بالنبي ﷺ، سواء كان الوقت وقت نهْي أم غيره؛ لأنَّ سجود التلاوة من ذوات الأسباب.

(١) تهذيب الكمال (٢٤/٢٧٦)؛ تاريخ بغداد (٢/٦٣)؛ تاريخ مدينة دمشق (٥١/٣٩١)؛ تاريخ الإسلام (١٤/٣٠٩)؛ سير أعلام النبلاء (١٠/٣٥).

(٢) «فاستعجم القرآن»: أي استغلق ولم يُنطق به لسانه؛ غلبة النعاس. «صحيح مسلم بشرح النووي» (٦/٧٥).

(٣) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: أَمُرُّ مَنْ نَعَسَ فِي صَلَاتِهِ، أَوْ اسْتَعْجَمَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ، أَوْ الذِّكْرُ بَانَ يَرْقُدُ (١/٥٤٣) (ح ٧٨٧).

(٤) «يَسْتَفْهِرُ» معنى يستغفر هنا: يدعو. «صحيح مسلم بشرح النووي» (٦/٧٤).

(٥) رواه مسلم، الكتاب والباب نفسيهما (١/٥٤٢) (ح ٧٨٦).

(٦) انظر: كتاب الاداب (ص ٣٣).

فضائل سجود التلاوة:

مما ورد في فضائل سجود التلاوة: ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا قَرَأَ ابْنُ آدَمَ السَّجْدَةَ»^(١) فَسَجَدَ اغْتَزَلَ الشَّيْطَانُ يَمِينِي. يَقُولُ: يَا وَيْلَهُ»^(٢). (وفي رواية أبي كريب: يَا وَيْلِي). أَمَرَ ابْنُ آدَمَ بِالسُّجُودِ فَسَجَدَ فَلَهُ الْجَنَّةُ. وَأَمَرْتُ بِالسُّجُودِ فَأَبَيْتُ قَلْبِي النَّارُ»^(٣).

الذكر الوارد في سجود التلاوة:

مما ورد عن النبي ﷺ في سجود التلاوة ما يلي:

* ما جاء عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ، يَقُولُ فِي سُجُودِ الْقُرْآنِ بِاللَّيْلِ، يَقُولُ فِي السَّجْدَةِ مِرَاراً: «سَجَدَ وَجْهِي لِلَّذِي خَلَقَهُ، وَشَقَّ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ»^(٤).

* وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما، مرفوعاً: «اللَّهُمَّ اكْتُبْ لِي بِهَا عِنْدَكَ أَجْراً، وَضَعْ عَنِّي بِهَا وِزْراً، وَاجْعَلْهَا لِي عِنْدَكَ ذُخْراً، وَتَقَبَّلْهَا مِنِّي كَمَا تَقَبَّلْتَهَا مِنْ عَبْدِكَ دَاوُدَ»^(٥).

(١) (إِذَا قَرَأَ ابْنُ آدَمَ السَّجْدَةَ) معناه: آية السجدة.

(٢) (يَا وَيْلَهُ): قال النووي رحمته الله: «هو من أدب الكلام. وهو أنه إذا عَرَضَ فِي الْحِكَايَةِ عَنِ الْغَيْرِ مَا فِيهِ سُوءٌ، وَاقْتَضَتْ الْحِكَايَةُ رَجُوعَ الضَّمِيرِ إِلَى الْمَتَكَلِّمِ، صَرَفَ الْحَاكِي الضَّمِيرَ عَنِ نَفْسِهِ تَصَاوُناً عَنِ صُورَةِ إِضَافَةِ السُّوءِ إِلَى نَفْسِهِ».

«صحيح مسلم بشرح النووي» (٧١/٢).

(٣) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب: بيان إطلاق اسم الكفر على مَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ (٨٧/١) (ح ٨١).

(٤) رواه أبو داود (٦٠/٢) (ح ١٤١٤) واللفظ له. وابن خزيمة في «صحيحه» (٢٨٣/٩) (ح ٥٦٣) والحاكم في «المستدرک» (٣٤٢/١) (ح ٨٠٢)، وقال: «صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٢٦٥/١) (ح ١٢٥٥).

(٥) رواه الترمذي (٤٧٢/٢) (ح ٥٧٩) واللفظ له. وابن خزيمة في «صحيحه» (٢٨٢/٩) (ح ٥٦٢) وابن حبان في «صحيحه» (٤٧٣/٦) (ح ٢٧٦٨) والحاكم في «المستدرک» (٣٤١/١) (ح ٧٩٩) وقال: «حديث صحيح، رواه مكثون، لم يذكر واحد منهم بجرح، وهو من شرط الصحيح، ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

* وفي حديث علي بن أبي طالب عليه السلام، مرفوعاً: «اللَّهُمَّ لَكَ سَجَدْتُ، وَلَكَ أَمَنْتُ، وَلَكَ أَسْلَمْتُ، سَجَدَ وَجْهِي لِلَّذِي خَلَقَهُ وَصَوَّرَهُ، وَشَقَّ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ، تَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ»^(١).

حُكْمُ سُجُودِ التَّلَاوةِ:

١ - جمهور أهل العلم على أن سجود التلاوة مستحبٌ وليس بواجب، على اختلافٍ بينهم في أعداد هذه الآيات التي يُسجد عندها.

ودليل سُنيَّةِ سجود التلاوة:

* ما جاء عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: «قَرَأْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ: ﴿وَالنَّجْمِ﴾. فَلَمْ يَسْجُدْ فِيهَا»^(٢).

* وكذلك فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «أَنَّهُ قَرَأَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ عَلَى الْمِنْبَرِ سُورَةَ النَّحْلِ، حَتَّى إِذَا جَاءَ السَّجْدَةُ نَزَلَ فَسَجَدَ، وَسَجَدَ النَّاسُ، حَتَّى إِذَا كَانَتْ الْجُمُعَةُ الْقَابِلَةُ، قَرَأَ بِهَا، حَتَّى إِذَا جَاءَ السَّجْدَةُ، قَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّا نَمُرُّ بِالسُّجُودِ، فَمَنْ سَجَدَ فَقَدْ أَصَابَ، وَمَنْ لَمْ يَسْجُدْ فَلَا إثمَ عَلَيْهِ». وَلَمْ يَسْجُدْ عُمَرُ رضي الله عنه.

وَرَادَ نَافِعٌ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنه: «إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَفْرِضِ السُّجُودَ إِلَّا أَنْ نَشَاءَ»^(٣).

٢ - وذهب أبو حنيفة رحمته الله إلى أن سجود التلاوة واجب.

ودليل وجوبه: قوله تعالى: «فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ [الأنشقاق: ٢٠ - ٢١].

= وحسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (١/ ١٨٠) (ح ٤٧٣).

(١) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: الدعاء في صلاة الليل وقيامه (١/ ٥٣٥) (ح ٧٧).

(٢) رواه البخاري، كتاب سجود القرآن، باب: مَنْ قَرَأَ السَّجْدَةَ وَلَمْ يَسْجُدْ (١/ ٣٢٢) (ح ١٠٧٣).

(٣) رواه البخاري، كتاب سجود القرآن، باب: مَنْ رَأَى أَنَّ اللَّهَ ﷻ لَمْ يُوجِبِ السُّجُودَ (١/ ٣٢٣) (ح ١٠٧٧).

وَرَدَّ النَّوَوِي رحمته الله عَلَى مَا اسْتَدَلَّ بِهِ أَبُو حَنِيفَةَ قَائِلًا: «وَأَمَّا الْجَوَابُ عَنْ الْآيَةِ الَّتِي احْتَجَّ بِهَا أَبُو حَنِيفَةَ رحمته الله فَظَاهِرٌ؛ لِأَنَّ الْمُرَادَ ذَمُّهُمْ عَلَى تَرْكِ السُّجُودِ تَكْذِيبًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى بَعْدَهُ: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ﴾ [الأنشقاق: ٢٢]»^(١).

سجود المستمع تبعاً لسجود القارئ:

مَنْ اسْتَمَعَ إِلَى قَارِئٍ، فَقَرَأَ آيَةً فِيهَا سَجْدَةٌ، فَالْمُسْتَعِمُّ أَلَّا يَسْجُدَ هَذَا الْمُسْتَعِمُّ حَتَّى يَسْجُدَ الْقَارِئُ؛ لِأَنَّهُ بِمِثَابَةِ الْإِمَامِ فِي هَذَا السُّجُودِ.

ودليل ذلك:

* مَا جَاءَ عَنْ ابْنِ عُمر رضي الله عنه قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم يَقْرَأُ عَلَيْنَا السُّورَةَ فِيهَا السَّجْدَةُ، فَيَسْجُدُ وَنَسْجُدُ، حَتَّى مَا يَجِدُ أَحَدُنَا مَوْضِعَ جَبْهَتِهِ»^(٢).

* وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه لَتَمِيمِ بْنِ حَذَلَمٍ^(٣) - وَهُوَ غُلَامٌ - فَقَرَأَ عَلَيْهِ سَجْدَةً، فَقَالَ: «اسْجُدْ، فَإِنَّكَ إِمَامُنَا فِيهَا»^(٤).

قَالَ النَّوَوِي رحمته الله: «إِذَا سَجَدَ الْمُسْتَعِمُّ مَعَ الْقَارِئِ، لَا يَرْتَبِطُ بِهِ، وَلَهُ الرِّفْعُ مِنَ السُّجُودِ قَبْلَهُ»^(٥).

(١) التبيان في آداب حملة القرآن (ص ١٧١).

(٢) رواه البخاري، كتاب سجود القرآن، باب: مَنْ سَجَدَ لِسُجُودِ الْقَارِئِ (١/٣٢٣) (ح ١٠٧٥).

(٣) هو تميم بن حذلم الضبي، الكوفي (أبو سلمة) قال ابن حجر رحمته الله: «ثقة، من الثانية». أدرك الجاهلية، ووفد في عهد أبي بكر رضي الله عنه. من أصحاب عبد الله بن مسعود، أدرك أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، وسمع منهما.

انظر: تقريب التهذيب (١/١٣٠)؛ الإصابة في تمييز الصحابة (١/٣٧٧).

(٤) رواه البخاري معلقاً بصيغة الجزم، كتاب سجود القرآن، باب: مَنْ سَجَدَ لِسُجُودِ الْقَارِئِ (١/٣٢٣)، قال ابن حجر رحمته الله: «هذا الأثر وصَّله سعيد بن منصور، من رواية مغيرة عن إبراهيم... وقد رُوِيَ مرفوعاً، أخرجه ابن أبي شيبة من رواية ابن عجلان عن زيد ابن أسلم... ورجاله ثقات إلا أنه مُرسَلٌ». «فتح الباري شرح صحيح البخاري» (٢/٧١٨). وانظر: تغليق التعليق، لابن حجر (٢/٤١٠)؛ مصنف ابن أبي شيبة (١/٣٧٩) (رقم ٤٣٦٣)؛ المراسيل، لأبي داود (١/١١٢).

(٥) التبيان في آداب حملة القرآن (ص ١٨٢).

لا يلزم السامع أن يسجد مع القارئ:

* عن سعيد بن المسيب رضي الله عنه أن عثمان رضي الله عنه مرَّ بقاصٍ فقرأ سجدةً ليسجدَ معه عثمان، فقال عثمان رضي الله عنه: «إنما السجودُ على من استمع، ثم مضى ولم يسجد»^(١).
قال الكرمانى رحمته الله: «والفرق بينهما: أن المستمع: من كان قاصداً للسمع مُصغياً إليه. والسامع: من اتفق سماعه من غير قصدٍ إليه»^(٢).

* وعن أبي عبد الرحمن السلمي قال: مرَّ سلمان رضي الله عنه على قوم قعود فقرأوا السجدة فسجدوا، فقيل له؟ فقال: «ليس لهذا غدونا»^(٣).
«أي: ما غدونا لأجل السماع، فكأنه أراد بيان أننا لم نسجد؛ لأننا ما كنا قاصدين السماع»^(٤).

٢٤ - القدر المستحب في ختم القرآن:

وردت عدة أحاديث في مدة ختم القرآن، فأقل ذلك ثلاثة أيام، وأوسطه سبعة أيام أو عشرة، وأكثره قيل: أربعون يوماً. وقيل: في السنة مرتين؛ وذلك لأن النبي ﷺ عرض على جبريل عليه السلام في السنة التي قبض فيها مرتين^(٥).
ومن هذه الأحاديث:

* ما رواه عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: كنت أضوم الدهر، وأقرأ القرآن كلَّ ليلة، فقال لي رسول الله ﷺ: «ألم أخبر أنك تصوم الدهر وتقرأ القرآن كلَّ ليلة؟» فقلت: بلى. يا نبي الله! ولم أرد بذلك إلا الخير - ثم أخبره عن الصيام - ثم قال رسول الله ﷺ: «وأقرأ القرآن في كل شهر»^(٦). قال: قلت: يا

(١) رواه عبد الرزاق في «مصنفه» (٣/٣٤٤) (رقم ٥٩٠٦).

(٢) عمدة القاري شرح صحيح البخاري (١٠٨/٧).

(٣) رواه عبد الرزاق في «مصنفه» (٣/٣٤٥) (رقم ٥٩٠٩). قال ابن حجر رحمته الله: «وإسناده صحيح».

(٤) «فتح الباري شرح صحيح البخاري» (٢/٥٥٨) وانظر: صحيح البخاري (١/٣٦٥)؛ ومصنف ابن أبي شيبة (١/٣٦٧) (رقم ٤٢٢٣).

(٥) المنصرد السابق (١٠٨/٧).

(٦) انظر: الإتقان في علوم القرآن (ص ٢٦٠).

(٦) أي: اختمه.

نَبِيِّ اللَّهِ! إِنِّي أَطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ. قَالَ: «فَأَقْرَأْ فِي كُلِّ عَشْرِينَ». قَالَ: قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ! إِنِّي أَطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ. قَالَ: «فَأَقْرَأْ فِي كُلِّ عَشْرٍ». قَالَ: قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ! إِنِّي أَطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ. قَالَ: «فَأَقْرَأْ فِي كُلِّ سَبْعٍ، وَلَا تَزِدْ عَلَى ذَلِكَ»^(١).

* وعن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو: أَنَّهُ سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ فِي كَمْ يُقْرَأُ الْقُرْآنُ؟ قَالَ: «فِي أَرْبَعِينَ يَوْمًا»، ثُمَّ قَالَ: «فِي شَهْرٍ»، ثُمَّ قَالَ: «فِي عَشْرِينَ»، ثُمَّ قَالَ: «فِي خَمْسَ عَشْرَةَ»، ثُمَّ قَالَ: «فِي عَشْرٍ»، ثُمَّ قَالَ «فِي سَبْعٍ»^(٢).

ولذلك قال إسحاق بن إبراهيم رحمته الله: «ولا نحبُّ للرجل أن يأتي عليه أكثر من أربعين يوماً ولم يقرأ القرآن؛ لهذا الحديث»^(٣).

* وعن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فِي كَمْ أَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟ قَالَ: «فِي شَهْرٍ» قَالَ: إِنِّي أَقْوَى مِنْ ذَلِكَ، وَتَنَاقَضُ حَتَّى قَالَ: «أَقْرَأْ فِي سَبْعٍ» قَالَ: إِنِّي أَقْوَى مِنْ ذَلِكَ، قَالَ: «لَا يَفْقَهُ مَنْ قَرَأَهُ فِي أَقَلِّ مِنْ ثَلَاثٍ»^(٤).

«وهذا نصٌّ صريحٌ في أَنَّهُ لَا يُخْتَمُ الْقُرْآنُ فِي أَقَلِّ مِنْ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ»^(٥).

عَلَّةُ النَّهْيِ عَنِ الْخَتْمِ فِي أَقَلِّ مِنْ ثَلَاثِ:

عَلَّلَ النَّبِيُّ ﷺ ذَلِكَ بِعِلَّتَيْنِ:

الأولى: عَدَمُ الْفَقْهِ.

(١) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: فِي كَمْ يُقْرَأُ الْقُرْآنُ (١٦٢٧/٣) (ح ٥٠٥٤)؛ ومسلم، واللفظ له، كتاب الصَّيَام، باب: النَّهْيُ عَنْ صَوْمِ الدَّهْرِ... (٨١٣/٢) (ح ١١٥٩).

(٢) رواه أبو داود (٥٦/٢) (ح ١٣٩٥)؛ وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (١/٢٦٢) (ح ١٣٤٣).

(٣) أورده الترمذي عقب حديث رقم: (٢٩٤٦) (١٩٦/٥).

(٤) رواه أبو داود (٥٤/٢) (ح ١٣٩٠)؛ وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (١/٢٦١) (ح ١٢٣٩).

(٥) عون المعبود (١٨٧/٤).

الثانية: قوله لعبد الله بن عمرو رضي الله عنه: «لَإِنْ لَزَوْجَكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِرَوْدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِلْجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا»^(١).

فالرجل عليه مسؤولية تجاه أسرته ومنزله وضيافته، وكذلك عليه الرفق بنفسه، وختم القرآن في أقل من ثلاث على حساب ذلك غالباً.

بل هناك وظائف شرعية أخرى كالجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله، وإصلاح الناس، والتي هي من فروع الكفاية، ومن أفضل الأعمال الصالحة، والأمة لا تستغني عن جهود أبنائها في ذلك.

ففي التفريغ لتلاوة القرآن على هذا النحو تعطيل لهذه الوظائف، خاصة في هذا العصر^(٢). ولتبقى - أيضاً - في النفس بقية من الطاقة تنجز بها مبادئ القرآن.

هدي النبي ﷺ في ختم القرآن:

لم يثبت عنه ﷺ أنه قرأ القرآن كله في ليلة، ولم يقرأه كذلك في أقل من

ثلاث:

* عن عائشة رضي الله عنها قالت: «... وَلَا أَهْلُمُ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ قَرَأَ الْقُرْآنَ كُلَّهُ فِي لَيْلَةٍ...»^(٣).

* وعنهما رضي الله عنهما قالت: «كَانَ ﷺ لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ فِي أَقْلٍ مِنْ ثَلَاثٍ»^(٤).

قال الألباني^(٥) رحمته الله: «ختم القرآن في أقل من ثلاث خلاف

(١) رواه مسلم (٨١٣/٢) (ح ١١٥٩) وقد تقدّم تخريجه قريباً.

(٢) تحزيب القرآن، لمحمد بن عبد الله الدويش، مجلة البيان (عدد: ٤٢) (صفر ١٤١٢هـ) (ص ٥١ - ٥٢).

(٣) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: جامع صلاة الليل (٥١٤/٢) (ح ٧٤٦).

(٤) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٣٧٦/١)؛ وأبو الشيخ في «أخلاق النبي ﷺ» (ص ٢٨١)؛ وأورده الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٦٠٠/٥) (ح ٢٤٦٦) وقال عن إسناده: «وهذا إسناده فيه ضعف... لكن يشهد للحديث: (نهيه ﷺ عبد الله بن عمرو أن يقرأ القرآن في أقل من ثلاث)، وقوله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فِي أَقْلٍ مِنْ ثَلَاثٍ لَمْ يَقْفَهُ»؛ واحتج به في «صفة الصلاة» (ص ١٢)؛ وصححه في «صحيح الجامع» (٨٧٨/٢) (ح ٤٨٦٦).

(٥) هو المحدث محمد ناصر الدين بن نوح الألباني نسبة إلى أصله، من علماء الحديث المعاصرين المشهورين، ولد في أشقودره - عاصمة ألبانيا - سنة (١٣٣٣هـ) والله كان =

السُّنَّة»^(١). ونحن متعبّدون باتِّباع سُنَّتِهِ ﷺ. وهديه، الموصول إلى رضوان الله ومحَبَّتِهِ، مع ما نُكِنُّهُ - في نفوسنا - من تقدير وإكبار وإجلال لسلف الأُمَّة. ولمَّا ذَكَرَ النَّوَوِي رَحِمَهُ اللهُ عَادَاتِ السَّلَفِ فِي خَتْمِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَذَكَرَ مَنْ كَانَ يَخْتُمُهُ فِي سَبْعٍ قَالَ: «وَهَذَا فِعْلُ الْأَكْثَرِينَ مِنَ السَّلَفِ»^(٢).

وَمِثْلُهُ قَالَ السَّيُوطِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «وَهَذَا أَوْسَطُ الْأُمُورِ وَأَحْسَنُهَا، وَهُوَ فِعْلُ الْأَكْثَرِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَغَيْرِهِمْ»^(٣).
تَخْرِيجُ فِعْلٍ مَنْ خَتَمَ الْقُرْآنَ فِي أَقَلِّ مِنْ ثَلَاثٍ:

وَرَدَتْ آثَارٌ فِي خَتْمِ الْقُرْآنِ عَنْ بَعْضِ السَّلَفِ الصَّالِحِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَتَابِعِيهِمْ فِي خَتْمِهِمْ فِي أَقَلِّ مِنْ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، كَعِثْمَانُ بْنُ عَفَّانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، حَيْثُ قَرَأَ الْقُرْآنَ فِي رَكْعَةٍ يُوتِرُ بِهَا، وَرَوِيَ عَنْ تَمِيمِ الدَّارِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّهُمَا خَتَمَا الْقُرْآنَ فِي رَكْعَةٍ فِي جَوْفِ الْكَعْبَةِ، وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالصَّالِحِينَ^(٤).

فَهَذَا وَأَمثَالُهُ يُحْمَلُ عَلَى مَا ذَكَرَهُ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ حَيْثُ قَالَ: «فَهَذَا وَأَمثَالُهُ مِنَ الصَّحِيحِ عَنِ السَّلَفِ مَحْمُولٌ: إِمَّا عَلَى أَنَّهُ مَا بَلَغَهُمْ فِي ذَلِكَ حَدِيثٌ مِمَّا تَقَدَّمَ^(٥)، أَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَفْهَمُونَ وَيَتَفَكَّرُونَ فِيهَا يَقْرَءُونَهُ مَعَ هَذِهِ السَّرْعَةِ»^(٦)، أَوْ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ فِي فِتْرَةٍ حَمَاسٍ وَكَثْرَةِ نَشَاطٍ، أَوْ وَقْتٍ فَاضِلٍ كَرَمَضَانَ وَنَحْوَهُ، فَأَرَادُوا اسْتِمَارَهُ لَا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ عَادَةً لَهُمْ فِي سَائِرِ الْعُمْرِ.

عَالِمًا فِي الْمَذْهَبِ الْحَنْفِيِّ، وَقَدْ فَرَّتْ أَسْرَتُهُ بَدِينَهَا مِنْ حُكْمِ الْمَلِكِ أَحْمَدَ زَوْغُو، وَاسْتَقَرَّتْ فِي دِمَشْقَ، وَفِيهَا تَلَقَّى الْعُلُومَ الشَّرْعِيَّةَ، بِالإِضَافَةِ إِلَى أَخْذِهِ عَنِ الْوَالِدِ، ثُمَّ إِنَّهُ عَكَفَ عَلَى دِرَاسَةِ الْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ فَبَرَزَ فِيهِ آخِذًا بِالْمَذْهَبِ السَّلَفِيِّ، وَلَهُ أَكْثَرُ مِنْ مِائَةِ كِتَابٍ، تَوَفَّى فِي مَدِينَةِ عَمَّانَ سَنَةَ (١٤٢٠هـ).

انظر: إتمام الأعلام، د. نزار أباظة ومحمد رياض الملاح (ص ٤١٦).

(١) السلسلة الصحيحة (٥/٦٠٠). (٢) الأذكار (ص ١٥٣).

(٣) الإتيقان في علوم القرآن (ص ٢٥٩).

(٤) انظر: سنن الترمذي (٥/٩١٩٦)، عقب حديث رقم: (٢٩٤٦).

(٥) وهو الذي اختاره الألباني رَحِمَهُ اللهُ فَقَالَ: «وَلَا يُشْكَلُ عَلَى هَذَا مَا ثَبِتَ عَنْ بَعْضِ السَّلَفِ مِمَّا هُوَ خِلَافُ هَذِهِ السُّنَّةِ الصَّحِيحَةِ، فَإِنَّ الظَّاهِرَ أَنَّهَا لَمْ تَبْلُغْهُمْ».

«السلسلة الصحيحة» (٥/٦٠١).

(٦) فضائل القرآن (ص ٢٦٠).

ولذلك قال ابن رجب رحمته الله: «إنما ورد النهي عن قراءة القرآن في أقل من ثلاث على المداومة على ذلك، فأما في الأوقات الفاضلة كشهر رمضان، خصوصاً الليالي التي تطلب فيها ليلة القدر، أو في الأماكن المفضلة كمكة لمن دخلها من غير أهلها، فيستحب الإكثار فيها من تلاوة القرآن اغتناماً لفضيلة الزمان والمكان، وهو قول أحمد وإسحاق وغيرهما من الأئمة، وعليه يدل عمل غيرهم»^(١).

وقال النووي رحمته الله: «وقد كره جماعة من المتقدمين الختم في يوم وليلة»^(٢).

وقال الألباني رحمته الله: «أحسن الإمام الترمذي برواية هذا الخبر، والذي بعده (خبر عثمان بن عفان، وسعيد بن جبير) بصيغة التضعيف؛ لأن الركة مهما طالت لا يمكن أن يقرأ فيها القرآن الكريم كاملاً، فضلاً عما في ذلك من مخالفة لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في الركوع والسجود والقيام، وحاشا لسيدنا عثمان أن يفعل مثل ذلك»^(٣).

الجمع بين رواية (السبع) ورواية (الثلاث) في الختم:

قد يشكل على البعض ورود بعض الأحاديث - في تحديد مدة ختم القرآن - بسبعة أيام، وبعضها بثلاثة أيام. ولإزالة هذا الإشكال المتوقع، من المناسب جداً أن أورد كلاماً نفيساً لابن تيمية رحمته الله، حيث قال في هذا الشأن: «وأما رواية من روى: (من قرأ القرآن في أقل من ثلاث لم يفقه) فلا تنافي رواية التسبيع، فإن هذا ليس أمراً لعبد الله بن عمرو، ولا فيه أنه جعل قراءته في ثلاث دائماً سنة مشروعة، وإنما فيه الإخبار بأن من قرأه في أقل من ثلاث لم يفقه، ومفهومته مفهوم العدد، وهو مفهوم صحيح، أن من قرأه في ثلاث فصاعداً فحكمه نقيض ذلك، والتناقض يكون بالمخالفة، ولو من بعض الوجوه.

فإذا كان من يقرؤه في ثلاث أحياناً قد يفقهه حصل مقصود الحديث، ولا

(٢) الأذكار (ص ١٥٤).

(١) لطائف المعارف (ص ١٦٦).

(٣) ضعيف سنن الترمذي (ص ٣٥٧).

يلزم إذا شَرَعَ فَعَلُ ذَلِكَ أحياناً لبعض الناس أن تكون المداومة على ذلك مُستحبة؛ ولهذا لم يُعلم في الصحابة على عهده مَنْ دَاوَمَ على ذلك، أعني على قراءته دائماً فيما دون السَّبْع، ولهذا كان الإمام أحمد رحمته الله يقرؤه في كلِّ سَبْعٍ ^(١).

التفصيل الحسن في مقدار الختم:

ذَكَرَ بعض المحققين من أهل العلم قواعد وضوابط عامة في مسألة ختم القرآن الكريم، وفَصَّلُوا في ذلك بما يتناسب وحال القارئ، من جهة الأعباء والمسؤوليات الملقاة على عاتقه، وقدراته العلمية، والوقت المهيأ له للقراءة، وغير ذلك من الأمور، ومما جاء في ذلك: ما ذكره الغزالي رحمته الله حيث قال: «للفي الختم أربع درجات: الختم في يوم وليلة، وقد كرهه جماعة، والختم في كلِّ شهر، كلُّ يوم جزء من ثلاثين جزءاً، وكأنه مبالغة في الاختصار، كما أنَّ الأول مبالغة في الاستكثار، وبينهما درجتان معتدلتان: أحدهما: في الأسبوع مرَّة، والثانية: في الأسبوع مرَّتين، تقريباً من الثلاث...»

والتفصيل في مقدار القراءة: أنه إن كان من العابدين السَّالِكِينَ طريق العمل، فلا ينبغي أن يُنْقِصَ عن ختمتين في الأسبوع، وإن كان من السَّالِكِينَ بأعمال القلب وضروب الفكر، أو من المشغولين بنشر العلم، فلا بأس أن يقتصر في الأسبوع على مرَّة، وإن كان نافذ الفكر في معاني القرآن، فقد يكتفي في الشهر بمرَّة؛ لكثرة حاجته إلى كثرة التَّرديد والتَّأَمُّل ^(٢).

ثمَّ أَثْنَى بما قاله النووي رحمته الله حيث قال: «والمختار: أنَّ ذلك يختلف باختلاف الأشخاص، فمن كان يظهر له بدقيق الفكر لطائف ومعارف، فليقتصر على قَدْرٍ يَحْصُلُ له كمالُ فهم ما يقرأ، وكذا مَنْ كان مشغولاً بنشر العلم، أو فَضَّلَ الحكومات بين المسلمين، أو غير ذلك من مهمَّات الدِّين والمصالح العامة للمسلمين، فليقتصر على قَدْرٍ لا يحصل له بسببه إخلال بما هو مرصَّد له، ولا فوت كماله، ومن لم يكن من هؤلاء المذكورين فليستكثر ما أمكنه، من غير

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (٤٠٧/١٣). (٢) إحياء علوم الدين (٢٧٦/١).

خروج إلى حد الملل أو الهزيمة في القراءة^(١).
 وأختم بما جاء في (مختصر منهاج القاصدين): «وَمِنْهُمْ - يَعْنِي السَّلَفَ - مَنْ كَانَ يَخْتَمُ فِي ثَلَاثَ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يَخْتَمُ فِي أُسْبُوعٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يَخْتَمُ فِي كُلِّ شَهْرٍ، اشْتِغَالًا بِالتَّدْبِيرِ أَوْ بِنَشْرِ الْعِلْمِ، أَوْ بِتَعْلِيمِهِ، أَوْ بِنَوْعٍ مِنَ التَّعَبُّدِ غَيْرِ الْقِرَاءَةِ، أَوْ بِغَيْرِهِ مِنْ اكْتِسَابِ الدُّنْيَا.
 وأولى الأمر: ما لا يمنع الإنسان من أشغاله المهمة، ولا يؤذيه في بدنه، ولا يفوت معه الترتيل والفهم^(٢)».

٢٥ - مشروعية «تحزيب القرآن»:

تحزيب القرآن من السنن المهيوجة - بل المجهولة - عند كثير من طلاب العلم، فضلاً عن عامة الناس. في حين كان الأمر متواتراً ومعلومًا عند السلف الصالح، فقلماً نقرأ في ترجمة أحدهم إلا ونجد أنه كان يختم القرآن في كذا وكذا^(٣).

تعريف «الحزب»:

قال ابن فارس رحمه الله: «الحاء والزَّاء والباء أصل واحد، وهو تجمُّع الشيء. فمن ذلك: الحِزْبُ: الجماعة من الناس، قال الله تعالى: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣]. والطائفة من كل شيء حِزْبٌ»^(٤).

وقال ابن الأثير رحمه الله: «الحِزْبُ: ما يجعله الرجل على نفسه من قراءة، أو صلاة، كالورود. والحِزْبُ: التوبة في ورود الماء»^(٥).

ومعنى ذلك: أن يجعل المسلم لنفسه نصيباً يومياً يقرؤه ويتعاهد نفسه عليه، بحيث يختم القرآن في كل أربعين يوماً، أو في شهر، أو عشرين يوماً، أو خمسة عشر، أو عشرة، أو سبعة، أو غير ذلك.

(١) الأذكار (ص ١٥٤).

(٢) مختصر منهاج القاصدين، لأحمد بن محمد المقدسي (ص ٥٥).

(٣) انظر: تحزيب القرآن (ص ٤٠).

(٤) معجم مقاييس اللغة (٢٩١/١)، مادة: (حزب).

(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر (٣٧٦/١)، مادة: (حزب).

* والأصل في مشروعية «تحزيب القرآن»: الروايات المتقدمة في حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه. وتقدم أيضاً أن أكثر السلف الصالح يهتمون القرآن في (سبع).

* وجاء تحديد هذا التحزيب في قول أوس بن حذيفة الثقفي رضي الله عنه: «سألت أصحاب رسول الله ﷺ: كيف تُحزَّبون^(١) القرآن؟». قالوا: «ثلاث، وخمسة، وسبع، وتسع، وإحدى عشرة، وثلاث عشرة، وحزب المفصل وحده»^(٢).

وفي (عون المعبود) في شرح الحديث: «كيف تُحزَّبون القرآن»: كيف تجعلونه المنازل. والحزب: هو ما يجعله الرجل على نفسه من قراءة. (قالوا: ثلاث) أي البقرة، وآل عمران، والنساء. فهذه السور الثلاثة منزل واحد من سبع منازل القرآن. (وخمسة) من المائدة إلى البقرة. (وسبع) من يونس إلى النحل. (وتسع) من بني إسرائيل إلى الفرقان. (واحدى عشرة) من الشعراء إلى يس. (وثلاث عشرة) من الصافات إلى الحجرات. (وحزب المفصل وحده) من قاف إلى آخر القرآن. فعلم من هذا أن في عصر الصحابة كان ترتيب القرآن مشهوراً على هذا النمط المعروف الآن^(٣).

التحزيب بالسور لا بالأجزاء:

تحدث ابن تيمية رحمته الله عن هذه المسألة بإسهاب، واختار أن التحزيب

(١) (تُحزَّبون): من التحزيب: وهو تجزئة القرآن، واتخاذ كل جزء جزءاً له.

(٢) رواه أبو داود (٥٥/٢) (ح ١٣٩٣)، واللفظ له. وابن ماجه (٤٢٧/١) (ح ١٣٤٥)، وأحمد في «المسند» (٩/٤) (ح ١٦٢١١). وفي سننه: عثمان بن عبد الله ابن أوس الثقفي: قال ابن حجر في «التقريب»: «مقبول». وقال الذهبي في «الميزان»: «محل الصدق». وذكره ابن حبان في «الثقات». وحسنه العراقي في «تخريج الإحياء» (١/٢٧٦)؛ وابن حجر كما في «الفتوحات»، لابن علان (٣/٢٢٩)؛ واحتج به ابن تيمية - في حديثه عن التحزيب، كما في «مجموع الفتاوى» (١٣/٤٠٨ - ٤٠٩). وانظر: تخريج الأئناؤوط في «جامع الأصول» (٢/٤٧٥)، وتخرجه الوادي في «تفسير ابن كثير» (١/١٨)؛ وضعفه الألباني في «ضعيف سنن أبي داود» (ص ١٣٦) (ح ٢٩٧)؛ و«ضعيف سنن ابن ماجه» (ص ١٠٠) (ح ٢٨٣).

(٣) (١٩٠/٤).

المشروع هو أن يكون بالسُّور وليس بالأجزاء، أو الأحزاب. وذلك للأمور الآتية:

أولاً: أنَّ المنقول عن الصحابة رضي الله عنهم هو التَّحْزِيبُ بالسُّور، لا بالأجزاء، واستدلَّ لذلك بما جاء عن أُوسِ بن حذيفة الثَّقَفِي رضي الله عنه ^(١)، وهذا يُوافقُ معنى حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، في أنَّ المسنون عندهم قراءته في سَبْعٍ، ولهذا جعلوه سبعةً أحزاب، ولم يجعلوه ثلاثة، ولا خمسة ^(٢).

ثانياً: أنَّ الأجزاء والأحزاب مُحدثة، وفي حديث أُوسٍ أنَّهم حَزَبُوا القرآن بالسُّور، قال ابن تيمية رحمته الله: «وهذا معلوم بالتواتر؛ فإنه قد عُلِمَ أنَّ أوَّلَ ما جُزِيَ القرآن بالحروف تجزئة ثمانية وعشرين، وثلاثين، وستين. هذه التي تكون رؤوس الأجزاء والأحزاب في أثناء السُّورة، وأثناء القصَّة ونحو ذلك، كان في زمن الحجاج وما بعده، ورُوِيَ أنَّ الحجاج أمرَ بذلك. ومن العراق فشا ذلك ولم يكن أهل المدينة يعرفون ذلك» ^(٣).

ثالثاً: أنَّ هذه التَّحْزِيبَاتِ المُحدثة تَتَضَمَّنُ دائماً - الوقف على بعض الكلام المتَّصل بما بعده، وتتضمَّن أيضاً الوقف على المعطوف دون المعطوف عليه، ثمَّ يأتي القارئ - في اليوم الثاني - مبتدئاً بمعطوف، كقوله تعالى: ﴿وَالْمُصَنِّعُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ...﴾ [النساء: ٢٤]. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْتَنِ مِنَ اللَّهِ رِيسُولُهُ...﴾ [الأحزاب: ٣١]. وأمثال ذلك.

وتتضمَّن كذلك الوقف على بعض القصَّة دون بعض - حتَّى في كلام المتخاطبين - ثمَّ يحصل الابتداء - في اليوم الثاني - بكلام المجيب، كقوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٥].

ومثُلُ هذه الوقوف لا يسوغ في المجلس الواحد إذا طال الفصل بينهما بأجنبي؛ ولهذا لو ألحق بالكلام عطف، أو استثناء، أو شرط، ونحو ذلك - بعد طول الفصل بأجنبي - لم يَسُغْ ذلك بلا نزاع ^(٤).

(١) وقد تقدَّم تخريجه قريباً.

(٢) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية (١٣/٤٠٨ - ٤٠٩).

(٣) المصدر نفسه (١٣/٤٠٩).

(٤) انظر: المصدر نفسه (١٣/٤١٠ - ٤١١).

رابعاً: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كانت عاداته الغالبة أن يقرأ - في الصَّلَاة - بسورة كاملة كـ «ق» ونحوها، وكذا عادة أصحابه ﷺ، فكان ابن عمر رضي الله عنهما يقرأ بـ «يونس»، و«يوسف»، و«التَّحْلُ». وأمَّا القراءة بأواخر السُّور وأواسطها فلم يكن غالباً عليهم.

قال ابن تيمية رحمه الله: «وإذا كان تحزيبه بالحروف إنما هو تقريب لا تحديد، كان ذلك من جنس تجزئته بالسُّور أيضاً تقريب، فإن بعض الأسباع قد يكون أكثر من بعض في الحروف، وفي ذلك من المصلحة العظيمة بقراءة الكلام المتصل بعضه ببعض، والافتتاح بما فَتَحَ اللهُ به السُّورة، والاختتام بما خَتَمَ به، وتكميل المقصود من كلِّ سورة ما ليس في ذلك التَّحزيب. وفيه أيضاً من زوال المفاسد الذي في ذلك التَّحزيب ما تقدَّم التَّنبيه على بعضها»^(١).

وعلى كلِّ حال لا يليق بطلاب العلم والدُّعاة إلى الله تعالى - الذين يحملون في صدورهم همَّ الإصلاح، والتَّغيير، ودعوة النَّاس للخير - ألا يكون لهم نصيب من كتاب الله تعالى يلتزمون به قلَّ أو كثر. ومهما ادَّعى الواحد منهم كثرة المشاغل، فهي دعوى تحتاج إلى بيَّنة، وهو دليل على قلة اهتمامه بتركية نفسه، والتَّزوُّد بالتَّقوى، فمتى كانت تلاوة القرآن، وإصلاح النَّفس، وعبادة الله ﷻ ممَّا لا يُفعل إلا وقت الفراغ؟^(٢).

ثمرات التَّحزيب: -
* في التَّحزيب تحقيقٌ لهديه ﷺ في المداومة على العمل الصَّالح، وكان ﷺ يقول: «أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ»^(٣). وفيه تأسُّ بالسَّلف الصَّالح ﷺ.

* وفيه أنَّ العبد يُكتب له حظه إذا شَغَلَهُ عنه مرض، أو سفر؛ لقوله ﷺ:

(١) المصدر نفسه (١٣/٤١٤).

(٢) انظر: تحزيب القرآن (ص ٥٣ - ٥٤).

(٣) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضيلة العمل الدائم من قيام اللَّيْلِ وغيره (١/٥٤١) (ج ٧٨٣).

«إِذَا مَرَضَ الْعَبْدُ، أَوْ سَافَرَ، كُتِبَ لَهُ مِثْلُ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا»^(١).
 * وفيه تعاهد للقرآن العظيم، كما أمر بذلك رسول الله ﷺ: «تَعَاهَدُوا الْقُرْآنَ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَهُوَ أَشَدُّ تَقْصِيًا مِنَ الْإِبِلِ مِنْ حُقُلِهَا»^(٢).

٢٦ - مشروعية «دعاء ختم القرآن» :

الأصل في دعاء ختم القرآن ما جاء عن أنس بن مالك رضي الله عنه: «كان إذا خَتَمَ الْقُرْآنَ جَمَعَ أَهْلَهُ فَدَعَا»^(٣). وجاء مثل ذلك عن عدد من الصحابة والتابعين، فدعاء ختم القرآن مأثور من عمل السلف الصالح.

ولا يوجد دعاء بالفاظ مخصوصة عند ختم القرآن، وكثرة أدعية ختم القرآن المنتشرة والمتداولة بين الناس ليست دليلاً على مشروعيتها، وليس هناك نص مرفوع إلى النبي ﷺ تقوم به حجة في التزام دعاء يقال عند ختم القرآن الكريم.

ومن أشهر الأدعية المنتشرة بين الناس (دعاء ختم القرآن العظيم) لابن تيمية، وهو منسوب إليه، ولا يصح نسبته إليه بحال^(٤).

موضع دعاء الختم خارج الصلاة:

لقد استقصى الشيخ بكر أبو زيد - حفظه الله - مرويات دعاء ختم القرآن، وأقوال أهل العلم فيها، بما قد لا يوجد في مكان آخر، وقال - في خلاصة ما توصل إليه :

(١) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب: يُكْتَبُ لِلْمُسَافِرِ مِثْلُ مَا كَانَ يَعْمَلُ فِي الْإِقَامَةِ (٩٢١/٢) (ح ٢٩٩٦).

(٢) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: استذكار القرآن وتعاهده (١٦٢١/٣) (ح ٥٠٣٣).

(٣) رواه ابن المبارك في «الزهد» (ص ٢٧٩) (رقم ٨٠٩)؛ وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٦/ ١٢٨) (رقم ٣٠٠٣٨)؛ وابن نصر في «مختصر قيام الليل» (ص ١٠٩)؛ والدارمي في «سننه» (٢/ ٥٦٠) (رقم ٣٤٧٤)؛ وسعيد بن منصور في «سننه» (١/ ١٤٠) (رقم ٢٧)؛ والطبراني في «المعجم الكبير» (١/ ٢٤٢) (رقم ٦٧٤)؛ وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٧٢): «وجاله ثقات» وقال ابن علقان في «شرح الأذكار» (٣/ ٢٤٤): «بإسناد الصحيحين».

(٤) انظر: الأجزاء الحديثية، د. بكر بن عبد الله أبو زيد (ص ٢٣٩).

«وعليه: فإن خلاصة النتيجة الحكمية في هذين المقامين تتكوّن في أمرين:
 الأول: أن دعاء القارئ لختم القرآن خارج الصلاة، وحضور الدعاء في ذلك، أمر مأثور من عمل السلف الصالح من صدر هذه الأمة، ...
 الثاني: أن دعاء ختم القرآن في الصلاة، من إمام أو منفرد، قبل الركوع أو بعده، في (التراويح) أو غيرها: لا يُعرف ورود شيء فيه أصلاً عن النبي ﷺ، ولا عن أحد من صحابته مُسنداً...»^(١)
 أمور لا تُشرع عند الختم:

- ذكر الشيخ بكر أبو زيد - حفظه الله - سبعة أمور تتعلق بالختم، لا يصح فيها شيء عن النبي ﷺ، ولا عن صحابته رضي الله عنهم، وهي على النحو التالي:
- ١ - إكمال الختم وتتمّته. ومعناه: أن يقرأ المأموم ما فات الإمام من الآيات، وأن يُعيد الإمام - بعد الختم - ما فات من الآيات.
 - ٢ - استحباب ختمه في مساء الشتاء، وصباح الصيف.
 - ٣ - وضلّ ختمه بأخرى بقراءة الفاتحة، وخمس آيات من سورة البقرة.
 - ٤ - تكرار سورة الإخلاص ثلاثاً.
 - ٥ - التكبير في آخر سورة الضحى إلى آخر سورة الناس داخل الصلاة وخارجها. ولم يثبت فيه شيء عن النبي ﷺ.
 - ٦ - صيام يوم الختم.
 - ٧ - دعاء الختم داخل الصلاة^(٢).
- فكل هذه الأمور وأمثالها ممّا لا تقوم به حجة، فالصحيح عدم مشروعيتها.



(١) الأجزاء الحديثية (مجلد)، ضمن خمس رسائل، منها: مرويات دعاء ختم القرآن الكريم (ص ٢٩٠).

(٢) انظر: تصحيح الدعاء (ص ٢٩٠ - ٢٩١).

المبحث الرابع

فضائل تلاوة القرآن

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: التلاوة تجارة رابحة.

المطلب الثاني: تَنْزُلُ السَّكِينَةُ وَالرَّحْمَةُ وَالْمَلَائِكَةُ لِلتَّلَاوةِ.

المطلب الثالث: اغتباط صاحب التلاوة.

المطلب الرابع: التلاوة حلية لأهل الإيمان.

المطلب الخامس: التلاوة كُلُّهَا خَيْرٌ.

فضائل تلاوة القرآن

تمهيد:

كان رسول الله ﷺ يُكثر من تلاوة القرآن العظيم، فكان يقرؤه قائماً، وقاعداً، ومضطجعاً، ومتوضئاً، ومُخِذاً، وفي سيره وركوبه، وسائر أحواله. وهذه من الأفعال التي كان يعملها رسول الله ﷺ أحياناً لبيان جوازها، ولكن يُؤخذ منها أنه ﷺ كان يقرأ القرآن في سائر أحواله.

وقد حثَّ النبي ﷺ أصحابه على قراءة القرآن بصفة فردية أو جماعية، وفي البيوت، وفي المساجد.

وكان رسول الله ﷺ يدعو أصحابه إلى قراءة القرآن في الطُرقات بلسان حاله، فنلاحظ أنَّ آيات كثيرة نزلت عليه ﷺ في طريق سفره فكان يقرأ بها، وهي دعوة غير مباشرة منه ﷺ إلى الاقتداء به في القراءة حتى في الطريق. وأما دعوته ﷺ إلى القراءة بِوَرْدٍ يومي، فنجدها في قوله ﷺ: «مَنْ نَامَ عَنْ حِزْبِهِ، أَوْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ، فَقَرَأَهُ فِيمَا بَيْنَ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَصَلَاةِ الظُّهْرِ، كُتِبَ لَهُ كَأَنَّمَا قَرَأَهُ مِنَ اللَّيْلِ»^(١).

وفي هذا دعوة منه ﷺ إلى ملازمة الوَرْدِ اليومي من قراءة القرآن العظيم. وكُلُّ هذا يريد به ﷺ حَثُّ أُمَّتِهِ على الإكثار من قراءة القرآن الكريم؛ ليعيش معهم في كلِّ شؤون حياتهم، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً^(٢).

وفضائلُ تلاوة القرآن العظيم كثيرة ومباركة، تعود بالخير على صاحبها في الدنيا والآخرة، ولو يعلم المسلمون ما في التلاوة من الفضائل والمغانم لما

(١) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب: جامع صلاة الليل (١/٥١٥) (ح٧٤٧).

(٢) انظر: يعلمهم الكتاب التعامل مع القرآن الكريم (ص٤٢ - ٤٣).

تركوا كتاب الله تعالى من بين أيديهم، يتلونه آتاء الليل وأطراف النهار، والحديث عن أهم هذه الفضائل نجده في المطالب الآتية:

المطلب الأول

التلاوة تجارة رابحة

١ - يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تَجَارَةً لَّن تَبُورَ ۖ لِيُؤْفِقَهُمُ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِمْ إِنَّهُمْ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٢٩ - ٣٠]. فهذا ثناء من الله تعالى على قراء القرآن العظيم.

قال القرطبي رحمه الله: «هذه هي آية القراء العاملين العالمين»^(١). فقد أخبر الله تبارك وتعالى عن عباده المؤمنين الذين يتلون كتابه ويؤمنون به ويعملون بما فيه، من إقام الصلاة، والإنفاق مما رزقهم الله ليلاً ونهاراً، سرّاً وجهاراً أنهم يرجون عند الله تعالى ثواباً لا بد من حصوله.

وكان مُطَرِّفُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ^(٢) رحمه الله، إذا قرأ هذه الآية يقول: هذه آية القراء^(٣).

ومعنى: ﴿يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾ أي يداومون على تلاوته وهي شأنهم وديندهم، حتى صارت سمة لهم وعنواناً^(٤).

فهذا ثناء من الله تعالى على قراء القرآن العظيم أنهم يستمرون على تلاوته ويداومون عليها، فهم يتلون ألفاظه بدراسته، ومعانيه بتبنيها واستخراجها^(٥).

(١) تفسير القرطبي (١٤/٣٤٥).

(٢) هو مُطَرِّفُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الشَّخِيرِ (أبو عبد الله) الحرشي العامري البصري، أحد أئمة التابعين، فقيه، عابد، مُجَابِ الدُّعْوَةِ، له فضل وورع وعقل وأدب، قال العجلي: «كان ثقة لم يُنْجَ بالبصرة من فتنة ابن الأشعث إلا هو وابن سيرين». توفي سنة (٩٥هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (٤/١٨٧ - ١٩٥).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٦/٥٦٧).

(٤) انظر: الكشاف (٣/٦٢١)؛ تفسير أبي السعود (٧/١٥١).

(٥) انظر: فتح القدير (٤/٣٤٨)؛ تفسير السعدي (٤/٢١٦).

فهؤلاء الصالحون، يرجون بأفعالهم الصالحة: ﴿تَجَرَّةٌ لَّنْ تَكْبُورٌ﴾ أي: لن تكسب ولن تهلك.

يقال: بارت السوق إذا كسدت، وبار الطعام إذا فسد^(١).

وجاءت صفة هذه التجارة الرابعة بأنها: ﴿لَّنْ تَكْبُورٌ﴾ أي: لن تهلك بالخسران أصلاً، للدلالة على أنها ليست كسائر التجارات الدنيوية الدائرة بين الربح والخسران؛ لأنه اشتراء باقٍ بفانٍ، والإخبار بأنهم يرجون ذلك من أكرم الأكرمين، وغدٌ مقطوع ومضمون بحصول مرجوهم^(٢).

فهذه تجارة من أجل التجارات، وأعلاها، وأفضلها، ألا وهي رضا الرحمن جلّ جلاله، والفوز بجزيل ثوابه، والنجاة من سخطه وعقابه^(٣).

فهل من مُشْمِرٍ إلى الجنة بالإكثار من تلاوة القرآن؛ فلنها تجارة رابحة ومضمونة عند أكرم الأكرمين القائل في كتابه العزيز: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢].

ولهذا قال تعالى: ﴿لِيُؤْفِقَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾، أي: ليوفيهم ثواب ما فعلوه ويضاعفه لهم بزيادات لم تحط لهم، ﴿إِنَّهُمْ عَفْوٌ﴾، أي: لذنوبهم، ﴿شَكُورٌ﴾ للقليل من أعمالهم^(٤).

فالله سبحانه وعد أهل القرآن العاملين به بعظيم الأجر وأن يزيدهم من لذه تفضلاً وتكرماً، وهذه الزيادة لا يعلم مقدارها إلا الله ذو الفضل العظيم.

٢ - عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ ﴿الزَّكَاةَ﴾ حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ وَلَاَمٌ حَرْفٌ وَمِيمٌ حَرْفٌ»^(٥).

(١) انظر: تفسير الطبري (١٣٢/٢٢)؛ تفسير السمرقندي (٥٣٢/٢).

(٢) انظر: تفسير أبي السعود (١٥١/٧). (٣) انظر: تفسير السعدي (٢١٧/٤).

(٤) تفسير ابن كثير (٥٦٧/٦).

(٥) رواه الترمذي، كتاب فضائل القرآن، باب: ما جاء فيمن قرأ حرفاً من القرآن ما له من الأجر (١٧٥/٥) (ح ٢٩١٠) وقال: «حسن صحيح غريب» وصححه الحاكم، ووافقه =

وعن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: «تَعَلَّمُوا هَذَا الْقُرْآنَ؛ فَإِنَّكُمْ تُؤْجَرُونَ بِتِلَاوَتِهِ بِكُلِّ حَرْفٍ عَشْرَ حَسَنَاتٍ، أَمَا إِنِّي لَا أَقُولُ: ﴿الْر﴾ وَلَكِنْ أَلِفٌ وَلَامٌ وَمِيمٌ».

وفي رواية أخرى أنه قال: «أَلِفٌ وَلَامٌ وَمِيمٌ ثَلَاثُونَ حَسَنَةً»^(١).

قال المباركفوري رحمته الله: «والحرف يُطْلَقُ عَلَى حَرْفِ الْهَجَاءِ، وَالْمَعَانِي، وَالْجُمْلَةِ الْمَفِيدَةِ، وَالْكَلِمَةِ الْمُخْتَلِفِ فِي قِرَاءَتِهَا، وَعَلَى مُطْلَقِ الْكَلِمَةِ»^(٢).

ويشير هذا الحديث العظيم إلى عدة أمور:

أولاً: أَنَّ فِي تِلَاوَةِ كُلِّ حَرْفٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ عز وجل عَشْرَ حَسَنَاتٍ، وَهَذَا هُوَ أَقْلُ التَّضَاعَفِ الْمَوْعُودِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]. «وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ» [البقرة: ٢٦١]. وَلَا شَكَّ أَنَّ زِيَادَةَ الْأَجْرِ وَمُضَاعَفَتَهُ تَتَنَاسَبُ وَحَالِ الْقَارِئِ مِنَ الْإِخْلَاصِ وَالْخُشُوعِ وَالتَّدْبِيرِ وَالتَّأَدُّبِ مَعَ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى.

ولذا قَالَ أَبُو ذَرٍّ رضي الله عنه: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ عز وجل: مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ، فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَازِيدُ. وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ، فَجَزَاؤُهُ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا. أَوْ أَغْفِرُ»^(٣).

= الذَّهَبِيُّ. وَصَحِّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ سَنَنِ التِّرْمِذِيِّ»: (٩/٣) (ج ٢٣٢٧)؛ «وَصَحِّحَ الْجَامِعُ»: (١١٠٣/٢) (ج ٦٤٦٩).

(١) رَوَاهُ أَبُو عُبَيْدٍ فِي «فَضَائِلِ الْقُرْآنِ»، بَاب: فَضْلُ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ وَالِاسْتِمَاعِ إِلَيْهِ (ص ٢٥)، وَالدَّارِمِيُّ فِي «سُنَنِ»، كِتَابُ فَضَائِلِ الْقُرْآنِ، بَاب: فَضْلُ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ (٣٠٢/٢) (رَقْم ٣٣٠٨)؛ وَالتَّطَبَّرِيُّ فِي «الْمَعْجَمِ الْكَبِيرِ» (٩/١٤٠) (رَقْم ٨٦٥٨)؛ وَالفَرْيَابِيُّ فِي «فَضَائِلِ الْقُرْآنِ» (ص ١٦٩) (رَقْم ٦٣)؛ وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي «مُصَنَّفِهِ»، كِتَابُ فَضَائِلِ الْقُرْآنِ، بَاب: ثَوَابُ مَنْ قَرَأَ حُرُوفَ الْقُرْآنِ (١٠/٤٦٢) (رَقْم ٩٩٨٣).

وَأَوْرَدَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي: «السَّلْسَلَةِ الصَّحِيحَةِ» (٢/٢٦٧) (رَقْم ٦٦٠).

وَقَالَ: د. إِبْرَاهِيمُ عَلِي السَّيِّدُ فِي كِتَابِهِ «الْأَحَادِيثُ وَالْآثَارُ الْوَارِدَةُ فِي فَضَائِلِ سُورِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ» (ص ٤٠): «إِسْنَادُهُ حَسَنٌ، فِيهِ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ صَدُوقٍ، وَبَقِيَّةُ رِجَالِهِ ثِقَاتٌ».

(٢) تَحْفَةُ الْأَحْوَذِيِّ (٨/١٨٢).

(٣) رَوَاهُ مُسْلِمٌ، كِتَابُ الذِّكْرِ وَالِدُّعَاءِ وَالتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ، بَاب: فَضْلُ الذِّكْرِ وَالِدُّعَاءِ، وَالتَّقَرُّبُ إِلَى اللَّهِ (٤/٢٠٦٨) (ج ٢٦٨٧).

قال النووي رحمته : «معناه أَنَّ التَّضْعِيفَ عشرة أمثالها لا يَد منه بِفَضْلِ اللَّهِ، ورحمته، ووعده الذي لا يُخْلَف، والزَّيَادَةُ بعدُ بكثرة التَّضْعِيفِ إلى سبعمائة ضعف، وإلى أضعاف كثيرة، يَخْصُلُ لبعض النَّاسِ دون بعض على حَسَبِ مَشِيئَتِهِ عليه السلام»^(١).

ولا نكاد نجد ذكراً ينال صاحبه مثل هذا الأجر به كما ينال مَنْ يتلو القرآن، فكم من الحسنات ينالها مَنْ قرأ سطراً أو وجهاً أو جزءاً من كتاب الله؟! وإذا عَلِمْنَا أن الناس يتنازعون يوم القيامة على حسنة واحدة يُثَقِّلُونَ بها موازينهم أدرَكنا عظمة هذا الأجر الذي ينتظر مَنْ يتلون كتاب الله حَقَّ تلاوته.

فيا عجباً لهذا الطَّالِب الذي يستغرق - صابراً أو متصبراً - في دراسة كتاب مقرر عليه عشرات السَّاعات، وربما العديد من الأيَّام والأسابيع، ثُمَّ يُعِينُهُ وَيُلْخِصُهُ وَيَرَاجِعُهُ، وقد يحفظ مُعْظَمَهُ غَيْباً أو شِبْهَ غَيْبٍ؛ ليحصل على الدَّرَجَةِ الكاملة يحقق بها جزءاً من النَّجَاح في أمر دنيوي، وقد لا ينجح في مسعاه، ثُمَّ تجده زاهداً في كتاب الله، غير صابرٍ على قراءته وتدبر معانيه، أليس من الجهل وعمى البصيرة - إذن - أن يتصرف المسلم عن تلاوة القرآن العظيم، وفيه من الخيرات والبركات الدُّنيوية والأخروية ما فيه؟ وهي مضمونة ومكتوبة له عند ربِّ العالمين.

ثانياً: يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [مرد: ١١٤]. ويقول في التَّائِبِينَ الْعَامِلِينَ: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠]. فيفضل ما يتلوه المسلم من كتاب الله تعالى، وبما يكتسبه من حسنات مضاعفة، قد يمحو الله ما اكتسب من أوزار ومقاصب.

فكلُّ ابن آدم خَطَّاء، ولا أَحَدٌ ينجو من ارتكاب سيئة أو سيئات، أو الوقوع في ذنب صغير أو كبير، فالمسلم بحاجة دائمة ليكفِّر عن ذنبه، بل ويبدِّل الله الكريم سيئاته حسنات، خاصَّة إذا توافرت منه شروط التَّوْبَةِ مِنْ جِهَةٍ، وشروط التَّلاوة المطلوبة مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى.

ثالثاً: كلما ازداد المؤمن استكثاراً من التلاوة ازداد رُقياً عند الله ﷻ. وتحول من صفة ومنزلة إلى منزلة أعلى وأعظم: فعن تميم الداري رحمه الله قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ بِمِائَةِ آيَةٍ فِي لَيْلَةٍ كُتِبَ لَهُ قُنُوثُ لَيْلَةٍ»^(١) قال المُنَاوِي رحمه الله: «أي: عبادتها»^(٢).

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رحمه الله قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ قَامَ بِعَشْرِ آيَاتٍ لَمْ يُكُتَبْ مِنَ الْغَافِلِينَ، وَمَنْ قَامَ بِمِائَةِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ الْقَانِتِينَ، وَمَنْ قَامَ بِأَلْفِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ الْمُقْنَطَرِينَ»^(٣).

ومعنى: «كُتِبَ مِنَ الْقَانِتِينَ» أي: من الظالمين الخاشعين المصلين. ومعنى: «كُتِبَ مِنَ الْمُقْنَطَرِينَ» أي: المالكين مالا كثيراً، والمراد كثرة الأجر. وقيل: ممن أُعْطِيَ أَجْراً عَظِيماً^(٤).

وقد يبدو لأول وهلة أن قراءة ألف آية في اليوم من الأمور الصعبة، ولكن عندما نعلم أن تلاوتها لا تستغرق من أحدنا أكثر من ساعة ونصف تقريباً، بتلاوة مُتَأَنٍّ ندرك أن ذلك ليس من الصعوبة في شيء.

فأخِرُ جزئين في القرآن الكريم: (تبارك. وعم) قرابة ألف آية^(٥).

رابعاً: إن تلاوة القرآن العظيم تزداد وتعظم إذا كانت في الصلاة، كما مرَّ بنا في حديث عبد الله بن عمرو رحمه الله الآنف الذكر.

(١) رواه أحمد في «المسند» (١٠٣/٤) (ح ١٦٥٥٥)؛ والدارمي في «سننه» (٣٣٧/٢) (ح ٣٤٥٠)؛ والنسائي في «الكبرى» (١٠٥٥٣) - وهو في «عمل اليوم والليلة» (٧١٧)؛ وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١١٠٣/٢) (ح ٦٤٦٨).

(٢) فيض القدير (٥٩٥١/١١). (٣) رواه ابن خزيمة في «صحيحه» (١٨١/٢) (ح ١١٤٤)؛ وابن حبان في «صحيحه» (٦/٣١٠) (ح ٢٥٧٢)؛ وأبو داود في «سننه» (٥٧/٢) (ح ١٣٩٨)؛ وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٢٦٣/١) (ح ١٢٤٦).

(٤) انظر: عون المعبود شرح سنن أبي داود (١٩٢/٤). (٥) بلغ عدد آيات جزئي «تبارك، وعم» برواية حفص عن عاصم الكوفي رحمه الله: (٩٩٥)، فإذا أضفنا عدد آيات سورة الفاتحة - وهي ركن في الصلاة - تجاوز العدد (١٠٠٠) آية. ولا يعني ذلك أن يقتصر المسلم على تلاوتهما في صلاته دون غيرهما.

ذلك أَنَّ التَّالِيَّ فِي الصَّلَاةِ يَجْمَعُ أَكْثَرَ مِنْ أَجْرٍ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ، فَلَهُ أَجْرُ الصَّلَاةِ، وَأَجْرُ الذِّكْرِ، وَأَجْرُ التَّلَاوَةِ، وَيَتَضَاعَفُ ذَلِكَ مَعَ التَّدْبِيرِ وَالْخُشُوعِ وَحُضُورِ الْقَلْبِ.

وَقَدْ بَيَّنَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْأَجْرَ الْكَبِيرَ الَّذِي يَفُوزُ بِهِ الْقَارِئُ فِي صَلَاتِهِ بِمِثَالٍ جَمِيلٍ مُعَبَّرٍ:

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَيُّحُبُّ أَحَدُكُمْ إِذَا رَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ أَنْ يَجِدَ فِيهِ ثَلَاثَ خَلْفَاتٍ^(١) عِظَامَ سِمَانٍ؟» قُلْنَا: نَعَمْ. قَالَ: «ثَلَاثُ آيَاتٍ يَقْرَأُ بِهِنَّ أَحَدُكُمْ فِي صَلَاتِهِ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلَاثِ خَلْفَاتٍ عِظَامَ سِمَانٍ»^(٢).

فَلَا أَنْ يَقْرَأَ الْمُسْلِمُ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فِي صَلَاتِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَتَصَدَّقَ بِنَاقَةٍ حَامِلٍ عَظِيمَةٍ سَمِيَّةٍ، وَآيَتَيْنِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ نَاقَتَيْنِ، وَثَلَاثًا خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلَاثٍ. وَكَأَنَّمَا تَلَدَ الْحَسَنَاتُ الْحَسَنَاتِ، وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ. نَسْأَلُ اللَّهَ الْكَرِيمَ مِنْ فَضْلِهِ وَجُودِهِ وَكَرَمِهِ^(٣).

المطلب الثاني

تَنْزِيلُ السَّكِينَةِ وَالرَّحْمَةِ وَالْمَلَائِكَةِ لِلتَّلَاوَةِ

مِمَّا وَرَدَ فِي فَضْلِ الْجَمْعِ عَلَى تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَتَعَلُّمِهِ وَمَدَارَسَتِهِ، وَبِخَاصَّةٍ إِذَا كَانَ ذَلِكَ فِي الْمَسْجِدِ الَّذِي هُوَ مَهْوًى أَفْتَدَةِ الْمُؤْمِنِينَ، حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ»^(٤) بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ^(٥)، وَغَشِيَتْهُمْ

(١) (خَلْفَاتُ): الْخَلْفَاتُ الْحَوَامِلُ مِنَ الْإِبِلِ إِلَى أَنْ يَمْضِيَ عَلَيْهَا نِصْفُ أَمْدِهَا. ثُمَّ هِيَ عِشَارُ وَالْوَحْدَةِ خَلِيفَةٌ وَعِشْرَاءُ. انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٨٩/٦).

(٢) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب: فضل قراءة القرآن في الصلاة (٥٥٢/١) (ح ٨٠٢).

(٣) انظر: أنوار القرآن (ص ٧٩ - ٨٤).

(٤) (يتدارسون): يقرؤونه ويتعهدون تلاوته. وقيل: التدارس قراءة بعضهم على بعض تصحيحاً لألفاظه، أو كشفاً لمعانيه. انظر: تحفة الأحوذى (٢٦٨/٨)، النهاية في غريب الحديث (١١٣/٢)، مادة (درس).

(٥) (السكينة): الوفاء والثاني والسكون. وقيل: الرحمة. وقيل: خلق رقيق كالريج والهواء.

الرَّحْمَةِ^(١) وَحَقَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ^(٢)، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ^(٣).

هذا الحديث من أعظم البشارات التي يُبَشِّرُ بها النبي ﷺ المجتمعين لتلاوة القرآن وتدارسه، فقد رَغَّبَهُم في مدارسته وحثَّهم على ذلك لما فيه من عزِّهم وشرفهم، وصلاح أحوالهم، ولما فيه من الأجر العظيم عند الله تعالى، سواء أكان اجتماعهم في المسجد أم في غيره من المدارس أو البيوت.

قال النووي رحمته الله: «وفي هذا دليل لفضل الاجتماع على تلاوة القرآن في المسجد. وهو مذهبنا، ومذهب الجمهور،... ويلحق بالمسجد في تحصيل الفضيلة الاجتماع في مدرسة، ورباط، ونحوها إن شاء الله تعالى»^(٤).

ويدلُّ عليه حديث أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما: «أَنَّهُمَا شَهِدَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ؛ أَنَّهُ قَالَ: «لَا يَقْعُدُ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللَّهَ ﷻ إِلَّا حَقَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ»^(٥).

وما أَظُنُّ مجلساً من مجالس الخير تتكاثر فيه البركات، وتنهمر عليه الرَّحِمَاتُ، ويعود على المسلمين بالأجر الجزيل، والفضل العظيم، كمجلس قرآن فيه تَدَارُسٌ وتَعَاهُدٌ وتَعَلُّمٌ وتعليم، وَمَنْ حضره نال أربع جوائز عظيمة، وهي كالآتي:

الجائزة الأولى: تنزُّلُ السَّكِينَةِ عليهم:

إِنَّ أَوَّلَ مَا يُتَخَفُّ بِهِ هَؤُلَاءِ الْمُجْتَمِعُونَ عَلَى تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ وَتَدْبِيرِهِ، نَزُولُ

= «النهاية في غريب الحديث» (٣٨٦/٢)، مادة: (سكن).

(١) غَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ: أي غَطَّتْهُمُ الرَّحْمَةُ. وغشاه نغشية إذا غطاه، وغشي الشيء إذا لابس.

«النهاية في غريب الحديث» (٣٦٩/٣)، مادة: (غشي).

(٢) حَقَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ: أي دارت حولهم.

«النهاية في غريب الحديث» (٤٠٨/١)، مادة: (حقف).

(٣) رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: فضل الاجتماع على تلاوة القرآن، وعلى الذكر (٢٠٧٤/٤) (ح ٢٦٩٩).

(٤) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٢٤/١٧).

(٥) رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: فضل الاجتماع على تلاوة القرآن، وعلى الذكر (٢٠٧٤/٤) (ح ٢٧٠٠).

السَّكِينَةُ عَلَيْهِمْ، وَهِيَ الطَّمَأْنِينَةُ وَالرَّاحَةُ النَّفْسِيَّةُ، فَلَا يَصِيبُهُمْ مَا يَمْلَأُ قُلُوبَ الْآخَرِينَ مِنْ قَلْقٍ وَاضْطِرَابٍ وَأَمْرَاضٍ نَفْسِيَّةٍ وَعُقْدٍ وَمَخَافٍ جَعَلَتْ حَيَاةَ هَؤُلَاءِ جَهِيمًا لَا يُطَاقُ^(١).

وَمَعْنَى السَّكِينَةِ: السُّكُونُ وَالطَّمَأْنِينَةُ الَّتِي يَطْمَئِنُّ إِلَيْهَا الْقَلْبُ وَيَسْكُنُ بِهَا عَنِ الرَّعْبِ. وَقِيلَ: هِيَ الرَّحْمَةُ. وَقِيلَ: الْوَقَارُ. وَقِيلَ: هِيَ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ^(٢). قَالَ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَالَّذِي يَظْهَرُ أَنَّهَا مَقُولَةٌ بِالِاشْتِرَاكِ عَلَى هَذِهِ الْمَعَانِي، فَيَحْمِلُ كُلُّ مَوْضِعٍ وَرَدَتْ فِيهِ عَلَى مَا يَلِيقُ بِهِ»^(٣). وَقَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الْمَخْتَارُ أَنَّهَا شَيْءٌ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ فِيهِ طِمَأْنِينَةٌ وَرَحْمَةٌ وَمَعَهُ الْمَلَائِكَةُ»^(٤).

وَقَدْ تَزَلَّتِ السَّكِينَةُ لِأَحَدِ الصَّحَابَةِ وَهُوَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ: فَعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَجُلٌ يَقْرَأُ سُورَةَ الْكَهْفِ، وَلِإِلَى جَانِبِهِ حِصَانٌ مَرْبُوطٌ بِشَاطْنَيْنِ^(٥)، فَتَغَشَّتُهُ^(٦) سَحَابَةٌ، فَجَعَلَتْ تَذْنُو وَتَذْنُو، وَجَعَلَ قَرَسُهُ يَنْفِرُ^(٧)، فَلَمَّا أَصْبَحَ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: «تِلْكَ السَّكِينَةُ تَزَلَّتْ بِالْقُرْآنِ»^(٨).

وَفِي لَفِظٍ قَالَ الْبَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَرَأَ رَجُلٌ الْكَهْفَ، وَفِي الدَّارِ دَابَّةٌ، فَجَعَلَتْ تَنْفِرُ، فَتَنْظَرُ فَإِذَا ضَبَابَةٌ أَوْ سَحَابَةٌ قَدْ غَشِيَتْهُ. قَالَ: فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «اقْرَأْ، فَلَا نَافِلَ! فَإِنَّهَا السَّكِينَةُ تَزَلَّتْ عِنْدَ الْقُرْآنِ، أَوْ تَزَلَّتْ لِلْقُرْآنِ»^(٩).

(١) انظر: ورتل القرآن ترتيلاً (ص ١٥). (٢) انظر: تحفة الأحوزي (١٥٦/٨).

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٥٧/٩).

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي (٨٢/٦).

(٥) شَاطْنَيْنِ: بفتح الشين المعجمة والطاء، تثنية شطن، وهو الحبل الطويل. وإنما شده شطنين لقوته وشِدَّتِهِ. «النهاية في غريب الحديث» (٤٧٥/٢)، مادة: (شطن).

(٦) (تَغَشَّتُهُ): أي غلته وقربت منه. «النهاية في غريب الحديث» (٣٦٩/٣)، مادة: (غشا).

(٧) (يَنْفِرُ): أي يثب ويجول. «صحيح مسلم بشرح النووي» (٨٢/٦).

(٨) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: فضل سورة الكهف (١٦١٥/٣) (ح ٥٠١١).

(٩) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب: نزول السكينة لقراءة القرآن (٥٤٨/١) (ح ٧٩٥).

جاء في (تحفة الأحوذى) عن الطَّيْبِيِّ رحمته الله: «فإن المؤمن تزداد طمأنينته بأمثال هذه الآيات إذا كُوشِفَ بها»^(١).

وهذا الرَّجُلُ الذي كان يقرأ القرآن قيل: هو أَسِيدُ بْنُ حُضَيْرٍ رحمته الله، كما سيأتي حديثه قريباً أنه كان يقرأ سورة البقرة، وفي هذا الحديث كان يقرأ سورة الكهف، وهذا يدل على تعدُّدِ الْقِصَّةِ^(٢).

وكثيراً ما يمتَنُّ الله جلَّ جلاله على رسوله صلوات الله عليه وعلى عباده المؤمنين بتنزُّلِ السَّكِينَةِ عليهم؛ لأنها فضلٌ عظيمٌ من الله تعالى، وراحةٌ عظيمةٌ للمؤمن، مثال ذلك ما كان في صلح الحديبية، قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤].

فقد امتَنَّ الله تعالى على عباده المؤمنين بإنزال السَّكِينَةِ في قلوبهم. وهي: السُّكُونُ والطمأنينة، والثَّباتُ عند نزولِ المَحَنِ الْمُقْلِقَةِ التي تُشَوِّشُ القلوب وتُضَعِّفُ النُّفُوسَ. فَمِنْ نِعْمَةِ الله على عبده في هذه الحال أن يُثَبِّتَهُ، ويربط على قلبه، ويُنزِلَ عليه السَّكِينَةَ، فيزداد بذلك إيمانه، ويتم إيقانه. فالصَّحَابَةُ رضي الله عنهم، لَمَّا جَرَى بَيْنَ رَسُولِ الله صلوات الله عليه وبين المشركين، من تلك الشُّرُوطِ التي ظاهرها أنها غَضَاضَةٌ عليهم وَحْطٌ من أقدارهم، وتلك لا تكاد تصبر عليها النُّفُوسُ.

فَلَمَّا صَبَرُوا عَلَيْهَا، وَوَطَّنُوا أَنْفُسَهُمْ لَهَا، ازدادوا بذلك إيماناً مع إيمانهم^(٣).

والقلوب كثيراً ما تمتلئ بالهموم والأحزان والاضطرابات، فإذا ما جلس المؤمن مع إخوته يتحلَّقون حول كتاب الله تعالى ويتدارسون فيه فيما بينهم زال كلُّ ذلك عنهم ونزلت عليهم السَّكِينَةُ.

فأين أولئك الذين يلتجئون إلى العيادات النَّفْسِيَّةِ؛ ليتخلصوا من همومهم وآلامهم النَّفْسِيَّةِ التي تُحَاصِرُهُمْ، أين هم من المجالس التي تنزل على أصحابها

(١) تحفة الأحوذى (١٥٦/٨).

(٢) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري (٥٧/٩).

(٣) انظر: تفسير السعدي (٤٤/٥).

السَّكِينَةِ، فليفروا من مجالس المعاصي والآثام. والموبقات إلى مجالس الثور والسَّكِينَةِ؛ ليغسلوا قلوبهم، وَيُطَهِّرُوا أَنْفُسَهُمْ، وَيُزَاحُوا مِنْ أَلَامِهِمْ^(١).

الجائزة الثانية: تغشاهم الرَّحْمَةُ:

الرَّحْمَةُ قَرِيبَةٌ مِنْ أَهْلِ الْقُرْآنِ، بَلْ تَغْشَاهُمْ فِي مَجَالِسِهِمْ، وَأَهْلُ هَذَا الْمَجْلِسِ هُمْ مِنَ الْمُحْسِنِينَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

وجزاء أهل الإحسان عند الله عظيم، فَإِنَّ: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر: ٣٤]. ويقال لهم: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [٤٣ - ٤٤].

والله تعالى يُجِبُّهُمْ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

ورحمة الله تعالى خير لهم مما يجمعه أهل الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢]. عند ذلك نعلم يقيناً أن ما يجنيه أهل مجلس التلاوة والمدارسة من الخير العظيم لا يوازيه كل شيء يجمعه أهل الدنيا من الحطام الزائل.

وقد سَمَّى الله تعالى وحيه إلى أنبيائه بالرَّحْمَةِ، كما قال تعالى مُخْبِرًا عَنْ نوح عليه السلام: ﴿قَالَ يَفْقَهُ آرَاءَهُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى يَتَنَزَّ مِنْ رَبِّي وَءَاتَنِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ﴾ [هود: ٢٨]. يشير إلى ما اختصه الله تعالى من الوحي والعلم والحكمة.

وكذلك قال صالح عليه السلام: ﴿وَأَتَنِي مِنْهُ رَحْمَةٌ﴾ [هود: ٦٣].

ومن باب أولى أن يُسَمَّى القرآن العظيم بالرَّحْمَةِ، فقد قال الله تعالى لنبيه الكريم ﷺ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]^(٢).

وإذا كانت رحمة الله قد وسعت كُلَّ شَيْءٍ، وأحاطت بكل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]. فهي بَأْنٍ تَسَعُ أَهْلَ الْقُرْآنِ

(١) انظر: أنوار القرآن (ص ١٠٧ - ١٠٨).

(٢) انظر: النهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى (١/٧٨).

وَتَلَاةَ أَحَقُّ وَأَجْدَرُ^(١).

الْجَائِزَةُ الثَّلَاثَةُ: نَحْفُهُمُ الْمَلَائِكَةُ:

فَتَحْفُهُمُ الْمَلَائِكَةُ الْكَرَامَ بِأَجْنَحَتِهَا تَشْرِيفًا وَتَعْظِيمًا لَهُمْ، وَلَمَّا اجْتَمَعُوا عَلَيْهِ.

وَقَدْ تَنَزَّلَتِ الْمَلَائِكَةُ الْكَرَامَ وَدَنَّتْ مِنَ الصَّحَابِيِّ الْجَلِيلِ أُسَيْدِ بْنِ حُضَيْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ: فَمَنْ أُسَيْدِ بْنِ حُضَيْرٍ قَالَ: بَيْنَمَا هُوَ يَقْرَأُ مِنَ اللَّيْلِ سُورَةَ الْبَقَرَةِ، وَفَرَسُهُ مَرْبُوطٌ عِنْدَهُ، إِذْ جَالَتِ الْفَرَسُ، فَسَكَتَ فَسَكَتَتْ، فَقَرَأَ فَجَالَتِ الْفَرَسُ^(٢)، فَسَكَتَتْ وَسَكَتَتِ الْفَرَسُ، ثُمَّ قَرَأَ فَجَالَتِ الْفَرَسُ، فَأَنْصَرَفَ، وَكَانَ ابْنُهُ يَخْبِي قَرِيبًا مِنْهَا، فَأَشْفَقَ أَنْ تُصِيبَهُ، فَلَمَّا اجْتَرَّهُ^(٣) رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ حَتَّى مَا يَرَاهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ حَدَّثَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: «اقْرَأْ يَا ابْنَ حُضَيْرٍ، اقْرَأْ يَا ابْنَ حُضَيْرٍ». قَالَ: فَأَشْفَقْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْ تَطَأَ يَخْبِي، وَكَانَ مِنْهَا قَرِيبًا، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَأَنْصَرَفْتُ إِلَيْهِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي إِلَى السَّمَاءِ، فَإِذَا مِثْلُ الظِّلَّةِ^(٤) فِيهَا أَمْثَالُ الْمَصَابِيحِ، فَخَرَجْتُ حَتَّى لَا أَرَاهَا، قَالَ: «وَتَدْرِي مَا ذَاكَ». قَالَ: لَا، قَالَ: «تِلْكَ الْمَلَائِكَةُ دَنَّتْ لِمَوْتِكَ، وَلَوْ قَرَأْتَ لِأَصْبَحْتَ يَنْظُرُ النَّاسُ إِلَيْهَا، لَا تَتَوَارَى مِنْهُمْ»^(٥).

قال ابن حجر رحمته الله: «قال النووي: في هذا الحديث جواز رؤية آحاد الأمة

(١) انظر: المصدر السابق (ص ١٠٩ - ١١٠).

(٢) (جَالَتِ الْفَرَسُ): أي وثبت واضطربت. قال في هذه الرواية: «جالت» فأنت الفرس وهو صحيح؛ لأن الفرس يُطلق على الذكر والأنثى.

انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٨٣/٦).

(٣) (فَلَمَّا اجْتَرَّهُ): بجيم ومثناة وراء ثقيلة، والضمير لولده، أي: اجتري ولده من المكان الذي هو فيه حتى لا تطأه الفرس. انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري (٦٤/٩).

(٤) (الظِّلَّة): هي ما بقي من الشمس. كسحاب، أو سقف بيت. «صحيح مسلم» (٥٤٨/١).

(٥) رواه البخاري، واللفظ له، كتاب فضائل القرآن، باب: نزول السكينة والملائكة عند قراءة القرآن (١٦١٧/٣) (ح ٥٠١٨)؛ ومسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب: نزول السكينة لقراءة القرآن (٥٤٧/١) (ح ٧٩٦).

للملائكة، كذا أطلق، وهو صحيح، لكن الذي يظهر التقييد بالصالح مثلاً والحسن الصوت، قال: وفيه فضيلة القراءة وأنها سبب نزول الرحمة وحضور الملائكة. قلت: الحكم المذكور أعم من الدليل، فالذي في الرواية إنما نشأ عن قراءة خاصة من سورة خاصة بصفة خاصة، ويحتمل من الخصوصية ما لم يذكر، وإلا لو كان على الإطلاق لحصل ذلك لكل قارئ^(١).

وتنزلت الملائكة كذلك في مواقف الرسول ﷺ والمؤمنين في قتال الكافرين، وهي من أكرم المواقف عند الله تعالى: ﴿بَلَّغْ إِن تَصِدُّوْا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥].

وكذلك تنزل في ليلة القدر، أعظم الليالي عند الله تعالى: ﴿نَزَّلَ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا﴾ [القدر: ٤].

وهي كذلك تنزل لتحف المؤمنين، وهم يتلون القرآن العظيم ويتدارسونه فيما بينهم، وتنزل معها المغفرة والرحمة. ورضى الله تعالى^(٢).

الجائزة الرابعة: يذكُرُهُمُ اللهُ فيمن عنده: ومعنى: «ذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ» أثنى عليهم، أو أثنابهم فيمن عنده من الأنبياء والملائكة الكرام^(٣).

وأي مكانة أكرم وأعظم من أن يذكر الله جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه عبده الفقير الضعيف فيمن عنده في الملأ الأعلى!

فمن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَقُولُ اللهُ ﷻ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي، وَأَنَا مَعَهُ حِينَ يَذْكُرُنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ، ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُ»^(٤).

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٩/٨١).

(٢) انظر: أنوار القرآن (ص ١١٠).

(٣) انظر: عون المعبود شرح سنن أبي داود (٤/٢٣٠).

(٤) رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الذكر والدعاء (٤/٢٠٦٨).

(ح ٢٦٧٥).

ولقد ندب الله عباده المؤمنين إلى ذكره فقال تعالى: ﴿مَذْكُورٌ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]. قال ابن عباس رضي الله عنه: ذَكَرُ الله إِيَّاكُمْ أَكْبَرُ مِنْ ذِكْرِكُمْ إِيَّاهُ. وقال سعيد بن جبير رضي الله عنه: اذكروني بطاعتي أذكركم بمغفرتي ^(١). فإذا عَلِمَ المسلمُ أَنَّ عَظِيمًا مِنَ الْعَظَمَاءِ ذَكَرَهُ أَمَامَ حَاشِيَتِهِ أَوْ خَاصَّتِهِ بِخَيْرٍ وَأَتْنَى عَلَيْهِ، أَلَا تَمْتَلِي نَفْسُهُ غِبْطَةً وَسُرُورًا، وَيَسْتَبْشِرُ بِذَلِكَ؟ والله المثل الأعلى في السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، فَكَيْفَ إِذَا عَلِمَ أَنَّ اللهَ جَلَّ جَلَالُهُ يَنْتَبِئُ عَلَيْهِ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى؟ أَلَا يَسْتَبْشِرُ وَيُسَرُّ؟ فَإِنَّ هَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْحَوَافِزِ وَالْمَوَافِقِ إِلَى الْمَسَارَعَةِ إِلَى مَجَالِسِ الْقُرْآنِ الْمُبَارَكَةِ تِلَاوَةً وَتَدَارُسًا وَتَدْبِيرًا وَعَمَلًا. فهنيئًا لأهل القرآن بهذا الفضل العظيم والمنزلة الرفيعة، وَعَجَبًا مِمَّنْ يَزْهَدُ وَيَتَكَاسَلُ أَوْ يُعْرِضُ عَنْ مَجَالِسِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ^(٢).

المطلب الثالث

اغْتِبَاطُ صَاحِبِ التَّلَاوَةِ

١ - اغْتِبَاطُ النَّالِي لِلْقُرْآنِ:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ (٣): رَجُلٌ عَلَّمَهُ اللهُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَتْلُوهُ آتَاءَ اللَّيْلِ وَآتَاءَ النَّهَارِ، فَسَمِعَهُ جَارٌ لَهُ فَقَالَ: لَبِئْتَنِي أُوتِيتُ مِثْلَ مَا أُوتِيَ فَلَانٌ، فَعَمِلْتُ مِثْلَ مَا يَعْمَلُ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالًا فَهُوَ يُهْلِكُهُ فِي الْحَقِّ، فَقَالَ رَجُلٌ: لَبِئْتَنِي أُوتِيتُ مِثْلَ مَا أُوتِيَ فَلَانٌ، فَعَمِلْتُ مِثْلَ مَا يَعْمَلُ» ^(٤).

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤١٩/١).

(٢) انظر: أنوار القرآن (ص ١١١)؛ ورتل القرآن ترتيلاً (ص ١٥).

(٣) «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ»: الحسد: أن يرى الرجل لأخيه نعمة فيمتنى أن تزول عنه وتكون له دونه، والغبط: أن يتمنى أن يكون له مثلها ولا يتمنى زوالها، والمراد بالحسد هنا: الغبطة. «النهاية»: في غريب الحديث (٣٨٣/١)، مادة: (حسد).

(٤) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: اغتباط صاحب القرآن (١٦١٩/٣) (ج ٥٠٢٦).

وفي لفظ آخر مرفوعاً: «لَا تَحَاسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٍ آتَاهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ، فَهُوَ يَتْلُوهُ آتَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ...» الحديث^(١).

ومعنى: «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ».

«أي: لا رُخْصَةً في الحسد إلا في خصلتين، أو لا يَحْسُنُ الحسدُ إن حَسُنَ، أو أطلق الحسد مبالغة في الحث على تحصيل الخصلتين، كأنه قيل: لو لم يحصل إلا بالطريق المذموم لكان ما فيهما من الفضل حاملاً على الإقدام على تحصيلهما به، فكيف والطريق الم محمود يمكن تحصيلهما به؟»^(٢).

قال النووي رحمته الله: «قال العلماء: الحسد قسمان: حقيقي، ومجازي. فالحقيقي: تمنّي زوال النعمة عن صاحبها، وهذا حرام بإجماع الأمة مع النصوص الصحيحة، وأما المجازي: فهو الغبطة وهو أن يتمنى مثل النعمة التي على غيره من غير زوالها عن صاحبها، فإن كانت من أمور الدنيا كانت مباحة، وإن كانت طاعة فهي مستحبة. والمراد بالحديث: لا غِبْطَةٌ محبوبةٌ إلا في هاتين الخصلتين، وما في معناهما»^(٣).

فهذا الحديث يدل دلالة واضحة على أن صاحب القرآن - الذي يتلوه آتاء الليل وآتاء النهار - في غِبْطَةٍ، أي في فرح وحسن حال، فينبغي أن يكون شديد الاغتياب بما هو فيه، ويُسْتَحَب تغبيطه بذلك، يقال: غَبَطَهُ يَغْبِطُهُ بكسر الباء غَبْطاً؛ إذا تمنى مثل ما هو فيه من النعمة، وهذا بخلاف الحسد المذموم، وهو تمنّي زوال نعمة المحسود منه سواء حصلت لذلك الحاسد أم لا، وهذا مذموم شرعاً، وهو أوّل معاصي إبليس حين حسد آدم على ما منحه الله تعالى من الكرامة والاحترام والإعظام^(٤).

والغبطة ليست بحرام، بل رُبّما كانت واجبة أحياناً، أو مندوبة، أو مباحة في أحيان أخرى، والله تعالى يقول: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

(١) رواه البخاري، كتاب التّمني، باب: تمنّي القرآن والعلم (٤/ ٢٢٦١) (ح (٧٢٣)).

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٩/ ٩٢).

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي (٦/ ٣٣٨).

(٤) انظر: فضائل القرآن، لابن كثير (ص ٢٠١).

ويقول تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَفْعَرَةٍ مِّنْ ذِكْرٍ﴾ [الحديد: ٢١]. والمسابقة منافسة، والمنافسة غبطة.

ولكن مجرد التمني والغبطة لا يكفي بحال من الأحوال مادام المسلم قادراً على أن يكون خيراً مما هو فيه، وآتاه الله تعالى من الوسع والطاقة والأسباب التي تُعينه على تحصيل القرآن والعلم الشرعي، ثم قد يثمن فقط فهذا التمني لا يُقدم ولا يؤخر^(١).

٢ - اغتياب القائم بالقرآن:

فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَا حَسَدَ إِلَّا عَلَىٰ اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَقَامَ بِهِ آتَاءَ اللَّيْلِ، وَرَجُلٌ أَعْطَاهُ اللَّهُ مَالاً فَهُوَ يَتَصَدَّقُ بِهِ آتَاءَ اللَّيْلِ وَآتَاءَ النَّهَارِ»^(٢).

وعن يزيد بن الأحسن رضي الله عنه أن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَنَافُسَ بَيْنَكُمْ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ أَعْطَاهُ اللَّهُ ﷻ الْقُرْآنَ، فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آتَاءَ اللَّيْلِ وَآتَاءَ النَّهَارِ، وَيَتَّبِعُ مَا فِيهِ، فَيَقُولُ رَجُلٌ: لَوْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ أَعْطَانِي مِثْلَ مَا أَعْطَىٰ فُلَانًا، فَأَقُومَ بِهِ كَمَا يَقُومُ بِهِ...» الحديث^(٣).

قال ابن حجر رحمته الله: «والمراد بالقيام به العمل به مطلقاً، أعم من تلاوته داخل الصلاة أو خارجها، ومن تعليمه، والحكم والفتوى بمقتضاه»^(٤).

وهذا يُذكرنا بقول الله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ مَا كَتَبَ اللَّهُ مَأْتَةً أَلِيْلٌ وَهُمْ يَسْتَجِدُّونَ﴾ [آل عمران: ١١٣].

(١) انظر: أنوار القرآن (ص ٢٥٢ - ٢٥٣).

(٢) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: اغتياب صاحب القرآن (١٦١٩/٣) (ج ٥٠٢٥).

(٣) رواه أحمد في «المسند» (١٠٤/٤) (ج ١٧٠٧٧).

وقال مُحَقِّقُ الْمَسْنَدِ (١٦٨/٢٨) (ج ١٦٩٦٦): «صحيح لغيره».

وقال الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٤٠٥/١) (ج ٦٣٦): «حسن صحيح».

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٢١٩/١ - ٢٢٠).

والمشهور عند كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت فيمن آمن من أحناء أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام، وأسد بن عبيد، وثعلبة بن سعيد، وغيرهم، أي: لا يستوي من تقدم ذكرهم بالذم من أهل الكتاب وهؤلاء الذين أسلموا، ولهذا قال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾، أي: ليسوا كلهم على حد سواء، بل منهم المؤمن ومنهم المجرم، ولهذا قال تعالى: ﴿يَنْ أَهْلَ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾، أي: قائمة بأمر الله، مطيعة لشرعه، متبعة نبي الله فهي ﴿قَائِمَةٌ﴾، أي: مستقيمة عادلة من قولك: أقمت العود فقام، أي استقام.

﴿يَتْلُونَ ءَايَاتِ اللَّهِ ءَانَهُ أَلِيلٍ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ أي: ساعاته، واحداها: إنى كمعنى، أو إناو كقنوا، أو إنى كنجى. والمقصود أنهم يقومون الليل، ويكثرون التهجد، ويتلون القرآن في صلواتهم^(١).

قال ابن عاشور رحمته: «وجملة ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ حال، أي يتهجدون في الليل بتلاوتهم كتابهم، فقيدت تلاوتهم الكتاب بحالة سجودهم. وهذا الأسلوب أبلغ وأبين من أن يقال: يتهجدون؛ لأنه يدل على صورة فعلهم»^(٢).

ولقد أثنى النبي صلى الله عليه وسلم على جماعة الأشعرين لكثرة قراءتهم القرآن بالليل، فعن أبي موسى رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنِّي لَأَعْرِفُ أَصْوَاتَ رُفَقَةِ الْأَشْعَرِيِّينَ^(٣) بِالْقُرْآنِ، حِينَ يَدْخُلُونَ بِاللَّيْلِ، وَأَعْرِفُ مَنَازِلَهُمْ مِنْ أَصْوَاتِهِمْ، بِالْقُرْآنِ بِاللَّيْلِ. وَإِنْ كُنْتُ لَمْ أَرْ مَنَازِلَهُمْ حِينَ نَزَلُوا بِالنَّهَارِ»^(٤).

قال النووي رحمته: «فيه دليل لفضيلة الأشعرين، وفيه أن الجهر بالقرآن في

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١١٤/٢)؛ تفسير النسفي (١٧٣/١)؛ التسهيل لعلوم التنزيل (١/١١٦).

(٢) التحرير والتنوير (١٩٥/٣).

(٣) رُفَقَةُ الْأَشْعَرِيِّينَ: الرُفَقَةُ بضم الراء وكسرهما والأشعر الضم، وهم الجماعة المترافقون. انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري (٤٨٧/٧).

(٤) متفق عليه: رواه البخاري، كتاب المغازي، باب: غزوة خيبر (١٢٨٤/٣) (ح ٤٢٣٢)؛ ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب: من فضائل الأشعرين رضي الله عنهم (١٩٤٤/٤) (ح ٢٤٩٩).

الليل فضيلة، إذا لم يكن فيه إيداء لنائم، أو لمصل، أو غيرهما، ولا رياء^(١). وقال أيضاً: «وإنما رَجَحْتُ صلاة الليل وقراءته لكونها أجمع للقلب، وأبعد عن الشاغلات والملهيات، والتَّصَرُّف في الحاجات، وأصون من الرياء وغيره من المحبطات، مع ما جاء الشَّنْعُ به من إيجاد الخيرات في الليل، فإن الإسراء برسول الله ﷺ كان ليلاً»^(٢).

فهنيئاً لمن يُكثِرُ قِرَاءَةَ القرآن، وليستبشر بمجيء القرآن العظيم يوم القيامة حين يشهد له بالخير ويشفع له عند رب العالمين: فعن بُرَيْدَةَ بْنِ الْحُصَيْبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: «إِنَّ الْقُرْآنَ يَلْقَى صَاحِبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يَنْشَقُّ عَنْهُ قَبْرُهُ كَالرَّجُلِ الشَّاحِبِ، فَيَقُولُ لَهُ: هَلْ تَعْرِفُنِي؟ فَيَقُولُ: مَا أَغْرَقَكَ، فَيَقُولُ: أَنَا صَاحِبُكَ الْقُرْآنُ الَّذِي أَظْمَأْتُكَ فِي الْهَوَاجِرِ، وَأَسْهَرْتُ لَيْلَكَ، وَإِنْ كُلُّ تَاجِرٍ مِنْ وَرَاءِ تِجَارَتِهِ، وَإِنَّكَ الْيَوْمَ مِنْ وَرَاءِ كُلِّ تِجَارَةٍ، فَيُعْطَى الْمُلْكُ بِيَمِينِهِ، وَالتَّخْلُدُ بِشِمَالِهِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ»^(٣).

فالقرآن لا يتخلّى عن صاحبه الذي صَحِبَهُ في الليل والنهار، وفي الصيف والشتاء، فإذا هو يبرز له يوم القيامة حين ينشق عنه قبره، وكأنه يتمثل بصورة قاربه الذي اتعب نفسه بالشَّهْرِ في الليل، والصَّوْم في النَّهَار. وفي ذلك دلالة على مدى ما أنفق صَاحِبُ الْقُرْآن مِنْ جُهِدٍ، فأصابه من ذلك التَّعَبُ والشُّحُوبُ^(٤).

المطلب الرابع

التلاوة حليّة لأهل الإيمان

عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ الْأَثْرَجَةِ»^(٥)، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ. وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (١٦/٦١). (٢) التبيان في آداب حملة القرآن (ص ٨٨).

(٣) رواه أحمد في «المسند» (٢٣٨/٥) (ح ٢٣٠٠٠)، وإسناده حسن في المتابعات والشواهد، وقد سبق تخريجه وشرح ألفاظه الغربية (ص ٤٠٤ - ٤٠٥).

(٤) انظر: شرح سنن ابن ماجه (ص ٢٦٨)؛ أنوار القرآن (ص ١٧٩).

(٥) الأثرج: بضم الهمزة والراء، بينهما مثناة ساكنة، وآخره جيم ثقيلة: شجر يعلو، ناعم =

لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ الثَّمَرَةِ، لَا رِيحَ لَهَا وَطَعْمُهَا حُلْوٌ...»^(١) الحديث.

ما أروع بلاغة الرسول الأعظم ﷺ في حثه الناس على قراءة القرآن والعمل به عن طريق ضرب الأمثلة المحسوسة التي تُقَرِّبُ المعنى وتُحَفِّزُ الانتباه.

قال ابن حجر رحمه الله: «قيل: خَصَّ صِفَةَ الْإِيمَانِ بِالطَّعْمِ وَصِفَةَ التَّلَاوةِ بِالرَّيْحِ؛ لِأَنَّ الْإِيمَانَ أَلْزَمَ لِلْمُؤْمِنِ مِنَ الْقُرْآنِ إِذْ يُمَكِّنُ حَصُولَ الْإِيمَانِ بِدُونِ الْقِرَاءَةِ، وَكَذَلِكَ الطَّعْمُ أَلْزَمُ لِلْجَوْهَرِ مِنَ الرَّيْحِ فَقَدْ يَذْهَبُ رِيحُ الْجَوْهَرِ وَيَبْقَى طَعْمُهُ.

ثم قيل: الْحِكْمَةُ فِي تَخْصِصِ الْأَتْرَجَةِ بِالتَّمَثِيلِ دُونَ غَيْرِهَا مِنَ الْفَاكِهَةِ الَّتِي تَجْمَعُ طِيبَ الطَّعْمِ وَالرَّيْحِ كَالْتَّفَاحَةِ؛ لِأَنَّهُ يُتَدَاوَى بِقَشْرِهَا وَهُوَ مَفْرَجٌ بِالْخَاصِّ، وَيُسْتَخْرَجُ مِنْ حَبِّهَا دَهْنٌ لَهُ مَنَافِعُ، وَقِيلَ: إِنَّ الْجَنَّةَ لَا تَقْرُبُ الْبَيْتَ الَّذِي فِيهِ الْأَتْرَجُ، فَنَاسَبَ أَنْ يُمَثَّلَ بِهِ الْقُرْآنُ الَّذِي لَا تَقْرُبُهُ الشَّيَاطِينُ، وَغُلَافُ حَبِّهِ أَبْيَضٌ فَيَنَاسِبُ قَلْبَ الْمُؤْمِنِ، وَفِيهَا أَيْضاً مِنَ الْمَزَايَا كَبَرُ جَزْمِهَا وَحُسْنُ مَنَظَرِهَا وَتَفْرِيجُ لَوْنِهَا وَلِينُ مَلَمْسِهَا، وَفِي أَكْلِهَا مَعَ الْإِلْتِذَاذِ طِيبُ نَكْهَةِ، وَدِبَاغُ مَعْدَةِ، وَجُودَةُ هَضْمِ»^(٢).

أحوال المؤمن مع القرآن:

المؤمنون - كما يُصنَّفُهم الحديث - درجات، وحالهم مع القرآن مُتفاوتة، فالذي يقرأ القرآن طَيِّبُ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ، كَالْأَتْرَجَةِ فِي طَيِّبِ طَعْمِهَا وَرَائِحَتِهَا، وَكَمَا أَنَّ الْمُؤْمِنَ يَسْتَرِيحُ وَيُسْرُ بِتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ فَكَذَلِكَ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِ يُسْرُونَ بِصَوْتِهِ وَالِاسْتِمَاعِ لَهُ.

= الأغصان والورق والثمر، وثمره كالأليمون الكبار، وهو ذهبُ اللُّونِ، زَكِيُّ الرَّائِحَةِ، حَامِضُ الْمَاءِ. انظر: لسان العرب (٨٤/٩)، المعجم الوسيط (ص ٤).
وجاء في «القاموس المحيط» (٣٦٤/١): «الْأَتْرَجُ وَالْأَتْرَجَةُ وَالْأَتْرَجَةُ وَالْأَتْرَجَةُ وَالْأَتْرَجَةُ وَالْأَتْرَجَةُ، وَهِيَ أَحْسَنُ الثَّمَارِ الشَّجَرِيَّةِ وَأَنْفُسُهَا عِنْدَ الْعَرَبِ».

(١) رواه البخاري، كتاب التَّوْحِيدِ، باب: قِرَاءَةُ الْفَاجِرِ وَالْمُنَافِقِ، وَأَصْوَاتُهُمْ وَتِلَاوَتُهُمْ لَا تُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ (٢٣٦٣/٤) (ج/٧٥٦٠)، ومسلم، واللفظ له، كتاب صلاة المسافرين، باب: فضيلة حافظ القرآن (٥٤٩/١) (ج/٧٩٧).

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨٤/٩). وانظر: تحفة الأجوذي (١٦٨/٨)؛ حاشية السندي على سنن النسائي (١٢٥/٨).

أَمَّا الْمُؤْمِنُ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَفْقَدُ صِفَةً هَامَّةً وَهِيَ طِيبُ الظَّاهِرِ، فَمِثْلُهُ كَمِثْلِ التَّمْرَةِ طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَلَا رِيحَ لَهَا، وَهَذَا نَقْصٌ فِي شَخْصِيَّةِ الْمُسْلِمِ لَا بَدَأَ مِنْ تَدَارُكِهِ بِالْإِقْبَالِ عَلَى الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ تِلَاوَةً وَحِفْظًا وَتَدَبُّرًا.

وَطِيبُ الطَّعْمِ هُنَا كِنَايَةٌ عَنْ قُوَّةِ الْإِيمَانِ فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ وَصِحَّةِ الْمَعْتَقَدِ، لَكِنْ بَعْضُ الْمُؤْمِنِينَ رَغْمَ نَقَاءِ قُلُوبِهِمْ وَصِحَّةِ اعْتِقَادِهِمْ، يَبْقَى عَطْرُهُ مُحْتَبَسًا فِي قَلْبِهِ وَصَدْرِهِ، لَا يَتَعَدَّى أَثَرُهُ إِلَى غَيْرِهِ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِإِعْرَاضِهِ عَنْ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ وَتَدَبُّرِهِ كَمَا يَنْبَغِي.

فَالْمُؤْمِنُ الْحَقُّ يَتَمَيَّزُ بِالْقُرْآنِ وَيرْتَقِي بِالْقُرْآنِ إِذَا تَلَاهُ بِشَرْطِهِ، وَعَمِلَ بِهِ، وَالتَّزَمَهُ مِنْهَجَ حَيَاةٍ، وَسَبِيلَ دَعْوَةٍ وَإِرْشَادٍ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَتَكَامَلُ الْبَاطِنُ وَالظَّاهِرُ، كَمَا يَتَكَامَلُ فِي الْأُتْرَجَةِ طِيبُ طَعْمِهَا، وَطِيبُ رَائِحَتِهَا، وَحُسْنُ مَنَظَرِهَا.

وَكَمَا لَا يُتَصَوَّرُ أَنْ يَنْفَصَلَ فِي الْأُتْرَجَةِ طِيبُ طَعْمِهَا عَنْ طِيبِ نَشْرِهَا وَعَطْرِهَا - فِي الْأَعْمِ الْأَغْلَبِ - كَذَلِكَ لَا يُتَصَوَّرُ أَنْ يَنْفَصَلَ إِيمَانُ الْمُؤْمِنِ عَنْ عَمَلِهِ وَسُلُوكِهِ، وَمِنَ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ وَالتَّزَامِهِ مِنْهَجَ حَيَاةٍ.

وَكَذَلِكَ لَا يُتَصَوَّرُ أَنْ يَنْفَصَلَ الْقُرْآنُ عَنِ الْمُؤْمِنِ أَبَدًا، فَيَصْبِحُ الْقُرْآنُ فِي وَادٍ وَالْمُؤْمِنُ فِي وَادٍ، وَمِنْ هُنَا يُمْكِنُ أَنْ نَفْهَمَ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠]؛ فَمَا بَيْنَ الْهَجْرَةِ إِلَى الْقُرْآنِ، وَالْهَجْرَةِ عَنِ الْقُرْآنِ، يَظْهَرُ التَّفَاوُتُ بَيْنَ طِيبِ الطَّعْمِ مَعَ طِيبِ الرَّائِحَةِ، وَبَيْنَ طِيبِ الطَّعْمِ وَغِيَابِ الرَّائِحَةِ.

فَفِي هَذَا الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ دَعْوَةٌ مِنْ ﷺ إِلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُسْلِمٍ أَنْ يَتَكَامَلَ بَاطِنُهُ مَعَ ظَاهِرِهِ، وَمَخْبِرُهُ مَعَ مَظْهَرِهِ، وَاعْتِقَادُهُ مَعَ سُلُوكِهِ، وَلَا يَتَحَقَّقُ ذَلِكَ إِلَّا بِمُلَازِمَةِ الْمُؤْمِنِ لِتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ وَتَدَبُّرِهِ وَالْعَمَلِ بِهِ^(١).

(١) انظر: أنوار القرآن (ص ٨٩ - ٩٢)؛ ورتل القرآن ترتيباً (ص ١٦ - ١٧).

المطلب الخامس

التلاوة كُلُّهَا خَيْرٌ

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ» ^(١) مَعَ السَّفَرَةِ ^(٢) الْكِرَامِ الْبَرَّةِ ^(٣)، وَالَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَتَتَعْتَعُ فِيهِ ^(٤)، وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ لَهُ أَجْرَانِ ^(٥)، ^(٦).

وفي لفظ آخر من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً: «الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَهُوَ مَاهِرٌ بِهِ، مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَّةِ، وَالَّذِي يَقْرؤه وَهُوَ يَشْتَدُّ عَلَيْهِ، فَلَهُ أَجْرَانِ» ^(٧).
ومن ظاهر الحديث يتبين أنَّ القراء صنفان من حيث جودة التلاوة وإتقانها، ومن حيث الثواب المترتب عليها، وهما:

١ - الماهر بالقرآن:

فالحديث يحمل بشارة عظيمة لمن تعلَّم القرآن وأتقن تلاوته وأكثر منها حتى أصبح ماهراً فهو مع السَّفَرَةِ وهم الرُّسُل الذين أرسلهم الله ﷻ لهداية النَّاس، أو

(١) (الماهر بالقرآن): هو الحاذق الكامل الحفظ، الذي لا يتوقَّف ولا تشقُّ عليه القراءة، لجودة حفظه وإتقانه.

(٢) (مع السَّفَرَةِ): السَّفَرَةُ جمع سافر، ككتبه وكاتب. والسَّافِر: الرُّسُول. والسَّفَرَةُ: الرُّسُل؛ لأنهم يُسَفِّرون إلى النَّاس برسالات الله. وقيل: هم الملائكة، سُمُّوا بذلك؛ لأنهم ينزلون بوحى الله وما يقع به الصُّلاح بين النَّاس، كالسَّفير يُصَلِّح بين القوم، وكذلك أهل القرآن يُصَلِّح الله بهم المجتمع.

(٣) (البرَّة): أي المطيعون لله، مأخوذ من البرِّ وهو الطَّاعة.

(٤) (ويتتبع فيه): هو الذي يتردَّد في تلاوته؛ لضعف حفظه.

(٥) (له أجران): أجر بالقراءة، وأجر بتتبعه في تلاوته ومشقته.

انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٦/٨٤ - ٨٥)؛ فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨/٦٩٣)؛ شرح السنة، للبغوي (٤/٣٠).

(٦) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب: فضل الماهر بالقرآن والذي يتتبع فيه (١/٥٥٠) (ح ٧٩٨).

(٧) رواه أبو داود، كتاب قراءة القرآن وتحزيه وترتيله، باب: في ثواب قراءة القرآن (٢/٧٠) (ح ١٤٥٤)، وضحه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (١/٢٧٢) (ح ١٢٩٠).

الملائكة المقرَّين؛ لانتصافه بصفاتهم التي تشرَّفوا بها، وهي حملُ كتاب الله تعالى وتبليغه، والإكثار من ذكر الله تعالى^(١).

ويبقى لنا أن نعرف مَنْ هو الماهر؟

هل الماهر بالقرآن الذي يُجيد تلاوته فقط، ولا شيء وراء ذلك؟ وهل مَنْ فعل ذلك يستحقُّ هذه المنزلة العظيمة؟!

لِنستمع إلى القرطبي رحمته الله وهو يصف لنا الماهر بالقرآن، لنذكر أن نيل هذه المرتبة الرفيعة يحتاج إلى مشقة وصبر وعمل متواصل حتى ينالها، فيقول: «ولا يكون ماهراً بالقرآن حتى يكون عالماً بالفرقان، وذلك بأن يتعلَّم أحكامه، فيفهم عن الله تعالى مراده وما فرض عليه، ويعرف المكيَّ من المدني، ليُفرِّق بين ما خاطب الله به عباده في أوَّل الإسلام، وما قدَّبهُم إليه في آخر الإسلام، وما افترض في أوَّل الإسلام، وما زاد عليهم من الفرائض في آخره، ويعرف الإعراب والغريب، فذلك الذي يسهلُ عليه معرفة ما يقرأ، ويُزيلُ عنه الشكَّ فيما يتلو، ثم ينظر في السنن المأثورة الثابتة عن النبي صلى الله عليه وآله فَبِهَا يصل الطالبُ إلى مراد الله تعالى وهي تَفْتَحُ له أحكام القرآن فتحةً»^(٢).

٢ - الذي له أجران:

مَنْ فَضِّلَ الله تعالى وكرمه وتيسيره القرآن للمسلمين أن كلَّ مَنْ يُقِيلُ على القرآن العظيم فيتلوه ويتدبره فإن له أجراً عظيماً عند الله تعالى، سواء أكان ماهراً بالقراءة أم مُتَعَتِماً فيها قد جاهد نفسه واشتدَّت عليه التلاوة فله أجران،: أجرٌ على التلاوة، وأجرٌ على المشقة.

وهل يعني هذا أن مَنْ له أجران أكثرُ ثواباً من الماهر بالقرآن؟

يُجيبنا على هذا السؤال النووي رحمته الله حيث يقول: «وليس معناه الذي يتتبع عليه له من الأجر أكثر من الماهر به، بل الماهر أفضل، وأكثر أجراً؛ لأنه مع السَّفرة وله أجور كثيرة.

(١) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٦/ ٨٥)؛ و«تل القرآن ترتيلاً» (ص ١٩).

(٢) التذكار في أفضل الأذكار (ص ٨٣ - ٨٤).

ولم يذكر هذه المنزلة لغيره، وكيف يَلْحَقُ به مَنْ لم يَعْتَنِ بكتاب الله تعالى وحِفْظِهِ، وإتقانه، وكثرة تلاوته وروايته، كاعتنائه حتى مَهَرَ فِيهِ^(١).

«والحاصل أَنَّ المضاعفة للماهر لا تُحْصَى، فَإِنَّ الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف وأكثر، والأجر شيء مُقَدَّر، وهذا له أجران من تلك المضاعفات»^(٢).

والماهر نفسه كان القرآن مُتَعَفِّعاً عَلَيْهِ ثُمَّ تَرَفَّى بِعَدِّ ذَلِكَ إِلَى أَنْ شَبَّهَ بِالْمَلَائِكَةِ^(٣).

وبعد هذا كُلُّهُ هل يَرْضَى المسلمُ أَنْ يَكُونَ القرآنُ عَلَيْهِ شاقًّا، وَأَنْ يَلْقَى عَلَى الدَّوَامِ صَعُوبَةً فِي تِلَاوَتِهِ، وَيَتَمَتَّعَ فِيهِ؟

إِذَا كَانَتِ التَّلَاوَةُ شاقَّةً عَلَيْهِ فهِذَا يُؤْجِرُ عَلَى مِجَاهَدَتِهِ، وَيُقْبَلُ مِنْهُ ذَلِكَ، فَإِنَّهُ قَدْ بذَلَ جُهِدَهُ وَوَسَّعَهُ وَطَاقَتَهُ، وَاللَّهُ تَعَالَى لَا يَكْلِفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا، وَمَا آتَاهَا، وَلَكِنْ لَا يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ أَبَداً أَنْ يَرْضَى لِنَفْسِهِ بِهَذِهِ الْحَالِ وَيَقْنَعُ بِضَعْفِهِ إِذَا كَانَ قَادِرًا عَلَى بَذْلِ الْمَزِيدِ.

وَالْعَبَبُ كُلُّ الْعَتَبِ عَلَى أَوْلَئِكَ الَّذِينَ يُتَعَفَّفُونَ فِي تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ وَهُوَ عَلَيْهِمْ شاقٌّ بِاخْتِيَارِهِمْ؛ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ عَلَى دَرَجَةٍ مِنَ الْعِلْمِ، وَإِجَادَةِ الْقِرَاءَةِ، أَوْ أَنَّهُمْ مِمَّنْ حَمَلَ شَهَادَاتٍ عِلْمِيَّةً عَالِيَةً.

لَا رَيْبَ أَنَّهُمْ مُفَرِّطُونَ بِذَلِكَ، وَمَرَدُّ تَفْرِيطِهِمْ يَرْجِعُ إِلَى أَمْرَيْنِ أَحْسَنُهُمَا سَيِّئٌ:

١ - إِمَّا أَنَّهُمْ أَهْمَلُوا كِتَابَ اللَّهِ ابْتِدَاءً، وَأَعْرَضُوا عَنْهُ، فَصَعِبَتْ عَلَيْهِمُ التَّلَاوَةُ وَأَصْبَحَتْ شاقَّةً؛ لِأَنَّ فَاقِدَ الشَّيْءِ لَا يُعْطِيهِ. فَهَمْ لَمْ يَتَعَلَّمُوهُ الْبَتَّةَ.

٢ - أَوْ أَنَّهُمْ تَعَلَّمُوا التَّلَاوَةَ ثُمَّ انْصَرَفُوا عَنْهَا وَهَجَرُوهَا، فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَزَهَدُوا فِي الْأَجْرِ وَشَقَّتْ عَلَيْهِمُ التَّلَاوَةُ بَعْدَ ذَلِكَ، وَهَؤُلَاءِ عَلَى خَطَرٍ كَبِيرٍ إِذَا لَمْ يَتَذَكَّرُوا أَنْفُسَهُمْ، وَلَهُمْ أَوْفَرُ النَّصِيبِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرَبِّ إِنَّ قُوَّتِي أَخْذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠].

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (٣٢٦/٦).

(٢) عون المعبود شرح سنن أبي داود (٢٣٠/٤).

(٣) انظر: التذكار في أفضل الأذكار (ص ٨٣).

وإذا كان هذا حالَ أهلِ العربية الذين أكرمهم الله تعالى بها، ونزل القرآن بلسانهم، فلا عَتَبَ، ولا عجب إذاً على غير العرب من المسلمين إذا شَقَّ عليهم القرآن وتَعَتَّعُوا في تلاوته.

لكنَّ الواقعَ خلاف ذلك، فإن كثيراً من إخواننا المسلمين من غير العرب في بقاع الأرض كُلِّها، يتلون كتابَ الله تعالى، وهم مَهْرَةٌ في ذلك، والآلاف من هؤلاء يحفظونه عن ظهر قلب، بل أصبحوا معلِّمين له، وربما أتوا إلى بلادٍ عربية ليعلِّموا أولادَ العرب القرآنَ الكريم، وهو فضل الله يؤتيه مَنْ يشاء.

وفي هذا الحديث إحياء قويٌّ، بأنَّ المسلم لا ينبغي له في أيِّ حال كان، أن ينصرف عن تلاوة القرآن العظيم، سواء أكان مِنَ المَهْرَةِ الْمُتَّقِينَ المتمكِّنين من التَّلَاوة، أم كان ضعيفَ القُدرة على تحصيل ذلك، فَيَتَّخِذَ ضَعْفَهُ حُجَّةً في الإعراض عن التَّلَاوة.

ولا ريبَ أن كثرة الممارسة والمحاولة الجادَّة ستؤدِّي إلى حُسْنِ التَّلَاوة، ورُبَّمَا حُسْنِ الحفظ فيما بَعْدُ، وهو أمرٌ مُجَرَّبٌ، ويسير على مَنْ يَسَّرَهُ الله عليه، ووَفَّقَهُ لذلك^(١).



الفصل السادس

هجر حفظ القرآن

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: حفظ القرآن وتيسيره.

المبحث الثاني: آداب حفظ القرآن.

المبحث الثالث: فضائل حفظ القرآن.

المبحث الرابع: حُكم حفظ القرآن ونسيانه.

المبحث الأول

حفظ القرآن وتيسيره

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: تعريف حفظ القرآن.

المطلب الثاني: تيسير حفظه على جميع الألسنة.

المطلب الأول

تعريف حفظ القرآن

أولاً: «الحفظ» لغة:

جاء الحِفْظُ في اللغة مصدراً مشتقاً من الفعل «حَفِظَ»، وقد ذكر عدد من علماء اللغة لهذا الفعل ومشتقاته استعمالات عديدة، وهي على النحو التالي:

* قال ابن فارس رحمته الله: «الحاء والفاء والطاء أصل واحد، يدل على مراعاة الشيء»^(١).

* والحِفْظُ: نقيض النسيان، وهو: التَّعَاهُدُ وَقَلَّةُ الْغَفْلَةِ. يُقال: حَفِظَ الشَّيْءَ حِفْظاً، ورجل حافظ من قوم حُفَاطٍ^(٢).

* وحفظ الشيء حِفْظاً: حَرَسَهُ، وَحَفِظَهُ: اسْتَظْهَرَهُ.

والتَّحَفُّظُ: التَّيَقُّظُ وَقَلَّةُ الْغَفْلَةِ. وَتَحَفَّظَ الْكِتَابُ: اسْتَظْهَرَهُ شَيْئاً بَعْدَ شَيْءٍ^(٣).

* والحفظ - بمعنى عدم النسيان - له مرادفات عدة:

يُقال: قرأ فلان القرآن على ظَهر لسانه، وعن ظَهر قلبه، أي: حَفِظَهُ. وَظَهَرَ اللِّسَانُ وَظَهَرَ الْقَلْبُ كناية عن الحفظ من غير كتاب، ولهذا يُقال: اسْتَظْهَرَهُ، أي: حَفِظَهُ وقراه ظاهراً^(٤).

حفظ القرآن يتضمن أموراً ثلاثة:

١ - ضَبْطُ الصُّورَةِ الْمُدْرَكَةِ^(٥) بحيث يمكن أداؤها من غير كتاب.

(١) معجم مقاييس اللغة (٣٠٩/١)، مادة: (حَفِظَ).

(٢) انظر: لسان العرب (٢٤٢/٣)، مادة: (حَفِظَ).

(٣) انظر: مختار الصحاح (ص ٧٦)، مادة: (حَفِظَ).

(٤) انظر: لسان العرب (٢٧٩/٨)، مادة: (ظَهَرَ)؛ المعجم الوسيط (ص ٥٧٨)، مادة: (ظَهَرَ).

(٥) انظر: التعريفات، لعلي الجرجاني (ص ١٢٠)، مادة: (حَفِظَ).

٢ - المواظبة والمعاهدة للمحفوظ.

٣ - عدم النسيان^(١).

استعمالات «الحفظ» في القرآن:

سوف نعرض للمعاني التي تتعلق بموضوع البحث على النحو الآتي:

١ - يأتي الحفظ بمعنى التمهيد والصيانة والرعاية، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَهُمُ حَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]. وقول إخوة يوسف: ﴿وَنَحْفِظُ أَخَانَا﴾ [يوسف: ٦٥]. وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأُفْرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ [المعارج: ٢٩]^(٢).

٢ - يأتي الحفظ بمعنى الأمانة، ومنه قول يوسف عليه السلام: ﴿أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْهَا﴾ [يوسف: ٥٥].

٣ - يأتي الحفظ بمعنى الرقابة، كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ [الشورى: ٦].

ثانياً: «حفظ القرآن» اصطلاحاً:

من خلال الاستعراض اللغوي لمادة «حَفِظَ»، ومشتقاتها في الآيات القرآنية، وما ذكره بعض أهل العلم في هذا الشأن، نستطيع أن نُقرر: بأنَّ «حِفْظَ القرآن» يعني:

حَمْلُهُ، واستظهاره، وقراءته عن ظهر قلب، وعلى ظهر اللسان، والمواظبة والمعاهدة للمحفوظ، وصيانته ورعايته من الغفلة أو النسيان.

تمييز حافظ القرآن عن غيره من الحفَّاظ:

يتمييز حافظ القرآن عن غيره من حَفَّاظ الحديث، أو حَفَّاظ الأشعار، أو الحِكم، أو الأمثال، أو النصوص الأدبية ونحوها، بأمرين أساسين:

الأول: استكمال القرآن كله حفظاً وضبطاً:

فلا يُسمَّى مَنْ حَفِظَ نصف القرآن أو ربعه - مثلاً - حافظاً إلا إذا أكمل

(١) انظر: كيف تحفظ القرآن الكريم، د. عبد الرزاق نواب الدين (ص ٤).

(٢) انظر: المفردات في غريب القرآن (ص ١٣١)، مادة: (حفظ).

حفظه. وإلا صحَّ أن يُسمَّى جميع المسلمين حَفَظَةً للقرآن، إذ لا يخلو مسلم من حفظ شيء من كتاب الله.

الثاني: صيانة المحفوظ من النسيان:

فَمَنْ حَفِظَ الْقُرْآنَ ثُمَّ نَسِيَ أَوْ نَسِيَ جُلَّهُ أَوْ بَعْضَهُ إِهْمَالاً وَغَفْلَةً لَغَيْرِ عَذْر - كَكِبَرٍ أَوْ مَرَضٍ - لَا يُسَمَّى حَافِظاً، وَلَا يَسْتَحِقُّ لِقَبِّ (حامل القرآن الكريم)؛ لأنه إذا صحَّ رواية الحديث بالمعنى، وجاز تحوير بعض الشعر والنص الأدبي - مثلاً - فَمِثْلُ هَذَا مَمْتَنَعٌ فِي حِفْظِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ^(١).

المطلب الثاني

تيسير حفظه على جميع الألسنة

إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ مَا أَمِتَنَ بِهِ اللَّهُ ﷻ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَسَّرَ حِفْظَ الْقُرْآنِ وَالنُّطْقَ بِهِ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ، يَتَسَاوَى فِي ذَلِكَ الْعَالَمِ الَّذِي وَصَلَ إِلَى أَرْقَى دَرَجَاتِ الْعِلْمِ، وَالْإِنْسَانِ الْعَامِّيِّ الَّذِي يَحِبُّ الْقُرْآنَ وَيَتَعَلَّقُ بِهِ، كَمَا يَتَسَاوَى فِي ذَلِكَ أَيْضاً الْعَرَبِيُّ الْفَصِيحُ، وَالْأَعْجَمِيُّ إِذَا تَوَجَّهَ إِلَى حِفْظِ كِتَابِ اللَّهِ، وَلَوْلَا لُطْفُ اللَّهِ تَعَالَى بِالنَّاسِ، وَتَيْسِيرُ الْقُرْآنِ لِلذِّكْرِ بِلِسَانِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، لَمَا اسْتَطَاعَ أَحَدٌ أَنْ يَتَحَمَّلَ حِفْظَ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَنْتَى لَهُ الْإِطَاقَةُ لِأَنْوَارِهَا وَإِشْعَاعَاتِهَا؟! وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمَا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى مَسْأَلَةَ تَيْسِيرِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ بِلِسَانِ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ ﷺ.

قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَذًا﴾ [مريم: ٩٧]^(٢).

كما أشار الله تعالى إلى عِظَمِ نِعْمِهِ عَلَى عِبَادِهِ بِأَنْ يَسَّرَ لَهُمْ حِفْظَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القمر: ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠].

قال مجاهد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يَسَّرْنَا: هَوَّنَّا قِرَاءَتَهُ»^(٣).

(١) انظر: كيف تحفظ القرآن الكريم (ص ٤٠ - ٤١).

(٢) انظر: تيسير القرآن بلسان سيدنا محمد ﷺ، د. عبدو بن علي الحاج، مجلة الأحمديّة (عدد ١٥) (رمضان ١٤٢٤هـ) (ص ٢٢٢).

(٣) صحيح البخاري، كتاب التفسير (٣/ ١٥٤٧).

«أي: سَهَّلْنَاهُ لِلْحِفْظِ وَأَعَنَّا عَلَيْهِ مَنْ أَرَادَ حِفْظَهُ، فَهَلْ مِنْ طَالِبٍ لِحِفْظِهِ فَيَعَانُ عَلَيْهِ؟»^(١).

وقوله تعالى: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ «أي: فهل مِنْ مُتَعِظٍ بِهِ، حَافِظٍ لَهُ؟ وَالِاسْتِفْهَامُ هُنَا بِمَعْنَى الْأَمْرِ، أَيِ احْفَظُوهُ وَاتَّعِظُوا بِهِ، وَلَيْسَ يُحْفَظُ مِنْ كُتُبِ اللَّهِ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ غَيْرِهِ»^(٢).

والتيسير: إيجاد اليسر في الشيء، سواء كان فعلاً، كقوله تعالى: ﴿يُؤَيِّدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]. أم قولاً كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَمَا هُمْ بِيَتْلُونَ﴾ [الدخان: ٥٨].

وسبب تيسيره: أنه نزل بأفصح اللغات وأبسطها، وجاء على لسان أفضل الرسل ﷺ.

ومعنى تيسيره: يرجع إلى تيسير ما يراد منه، وهو فهم السامع المعاني التي عنها المتكلم به بدون كلفة على هذا السامع ولا إغلاق، كما يقولون: يدخل للأذن بلا إذن.

وهذا اليسر يشمل الألفاظ والمعاني.

فأما الألفاظ: لأنها في أعلى درجات فصاحة الكلمات وفصاحة التراكيب، أي فصاحة الكلام، وانتظام مجموعها، بحيث يخف حفظها على الألسنة. وأما المعاني: فيبوضوحها ووفرته، ويتولد معانٍ مِنْ مَعَانٍ أُخِرَ كُلَّمَا كَرَّرَ المتدبر تدبره في فهمها^(٣).

والمأمل في هذه الآية الكريمة يجد أن الله تبارك وتعالى أكد تيسير حفظ كتابه بمؤكدات متعددة قوية، منها: القسم ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا﴾، ومنها: التعبير بنون العظمة ﴿يَسَّرْنَا﴾، ومنها: تكرار هذه الآية أربع مرات في سورة القمر. والواقع المشاهد يُصَدِّقُ هذا التيسير، فقد حفظ القرآن حفاظ لا يحصون عدداً في كل جيل ومن كل قبيل، لا يخطئ أحدهم في كلمة ولا حرف، سواء

(١) تفسير القرطبي (١٧/١٣٤). (٢) تفسير الجلالين (ص ٧٠٦).

(٣) انظر: التحرير والتنوير (٢٥/٣٤٤) (٢٧/١٨٠ - ١٨١).

كانوا عَرَباً أم عَجَمًا، وأكثرَ الحَفَاطِ الْعَجَمَ لا يعرفون من العَرَبِيَّةِ شيئاً، وربما قرأ الواحد منهم القراءات السَّبْعَ والعشر عن ظهر قلب^(١).

وقد عَدَّ أبو الحسن الماوردي رحمته الله هذا الأمر وَجْهاً من وجوه إعجاز القرآن العظيم وخصائصه التي تَمَيَّز بها عن سائر كتب الله تعالى، فقال: «مِنْ إعجازه تيسيره على جميع الألسنة، حتى حَفِظَه الْأَعْجَمِيُّ الْأَبْكَمُ، ودار به لسان القبطيِّ الأَلَكَنُ، ولا يُحَفِظُ غيره من الكتب كحفظه، ولا تجري به ألسنة البكم كجريها به، وما ذاك إِلَّا بخصائص إلهيَّة فَضَّلَه بها على سائر كتبه»^(٢).

ومع هذا التَّيسِير فإنَّ حِفْظَ الْقُرْآنِ مِنَ السَّهْلِ الْمَمْتَنِعِ، سَهْلٌ حِفْظُهُ، مَمْتَنِعٌ ثَبَاتُهُ فِي الْقَلْبِ بِسَهُولَةٍ وَيُسْرٍ، فلا بدَّ من تعاوده حتَّى لا يَضِيعَ حِفْظُهُ مِنَ الصُّدُورِ. فأين المتعاهدون لكتاب الله تعالى؟ هذه هي المشكلة!

حِفْظُ الْقُرْآنِ ميسَّرٌ دون سواه من الكتب السَّابِقَةِ:

قال الرَّازِي رحمته الله: «ولم يكن شيء من كتب الله تعالى يُحَفِظُ عَنْ ظَهْرِ الْقَلْبِ غَيْرَ الْقُرْآنِ»^(٣).

وروي: «أَنَّ كُتُبَ أَهْلِ الْأَدْيَانِ - نَحْوَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ - لَا يَتْلُوها أَهْلُهَا إِلَّا نَظْراً، ولا يحفظونها ظاهراً كما القرآن»^(٤)، «غَيْرَ مُوسَى، وَهَارُونَ، وَيُوشَعَ بْنِ نُونٍ، وَعُزَيْرٍ عليه السلام وَمَنْ أَجَلَ ذَلِكَ افْتَتَنُوا بِعُزَيْرٍ لَمَّا كُتِبَ لَهُمُ التَّوْرَةُ عَنْ ظَهْرِ قَلْبِهِ حِينَ أُحْرِقَتْ»^(٥).

قال سعيد جبير رحمته الله: «ليس من كُتُبِ اللَّهِ تعالى كتاب يُقْرَأُ كُلُّهُ ظَاهِراً إِلَّا الْقُرْآنُ»^(٦).

والذي يُوَكِّدُ هَذَا التَّوَجُّهَ وَيُؤَكِّدُهُ: أَنَّ الْكُتُبَ الرَّبَّانِيَّةَ نَزَلَتْ كَامِلَةً دَفْعَةً وَاحِدَةً، وَلَمْ يُؤَمَّرْ أَهْلُهَا بِحِفْظِهَا كَمَا أُمِرَتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ بِحِفْظِ الْقُرْآنِ، وَلَمْ يَتَعَهَّدِ اللَّهُ تعالى بِحِفْظِهَا لَهُمْ كَمَا تَعَهَّدَ بِحِفْظِ الْقُرْآنِ.

(١) انظر: كيف تتوجه إلى العلوم والقرآن الكريم مصدرها (ص ٨٣ - ٨٤).

(٢) أعلام النبوة (ص ٦٩). (٣) التفسير الكبير (٣٨/٢٩).

(٤) الكشف (٤٣٦/٤). وانظر: تفسير الشنقي (٣/١٧٢٦)؛ تفسير القرطبي (١٧/١٣٤).

(٥) تفسير القرطبي (١٧/١٣٤). (٦) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

ومقتضيات الحفظ: أن يُحفظ في الصدور والسطور، وكلّما كان الحفظ في الصدور والسطور كان أوثق وأدعى للبقاء، ولذلك اجتمعت في القرآن العظيم كل أسباب الحفظ.

ولولا أن يسّر الله حفظ القرآن الكريم في الصدور لما حفظ عن ظهر قلب على مرّ العصور، وكثر الدهور، وتعاقب الأجيال، ولما وجد حافظ لكتاب الله تعالى، بل ولا سورة من سوره أو آية من آياته^(١).

هجر الحفظ نوعان:

وأما هجر حفظ القرآن، فهو نوعان:

الأول: هجره ابتداءً: بعدم حفظه، وبالزهد في تعلّمه، والمسؤوليّة تقع فيه على وليّ الأمر؛ وذلك لأنّه لا بدّ من أن يوجّه أبناءه لحفظ القرآن، خاصّة في بداية مراحل العمر.

كما أنّ هناك مسؤوليّة عامّة تقع على ولاة أمور المسلمين - والمقصود: حكومات الدول الإسلاميّة - وذلك برصد الميزانيات الماليّة، وفتح مدارس تحفيظ القرآن، ومتابعتها، تعظيماً لكتاب الله، وأنّ التّقاعس في هذا الشأن هو من هجر القرآن.

الثاني: هجره بعد حفظه: وذلك بالانشغال عنه، وعدم تعاوده فيؤدّي إلى تفلّته، وهي مسؤوليّة كلّ فردٍ عن نفسه.



المبحث الثاني

آداب حفظ القرآن

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: آداب أثناء الحفظ.

المطلب الثاني: آداب بعد الحفظ.

آداب حفظ القرآن

تمهيد:

لِحَمَلَةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ آدَابٌ يَنْبَغِي أَنْ يُرَاعَوْهَا، وَعَلَيْهِمْ وَاجِبَاتٌ يَجِبُ أَنْ يُنْفِذُوهَا، حَتَّى يَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الْقُرْآنِ حَقًّا، وَلِذَا حَذَّرَ أَهْلُ الْعِلْمِ مِنْ عَدَمِ الْإِتِمَارِ حَفَظَةَ كِتَابِ اللَّهِ بِالْأَخْلَاقِ الْحَسَنَةِ، وَالْآدَابِ الْمُرْعِيَّةِ، وَالوَاجِبَاتِ الشَّرْعِيَّةِ؛ لِثَلَا يَكُونُوا فِتْنَةً لغيرهم مِنَ الْجَهَّالِ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ الْأَجْرِيُّ رحمته الله: «فَمَنْ كَانَتْ هَذِهِ أَخْلَاقُهُ صَارَ فِتْنَةً لِكُلِّ مُفْتُونٍ؛ لِأَنَّهُ إِذَا عَمِلَ بِالْأَخْلَاقِ الَّتِي لَا تَحْسُنُ بِمِثْلِهِ اقْتَدَى بِهِ الْجَهَّالُ».

فَإِذَا عِيبَ عَلَى الْجَاهِلِ، قَالَ: فَلَا تَحَامِلْ لِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى فَعَلْ هَذَا، فَنَحْنُ أَوْلَى أَنْ نَفْعَلَهُ، وَمَنْ كَانَتْ هَذِهِ حَالُهُ فَقَدْ تَعَرَّضَ لِعَظِيمٍ، وَثَبَّتَ عَلَيْهِ الْحُجَّةَ، وَلَا عَذْرَ لَهُ إِلَّا أَنْ يَتُوبَ، وَإِنَّمَا حَدَانِي عَلَى مَا بَيَّنْتُ مِنْ قَبِيحِ هَذِهِ الْأَخْلَاقِ نَصِيحَةً مِنِّي لِأَهْلِ الْقُرْآنِ؛ لِيَتَخَلَّقُوا بِالْأَخْلَاقِ الشَّرِيفَةِ، وَيَتَخَلَّفُوا عَنِ الْأَخْلَاقِ الدَّنِيئَةِ، وَاللَّهُ يُوَفِّقُنَا وَإِيَّاهُمْ لِلرَّشَادَةِ»^(١).

وَمِنْ جَمَلَةِ هَذِهِ الْآدَابِ: مَا وَرَدَ فِي قَوْلِ الصَّحَابِيِّ الْجَلِيلِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، أَنَّهُ قَالَ: «يَنْبَغِي لِحَامِلِ الْقُرْآنِ أَنْ يُعْرِفَ بَلِيلَهُ إِذَا النَّاسُ نَائِمُونَ، وَبِنَهَارِهِ إِذَا النَّاسُ مُفْطَرُونَ، وَبَوْرَعِهِ إِذَا النَّاسُ يَخْلُطُونَ، وَبِتَوَاضُعِهِ إِذَا النَّاسُ يَخْتَالُونَ، وَبِحِزْنِهِ إِذَا النَّاسُ يَفْرَحُونَ، وَبِبِكَائِهِ إِذَا النَّاسُ يَضْحَكُونَ، وَبِصَمْتِهِ إِذَا النَّاسُ يَخُوضُونَ»^(٢).

(١) أخلاق حملة القرآن (ص ٤٥ - ٤٦).

(٢) رواه أحمد في «الزهد» (ص ١٦٢)؛ وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٢٩)؛ والسخاوي في «جمال القراء» (ص ٢٨)؛ وابن أبي شيبه في «مصنفه» (٧/ ٢٣١) (رقم ٣٥٥٨٤)؛ والنووي في «التبيان» (١/ ٢٩)؛ والسيوطي في «الدر المنثور» (٧/ ٢١)؛ والآجري في «أخلاق حملة القرآن» (ص ٥٠) (رقم ٣٠).

وتنظراً لسلوك كثير من الحفاظ مسلماً غير صحيح أثناء مرحلة الحفظ أو بعده، قمت بتقسيم هذه الآداب إلى قسمين، وهي على النحو التالي.

المطلب الأول

آداب أثناء الحفظ

١ - الإخلاص لله تعالى:

لا يخفى أن الإخلاص وإرادة وجه الله تعالى شرط لصحة العمل وقبوله إن كان عبادياً محضاً؛ كالصلاة والصيام والحج وغيرها، كما أنه شرط للثواب ونيل الأجر في الأمور المباحة؛ كالنوم والأكل وحسن معاشرة الخلق وغيرها في حال احتسابها.

وبما أن قراءة القرآن وحفظه من الأمور العبادية المحضه؛ فإنها لا تقبل عند الله تعالى إلا بالإخلاص، وهي داخله في مثل قول الله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، وقوله تعالى في الحديث القدسي: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشُّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكُهُ»^(١).

فيجب على الراغب في حفظ كتاب الله تعالى أن يخلص نيته في طلبه، وليراقب كل نفسه، هل أراد بحفظه للقرآن وجه الله تعالى أم أراد به أعراضاً دنيوية فانية؟ وقد تساءل - عن ذلك - أبو حامد الغزالي رحمته الله قائلاً:

«كَمْ مِنْ لَيْلَةٍ أَحْيَيْتَهَا بِتَكَرُّرِ الْعِلْمِ وَمُطَالَعَةِ الْكُتُبِ، وَحَرَمْتِ عَلَى نَفْسِكَ النَّوْمَ؛ لَا أَعْلَمُ مَا كَانَ الْبَاعِثُ فِيهِ؟ إِنْ كَانَ نَيْلَ عَرْضِ الدُّنْيَا، وَجَذَبَ حُطَامُهَا وَتَحْصِيلَ مَنَاصِبِهَا، وَالْمُبَاهَاةَ عَلَى الْأَقْرَانِ وَالْأَمْثَالِ، فَوَيْلٌ لَكَ ثُمَّ وََيْلٌ لَكَ، وَإِنْ كَانَ قُضْدُكَ فِيهِ إِحْيَاءَ شَرِيعَةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَتَهْذِيبَ أَخْلَاقِكَ، وَكُسْرَ النَّفْسِ الْأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ، فَطَوْبَى لَكَ ثُمَّ طَوْبَى لَكَ، وَلَقَدْ صَدَّقَ مَنْ قَالَ شِعْرًا:

(١) رواه مسلم، كتاب الزهد والرفائق، باب: مَنْ أَشْرَكَ فِي عَمَلٍ غَيْرِ اللَّهِ (٤/٢٢٨٩).

سَهَرُ الْعُيُونِ لِغَيْرِ وَجْهِكَ ضَائِعٌ وَتُكَادُ هُنَّ لِغَيْرِ فَقْدِكَ بَاطِلٌ»^(١)

فلا بدّ من تصحيح العمل قبل الشروع فيه.

وأوضح ابن جماعة^(٢) رحمه الله كيفية تحسين النية بقوله: «حُسن النية في طلب العلم، بأن يقصد به وجه الله تعالى، والعمل به، وإحياء الشريعة، وتنوير قلبه، وتحلية باطنه، والقرب من الله تعالى يوم القيامة، والتعرض لما أعدّه الله لأهله من رضوانه وعظيم فضله»^(٣).

وبين الشوكاني رحمه الله تأثير حُسن النية والإخلاص في تسهيل الأمور على طلاب العلم بقوله: «إنَّ لِحُسْنِ النِّيَّةِ وإخلاص العمل تأثيراً عظيماً في هذا المعنى، فَمَنْ تَعَكَّسَتْ عليه بعض أموره من طلبه العلم، أو صَنَعَتْ عليه مقاصده، فليعلم أنَّه بذنبه أُصِيب، وبعدم إخلاصه عُوقِب، أو أنَّه أُصِيب بشيء من ذلك محنة له وابتلاء واختباراً؛ لِيُنْظَرَ كيف صبره واحتماله، ثم يُفِيضَ الله عليه بعد ذلك من خزائن الخير ما لم يكن بحسابانه، ولا يبلغ إليه تصوُّره، فليُغْضَ على العلم بناجذه، وَيَشُدَّ عليه يده، ويشرح به صدره، فإنَّه لا محالة واصل إلى مراده إن شاء الله»^(٤).

شِدَّةُ الإخلاص على النَّفْسِ:

الإخلاص شديد على النفوس، ولذلك لمَّا قيل لسهل بن عبد الله التُّستري رحمه الله: «أي شيء أشدُّ على النَّفْسِ؟ قال: الإخلاص، إذ ليس لها فيه نصيب»^(٥).

(١) أيها الولد المُحِبُّ، للغزالي (ص ١١).

(٢) هو محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة بن علي بن حازم الكِنَاني، الحموي، الشافعي (بدر الدين) مفسر، فقيه، أصولي، متكلم، محدث. ولد بحماة سنة (٦٣٩هـ)، وولي القضاء بالقدس، والديار المصرية، وبدمشق، وجمَعَ بين القضاء ومشايخ الشيوخ والخطابة، وتوفي بالقاهرة سنة (٧٣٣هـ)، ودُفِنَ قريباً من الإمام الشافعي. ومن تصانيفه الكثيرة: «المنهل الرُّوي في علوم الحديث النبوي»، و«إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل»، و«تحرير الأحكام في تدبير جيش الإسلام» وغيرها.

انظر: الدرر الكامنة (٣/ ٢٨٠ - ٢٨٣).

(٣) تذكرة السامع والمتكلم (ص ٦٨). (٤) أدب الطلب ومنتهى الأدب (ص ١٣٣).

(٥) إحياء علوم الدين (٤/ ٣٨١)؛ مدارج السالكين (٢/ ٩٢).

وقال سفيان الثوري رحمته الله: «ما عالجْتُ شيئاً أشدَّ عليَّ من نَيْتِي؛ إِنَّهَا تَقْلُبُ عليَّ»^(١).
ومن علامات الإخلاص: «استواء المدح والذم من العامة، ونسيان رؤية العمل في الأعمال، واقتضاء»^(٢) ثواب الأعمال في الآخرة»^(٣).
وبَيَّن الغزالي رحمته الله أَنَّ العمل بغير نِيَّة عَنَاء، فقال: «ظهر بالأدلة والعيان، أَنَّهُ لا وصول إلى السَّعادة إِلَّا بالعلم والعبادة، فالعمل بغير نِيَّة عَنَاء، والنِّيَّة بغير إخلاص رِيَاء، وهو للتَّفاق كفاء، ومع العصيان سوء، والإخلاص من غير صدق وتحقيق هَبَاء؛ وقد قال الله تعالى في كُلِّ عملٍ كان بإرادة غير الله مشوباً مغموراً: ﴿وَقَدْ مَنَّا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُوراً﴾ [الفرقان: ٢٣]»^(٤).

الحذر من الانقطاع عن الحفظ لعدم خلوص النِّيَّة:

إِنَّ من تلبس إبليس على مَنْ أَرَادَ أَنْ يشتغل بحفظ القرآن أَنْ يُسْوَ لَهُ الانقطاع عَمَّا هُوَ فِيهِ من الخير بسبب عدم خلوص النِّيَّة، فَإِنَّ حُسْنَ النِّيَّةِ مَرْجُوٌّ لِمَنْ اشْتَغَلَ بِحِفْظِ كِتَابِ اللَّهِ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - بركة هذا الحفظ.

وقد ورد عن الحسن البصري وسفيان الثوري - رحمهما الله - أَنَّهُمَا قَالَا:

«طَلَبْنَا الْعِلْمَ لِلدُّنْيَا فَجَرَّأَنَا إِلَى الْآخِرَةِ»^(٥).

وقال ابن المبارك رحمته الله: «طَلَبْنَا الْعِلْمَ لِلدُّنْيَا فَدَلَّنَا عَلَى تَرْكِ الدُّنْيَا»^(٦).

وقال حبيب بن أبي ثابت رحمته الله: «طَلَبْنَا هَذَا الْعِلْمَ وَمَا لَنَا فِيهِ نِيَّةٌ، ثُمَّ

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للخطيب البغدادي (٣١٧/١) (رقم ٦٩٢).

(٢) الاقتضاء: الطُّلب. (٣) التبيان في آداب حملة القرآن (ص ١٨).

(٤) إحياء علوم الدين (٣٦٢/٤).

(٥) فتح المغيث شرح ألفية الحديث، للسخاوي (٣١٧/٢).

(٦) هو الإمام الجليل: عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي التميمي، مولاهم، المروزي (أبو عبد الرحمن) إمام أهل عصره في العلم والتقى والصَّلاح والفضل والرياسة، ومن مشاهير أئمة الحديث الحفاظ الثقات، وصفه ابن عيينة قائلًا: «كان فقيهاً عالمًا عابداً زاهداً شيخاً شجاعاً شاعراً». توفي ب (هيت) مُنْصَرَفُهُ مِنَ الْغَزْوِ سنة (١٨١هـ)، وأومره (٦٣). انظر: تهذيب التهذيب (٣٨٢/٥).

(٧) صفة الصفوة (١٤٥/٤).

(٨) هو حبيب بن أبي ثابت قيس بن دينار الأسديّ بالولاء (أبو يحيى) الكوفي تابعي ثقة فقيه =

جاءت النية والعمل بعد^(١)...

فهذه الآثار ونحوها تُحْمَل - في معناها - على ما ذكره ابن جماعة رحمته الله:
« قيل معناه: فكان عاقبته أن صار لله؛ ولأن إخلاص النية لو شُرِّطَ في تعليم
المبتدئين فيه، مع عُسره على كثير منهم، لأدَّى ذلك إلى تفويت العلم على كثير
من الناس^(٢) فكيف بهذا الزمان الذي نعيش فيه، مع ندرة الإخلاص وقلة أهله،
وقلة الراغبين في طلب العلم الشرعي وحفظ القرآن؟ »

٢ - استشعار عظمة القرآن ومعرفة منزلته:

على مَنْ أَرَادَ أن يحفظ القرآن أن يستشعر عظمته، ويستحضر عظمة الله في
نفسه، فيقبل على القرآن العظيم محباً له، ومؤثراً له على غيره؛ لذا فعلى مَنْ شَرَعَ
في حفظ القرآن أن يراعي الأمور التالية:

* الشعور بأن القرآن كلام رب العالمين غير مخلوق، كلام مَنْ ليس كمثله
شيء - سبحانه - له أبلغ الأثر في الإقبال على حفظه، فعظمة القرآن مأخوذة من
عظمة المتكلم به، ولا أعظم من الله تعالى، وبالتالي فلا أعظم ولا أقدس من
كلامه سبحانه^(٣).

* وتذكّر أن القرآن يهدي للطريقة التي هي أسدُّ وأعدل وأصوب في العقائد
والأخلاق والأعمال، والسياسات، والصناعات، والأعمال الدينية والدنيوية^(٤)،
كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هُمْ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

* وإدراك الأمر الذي نزل من أجله القرآن العظيم، وهو هداية الناس
 وإخراجهم من الظلمات إلى النور، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى
لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]. وقال أيضاً: ﴿كَتَبْنَا أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ
إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّبِينٍ الْحَمِيدُ﴾ [إبراهيم: ١].

= جليل، كان مفتي الكوفة قبل حماد بن أبي سليمان. توفي سنة (١١٩هـ).

انظر: تقريب التهذيب (١/١٥٠)؛ سير أعلام النبلاء (٥/٢٨٩).

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/٢٦٧) (رقم ١٨١٨).

(٢) تذكرة السامع والمتكلم (ص ٤٧ - ٤٨).

(٣) انظر: التذكار في أفضل الأذكار (ص ٤٥).

(٤) انظر: القواعد الحسان لتفسير القرآن (ص ١٤٦ - ١٤٧).

* وتذكر أن القرآن كتاب مبارك، كما وصفه الله تعالى بأنه مبارك في أربعة مواضع، ومنها قوله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ مُبَارَكٌ قَاتِبُهُ وَاتَّقُوا لِمَلِكِكُمْ تُرْجَوْنَ﴾ [الأنعام: ١٥٥]. فهو مبارك في أصله؛ لأنه كلام الله، ومبارك في حامله - جبريل عليه السلام -، ومبارك في محله - قلب رسول الله ﷺ^(١)، ووجوه البركة فيه شملت منافع الدارين، وعلوم الأولين والآخرين^(٢).

* استشعار مدى الحفاوة بهذا القرآن العظيم، وبكل ما يحاط به من زمان ومكان، فمن عظمة القرآن عظمة الشهر الذي أنزل فيه (شهر رمضان)، فهو أفضل الشهور، وعظمة الليلة التي أنزل فيها (ليلة القدر)، فهي خير الليالي، وعظمة الرسول الذي أنزل عليه (إمام الأنبياء والمرسلين، وسيد ولد آدم). ولعظمة القرآن الكريم عظم حامله في صدره، وفُضِّلَ على غيره، ويكفي في بيان مقدار عظمة القرآن، وصف الله تعالى له بالعظمة في مثل قوله ﷺ: ﴿وَلَقَدْ مَلَأْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَنَافِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧].

٣ - معرفة أن الأصل في تلقي القرآن حفظه:
حفظ القرآن العظيم هو الأصل في تلقيه، قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَنْشَأُ فِي صُورِ الْغَيْثِ أَوْ قُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ [العنكبوت: ٤٩]. فقد أكرم الله تعالى هذه الأمة بأن جعل قلوب صالحها أوعية لكلامه، وصدورهم مصاحف لحفظ آياته.

وقال الله ﷻ لنبيه محمد ﷺ - كما جاء في الحديث القدسي: «إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَبْتَلِيكَ وَأَبْتَلِي بِكَ، وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَفْسِلُهُ الْمَاءُ، تَقْرُوهُ نَائِمًا وَيَقُظَانُ»^(٣).
فمعنى ذلك: أن القرآن العظيم محفوظ في الصدور، لا يتطرق إليه الدُّهَابُ، بل يبقى على مر الزمان^(٤).

قال ابن الجوزي^(٥) رحمه الله: «ثُمَّ إِنَّ الْاعْتِمَادَ فِي نَقْلِ الْقُرْآنِ عَلَى حِفْظِ

(١) انظر: في ظلال القرآن (٢/١١٤٧). (٢) انظر: روح المعاني (٧/٢٢١).

(٣) - رواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار (٤/٢١٩٧) (ح ٢٨٦٥).

(٤) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (١٧/٢٠٤).

(٥) هو محمد بن محمد بن علي الدمشقي، ثم الشيرازي، الشافعي (أبو الخير)، =

القلوب والصُّدُور، لا على حفظ المصاحف والكتب، وهذه أشرف خُصِيصة من الله تعالى لهذه الأمة»^(١).

وحِفظُ القرآن العظيم فيه تأمُّنٌ بالسَّلف الصَّالح، فهو أصلُ الأصول، والمعوَّل عليه في جميع الأمور، وهو مرجعُ أساس لساثر المناهج والعلوم، فكانوا لا يبدؤون إلَّا به، وما إنْ نقرأ في ترجمة أحدٍ من أهل العلم إلَّا ونرى في سيرته: حَفِظَ القرآن الكريم، ثم ابتداءً بطلب العلم^(٢).

وكان كثير من السَّلف - رحمهم الله - يرفضون تدريس الحديث وغيره من العلوم للحديث؛ حتَّى يحفظ القرآن أولاً.

قال النووي رحمته الله: «كان السَّلف لا يُعلِّمون الحديث والفقهِ إلَّا لمن يحفظ القرآن»^(٣).

وعَدَّ ابنُ جماعة رحمته الله الأدب الأوَّل من آداب طالب العلم: «أن يبتدئ بكتاب الله العزيز، فيتقنه حفظاً، ويجتهد على إتقان تفسيره وسائر علومه؛ فإنَّه أصلُ العلوم وأُمُّها وأهمُّها»^(٤).

٤ - الرَّغبة القويَّة الصَّادقة:

الرَّغبة القويَّة الصَّادقة لها أكبر الأثر في الإقبال على الحفظ والاستمرار فيه وتحمُّل مشاقِّه، إذ بدون ذلك يخور الإنسان ويتهاون، ويكون الأمر مجرد أُمِّية وحُلُم يقظة.

ويُعرف بآبِن الجَزْري، مقرئ، مجوَّد، محدِّث، حافظ، مشارك في بعض العلوم. ولد في دمشق سنة (٧٥١هـ)، وتفقَّ بها وطلب الحديث والقراءات، وعمر مدرسةً للقراء سمَّاها: دار القرآن، وأقرأ النَّاس. وله تصانيف كثيرة منها: «النَّشر في القراءات العشر»، و«التَّمهيد في التَّجويد»، و«تذكرة العلماء في أصول الحديث»، و«الأربعون العوالي». توفي بشيراز سنة (٨٣٣هـ). انظر: طبقات القراء، لابن الجَزْري (٢/٢٤٧ - ٢٥١).

(١) النَّشر في القراءات العشر (٦/١).

(٢) انظر: الكلمات الحسان فيما يُعين على الحفظ والانتفاع بالقرآن (ص ٤٣ - ٤٦). حفظ القرآن الكريم (ص ١٠ - ١٢).

(٣) المجموع (٣٨/١).

(٤) تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم (ص ١٦٦ - ١٦٧).

والدافع الذاتي ذو أهمية بالغة في إكمال حفظ القرآن، حيث نجد أن كثيراً من الناس انقطعوا عن الحفظ وتخلّفوا بسبب فقدهم لهذا الدافع، فربّما كان الدافع للحفظ هو إلحاح الوالدين أو المدرسة دون اندفاع ذاتي، فإنّه لن يستمرّ طويلاً، ولا بدّ أن يصاب بالفتور.

ويزداد الدافع الذاتي: بتذكّر أجر ومنزلة حفظ القرآن الكريم، ومجالس القرآن، وإذكاء روح التنافس المشروع في الحلقة، أو البيت، أو المدرسة^(١).

وحينما يتيهنا هذا الدافع الذاتي ترى المرء لا يفتر عن النظر في كتاب الله، ولا يملّ من تلاوته، وهذا هو حال الصحابة والتابعين ومن بعدهم من حفظ القرآن على مرّ الزمان^(٢).

٥ - التقلّل من الدنيا:

التعلّق بالدنيا وشهواتها وملذاتها يضيّع على المسلم جلّ وقته، ويجعله دائم الفكر فيها، مستغرق الهمّ في تحصيلها والإكثار منها، فمتى يحفظ شيئاً من كتاب الله من كان هذا حاله؟

والله تعالى ذمّ الذين اتّبعوا شهواتهم، فشغلّتهم عمّا خلّقوا له من طاعة الله وعبادته، وتوعّدهم بالعقاب في قوله تعالى: ﴿خَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ عَذَابًا﴾ [مريم: ٥٩].

وبيّن سبحانه أن من أراد الدنيا وجعلها همه الوحيد قد ينالها، ولكن مصيره الهلاك في الآخرة: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْمَلَاجَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِنَبْلُوَهُ أَيُّكُمْ أَشَدُّ عَجَلًا أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هَالِكُونَ﴾ [الأنعام: ١١٨].

فكيف يركن المسلم إلى الدنيا؟ وهي دار ممرّ لا دار مقر، ومنزل عبور لا مقعد حبور، وهي خيال طيف أو سحابة صيف، وقد رضي النبي ﷺ

(١) انظر: وزتل القرآن ترتيباً (ص ٨٣).

(٢) انظر: مرشد الحيران إلى طرق حفظ القرآن الكريم، لأحمد مصطفى الطهطاوي (ص ٥٦)؛ نحو منهجية عملية في حفظ القرآن الكريم، فيصل البعداني، مجلة البيان (عدد: ٧٣) (رمضان ١٤١٤هـ) (ص ٤٥ - ٥٢).

وأصحابه رضي الله عنهم من هذه الدنيا بالكفاف، فلم ينعموا بها، ولم يبذلوا أوقاتهم وأعمارهم في تحصيلها كما نفعل، بل يرضون منها بأقل القليل.

يقول النبي ﷺ: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَرَزَقَ كَفَافًا»^(١)، وَقَنَعَهُ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ»^(٢).

عن أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ: «إِنَّ النَّاسَ يَقُولُونَ أَكْثَرُ أَبُو هُرَيْرَةَ، وَلَوْ لَا آيَاتَانِ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَا حَدَّثْتُ حَدِيثًا، ثُمَّ يَتْلُو: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ - إلى قوله - ﴿الزَّيْحُ﴾ [البقرة: ١٥٩ - ١٦٠]. إِنَّ إِخْوَانَنَا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ كَانَ يَشْغَلُهُمُ الصَّفَقُ بِالْأَسْوَاقِ، وَإِنَّ إِخْوَانَنَا مِنَ الْأَنْصَارِ كَانَ يَشْغَلُهُمُ الْعَمَلُ فِي أَمْوَالِهِمْ، وَإِنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ كَانَ يَلْزِمُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِشَيْعِ بَطْنِهِ، وَيَحْضُرُ مَا لَا يَحْضُرُونَ، وَيَحْفَظُ مَا لَا يَحْفَظُونَ»^(٣).

وقد استنبط ابن حجر رحمته الله عدة فوائد من قول أبي هريرة رضي الله عنه فقال: «وفيه الحث على حفظ العلم، وفيه أن التقلل من الدنيا أمكن لحفظه، وفيه فضيلة التكسب لمن له عيال، وفيه جواز إخبار المرء بما فيه من فضيلة إذا اضطر إلى ذلك، وأمن من الإعجاب»^(٤).

هذا هو فقه أبي هريرة رضي الله عنه بملازمته للنبي ﷺ على شيع بطنه فقط ليحفظ الحديث، فأصبح حافظ الأمة بلا منازع؛ لأنه جمع همه في العلم والحفظ.

ولا يعني ذلك: أن يعتزل الدنيا - من أراد أن يحفظ القرآن - ويترك العمل فيعيش عائلة على الناس، فقد كان كثير من علماء الأمة لهم أعمال يتكسبون منها أرزاقهم، ولم يكونوا عائلة على غيرهم.

قال ابن المبارك رحمته الله: «لا يتم طلب العلم إلا بأربعة أشياء: بالفراغ، والمال، والحفظ، والورع»^(٥).

(١) قال في النهاية (٤/١٩١): «الكفاف: هو الذي لا يفضل عن الشيء، ويكون بقدر الحاجة إليه».

(٢) رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب: في الكفاف والقناعة (٢/٧٣٠) (ج ١٠٥٤).

(٣) رواه البخاري، كتاب العلم، باب: حفظ العلم (١/٦٤) (ج ١١٨).

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري (١/٢٨٥).

(٥) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٢/٢٧١) (رقم ١٧٣٢).

والمقصود من ذلك: أن يتطلع طالب العلم إلى معالي الأمور، فيعمل عملاً دنيوياً ليحصل منه على قوت عياله، ثم يُفرغ بقية أوقاته للعلم والحفظ والدراسة، فلا تشغله الدنيا ومغرياتهما عن مقصوده الأسمى - حفظ كتاب الله، وطلب العلم الشرعي، وتعليم الناس - وأن يصبر ويتصبر على خشونة العيش وقلة المال^(١).

عن يحيى بن أبي كثير^(٢) رضي الله عنه قال: «سمعتُ أبي يقول: لا يُستطاع العلم براحة الجسم»^(٣).

وقال إبراهيم الحربي^(٤) رضي الله عنه: «أجمع عقلاء كل أمة: أن النعيم لا يدرك بالنعيم، وأن من أثر الراحة فاتته الراحة، فما لصاحب اللذات وما لدرجة وراثة الأنبياء»^(٥).

٦ - الدعاء والالتجاء إلى الله:

الدعاء هو روح العبادة، والالتجاء إلى الله تعالى والرُّكون إلى جانبه يهون كل أمر عسير، وحفظ كتاب الله تعالى، والتفقه في دينه، عطية وهبة، يهبها الله تعالى لمن شاء من عباده، فأكثر من سؤاله واللجوء إليه سبحانه أن يجعلك من أهل العلم والحفظ والفهم والعمل بما تعلم، فإن من آدم قرع الباب أو شاك أن يفتح له^(٦).

(١) انظر: الكلمات الحسان فيما يعين على الحفظ والانتفاع بالقرآن (ص ١٥٨ - ١٦٣).

(٢) هو يحيى بن أبي كثير الطائي - مولاهم - أبو نصر، اليمامي. قال ابن حجر: «ثقة ثبت، لكنه يئس ويؤسل». من الطبقة الخامسة، أخرج له أصحاب الكتب الستة وغيرهم. توفي سنة (١٣٢هـ). انظر: تقريب التهذيب (١/٣٥٦).

(٣) رواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب: أوقات الصلوات الخمس (١/٤٢٨).

(٤) هو أبو إسحاق إبراهيم بن إسحاق بن إبراهيم بن بشر بن عبد الله بن ديسم الحربي، البغدادي، ولد سنة (١٩٨هـ)؛ وتفقّه على الإمام أحمد، فكان من نجباء أصحابه. قال الخطيب: «كان إماماً في العلم، رأساً في الزهد، عارفاً بالفقه، بصيراً بالأحكام، حافظاً للحديث، مميزاً لعلله، قيماً بالأدب». توفي سنة (٢٨٥هـ).

(٥) انظر: طبقات الحفاظ (١/٢٦٣)؛ طبقات الحنابلة (١/٨٦).

(٦) مفتاح دار السعادة (١/١٤٢).

(٦) انظر: الكلمات الحسان فيما يعين على الحفظ والانتفاع بالقرآن (ص ١٣٤).

وقد قال سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]. فالله تعالى قريب بعلمه وسمعه وقدرته ومعونته، لا يخيب رجاء مَنْ دعاه والتجأ إليه، والقلوب في حاجة شديدة إلى رزق الله تعالى من العلم والهدى، كما هو الحال في قوت الأجساد، ولذلك قال ابن تيمية رحمته: «وكما أنَّ الله ملائكة موكلة بالسحاب والمطر، فله ملائكة موكلة بالهدى والعلم، هذا رزق القلوب وقوتها، وهذا رزق الأجساد وقوتها»^(١).

فالدُّعاء وسيلة مهمّة لا يخيب صاحبها، خاصّة إذا أخلص قلبه، ونيّته لربه في حفظ كتابه، ودعا بقلب حاضر، ودعاء مشروع، وانتفت في حقه موانع الإجابة كاكل الحرام ونحوه، فإنَّ الله تعالى جواد كريم، برّ رحيم.

المطلب الثاني

آداب بعد الحفظ

١ - الخوف من الوقوع في الرياء:

إنَّ أوَّل ما يفعله الحافظ - بعد أن منَّ الله تعالى عليه بحفظ كتابه - أن يخاف على نفسه من الوقوع في الرياء ومحبة المدح والثناء من النَّاس، وطلب الجاه والمنزلة عندهم، بأن يُظهِرَ لهم أنَّه قد أكمل حفظ القرآن وأجاده، وهذا ما خافه النَّبِيُّ صلّى الله عليه وآله على أمته بقوله: «إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ الشُّرْكَ الْأَصْفَرُ» قالوا: وما الشُّرْكَ الْأَصْفَرُ يا رَسُولَ الله؟ قال: «الرياء، يَقُولُ اللهُ تعالى لهم - يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا جُزِيَ النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمْ: اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاوُونَ فِي الدُّنْيَا، فَاَنْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ جِزَاءَهُمْ جَزَاءً»^(٢).

والمُرائي بالقرآن مُعَرِّضُ نَفْسِهِ للعقوبة الشديدة الواردة في قوله صلّى الله عليه وآله: «إِنَّ أوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ... وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلِمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأَتَى

(١) مجموع الفتاوى (٤١/٤)، (٢٨٠)، (٢٧١)، (٢٧٢)، (٢٧٣)، (٢٧٤)، (٢٧٥)، (٢٧٦)، (٢٧٧)، (٢٧٨)، (٢٧٩)، (٢٨٠)، (٢٨١)، (٢٨٢)، (٢٨٣)، (٢٨٤)، (٢٨٥)، (٢٨٦)، (٢٨٧)، (٢٨٨)، (٢٨٩)، (٢٩٠)، (٢٩١)، (٢٩٢)، (٢٩٣)، (٢٩٤)، (٢٩٥)، (٢٩٦)، (٢٩٧)، (٢٩٨)، (٢٩٩)، (٣٠٠)، (٣٠١)، (٣٠٢)، (٣٠٣)، (٣٠٤)، (٣٠٥)، (٣٠٦)، (٣٠٧)، (٣٠٨)، (٣٠٩)، (٣١٠)، (٣١١)، (٣١٢)، (٣١٣)، (٣١٤)، (٣١٥)، (٣١٦)، (٣١٧)، (٣١٨)، (٣١٩)، (٣٢٠)، (٣٢١)، (٣٢٢)، (٣٢٣)، (٣٢٤)، (٣٢٥)، (٣٢٦)، (٣٢٧)، (٣٢٨)، (٣٢٩)، (٣٣٠)، (٣٣١)، (٣٣٢)، (٣٣٣)، (٣٣٤)، (٣٣٥)، (٣٣٦)، (٣٣٧)، (٣٣٨)، (٣٣٩)، (٣٤٠)، (٣٤١)، (٣٤٢)، (٣٤٣)، (٣٤٤)، (٣٤٥)، (٣٤٦)، (٣٤٧)، (٣٤٨)، (٣٤٩)، (٣٥٠)، (٣٥١)، (٣٥٢)، (٣٥٣)، (٣٥٤)، (٣٥٥)، (٣٥٦)، (٣٥٧)، (٣٥٨)، (٣٥٩)، (٣٦٠)، (٣٦١)، (٣٦٢)، (٣٦٣)، (٣٦٤)، (٣٦٥)، (٣٦٦)، (٣٦٧)، (٣٦٨)، (٣٦٩)، (٣٧٠)، (٣٧١)، (٣٧٢)، (٣٧٣)، (٣٧٤)، (٣٧٥)، (٣٧٦)، (٣٧٧)، (٣٧٨)، (٣٧٩)، (٣٨٠)، (٣٨١)، (٣٨٢)، (٣٨٣)، (٣٨٤)، (٣٨٥)، (٣٨٦)، (٣٨٧)، (٣٨٨)، (٣٨٩)، (٣٩٠)، (٣٩١)، (٣٩٢)، (٣٩٣)، (٣٩٤)، (٣٩٥)، (٣٩٦)، (٣٩٧)، (٣٩٨)، (٣٩٩)، (٤٠٠)، (٤٠١)، (٤٠٢)، (٤٠٣)، (٤٠٤)، (٤٠٥)، (٤٠٦)، (٤٠٧)، (٤٠٨)، (٤٠٩)، (٤١٠)، (٤١١)، (٤١٢)، (٤١٣)، (٤١٤)، (٤١٥)، (٤١٦)، (٤١٧)، (٤١٨)، (٤١٩)، (٤٢٠)، (٤٢١)، (٤٢٢)، (٤٢٣)، (٤٢٤)، (٤٢٥)، (٤٢٦)، (٤٢٧)، (٤٢٨)، (٤٢٩)، (٤٣٠)، (٤٣١)، (٤٣٢)، (٤٣٣)، (٤٣٤)، (٤٣٥)، (٤٣٦)، (٤٣٧)، (٤٣٨)، (٤٣٩)، (٤٤٠)، (٤٤١)، (٤٤٢)، (٤٤٣)، (٤٤٤)، (٤٤٥)، (٤٤٦)، (٤٤٧)، (٤٤٨)، (٤٤٩)، (٤٥٠)، (٤٥١)، (٤٥٢)، (٤٥٣)، (٤٥٤)، (٤٥٥)، (٤٥٦)، (٤٥٧)، (٤٥٨)، (٤٥٩)، (٤٦٠)، (٤٦١)، (٤٦٢)، (٤٦٣)، (٤٦٤)، (٤٦٥)، (٤٦٦)، (٤٦٧)، (٤٦٨)، (٤٦٩)، (٤٧٠)، (٤٧١)، (٤٧٢)، (٤٧٣)، (٤٧٤)، (٤٧٥)، (٤٧٦)، (٤٧٧)، (٤٧٨)، (٤٧٩)، (٤٨٠)، (٤٨١)، (٤٨٢)، (٤٨٣)، (٤٨٤)، (٤٨٥)، (٤٨٦)، (٤٨٧)، (٤٨٨)، (٤٨٩)، (٤٩٠)، (٤٩١)، (٤٩٢)، (٤٩٣)، (٤٩٤)، (٤٩٥)، (٤٩٦)، (٤٩٧)، (٤٩٨)، (٤٩٩)، (٥٠٠)، (٥٠١)، (٥٠٢)، (٥٠٣)، (٥٠٤)، (٥٠٥)، (٥٠٦)، (٥٠٧)، (٥٠٨)، (٥٠٩)، (٥١٠)، (٥١١)، (٥١٢)، (٥١٣)، (٥١٤)، (٥١٥)، (٥١٦)، (٥١٧)، (٥١٨)، (٥١٩)، (٥٢٠)، (٥٢١)، (٥٢٢)، (٥٢٣)، (٥٢٤)، (٥٢٥)، (٥٢٦)، (٥٢٧)، (٥٢٨)، (٥٢٩)، (٥٣٠)، (٥٣١)، (٥٣٢)، (٥٣٣)، (٥٣٤)، (٥٣٥)، (٥٣٦)، (٥٣٧)، (٥٣٨)، (٥٣٩)، (٥٤٠)، (٥٤١)، (٥٤٢)، (٥٤٣)، (٥٤٤)، (٥٤٥)، (٥٤٦)، (٥٤٧)، (٥٤٨)، (٥٤٩)، (٥٥٠)، (٥٥١)، (٥٥٢)، (٥٥٣)، (٥٥٤)، (٥٥٥)، (٥٥٦)، (٥٥٧)، (٥٥٨)، (٥٥٩)، (٥٦٠)، (٥٦١)، (٥٦٢)، (٥٦٣)، (٥٦٤)، (٥٦٥)، (٥٦٦)، (٥٦٧)، (٥٦٨)، (٥٦٩)، (٥٧٠)، (٥٧١)، (٥٧٢)، (٥٧٣)، (٥٧٤)، (٥٧٥)، (٥٧٦)، (٥٧٧)، (٥٧٨)، (٥٧٩)، (٥٨٠)، (٥٨١)، (٥٨٢)، (٥٨٣)، (٥٨٤)، (٥٨٥)، (٥٨٦)، (٥٨٧)، (٥٨٨)، (٥٨٩)، (٥٩٠)، (٥٩١)، (٥٩٢)، (٥٩٣)، (٥٩٤)، (٥٩٥)، (٥٩٦)، (٥٩٧)، (٥٩٨)، (٥٩٩)، (٦٠٠)، (٦٠١)، (٦٠٢)، (٦٠٣)، (٦٠٤)، (٦٠٥)، (٦٠٦)، (٦٠٧)، (٦٠٨)، (٦٠٩)، (٦١٠)، (٦١١)، (٦١٢)، (٦١٣)، (٦١٤)، (٦١٥)، (٦١٦)، (٦١٧)، (٦١٨)، (٦١٩)، (٦٢٠)، (٦٢١)، (٦٢٢)، (٦٢٣)، (٦٢٤)، (٦٢٥)، (٦٢٦)، (٦٢٧)، (٦٢٨)، (٦٢٩)، (٦٣٠)، (٦٣١)، (٦٣٢)، (٦٣٣)، (٦٣٤)، (٦٣٥)، (٦٣٦)، (٦٣٧)، (٦٣٨)، (٦٣٩)، (٦٤٠)، (٦٤١)، (٦٤٢)، (٦٤٣)، (٦٤٤)، (٦٤٥)، (٦٤٦)، (٦٤٧)، (٦٤٨)، (٦٤٩)، (٦٥٠)، (٦٥١)، (٦٥٢)، (٦٥٣)، (٦٥٤)، (٦٥٥)، (٦٥٦)، (٦٥٧)، (٦٥٨)، (٦٥٩)، (٦٦٠)، (٦٦١)، (٦٦٢)، (٦٦٣)، (٦٦٤)، (٦٦٥)، (٦٦٦)، (٦٦٧)، (٦٦٨)، (٦٦٩)، (٦٧٠)، (٦٧١)، (٦٧٢)، (٦٧٣)، (٦٧٤)، (٦٧٥)، (٦٧٦)، (٦٧٧)، (٦٧٨)، (٦٧٩)، (٦٨٠)، (٦٨١)، (٦٨٢)، (٦٨٣)، (٦٨٤)، (٦٨٥)، (٦٨٦)، (٦٨٧)، (٦٨٨)، (٦٨٩)، (٦٩٠)، (٦٩١)، (٦٩٢)، (٦٩٣)، (٦٩٤)، (٦٩٥)، (٦٩٦)، (٦٩٧)، (٦٩٨)، (٦٩٩)، (٧٠٠)، (٧٠١)، (٧٠٢)، (٧٠٣)، (٧٠٤)، (٧٠٥)، (٧٠٦)، (٧٠٧)، (٧٠٨)، (٧٠٩)، (٧١٠)، (٧١١)، (٧١٢)، (٧١٣)، (٧١٤)، (٧١٥)، (٧١٦)، (٧١٧)، (٧١٨)، (٧١٩)، (٧٢٠)، (٧٢١)، (٧٢٢)، (٧٢٣)، (٧٢٤)، (٧٢٥)، (٧٢٦)، (٧٢٧)، (٧٢٨)، (٧٢٩)، (٧٣٠)، (٧٣١)، (٧٣٢)، (٧٣٣)، (٧٣٤)، (٧٣٥)، (٧٣٦)، (٧٣٧)، (٧٣٨)، (٧٣٩)، (٧٤٠)، (٧٤١)، (٧٤٢)، (٧٤٣)، (٧٤٤)، (٧٤٥)، (٧٤٦)، (٧٤٧)، (٧٤٨)، (٧٤٩)، (٧٥٠)، (٧٥١)، (٧٥٢)، (٧٥٣)، (٧٥٤)، (٧٥٥)، (٧٥٦)، (٧٥٧)، (٧٥٨)، (٧٥٩)، (٧٦٠)، (٧٦١)، (٧٦٢)، (٧٦٣)، (٧٦٤)، (٧٦٥)، (٧٦٦)، (٧٦٧)، (٧٦٨)، (٧٦٩)، (٧٧٠)، (٧٧١)، (٧٧٢)، (٧٧٣)، (٧٧٤)، (٧٧٥)، (٧٧٦)، (٧٧٧)، (٧٧٨)، (٧٧٩)، (٧٨٠)، (٧٨١)، (٧٨٢)، (٧٨٣)، (٧٨٤)، (٧٨٥)، (٧٨٦)، (٧٨٧)، (٧٨٨)، (٧٨٩)، (٧٩٠)، (٧٩١)، (٧٩٢)، (٧٩٣)، (٧٩٤)، (٧٩٥)، (٧٩٦)، (٧٩٧)، (٧٩٨)، (٧٩٩)، (٨٠٠)، (٨٠١)، (٨٠٢)، (٨٠٣)، (٨٠٤)، (٨٠٥)، (٨٠٦)، (٨٠٧)، (٨٠٨)، (٨٠٩)، (٨١٠)، (٨١١)، (٨١٢)، (٨١٣)، (٨١٤)، (٨١٥)، (٨١٦)، (٨١٧)، (٨١٨)، (٨١٩)، (٨٢٠)، (٨٢١)، (٨٢٢)، (٨٢٣)، (٨٢٤)، (٨٢٥)، (٨٢٦)، (٨٢٧)، (٨٢٨)، (٨٢٩)، (٨٣٠)، (٨٣١)، (٨٣٢)، (٨٣٣)، (٨٣٤)، (٨٣٥)، (٨٣٦)، (٨٣٧)، (٨٣٨)، (٨٣٩)، (٨٤٠)، (٨٤١)، (٨٤٢)، (٨٤٣)، (٨٤٤)، (٨٤٥)، (٨٤٦)، (٨٤٧)، (٨٤٨)، (٨٤٩)، (٨٥٠)، (٨٥١)، (٨٥٢)، (٨٥٣)، (٨٥٤)، (٨٥٥)، (٨٥٦)، (٨٥٧)، (٨٥٨)، (٨٥٩)، (٨٦٠)، (٨٦١)، (٨٦٢)، (٨٦٣)، (٨٦٤)، (٨٦٥)، (٨٦٦)، (٨٦٧)، (٨٦٨)، (٨٦٩)، (٨٧٠)، (٨٧١)، (٨٧٢)، (٨٧٣)، (٨٧٤)، (٨٧٥)، (٨٧٦)، (٨٧٧)، (٨٧٨)، (٨٧٩)، (٨٨٠)، (٨٨١)، (٨٨٢)، (٨٨٣)، (٨٨٤)، (٨٨٥)، (٨٨٦)، (٨٨٧)، (٨٨٨)، (٨٨٩)، (٨٩٠)، (٨٩١)، (٨٩٢)، (٨٩٣)، (٨٩٤)، (٨٩٥)، (٨٩٦)، (٨٩٧)، (٨٩٨)، (٨٩٩)، (٩٠٠)، (٩٠١)، (٩٠٢)، (٩٠٣)، (٩٠٤)، (٩٠٥)، (٩٠٦)، (٩٠٧)، (٩٠٨)، (٩٠٩)، (٩١٠)، (٩١١)، (٩١٢)، (٩١٣)، (٩١٤)، (٩١٥)، (٩١٦)، (٩١٧)، (٩١٨)، (٩١٩)، (٩٢٠)، (٩٢١)، (٩٢٢)، (٩٢٣)، (٩٢٤)، (٩٢٥)، (٩٢٦)، (٩٢٧)، (٩٢٨)، (٩٢٩)، (٩٣٠)، (٩٣١)، (٩٣٢)، (٩٣٣)، (٩٣٤)، (٩٣٥)، (٩٣٦)، (٩٣٧)، (٩٣٨)، (٩٣٩)، (٩٤٠)، (٩٤١)، (٩٤٢)، (٩٤٣)، (٩٤٤)، (٩٤٥)، (٩٤٦)، (٩٤٧)، (٩٤٨)، (٩٤٩)، (٩٥٠)، (٩٥١)، (٩٥٢)، (٩٥٣)، (٩٥٤)، (٩٥٥)، (٩٥٦)، (٩٥٧)، (٩٥٨)، (٩٥٩)، (٩٦٠)، (٩٦١)، (٩٦٢)، (٩٦٣)، (٩٦٤)، (٩٦٥)، (٩٦٦)، (٩٦٧)، (٩٦٨)، (٩٦٩)، (٩٧٠)، (٩٧١)، (٩٧٢)، (٩٧٣)، (٩٧٤)، (٩٧٥)، (٩٧٦)، (٩٧٧)، (٩٧٨)، (٩٧٩)، (٩٨٠)، (٩٨١)، (٩٨٢)، (٩٨٣)، (٩٨٤)، (٩٨٥)، (٩٨٦)، (٩٨٧)، (٩٨٨)، (٩٨٩)، (٩٩٠)، (٩٩١)، (٩٩٢)، (٩٩٣)، (٩٩٤)، (٩٩٥)، (٩٩٦)، (٩٩٧)، (٩٩٨)، (٩٩٩)، (١٠٠٠).

بِهِ، فَعَرَفَهُ نِعْمَةً فَعَرَفَهَا. قَالَ: فَمَا حَمَلْتُ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ، وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ. قَالَ: كَذَبْتَ. وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ. فَقَدْ قِيلَ. ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ^(١).

وها هو الأجرى ﷺ يُحذِّرُ حَفَاطَ الْقُرْآنِ مِنَ الْمِيلِ إِلَى حُسْنِ الثَّنَاءِ وَالْجَاهِ مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا، فيقول:

«يَنْبَغِي لِمَنْ رَزَقَهُ اللَّهُ حُسْنَ الصَّوْتِ بِالْقُرْآنِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ خَصَّهُ بِخَيْرٍ عَظِيمٍ، فَلْيَعْرِفْ قَدْرَ مَا خَصَّهُ اللَّهُ بِهِ، وَلْيَقْرَأْ اللَّهَ لَا لِلْمَخْلُوقِينَ، وَلِيَحْذَرَ مِنَ الْمِيلِ إِلَى أَنْ يُسْتَمَعَ مِنْهُ؛ لِيَحْظِيَ بِهِ عِنْدَ السَّامِعِينَ رَغْبَةً فِي الدُّنْيَا، وَالْمِيلِ إِلَى حُسْنِ الثَّنَاءِ وَالْجَاهِ مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا، وَالصَّلَاتِ بِالْمُلُوكِ دُونَ الصَّلَاتِ بِعَوَامِ النَّاسِ، فَمَنْ مَالَتْ نَفْسُهُ إِلَى مَا نَهَيْتُهُ عَنْهُ، خِفْتُ أَنْ يَكُونَ حُسْنُ صَوْتِهِ فِتْنَةً عَلَيْهِ، وَإِنَّمَا يَنْفَعُهُ حُسْنُ صَوْتِهِ إِذَا خَشِيَ اللَّهَ ﷻ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ، وَكَانَ مَرَادُهُ أَنْ يُسْتَمَعَ مِنْهُ الْقُرْآنُ؛ لِيَتَّبِعَهُ أَهْلُ الْغَفْلَةِ عَنْ غَفْلَتِهِمْ، فِيرْغَبُوا فِيهِمَا رَغْبَهُمُ اللَّهُ ﷻ، وَيَنْتَهُوا عَمَّا نَهَاهُمْ»^(٢).

كيف الخلاص من الرياء؟

هذا سؤال مهم يَرِدُ عَلَى بَالِ كُلِّ حَافِظٍ لِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، يَرْجُو رَحْمَةَ اللَّهِ، وَيَخْشَى عِقَابَهُ، وَلَا نَجِدُ جَوَاباً شَافِئاً - فِي هَذَا الشَّأْنِ - إِلَّا عِنْدَ الطَّبِيبِ الْحَاقِقِ بِأَعْمَالِ الْقُلُوبِ، ابْنِ الْقَيْمِ ﷻ حَيْثُ قَالَ: «لَا يَجْتَمِعُ الْإِحْلَاصُ فِي الْقَلْبِ وَمَحَبَّةُ الْمَدْحِ وَالثَّنَاءِ وَالطَّمَعُ فِيمَا عِنْدَ النَّاسِ، إِلَّا كَمَا يَجْتَمِعُ الْمَاءُ وَالنَّارُ، وَالضَّبُّ وَالْحَوْتُ.

فَإِذَا حَدَّثَكَ نَفْسُكَ بِطَلَبِ الْإِحْلَاصِ، فَأَقْبِلْ عَلَى الطَّمَعِ أَوَّلًا، فَادْبَحْهُ بِسَكِينِ الْيَأْسِ، وَأَقْبِلْ عَلَى الْمَدْحِ وَالثَّنَاءِ، فَارْهَدْ فِيهِمَا زُهْدَ عُشَّاقِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ. فَإِذَا اسْتَقَامَ لَكَ ذُبُّ الطَّمَعِ وَالزُّهْدُ فِي الثَّنَاءِ وَالْمَدْحِ، سَهَّلَ عَلَيْكَ الْإِحْلَاصَ.

(١) رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب: مَنْ قَاتَلَ لِلرِّيَاءِ وَالشَّمْعَةِ اسْتَحَقَّ النَّارَ (٣/١٥١٤).

(٢) (ح ١٩٠٥) أخلاق حملة القرآن (ص ٧٩).

فإن قلت: وما الذي يُسهّل عليّ ذبح الطمع، والزهد في الشّاء والمدح؟
قلت: أمّا ذبح الطمع، فيسهّله عليك: علمك يقيناً أنّه ليس من شيء يُطعم
فيه إلّا ويبيد الله وحده خزائنه، لا يملكها غيره، ولا يؤتي العبد منها شيئاً سواه.
وأما الزهد في الشّاء والمدح، فيسهّله عليك: علمك أنّه ليس أحد ينفع مدحه
ويزين، ويضرّ ذمه ويشتين إلّا الله وحده، كما قال ذلك الأعرابي للنبي ﷺ: «إنّ
حمدي زين، وإنّ ذمي شين»، فقال النبي ﷺ: «ذاك الله ﷻ»^(١).

فازهد في مدح من لا يزينك مدحه، وفي ذم من لا يشينك ذمه، وارغب
في مدح من كل الزين في مدحه، وكل الشين في ذمه. ولن يُقدر على ذلك إلّا
بالصبر واليقين، فمتى فقدت الصبر واليقين، كنت كمن أراد السفر في البحر في
غير مركب^(٢).

٢ - الخشية من العُجب بالنفس والتعالي على الخلق:
تعريف العُجب:

* جاء في (لسان العرب): «العُجب: الزهو، ورجل مُعجب: مزهو بما
يكون منه حسناً أو قبيحاً»^(٣).

* وجاء في (المعجم الوسيط): «العُجب: الكبر والزهو»^(٤).

* وقال الغزالي رحمه الله: «العُجب: استعظام النعمة والركون إليها مع نسيان
إضافتها إلى المنعم»^(٥).

* وسئل ابن المبارك رحمه الله عن العُجب، فقال: «أن ترى أنّ عندك شيئاً
ليس عند غيرك». وسئل عن الكبر، فقال: «أن تزدري الناس»^(٦).

(١) رواه أحمد في «المستد» (٤٨٨/٣) (ح ١٦٠٣٤)؛ والنسائي في «الكبرى» (٤٦٦/٦) (ح ١١٥١٥)؛ والترمذي (٣٨٧/٥) (ح ٣٢٦٧)، وقال: «حسن غريب». وصحّحه الألباني
في «صحيح سنن الترمذي» (٣٣٣/٢) (ح ٣٢٦٧).
(٢) الفوائد (ص ٢١٨ - ٢١٩).
(٣) (٥٢/٩)، مادة: (عجب).

(٤) (٥٨٤/٢).
(٥) إحياء علوم الدين (٧٣١/٣).
(٦) انظر: تذكرة الحفاظ (٢٧٨/١)؛ البيهقي في «شعب الإيمان» (٣٠٣/٦) (رقم ٨٢٦٠)؛
تاريخ الإسلام (٢٢٩/١٢)؛ سير أعلام النبلاء (٤٠٧/٨).

حُكْمُ الْمُعْجَبِ:

المُعْجَبُ مُحَرَّمٌ وَمِنْ كِبَائِرِ الذُّنُوبِ، بَلْ عَدَّهُ جَمَاعَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ: مِنَ الشَّرْكِ الْمَحْبُطِ لِلْعَمَلِ.

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ: شُحُّ مَطَاعٍ، وَهَوَىٰ مُتَّبِعٌ، وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ»^(١).

وَقَدْ خَافَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى أُمَّتِهِ مِنَ الْمُعْجَبِ أَكْبَرَ مِنْ خَوْفِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ عَمُومِ الذُّنُوبِ - غَيْرِ الشَّرْكِ - فِي قَوْلِهِ ﷺ: «لَوْ لَمْ تَكُونُوا تُذْنِبُونَ، لَخَفْتُ عَلَيْكُمْ مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ؛ الْمُعْجَبُ الْمُعْجَبُ»^(٢).

قَالَ الْمُنَاوِي رحمته الله فِي عِلَّةِ تَكَرُّرِ كَلْفَتَةِ (الْمُعْجَبِ) فِي الْحَدِيثِ: «كَرَّرَهُ زِيَادَةً فِي التَّنْفِيرِ، وَمِبَالِغَةٍ فِي التَّحْذِيرِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْعَاصِيَ يَعْتَرِفُ بِنَقْصِهِ فَيُرْجَى لَهُ التَّوْبَةُ، وَالْمُعْجَبُ مَغْرُورٌ بِعَمَلِهِ فَتَوْبَتُهُ بَعِيدَةٌ»^(٣).

الْفَرْقُ بَيْنَ الرِّيَاءِ وَالْمُعْجَبِ:

قَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ - رحمته الله - مُوضِّحاً هَذَا الْفَرْقَ: «وَكثييراً مَا يَقْرُنُ النَّاسُ بَيْنَ الرِّيَاءِ وَالْمُعْجَبِ، فَالرِّيَاءُ مِنْ بَابِ الْإِشْرَاقِ بِالْخَلْقِ، وَالْمُعْجَبُ مِنْ بَابِ الْإِشْرَاقِ بِالنَّفْسِ، وَهَذَا حَالُ الْمُسْتَكْبِرِ، فَالْمُرَائِي لَا يُحَقِّقُ قَوْلَهُ: «إِيَّاكَ نَعْبُدُ» وَالْمُعْجَبُ لَا يُحَقِّقُ قَوْلَهُ: «وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ». فَمَنْ حَقَّقَ قَوْلَهُ: «إِيَّاكَ نَعْبُدُ» خَرَجَ عَنِ الرِّيَاءِ، وَمَنْ حَقَّقَ قَوْلَهُ: «وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» خَرَجَ عَنِ الْإِعْجَابِ»^(٤).

لِمَاذَا يَقَعُ الْحَافِظُ فِي بَرَاثِنِ الْمُعْجَبِ؟

الْحَافِظُ الْمَعْجَبُ اسْتَعْظَمَ مَا بَذَلَ مِنْ أَسْبَابٍ لِتَحْصِيلِ حِفْظِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ،

(١) رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ (٣٢٨/٥) (ح ٥٤٥٢)؛ وَحُسْنُهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ الْجَامِعِ» (٥٨٥/١) (ح ٣٠٤٥)؛ وَالسَّلْسَلَةُ الصَّحِيحَةُ (٤١٢/٤) (ح ١٨٠٢).

(٢) رَوَاهُ الْقُضَاعِيُّ فِي «مُسْنَدِ الشَّهَابِ» (٣٢٠/٢) (ح ١٤٤٧)؛ وَحُسْنُهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ الْجَامِعِ» (٩٣٨/٢) (ح ٥٣٠٣)؛ وَالسَّلْسَلَةُ الصَّحِيحَةُ (٢٦٣/٢) (ح ٦٥٨).

(٣) التَّبْسِيرُ بِشَرْحِ الْجَامِعِ الصَّغِيرِ (٣١٢/٢).

(٤) مَجْمُوعُ الْفَتَاوَى (٢٧٧/١٠).

ونسي أو تناسى أن الله تعالى هو الذي هداه لذلك وسهّله عليه. ووفقّه إليه، ولولا إحسانه وفضله ﷺ لما تمكّن أحد من حفظ القرآن أو بعضه.

والواجب على - هذا الحافظ - أن ينسب النعمة إلى مُسبِّها وخالقها تبارك وتعالى، ويعترف بفضله عليه أن وفقّه وأكرمه وأعانته على حفظ القرآن العظيم.

لماذا يقع الحافظ في مستنقع الكبر؟

والحافظ المتكبر اعتقد - في قرارة نفسه - أنه بلغ مرتبة في الكمال لم يبلغها من حوله، فيُعجب بنفسه أولاً، ثم يكون العجب مطية إلى التّعالى على من حوله، واحتقارهم وتجهيلهم، وربما أتاه الشيطان ونفخ في صدره، وقال: أتممت حفظ القرآن، فأنت حافظ زمانك، وخير من فلان وفلان، وأنت من أهل الله وخاصّته، وأنت المُقدّم في الإمامة والإمامة، والمرتفع في درجات الجنّة، فهذا هو خلق الشيطان وتكبره في قوله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتُهُ مِنْ طِينٍ﴾ [ص: ٧٦].

وينسى - هذا المتكبر على الناس بحفظه - ما ورد من النصوص في التحذير من ذلك، ومنها:

ما ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَالَ اللَّهُ ﷻ: الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي؛ فَمَنْ نَارَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا، قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ»^(١). وما ورد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرَدَلٍ مِنْ كِبَرٍ»^(٢).

٣ - الحذر من الذنوب والمعاصي:

لا ريب أن الذنوب والمعاصي سبب مباشر في المصائب التي تنزل على

(١) رواه أبو داود (٥٩/٤) (ج ٤٠٩٠)؛ وصحّحه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٢/٥١٧) (ج ٤٠٩٠).

(٢) رواه الترمذي (٣٦٠/٤) (ج ١٩٩٨)؛ وأبو داود (٥٩/٤) (ج ٤٠٩١)؛ وصحّحه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٣٧٧/٢) (ج ١٩٩٨)؛ و«صحيح سنن أبي داود» (٥١٧/٢) (ج ٤٠٩١).

العباد، وأن نسيان القرآن بعد حفظه من أعظم المصائب، ولذا قال النبي ﷺ: «لَا تُصِيبُ عَبْدًا نَكْبَةٌ، فَمَا فَوْقَهَا أَوْ دُونَهَا إِلَّا بِذَنْبٍ، وَمَا يَعْقُو اللَّهُ عَنْهُ أَكْثَرُ. وَقَرَأَ: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]»^(١).

* قال الضَّحَّاكُ بْنُ مَزَاحِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَمَّا مِنْ أَحَدٍ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ ثُمَّ نَسِيَهُ، إِلَّا بِذَنْبٍ يُخْذِلُهُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ وَإِنَّ نَسْيَانَ الْقُرْآنِ مِنْ أَعْظَمِ الْمَصَائِبِ»^(٢).

آثار في التحذير من المعاصي:

كَانَ السَّلَفُ الصَّالِحُ - مَعَ حِرْصِهِمْ عَلَى ضَبْطِ مَا حَفِظُوهُ مِنَ الْقُرْآنِ - يَحَاسِبُونَ أَنْفُسَهُمْ وَيُلَومُونَهَا عَلَى التَّقْصِيرِ وَالْخَطَا، وَيَعْرِضُونَ سَبَبَ ذَلِكَ إِلَى ذُنُوبِهِمْ وَخَطَايَاهُمْ:

* قَالَ جَعْفَرُ بْنُ سَلِيمَانَ الضُّبَيْعِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(٣): «كَانَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ مِنْ أَحْفَظِ النَّاسِ لِلْقُرْآنِ، وَكَانَ يَقْرَأُ عَلَيْنَا كُلَّ يَوْمٍ جُزْءًا مِنَ الْقُرْآنِ حَتَّى يَخْتِمَ، فَإِنْ أَسْقَطَ حَرْفًا قَالَ: بِذَنْبٍ مِنِّي، وَمَا اللَّهُ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ»^(٤).

* وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنِّي لَأَحْسِبُ الرَّجُلَ يَنْسَى الْعِلْمَ بِالْخَطِيئَةِ يَعْمَلُهَا»^(٥).

* وَسَأَلَ رَجُلٌ الْإِمَامَ مَالِكَاً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ: «يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، هَلْ يَصْلَحُ لِهَذَا الْحِفْظِ شَيْءٌ؟ قَالَ: «إِنْ كَانَ يَصْلَحُ لَهُ شَيْءٌ فَتَرَكَ الْمَعَاصِيَ»^(٦).

(١) رواه الترمذي (٣٧٧/٥) (ح ٣٢٥٢)؛ وحسنه الألباني في: «صحيح الجامع» (١٢٧٨/٢) (ح ٧٧٣٢).

(٢) رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص ١٠٤)؛ وابن المبارك في «الزهد» (٢٨/١) (رقم ٨٥)؛ والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٣٤/٢) (رقم ١٩٦٥)؛ وابن كثير في «فضائل القرآن» (ص ٢٢٢)، وقال محققه (أبو إسحاق الحويني): «سنده جيد».

(٣) هو جعفر بن سليمان الضُّبَيْعِيُّ، البصري (أبو سليمان) من الطبقة الثامنة، ثقة، أخرج له البخاري ومسلم، قال ابن حجر: «صدوق زاهد، لكنه كان يتشيع»، توفي سنة (١٧٨هـ). انظر: تقريب التهذيب (١/١٣١).

(٤) حلية الأولياء (٦/٢٨٨).

(٥) رواه أحمد في «الزهد» (١٥٦/٧)؛ وابن المبارك في «الزهد» (٢٨/١) (رقم ٨٣).

(٦) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/٢٥٨) (رقم ١٧٨٣).

* وأوصى بذلك وكيعُ بن الجراح رحمته الله ^(١) فقال: «استعينوا على الحفظ بترك المعاصي» ^(٢).

* ومن آثار المعاصي - التي أوردها ابن القيم رحمته الله قوله: «وللمعاصي من الآثار القبيحة المذمومة المضرة بالقلب والبدن في الدنيا والآخرة ما لا يعلمه إلا الله».

فمنها: حرمان العلم، فإن العلم نور يقذفه الله في القلب، والمعصية تطفى ذلك النور.

ولما جلس الشافعي بين يدي مالك وقرأ عليه، أعجبه ما رأى من وفور فطنته، وتوقد ذكائه، وكمال فهمه، فقال: إني أرى الله قد ألقى على قلبك نوراً، فلا تطفئه بظلمة المعصية» ^(٣).

* وجاء في (فتح الباري) عن القرطبي رحمته الله - أن من حقوبة ارتكاب المعاصي الرجوع إلى الجهل بعد العلم: «مَنْ حَفِظَ الْقُرْآنَ أَوْ بَعْضَهُ فَقَدْ عُلْتُ رَتَبَتُهُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَنْ لَمْ يَحْفَظْهُ، فَإِذَا أَخْلَ بِهَذِهِ الرُّتْبَةِ الدِّينِيَّةِ حَتَّى تَرْجُزَ عَنْهَا نَاسِبٌ أَنْ يُعَاقَبَ عَلَى ذَلِكَ، فَإِنَّ تَرْكَ مَعَاهِدَةِ الْقُرْآنِ يُفْضِي إِلَى الرَّجُوعِ إِلَى الْجَهْلِ، وَالرَّجُوعُ إِلَى الْجَهْلِ بَعْدَ الْعِلْمِ شَدِيدٌ» ^(٤).

شبهة:

قد يقول قائل: كيف يكون الوقوع في المعاصي، وترك الطاعات سبباً في نسيان القرآن وتفلته من صدر حامله، ونحن نرى حُفاظاً للقرآن يرتكبون الأمور المحرمة كشرب الدخان قبل وأثناء التلاوة، وارتكاب البدع المتنوعة، ومنهم مَنْ بَدَثَ عليه أمارات الفسق والفجور، وربما يكون منهم مَنْ هو إمام في الزَّيغ

(١) هو أبو سفيان، وكيع بن الجراح بن مليح الزُّواصي، الكوفي، إمام حافظ ثقة ثبت، فقيه ورع عابد، رَحَلَ وَكُتِبَ وَجَمَعَ وَصَنَّفَ وَحَدَّثَ وَذَكَرَ وَبَثَّ، كان مولده سنة (١٢٨هـ)، وتوفي سنة (١٩٦هـ).

انظر: تهذيب التهذيب (١٢٣/١١)؛ مشاهير علماء الأمصار، لابن خبّان (١٧٣/١).

(٢) طبقات الحنفية (١/٥٤٠).

(٣) الجواب الكافي فيمن سأل عن الدواء الشافي (ص ١٠٣ - ١٠٤).

(٤) (٨٦/٩).

والضلال، أو جاهل بالقرآن ومعانيه، وكثير من هؤلاء لا يعلمون شيئاً عن تفسيره، ولا ينفذون أحكامه، وهم الحاملون له، وربما قرأه بعضهم على قبور الأموات؛ لأجل التآكل به؟!

فكيف يكون ذلك في ضوء ما تقدّم؟

ردّها:

هؤلاء الحفّاظ الفسقة لم يعرفوا قيمة ما تحمّلوه من كتاب الله، فحالهم وبألّ عليهم وفتنة لغيرهم، وهم مُستدرّجون بهذا الحفظ من حيث لا يشعرون، ولا يكون في حفظهم نفع ولا بركة غالباً، ولو أنّهم عظموا القرآن الذي في صدورهم لانكسروا إخبائاً وخشوعاً وخوفاً، ومسارة لمرضاة ربّهم تبارك وتعالى^(١).

وما أحسن ما قاله الثّابعي الجليل مالك بن دينار رحمته الله: «إنّ العبد إذا طلب العلم للعمل كسره علمه، وإذا طلبه لغير ذلك ازداد به فجوراً أو فخراً»^(٢).

ولا أجد لحال هؤلاء مثلاً، إلّا ما قاله محمد بن السّمّاك رحمته الله: «كم من مُدكّر بالله ناسٍ لله، وكم من مُحوِّفٍ بالله جريء على الله، وكم من داعٍ إلى الله فارٌّ من الله، وكم من تالٍ كتاب الله مُسليخٍ من آيات الله»^(٣).

آثار في بيان العلم النافع:

العلم النّافع هو الذي يورث خشية الله تعالى، ويدعو إلى العمل، فما زال العلم يدعو العمل، فإمّا أجاب وإلّا ارتحل، وفي ذلك آثار كثيرة عن الصّحابة الكرام رضي الله عنهم، ومنها:

ما ورد عن الصّحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، حيث قال: «ليس

(١) انظر: مرشد الحيران إلى طرق حفظ القرآن (ص ٤٨).

(٢) تاريخ مدينة دمشق (٤٣٤/٥٦). وانظر: حلية الأولياء (٣٧٢/٢)؛ شعب الإيمان، للبيهقي (٢٩٤/٢)؛ تاريخ الإسلام (٢١٧/٨)؛ اقتضاء العلم العمل (٣٢/١).

(٣) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٣١٣/٢) (رقم ١٩١٦). وانظر: حلية الأولياء (٨/٢٠٦)؛ صفة الصفوة (١٧٥/٣)؛ إحياء علوم الدين (٦٣/١).

العلم بكثرة الرواية، ولكن العلم الخشية^(١).
وما ورد عن حذيفة رضي الله عنه، أنه قال: «بحسب المرء من العلم أن يخشى الله تعالى»^(٢).

وأمثال هؤلاء - أي: الحفاظ السابق ذكر حالهم - أراد الله تعالى أن يُقيم عليهم الحجة بما حفظوه، وما حملوه في صدورهم من غير عمل به، وتعتظيم له، وتأذّب معه، كما قال النبي ﷺ: «... وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ»^(٣).
قال النووي رحمته الله: «معناه ظاهر، أي: تتنفع به إن تلوته، وعملت به، وإلا فهو حجة عليك»^(٤).

وهناك فرق بين العلم الذي في القلب، والعلم الذي على اللسان، كما قال الحسن البصري رحمته الله: «الْعِلْمُ عِلْمَانٍ: فَعِلْمٌ فِي الْقَلْبِ؛ فَذَلِكَ الْعِلْمُ النَّافِعُ، وَعِلْمٌ عَلَى اللِّسَانِ؛ فَذَلِكَ حُجَّةٌ لِلَّهِ عَلَى ابْنِ آدَمَ»^(٥).

لِيَعْلَمَ الْمُصِرُّ عَلَى الْمَعْصِيَةِ أَنَّ عِلْمَهُ وَبَالَ عَلَيْهِ، وَأَنَّ حِفْظَهُ حُجَّةٌ عَلَيْهِ لَا لَهُ، وَأَيُّ قِيمَةٍ لِهَذَا الْحِفْظِ مَعَ عَصْيَانِهِ، وَانْغِمَاسِهِ فِي الْفُجُورِ، وَيُخْشَى عَلَى مَنْ هَذَا حَالُهُ أَنْ تُبَدَّدَ حَسَنَاتُهُ، وَتَكُونَ هَبَاءً مَثُورًا، وَقَدْ جَاءَ عَنْ ثَوْبَانَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَا عِلْمَ لِقَوْمٍ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا، فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ ﷻ هَبَاءً مَثُورًا». قَالَ ثَوْبَانُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! صِفْهُمْ لَنَا، جَلِّهِمْ لَنَا؛ أَلَا نَكُونُ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ، قَالَ: «أَمَّا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ، وَمِنْ

(١) رواه أبو نعيم في «الحلية» (١/١٣١)؛ وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/٣١٨٠) رقم (١٧٩٧٨)؛ والسيوطي في «الدر المنثور» (٧/٢١).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٧/١٣٩) رقم (٣٤٧٩٩)؛ وأبو نعيم في «الحلية» (١/٢٨١)؛ وعلي بن الحسن في «تاريخ مدينة دمشق» (١٢/٢٨٩)؛ والأصبهاني في «الحجة في بيان المحجة» (٢/٥٧٨) رقم (٥٧٣).

(٣) رواه مسلم، كتاب الطهارة، باب: فضل الوضوء (١/٢٠٣) (ح ٢٢٣).

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي (٣/١٠٢).

(٥) رواه الدارمي في «سنينه» (١/٩٨) رقم (٣٦٤)؛ ولا يصح مرفوعاً، فقد ضعفه الألباني في «ضعيف الترغيب والترهيب» (١/٥١) (ح ٦٨)؛ والسلسلة الضعيفة» (ح ٣٩٤٥).

جَلَدْتَكُمْ، وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا»^(١).

وقال ﷺ: «أَكْثَرُ مُنَافِقِي أُمَّتِي قُرَاؤُهَا»^(٢).

وهؤلاء هم علماء السوء، وأصحاب الأهواء، الذين لا يعملون بما يعلمون، يبيعون دينهم بدنياههم طمعاً في منصب، أو جاه، أو مال، ويحلّلون الحرام، فالربا عندهم حلال، ولا يسمّونه ربا؛ بل هو عائد استثماري، ولا حول ولا قوة إلا بالله^(٣).

وقد خاف النبي ﷺ على أمته من هؤلاء بقوله: «إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي كُلِّ مُنَافِقٍ عَلِيمِ اللِّسَانِ»^(٤).

«أي كثير علم اللسان، جاهل القلب والعمل، اتّخذ العلم حِرْفَةً يتأكل بها، ذا هيبة وأبهة يتعزّز ويتعاضد بها، يدعو الناس إلى الله ويفرّ هو منه، ويستقبح عيب غيره ويفعل ما هو أقبح منه، ويظهر للناس التّسك والتّعبد، ويسارر ربّه بالعظائم، إذا خلا به ذنب من الذّنائب، لكن عليه ثياب، فهذا هو الذي حذر منه الشّارع ﷺ هنا، حذراً من أن يخطفك بحلاوة لسانه، ويحرقك بنار عصيانه، ويقتلك بتسن باطنه وجنانه»^(٥).

فالعلم النّافع: هو الذي وقع في القلب، ثمّ ظهر على اللسان، وأثمر العمل الصّالح، وأورث خشية الله وتقواه، أمّا الذي يتعلّم العلم؛ ليتأكل به ويتعزّز به

(١) رواه ابن ماجه (١٤١٨/٢) - (ح ٤٢٤٥)؛ وصحّحه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٨٤/٣) - (ح ٣٤٤٢).

(٢) رواه أحمد في «المسند» (١٧٥/٢) - (ح ٦٦٣٧)؛ وصحّحه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٨٦/٢) - (ح ٧٥٠)؛ و«صحيح الجامع» (٢٦٣/١) - (ح ١٢٠٣).

(٣) الكلمات الحسان فيما يعين على الحفظ والانتفاع بالقرآن (ص ١٢٢).

(٤) رواه أحمد في «المسند» (٢٢/١) - (ح ١٤٣)؛ والطبراني في «الكبير» (٢٣٧/١٨).

(ح ٥٩٣)؛ والبزار في «مسنده» (٤٣٤/١) - (ح ٣٠٥)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد»

(١٨٧/١): «رجال رجال الصّحيح». وصحّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٢٣/٨).

(ح ١٥٥٤)؛ و«السلسلة الصحيحة» (١١/٣) - (ح ١٠١٣).

(٥) فيض القدير (١٩١٨/٤).

عند الناس، فهو بمعزل عن خشية الله تعالى؛ لأن العلم جرى على لسانه ولم يستقر في قلبه، فهذا هو عين ما حذر منه النبي ﷺ في الحديث^(١).

٤ - تعاهد القرآن والحذر من نسيانه:

أرشد النبي ﷺ أمته إلى ضرورة المراجعة المستمرة لكتاب الله تعالى، وتعاهد المحفوظ من الآيات والسور، وشدد على ذلك، وضرب لهم الأمثلة المحسوسة ليبين أثر التعاهد في تثبيت الحفظ في قلب حامله؛ لأن القرآن عزيز، لا يبقى في صدور من يهمله، وهذا من عزته، وقد ورد عن النبي ﷺ أحاديث كثيرة في التنبيه على ضرورة المراجعة والمدارسة، منها ما يلي:

١ - عن أبي موسى رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «تَعَاهَدُوا هَذَا الْقُرْآنَ»^(٢)، **فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! لَهُوَ أَشَدُّ ثَقَلًا مِنَ الْإِبِلِ فِي حُقُلِهَا**^(٣).

قال ابن بطال رحمته الله: «هذا الحديث يوافق الآيتين؛ قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَتَقِفُكَ عَلَيْكَ لَوْلَا ثِقَلُكَ﴾ [المزمل: ٥]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾ [القمر: ١٧]. فَمَنْ أَقْبَلَ عَلَيْهِ بِالمَحَافِظَةِ وَالتَّعَاهُدِ يُسَرِّلَهُ، وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ ثَقَلَتْ مِنْهُ»^(٤).

٢ - عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «بِئْسَ مَا لِأَحَدِهِمْ

(١) انظر: تحفة الأحوزي (٣٧٨/٧).

(٢) أي: جلدوا عهدكم بملازمة تلاوته لثلاث سنين. انظر: تحفة الأحوزي (٢١٥/٨).

(٣) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: استذكار القرآن وتعاهده (١٦٢١/٣) (ح ٥٠٣٣)؛ ومسلم واللفظ له، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: الأمر بتعاهد القرآن (٥٤٥/١) (ح ٧٩١).
والتَّعَاهُدُ: المراجعة والمعاودة.

وَالْإِبِلُ الْمُثْقَلَةُ: هي الإبل التي شُدَّتْ بالعقال لثلاث تهريب. والعقال: حَبِيلٌ صَغِيرٌ يُشَدُّ بِهِ سَاعِدُ البَعِيرِ إِلَى فَخْذِهِ مَلُوتًا. وَحَصَّنَ الْإِبِلَ بِالذِّكْرِ؛ لأنها أشد الحيوَان الإنْسِي نفورًا، وفي تحصيلها بعد استمکان نفورها صعوبة.

انظر: جامع الأصول (٤٤٨/٢)؛ فتح الباري (١٠٠/٩).

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري (١٠٢/٩).

يَقُولُ: نَسِيتُ آيَةَ كَيْتٍ وَكَيْتٍ^(١)، بَلْ هُوَ نُسْيٍ، اسْتَذَكِرُوا الْقُرْآنَ، فَلَهُوَ أَشَدُّ نَقْصِيًا^(٢) مِنْ صُدُورِ الرِّجَالِ مِنَ النَّعَمِ بِمُقْلَاهَا^(٣).

و«سبب الذم: ما فيه - أي اللفظ - من الإشعار بعدم الاعتناء بالقرآن، إذ لا يقع النسيان إلا بترك التعاهد وكثرة الغفلة، فلو تعاهده بتلاوته والقيام به في الصلاة لدام حفظه وتذكره، فإذا قال الإنسان: نَسِيتُ آيَةَ الْفَلَانِيَّةِ، فكأنما شهد على نفسه بالتفريط، فيكون متعلق الذم ترك الاستذكار والتعاهد؛ لأنه الذي يورث النسيان»^(٤).

الحكمة من تفلت القرآن من الصدور:

شأن حكمة الله تعالى أن يتفلت حفظ القرآن من الصدور - إذا لم تكن هناك معاهدة دائمة مستمرة للمحفوظ - ولعل من أبرز الحكم في ذلك:

* الابتلاء والامتحان لقلوب العباد؛ لكي يتميز القلب المتعلق بالقرآن دائماً، من القلب الذي تعلق به وقت الحفظ، ثم فترت همته وانصرف عنه حتى نسيه.

* تقوية دافع المسلم إلى الإكثار من تلاوة القرآن؛ لينال أجراً عظيماً بكل حرف يتلوه، ولو أنه حفظ فلم ينسَ لما احتاج إلى كثرة التلاوة، ومن هنا كان خوف نسيان الحفظ نعمة قد لا يدرك المسلم أهميتها إلا بعد التأمل والتفكير في هذا الشأن، والله تعالى أعلم^(٥).

(١) (آيَةُ كَيْتٍ وَكَيْتٍ): جاء في (فتح الباري) (١٠٠/٩): «قال القرطبي: كَيْتٌ وَكَيْتٌ يُعْبَرُ بهما عن الجمل الكثيرة، والحديث الطويل، ومثلهما: ذَيْتٌ وَذَيْتٌ. وقال ثعلب: كَيْتٌ للافعال، وذَيْتٌ للأسماء». وانظر: عمدة القاري (٤٨/٢٠).

(٢) (أَشَدُّ نَقْصِيًا مِنْ صُدُورِ الرِّجَالِ مِنَ النَّعَمِ بِمُقْلَاهَا): «التقصي: الانفصال. وهو بمعنى الرواية الأخرى: «أَشَدُّ تَفَلُّتًا». والنعم: أصلها الإبل والبقر والغنم. والمراد هنا: الإبل خاصة؛ لأنها التي تُفَلِّتُ». «صحيح مسلم بشرح النووي» (٧٧/٦).

(٣) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن؛ باب: استذكار القرآن وتعاهده (١٦٢١/٣) (١٦٢١/٣) (ح ٥٠٣٢)؛ ومسلم واللفظ له، كتاب صلاة المسافرين وقصرها؛ باب: الأمر بتعهد القرآن (٥٤٤/١) (ح ٧٩٠).

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري (١٠١/٩).

(٥) انظر: خصائص القرآن الكريم (ص ١٧٧)؛ ورتل القرآن ترتيلاً (ص ٧٤).

٣- عن عبد الرحمن بن شبل الأنصاري رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «تَعَلَّمُوا الْقُرْآنَ، فَإِذَا عَلِمْتُمُوهُ، فَلَا تَغْلُوا فِيهِ، وَلَا تَجْفُوا عَنْهُ، وَلَا تَأْكُلُوا بِهِ، وَلَا تَسْتَكْثِرُوا بِهِ»^(١).

في هذا الحديث حثُّ النبي ﷺ أُمَّتَهُ عَلَى حِفْظِ الْقُرْآنِ وَتَعَلُّمِهِ، وَأَرْشَادِهِمْ إِلَى الطَّرِيقَةِ الْمُثَلَّى فِي الْحِفَافِ عَلَيْهِ: وَهِيَ أَلَّا يَغْلُوا فِيهِ، وَأَلَّا يَتَجَافُوا عَنْهُ بِالْإِبْتَعَادِ وَالْهَجَرِ، وَأَلَّا يَسْتَغْلُوا لِمَصَالِحِ دُنْيَوِيَّةٍ. فَالْغُلُوُّ فِي الْقُرْآنِ: هُوَ الْمَبَالِغَةُ فِي التَّجْوِيدِ، أَوْ الْإِسْرَاعُ فِي الْقِرَاءَةِ بِحَيْثُ يَمْنَعُهُ عَنِ تَدَبُّرِ الْمَعْنَى.

وَالْجَفَاءُ عَنْهُ: هُوَ تَرْكُ تَعَاهُدِهِ وَالْإِبْتَعَادُ عَنْ تِلَاوَتِهِ. فَالْجَفَاءُ: هُوَ الْبَعْدُ عَنِ الشَّيْءِ.

وَالتَّأْكُلُ بِهِ: هُوَ أَنْ يُجْعَلَ لَهُ عِوَضًا مِنْ سَحْتِ الدُّنْيَا^(٢).
أَثَارُ فِي الْحَثِّ عَلَى مَرَاجَعَةِ الْحِفْظِ:

وَقَدْ اقْتَضَى السَّلَفُ الصَّالِحُ رضي الله عنهم نَهْجَ نَبِيِّهِمْ ﷺ، وَاسْتَرَشَدُوا بِوَصَايَاهُ، مِنْ تَعَاهُدِ الْقُرْآنِ، وَمَدَاوِمَةِ مَدَارَسَتِهِ؛ كَمَا لَا يَتَفَلَّتُ مِنْهُمْ، وَقَدْ وَرَدَتْ عَنْهُمْ أَثَارٌ كَثِيرَةٌ، فِيهَا التَّنْبِيهُ عَلَى التَّدَارُسِ وَالْمَدَارَسَةِ لِمَا حَفَظُوهُ، وَالْمَدَاوِمَةُ عَلَى ذَلِكَ.
* قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه: «تَزَاوَرُوا وَتَدَارَسُوا الْحَدِيثَ، وَلَا تَتْرَكُوهُ يَدْرُسُ»^(٣).

* وَقَالَ ابْنُ وَهْبٍ رضي الله عنه: «قِيلَ لِأَخْتِ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ: مَا كَانَ شُغْلُ مَالِكٍ فِي بَيْتِهِ؟ قَالَتْ: الْمَصْحَفُ وَالتَّلَاوَةُ»^(٤).

(١) - رواه أحمد في «المسند» (٤٤٤/٣) (ح ١٥٧٠٤)؛ والبيهقي في «السنن» (١٧/٢) (ح ٢١٠٣)؛ وعبد بن حميد في «مسنده» (١٢٩/١) (ح ٣١٤)؛ وعبد الرزاق في «مصنفه» (٣٨٧/١٠) (ح ١٩٤٤٤)؛ قال ابن حجر في «فتح الباري» (١/٩) (١٠١)؛ «سننه قوي».
وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٦٨/٧): «رجال ثقاة». وقال محققو المسند (٢٤/٤٣٧) (ح ١٥٦٦٦): «إسناده صحيح على شرط مسلم».

(٢) - انظر: عمدة القاري (٢١/٢٦٤)؛ عون المعبود (١٣/١٣٢)؛ فتح القدير (٢/٦٤).

(٣) - الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (١/٢٣٦) (رقم ٤٦٥).

(٤) - تهذيب الأسماء، للنووي (٢/٣٨٥).

* وقال أبو عبد الله جعفر بن محمد رحمهما الله: «القلوب تُرَبُّ، والعلم غرسها، والمذاكرة ماؤها، فإذا انقطع عن التُّرَبِّ ماؤها، جفَّتْ غرسها»^(١).

* وعن محمد بن القاسم بن خلاد رحمهما الله أنه قال: «الاحتفاظ بما في صدر الرَّجُلِ أولى من دَرَسْ دفتره، وحرفٌ تحفظه بقلبك أنفع من ألف حديثٍ في دفترك»^(٢).

* ولمَّا قيل للأصمعي^(٣) رحمهما الله: «كيف حَفِظْتَ ونَسِيَ أصحابك قال: درستُ وتركوا»^(٤).

* وقال الخطيب البغدادي^(٥) رحمهما الله:

«وينبغي أن يُراعِيَ ما يحفظه، ويستعرض جميعه كلِّما مضت له مدَّة ولا يُغْفِل ذلك، فقد كان بعض العلماء إذا علِّمَ إنساناً مسألةً من العلم سأله عنها بعد مدَّة، فإنَّ وجَدَه قد حفظها علِّمَ أنه محبٌّ للعلم فأقبل عليه وزاده، وإن لم يره قد حفظها، وقال له المتعلِّم كنتُ قد حفظتها فأنسيْتُها، أو قال كتبها فأضعْتُها، أعرض عنه ولم يعلمه»^(٦).

(١) المصدر السابق (٢٧٨/٢) (رقم ١٨٤٧).

(٢) المصدر نفسه (٢٦٦/٢) (رقم ١٨١٥).

(٣) هو أبو سعيد، عبد الملك بن قريب بن عبد الملك بن علي بن أصمع الباهلي، المعروف بالأصمعي، عالمٌ بالحديث والفقه والعريَّة، وثقَّة الأئمَّة، ولد سنة (١٢٢هـ)؛ من أهل البصرة. وقدم بغداد في أيَّام هارون الرَّشيد، ومن تصانيفه الكثيرة: «نوادير الأعراب»، و«تاريخ العرب قبل الإسلام»، و«الأجناس في أصول الفقه». توفي بالبصرة سنة (٢١٦هـ)، وعمره (٨٨) سنة.

انظر: تهذيب التهذيب (٤١٥/٦)؛ طبقات النُّحاة (١٩٩/٢).

(٤) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢٦٧/٢) (رقم ١٨١٦).

(٥) هو الحافظ النَّاقِد، محدِّث الوقت (أبو بكر) أحمد بن علي بن ثابت، المعروف بالخطيب البغدادي، ولد سنة (٣٩٢هـ) سمع الحديث صغيراً، وارتحل وجمَعَ وصنَّف حتَّى صار أحفظ أهل عصره، من كبار الشَّافعية، ومن تصانيفه الكثيرة: «الكفاية في معرفة علم الرواية»، و«شرف أصحاب الحديث»، و«المُتَّقِ والمُفْتَرِق»، و«الصَّحاح العوالي». توفي ببغداد سنة (٤٦٣هـ).

انظر: طبقات الشَّافعية (٣٦/٢)؛ سير أعلام النُّبلاء (٢٠٨/١١).

(٦) الفقيه والمتفقه (٢٠٣/٢).

المبحث الثالث

فضائل حفظ القرآن

وفيه ثلاثة مطالب: الأول: علو درجة الحافظ.

المطلب الثاني: الحافظ مُقَدَّمٌ في الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

المطلب الثالث: فضائل متنوعة للحافظ.

فضائل حفظ القرآن

تمهيد:

لم يترك النبي ﷺ أمراً فيه تشجيع على حفظ القرآن العظيم إلا سلكه، فكان يُفاضل بين أصحابه الكرام في حفظ القرآن، فيعقد الرأية لأكثرهم حفظاً. وإذا بعث بعثاً جعل أميرهم أحفظهم للقرآن، وإمامهم في الصلاة أكثرهم قراءة للقرآن، ويُقدم للحد في القبر أكثرهم أخذاً للقرآن، ورُبما زوج الرجل على ما يحفظه في صدره من القرآن، وهذا هو محور حديثنا من خلال المطالب الآتية:

المطلب الأول

عُلوُّ درجة الحافظ

حين يدخل المؤمنون الجنة فإنَّ حافظ القرآن له شأن آخر، حيث يعلو غيره في درجات الجنة لتعلو منزلته، وترتفع درجته في الآخرة، كما ارتفعت في الدنيا، ويتبين ذلك جلياً من خلال عدّة أحاديث:

١ - ارتفاع منزلة الحافظ:

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ^(١): اقْرَأْ وَارْتَقِ^(٢)، وَرَتَّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا^(٣)»، فَإِنَّ مَنْزِلَكَ عِنْدَ آخِرِ

(١) (لصاحب القرآن): أي حافظه عن ظهر قلب أو حافظ بعضه الملازم لتلاوته مع التدبُّر لآياته، والعمل بأحكامه، والتأدُّب بآدابه.

(٢) (اقْرَأْ وَارْتَقِ): أمر من رقى يرقى، أي: اصعد درج الجنة بمقدار ما حفظته من آي القرآن.

(٣) (وَرَتَّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا): أي لا تستعجل في قراءتك فالترنيل في الجنة لمجرد =

آيَةُ تَقْرَؤَهَا»^(١).

أفاد الحديث التَّغْيِبَ في حفظ القرآن، وتخصيصُ الصَّاحِبِ في الحديث بالحافظ عن ظهر قلب دون التَّالِي من المصحف تكريماً له وتشريفاً.

قال ابن حجر الهيتمي رحمته الله: «الخبر المذكور خاصٌّ بمن يحفظه عن ظهر قلب، لا بمن يقرأ بالمصحف؛ لأنَّ مجرد القراءة في الخطِّ لا يختلف النَّاس فيها ولا يتفاوتون قَلَّة وكثرة، وإنما الذي يتفاوتون فيه كذلك هو الحفظ عن ظهر قلب، فلهذا تفاوتت منازلهم في الجَنَّة بحسب تفاوت حفظهم، ومما يؤيِّد ذلك أيضاً أنَّ حِفْظَ القرآن عن ظهر قلب فرض كفاية على الأُمَّة، ومجرد القراءة في المصحف من غير حفظ لا يسقط بها الطلب، فليس لها كبير فضل كفضل الحفظ، فتعيَّن أنه - أعني الحفظ عن ظهر قلب - هو المراد في الخبر، وهذا ظاهر من لفظ الخبر بأدنى تأمل، وقول الملائكة له: اقرأ وارْقْ صريح في حفظه عن ظهر قلب كما لا يخفى»^(٢).

الْغَنَمُ بِالْغَرَمِ:

والفوز بهنـه المنزلة له شروط، يوضِّحها الألباني رحمته الله بقوله: «ففيه فضيلة ظاهرة لحافظ القرآن، لكن بشرط أن يكون حِفْظُهُ لوجه الله تبارك وتعالى، وليس للدُّنيا والدُّرهم والدِّينار، وإلَّا فقد قال عليه السلام: «أَكْثَرُ مُنَافِقِي أُمَّتِي قَرَأُوهَا»^(٣)»^(٤).

فيا لها من سعادة للحافظ المُخْلِص إذا قيل له: اقرأ وارْقْ ورتِّلْ، فإنَّ منزلتك عند آخر آية تقرأوها. تُرى إلى أين يرقى؟

الْتِّلْذُ؛ إذ لا عَمَل ولا تكليف هناك، وفيه إشارة إلى أنَّ الجزاء على وفق الأعمال كَمِّيَّة وكيفيَّة. انظر: عون المعبود (٢/٢٣٧)؛ تحفة الأحوذى (٨/٢٣٢)؛ فقه قراءة القرآن الكريم (ص ٧١).

(١) رواه أبو داود (٧٣/٢) (ح ١٣٦٤)، وقال الألباني في «صحيح أبي داود» (١/٢٧٥) (ح ١٣٠٠): «حسن صحيح».

(٢) الفتاوى الحديثية (ص ١٥٦).

(٣) رواه أحمد في «المستند» (٢/١٧٥) (ح ٦٦٣٧)، وقال محققو المسند (١١/٢١٣) (ح ٦٦٣٧): «إسناده حسن». وأورده الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢/٣٨٦) (ح ٧٥٠).

(٤) السلسلة الصحيحة (٥/٣٨٤).

جاء في (عون المعبود) عن الطَّيْبِيِّ رحمته الله: «إِنَّ التَّرْقِيَّ يَكُونُ دَائِمًا، فَكَمَا أَنَّ قِراءَتَهُ فِي حَالِ الْإِخْتِمَامِ اسْتَدْعَتْ الْإِفْتِتَاحَ الَّذِي لَا انْقِطَاعَ لَهُ، كَذَلِكَ هَذِهِ الْقِراءَةُ وَالتَّرْقِيَّ فِي الْمَنَازِلِ الَّتِي لَا تَنْتَاهِي، وَهَذِهِ الْقِراءَةُ لَهُمْ كَالنَّسْبِيعِ لِلْمَلَائِكَةِ لَا تَشْغَلُهُمْ مِنْ مُسْتَلَذَّاتِهِمْ بَلْ هِيَ أَعْظَمُ مُسْتَلَذَّاتِهِمْ»^(١).

تنبه على أثر ضعيف:

قال الخطَّابِيُّ رحمته الله: «جاء في الأثر»^(٢): «أَنَّ عِدَّةَ آيِ الْقُرْآنِ عَلَى قَدَرِ دَرَجَةِ الْجَنَّةِ، يُقَالُ لِلْقَارِئِ: ارْقُ فِي الدَّرَجِ عَلَى قَدَرِ مَا كُنْتَ تَقْرَأُ مِنْ آيِ الْقُرْآنِ، فَمَنْ اسْتَوْفَى قِراءَةَ جَمِيعِ الْقُرْآنِ اسْتَوْلَى»^(٣) عَلَى أَقْصَى دَرَجَةِ الْجَنَّةِ، وَمَنْ قَرَأَ جِزَاءً مِنْهَا كَانَ رَقِيَّتُهُ فِي الدَّرَجِ عَلَى قَدَرِ ذَلِكَ، فَيَكُونُ مَتْنِ الثَّوَابِ عِنْدَ مُتْمَعَةِ الْقِراءَةِ»^(٤).

٢ - عِدَّةُ كِرَامَاتٍ لِلْحَافِظِ:

عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «يَجِيءُ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ حَلِّهِ»^(٥)، فَيُلْبَسُ نَاجِ الْكَرَامَةِ، ثُمَّ يَقُولُ: يَارَبِّ زِدْهُ، فَيُلْبَسُ حُلَّةَ الْكَرَامَةِ، ثُمَّ يَقُولُ: يَارَبِّ ارْضَ عَنْهُ، فَيَقَالَ: اقْرَأْ وَارْقُ، وَيَزَادُ بِكُلِّ آيَةٍ حَسَنَةً»^(٦).

يَبَيِّنُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم أَنَّ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ يَرْفَعُ شَأْنَ صَاحِبِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَنَّهُ يُطْلَبُ

(١) عون المعبود (٢٣٧/٤ - ٢٣٨).

(٢) رواه ابن أبي شَيْبَةَ فِي «مُصَنَّفِهِ» (١٢٠/٦) (رَقْمُ ٢٩٩٥٢) عَنْ أُمِّ الدَّرْدَاءِ رضي الله عنها قَالَتْ: «دَخَلْتُ عَلَى عَائِشَةَ فَقُلْتُ: مَا فَضَّلَ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ عَلَى مَنْ لَمْ يَقْرَأْهُ مِمَّنْ دَخَلَ الْجَنَّةَ؟» فَقَالَتْ: «إِنَّ عِدَّةَ دَرَجَةِ الْجَنَّةِ عَلَى عِدَدِ آيِ الْقُرْآنِ، فَلَيْسَ أَحَدٌ مِمَّنْ دَخَلَ الْجَنَّةَ أَفْضَلَ مِمَّنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ». قَالَ الْأَلْبَانِيُّ فِي «السَّلْسَلَةِ الصَّحِيحَةِ» (٢٨٣/٥): «وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ: إِنَّ إِسْنَادَ هَذَا الْأَثَرِ ضَعِيفٌ».

(٣) الْأَوَّلَى أَنْ يَعْبُرَ بِلَفْظِ الْحَدِيثِ (ارْتَقَى)؛ لِأَنَّ كَلِمَةَ (اسْتَوْلَى) تُؤَخَّرُ بِالْقَهْرِ وَالْغَلْبَةِ وَالْإِسْتِيلَاءِ، وَأَهْلُ الْجَنَّةِ لَيْسُوا كَذَلِكَ. انْظُرْ: فَتْحُ الرَّحْمَنِ فِي بَيَانِ هَجْرِ الْقُرْآنِ (ص ٤٦).

(٤) مَعَالِمُ السَّنَنِ، (١٣٦/٢). وَانْظُرْ: عُونُ الْمَعْبُودِ (٢٣٧/٤)، تَحْفَةُ الْأَحْوَذِيِّ (٢٣٢/٨).

(٥) (يَارَبِّ حَلِّهِ): الظَّاهِرُ أَنَّهُ أَمْرٌ مِنَ التَّحْلِيَةِ، يُقَالُ: حَلَّيْتُهَ أَحْلِيهِ تَحْلِيَةً إِذَا أَلْبَسْتُهُ الْحِلِيَّةَ، وَالْمَعْنَى: يَارَبِّ زِدْهُ. انْظُرْ: تَحْفَةُ الْأَحْوَذِيِّ (٢٣٢/٨).

(٦) رواه الترمذي (١٧٨/٥) (ج ٢٩١٥)، وقال: «حسن صحيح». وَحَسَنُهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ» (١٠/٣) (ج ٢٣٢٨).

من الله تعالى أن يُزَيِّنَ صاحبه ويحلّيه ويلبسه تاج الكرامة ويرضى عنه ﷺ جزاءً وفاقاً، فكما أَرْضَى صاحبُ القرآن كتابَ الله في الدُّنْيَا بقيامه به، وعمله به، وتدبُّره، والدَّعوة إليه؛ فإنَّ القرآن يسأل الله تعالى أن يَرْضَى عن عبده الحافظ للقرآن العامل به.

ففي هذا الحديث عِدَّةُ كراماتٍ لحافظ القرآن وهي:

الإِنعام عليه بتاج الكرامة، وحُلَّة الكرامة، فهو يُعرف بها يوم القيامة بين الخلائق، وهي علامةٌ على كرامة لا بسهما ومكانته عند الله ﷻ.

وهذا التَّاج وهذه الحُلَّة وسام شرف ورفعة، يتميِّز بها أصحاب القرآن عن غيرهم من المؤمنين، وجدير بمن لبس هذا التَّاج وهذه الحُلَّة أن يكون رفيع الدَّرَجَةِ عالي المقام.

وإذا كان العبد في الدُّنْيَا يزهر ويفتخر ويمتلئ إعجاباً وخيلاء إذا ما خلَعَ عليه سلطانٌ أو مَلِكٌ خِلعةً ما، فما بالك بصاحب القرآن يوم القيامة إذا أنعم عليه مولاه، خالقُ الخلق جميعاً، ومَلِكُ النَّاسِ وإلَهُم بهذه النُّعمة العظيمة، والمنزلة الرَّفِيعَة، وألَبَسَهُ تاجَ الكرامة، وحُلَّةَ الكرامة على أعين الخلائق.

ما بالك بالسَّعادة والغبطة والفرح الذي يملأ قلبه.

وأعظَمُ من ذلك كُلُّه: رِضا الله عنه، ثم يُزاد على كُلِّ ذلك بكلِّ آية حَسَنَة، فضلاً عن رفِعه درجات في الجَنَّة بعدد الآيات التي يحفظها من القرآن.

قال ابن الجَزَرِي رَحِمَهُ اللهُ - في فضائل حملة القرآن العظيم، وجزائهم عند الله

تعالى:

وَيَعْدُ: فَإِنْ نَسَانُ لَيْسَ يَشْرَفُ	إِلَّا بِمَا يَحْفَظُهُ وَيَعْرِفُ
لِذَاكَ كَانَ حَامِلُو الْقُرْآنِ	أَشْرَافَ الْأُمَّةِ أُولِي الْإِحْسَانِ
وَأِنَّهُمْ فِي النَّاسِ أَهْلُ اللَّهِ	وَإِنَّ رَبَّنَا بِهِمْ يُبَاهِي
وَقَالَ فِي الْقُرْآنِ عَنْهُمْ وَكَفَى	بِأَنَّهُ أَوْرَثَهُ مَنْ اضْطَفَى
وَهُوَ فِي الْأُخْرَى شَافِعٌ مُشَفَّعٌ	فِيهِ وَقَوْلُهُ عَلَيْهِ يُسْمَعُ
يُعْطَى بِهِ الْمُلْكُ مَعَ الْخُلْدِ إِذَا	تَوَجَّهَ تاجَ الْكَرَامَةِ كَذَا
يَقْتَرَأُ وَيَرْقَى دَرَجَ الْجَنَانِ	وَأَبْوَاهُ مِنْهُ يُكْسِيَانِ

فَلْيَخْرِصِ السَّعِيدُ فِي تَحْصِيلِهِ وَلَا يَمَلْ قَطُّ مِنْ تَرْتِيلِهِ^(١)
 فهل يعي المسلمون فضائل حفظ القرآن، ويُقبلون عليه بشوق، ورغبة،
 ونهم، ويُربُّون على ذلك أبناءهم؟
 ويا للأسف إن أكثرهم يتسابقون على دنياهم أضعاف تسابقهم إلى آخرتهم.
 وقد حذرنا الله تعالى الدنيا ومتاعها فقال تعالى: ﴿قُلْ مَتَّعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تَطْلُمُونَهَا فِئِيلًا﴾ [النساء: ٧٧].
 فمن أظلم ممن زهد في كتاب ربه، فأعرض عنه حفظاً وفقهاً وتلاوة
 ودراسة وعملًا^(٢).

٣ - الحافظ مع السَّفَرَةِ الكرام البررة:

عن عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ قال: «مَثَلُ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، وَهُوَ حَافِظٌ لَهُ،
 مَعَ السَّفَرَةِ الْكَرَامِ الْبَرَّةِ»^(٣).

هؤلاء السَّفَرَةُ الكرام اختارهم الله تعالى، وشرفهم بأن تكون بأيديهم
 الصُّحُفُ المطهرة، قال تعالى: ﴿فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ ﴿١٢﴾ تَرْفَعُهُمْ مَطَهَّرَةٍ ﴿١٣﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ
 كَرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١٣ - ١٦].

مغزى معية السَّفَرَةِ:

ومعنى كون الحافظ مع السَّفَرَةِ يحتمل أمرين:

الأول: أنَّ له في الآخرة منازل يكون فيها رفيقاً للملائكة السَّفَرَةِ؛ لا تُصافه
 بصفته من حَمَلِ كتاب الله تعالى. فأنزل منازلهم الرِّفِيعَةَ، وأسكن مقاماتهم
 العالية من جوار الحق تعالى: ﴿إِنَّ الْتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ
 مَلِكٍ مُقَدِّرٍ﴾ [القمر: ٥٤ - ٥٥].

الثاني: أنه عاملٌ بعملهم وسالكٌ مسلكهم^(٤).

(١) طَيِّبَةُ النَّشْرِ فِي الْقُرْآنَاتِ الْعَشْرِ (ص ٣١).

(٢) انظر: فضائل سور القرآن الكريم (ص ٦٤)، أنوار القرآن (ص ٢٦٢ - ٢٦٣)، فضائل القرآن وحملته في السنة المطهرة (ص ٤٣).

(٣) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب: تفسير سورة «عَن» (٤/ ١٨٨٢) (ح ٤٦٥٣).

(٤) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٦/ ٨٤)، عون المعبود (٤/ ٢٣٠)، تحفة الأحوذى =

«وما نفتأ نرى النَّاسَ اليومَ يفتخرون حين يُنسَبون إلى عظيم من العظماء، أو رجل يحمل الشهرة والاسم اللَّامع ولو كان ذلك في ميدان الرِّياضة أو اللُّهُو الباطل، فهنيئاً لهؤلاء ما اختاروه من هوانٍ لأنفسهم، وهنيئاً لحفظة كتاب الله حين اختاروا أن يكونوا مع السَّفرة الكرام البررة»^(١).

المطلب الثاني

الحافظ مُقَدِّمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ

١ - الحَفَاطُ هُمِ الْأَوَّلَى بِالْإِمَارَةِ:

يرفع القرآن العظيم من شأن صاحبه في الدنيا؛ لحفظه إِيَّاهُ، فصاحب القرآن هو أعلى النَّاسِ نسباً، وأشرفهم منزلةً، وأرفعهم قدراً، وهكذا يجب أن يُعامل، وهذا ما كان عليه السَّلَفُ الصَّالح من إكرام لصاحب القرآن، واعترافٍ بفضله، وتقدير على غيره؛ حتَّى في منصبِ الإمارة، وإن كان مولى من موالِيهم، والأمثلة على ذلك كثيرة؛ فمِمَّنْ رفعهم الله تعالى بالقرآن عبد الرَّحمن بن أبزى الخزاعي رضي الله عنه، وهو من أواخر صغار الصَّحابة، كان مولى لنافع بن عبد الحارث، وكان في عهد عمر رجلاً، وكان على خراسان لعلِّي بن أبي طالب رضي الله عنه^(٢).

فَعَنْ عَامِرِ بْنِ وَائِلَةَ؛ أَنَّ نَافِعَ بْنَ الْحَارِثِ لَقِيَ عُمَرَ بِعُسْفَانَ. وَكَانَ عُمَرُ يَسْتَعْمِلُهُ عَلَى مَكَّةَ. فَقَالَ: مَنْ اسْتَعْمَلْتَ عَلَى أَهْلِ الْوَادِي؟ فَقَالَ: ابْنُ أَبْزَى. قَالَ: وَمَنْ ابْنُ أَبْزَى؟ قَالَ: مَوْلَى مِنْ مَوَالِينَا. قَالَ: فَاسْتَخْلَفْتَ عَلَيْهِمْ مَوْلَى؟ قَالَ: إِنَّهُ قَارِئٌ لِكِتَابِ اللَّهِ ﷻ. وَإِنَّهُ عَالِمٌ بِالْفَرَائِضِ. قَالَ عُمَرُ: أَمَا إِنَّ نَبِيَّكُمْ ﷺ قَدْ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَاماً وَيَضَعُ بِهِ الْآخَرِينَ»^(٣).

إِنَّ قَارِئَ الْقُرْآنِ، الْعَالِمَ بِأَحْكَامِهِ، رَفِيعُ الْقَدْرِ، عَظِيمُ الْمَنْزَلَةِ، يَفُوقُ غَيْرَهُ

= (٨/١٧٤)، فيض القدير (١٢/٦٠٩٩).

(١) حفظ القرآن الكريم (ص ٢٥).

(٢) انظر: الإصابة (٤/١٤٩)، التقريب (١/٤٧٢)، سير أعلام النبلاء (٣/٢٠١).

(٣) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب: فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه (١/٥٥٩).

(ح ٨١٦).

وإن كان أشرف منه نسباً، أو أعظم جاهاً، فهذا مولى من الموالى لا جاه له، ولا مال، ولا حسب، ولا مكانة عُلْيَا في المجتمع، وربما كان في السُّلَم الاجتماعي دون غيره بمقاييس أهل الدنيا، ولكنّه بمقياس القرآن شيء آخر، وله مقام آخر.

فقد رَفَعَهُ القرآن من مقام المولى إلى مقام الولاية، وَعَلَّمَهُ بالقرآن أَهْلَهُ لأن يحكم ويقضي بين الناس، وتكون له الكلمة النافذة، والرأي المسموع في المجتمع.

وها هو ذا عُمَرُ رضي الله عنه يعرف لهذا العالم بالقرآن والحافظ له مكانته وفضله، فإذا به يُقَرُّ نافعاً على اختياره، ويذكر قوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا» الحديث (١).

وليس اعتراف عمر رضي الله عنه هو مثار العجب، فإن عمر رضي الله عنه أولى الناس بأن يعترف بفضل صاحب القرآن، ولكنَّ العَجَبُ كُلُّ العَجَبِ مَنْ وَلَّاهُ عَلَى مَكَّةَ، وفي هذا إشارة إلى ما وصل إليه المجتمع المسلم من تحقيق الكرامة الإنسانية على وجهها الصَّحِيح، إذ لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى.

٢ - الحُقَاطُ هُمُ الْأُولَى بِالْإِمَامَةِ:

عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «بِئُومِ الْقَوْمِ أَقْرُوهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ...» (٢).

وعن أبي سعيد الخُدْرِي رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إِذَا كَانُوا ثَلَاثَةً فَلْيُؤَمِّهِمْ أَحَدُهُمْ، وَأَحَقُّهُمْ بِالْإِمَامَةِ أَقْرُوهُمْ» (٣).

(١) انظر: أنوار القرآن (ص ٢٤٨).

(٢) رواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب: مَنْ أَحَقُّ بِالْإِمَامَةِ (٤٦٥/١) (ح ٦٧٣).

(٣) رواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب: مَنْ أَحَقُّ بِالْإِمَامَةِ (٤٦٤/١) (ح ٦٧٢).

وهذا مقام آخر من مقامات الأفضلية للحافظ، بأن قُدِّمَ على كُلِّ مَنْ حضر في المسجد للصَّلَاة.

فالأكثر قرآنًا هو المُقَدَّم في إمامة الصَّلَاة وإن كان مولى:

عن ابن عُمَرَ رضي الله عنه قَالَ: «لَمَّا قَدِمَ الْمُهَاجِرُونَ الْأَوَّلُونَ الْعَصْبَةَ - مَوْضِعُ بَقْبَاءَ - قَبْلَ مُقَدِّمِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، كَانَ يُؤْمَهُمْ سَالِمٌ، مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ، وَكَانَ أَكْثَرُهُمْ قُرْآنًا»^(١).

زاد الهيثم بن خالد الجهني: «وَفِيهِمْ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَأَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الْأَسَدِ»^(٢).

قال ابن حجر رحمته الله: «ووجه الدَّلَالَةُ منه إجماع كبار الصَّحَابَةِ القرشيين على تقديم سالم عليهم، وكان سالم المذكور مولى امرأة من الأنصار فأعتقته، وكان إمامته بهم كانت قبل أن يُعتق، ...»

وإنما قيل له مولى أبي حذيفة؛ لأنَّه لَارَمَ أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة بعد أن أعتق فتبَّاه، فلَمَّا نُهُوا عن ذلك قيل له مولاة...

وقوله: (وَكَانَ أَكْثَرُهُمْ قُرْآنًا) إشارة إلى سبب تقديمهم له مع كونهم أشرف منه^(٣).

والأكثر قرآنًا هو المُقَدَّم في إمامة الصَّلَاة وإن كان صبيًّا مميِّزًا:

عن عُمَرُو بْنِ سَلَمَةَ رضي الله عنه قَالَ:

لَمَّا كَانَتْ وَقْعَةُ أَهْلِ الْفَتْحِ، بَادَرَ كُلُّ قَوْمٍ بِإِسْلَامِهِمْ، وَبَدَرَ أَبِي قَوْمِي بِإِسْلَامِهِمْ، فَلَمَّا قَدِمَ قَالَ: جِئْتُكُمْ وَاللَّهِ مِنْ عِنْدِ النَّبِيِّ ﷺ حَقًّا، فَقَالَ: «صَلُّوا صَلَاةَ كَذَا فِي حِينِ كَذَا، وَصَلُّوا صَلَاةَ كَذَا فِي حِينِ كَذَا، فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ فَلْيُؤَذِّنْ أَحَدُكُمْ، وَلْيُؤْمِّمْكُمْ أَكْثَرُكُمْ قُرْآنًا». فَنَظَرُوا فَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَكْثَرَ قُرْآنًا مِنِّي،

(١) رواه البخاري، كتاب الأذان، باب: إمامة العبد والمولى (٢١٩/١) (ح ٦٩٢).

(٢) رواه أبو داود (١٦٠/١) (ح ٥٨٨)؛ وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (١/١١٧) (ح ٥٥٠).

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٢/٢٤١).

لَمَّا كُنْتُ أَتَلَقَّى مِنَ الرُّكْبَانِ، فَقَدَّمُونِي بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، وَأَنَا ابْنُ سِتٍّ أَوْ سَبْعِ سِنِينَ^(١)...

قال ابن حجر رحمته الله: «وفي الحديث حُجَّةٌ لِلشَّافِعِيَّةِ فِي إِمَامَةِ الصَّبِيِّ الْمُمَيِّزِ فِي الْفَرِيضَةِ، وَهِيَ خِلَافِيَّةٌ مَشْهُورَةٌ وَلَمْ يُنْصَفْ مَنْ قَالَ إِنَّهُمْ فَعَلُوا ذَلِكَ بِاجْتِهَادِهِمْ، وَلَمْ يَطَّلِعِ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى ذَلِكَ؛ لِأَنَّهَا شَهَادَةٌ نَفْيٌ، وَلِأَنَّ زَمَنَ الْوَحْيِ لَا يَقَعُ التَّقْرِيرُ فِيهِ عَلَى مَا لَا يَجُوزُ»^(٢).

٣ - الحَفَاطُ هُم أَصْحَابُ الشُّورَى :

عن ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه قال: «كَانَ الْقُرَّاءُ أَصْحَابَ مَجْلِسِ عُمَرَ وَمُشَاوَرَتِهِ، كُهُولًا كَانُوا أَوْ شَبَابًا»^(٣).

٤ - الحَفَاطُ هُم الْمُقَدَّمُونَ فِي الْبَرْزَخِ :

وكَمَا أَعْلَى اللَّهِ تَعَالَى شَأْنَ حَافِظِ الْقُرْآنِ فِي الدُّنْيَا فَقَدْ أَعْلَى شَأْنُهُ فِي الْآخِرَةِ، فَهُوَ أَوْلَى النَّاسِ بِالتَّقْدِيمِ حَتَّى بَعْدَ مَوْتِهِ:

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه قال: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَجْمَعُ بَيْنَ رَجُلَيْنِ مِنْ قَتْلَى أَحَدٍ، ثُمَّ يَقُولُ: «أَيُّهُمَا أَكْثَرُ أَخْذًا لِلْقُرْآنِ». فَإِذَا أُشِيرَ لَهُ إِلَى أَحَدِهِمَا قَدَّمَهُ فِي اللَّحْدِ، فَقَالَ: «أَنَا شَهِيدٌ عَلَى هَؤُلَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٤).

قال ابن حجر رحمته الله: «وفيه فضيلةٌ ظاهرة لقارئ القرآن، وَيُلْحَقُ بِهِ أَهْلُ الْفَقْهِ وَالزُّهْدِ وَسَائِرُ وَجُوهِ الْفَضْلِ»^(٥).

وَمَعَ أَنَّ مَقَامَ الشَّهَادَةِ فَوْقَ كُلِّ مَقَامٍ، وَمَعَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ شَهِدَ لِقَتْلَى أَحَدٍ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى بِالْصَّدْقِ فِيمَا عَاهَدُوا عَلَيْهِ، وَشَهِدَ لَهُم بِالْجَنَّةِ، إِلَّا أَنَّهُ فِي غَمْرَةٍ

(١) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب: مَنْ شَهِدَ الْفَتْحَ (٣/١٢٩٩) (ج ٤٣٠٢).

(٢) المصدر السابق (٨/٣٠).

(٣) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب: «خُذِ الْقُرْآنَ وَالْقُرْآنُ وَالْقُرْآنُ وَالْقُرْآنُ» (ج ٦٤٢) [الأعراف: ١٩٩] (٣/١٤٢٠) (ج ٦٤٢).

(٤) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب: اللَّحْدُ وَالشَّقُّ فِي الْقَبْرِ (١/٤٠١) (ج ١٣٥٣).

(٥) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٣/٢١٣).

هذه الفضائل للشهداء، لم يَنْسَ ﷺ الشَّهيدَ الأكثرَ حفظاً للقرآن في تقديمه في اللِّحْدِ.

فصاحب القرآن، والأكثر أخذاً للقرآن، له الأفضلية حتى بين الشهداء، لعظمة القرآن الذي في صدره، وما تقديم الرسول ﷺ له في اللِّحْدِ إِلَّا رَمَزٌ لتقدمه على مَنْ سواه من الشهداء في الأجر والثَّواب، وفي المكانة والجنَّة. وإذا كان التَّفَاضُلُ بالقرآن بين الشهداء، فَالتَّفَاضُلُ به بين الأحياء ولا شَكَّ أكبر وأعظم: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]. فليَتَأَمَّلِ المسلم هذا الأمرَ جيِّداً، ويقف عنده طويلاً، وَمِنْ ثَمَّ يقوده للعناية بالحفظ والإكثار منه والصَّبْرُ عليه^(١).

المطلب الثالث

فضائل مُتَنَوِّعَة لِلْحَافِظ

١ - الحُقَافُ أَهْلُ اللَّهِ وَخَاصَّتُهُ:

من تمام إكرام الله تعالى لحملة كتابه أَنْ جعلهم من أَهْلِهِ وَخَاصَّتِهِ، وهو شرف عظيم، وتكريم لحُقَافِ القرآن لا يُدَانِيهِ أَيُّ شَرَفٍ يَسْعَى إِلَيْهِ النَّاسُ فِي الدُّنْيَا؛ ذَلِكَ أَنَّ الْعَبْدَ الضَّعِيفَ يُصْبِحُ مِنْ أَهْلِ اللَّهِ وَخَاصَّتِهِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ أَهْلَ اللَّهِ وَخَاصَّتِهِ، هُمُ أَقْرَبُ النَّاسِ إِلَى نَيْلِ رَحْمَتِهِ، وَكَرَامَتِهِ، وَمَحَبَّتِهِ، وَالْقَرَبِ مِنْهُ تَعَالَى. فَهُوَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ.

عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ أَهْلِينَ^(٢) مِنَ النَّاسِ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَنْ هُمْ؟ قَالَ: «هُمْ أَهْلُ الْقُرْآنِ، أَهْلُ اللَّهِ وَخَاصَّتُهُ»^(٣).

(١) انظر: أنوار القرآن (ص ٢٥٠).

(٢) (أَهْلِينَ): جَمْعُ أَهْلٍ، جُمِعَتْ بِالْيَاءِ وَالنُّونِ لكونها ملحقاً بجمع المذكر السالم، وَنُصِبَتْ بِالْيَاءِ لكونها اسم إن مؤخر.

(٣) رواه ابن ماجه في «المقدمة» (٧٨/١) (ح ٢١٥)؛ وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (٤٢/١) (ح ١٧٨).

والمقصود بأهل الله وخاصته في الحديث المذكور:

هم حَفَظَةُ القرآن، العاملون به، هم أولياء الله، والمُخْتَصُّون به اختصاصاً
أهل الإنسان به.

وقيل: هم الذين يختصون بخدمته، فإنه لما قَرَّبَهُم واختصَّهم كانوا
كأهله، ومنه قيل لأهل مكة: أهل الله، لما كانوا سَكَّانَ بيته وما حوله كانوا
كأهله^(١).

وإذا اخْتَصَّ المخلوق أحداً من المخلوقين قَرَبَهُ منه وأفاضَ عليه من إكرامه
وعطائه ومحَبَّته الشيء الكثير، فما الظَّنُّ بالله الكريم - وله المثل الأعلى في
السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ - مَالِكُ المُلْكِ ذي الجلال والإكرام.

فأَكْرَمَ به من فَضْلٍ، وأَعْظَمَ بها من مكانة ومنزلة يطمح إليها كُلُّ مؤمن،
وتصبو إليها كُلُّ نفس تريد وجهَ الله الكريم ورضوانه وجَّته.

فَلْيَتَسَبَّ كُلُّ إنسان لما يَتَمَنَّى ويرغبُ مِنْ أهل المال أو الجاه أو المناصب
أو الشهرة، وَلْيَتَجَدَّ القواميس بكلِّ وصفٍ وثناءٍ، فهل تَأْتِي بِأَكْمَلِ مِمَّا وُصِفَ به
حملة كتاب الله: «أَهْلُ الله وَخَاصَّتُهُ»؟^(٢).

٢ - إكرام الحافظ في الدنيا:

إكرام حافظ القرآن الكريم من إجلال الله تعالى وتعظيمه؛ لعظيم حرمة
الحافظ ومنزلته عند الله تعالى.

فعن أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه، قال: قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللَّهِ إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ، وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْعَالِي فِيهِ»^(٣)

(١) انظر: النهاية في غريب الحديث (٨٣/١)، لسان العرب (٢٨/١١)، شرح سنن ابن ماجه (٢٠/١)، فيض القدير (٢٣٤١/٥)، (٢٠٦٠).

(٢) انظر: حفظ القرآن الكريم (ص ١٥)، أنوار القرآن (ص ٢٣٩).

(٣) (غير العالي فيه): الغلو هو التشديد ومجاوزة الحد، والمعنى: غير المتجاوز الحد في العمل بالقرآن، وتتبع ما خفي منه واشتبه عليه من معانيه، وفي حدود قراءته ومخارج حروفه. وقيل: الغلو المبالغة في التجويد، أو الإسراع في القراءة، بحيث يمنع عن تدبر المعنى.

والبجافي عنه^(١)، وإكرام ذي السُّلْطَانِ الْمُقْسِطِ^(٢).

وسُمِّيَ الحافظُ حاملاً للقرآن: لِمَا يتحمُّله من المشاقِّ الكثيرة والتي تزيد على الأحمال الثَّقِيلَةِ^(٣)، فَحَقَّ له أن يُكْرَمَ وَيُعْظَمَ وَيُبَجَّلَ؛ لأنَّ في ذلك تبجيلاً وتعظيماً وإجلالاً لله تعالى، ذلك أنَّ الحافظَ قد حَوَى صدره كلامَ الله تعالى، فمن هنا ينبغي إكرامه وإنزاله منزلةَ اللاتفة به.

٣ - ثناء الله تعالى على الحُفَّاظ:

مَدَحَ الله تعالى حَفَّاظَ كتابه وأثنى عليهم بأن جعل كتابه آيات بيِّنات في صدورهم، وفي هذا متقبُّة عظيمة لهم، دول غيرهم، فقال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَنْتَظِرُ فِي صُُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

«أي في صدور العلماء به وحفَّاظه، وهما من خصائص القرآن، كونه آيات بيِّنات الإعجاز، وكونه محفوظاً في الصدور بخلاف سائر الكتب؛ فإنَّها لم تكن معجزات ولا كانت تُقرأ إلا من المصاحف»^(٤).

«ووصفهم بالعلم؛ لأنَّهم ميَّزوا بأفهامهم بين كلام الله، وكلام البشر والشَّيَاطِينِ»^(٥).

فهؤلاء الحفَّاظ «سادة الخلق، وعقلاؤهم، وأولو الألباب منهم، والكمِّلُ منهم. فإذا كان آيات بيِّنات، في صدور أمثال هؤلاء، كانوا حُجَّةً على غيرهم»^(٦).

فكفى بحافظ القرآن فخراً وشرفاً أنَّ الله تعالى أكرمه وجعله من أسباب

(١) (والجافي عنه): أي غير المتباعد عن القرآن، المُعْرِضُ عن تلاوته، وإحكام قراءته، ومعرفة معانيه، والعمل بما فيه.

وقيل: الجفاء أن يتركه بعدما علمه، لا سيما إذا كان نسيبه؛ فإنه عُذٌّ من الكبائر.

انظر: عون المعبود (١٣/١٩٢).

(٢) رواه أبو داود (٤/٢٦١) (ح ٤٨٤٣)، وحسنه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٣/٩١٨) (ح ٤٠٥٣).

(٣) انظر: عون المعبود (١٣/١٩٢). (٤) تفسير النسفي (٣/٢٦١).

(٥) تفسير القرطبي (١٣/٣٥٤). (٦) تفسير السعدي (٤/٦٧).

حِفْظُ الْقُرْآنِ؛ ذَلِكَ أَنَّ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ مَحْفُوظَةٌ فِي الصُّدُورِ وَالسُّطُورِ، وَهَذَا مِنْ أَسْبَابِ حِفْظِ الدِّينِ، وَوَسَائِلِ حِفْظِ الشَّرِيعَةِ.

فَلَوْ تَطَرَّقَ تَحْرِيفٌ مَّا - جَدَلًا - إِلَى السُّطُورِ فَأَتَى لَهُ أَنْ يَصِلَ إِلَى الصُّدُورِ.

٤ - الْحِفَاطُ لَا تَحْرِقُهُم النَّارُ:

إِنَّ أَعْظَمَ مَا يَسْعَى إِلَيْهِ الْمُسْلِمُ أَنْ يُزَحِّزَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَنِ النَّارِ وَيَدْخُلَهُ الْجَنَّةَ، وَقَدْ أَكْرَمَ اللَّهُ تَعَالَى حِفَاطَ كِتَابِهِ بِنَجَاتِهِمْ مِنَ النَّارِ وَعَدَمِ إِحْرَاقِ إِبْجَادِهِمْ الظَّاهِرَةِ فِيهَا؛ لِعَظَمَةِ مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى.

فَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَوْ كَانَ الْقُرْآنُ فِي إِهَابٍ مَّا أَكَلَتْهُ النَّارُ»^(١).

فَلَوْ صُوِّرَ الْقُرْآنُ وَجُعِلَ فِي إِهَابٍ وَأُلْقِيَ فِي النَّارِ مَا مَسَّتْهُ النَّارُ، وَلَا أَحْرَقَتْهُ بِيرَكْتُهُ، فَكَيْفَ بِالْمُؤْمِنِ الْمَوَاطِبَ لِقِرَائَتِهِ وَلِتِلَاوَتِهِ وَالْعَمَلِ بِهِ؟

وَقِيلَ: الْمَعْنَى مَنْ عَلَّمَهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ لَمْ تَحْرِقْهُ نَارُ الْآخِرَةِ، فَجَعَلَ جِسْمَ حَافِظِ الْقُرْآنِ كِإِهَابٍ لَهُ^(٢).

وَيَشْهَدُ لَهُ مَا رَوَاهُ أَبُو الْفَضْلِ الرَّازِي^(٣) بِسَنَدِهِ عَنْ يَزِيدَ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: سَأَلْتُ الْأَضْمَعِيَّ عَنْهُ، قَالَ: يَعْنِي فِي إِنْسَانٍ. أَرَادَ مَنْ عَلَّمَهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ مِنْ

(١) رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي «الْمُسْنَدِ» (١٥٥/٤) (ح ١٧٤٥٦)؛ وَالتَّطَبُّعِيُّ فِي «الْكَبِيرِ» (٣٠٨/١٧) (ح ٨٥٠)؛ وَابْنُ عَدِي فِي «الْكَامِلِ» (٣٢/١)؛ وَحُسَيْنُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ الْجَامِعِ» (٢/٩٥٣) (ح ٥٢٨٢).

(٢) انْظُرْ: فَيْضُ الْقَدِيرِ (٥١٠٤/١٠).

(٣) هُوَ أَبُو الْفَضْلِ، عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ بُنْدَارٍ الْعَجَلِيُّ، الرَّازِيُّ، الْمُقَرِّي. وَلَدَ بِمَكَّةَ سَنَةَ (٣٧١هـ) وَنَشَأَ بِهَا، وَكَانَ أَبُوهُ عَالِمًا ثَقِيًّا شَيْخًا لِلْحَرَمِ. قَالَ السَّمْعَانِيُّ: «كَانَ (أَبُو الْفَضْلِ) مُقَرَّبًا فَاضِلًا، كَثِيرَ التَّصَانِيفِ، حَسَنَ السِّيَرَةِ، زَاهِدًا، مُتَعَبِّدًا، خَشِنَ الْعَيْشِ، قَانِعًا، يُقْرَأُ وَيُسْمَعُ فِي أَكْثَرِ أَوْقَاتِهِ». وَيَبْدُو أَنَّ تَصَانِيفَهُ الْكَثِيرَةَ فَقَدَتْ وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا كِتَابُ: «فَضَائِلِ الْقُرْآنِ وَتِلَاوَتِهِ». تُوَفِّيَ بِكَرْمَانَ (وَلَايَةِ) مَشْهُورَةِ بَيْنِ فَارَسَ وَسَجِسْتَانَ وَخِرَاسَانَ سَنَةَ (٤٥٤هـ). انْظُرْ: سِيرَ أَعْلَامِ النُّبَلَاءِ (١٨/١٣٥)؛ مَعْجَمُ الْبُلْدَانِ، يَاقُوتُ الْحَمَوِيُّ (٤/٤٥٤)؛ مَقْدَمَةُ كِتَابِهِ: «فَضَائِلُ الْقُرْآنِ وَتِلَاوَتِهِ»، تَحْقِيقُ وَتَخْرِيجُ: د. عَامِرُ حَسَنَ طَنْبَرِي (ص ٩ - ١٦).

المسلمين وحَفَظَهُ إِيَّاهُ لَمْ تَحْرِفْهُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ أَلْقِي فِيهَا بِالذُّنُوبِ، كَمَا قَالَ أَبُو أَمَامَةَ عليه السلام: «افْرُؤُوا الْقُرْآنَ وَلَا تَعُرِّتْكُمْ هَذِهِ الْمَصَاحِفُ الْمُعَلَّقَةُ»^(١)، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُعَذِّبُ بِالنَّارِ قَلْبًا وَعَى الْقُرْآنَ»^(٢).

قال أبو عُبَيْد عليه السلام: «وَجْهٌ هَذَا عِنْدَنَا أَنْ يَكُونَ أَرَادَ بِالْإِهَابِ قَلْبَ الْمُؤْمِنِ وَجَوْفَهُ الَّذِي قَدْ وَعَى الْقُرْآنَ»^(٣).

وقال الزَّيْدِيُّ عليه السلام في شرحه لأثر أبي أَمَامَةَ عليه السلام: «أَيَّ حَفَظَهُ وَتَدَبَّرَهُ وَعَمِلَ بِمَا فِيهِ، فَمَنْ حَفِظَ أَلْفَاظَهُ وَضَيَّعَ حُدُودَهُ فَهُوَ غَيْرُ وَاعٍ لَهُ»^(٤).

وقد «ضُرِبَ الْمَثَلُ بِالْإِهَابِ وَهُوَ جِلْدٌ لَمْ يُدْبَغْ؛ لِأَنَّ الْفَسَادَ إِلَيْهِ أَسْرَعَ وَلَفَّحَ النَّارُ فِيهِ أَنْفَذَ؛ لِيُسَبِّهِ وَجَفَافِهِ، بِخِلَافِ الْمَدْبُوغِ لِلْيَنَةِ.

وَالْمَعْنَى: لَوْ قُدِّرَ أَنَّ يَكُونُ فِي إِهَابٍ مَا مَسَّتْهُ النَّارُ بِبِرْكَهٍ مُجَاوِرَتِهِ لِلْقُرْآنِ، فَكَيْفَ بِمُؤْمِنٍ تَوَلَّى حَفَظَهُ وَالْمَوَاطَبَةَ عَلَيْهِ، وَالْمَرَادُ نَارُ اللَّهِ الْمَوْقَدَةُ الْمُمَيَّزَةُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ.

قال الطَّبِيبِيُّ: وَتَحْرِيرُهُ أَنَّ التَّمَثِيلَ وَارِدٌ عَلَى الْمُبَالَغَةِ وَالْفَرَضِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ: «قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ إِذَاكَ» [الكهف: ١١٠]، أَيَّ يَنْبَغِي وَيَحِقُّ أَنَّ الْقُرْآنَ لَوْ كَانَ

(١) لَعَلَّ الْمَقْصُودَ: الْحَثُّ عَلَى فَضِيلَةِ حِفْظِ الْقُرْآنِ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(٢) رَوَاهُ الرَّازِيُّ فِي «فَضَائِلِ الْقُرْآنِ وَتَلَاوَتِهِ» (ص ١٥٤) (رَقْم ١٢٥)؛ وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي «مُصَنَّفِهِ» (٦/١٣٣) (رَقْم ٣٠٠٧٩)؛ وَالدَّارِمِيُّ فِي «سُنَنِهِ» (٢/٣٠٦) (رَقْم ٣٣١٩)؛ وَصَحَّحَ إِسْنَادَهُ ابْنُ حَجَرٍ فِي «فَتْحِ الْبَارِيِّ» (٧٩/٩).

(٣) فَضَائِلُ الْقُرْآنِ (ص ٥٤).

(٤) هُوَ أَبُو الْفَيْضِ، مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّزَّاقِ الْحُسَيْنِيُّ، الزَّيْدِيُّ، الْمَلْقَبُ بِمِرْتَضَى، لَغَوِيٌّ، نَحْوِيٌّ، مُحَدِّثٌ أَصُولِيٌّ. أَصْلُهُ مِنْ وَاسِطِ (فِي الْعِرَاقِ)، وَلَدَ فِي الْهِنْدِ سَنَةَ (١١٤٥هـ)، وَمِنْشَأُهُ فِي زَيْدٍ (بِالْيَمَنِ)، رَحَلَ إِلَى الْحِجَازِ، وَأَقَامَ بِمِصْرَ، فَاشْتَهَرَ فَضْلُهُ، وَكَاتَبَهُ الْمُلُوكُ، تَوَفَّى بِالطَّاعُونَ فِي مِصْرَ سَنَةَ (١٢٠٥هـ)؛ مِنْ تَصَانِيفِهِ الْكَثِيرَةِ: «تَاجُ الْعُرُوسِ فِي شَرْحِ الْقَامُوسِ»، وَ«إِتْحَافُ السَّادَةِ الْمُتَّقِينَ فِي شَرْحِ إِحْيَاءِ الْعُلُومِ لِلْغَزَالِيِّ»، وَ«بُلْغَةُ الْغَرِيبِ فِي مِصْطَلَحِ آثَارِ الْحَبِيبِ» وَغَيْرَهَا.

انْظُرْ: مَعْجَمُ الْمُؤَلَّفِينَ (٣/٦٨١)؛ الْأَعْلَامُ (٧/٧٠).

(٥) إِتْحَافُ السَّادَةِ الْمُتَّقِينَ (٤/٤٦٥).

في مثل هذا الشيء الحقير الذي لا يُؤْبَهُ به، ويُلقَى في النَّارِ ما مَسَّتْه، فكيف
بالمؤمن الذي هو أَكْرَمُ خَلْقِ اللَّهِ، وقد وعاه في صدره، وتفكَّر في معانيه، وعَمِلَ
بما فيه، كيف تمسُّه، فضلاً عن أن تحرقه»^(١).

فهنيئاً لمن حَفِظَ كِتَابَ اللَّهِ تَعَالَى فَجَمَعَهُ فِي صَدْرِهِ، وَعَمِلَ بِمَا فِيهِ، هَنِيئاً لَهُ
بهذه البشارة في النَّجَاةِ مِنَ النَّارِ، وهذا من أعظم فضائل حفظ القرآن الكريم.
فهل من مُشْمَرٍ؟



المبحث الرابع

حكم حفظ القرآن ونسيانه

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: حكم حفظ القرآن.

المطلب الثاني: حكم نسيان القرآن.

المطلب الأول

حُكْم حفظ القرآن

حِفْظُ القرآن فرضٌ كفايةٌ على الأمة:

حِفْظُ القرآن العظيم كاملاً - عن ظهر قلبٍ - فرض كفايةٌ على الأمة بالإجماع^(١)، فإن قام بذلك قوم سقط الإثم عن الباقيين.

وفي ذلك يقول السيوطي رحمته الله: «اعلم أن حِفْظَ القرآن فرضٌ كفايةٌ على الأمة؛ صَرَحَ به الجرجاني في الشافي، والعبادي، وغيرهما.

قال الجويني: والمعنى فيه ألا ينقطع عدد التواتر فيه، فلا يتطرق إليه التبديل والتحريف، فإن قام بذلك قومٌ يبلغون هذا العدد سقط عن الباقيين، وألا أثم الكل^(٢). ويحصل فرض الكفاية بحفظ جميع القرآن من شخص واحد^(٣).

حُكْم حفظ القرآن على أفراد المسلمين:

١ - يجب على كل مسلم حِفْظُ ما تصحُّح به صلاته من القرآن بالإجماع^(٤). وهو الفاتحة، ومقدار ما يجزئ بعدها - عند مَنْ يقول بوجوب القراءة بعد الفاتحة؛ لأنَّ من القواعد المقررة في الشريعة: أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو

(١) انظر: الدر المختار، للحصكفي (٥٣٨/١)؛ الإقناع (١٤٨/١)؛ منتهى الإرادات (١/١٠٤)؛ فضائل القرآن، لابن كثير (ص ٧١)؛ كشف القناع (٤٢٨/١)؛ مطالب أولي النهى (٦٠٢/١)؛ الفتاوى الكبرى (٢١٢/١ - ٢١٣)؛ حاشية الروض المربع (٢٠٧/٢)؛ نيل المآرب (١٦٨/١).

(٢) الإتيان في علوم القرآن (٢٤٧/١). وانظر: البرهان في علوم القرآن (٤٥٦/١)؛ المنشور في القواعد، للزركشي (٣٥/٣).

(٣) انظر: فيض الرحمن في الأحكام الفقهية الخاصة بالقرآن (ص ٤٥٢).

(٤) انظر: مراتب الإجماع، لابن حزم (ص ١٥٦)؛ الفواكه الدواني (١٢٤/٢)؛ شرح الزرقاني على مختصر خليل (١٨/٧)؛ فتح الباري (٧٠٢/٨)؛ آداب المشي إلى الصلاة (ص ٣١)؛ حاشية الروض المربع (٢٠٧/٢).

واجب، والصَّلَاةُ واجبة ولا تتمُّ إِلَّا بالفاتحة، ومقدار ما يجزئ بعدها - عند مَنْ يقول بوجوبه^(١).

٢ - أما بَقِيَّةُ الْقُرْآنِ فحِفْظُهُ مستحبٌّ بالإجماع^(٢).

جاء في (حاشية الرُّوضِ الْمُتَّبِعِ): «يَسْتَحَبُّ حِفْظُ الْقُرْآنِ إجماعاً، وفيه فضل عظيم، وحِفْظُهُ فرض كفاية إجماعاً... ويجب منه ما يجب في الصَّلَاة اتفاقاً»^(٣).

٣ - وحِفْظُ الْقُرْآنِ الكريم متأكَّدٌ في حقِّ طُلَّابِ الْعِلْمِ الشرعي أكثر من غيرهم، ولذا كان ابن عبد البر رحمته الله يقول: «ولا أقول: إنَّ حِفْظَهُ (الْقُرْآنَ) كُلَّهُ فرضٌ، ولكن أقول: إنَّ ذلك واجب لازم على مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ عالِماً»^(٤).

حِفْظُ الْقُرْآنِ الْوَاجِبِ وَالْمُسْتَحَبِّ مُقَدَّمٌ عَلَى غَيْرِهِ:

حِفْظُ الْقُرْآنِ الْوَاجِبِ مُقَدَّمٌ عَلَى غَيْرِهِ مِنَ الْعُلُومِ الْوَاجِبِ تَعَلُّمُهَا، فَأَمَّا مَا لَمْ يَجِبْ حِفْظُهُ مِنَ الْقُرْآنِ فَيُقَدَّمُ عَلَيْهِ مَا وَجِبَ عَلَى الْمَكْلُوفِ تَعَلُّمُهُ عَيْنًا، كَتَعَلُّمِ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَمَا نَهَا عَنْهُ، وَيَبْقَى الْحِفْظُ الْمُسْتَحَبُّ لِلْقُرْآنِ مُقَدِّمًا عَلَى غَيْرِهِ مِنَ الْعُلُومِ الْآخَرَى غَيْرِ الْوَاجِبَةِ عَيْنًا^(٥).

وينبغي على طالب العلم: أَنْ يَصْرِفَ عَنَّا أَوَّلًا إِلَى حِفْظِ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، ثُمَّ يَتَرَقَّى إِلَى بَقِيَّةِ الْعُلُومِ وَالْفُنُونِ الْآخَرَى إِنْ أَرَادَ التَّوْفِيقَ وَالنَّجَاحَ، وَكَانَ السَّلَفُ لَا يَعْلَمُونَ الْحَدِيثَ وَالْفَقْهَ إِلَّا لِمَنْ يَحْفَظُ الْقُرْآنَ^(٦).

وعن ابن عبد البر رحمته الله أَنَّهُ قَالَ: «طَلَبُ الْعِلْمِ دَرَجَاتٌ وَمَنَاقِلُ وَرُتَبٌ لَا يَنْبَغِي تَعَدِّيْهَا، وَمَنْ تَعَدَّاهَا جَمَلَةٌ فَقَدْ تَعَدَّى سَبِيلَ السَّلَفِ - رَحِمَهُمُ اللَّهُ - وَمَنْ تَعَدَّى سَبِيلَهُمْ عَامِدًا ضَلَّ، وَمَنْ تَعَدَّاهُ مُجْتَهِدًا زَلَّ، فَأَوَّلُ الْعِلْمِ حِفْظُ كِتَابِ اللَّهِ ﷻ

(١) انظر: الأحكام الفقهية الخاصة بالقرآن الكريم (ص ١١).

(٢) انظر: الإقناع (١/١٤٨)؛ آداب المشي إلى الصلاة (ص ٣١).

(٣) (٢/٢٠٧).

(٤) جامع بيان العلم وفضله (٢/١٦٧).

(٥) انظر: فيض الرحمن في الأحكام الفقهية الخاصة بالقرآن (ص ٤٥٢).

(٦) انظر: المجموع (١/٦٩).

وَتَفَهُمُهُ، وَكُلُّ مَا يَعِينُ عَلَى فَهْمِهِ فَوَاجِبٌ طَلَبُهُ مَعَهُ»^(١).

حُكْمُ تَحْفِيزِ الْقُرْآنِ لِلصَّبِيَّانِ:

يُسْتَحَبُّ تَحْفِيزُ الْقُرْآنِ لِلصَّبِيَّانِ؛ لِأَنَّهُ مِنْهَجُ السَّلَفِ الصَّالِحِ مَعَ أَبْنَائِهِمْ، وَخَيْرُ شَاهِدٍ عَلَى ذَلِكَ:

١ - ما ورد عن سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ الْمُفْصَلَ هُوَ الْمُخَكَّمُ».

قَالَ: وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «تُؤْفَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَأَنَا ابْنُ عَشْرِ سِنِينَ وَقَدْ قَرَأْتُ الْمُخَكَّمُ»^(٢).

قال ابن كثير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى جَوَازِ تَعْلِيمِ الْقُرْآنِ فِي الصَّبَا، وَهُوَ ظَاهِرٌ، بَلْ قَدْ يَكُونُ مُسْتَحَبًّا أَوْ وَاجِبًا، لِأَنَّ الصَّبِيَّ إِذَا تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ بَلَغَ وَهُوَ يَعْرِفُ مَا يُصَلِّي بِهِ، وَحِفْظُهُ فِي الصَّغَرِ أَوْلَى مِنْ حِفْظِهِ كِبِيرًا، وَأَشَدُّ عُلُوقًا بِخَاطِرِهِ، وَأَرْسَخُ وَأَثْبَتُ، كَمَا هُوَ الْمَعْهُودُ مِنْ حَالِ النَّاسِ»^(٣).

٢ - ما ورد عن ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّهُ قَالَ: «سَلُونِي عَنِ التَّفْسِيرِ؛ فَإِنِّي حَفِظْتُ الْقُرْآنَ وَأَنَا صَغِيرٌ»^(٤).

فَالْحِفْظُ فِي الصَّغَرِ أَسْهَلُ مِنْهُ فِي الْكِبَرِ، وَأَشَدُّ عُلُوقًا بِالذِّهْنِ، وَرَسُوخًا وَثِبَاتًا فِي الْقَلْبِ، وَعَقْلُ الصَّغِيرِ مَا زَالَ بَكَرًا لَمْ يُثْقَلْ بِأَعْيَاءِ الْحَيَاةِ وَمَنْغُصَاتِهَا الَّتِي تَوَثِّرُ عَلَى إِمْكَانِيَةِ الْحِفْظِ، فَيُحَفِّظُونَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا لَا يَثْقُلُ عَلَيْهِمْ وَيَجْعَلُهُمْ يَمْلُونَ الْقُرْآنَ، وَتُنَاحَ لَهُمْ فُرْصَةٌ مِمَارَسَةِ اللَّعْبِ؛ لِتَجْدِيدِ نَشَاطَتِهِمْ وَهَمَّتِهِمْ^(٥).

(١) جامع بيان العلم وفضله (٢/١٦٧).

(٢) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: تعليم الصبيان القرآن (٣/٢٦٢٢) (رقم ٥٠٣٥).

(٣) فضائل القرآن (ص ٢٢٦).

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٩/٨٤)؛ قال ابن حجر: «أخرجه ابن سعيد وغيره بإسناد صحيح».

(٥) انظر: فيض الرحمن في الأحكام الفقهية الخاصة بالقرآن (ص ٤٥٣ - ٤٥٤).

المطلب الثاني

حكم نسيان القرآن

الإعراض عن تعاهد القرآن، وعدم الاعتناء بذلك، تهاون كبير، وتفريط شديد، بحق كتاب الله تعالى، الذي أنزله الله ﷻ؛ ليقراه الناس، ويتعاهدوه، ويعملوا وفق أحكامه^(١).

وقد حكى الله تعالى شكايته الرسول ﷺ لربه هجران قومه للقرآن، فقال سبحانه: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي أَخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠].

وقد مضى - في بداية البحث - معنى قوله: ﴿مَهْجُورًا﴾ أي: أنه متروك بالكلية، فلم يؤمنوا به، ولم يرفعوا إليه رأساً، ولم يتأنزروا بوعيده^(٢). وقد قرّر جمع من المفسرين: بأن في الآية تلويحاً إلى أن الواجب على المؤمن أن يكون كثير التعاهد للقرآن؛ كي لا يندرج تحت ظاهر النظم الكريم، فإن ظاهره ذم الهجر مطلقاً^(٣).

آثار في التحذير من نسيان القرآن:

* عن أبي العالية رضي الله عنه أنه قال: «كنا نعد من أعظم الذنوب، أن يتعلم الرجل القرآن ثم ينام عنه، حتى ينساه»^(٤).

* وجاء عن ابن سيرين رضي الله عنه - بإسناد صحيح - في الذي ينسى القرآن: «كانوا يكرهونه، ويقولون فيه قولاً شديداً»^(٥).

(١) انظر: فضائل القرآن، لابن كثير (ص ٢٢١).

(٢) انظر: الفصل الثاني من الباب الأول (ص ٤٢ - ٤٦).

(٣) انظر: تفسير البياضوي (٢١٥/٤)؛ تفسير أبي السعود (٢١٥/٦)؛ روح المعاني (١٣/١٩ - ١٤)؛ تفسير الثعالبي (١٣٤/٣).

(٤) رواه أحمد في «الزهد» (٣٠٣/١)؛ وأورده ابن الجوزي في «صفة الصفوة» (٢١٢/٣)؛ وابن حجر في «المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية» (٤٠٩/١٤) (رقم ٣٥٠٢)، وقال في «فتح الباري» (٨٦/٩): «إسناده جيد».

(٥) أورده ابن حجر رضي الله عنه في «فتح الباري» (٨٦/٩) وصححه.

* وعن طلق بن حبيب^(١) رحمته الله، أنه قال: «مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ ثُمَّ نَسِيَهُ مِنْ غَيْرِ عَذْرٍ، حُطَّ عَنْهُ بِكُلِّ آيَةٍ دَرَجَةٌ، وَجَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَخْصُومًا»^(٢).

* وقال ابن المُنَادِي^(٣) رحمته الله: «مَا زَالَ السَّلَفُ يُرْهَبُونَ نَسْيَانَ الْقُرْآنِ بَعْدَ الْحِفْظِ؛ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنَ النَّقْصِ»^(٤).

نسيان القرآن نوعان:

النَّوع الأول: الذي ينشأ لاشتغاله بأمر دنيوي - ولا سيَّما إن كان محظوراً^(٥) - حتَّى يُؤدِّي بصاحبه إلى إهمال مراجعة القرآن، وترك تلاوته، وهذا هو المذموم الذي ورد فيه الوعيد.

وليس المقصود (بالأمر الدنيوي): بذل الوقت في كسب قُوَّة، فهذا مأمور به، ولكن المقصود هو الإفراط، واللُّهاث وراء الدُّنيا وشهواتها، بحيث يتعلَّق قلبه بها، ممَّا يُؤدِّي إلى هجر القرآن^(٦).

(١) هو طَلْقُ بن حبيب العنزي، بصريٌّ ثقةٌ، زاهد كبير من العلماء العاملين، حدَّث عن ابن عباس، وابن الزبير، وجابر بن عبد الله، وأنس بن مالك، وغيرهم. كان طيِّب الصوت بالقرآن، بَرًّا بوالديه، قال طاووس: «مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَحْسَنَ صَوْتًا مِنْهُ، وَكَانَ مَمَّنْ يَخْشَى اللَّهَ». مات طَلْقُ قبل المئة.

انظر: سير أعلام النبلاء (٤/٦٠١)؛ معرفة الثقات (١/٤٨٢).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٦/١٢٤). (رقم ٢٩٩٩٧)؛ وعبد الرزاق في «مصنفه» (٣/٣٦٠) (رقم ٥٩٧٠).

(٣) هو أبو الحسين، أحمد بن جعفر بن محمَّد بن عبيد الله بن أبي داود ابن المُنَادِي، البغدادي، ولد سنة (٢٥٦هـ)، عالمٌ مشارك في كثير من العلوم، وكان الغالب عليه علوم القرآن. قال أبو عمرو الدَّانِي: «مَقْرَأٌ جَلِيلٌ فِي غَايَةِ الْإِتْقَانِ، فَصِيحُ اللِّسَانِ، عَالِمٌ بِالْأَثَارِ، نَهَائَةٌ فِي عِلْمِ الْعَرَبِيَّةِ، صَاحِبٌ سَنَّةٍ، ثَقَّةٌ مَأْمُونٌ». من مصنفاته الكثيرة، «ناسخ القرآن ومنسوخه»، و«اختلاف العدد»، و«دعاء أنواع الاستعاذات من الآفات والعياهات». توفي سنة (٣٣٦هـ).

انظر: تاريخ بغداد (٤/٦٩)؛ سير أعلام النبلاء (١٠/٨٩).

(٤) متشابه القرآن العظيم، لابن المُنَادِي (ص ٥٢).

(٥) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري (٩/٨٥).

(٦) انظر: خصائص القرآن الكريم (ص ١٨٢).

وقد سُئِلَ أبو الحسن القابسي^(١) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَفِظَ الْقُرْآنَ ثُمَّ نَسِيَهُ، فَأَجَابَ قَائِلًا: «وَأَمَّا سَوَالُكَ عَمَّنْ تَعْلَمُ، ثُمَّ ضَيَّعَهُ حَتَّى نَسِيَهُ، فَإِنْ كَانَ تَضْيِيعُهُ إِتْيَاهُ زَهَادَةً فِيهِ - لَيْسَ بِغَالِبٍ عَلَيْهِ عَمَلٌ يَقُومُ لَهُ بِهِ عَذْرٌ - فَهُوَ الَّذِي أَخْشَى عَلَيْهِ مِنْ شَيْءٍ قَدْ جَاءَ فَيَمْنُ تَعْلَمُ الْقُرْآنَ ثُمَّ نَسِيَهُ، فَهِيَ نِعْمَةٌ كَفَرَهَا، وَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ فَيَمْنٌ تَعَمَّدُ التَّشَاغُلُ بِهِ عَنْهُ.

فَإِنْ كَانَ تَشَاغُلُهُ عَنْهُ بِعَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ السُّفَهَاءِ كَانَ أَشَدَّ.

وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّ ذَلِكَ النَّسْيَانَ إِنَّمَا أَصَابَهُ عَقُوبَةٌ؛ لاشتغاله عنه بسوء الاكتساب، فكان اكتسابه السوء ذنباً منه عَجَلَتْ لَهُ عَقُوبَتُهُ، بِأَنْ نَسِيَ الْقُرْآنَ بَعْدَ مَا حَفِظَهُ»^(٢).

النَّوعُ الثَّانِي: الَّذِي لَا يَنْشَأُ عَنْ تَقْصِيرٍ وَإِهْمَالٍ، وَإِنَّمَا هُوَ نَاتِجٌ عَنْ ضَعْفِ الذَّاكِرَةِ، أَوْ تَقَدُّمِ السِّنِّ، أَوْ الْإِنْشَاغَالِ بِأُمُورٍ لَا طَاقَةَ لَهُ فِي دَفْعِهَا، وَلَا سِيَّمًا إِنْ كَانَ نَسْيَانُهُ عَنْ اشْتِغَالٍ بِأَمْرِ دِينِيٍّ كَالْجِهَادِ - كَمَا صَرَّحَ بِهِ ابْنُ حَجَرٍ^(٣)، وَكَذَا تَعْلَمُ الْعِلْمَ الْوَاجِبَ أَوْ الْمُنْدُوبَ، وَمِثْلُهُ الْإِشْتَغَالُ بِتَعْلِيمِ الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ، فَكُلُّ ذَلِكَ لَا يَدْخُلُ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - فِي هَجْرِ الْحِفْظِ الْمَذْمُومِ.

وَقَدْ نَقَلَ ابْنُ رَشِيدٍ الْمَالَكِيُّ^(٤) رَضِيَ اللَّهُ إِجْمَاعًا عَلَى ذَلِكَ، بِقَوْلِهِ: «لَا إِثْمَ عَلَى

(١) هُوَ أَبُو الْحَسَنِ، عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ خُلْفٍ الْمَعَاوَرِيِّ، الْفُرَوِيِّ، الْقَابِسِيُّ، الْمَالَكِيُّ، وَلَدَ سَنَةِ (٣٢٤هـ)، كَانَ حَافِظًا لِلْحَدِيثِ وَالْعِلَلِ، بَصِيرًا بِالرُّجَالِ، عَارِفًا بِالْأَصْلِينَ، رَأْسًا فِي الْفِقْهِ، دِينًا تَقِيًّا، وَكَانَ ضَرِيرًا، مُصَنِّفًا يَقْظًا، وَكُتِبَتْ فِي نَهَايَةِ الصُّحَّةِ، وَكَانَ يَضْبِطُهَا لَهُ ثِقَاتٌ أَصْحَابُهُ، مِنْ تَصَانِيفِهِ: «الْمَهْدُ فِي الْفِقْهِ وَأَحْكَامِ الدِّيَانَةِ»، وَ«الْمُنْقِذُ مِنْ شِبْهِ التَّأْوِيلِ»، وَ«مُلَخَّصُ الْمَوْطَأِ». تَوَفِّيَ بِالْقَيْرَوَانِ سَنَةَ (٤٠٣هـ).

انظر: تَذَكُّرَةُ الْحَفَاطِ (٣/٢٦٤)؛ سِيرُ أَعْلَامِ النُّبَلَاءِ (١٧/١٥٨).

(٢) آدَابُ الْمُعَلِّمِينَ وَالْمُتَعَلِّمِينَ، لِابْنِ سَحْنُونٍ (ص ٢٧٨).

(٣) انظر: فَتَحُ الْبَارِي شَرْحُ صَحِيحِ الْبَخَارِيِّ (٩/٨٥).

(٤) هُوَ أَبُو الْوَلِيدِ، مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ رُشْدٍ الْقُرْطُبِيُّ، الْمَالَكِيُّ، قَاضِي قُرْطُبَةٍ، شَيْخُ الْمَالِكِيَّةِ، كَانَ فَقِيهًا، عَالِمًا، حَافِظًا لِلْفِقْهِ، مُقَدِّمًا فِيهِ عَلَى جَمِيعِ أَهْلِ عَصْرِهِ، حَسَنُ الْخُلُقِ، سَهْلُ اللَّقَاءِ، مَعَ الدِّينِ وَالْحِلْمِ وَالْوَقَارِ (وَهُوَ الْمَعْرُوفُ بِابْنِ رُشْدٍ الْجَدِّ)، وَحَفِيدُهُ فِيلَسُوفُ زَمَانِهِ، وَيَعْرِفُ بِابْنِ رُشْدٍ الْحَفِيدِ. عَاشَ الْجَدُّ سَبْعِينَ سَنَةً، وَتَوَفِّيَ سَنَةَ (٥٢٠هـ). انظر: سِيرُ أَعْلَامِ النُّبَلَاءِ (١٩/٥٠١).

مَنْ تَرَكَ الْمَعَاهِدَةَ عَلَى هَرَسِ الْقُرْآنِ غَفْلَةً عَنْ ذَلِكَ، وَاشْتَغَالاً بِمَا سِوَاهُ مِنَ الْوَاجِبَاتِ وَالْمِنْدُوبَاتِ، حَتَّى نَسِيَ مِنْهُ سُورَةً أَوْ آيَةً، بِإِجْمَاعٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ^(١) الْفَرْقُ بَيْنَ السَّهْوِ الْعَارِضِ وَالنَّسْيَانِ الدَّائِمِ:

هناك فرق بين النسيان الذي ينشأ عن التَّقْصِيرِ وإِهْمَالِ الْحِفْظِ، وبين السَّهْوِ العارض الذي هو أَمْرٌ جَبِلَ عَلَيْهِ الْإِنْسَانُ، فْهَذَا السَّهْوُ غَيْرُ مُسْتَبْعَدٍ وَلَا مُسْتَعْرَبٍ، نَاهِيكَ أَنْ يَكُونَ مُسْتَنْكَرًا، وَقَدْ قِيلَ: الْإِنْسَانُ مَحَلُّ النَّسْيَانِ، وَعَلَيْهِ يُحْمَلُ قَوْلُ الْقَائِلِ:

وَمَا سُمِّيَ الْإِنْسَانُ إِلَّا لِنَسْيِهِ وَلَا الْقَلْبُ إِلَّا أَنَّهُ يَنْقَلِبُ^(٢) وكيف يُسْتَنْكَرُ مِثْلُ هَذَا، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى - لِإِمَامِ الْحَفَاطِ وَسَيِّدِهِمُ ﷺ: ﴿سَقَرْتُكَ فَلَا تَنْسَى﴾ ① [إِلَّا مَا مَنَّ اللَّهُ] ② [الاعلى: ٦ - ٧].

«عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إِلَّا مَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُنْسِيكَهُ لِنَسْيِهِ، وَقِيلَ: لَمَّا جَلَلَتْ عَلَيْهِ مِنَ الطَّبَاعِ الْبَشَرِيَّةِ لَكِنْ سَتَذْكُرُهُ بَعْدُ»^(٣).

وَمَعْنَى الْآيَةِ: سَتَحْفَظُ مَا أَوْحَيْنَاهُ إِلَيْكَ مِنَ الْقُرْآنِ، وَتُؤَوِّعِي قَلْبَكَ، فَلَا تَنْسِي مِنْهُ شَيْئًا. وَهِيَ بَشَارَةٌ عَظِيمَةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِلنَّبِيِّ ﷺ، أَنَّ اللَّهَ ﷻ سَيُعَلِّمُهُ عِلْمًا لَا يَنْسَاهُ.

إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ مِمَّا اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ تَعَالَى أَنْ يُنْسِيكَهُ لِمَصْلَحَةٍ، وَحِكْمَةٍ بِالْقَةِ^(٤).

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَجُلًا يَقْرَأُ فِي سُورَةٍ بِاللَّيْلِ فَقَالَ: «يَرْحَمُهُ اللَّهُ، لَقَدْ أَذْكَرَنِي كَذَا وَكَذَا آيَةً، كُنْتُ أَنْسِيْتُهَا مِنْ سُورَةٍ كَذَا وَكَذَا»^(٥).

(١) فتاوى ابن رشد (٢/٧٧٣).

(٢) انظر: تاج العروس من جواهر القاموس (١/١٢٤).

(٣) فتح المباري شرح صحيح البخاري (٩/٨٥).

(٤) انظر: تفسير السعدي (٥/٤١٣ - ٤١٤).

(٥) زواة البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: نسيان القرآن، وهل يقول: نسيته آية كذا وكذا (٣/١٦٢٢) (ح ٥٠٣٨).

نسيان النبي ﷺ لشيء من القرآن فوعان:

قال الإسماعيلي^(١) رحمه الله: «النسيان من النبي ﷺ لشيء من القرآن يكون على قسمين: أحدهما: نسيانه الذي يتذكره عن قرب، وذلك قائم بالطباع البشرية، وعليه يدل قوله ﷺ - في حديث ابن مسعود، في الشهو: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، أَتَسَى كَمَا تَنْسَوْنَ»^(٢). والثاني: أن يرفعه الله عن قلبه على إرادة نسخ تلاوته، وهو المشار إليه بالاستثناء في قوله تعالى: ﴿سَقَرْتُكَ فَلَا تَسَى ۖ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الأعلى: ٦ - ٧].

قال: فأما القسم الأول: فعارض سريع الزوال؛ لظاهر قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وأما الثاني: فداخل في قوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦]^(٣).

ومن الفوائد التي ذكرها ابن حجر رحمه الله - في شرحه للحديث - قوله: «وفي الحديث: حُجَّةٌ لِمَنْ أَجَازَ النِّسْيَانُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فيما ليس طريق البلاغ مطلقاً، وكذا في طريقة البلاغ لكن بشرطين: أحدهما: أنه بعد ما يقع منه تبليغه، والآخر: أنه لا يستمر على نسيانه بل يحصل له تذكُّره، إمَّا بنفسه وإمَّا بغيره... فأما قبل تبليغه: فلا يجوز عليه النسيان أصلاً...

وفي الحديث أيضاً: جواز رفع الصوت بالقراءة في الليل، وفي المسجد،

(١) هو أبو بكر، أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن العباس الإسماعيلي، الجرجاني، كبير الشافعية بناحيته، ولد سنة (٢٧٧هـ)، قال الحاكم: «كان الإسماعيلي واجد عصره، وشيخ المحدثين وأجلهم في الرئاسة والمروءة والسكنا». ولا خلاف بين علماء الفريقين وعقلائهم فيه. من تصانيفه: «الصحيح على شرط البخاري»، و«الفرائد»، و«المعالي» وغيرها. توفي بجرجان سنة (٣٧١هـ).

انظر: طبقات الحفاظ (٣٨٢/١)؛ تذكرة الحفاظ (٩٤٧/٣).
(٢) رواه البخاري، كتاب الصلاة، باب: التوجه نحو القبلة حيث كان (١/١٤٦) (ح ٤٠٢)؛ ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب: الشهو في الصلاة والسجود له (١/٤٠٢) (ح ٥٧٢).

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٩/٨٥ - ٨٦).

والدُّعاء لَمَنْ حَصَلَ لَهُ مِنْ جِهَتِهِ خَيْرٌ، وَإِنْ لَمْ يَقْصِدِ الْمَحْصُولَ مِنْهُ ذَلِكَ^(١).
 فالَّذِي حَصَلَ لِلنَّبِيِّ ﷺ هُوَ مِنَ السَّهْوِ الْعَارِضِ بِمَقْتَضَى بَشَرِيَّتِهِ ﷺ، وَمَنْ
 حَصَلَ لَهُ ذَلِكَ فِي حِفْظِهِ فَلَا يُلَامُ، وَهُوَ أَمْرٌ مُلَازِمٌ لِلْبَشَرِ، وَلِذَلِكَ قَالَ ابْنُ
 رَشْدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَلَوْ كَانَ نَسْيَانُ شَيْءٍ مِنَ الْقُرْآنِ ذَنْبًا لَمَا نَسِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَلَيْسَ
 النَّسْيَانُ لِشَيْءٍ مِنَ الْقُرْآنِ أَوْ غَيْرِهِ بِكَسْبٍ لِلْعَبْدِ^(٢)؛ إِذْ لَا يَكُونُ بِقَصْدِهِ وَاخْتِيَارِهِ
 فَيَأْتِمُ بِفَعْلِهِ، وَإِنَّمَا يَأْتِمُ بِأَنْ يَفْعَلَ مَا يُنْسِيهِ اللَّهُ بِهِ ذَلِكَ عَلَى الْوَجْهِ الْمُنْهَيِّ عَنْهُ،
 وَذَلِكَ بَيِّنٌ مِنْ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «بِئْسَمَا لِأَحَدِهِمْ أَنْ يَقُولَ: نَسِيتُ آيَةً كَيْتَ وَكَيْتَ،
 بَلْ هُوَ يُنْسَى^(٣)»، فَهِيَ ﷺ أَنْ يَقُولَ رَجُلٌ: نَسِيتُ، فَيُضَيِّفُ إِلَى نَفْسِهِ مَا لَيْسَ مِنْ
 كَسْبِهِ، وَأَمْرُهُ أَنْ يَقُولَ: أُنْسِيتُ^(٤).

فَالْحَرِيصُ عَلَى حِفْظِ الْقُرْآنِ، وَهُوَ دَائِبٌ عَلَى تِلَاوَتِهِ، إِلَّا أَنَّ النَّسْيَانَ يَغْلِبُهُ،
 فَنَسْيَانُهُ عَارِضٌ، وَلَيْسَ بِدَائِمٍ، وَلَا يَدْخُلُ فِي الدَّمِّ، بِدَلِيلٍ: حَدِيثُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا^(٥).
 قَالَ سَفِيَانُ بْنُ عَيِينَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَيْسَ مَنْ اشْتَهَرَ بِحِفْظِ شَيْءٍ مِنَ الْقُرْآنِ، وَتَقَلَّتْ
 مِنْهُ بَنَاسٌ، إِذَا كَانَ يُحِلُّ حَلَالَهُ، وَيُحَرِّمُ حَرَامَهُ^(٦)».

وَالْخِلَاصَةُ: أَنَّ النَّسْيَانَ الْمَذْمُومَ، هُوَ مَا أَشَارَ إِلَيْهِ ابْنُ حَجَرٍ الْهَيْتَمِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ
 بِقَوْلِهِ: «الْمُرَادُ بِالنَّسْيَانِ الْمَحْرَمِ: أَنْ يَكُونَ بَحِيثٌ لَا يُمَكِّنُهُ مُعَاوَدَةُ حِفْظِهِ الْأَوَّلِ
 إِلَّا بَعْدَ مَزِيدٍ كُفْلَةٍ وَتَعَبٍ؛ لِذَهَابِهِ عَنْ حَافِظَتِهِ بِالْكُلِّيَّةِ، وَأَمَّا النَّسْيَانُ الَّذِي يُمَكِّنُ
 مَعَهُ التَّذَكُّرُ بِمَجْرَدِ السَّمَاعِ أَوْ إِعْمَالِ الْفِكْرِ، فَهَذَا سَهْوٌ، لَا نَسْيَانٌ فِي الْحَقِيقَةِ،
 فَلَا يَكُونُ مُحْرَمًا^(٧)».

(١) المصدر نفسه (٨٦/٩).

(٢) أي: بمقدور العبد واختياره.

(٣) رواه البخاري - بالفاظٍ مُقَارِبَةٍ. انظر: كتاب فضائل القرآن، باب: استذكار القرآن
وتعامده (١٦٢١/٣).

(٤) فتاوى ابن رشد (٧٧٦/٢).

(٥) انظر: غريب الحديث، لأبي عبيد (١٤٩/٣)؛ تفسير الطبري (٣١/١٦)؛ مرقاة المفاتيح
(٧٢/٥).(٦) التذكار في أفضل الأذكار (ص ٢١٤). وانظر: التمهيد لما في الموطأ من المعاني
والأسانيد (١٣٢/١٤)؛ الاستذكار (٤٨٩/٢).

(٧) الفتاوى الفقهية الكبرى (٣٦/١).

حُكْم نسيان القرآن:

ذكر جَمْعٌ من أهل العلم: أنَّ نسيان القرآن، أو شيء منه - بعد حفظه - ذنبٌ عظيم، بل صرَّح بعضهم: بأنَّه كبيرة من الكبائر، ومن هؤلاء: الرَّافعي، والنَّووي. وتبعهم في ذلك: الشَّيْطِي، وابن حجر الهيتمي، والمُنَاوِي. قال ابن حجر رحمته: «واختلف السَّلف في نسيان القرآن، فمَنهم مَنْ جعل ذلك من الكبائر»^(١).

وقال الشَّيْطِي رحمته: «نسيانه كبيرة، صرَّح به النَّووي في البروضة وغيرها»^(٢).

وقال ابن حجر الهيتمي رحمته: «عَدُّ نسيان القرآن كبيرة، هو ما جرى عليه الرَّافعي وغيره»^(٣).

وبيَّن المُنَاوِي رحمته سَبَبَ كَوْنِ النِّسيان كبيرة، بقوله: «لأنَّه (أي: النِّسيان) إنما نشأ عن تشاغله عنها (أي: الآيات القرآنية) بلهو أو فضول، أو لاستخفافه بها، وتهاونه بشأنها، وعدم اكتراثه بأمْرِها، فيعظم ذنبه عند الله؛ لاستهانة العبد له، بإعراضه عن كلامه»^(٤).

وقال أيضاً: «نسيان القرآن كبيرة، ولو بغضاً منه، وهذا لا يناقضه خبر: (رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأُ وَالنِّسيان)^(٥)؛ لأنَّ المعدود هنا ذنباً، التَّقرُّيُّ في محفوظه،

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨٦/٩).

(٢) الإتيان في علوم القرآن (ص ٢٦٠).

(٣) الزواجر عن اقتراف الكبائر (٢٥٧/١). وانظر: الفتاوى الفقهية الكبرى (٣٦/١ - ٣٧).

(٤) فيض القدير (٣١٣/٤).

(٥) قال الألباني رحمته في «إرواء الغليل» (١٢٣/١): «المشهور في كتب الفقه والأصول، بلفظ: (رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي...) ولكنه مُنْكَرٌ. ثمَّ ذَكَرَ أَنَّ المعروف: ما أخرجه ابن ماجه عن ابن عباس مرفوعاً، بلفظ: «إِنَّ اللَّهَ وَضَعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنِّسيان...». رواه ابن ماجه (٦٥٩/١) (ح ٢٠٤٥)؛ وصحَّحه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (١٧٩/٢) (ح ١٦٧٧)؛ وعند الطَّبْراني في «الأوسط» (١٦١/٨) (ح ٨٢٧٣) عن ابن عباس مرفوعاً، بلفظ: «وُضِعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأُ وَالنِّسيان...». وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٥٩/١) (ح ٣٥١٥).

بعدم تعاهده ودرسه^(١).

وذكر الزركشي رحمته الله أن الله تعالى توعد المعرض عن القرآن، ومن تعلمه ثم نسيه^(٢).

والمراد بنسيان القرآن - الذي هو كبيرة من الكبائر: هو الناتج عن الشاغل بالذنبا، واللهاث وراء شهواتها، وترك تلاوة القرآن واستذكاره، كما تقرّر سابقاً.

النسيان الذي يُعذر صاحبه:

إذا انشغل العبد بالعلم الواجب أو المنتوب، وترتب على ذلك نسيان شيء من القرآن المحفوظ، فلا يُعَدُّ صاحبه أثماً، وقد مضى أن ابن رشد المالكي رحمته الله نقل إجماع أهل العلم على ذلك^(٣)، كمن ينشغل بتعليم العلوم الشرعية وغيرها في المساجد أو المدارس أو الجامعات ونحوها، وكذلك المعلمون المشغولون بالعلوم الواجبة أو المندوبة. ويدخل في ذلك أيضاً المشغولون بفروض الكفايات كالدعوة إلى الله تعالى، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونحوها^(٤). وقد نقل ابن حجر الهيتمي رحمته الله عن بعض العلماء أن محلّ كون نسيان القرآن كبيرة مشروط بأن يكون عن تكاسل وتهاون، وهذا احتراز عمّا لو اشتغل عن القرآن بمرضٍ مانع من القراءة، وعدم التأثيم بالنسيان حينئذٍ واضح؛ لأنه مغلوب عليه، لا اختيار له فيه^(٥).



(١) فيض القدير (٣١٣/٤). وانظر: التيسير بشرح الجامع الصغير (٣٥٨/٢).

(٢) انظر: البرهان في علوم القرآن (٤٥٨/١).

(٣) انظر: فتاوى ابن رشد (٧٧٣/٢)؛ مطالب أولي النهى (٦٠٥/١).

(٤) انظر: فيض الرحمن في الأحكام الفقهية الخاصة بالقرآن (ص ٤٥٤).

(٥) انظر: الزواجر عن اقتراف الكبائر (ص ٢٥٨).

الفصل السابع

هجر تدبُّر القرآن

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: تعريف التدبُّر وأهميته وحُكمه.

المبحث الثاني: أسباب هجر تدبُّر القرآن.

المبحث الثالث: الأمور المعينة على تدبُّر القرآن.

المبحث الرابع: ثمرات تدبُّر القرآن.

المبحث الأول

التدبُّر وأهميَّته وحُكمه

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: تعريف تدبُّر القرآن.

المطلب الثاني: أهميَّة تدبُّر القرآن.

المطلب الثالث: حُكم تدبُّر القرآن.

المطلب الأول

تعريف تدبر القرآن

أولاً: «التدبر» لغة:

جاء التدبر في اللغة مصدراً مشتقاً من الفعل الماضي (تدبر)، وقد ذكر جماعة من علماء اللغة لهذا الفعل ومشتقاته استعمالات عديدة، وسوف نعرض للمعاني التي تتعلق بموضوع البحث، وهي على النحو الآتي:

* التدبر: مصدر فَعَلَهُ الماضي: تدبر. وهو فعلٌ مزيدٌ، اشتق من الفعل المجرد الماضي: دبر. ومضارعه: يدبر، والمصدر: دبراً ودبوراً^(١).

* ودبر النهار أو الصيف: انصرم، مضى وانقضى.

* ودبر الشيء: جاء بعده وخلفه.

* وتدبر الأمر تدبراً: نظر في أدباره، أي: عواقبه، وتفكر فيه.

* والتدبر: النظر في أدبار الأمر. وهو يعني: التأمل في عواقبه، أو ما يؤول إليه^(٢).

* وتدبر الأمر: رأى في عاقبته ما لم يره في صدره، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَذَّبَرُوا أَلْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]. أي: ألم يتفهموا ما حُوطبوا به في القرآن العظيم^(٣).

وخلاصة التدبر - في أصل اللغة: هو النظر في عاقبة الأمر والتفكر فيه، بحيث يشمل أواخر دلالات الكلم ومراميهِ البعيدة^(٤).

(١) انظر: معجم مقاييس اللغة (١/٤٣١)، مادة: (دبر).

(٢) انظر: مختار الصحاح (ص١٠١)، مادة: (دبر)؛ لسان العرب (٤/٢٨٠)، مادة: (دبر).

(٣) انظر: القاموس المحيط (ص٤٩٩)، مادة: (دبر).

(٤) انظر: تفسير القرطبي (٥/٢٩٠)؛ تفسير الطبري (١/٨٧)؛ قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله، د. عبد الرحمن بن حسن حنكة (ص١٠).

ثانياً: «تدبر القرآن» اصطلاحاً:

قال الألوسي رحمته الله: «وأصل التدبر: التأمل في أديار الأمور وعواقبها، ثم استعمل في كل تأمل، سواء كان نظراً في حقيقة الشيء وأجزائه، أو سوابقه وأسابيه، أو لواحقه وأعقابه»^(١).

وقال السعدي رحمته الله - في معنى تدبر القرآن: «هو التأمل في معانيه، وتحديق الفكر فيه، وفي مبادئه، وعواقبه، ولوازم ذلك»^(٢).

والخلاصة في «معنى تدبر القرآن»:

تفهم معاني ألفاظه، والتفكير فيما تدل عليه آياته مطابقة أو ضمنية، وما لا تتم تلك المعاني إلا به من الإشارات والتشبيهات، وانتفاع القلب بذلك، بخشوعه عند مواعظه، وخضوعه لأوامره ونواهيه، وأخذ العبرة منه^(٣).

المطلب الثاني

أهمية تدبر القرآن

تبرز أهمية تدبر القرآن العظيم في أمور كثيرة، يأتي في مقدمتها أن تدبر القرآن وتفهم علومه من النصيح لكتاب الله تعالى، وقد أشار إلى هذا المعنى أهل العلم، منهم ابن رجب رحمته الله بقوله: «وأما النصيحة لكتاب الله: فشدة حبه وتعظيم قدره، إذ هو كلام الخالق، وشدة الرغبة في فهمه، وشدة العناية لتدبره، والوقوف عند تلاوته؛ لطلب معاني ما أحب مولاه أن يفهمه عنه، ويقوم به له بعد ما يفهمه».

وكذلك الناصح من العباد يتفهم وصية من ينصحه، وإن ورد عليه كتاب منه عني يفهمه؛ ليقوم عليه بما كتبت به فيه إليه، فكذلك الناصح لكتاب ربه يعني يفهمه؛ ليقوم لله بما أمر به كما يحب ويرضى، ثم ينشر ما فهم في العباد، ويديم

(١) روح المعاني (٩٢/٥). (٢) تفسير السعدي (١٨٩/١).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٥٠١/١)؛ التبيان في أقسام القرآن، لابن القيم (ص ١٤٥)؛ القواعد الحسان لتفسير القرآن، للسعدي (ص ٣٢)؛ تدبر القرآن، لسليمان بن عمر السنيدي (ص ١١). (٥٩/٥٢) (١٧١/٢٢١).

دراسته بالمحبة له، والتخلق بأخلاقه، والتأدب بأدابه^(١). وهناك أمور أخرى تبرز لنا أهمية تدبر القرآن الكريم، وهي على النحو التالي:

أولاً: حاجة القلب إلى تدبر القرآن:

القلب فيه وحشة لا تزال إلا بالأنس بكتاب الله تعالى، والتأمل في آياته، وفيه قلق وخوف لا يؤمنه إلا السكون إلى ما بشر الله تعالى به عباده، وفيه فاقة لا يغيها إلا التزود من حكم القرآن ومواعظه وعبره، وفيه حيرة واضطراب لا ينجيه منها إلا الاعتصام بكتاب الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسَ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٧﴾ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون ﴿[يونس: ٥٧ - ٥٨].

ولقد حذر الله تعالى عباده المؤمنين من مغبة التماذي في هجر القرآن، فتكون نتيجة قسوة القلوب، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

قال محمد بن كعب رضي الله عنه: «كانت الصحابة بمكة مُجْدِبِينَ فَلَمَّا هَاجَرُوا أَصَابُوا الرِّيفَ وَالتَّعَمَّةَ، فَفَتَرُوا عَمَّا كَانُوا فِيهِ، فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ، فَوَعظَهُمُ اللَّهُ فَأَفَاقُوا»^(٢). والعتاب لعامة المؤمنين أخرى وأولى.

والأصل أن قلوب المؤمنين وجلودهم تخشع وتخضع وترق وتسكن وتطمئن عند ذكر الله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا نَقَّصِرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَيْنَا ذِكْرُ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

فمن أراد أن يخشع قلبه، وينشرح صدره، فلا غنى له عن التّفكّر والتّمعّن في الآيات الكريمات، ولا يكن همه - إذا افتتح السّورة - أن يقول في نفسه: متى أختتمها.

قال الآجري رحمته الله: «فالمؤمن العاقل إذا تلا القرآن استعرض القرآن، فكان

(١) جامع العلوم والحكم (١/٢٠٩).

(٢) تفسير القرطبي (١٧/٢٥٠)؛ تفسير الثعالبي (٩/٢٤١).

كالمرأة يرى بها ما حسن من فعله وما قُبِح فيه، فما حذرَه مولاه حذرَه، وما خَوَّفَه به من عقابه خافَه، وما رَغِب فيه مولاه رَغِب فيه ورجاه. فمن كانت هذه صفته، أو ما قارب هذه الصِّفة فقد تلاه حقَّ تلاوته، ورعاه حقَّ رعايته، وكان له القرآن شاهداً وشفيعاً وأنيساً وحزناً، ومن كان هذا وَصْفَه نفع نفسه ونفع أهله، وعاد على والديه وعلى ولده كلُّ خيرٍ في الدنيا والآخرة^(١).

و«كان القرآن له شفاءً، فاستغنى بلا مالٍ، وعزَّ بلا عشيرةٍ، وأنس بما يستوحش منه غيره، وكان همُّه عند التلاوة للسُّورة - إذا افتتحها: متى أتعظ بما أتلوهُ؟ ولم يكن مراده: متى أختِم السُّورة؟ وإنما مراده: متى أعقل من الله الخطاب؟ متى أزدجر؟ متى أعتبر؟ لأنَّ تلاوته للقرآن عبادة، والعبادة لا تكون بغفلة»^(٢).

وقراءة القرآن بالتفكير هي أصل صلاح القلب واستقامته، ولا شيء أنفع للعبد في معاشه وأقرب إلى نجاته في معاده من تدبُّر القرآن العظيم، وفي هذا الشأن يقول ابن القيم رحمته الله: «فلا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبُّر والتفكير؛ فإنَّه جامعٌ لجميع منازل السَّائرين، وأحوال العاملين، ومقامات العارفين، وهو الذي يورث المحبَّة والشَّوق والخوف والرجاء والإنابة والتَّوَكُّل والرضا والتَّقويض والشُّكر والصَّبْر، وسائر الأحوال التي بها حياة القلب وكماله، وكذلك يَزْجُرُ عن جميع الصِّفات والأفعال المذمومة التي بها فساد القلب وهلاكه.

فلو عَلِمَ النَّاسُ ما في قراءة القرآن بالتدبُّر، لاشتغلوا بها عن كلِّ ما سواها. فإذا قرأه بتفكيرٍ، حتَّى إذا مرَّ بآيةٍ وهو محتاج إليها في شفاء قلبه، كرَّرَها ولو مائة مرَّة ولو ليلة، فقراءة آيةٍ بتفكيرٍ وتفهُمٍ خيرٌ من قراءة ختمةٍ بغيرِ تدبُّرٍ وتفهُمٍ، وأنفع للقلب، وأدعى إلى حصول الإيمان وذوق خلاوة القرآن... فقراءة القرآن بالتفكير هي أصل صلاح القلب»^(٣).

(١) أخلاق حملة القرآن (ص ٣٩ - ٤٠). (٢) المصدر نفسه (ص ١٨ - ١٩).

(٣) مفتاح دار السعادة (١/ ١٨٧).

وأكد ذلك في موضع آخر، فقال: «فليس أنفع للعبد في معاشه ومعاده، وأقرب إلى نجاته من تدبُّر القرآن، وإطالة التأمل، وجمع منه الفكر على معاني آياته، فإنها تُطْلَعُ العبدُ على معالم الخير والشر... وتُثَبِّتُ قواعد الإيمان في قلبه، وتُشِيدُ بنيانه، وتوطد أركانه... وتعطيه قوَّةً في قلبه، وحياةً، وسعةً، وانسراحاً، وبهجةً وسروراً، فيصير في شأنِ النَّاسِ في شأنٍ آخر... وفي تأمل القرآن وتدبره أضعافٌ أضعاف ما ذكرنا من الحكم والفوائد»^(١).

ثانياً: الدُّخُولُ فِيمَنْ أثنى الله عليهم بتدبر القرآن:

أثنى الله ﷻ - في مواضع كثيرة من القرآن - على مَنْ تدبَّرَ كلامه وتأثر به، وبين أن ذلك صفةٌ عباد الله الخاشعين، ومن هذه المواضع:

١ - قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ أَلَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢ - ٤].

وجه زيادة إيمانهم - عند سماع القرآن: هو أنهم ألقوا السَّمْعَ للقرآن، وأحضرُوا قلوبهم لتدبره، فعند ذلك ازداد إيمانهم ويقينهم.

فالتدبر يحدث رغبة الخير، واشتياقاً إلى كرامة الله تعالى لهم، ووجلاً من عقوباته، وزجراً عن معاصيه، وكلُّ هذا ممَّا يزداد به الإيمان^(٢).

٢ - قوله تعالى: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۝ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَسْكَبُونَ لَهَا دُمُوعُهُمْ حُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩].

تبيِّن الآية الكريمة أنَّ الذين أُوتوا العلم هم الذين يتأثرون عند سماع مواضع القرآن؛ بسبب تدبرهم لآياته، وفيه إشارة إلى أنَّ مَنْ لم يتأثر بالقرآن فهو جاهل لا يستحق وصف العلم.

(١) مدارج السالكين (١/٤٥١ - ٤٥٣).

(٢) انظر: تفسير السعدي (٢/١٨٨).

وَكُرِّرَ ذِكْرُ الْخُرُورِ لِلْأَذْقَانِ؛ لاختلاف السبب: فالأول: لتعظيم الله تعالى وتنزيهه. والثاني: للبكاء بتأثير مواضع القرآن في قلوبهم، وزيادة خشوعهم^(١).
٣ - قوله تعالى: ﴿إِذَا نُنَاجَىٰ عَلَيْهِمْ مَا يَشَاءُ الرَّحْمَنُ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكًّا﴾ [مريم: ٥٨].

قال القرطبي رحمه الله: «فكانت حالهم (أي: رسول الله ﷺ، وأصحابه رضي الله عنهم) عند المواضع: الفهم عن الله، والبكاء خوفاً من الله؛ ولذلك وصف الله أحوال أهل المعرفة عند سماع ذكر الله وتلاوة كتابه فقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ زَجَّ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضٌ مِنَ الدَّمْعِ وَمَا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَاثَنَّا مَا كُنْتَ مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [البائدة: ٨٣]، فهذا وصف حالهم، وحكاية مقالهم، ومن لم يكن كذلك، فليس على هديهم ولا على طريقته، فمن كان مستتاً فليستن^(٢)».

ثالثاً: عدم التعرض إلى الذم لترك التدبر: فقد ذم الله تعالى حال من هجر تدبر القرآن، ولم يفقه الآيات، ولم يدبر القول في صيغ مختلفة، وأحوال متنوعة، ومنها:
١ - قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرَاتِ﴾ [النساء: ٨٢]، [محمد: ٢٤].

قال القرطبي رحمه الله: «عاب المنافقين بالإعراض عن التدبر في القرآن والتفكير فيه، وفي معانيه»^(٣).
وزاد الشنقيطي رحمه الله الأمر بياناً، بقوله: «ما مضت الآية الكريمة من التوبيخ والإنكار على من أعرض عن كتاب الله؛ جاء موضحاً في آيات كثيرة، ومعلوم أن كل من لم يشغل بتدبر آيات هذا القرآن العظيم - أي تصفحها وتفهمها، وإدراك معانيها، والعمل بها - فإنه معرض عنها، غير متدبر لها، فيستحق الإنكار والتوبيخ المذكور في الآيات - إن كان الله أعطاها فهماً يقدر به على التدبر...».

وهذه الآيات المذكورة تدل على أن تدبر القرآن وتفهمه، وتعلمه، والعمل به أمر لا بد منه للمسلمين...

(١) انظر: التحرير والتنوير (١٤/١٨٤). (٢) تفسير القرطبي (٧/٣٦٦).

(٣) المصدر نفسه (٥/٢٩٠).

فإعراض كثير من الأقطار عن النَّظَرِ في كتاب الله وتفهمه، والعمل به، وبالسُّنَّةِ الثَّابِتَةِ المَبِينَةِ له، من أعظم المناكير وأشنعها^(١).

٢ - قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨].

أنكر الله تعالى على الكفار عدم تفكيرهم في القرآن، وتأملهم في مواعظه وعبره، وتدبرهم لآياته؛ فإنهم لو تدبروه لأوجب لهم الإيمان، ولمنعهم من الكفر، ولكن المصيبة التي أصابتهم هو إعراضهم عن تدبر القرآن.

وهذا يدل على أن تدبر القرآن يدعو إلى كل خير، ويعصم من كل شر^(٢).

٣ - قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَذَرُ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠].

قال ابن كثير رحمته الله: «وترك تدبره وتفهمه من هجرانه»^(٣).

وقال ابن القيم رحمته الله: «هجر القرآن أنواع... ثم ذكر منها - هجر تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد المتكلم به»^(٤).

٤ - مَثَلُ اللَّهِ تعالى اليهود مع التَّوراة أقيح تمثيل، فقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ خَبَلُوا التَّورَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥].

قال أبو بكر الطرطوشي رحمته الله: «فدخل في عموم هذا من يحفظ القرآن من أهل ملتنا، ثم لا يفهمه، ولا يعمل به»^(٥).

٥ - جاء في وصف الخوارج، قوله عليه السلام: «يَفْرُقُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ خُلُوقَهُمْ، أَوْ حَنَاجِرَهُمْ»^(٦).

قال النووي رحمته الله - في المراد بذلك: «ليس حظهم من القرآن إلا مروره

(١) أعضاء البيان (٧/٢٥٧).

(٢) انظر: التحرير والتنوير (٧١/١٨)؛ تفسير السعدي (٥/٣٦٥).

(٣) تفسير ابن كثير (٦/١٢٠).

(٤) الفوائد (ص ١٢٣).

(٥) الحوادث والبدع (ص ١٠١).

(٦) رواه البخاري، كتاب استتابة المرتدين وقتالهم، باب: قتل الخوارج والملحدین بعد إقامة الحجة عليهم (٤/٢١٦٤) (ح ٦٩٣١).

وقال الزركشي رحمه الله: «ذمهم بإحكام ألفاظه، وترك التفهم لمعانيه»^(٢).

٧ - عن أبي جَمْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «قُلْتُ لَابْنِ عَبَّاسٍ: إِنِّي سَرِيعُ الْقِرَاءَةِ، وَإِنِّي أَقْرَأُ الْقُرْآنَ فِي ثَلَاثٍ، فَقَالَ: لَأَنْ أَقْرَأَ الْبَقْرَةَ فِي لَيْلَةٍ قَادَرْتُهَا وَأُرْتَلَّهَا؛ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْرَأَ كَمَا تَقُولُ»^(٤).

حُكْمُ تَدْبِيرِ الْقُرْآنِ

[ص: ۲۹].

(٤) رواه ابن كثير في «فضائل القرآن» (ص ٢٣٦)، وقال محققه (أبو إسحاق الحويني): «إسناده صحيح». ورواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص ٧٤): «والأجري في «أخلاق حملة القرآن» (ص ٨٩).

إطباق المفسرين على وجوب تدبر القرآن:

دلّت هذه الآيات - وما في معناها - على وجوب تدبر القرآن العظيم، وقد أطبق على ذلك اجمهون المفسرين، وهذه بعض الثقول الواردة عنهم في هذا الشأن:

* قال الطبري رحمته الله: «في حث الله ﷻ عباده على الاعتبار بما في آي القرآن من المواعظ والبيّنات... ما يدلّ على أنّ عليهم معرفة تأويل ما لم يُجَنَّب عنهم تأويله من آيه؛ لأنّه محالّ أن يُقال لمن لا يفهم ما يقال، ولا يعقل تأويله: اعتبر بما لا فهم لك به... إلّا على معنى الأمر بأن يفهمه ويفقهه، ثمّ يتدبره ويعتبر به»^(١).

* واستنبط القرطبي رحمته الله - من قوله تعالى: ﴿يَتَذَبَّرُوا إِلَيْهِ﴾ وجوب معرفة معاني القرآن^(٢). وقال رحمته الله: «ودلّ قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ على وجوب التدبر في القرآن؛ ليُعرف معناه»^(٣).

وقال ابن عطية الأندلسي رحمته الله - في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ «وهذا أمرٌ بالنظر والاستدلال»^(٤).

* وقال أبو السعود رحمته الله: «إنكار واستقباح؛ لعدم تدبرهم القرآن، وإعراضهم عن التأمل فيما فيه من موجبات الإيمان»^(٥).

* وقال الشوكاني رحمته الله: «ودلّت هذه الآية، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ أنّ قلوب أفعالها على وجوب التدبر للقرآن؛ ليُعرف معناه، والمعنى: أنّهم لو تدبروه حقّ تدبره لوجدوه مؤتلفاً غير مختلف، صحيح المعاني، قويّ المباني، بالغاً في البلاغة إلى أعلى درجاتها»^(٦).

(١) تفسير الطبري (٤٥/١).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (١٥/١٨٢)؛ أضواء البيان (٧/٤٢٨).

(٣) تفسير القرطبي (٥/٢٩٠). وانظر: تفسير ابن كثير (١/٥٠٤)؛ (٤/١٨٠)؛ تفسير السعدي (١/١٨٩).

(٤) تفسير ابن عطية (٢/٨٣). وانظر: الشهاب للعلوم التنزيل (١/١٤٩).

(٥) تفسير أبي السعود (٢/٢٠٧). وانظر: فتح القدير (٥/٣٨).

(٦) فتح القدير (١/٤٩١).

* وقال السيوطي رحمته الله: «وتدبر الكلام بدون فهم معانيه لا يمكن، وأيضاً: فالعادة تمنع أن يقرأ قوم كتاباً في فنٍّ من العلم؛ كالطبِّ والحساب، ولا يستشرحونه، فكيف بكلام الله الذي هو عصمتهم، وبه نجاتهم وسعادتهم، وقيام دينهم ودنياهم»^(١).

* وقال الزركشي رحمته الله: «وبالجملة؛ فالقرآن كله لم يُنزلْ تعالى إِلَّا لِيُفْهَمَهُ، وَيُعْلَمَ وَيُفْهَمَ، ولذلك خاطب به أولي الألباب الذين يعقلون، والذين يعلمون، والذين يفقهون، والذين يتفكرون»^(٢).

ومع هذه الكثرة الكاثرة من النصوص الأمرة بتدبر القرآن العظيم، والتفكير في معانيه، وإمعان النظر فيه، والنَّاهية عن الإعراض عنه، وكذلك الثُّقُولُ الواردة عن علماء التفسير في وجوب تدبر القرآن، نجد أنَّ غالب المسلمين اليوم قد اكتفوا: بألفاظ يردِّدونها، وأنغام يُلحِّنونها في المآتم والمقابر والدُّور، وبمصحف يحملونها أو يودعونها تَرَكَّةً في البيوت، ونسوا أو تناسوا: أنَّ بركة القرآن العظمى إنما هي في تدبر آياته وتفهمها، والتأدب بها، والوقوف عند أوامرها، والبعد عن نواهيها ومساخطها^(٣).



(١) الإتيان في علوم القرآن (٢/٤٦٩). (٢) البرهان في علوم القرآن (٢/١٤٥).

(٣) انظر: مناهل العرفان في علوم القرآن (٨/٢).

المقالة الثالثة في تاريخ الإسلام

المبحث الثاني

أسباب هجر تدبر القرآن

أسباب هجر تدبر القرآن

تمهيد:

إذا كان كثير من المسلمين قد هجروا تلاوة القرآن أو سماعه أو حفظه، فإن الأكثر منهم قد هجروا تدبره هَجْرًا لم تعرفه الأمة من قبل، وحتى الذين يواظبون على تلاوة القرآن أو حفظه؛ ما هو نصيبهم من تدبر المتلو والمحفوظ، وما أثر القرآن في قلوبهم؟

ولا ريب أن هجر التدبر له أسباب كثيرة ومثبوعة، تختلف من هاجر لآخر، ولربما اجتمع أكثر من سبب في شخص واحد، وسيكون الحديث عن أهم هذه الأسباب كما يلي:

أولاً: الإصرار على الذنوب:

إصرار العبد على الذنب، وارتكابه إيّاه من أعظم الأسباب التي تحول دون تدبر القرآن، وفهم معانيه، فينبغي لمن أراد تدبر القرآن أن يبتعد عن الذنوب والمعاصي، ولا سيما التي لها اتصال مباشر بأدوات ووسائل التدبر وهي: القلب والسمع واللسان والبصر، فانهماك هذه الجوارح في الحرام يُعطلها عن تدبر القرآن، والانتفاع به، والله تعالى يقول: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ فَوَيْ مَذَانَنَا وَفَرٍّ مِّنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥].

فالأكِنَّة: غطاء للقلب، تمنعه من فهم القرآن، والوقر: غطاء للأذن، يمنع من سماع القرآن، والحجاب: غطاء للعين، يمنع من رؤية الحق^(١).

وتأثير الذنوب في القلوب كتأثير الأمراض في الأبدان، والقلب المريض لا يتففع بالأغذية التي بها حياته وصلاحه، قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا

(١) انظر: شفاء العليل، لابن القيم (ص ٩٣).

(٥) البرهان في علوم القرآن (٢/ ١٨٠ - ١٨١).

بحاضر، وقد تحدّث ابن القيم رحمته الله عن أنواع القلوب حال سماع القرآن، فقال: «الناس ثلاثة: رجل قلبه ميت... الثاني: رجل له قلب حي... لكنّه مشغول ليس بحاضر؛ فهذا أيضاً لا تحصل له الذكرى. والثالث: رجل حي القلب مستعد، تليت عليه الآيات فأصغى بسمعه وألقى السمع، وأحضر القلب، ولم يشغله بغير فهم ما يسمع، فهو شاهد القلب، فهذا القسم هو الذي ينتفع بالآيات»^(١).

فحضور القلب وعدم انشغاله شرط في الانتفاع والتذكّر بالقرآن الكريم، وفي ذلك قال ابن القيم رحمته الله - أيضاً: «إذا حصل المؤثر: وهو القرآن، والمحلّ القابل: وهو القلب الحي. ووُجد الشرط: وهو الإصغاء. وانتفى المانع: وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب، وانصرافه عنه إلى شيء آخر؛ حصل الأثر: وهو الانتفاع والتذكّر»^(٢).

ثالثاً: الجهل باللغة العربية:

أنزل الله تعالى القرآن العظيم بلسان عربي مبين، كما قال جلّ جلاله: ﴿وَلَهُ لِنَزِيلِ رَبِّ الْمُنِيبِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥].

وسبب تنزله باللغة العربية: هو أنّها «أفصح اللغات، وأبينها، وأوسعها، وأكثرها تأدية للمعاني التي تقوم بالنفوس؛ فلهذا أنزل أشرف الكتب بأشرف اللغات»^(٣).

وإذا كان القارئ لا يعرف شيئاً عن لغة العرب، ولا يدرك أساليب كلامهم فأنّى له أن يتدبر القرآن، ويعقل عن الله تعالى الخطاب، وهو سبحانه يقول: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾﴾ [يوسف: ٢]. ويقول تعالى: ﴿كَتَبْنَا قُصَصًا فَأَيْنِئْتُمْ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾ [فصلت: ٣].

(١) مدارج السالكين (١/٤٤٢).

(٢) الفوائد (ص ٦). وانظر: تدبر القرآن (ص ٥٠).

(٣) تفسير ابن كثير (٢/٤٦٧).

أهمية معرفة العربية لتدبر القرآن:

إنَّ جزءاً كبيراً من معاني ألفاظ القرآن وتراكيبه لا يؤدَّى إلَّا باللسان العربي ولا يُفهم إلَّا به، كما جاء عن ابن عباس رضي الله عنه أنَّه قال: «التفسير على أربعة أوجه: وَجْه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلَّا الله»^(١).

وهذا الذي جعل ابن تيمية رحمته الله يقول: «ومعلوم أنَّ تعلُّم العربية؛ وتعليم العربية فرضٌ على الكفاية، وكان السلف يؤدِّبون أولادهم على اللحن، فنحن مأمورون أمر إيجاب أو أمر استحباب أن نحفظ القانون العربي، ونُضِلِّح الألسن الماثلة عنه، فيحفظ لنا طريقة فُهم الكتاب والسنة»^(٢).

وقد جعل أهل العلم معرفة العربية شرطاً لمن أراد تفسير القرآن، قال الإمام مالك رحمته الله: «لا أوتى برجل غير عالم بلغات العرب يفسر كتاب الله إلَّا جعلته نكالا»^(٣).

وقال ابن عطية رحمته الله: «إعراب القرآن أصل في الشريعة؛ لأنَّ بذلك تقوم معانيه التي هي الشرع»^(٤).

وعن الغاية من تعلُّم اللغة العربية يقول ابن تيمية رحمته الله: «والعربية إنَّما احتاج المسلمون إليها؛ لأجل خطاب الرِّسول بها، فإذا أُعْرِضَ عن هذا الأصل، كان أهل العربية بمنزلة أصحاب المعلقات السَّبع، ونحوهم من حطب جهنم»^(٥).

فالمقصود الأعظم من تعلُّم اللغة العربية: هو معرفة كلام الله تعالى، وكلام

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٤٢/١) (رقم ٧١)؛ والسيوطي في «الدر المنثور» (١٥١/٢). وانظر: تفسير ابن كثير (٧/١)؛ مجموع الفتاوى (٣٨٤/١٣)؛ البرهان في علوم القرآن (٧٤/٢) (١٦٤/٢)؛ الإتيان في علوم القرآن (٤٨٠/٢).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٥٢/٣٢).

(٣) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٤٢٥/٢) (رقم ٢٢٨٧). وانظر: البرهان في علوم القرآن (٢٩٢/١) (١٦٠/٢)؛ الإتيان في علوم القرآن (٢٧٤/٢).

(٤) تفسير ابن عطية (٤٠/١)؛ تفسير القرطبي (٢٤/١).

(٥) مجموع الفتاوى (٢٠٧/١٣).

رسوله ﷺ، ومن فاته تحقيق هذا المقصد، فقد أمضى عمره في غير ما طائل، بل ربّما كان تعلّمه حجّة عليه، كحال الذين يتعلّمون العربيّة للطّعن في القرآن وعلوم الشريعة من المستشرقين وأذناهم^(١).

المفاسد المترتبة على الجهل باللغة:

من المفاسد المترتبة على جهل القارئ - أحياناً - بقواعد اللغة العربيّة: ما ورد عن ابن أبي مليكة^(٢)، أنّه قال: «قدّم أعرابي في زمان عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: من يُقرئني ممّا أنزل على محمد ﷺ؟ قال: فأقرأه رجل «براءة»؛ فقال: (أنّ الله بريء من المشركين ورسوله). بالجرّ، فقال الأعرابي: أو قد برئ الله من رسوله؟ فإن يكن الله برئاً من رسوله فأنّا أبرأ منه؛ فبلغ عمر مقالة الأعرابي فدعاه فقال: يا أعرابي أتبرأ من رسول الله ﷺ؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إنّي قدمت المدينة ولا علم لي بالقرآن، فسألت من يُقرئني، فأقرأني هذا سورة «براءة»، فقال: (أنّ الله بريء من المشركين ورسوله)؛ فقلت: أو قد برئ الله من رسوله، إن يكن الله برئاً من رسوله فأنّا أبرأ منه؛ فقال عمر: ليس هكذا يا أعرابي؛ قال: فكيف هي يا أمير المؤمنين؟ قال: «أنّ الله برئ من المشركين ورسوله» [التوبة: ٣]. فقال الأعرابي: وأنا والله أبرأ مما برئ الله ورسوله منه؛ فأمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه ألا يُقرئ الناس إلّا عالم باللغة، وأمر أبا الأسود^(٣)

(١) انظر: تدبر القرآن (ص ٩١ - ٩٢).

(٢) هو عبد الله بن عبد الله بن أبي مليكة - بالتصغير - الإمام الحجّة، مدني، أدرك ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ، ثقة، فقيه، من الثالثة. وكان عالماً مفتياً، صاحب حديث وإتقان، توفي سنة (١١٧هـ)، وعمره (٨٠ سنة).

انظر: تقريب التهذيب (١/٤٣١)؛ سير أعلام النبلاء (٥/٨٨).

(٣) هو ظالم بن عمرو بن سفيان أبو الأسود الدؤلي، من كبار التابعين، متخضرم أدرك الجاهلية والإسلام، معدود من الفقهاء والشعراء والفرسان والأمراء والأشراف والنحويين، من أصحاب عليّ رضي الله عنه، وهو أوّل من وضع النحو، ونقّط المصحف، سكن البصرة في خلافة عمر رضي الله عنه، وولي إمارتها في أيام عليّ رضي الله عنه، وشهد معه صفين، له شعر جيّد مطبوع، توفي سنة (٦٧هـ) على الأصح. انظر: معرقة الثقات (١/٤٨٤)؛ الإصابة في تمييز الصحابة (٣/٥٦١)؛ معجم الأدباء (٣/٤٣٦).

فوضع النحو^(١) (٢).

فَمَنْ جَهِلَ أَصُولَ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَقَوَاعِدَهَا، وَلَمْ يَمَيِّزِ الْفَاعِلَ مِنَ الْمَفْعُولِ
مِثْلًا، وَنَجَوْ ذَلِكَ مِمَّا يَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ فَهَمَّ سِيَاقُ الْآيَاتِ - مَنْ جَهِلَ ذَلِكَ كُلَّهُ - كَيْفَ
يَفْهَمُ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَنْتَ إِذْ وَاعِدَ رَبُّكَ بِكَلِمَتٍ فَأَتَمَّهُمْ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ
وَمِنْ دُرِّيِّقٍ قَالَ لَا يَبْتَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]. وَقَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى
اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]^(٣).

رابعاً: تَرْكُ التَّدْبِيرِ تَوْرَعاً:
مِنَ النَّاسِ مَنْ يَتْرَكُ تَدْبِيرَ الْقُرْآنِ خَوْفاً مِنَ الْقَوْلِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى بِغَيْرِ عِلْمٍ،
وَيَعْتَقِدُ أَنَّ تَدْبِيرَ الْقُرْآنِ مِهْمَةٌ الْمَفْسِّرِينَ وَالْعُلَمَاءِ، فَيَكْتَفِي بِالْقِرَاءَةِ هَاجِراً تَدْبِيرَ
الْقُرْآنِ، ظَانًّا أَنَّ هَذَا هُوَ الْوَرَعُ مَعَ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَا رَيْبَ أَنَّ هَذِهِ مَكِيدَةٌ مِنَ
مَكَايِدِ الشَّيْطَانِ حَتَّى يَصْرِفَ النَّاسَ عَنِ الْإِنْتِفَاعِ بِتَدْبِيرِ آيَاتِ الْقُرْآنِ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ
ابْنُ هُبَيْرَةَ^(٤) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مِنْ مَكَايِدِ الشَّيْطَانِ: تَنْفِيْهُ عِبَادَةَ اللَّهِ مِنْ تَدْبِيرِ الْقُرْآنِ؛ لَعَلَّمَهُ
أَنَّ الْهَدْيَ وَاقِعٌ عِنْدَ التَّدْبِيرِ، فَيَقُولُ: هَذِهِ مُخَاطَرَةٌ؛ حَتَّى يَقُولَ الْإِنْسَانُ: أَنَا لَا
أَتَكَلَّمُ فِي الْقُرْآنِ تَوْرَعاً»^(٥).

وَأَنْكَرَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى مَنْ هَذَا حَالُهُ بِقَوْلِهِ: «وَمَنْ قَالَ: إِنَّ لَهُ تَأْوِيلاً لَا

(١) المشهور: أَنَّ الَّذِي أَمَرَ أبا الأسود بِوَضْعِ النَّحْوِ هُوَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَلَعَلَّهُ: أَمَرَ قَبْلَ ذَلِكَ مِنْ
عَمْرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ. انظر: سبب وضع علم العربية، للسيوطي (ص ٣٠).

(٢) رَوَاهُ السِّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمَشْهُورِ» (٤/١٢٩)؛ وَأَوْرَدَهُ الْقُرْطُبِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (١/٢٤)؛
وَعَلَاءُ الدِّينِ الْمُتَّقِيُّ فِي «كَتَرِ الْعَمَالِ» (٢/١٤٣).

(٣) انظر: فتح الرحمن في بيان هجر القرآن (ص ١٥٨).

(٤) هُوَ أَبُو الْمُظَفَّرِ يَحْيَى بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ هُبَيْرَةَ، الدُّورِيُّ، الْبَغْدَادِيُّ، الْحَنْبَلِيُّ، الْمَشْهُورُ بِـ
(الوزير ابن هبيرة) أديب، نحوي، لغوي، مؤرخ، فقيه، مقرئ، ولد سنة (٤٩٩هـ). قَالَ
ابْنُ كَثِيرٍ: «صَنَّفَ كِتَاباً مَفِيدَةً... وَكَانَ عَلَى مَذْهَبِ السَّلَفِ فِي الْإِعْتِقَادِ... وَكَانَ مِنْ
خِيَارِ الْوُزَرَاءِ، وَأَحْسَنِهِمْ سِيرَةً، وَأَبْعَدِهِمْ عَنِ الظُّلْمِ». مِنْ مَصْنُفَاتِهِ: «الْإِفْصَاحُ عَنْ مَعَانِي
الصُّبْحِ» وَ«الْعِبَادَاتُ عَلَى مَذْهَبِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ»، وَ«تَلْخِصُ إِصْلَاحِ الْمُنَظَّقِ لِابْنِ
السُّكَيْتِ». تَوَفِّيَ مَسْهُوماً بِبَغْدَادٍ سَنَةَ (٥٦٠هـ)، وَعُمُرُهُ (٦١) سَنَةً، وَغَسَّلَهُ ابْنُ الْجَوْزِيِّ.
انظر: البداية والنهاية (١٢/٢٥٠)؛ سير أعلام النبلاء (١٢/٢٤٥).

(٥) ذيل طبقات الحنابلة (٣/٢٧٣).

نفهمه، ولا نعلمه، وإنما تتلوه متعبدين بألفاظه؛ ففي قلبه منه حرج^(١).

ويزيد الشاطبي^(٢) **كَلَّمَكَ الْأَمْرُ جَلَاءً** - بما لا يوجد في مكانٍ غيره - قائلاً: «فمن حيث كان القرآن مُعْجِزاً أَفْحَمَ الفصحاء، وأعجز البلغاء أن يأتوا بمثله؛ فذلك لا يُخْرِجُه عن كونه عربياً جارياً على أساليب كلام العرب، مُيسِّراً للفهم فيه عن الله ما أَمَرَ بِهِ ونهى، لكن بشرط الدُّرْبَةِ في اللُّسَانِ العربي... إذ لو خرج بالإعجاز عن إدراك العقول لمعانيه لكان خطائبهم به من تكليف ما لا يُطاق، وذلك مرفوع عن الأمة.

وهذا من جملة الوجوه الإعجازية فيه؛ إذ من العَجَبِ إيرادُ كلام من جنس كلام البشر في اللُّسَانِ والمعاني والأساليب، مفهوم معقول، ثم لا يقدر البشرُ على الإتيان بسورة مثله... وقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القمر: ١٧]...

وعلى أي وجهٍ فُرضَ إعجازه؛ فذلك غير مانع من الوصول إلى فهمه وتعقل معانيه، ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]، فهذا يستلزم إمكان الوصول إلى التدبر والتفهم^(٣).

وفند الشنقيطي **كَلَّمَكَ** قول متأخري الأصوليين، الذين قَصَرُوا مهمة تدبر القرآن على العلماء المجتهدين دون غيرهم، فقال: «قول متأخري الأصوليين: إن تدبر القرآن العظيم وتفهمه والعمل به لا يجوز إلا لمجتهد خاصة... قول لا مستند له من دليل شرعي أصلاً، بل الحق الذي لا شك فيه: أن كلَّ مَنْ له قدرة من المسلمين على التعلُّم والتفهم، وإدراك معاني الكتاب والسنة؛ يجب عليه تعلُّمهما، والعمل بما عَلِمَ منهما...»

(١) التبيان في أقسام القرآن (ص ١٤٤).

(٢) هو أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي، الغرناطي، الأصولي، الخافظ، المالكي، المحقق، المجتهد، المشهور بالشاطبي، له استنباطات جليلة، وفوائد لطيفة، مع الحرص على اتباع السنة، واجتناب البدعة، وله مصنفات نفيسة، منها: «الموافقات في أصول الفقه»، و«الاعتصام»، و«المقاصد الشافية في شرح خلاصة الكافية». توفي سنة (٧٩٠هـ).

انظر: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، لأحمد بابا الشبكتي (ص ٤٦ - ٥٠).

(٣) الموافقات (٣/ ٣٤٦ - ٣٤٧).

ومِمَّا يُوَضِّحُ ذَلِكَ: أَنَّ الْمُخَاطَبِينَ الْأَوَّلِينَ بِهِ، الَّذِينَ نَزَلَ فِيهِمْ، هُمُ الْمُنَافِقُونَ وَالْكَفَّارَ، وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْهُمْ مُسْتَكْمِلًا لَشُرُوطِ الاجْتِهَادِ الْمَقْرَّرَةِ... فَلَوْ كَانَ الْقُرْآنُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَنْتَفِعَ بِالْعَمَلِ بِهِ وَالْاهْتِدَاءِ بِهِدِيهِ إِلَّا الْمُجْتَهِدُونَ بِالْإِضْطِلَاحِ الْأَصُولِيِّ، لَمَّا وَبَّخَ اللَّهُ الْكَفَّارَ، وَأَنْكَرَ عَلَيْهِمْ عَدَمَ الْاهْتِدَاءِ بِهِدَاهِ، وَلَمَّا أَقَامَ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةَ بِهِ...

فَالْقَوْلُ: بِمَنْعِ الْعَمَلِ بِمَا عَلِمَ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ حَتَّى يُحْصَلَ رُتْبَةُ الْجَهْدِ الْمُطْلَقِ؛ هُوَ عَيْنُ السَّغْيِ فِي حِرْمَانِ جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْإِنْتِفَاعِ بِنُورِ الْقُرْآنِ... وَلِتَعْلَمَ: أَنَّ كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ رَسُولِهِ فِي هَذَا الزَّمَانِ أَيْسَرُ مِنْهُ بِكَثِيرٍ فِي الْقُرُونِ الْأُولَى؛ لسهولة معرفة جميع ما يتعلق بذلك... فكلُّ آيةٍ من كتابِ اللَّهِ قد عَلِمَ مَا جَاءَ فِيهَا مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ مِنَ الصَّحَابَةِ، وَالتَّابِعِينَ، وَكِبَارِ الْمُفَسِّرِينَ^(١).
وهناك فرق بين التَّدْبِيرِ، وبين تفسير مراد الله واستنباط الأحكام الشرعية - والتي هي مهمة العلماء الراسخين، وهناك درجات ومنازل من الفهم، والاعتبار، والتذكر، والادِّكَارِ، والانتِغَاطِ، ومحاسبة النَّفْسِ، لا يعذر أحدٌ في تركها^(٢).

خامساً: هجر كتب التفسير:

مَنْ هَجَرَ كِتَابَ التَّفْسِيرِ وَلَمْ يَطَالِعْهَا، وَلَمْ يَعْرِفْ أَسْبَابَ النُّزُولِ أَوْ النَّاسِخِ مِنَ الْمُنْسُوخِ، وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنْ عُلُومِ الْقُرْآنِ، كَيْفَ يَحْصُلُ لَهُ تَدْبِيرُ الْقُرْآنِ؟ وَمَتَى يَوْفُقُ إِلَى الْمَعْنَى الْمُرَادِ؟

وَلَا غَرْوَ أَنْ تَعْجَبَ الطَّبْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ مِمَّنْ أَرَادَ التَّلَذُّذَ بِقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، وَهُوَ لَا يَعْرِفُ تَفْسِيرَ الْآيَاتِ الْمُتَلَوَّةِ، فَقَالَ: «إِنِّي أَعْجَبُ مِمَّنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ وَلَمْ يَعْلَمْ تَأْوِيلَهُ، كَيْفَ يَلْتَذُّ بِقِرَاءَتِهِ»^(٣).

وَصَاحِبُ هَذَا الْمَنْهَجِ لَا يَسْلَمُ - غَالِبًا - مِنَ الْخَطَأِ فِي فَهْمِ الْآيَاتِ، وَالِاسْتِدْلَالِ بِهَا، أَوْ الْخَطَأِ فِي تَطْيِيقِ بَعْضِ الْآيَاتِ وَالْعَمَلِ بِهَا.

وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ: مَا وَرَدَ عَنْ أَسْلَمَ أَبِي عِمْرَانَ التَّجِيبِيِّ، قَالَ: كُنَّا

(٢) انظر: تدبر القرآن (ص ٥٦).

(١) أضواء البيان (٧/ ٢٥٨ - ٢٦٤).

(٣) معجم الأدباء (٥/ ٢٥٦).

بِمَدِينَةِ الرُّومِ، فَأَخْرَجُوا إِلَيْنَا صَفًّا عَظِيمًا مِنَ الرُّومِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِثْلُهُمْ أَوْ أَكْثَرُ؛ وَعَلَى أَهْلِ مِصْرَ عُقْبَةُ بْنُ غَامِرٍ، وَعَلَى الْجَمَاعَةِ فَصَالَةُ بْنُ عُيَيْدٍ، فَحَمَلَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى صَفِّ الرُّومِ، حَتَّى دَخَلَ فِيهِمْ، فَصَاحَ النَّاسُ، وَقَالُوا: سُبْحَانَ اللَّهِ! يُلْقِي بِيَدَيْهِ إِلَى التَّهْلُكَةِ؟! فَقَامَ أَبُو أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيُّ، فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّكُمْ تَتَأَوَّلُونَ هَذِهِ الْآيَةَ هَذَا التَّأْوِيلَ، وَإِنَّمَا أَنْزَلْتُ هَذِهِ الْآيَةَ فِينَا - مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، لَمَّا أَعَزَّ اللَّهُ الْإِسْلَامَ، وَكَثُرَ نَاصِرُوهُ؛ فَقَالَ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ سِرًّا دُونَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: إِنَّ أَمْوَالَنَا قَدْ ضَاعَتْ، وَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعَزَّ الْإِسْلَامَ، وَكَثُرَ نَاصِرُوهُ، فَلَوْ أَقْمَنَّا فِي أَمْوَالِنَا، فَأَضَلَّحْنَا مَا ضَاعَ مِنْهَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ - يَرُدُّ عَلَيْنَا مَا قُلْنَا:

﴿وَأَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، فَكَانَتِ التَّهْلُكَةُ الْإِقَامَةُ عَلَى الْأَمْوَالِ وَإِضْلَاحُهَا، وَتَرْكُنَا الْغَزْوَ.

فَمَا زَالَ أَبُو أَيُّوبَ شَاخِصًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، حَتَّى دُفِنَ بِأَرْضِ الرُّومِ^(١).
والشاهد من هذا الإيراد: أَنَّ بعض التابعين تأوَّل الآية على غير مراد الله تعالى - وهم من أفضل القرون، وأقرب إلى عصر التنزيل - فكيف بزماننا حيث صارت الألسن أقرب إلى الأعجمية منها إلى العربية؛ فما أحوجنا إلى الرجوع إلى كتب التفسير بالمأثور؛ ليحصل لنا فهم كلام الله ﷻ^(٢).

ساسياً: التشاغل بكثرة التلاوة:

لا ريب أَنَّ الآيات والأحاديث والآثار الواردة في فضائل التلاوة تُشجِّع

(١) رواه ابن حبان في «صحيحه» (٩/١١) (ح ٤٧١١)، والحاكم في «المستدرک» (٣٠٢/٢) (ح ٣٠٨٨)، وقال: «صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي. والترمذي - واللفظ له (٢٩١٢/٥) (ح ٢٩٧٢) وقال: «حسن صحيح غريب». وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (١٩٢/٣) (ح ٢٩٧٢)؛ وفي «السلسلة الصحيحة» (١٨/١) (ح ١٣).

(٢) للاستزادة في معرفة بعض الآيات التي يوهم ظاهرها التعارض: انظر: تفسير آيات أشكلت على كثير من العلماء، لابن تيمية؛ دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، للشنقيطي.

على الإكثار منها، ويعضد ذلك اقتصار كثير من المذكرين والوعاظ على الروايات المنقولة عن السلف في كثرة القراءة، وعدد الختمات في وقت وجيز، مع إعراضهم عن نقل نهى السلف عن سرعة القراءة، وإعراضهم كذلك عما ورد عن السلف في تعظيم شأن التدبر والحض عليه، وما أثر عنهم من تفاعلهم ووقوفهم عند معاني الآيات.

ففي الحث على التدبر آيات، وأحاديث، وأحوال للسلف، أكثر عدداً من مثيلاتها الدالة على فضل القراءة، بل أقوى حجّة وأعمق أثراً، لو تأملها الناس لما اقتصروا على التلاوة، ولما هجروا تدبر القرآن، قال النووي رحمته الله: «ينبغي للقارئ أن يكون شأنه الخشوع والتدبر والخضوع؛ فهذا هو المقصود المطلوب، وبه تنشرح الصدور، وتستنير القلوب، ودلائله أكثر من أن تُحصّر، وأشهر من أن تُذكر»^(١). فاستحباب كثرة التلاوة لا ينبغي أن يؤدي إلى ترك التدبر، ولذا جاء النهي عن قراءة القرآن في أقل من ثلاث؛ من أجل التدبر والتأثر والانتفاع بالآيات.

فكثرة التلاوة المؤدية إلى هجر التدبر حالة ليست بمحمودة بل هي من تلبس إبليس على القراء، وفي ذلك يقول ابن الجوزي رحمته الله: «وقد لبس على قوم بكثرة التلاوة، فهم يهذّون هذّاً، من غير ترتيل ولا تثبت، وهذه حالة ليست بمحمودة»^(٢).

وقال أيضاً: «وقد رأيت من يجمع الناس ويقيم شخصاً ويقراً في النهار الطويل ثلاث ختمات؛ فإن قصّر عيب، وإن أتم مدح، وتجتمع العوام لذلك ويحسنونه، ويربهم إبليس أن في كثرة التلاوة ثواباً، وهذا من تلبسه؛ لأن القراءة ينبغي أن تكون لله تعالى لا للتحسين بها، وينبغي أن تكون على تمهل، وقال رحمته الله: ﴿لِقَرَأَةٍ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكْرٍ﴾ [الإسراء: ١٠٦]، وقال: ﴿وَرَبِّ الْقُرْآنِ تَرْتِيلاً﴾ [المزمل: ٤]»^(٣).

(١) الأذكار (١/٨٧). وانظر: البيان في آداب حملة القرآن (ص ٤٢)؛ المجموع (٢/١٨٧).

(٢) تلبس إبليس (ص ١٧٥). (٣) المصلى نفسه (ص ١٣٨).

المبحث الثالث

الأمور المعينة على التدبر

الأمور المعينة على التدبُّر

تمهيد:

مَنْ أَقْبَلَ عَلَى الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَاسْتَشْعَرَ أَنَّهُ خَطَابٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى مُوجَّهٌ إِلَيْهِ، يَحْمِلُ فِي طَيَّاتِهِ مَفَاتِيحَ سَعَادَتِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَأَنَّهُ إِنْ تَدَبَّرَ الْقُرْآنَ وَاتَّبَعَهُ سَيَتَغَيَّرُ حَالُهُ إِلَى أَحْسَنِ الْأَحْوَالِ الْإِيمَانِيَّةِ لَا مُحَالَةَ، فَيُمَثِّلُ هَذَا الشَّخْصَ لَا يَحْتَاجُ إِلَى مَنْ يَدُلُّهُ عَلَى وَسَائِلِ تَعْيِينِهِ عَلَى الْإِنْتِفَاعِ بِالْقُرْآنِ؛ لِأَنَّهُ قَدْ أَصْبَحَ مَهَيَّأً لِلْمَضِيِّ نَحْوَ الصُّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ.

غَيْرَ أَنَّهُ مِنَ الصَّعْبِ عَلَيْنَا - فِي الْبَدَايَةِ - أَنْ نَكُونَ كَذَلِكَ؛ بِسَبَبِ مَا وَرَثْنَاهُ مِنْ أَنْمَاطِ التَّعَامُلِ الْخَاطِئِ مَعَ الْقُرْآنِ، مِمَّا جَعَلَ بَرَزْخاً بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْإِنْتِفَاعِ بِالْقُرْآنِ.

وَهُنَاكَ سَبِيلٌ لَتَدَبُّرِ الْقُرْآنِ يُحَصِّلُ بِهَا مَنْ أَرَادَ التَّدَبُّرَ مُبْتَغَاهُ، وَيَجْنِي بِهَا قَلْبُهُ لَطَائِفَ وَمَعَارِفَ وَأَحْوَالاً مَا كَانَ لِيَحْصَلَ عَلَيْهَا، بَلْ لَمْ تَخْطُرْ لَهُ عَلَى بَالٍ؛ وَبِدُونِ هَذِهِ السُّبُلِ - الْمُسَاعِدَةِ عَلَى التَّدَبُّرِ - سَيَتَعَثَّرُ دُونَ غَايَتِهِ، وَيَتَعَذَّرُ عَلَيْهِ مُبْتَغَاهُ، وَإِنْ أَدْرَكَ شَيْئاً فَإِنَّمَا هُوَ قَلِيلٌ، لَا يَشْفِي عِلِيلاً وَلَا يَرْوِي غَلِيلاً، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ الرَّزْكَشِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ عِلْمٌ، وَفَهْمٌ، وَتَقْوَى، وَتَدَبُّرٌ لَمْ يُدْرِكْ مِنْ لَذَّةِ الْقُرْآنِ شَيْئاً»^(١).

أَمَّا وَالْأَمْرُ كَذَلِكَ: فَإِنَّا - لَكِي نَصَلَ إِلَى شَيْءٍ مِنَ لَذَّةِ الْقُرْآنِ - نَحْتَاجُ مَعْرِفَةَ السُّبُلِ الْمُعِينَةِ عَلَى التَّدَبُّرِ، وَهِيَ تَنْطَلِقُ مِنْ قَاعِدَةٍ: «تَيْسِيرِ الْقُرْآنِ لِلذِّكْرِ»، فَمَا دَامَ الْقُرْآنُ مُيسِّراً لِلذِّكْرِ فَلَا بَدَّ أَنْ تَكُونَ وَسَائِلُ الْإِنْتِفَاعِ بِهِ مُيسِّرةً، وَلَكِنْ نَحْتَاجُ مَبْأَداً إِلَى جِدِّ وَاجْتِهَادٍ، وَبَذْلِ وَعِزْمٍ وَصَبْرٍ، وَهَذَا هُوَ الْفَرْقُ بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ

عوام الناس الذين حظهم من القرآن تلاوته، ولا علم لهم بتفسيره، الذي هو مفتاح التدبر^(١).

وما يأتي تفصيل لأهم سبل تدبر القرآن العظيم:

١ - تحسين التلاوة:

أمر الله تعالى بترتيل القرآن - الباعث على تدبره وتفهمه - في قوله: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤]. وحث رسول الله ﷺ على التغني بالقراءة وتحسينها، في قوله: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ»^(٢).

قال ابن كثير رحمه الله: «المطلوب شرعاً، إنما هو التحسين بالصوت، الباعث على تدبر القرآن وتفهمه، والخشوع والخضوع، والانقياد للطاعة»^(٣).

وبين القرطبي رحمه الله أن الترتيل طريق إلى التدبر، في قوله: «الترتيل أفضل من الهدء؛ إذ لا يصحح التدبر مع الهدء»^(٤).

«والإسراع في القراءة يدل على عدم الوقوف على المعاني... فظهر أن المقصود من الترتيل إنما هو حضور القلب، وكمال المعرفة»^(٥).

وكذا قال النووي رحمه الله: «قال العلماء: والترتيل مستحب للتدبر وغيره... لأن ذلك أقرب إلى التوقير والاحترام، وأشد تأثيراً في القلب»^(٦).

وأيد ذلك الشيوخي رحمه الله بقوله: «تسبب القراءة بالتدبر والتفهم، فهو المقصود الأعظم، والمطلوب الأهم»^(٧).

والسبب في كراهة جمهور أهل العلم القراءة بالألحان: «لخروجها عما جاء القرآن له من الخشوع والتفهم»^(٨).

والله تعالى تعبّد الناس بتدبر القرآن، كما تعبّدهم بالتلاوة، قال الله تعالى:

(١) انظر: العودة إلى القرآن (ص ١٦٧)؛ تدبر القرآن (ص ٩٧).

(٢) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب: «وَأَمَرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ أَجْمَرُوا بِهِ» [الملك: ١٣] (٤/٢٣٥١) (ج ٧٥٢٧).

(٣) فضائل القرآن (ص ١٩٥).

(٤) تفسير القرطبي (١٥/١٩٢).

(٥) التفسير الكبير (٣٠/١٥٣ - ١٥٤).

(٦) التبيان في آداب حملة القرآن (ص ٤٦).

(٧) الإتقان في علوم القرآن (١/٢٨٣).

(٨) صحيح مسلم بشرح النووي (٦/٨٠).

﴿كَتَبَ أَنْزَلَهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ لِنَدَّبَرُوا مَا يَنْفَعُهُمْ وَلِنُدَكِّرَ أُولَ الْأَنْبِيَاءِ﴾ [ص: ٢٩]. فبالمقصود الأعظم من إنزال القرآن، هو التدبُّر والتفكير في آياته، والعمل به؛ لا مجرد التلاوة مع الإعراض عنه^(١).

٢ - قراءة اللّيل:

مما يعين على تدبُّر القرآن، والتأمُّل في آياته ومواعظه وغيره، صلاة اللّيل والقراءة فيه، وفي ذلك يقول المولى تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ نَافِثَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ٦].

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: «وقوله: ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾: هُوَ أَجْدَرُ أَنْ يَفْقَهَ فِي الْقُرْآنِ»^(٢)؛ «لأنَّ قيام اللّيل أصوب قراءة، وأصحُّ قولاً من النهار؛ لسكوت الأصوات في اللّيل، فيتدبَّر في معاني القرآن»^(٣).

وذكر ابن عاشور رحمته الله الحكمة من اختصاص اللّيل بالقيام، فقال: «والمعنى: أنَّ صلاة اللّيل أوفق بالمصلي بين اللسان والقلب، أي بين النطق بالألفاظ، وتفهم معانيها، للهدوء الذي يحصل في اللّيل، وانقطاع الشواغل... وأعون على المزيد من التدبُّر»^(٤).

ومن أجل ذلك كان جبريل عليه السلام يدارس النبي صلى الله عليه وآله القرآن كلَّ ليلة من رمضان، قال ابن حجر رحمته الله - عن هذه المداينة المباركة: «المقصود من التلاوة الحضور والفهم؛ لأنَّ اللّيل مظنة ذلك، لما في النهار من الشواغل والعوارض الدنيوية والدنيوية»^(٥).

شواهد على فضل قراءة اللّيل:

من أوضح الشواهد الدالة على فضل قراءة القرآن باللّيل:

- (١) انظر: مفتاح دار السعادة (ص ٢١٥).
- (٢) رواه أبو داود (٣٢/٢) (ح ١٣٠٤)؛ والبيهقي في «الكبرى» (٢/٥٠٠) (ح ٤٤١٤)؛ وحسنه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٣٥٧/١) (ح ١٣٠٤).
- (٣) عون المعبود شرح سنن أبي داود (١٣٣/٤).
- (٤) التحرير والتنوير (٢٩/٢٤٥ - ٢٤٦).
- (٥) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٩/٤٥).

* وقوله ﷺ - عن شفاعته القرآن لصاحبه يوم القيامة: «... يَقُولُ الْقُرْآنُ: رَبِّ مَنْعَهُ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ، فَشَفِّعْنِي فِيهِ...»^(١)

أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالِاسْتِمَاعِ وَالْإِنْصَاتِ عِنْدَ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ؛ كَيْ يَنْتَفِعُوا بِهِ، وَيَتَذَكَّرُوا مَا فِيهِ مِنَ الْحِكْمِ وَالْمَصَالِحِ ^(٢)، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

والمعنى - كما قال الطبري رحمته الله: «أصغُوا سَمْعَكُمْ؛ لَتَهْمَمُوا آيَاتِهِ، وَتَعْتَبِرُوا بِمَوَاعِظِهِ، وَأَنْصِتُوا إِلَيْهِ؛ لَتَعْقِلُوهُ، وَتَتَذَكَّرُوهُ، وَلَا تَلْعَوُا فِيهِ فَلَا تَعْقِلُوهُ...؛ لِئَرْحَمَكُمُ رَبُّكُمْ بِاتِّعَازِكُمْ بِمَوَاعِظِهِ، وَاعْتِبَارِكُمْ بِعِبَرِهِ» ^(٣).

فالملازم للاستماع والإنصات - عند تلاوة القرآن - سينال «خيراً كثيراً،
وعلماً غزيراً، وإيماناً مستمراً متجدداً، وهدى متزايداً، وبصيرة في دينه»^(٤).

«وإنَّ العكوف على هذا القرآن - في وعي وتدبر، لا مجرد التلاوة والترنم - يُنشئ في القلب والعقل من الرؤية الواضحة البعيدة المدى؛ ومن المعرفة المطمئنة المستيقنة؛ ومن الحرارة والحيوية والانطلاق، ومن الإيجابية والعزم والتصميم؛ ما لا تُدانيه رياضة أخرى، أو معرفة، أو تجريب»^(٥).

٤ - حُسْنُ الْإِبْتِدَاءِ وَالْوَقْفُ:

مِمَّا يُعِينُ عَلَى تَدْبِيرِ الْقُرْآنِ وَالتَّفَكُّرِ فِي مَعَانِيهِ، مِرَاعَاةَ حَسَنِ الْإِبْتِدَاءِ وَالْوَقْفِ
عِنْدَ الثَّلَاوَةِ، وَهَنَاقَ بَعْضِ الْآيَاتِ لَهَا تَعَلُّقٌ بِمَا قَبْلُهَا أَوْ بَعْدَهَا، وَكَثِيرٌ مِنَ الْقُرَّاءِ

(١) رواه أحمد في «المسند» (١٧٤/٢) (ج ٦٦٢٦)؛ وابن المبارك في «مسنده» (٥٩/١) (ج ٩٦)؛ والحاكم في «المستدرک» (٧٤٠/١) (ج ٢٠٣٦)، وقال: «صحيح على شرط مسلم» ووافقه الذهبي؛ وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٢٠/٢) (ج ٣٨٨٢)؛ و«صحيح الترغيب» (٥٧٩/١) (ج ٩٨٤).

(٢) انظر: فتح القدير (٢/ ٢٨٠). (٣) تفسير الطبري (٦/ ٢٠١).

(٤) تفسير السعدي (١/٣١٤). (٥) في ظلال القرآن (٣/١٤٢٦).

لا يُراعون حسن الابتداء أو الوقف، ولا يتفكرون في ارتباط الكلام ببعضه ببعض، ولا يتأملون معاني الآيات، بل جلُّ عملهم هو التقيّد بالأعشار والأحزاب والأجزاء، ممّا يقوّت فهم كثير من الآيات على وجهها الصّحيح.

نماذج من الابتداء والوقف الممنوع:

فمن أمثلة الأجزاء: قوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ...﴾ [النساء: ٢٤]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا أُنزِلَتْ نَفْسٌ...﴾ [يوسف: ٥٣]. وقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ...﴾ [المنكسوت: ٢٤]. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ...﴾ [الأحزاب: ٣١]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا أُنزِلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ هَدِيمٍ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ...﴾ [يس: ٢٨]. وقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَرْدُ عِلْمُ السَّاعَةِ...﴾ [فصلت: ٤٧].

ومن أمثلة الأحزاب: قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي آيَاتِهِ مَقْدُودَةً...﴾ [البقرة: ٢٠٣]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ أُوْتِيَكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَُمْ...﴾ [آل عمران: ١٥].

قال الثّوري رحمه الله: «فكلُّ هذا وشبهه، ينبغي ألاّ يبدأ به ولا يُوقف عليه؛ فإنّه متعلّق بما قبله، ولا يغترنّ بكثرة الفاعلين له من القراء الذين لا يُراعون هذه الآداب، ولا يتفكرون في هذه المعاني...

ولهذا المعنى قالت العلماء: قراءة سورة قصيرة بكمالها أفضل من قراءة بعض سورة طويلة بقدر القصيرة، فإنّه قد يخفى الارتباط على بعض النّاس في بعض الأحوال»^(١).

٥ - فهم المعاني:

ذمّ الله تعالى من أعرض عن فهم كتابه فقال سبحانه: ﴿قَالَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨].

والجهل بمعاني القرآن يصرف عن تدبّره وتلذّذ القلب بقراءته، وفي ذلك يقول الطّبري رحمه الله: «إني لأعجب ممّن قرأ القرآن ولم يعلم تأويله، كيف يلتذّ بقراءته»^(٢).

(١) التبيان في آداب حملة القرآن (ص ١٥١ - ١٥٢). وانظر: تدبر القرآن (ص ٣١ - ٣٧).

(٢) معجم الأدباء (٥/ ٢٥٦). رحمه الله تعالى.

وقد تعجَّب القرطبي رحمته الله أيضاً - ممن قَصَدَ التدبر والعمل بالقرآن مع جهله بمعناه، قائلاً: «وينبغي له أن يتعلَّم أحكام القرآن، فيفهم عن الله مراده، وما فرض عليه، فيستفيع بما يقرأ، ويعمل بما يتلو، فكيف يعمل بما لا يفهم معناه؟! وما أقبح أن يُسأل عن فقه ما يتلو ولا يدره، فما مثلُ من هذا حاله إلا كمثل الحمار يحمل أسفارا»^(١)

وفي هذا السياق يقول ابن الجوزي رحمته الله: «كان الفقهاء في قديم الزمان هم أهل القرآن والحديث، فما زال الأمر يتناقص حتى قال المتأخرون: يكفينا أن نعرف آيات الأحكام من القرآن، وأن نعتِمِدَ على الكتب المشهورة في الحديث... ثم استهانوا بهذا الأمر أيضاً، وصار أحدهم يحتج بآية لا يعرف معناها؛... وإنما الفقه استخراج من الكتاب والسنة، فكيف يستخرج من شيء لا يعرفه؟!»^(٢)

والقرآن العظيم قد يُسرَّت معانيه كما يُسرَّت ألفاظه، قال السَّعدي رحمته الله - مُعلِّقاً على قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القمر: ١٧].

«ولقد يَسَّرنا وسهَّلنا هذا القرآن الكريم، ألفاظه للحفظ والأداء، ومعانيه للفهم والعلم؛ لأنه أحسنُّ الكلام لفظاً، وأصدقُه معنى، وأبينه تفسيراً. فكلُّ من أقبل عليه، يَسِّر الله عليه مطلوبه غاية التيسير، وسهَّله عليه...»

ولهذا كان عِلْمُ القرآن، حفظاً وتفسيراً، أسهل العلوم، وأجلُّها على الإطلاق. وهو العلم النَّافع، الذي إذا طلبه العبد، أُعِينَ عليه»^(٣).

وتعلُّم معاني القرآن أولى من تعلُّم حروفه، وفي هذا الشأن يقول ابن تيمية رحمته الله: «دخل في معنى قوله: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»^(٤) تعلُّم حروفه ومعانيه جميعاً؛ بل تعلُّم معانيه هو المقصود الأوَّل بتعليم حروفه، وذلك هو الذي يزيد الإيمان كما قال جُنْدُب بن عبد الله، وعبد الله ابن عمر وغيرهما:

(١) تفسير القرطبي (٢١/١).

(٢) تلييس إبليس (ص ١٤٥).

(٣) تفسير السَّعدي (١٣٩/٥).

(٤) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: خيركم من تعلَّم القرآن وعلمه (٣/١٦٢٠).

تعلّمنا الإيمان، ثمّ تعلّمنا القرآن، فازدّدنا به إيماناً^(١).
والفرق بين معرفة الألفاظ والمعاني، كالفرق بين الليل والنهار، وفي ذلك يقول إياس بن معاوية^(٢) رحمته الله: «مَثَلُ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ وَلَا يَعْرِفُونَ التَّفْسِيرَ: كَمَثَلِ قَوْمٍ جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ مَلِكِهِمْ لَيْلاً، وَلَيْسَ عَنْدهُمْ مُصْبِحٌ، فَتَدَاخَلَتْهُمْ رُوْعَةٌ لَا يَدْرُونَ مَا فِي الْكِتَابِ، وَمَثَلُ الَّذِي يَعْرِفُ التَّفْسِيرَ: كَمَثَلِ رَجُلٍ جَاءَهُمْ بِمُصْبِحٍ، فَقَرَأُوا مَا فِي الْكِتَابِ»^(٣).

وقد أحسن القائل: قاله رحمه الله تعالى **وَإِنْ الْعِلْمُ وَإِنْ جَلَّتْ مَخَاسِنُهَا**
هُوَ الْكِتَابُ الْعَزِيزُ، اللَّهُ يَحْفَظُهُ
وَأَتْلُ بِفَهْمٍ كِتَابَ اللَّهِ، فِيهِ أَتَتْ
فَتَأْجُهَا مَا بِهِ الْإِيمَانُ قَدْ وَجِبَا
وَبَعْدَ ذَلِكَ عِلْمٌ فَرَجَ الْكُرْبَا
كُلُّ الْعُلُومِ، تَذْبِرُهُ تَرِ الْعَجَبَا^(٤)

٦ - الوقوف عند المعاني:

والمقصود بذلك: أن يقف القارئ عند المعنى فلا يتجاوزه إلى غيره، متأملاً له، ومتفكراً فيه.

ومن أبلغ الشواهد وأوضحها: ما رواه حذيفة رضي الله عنه - حيث قال: «صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَافْتَتَحَ الْبَقْرَةَ... ثُمَّ افْتَتَحَ النِّسَاءَ فَقَرَأَهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ فَقَرَأَهَا. يَقْرَأُ مُتَرَسِّلاً، وَإِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ، وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بِتَعْمُودٍ تَعَمَّدَ. ثُمَّ رَكَعَ...»^(٥).

(١) مجموع الفتاوى (٤٠٣/١٣).

(٢) هو الثّابعي الجليل إياس بن معاوية بن قرّة بن إياس المزني (أبو وائلة) البصري، القاضي المشهور بالذكاء. قال ابن حجر: «ثقة، من الخامسة». ولجده صُحْبَةٌ، وقال ابن خلكان: «هو اللّسن البليغ، والألمعي المصيب، والمعدود مثلاً في الذكاء والفطنة، ورأساً لأهل الفصاحة والرّجاحة». توفي سنة (١٢٢هـ).

انظر: تقريب التهذيب (١١٧/١)؛ وفيّات الأعيان (٢٤٧/١).

(٣) تفسير ابن عطية (٤٠/١)؛ تفسير القرطبي (٢٦/١).

(٤) انظر: تفسير القرطبي (٤١/١).

(٥) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل (٥٣٦/١) (ح ٧٧٢).

وصفة الوقوف عند المعاني: «أن يشغل قلبه بالتفكير في معنى ما يلفظ به، فيعرف معنى كل آية، ويتأمل الأوامر والنواهي، ويعتقد قبول ذلك؛ فإن كان ممّا قصر عنه فيما مضى اعتذر واستغفر، وإذا مرّ بآية رحمة استبشر وسأل، أو عذاب أشفق وتعوّذ، أو تنزيه نزه وعظم، أو دعاء تضرّع وطلب»^(١).

وينبغي للتّالي: أن يستوضح من كل آية ما يليق بها، ويتفهّم ذلك، فإذا تلا قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١]، فليعلم عظمتها، ويتلمّح قدرته في كلّ ما يراه، وإذا تلا: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ﴾ [الواقعة: ٥٨]، فليتفكر في نطفة متشابهة الأجزاء، كيف تنقسم إلى لحم وعظم،... وإذا تلا أحوال المكذّبين، فليستشعر الخوف من السّطوة إن غفل عن امتثال الأمر...

وينبغي لتالي القرآن: أن يعلم أنّه المقصود بكتاب القرآن ووعيده، وأنّ القصص لم يُردّ بها السّمُر^(٢) بل العبر، فحينئذ يتلو تلاوة عبد، كاتبه سيّده بمقصود، وليتأمل الكتاب، ويعمل بمقتضاه^(٣).

٧ - ترديد الآية المؤثرة في القلب:

ممّا يُعين على تدبر القرآن والتّفكير في معانيه، ترديد الآية المؤثرة في القلب، وهذا التّرديد من أبرز صور الوقوف عند المعاني، ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة.

عن أبي ذر رضي الله عنه قال: «قَامَ النَّبِيُّ ﷺ بِآيَةٍ حَتَّى أَصْبَحَ يُرَدِّدُهَا، وَالْآيَةُ: ﴿إِنْ تَدْبِرْتُمْ فَإِنَّمَا عِبَادُكَ﴾ وَإِنْ تَقَرَّرَ لَهُمْ فَلَا يَكُ أَنتَ الْمَزِيدُ الْحَكِيمُ» [المائدة: ١١٨]^(٤).

قال ابن القيم رحمه الله: «فلو عَلِمَ النَّاسُ مَا فِي قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ بِالتَّدْبِيرِ، لاشتغلوا بها عن كلّ ما سواه، فإذا قرأه بتفكير حتّى إذا مرّ بآية - وهو محتاج إليها في شفاء

(١) الإتيان في علوم القرآن (٢٨٣/١). (٢) أي: الحديث والخبر.

(٣) مختصر منهاج القاصدين (ص ٥٦).

(٤) رواه ابن خزيمة في «صحيحه» (٢٧١/١) (ح ١٢٠)؛ والنسائي (١٧٧/٢) (ح ١٠١)؛ وابن ماجه (٤٢٩/١) (ح ١٣٥)؛ والحاكم في «المستدرک» (٣٦٧/١) (ح ٨٧٩) وقال: «صحيح، ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي. وحسنه الألباني في «صحيح سنن النسائي» (١/٣٣٠) (ح ١٠٠٩)؛ و«صحيح سنن ابن ماجه» (٤٠١/١) (ح ١١١٨).

قلبه - كرّرها ولو مائة مرّة، ولو ليلة، فقراءة آية بتفكير وتفهم، خير من قراءة ختمه بغير تدبّر وتفهم، وأنفع للقلب، وأدعى إلى حصول الإيمان، وذوق حلاوة القرآن^(١).

وقال ابن قدامة رحمته الله: «وإن لم يحصل التدبّر إلا بترداد الآية، فليردّها»^(٢).

وقال بشر بن السري^(٣) رحمته الله: «إنما الآية مثل الثمرة، كلما مضغتها استخرجت حلاوتها». فحدث به أبو سليمان، فقال: «صدق؛ إنما يؤتى أحدكم من أنه إذا ابتداء السورة أراد آخرها»^(٤).

نماذج من ترديد الآية:

وردت نقول كثيرة ومتنوعة عن السلف الصالح في ترديدهم لبعض الآيات، ومن أبرزها ما يلي:

* عن مسروق^(٥) رحمته الله: «أَنْ تَمِماً الدَّارِي رحمته الله رَدَّدَ هَذِهِ الْآيَةَ حَتَّى أَصْبَحَ: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَحْمَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الحجّة: ٢١]»^(٦).

(١) مفتاح دار السعادة (ص ١٨٧). (٢) مختصر منهاج القاصدين (ص ٥٦).

(٣) هو بشر بن السري (أبو عمرو) الأفيو، البصري، سكن مكة، وسُمّي بالأفيو؛ لأنه كان يتكلّم بالمواعظ، قال ابن حجر: «كان واعظاً، ثقة، متقناً، طعن فيه بواي جهنم، ثمّ اعتبر وتاب، من التاسعة». وقال أبو حاتم: «ثبت، صالح». أخرج له السنّة، توفي سنة (١٩٥هـ).

انظر: تقريب التهذيب (١/ ١٢٣)؛ ميزان الاعتدال في نقد الرجال (٢/ ٢٩٧).

(٤) البرهان في علوم القرآن (١/ ٤٧١).

(٥) هو مسروق بن الأجدع بن مالك الهمداني الوادعي (أبو عائشة) الكوفي، من كبار أئمّة التابعين وفقهائهم، ثقة عابد، أخرج له السنّة، توفي سنة (٦٣هـ).

انظر: تقريب التهذيب (٢/ ٢٤٢).

(٦) رواه الطبراني في «الكبير» (٢/ ٥٠) (رقم: ١٢٥١)؛ وابن المبارك في «الزهد» (ص ٣١) (رقم: ٩٤)؛ والسيوطي في «الدر المنثور» (٧/ ٤٢٦). وانظر: مختصر قيام الليل (ص ١٥١)؛ التبيان في آداب حملة القرآن (ص ١١٠).

وكذا قام بها الربيع بن خثيم^(١) رحمه الله.

* عن عباد بن حمزة^(٣) رحمه الله قال: «دخلت على أسماء رضي الله عنها وهي تقرأ: ﴿فَسَبَّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ الْعَرْشُ ذَا الْعِلَّةِ﴾ [الطور: ٢٧]، فَوَقَّفتُ عليها، فجعلت تستعيد وتدعو، قال عباد: فذهبت إلى السوق فقضيت حاجتي، ثم رجعت، وهي فيها بعد، تستعيد وتدعو»^(٤).

* عن رجل - من أصحاب الحسن البصري رحمه الله قال: «بينما أنا ذات ليلة عند الحسن فقام من الليل يصلي، فلم يزل يردد هذه الآية، حتى أسحر: ﴿وَأَن تَسْجُدُوا لِلَّهِ لَا تُشْجُوهُ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، فلما أصبح، قلنا: يا أبا سعيد، لم تكن تجاوز هذه الآية سائر الليلة، قال: إن فيها معتبراً، ما ترفع طرفاً ولا ترد، إلا وقع على نعمة، وما لا نعلم من نعم الله أكثر»^(٥).

قال الثوري رحمه الله: «وقد بات جماعة من السلف، يتلو الواحد منهم الآية الواحدة، ليلة كاملة أو معظمها، يتدبرها عند القراءة»^(٦).

وقال ابن القيم رحمه الله: «وهذه كانت عادة السلف، يردد أحدهم الآية إلى الصباح»^(٧).

(١) هو الربيع بن خثيم بن عائد بن عبد الله الثوري التميمي (أبو يزيد) الكوفي، من كبار التابعين وزهادهم، قال ابن حجر: «ثقة، عابد، مخضرم، من الثانية». من خيار أصحاب ابن مسعود رضي الله عنه، توفي سنة (٨٦٣هـ).

انظر: تقريب التهذيب (٢٠٦/١)؛ معرفة الثقات (٣٥١/١).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٢٢٤/٢) (رقم ٨٣٧١) (١٤٥/٧) (رقم ٣٤٨٤٧).

(٣) هو عباد بن حمزة بن عبد الله بن الزبير بن العوام الأسدي، القرشي، المدني أخو عبد الملك، قال ابن حجر: «ثقة، من الثالثة». روى عن جدته أبيته أسماء، وأختها عائشة، انتهى الصديق رحمه الله. انظر: تقريب التهذيب (٢٨٩/١)؛ التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، للسخاوي (١١/٢).

(٤) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٢٥/٢) (رقم ٦٠٣٧). وانظر: مختصر قيام الليل (ص ١٤٩)؛ الثيان في آداب حملة القرآن (ص ١١١).

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في «التهجد وقيام الليل» (١٥٩/١) (رقم ٥٣). وانظر: مختصر قيام الليل (ص ١٥١).

(٦) الأذكار (ص ٨٧). وانظر: المجموع (١٨٧/٢)؛ الثيان في آداب حملة القرآن (ص ١٠٨).

(٧) مفتاح دار السعادة (ص ١٨٧).

٨ - معرفة أساليب القرآن:

مَنْ لَمْ يَعْرِفْ أُسَالِيْبَ الْقُرْآنِ، سَيَجِدُ نَفْسَهُ غَرِيْباً عَنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ، وَتَرَائِيْبَ جَمَلِهِ، وَسَيَعَانِي لِفَهْمِهَا مَا يَعَانِي، وَمَعْرِفَةُ هَذِهِ الْأُسَالِيْبِ مِمَّا يَعِينُ عَلَى تَدْبُرِ الْقُرْآنِ، وَهِيَ كَثِيرَةٌ وَمَتْنَوَعَةٌ، مِنْ أْبْرَزِهَا مَا يَلِي:

* خَتَمَ الْآيَاتِ بِأَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى؛ لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّ الْحُكْمَ الْمَذْكُورَ لَهُ تَعَلُّقٌ بِذَلِكَ الْأِسْمِ الْكَرِيمِ^(١).

* وَمِنْ أُسَالِيْبِ الْقُرْآنِ: احْتَوَاؤُهُ عَلَى أَحْسَنِ طُرُقِ التَّعْلِيمِ، وَإِيصَالِ الْمَعَانِي إِلَى الْقُلُوبِ بِأَيْسَرِ طَرِيقٍ وَأَوْضَحِ، وَمِنْ أْبْرَزِ أَنْوَاعِ تَعْلِيمِهِ الْعَالِي: ضَرْبُ الْأَمْثَالِ، فَتَوْضُّحِ الْمَعَانِي النَّافِعَةِ، وَتُمَثُّلِ الْأُمُورِ الْمَحْسُوسَةِ؛ كَأَنَّهَا تُرَى رَأْيَ الْعَيْنِ، وَهَذَا مِنْ عَنَايَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَلُطْفِهِ بِعِبَادِهِ^(٢).

وَقَدْ ذَكَرَ الزَّرْكَشِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ اثْنَيْنِ وَأَرْبَعِينَ أُسْلُوباً مِنْ أُسَالِيْبِ الْقُرْآنِ؛ مِنْهَا: التَّوَكِيدُ، وَالْحَذْفُ، وَالتَّقْدِيمُ، وَالِاسْتِطْرَادُ، وَالِالْتِفَافُ، وَالتَّضْمِينُ، وَالتَّعْبِيرُ عَنِ الْمُسْتَقْبَلِ بِلَفْظِ الْمَاضِي وَعَكْسِهِ، وَالتَّوَسُّعُ، وَالْإِعْرَاضُ، وَالتَّوَرُّيَّةُ، وَالتَّطْبَاقُ^(٣)....

* وَمِنْ أُسَالِيْبِ الْقُرْآنِ: الْوَصْفُ الْحَيُّ بِالصُّورَةِ الْمَحْسُوسَةِ، وَالْحَرَكَةُ الْمُتَجَدِّدَةُ النَّابِضَةُ بِالْحَقِيقَةِ، فَإِذَا الْوَادِثُ وَالْقِصَصُ وَالْمَنَاطِرُ شَاخِصَةٌ حَاضِرَةٌ، فَإِذَا انْضَمَّ إِلَيْهَا الْحَوَارِ اسْتَوَتْ لِلْقَارِئِ عُنَاصِرُ التَّأْوِيْرِ فَيَنْسَى أَنَّ هَذَا كَلَامٌ يَتْلَى، أَوْ مِثْلُ يُضْرَبُ، فَيَتَفَاعَلُ مَعَ الْوَادِثِ، لَا مَعَ حِكَايَةِ الْوَادِثِ، وَهَذِهِ سِمَةُ الْقُرْآنِ، وَهِيَ مَعْجَزَةٌ مِنْ مَعْجَزَاتِهِ^(٤).

* وَمِنْ أُسَالِيْبِ الْقُرْآنِ: الْحَذْفُ. وَقَدْ ذَكَرَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ أَمْثَلَهُ عَلَى ذَلِكَ، فَقَالَ: «وَهُوَ - سَبْحَانَهُ - يَذْكُرُ جَوَابَ الْقَسَمِ تَارَةً، وَهُوَ الْغَالِبُ، وَتَارَةً يَحْذِفُهُ، كَمَا يَحْذِفُ جَوَابَ (لَوْ) كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ [التَّكْوِيْن: ٥]،

(١) انظر: القواعد الحسان لتفسير القرآن (ص ٥١).

(٢) انظر: المصدر نفسه (ص ٦٥).

(٣) انظر: البرهان في علوم القرآن (٢/ ٣٩٧) وما بعدها.

(٤) انظر: التصوير الفني في القرآن، لسيد قطب (ص ٣٦، ٢٤١).

وقوله: ﴿وَلَوْ أَن قُرْءَانَا شِئِرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ﴾ [الرعد: ٣١]، ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ﴾ [الأنفال: ٥٠]، ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَعُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٣٠]، ومثل هذا حذفه من أحسن الكلام؛ لأنَّ المراد: أَنَّكَ لو رأيت ذلك لرأيتَ هولاً عظيماً... وهذه عادة النَّاس في كلامهم إذا رأوا أموراً عجيبة، وأرادوا أن يخبروا بها الغائب عنها، يقول أحدهم: لو رأيتَ ما جرى يوم كذا^(١).

* ومن أساليب القرآن: الالتفات، وهو - كما قال الزركشي رحمه الله: «نقل الكلام من أسلوب إلى أسلوب آخر تطريةً واستنداراً للسماع، وتجديداً لنشاطه، وصيانةً لخاطره من الملل والضجر بدوام الأسلوب الواحد على سماعه»^(٢).

والالفتات له أنواع كثيرة، ومنها:

الالفتات من المتكلم إلى الخطاب، كقوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ ﴿لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ﴾ [الفتح: ١ - ٢]، ولم يقل: لنغفر لك.

من المتكلم إلى الغيبة، كقوله: ﴿إِنَّا أَنْطَقْنَاكَ الْكُوثَرَ﴾ ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ [الكوثر: ١ - ٢]، ولم يقل: فصل لنا.

من الخطاب إلى المتكلم، كقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا نَكُرُّوهُ﴾ [يونس: ٢١].

من الخطاب إلى الغيبة، كقوله: ﴿حَقٌّ إِذَا كُنْتُ فِي الْفَلَاحِ وَجَرِينَ بِهِمْ﴾ [يونس: ٢٢]، ولم يقل: وجرين بكم.

من الغيبة إلى المتكلم، كقوله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا﴾ [مريم: ٨٨ - ٨٩].

من الغيبة إلى الخطاب، كقوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ أَسْوَدَتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ﴾ [آل عمران: ١٠٦]^(٣).

* ومن أساليب القرآن في الحث:

١ - التذكير بالآمر وعظمته.

(١) التبيان في أقسام القرآن (ص ٣ - ٤). (٢) البرهان في علوم القرآن (٣/ ٣١٤).

(٣) انظر: المصدر نفسه (٣/ ٣١٥ - ٣٢٤).

٢ - التشويق للأجر وكثرته، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَجْرَىٰ نُجُومِكُمْ مِّنْ عِلَاقِ الْإِلَهِ﴾ [الصف: ١٠].

٣ - التذكير بمنزلة المأمور وحاجته إلى ربه.

٤ - التهيج، قال ابن كثير رحمته - في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَذَلِكِ﴾ [غافر: ٥٥]. «هذا تهيج للأمة على الاستغفار»^(١).

٥ - الاعتبار بحياة الأنبياء وأعيان الصالحين.

* ومن أساليب القرآن في النهي: التبغض للفعل، أو التهكم بأصحابه أو السخرية منهم، أو ذكر عاقبة من فعله في الدنيا، أو وصف خسارته في الآخرة، أو عطفه على ما هو أشنع منه، وما هو مكروه عند النفوس، أو الاعتبار بالأمم الظالمة وأعيان المعاندين.

قال القرطبي رحمته - عند تفسير قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ خُمِلُوا الصَّالَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أُنْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥]. «وفي هذا تنبيه من الله تعالى لمن حمل الكتاب أن يتعلم معانيه، ويتعلم ما فيه؛ لئلا يلحقه من الذم ما لحق هؤلاء»^(٢).

* ومن الأساليب المشتركة في الحث والنهي: التشبيه، والكناية، والتضمن، والمقارنة، والقصاص، والتأكيد، والتخصيص، والتفصيل والإجمال، والتقديم والتأخير، والالتفات، والتلميح، وضرب الأمثال، وبيان الحكمة، وختم الآية بما يناسبها من أسماء الله وصفاته، وختم السور بما يناسبها^(٣).

* ومن أساليب القرآن: اختلاف مساق إيراد القصص، يقول الشاطبي رحمته عن ذلك: «وبالجملة: فحيث ذكر قصص الأنبياء - عليهم السلام - كنوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى وهارون؛ فإنما ذلك تسلية لمحمد - عليه الصلاة والسلام - وتشيت فؤاده؛ لما كان يلقي من عناد الكفار وتكذيبهم له، على أنواع مختلفة، فتذكر القصة على النحو الذي يقع له مثله، وبذلك اختلف مساق القصة

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٨/٩٤).

(١) تفسير ابن كثير (٤/٨٥).

(٣) انظر: البرهان في علوم القرآن (٣/٢٨٤) وما بعدها. متاهل العرفان في علوم القرآن

(ص ٢٧٧ - ٣٠٢).

الواحدة بحسب اختلاف الأحوال^(١).

ما يعين على التدبر إجمالاً:

بالإضافة إلى ما تقدّم - وحتى لا يطول بنا الحديث - هناك أمور كثيرة تُعين المسلم على تدبر القرآن، تُجمل فيما يلي:

- ١ - النظرة الكلية الشاملة للقرآن.
- ٢ - النظرة التفصيلية في سياق الآية: تركيبها - معناها - نزولها - غريبها - دلالاتها.

٣ - الالتفات للأهداف الأساسية للقرآن.

٤ - تدارس القرآن: كما دارس رسول الله ﷺ جبريل عليه السلام؛ للإفادة منه، فهذه المدارس، أعظم ما يُعين المسلم على فهم القرآن وتدبره.

٥ - الثقة المطلقة بالنص القرآني، وإخضاع الواقع المخالف له.

٦ - ملاحظة البُعد الواقعي للآية؛ بحيث يجعل من الآية مُنطلقاً لعلاج حياته وواقعه، وميزاناً لمن حوله وما يحيط به.

٧ - معاشة معاني الآيات، وإحياءات النص، وظلاله ولطائفه.

٨ - ملاحظة الشخصية المستقلة للسورة.

٩ - التمكن من أساسيات علوم التفسير.

١٠ - تصوّر حال الدعوة عند نزول الآيات^(٢).

١١ - العودة المتجددة للآيات، وعدم الاقتصار على التدبر مرةً واحدة؛

فالمعاني تتجدد.

١٢ - الاستعانة بالمعارف والثقافات الحديثة.

١٣ - القراءة في الكتب المتخصصة في هذا الموضوع^(٣).

(١) الموافقات (٣/ ٨٥٩). وانظر: تدبر القرآن (ص ١٣٢ - ١٣٩).

(٢) انظر: تدبر القرآن (ص ١٠٠ - ١٠٣).

(٣) ومن أبرزها: البرهان في علوم القرآن. الإتيان في علوم القرآن. مناهل العرفان في علوم القرآن. القواعد الحسان لتفسير القرآن، للسعدي. قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله، =

وبعد: فما درجة أهميَّة تدبُّر القرآن في عقولنا؟ وما نسبة التدبُّر في واقعنا العملي فيما نقرؤه في المسجد قبل الصَّلوات؟ وهل نحن نربِّي أبنائنا وطلَّابنا على التدبُّر في حلق القرآن؟ أم أنَّ الأهمَّ الحفظ وكفى، بلا تدبُّر ولا فهم؛ لأنَّ التدبُّر يُؤخِّر الحفظ؟

ما مقدار التدبُّر في دروس العلوم الشرعية في المدارس، خاصَّة دروس التفسير؟ وهل يربِّي المعلِّم طلَّابه على التدبُّر، أم على حفظ معاني الكلمات فقط؟ تُرى: ما مرتبة دروس التفسير في حلق العلم في المساجد: هل هي في رأس القائمة، أم في آخرها - هذا إن وُجِدَتْ أصلاً؟

ما مدى اهتمامنا بالقراءة في كتب التفسير من بين ما نقرأ؟ ومتى نقتنع أنَّ فوائد التدبُّر وأجره أعظم من التلاوة كهذا الشعر؟ أسئلة تبحث عن إجابة؛ فهل من مُجيب؟^(١)



= لعبد الرحمن حبنكة الميداني. دراسات قرآنية، لمحمد قطب. قواعد التفسير (رسالة دكتوراه)، د. خالد بن عثمان السبت. مفاتيح للتعامل مع القرآن، د. صلاح الخالدي.

(١) انظر: تدبُّر القرآن.. لماذا وكيف؟، إبراهيم بن عبد الرحمن التركي، مجلة البيان (عدد ١٤٤٠هـ) (شعبان ١٤٢٠هـ) (ص ٢٣).

المبحث الرابع

المبحث الرابع

ثمرات تدبر القرآن

ثمرات تدبر القرآن

تلاوة القرآن العظيم لها ثمار حسنة تعود على القارئ، في الدنيا والآخرة، لكن التدبر يضاعف هذه الثمار.

وهي ثمار عديدة لا يمكن حصرها في هذه العجالة، ومن أبرزها ما يلي:

١ - تعميق جذور الإيمان:

تدبر آيات القرآن الكريم يجعل المؤمن يزداد يقيناً بأنه من عند الله تعالى، إذ إنَّ المتدبر له، والمتأمل فيه، يستعرض القرآن العظيم من أوله إلى آخره، فلا يجد فيه أدنى اختلاف أو تناقض، فلا يجد آية تُعارض أخرى أو تنقضها، بل ولا يجد لفظة يمكن استبدالها بأخرى، وإنما يسير على نسق واحد من أوله إلى آخره، فيشعر المتأمل له أنَّ مصدره واحد، وأنه من لدن حكيم خبير، وأنه لو كان من عند غير الله لوجد فيه اختلافاً كثيراً، وتناقضاً كبيراً.

وهو ما أشار إليه السَّعدي رَحِمَهُ اللهُ بِقَوْلِهِ: «ومن فوائد التدبر لكتاب الله: أنه بذلك، يصل العبد إلى درجة اليقين، والعلم بأنه كلام الله؛ لأنه يراه، يُصدِّق بعضه بعضاً، ويُوافق بعضه بعضاً. فترى الحكَمَ والقِصَّةَ والأخبار، تُعاد في القرآن؛ في عدَّة مواضع، كلُّها متوافقة متصادقة، لا ينقض بعضها بعضاً. فبذلك يُعلم كمال القرآن، وأنه من عند مَنْ أحاط عِلْمُهُ بجميع الأمور»^(١).

وهذا اليقين يحقِّق الثَّبات على الإيمان، كما قال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ١٠٢]. وبذلك تتعمَّق جذور الإيمان في القلب، وتزداد رسوخاً.

والتدبر المُثمر يعمل أيضاً على تركيز الانتباه في الصَّلَاة وخارجها ممَّا يُبعد

وسوسة الشيطان التي تحول بين المؤمن وشعوره بالخشوع والخضوع لله تعالى، فيكون من المفلحين الخاشعين، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١ - ٢].

أما غير المؤمن فالتدبر يدفعه - إن كان منصفاً موقفاً - إلى الإيمان بالله، والاعتقاد بأن القرآن العظيم تنزيل من رب العالمين، فيخرج بذلك من دائرة الإلحاد والشك، إلى رحاب الإيمان واليقين، ومن ظلمات الضلالة والجهل، إلى نور الهداية والمعرفة.

والمُنْتَحِرُّ من قيود التقليد والعناد يزحزحه التدبر عن العقيدة الفاسدة؛ فيحقق لنفسه الخير والسعادة في الدنيا والآخرة.

والتدبر - في جميع الأحوال - يشفي الصدور من شكوك تعترى المرتابين، ويشفي النفوس من أمراض كثيرة ومتنوعة، كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]^(١).

٢ - معرفة الرب جلّ جلاله:

ومن أعظم ثمرات تدبر القرآن: أنه يُعرّف بالربّ تعالى، وعظيم سلطانه وقدرته، وعظيم تفضّله على المؤمنين^(٢).

وهذا ما أشار إليه السعدي رحمه الله عن فوائد التدبر: أنه «يُعرّف بالربّ المعبود، وما له من صفات الكمال؛ وما ينزه عنه من سمات النقص.

* ويُعرّف الطريق الموصلة إليه، وصفة أهلها، وما لهم عند القدوم عليه.

* ويُعرّف العدو، الذي هو العدو على الحقيقة؛ والطريق الموصلة إلى

العذاب؛ وصفة أهلها؛ وما لهم عند وجود أسباب العقاب.

* وكلّما ازداد العبد تأملاً فيه، ازداد علماً، وعملاً، وبصيرة»^(٣).

(١) انظر: دعوة إلى تدبر القرآن الكريم (ص ١٩٤).

(٢) انظر: أخلاق حملة القرآن (ص ١٨). (٣) تفسير السعدي (١/ ٣٧٦ - ٣٧٧).

٣ - تحقيق العبودية لله تعالى :

من ثمرات تدبر القرآن : أنه وسيلة لمغفرة ما يريد الله منّا ، وكيفية عبادته تبارك وتعالى ، ومعرفة ما أنزل الله إلينا ؛ لأن القرآن العظيم منهج حياة ، أنزله الله ﷻ ، وهو أساس التشريع الذي يجب على العباد أن يتدبروه ، ويلتزموا بأوامره ، ويجتنبوا نواهيه ؛ ليحققوا عبادة الله تعالى ^(١) .

وفي هذا الشأن يقول ابن القيم رحمه الله : « فلا تزال معانيه :

* تُنْهَضُ الْعِبْدَ إِلَى رَبِّهِ بِالْوَعْدِ الْجَمِيلِ ، وَتَحْذَرُهُ وَتَخَوْفُهُ بِوَعِيدِهِ مِنَ الْعَذَابِ الْوَلِيلِ .

* وَتَحُثُّهُ عَلَى التَّضَمُّرِ وَالتَّخَفُّفِ لِلِقَاءِ الْيَوْمِ الثَّقِيلِ .

* وَتَهْدِيهِ فِي ظُلَمِ الْأَرَاءِ وَالْمَذَاهِبِ إِلَى سَوَاءِ السَّبِيلِ .

* وَتُصَدِّدُهُ عَنْ اقْتِحَامِ طُرُقِ الْبَدْعِ وَالْأَضَالِيلِ .

* وَتُبَعِّثُهُ عَلَى الْإِزْدِيَادِ مِنَ النِّعَمِ بِشُكْرِ رَبِّهِ الْجَلِيلِ .

* وَتُبَصِّرُهُ بِحُدُودِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ ، وَتَوْقِفُهُ عَلَيْهَا لئَلَّا يَتَعَدَّاهَا فَيَقَعَ فِي الْعَنَاءِ الطَّوِيلِ .

* وَتُبَيِّنُ قَلْبَهُ عَنِ الرِّيْبِ وَالْمَيْلِ عَنِ الْحَقِّ وَالتَّحْوِيلِ .

* وَتُسَهِّلُ عَلَيْهِ الْأُمُورَ الصَّعَابَ وَالْعُقُوبَاتِ الشَّاقَّةَ غَايَةَ التَّسْهِيلِ .

* وَتُنَادِيهِ - كُلَّمَا فَتَرَتْ عَزَمَاتُهُ ، وَوَنَى فِي سِيرِهِ : تَقَدَّمَ الرِّكْبُ وَفَاتَكَ الدَّلِيلُ ، فَالْحَقَّ الْوَلَّحَاقَ وَالرَّحِيلَ الرَّحِيلَ ، وَتَحَذُّوْهُ وَتُسِيرُ أَمَامَهُ سِيرَ الدَّلِيلِ ، وَكُلَّمَا خَرَجَ عَلَيْهِ كَمِيْنٌ مِنْ كَمَاثِنِ الْعَدُوِّ ، أَوْ قَاطِعٌ مِنْ قُطَاعِ الطَّرِيقِ نَادَتْهُ : الْحَذَرُ الْحَذَرُ ! فَاعْظُمِ بِاللَّهِ ، وَاسْتَعِزْ بِهِ ، وَقُلْ : حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .

وفي تأمل القرآن وتدبره ، وتفهمه ، أضعاف أضعاف ما ذكرنا من الحكم والفوائد ، وبالجملة : فهو أعظم الكنوز ^(٢) .

(١) انظر : كيف تدبر القرآن ، لفواز أحمد زمرلي (ص ٨٣) .

(٢) مدارج السالكين (١/ ٤٥٢ - ٤٥٣) .

٤ - التدبّر غذاء وعلاج وسلاح:

ومن ثمرات تدبّر القرآن: أنّه غذاء للروح، وعلاج يشفي النفوس من عللها، ويكسبها المناحة القويّة - إذا أحسن المؤمن تدبّره، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].. وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً﴾ [فصلت: ٤٤].

فهذا التدبّر يُخرج المتدبّر من الحيرة والقلق النفسي؛ ليسكب فيه الشعور بالطمأنينة والاستقرار، كما يزرّحه من حال التّعاسة إلى السّعادة وراحة البال.

كما أنّ التدبّر سلاح يدفع الأخطار المحدقة بالفرد والمجتمع من الدّاخل والخارج، حيث يُستعمل في جهاد النّفس، ومقاومة المنافقين، وجهاد الكافرين على حدّ قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢].

وقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا جَاهِدُوا الْكَافِرَ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التّحريم: ٩].

فالله تبارك وتعالى أمر أن يُجاهد الكفّار بالقرآن جهاداً كبيراً، ويكون هذا الجهاد بحجج القرآن وأدلّته وبراهينه، وهو جهاد أنبيائه ورسله وخاصّته من عباده، الذين تدبّروا آيات الكتاب العزيز وجاهدوا بها أعداءه^(١).

وفي هذا الشّأن يقول الطّبري رحمه الله: «جاهدّهم بهذا القرآن جهاداً كبيراً، حتّى ينقادوا للإقرار بما فيه من فرائض الله، ويدينوا به، ويؤدّعوا للعمل بجميعه طوعاً وكرهاً»^(٢).

وأكد ذلك أبو السّعود رحمه الله بقوله: «فإنّ دعوة كلّ العالمين - على الوجه المذكور - جهاد كبير، لا يُقادر قدره كمّاً وكيفاً»^(٣).

ومفتاح هذا الجهاد الأكبر: هو تدبّر القرآن العظيم؛ لأنّ أعداء المسلمين لم يتسلّطوا ويحكموا عليهم القبضة إلّا عندما هجروا تدبّر القرآن، ولم يلتزموا بما جاء فيه^(٤).

(٢) تفسير الطبري (١١/٣٠٠).

(١) انظر: زاد المعاد (٣/٥٠).

(٣) تفسير أبي السّعود (٦/٢٢٥).

(٤) انظر: دعوة إلى تدبّر القرآن الكريم (ص ١٩٦).

٥ - التَّدْبُرُ فِيهِ تَرْبِيَةٌ لِلْعُقُولِ:

معرفة ما أنزل الله تعالى من أعظم ما يُربِّي العقول ويجعلها تفهم الحقائق النافعة فتتبعها، والضَّارَّة فتجتنبها؛ فلا تميل بها الأهواء والأغراض والخيالات والخرافات الضَّارَّة المفسدة للعقول.

وليس العقل هو الذكاء، وقوَّة الفطنة، والفصاحة اللفظية، وإنما العقل الصَّحيح هو أن يَعْقِلَ العبدُ - في قلبه - الحقائق النافعة، عقلاً يُحِيطُ بمعرفتها، ويميز بينها وبين ضدها، ويعرف الرَّاجِحَ من الأمور فيؤثره، والمرجوح أو الضَّارَّ فيتركه^(١).

قال السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «وُسَمِيَ العقلُ عقلاً؛ لأنَّه يعقل به ما ينفعه من الخير، وينعقل به عما يضرُّه... فَمَنْ أمر غيره بالخير ولم يفعل، أو نهاه عن الشر فلم يتركه، دلَّ على عدم عقله وجهله»^(٢).

والتَّدْبُرُ مفتاحُ كُلِّ خيرٍ: قال السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «فقد بُدِّرَ القرآنُ يُعَيِّنُ على فهم المراد من كلام الله تعالى، ويفسح أمام العقل آفاق العلم والمعرفة؛ فيكتسب قارئه معارف جديدة، ويُلِمُّ بالعلم النافع، وتزِيدُ حصيلته اللُّغوية فهماً وتعبيراً، ويتحدَّث ويكتب بطلاقة وبشكلٍ صحيح مؤثِّر على الآخرين».

قال السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللهُ - عند قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]. «وأنزله بهذا اللِّسان لِنَعْقِلَهُ وَنَفْهَمَهُ، وَأَمَرَنَا بِتَدْبِيرِهِ، وَالتَّفَكُّرِ فِيهِ، وَالاسْتِنْبَاطِ لِعُلُومِهِ؛ وما ذاك إِلَّا لِأَنَّ تَدْبِيرَهُ مفتاحُ كُلِّ خيرٍ، محصِّل للعلوم والأسرار»^(٣).

وقال رَحِمَهُ اللهُ: «فإنَّ في تدبُّر كتاب الله مفتاحاً للعلوم والمعارف، وبه يُستنتج كُلُّ خيرٍ، وتُستخرج منه جميع العلوم»^(٤).

(١) انظر: كيف تدبر القرآن (ص ٨٣).

(٢) تفسير السَّعْدِيُّ (١/٥٧).

(٣) المصدر نفسه (١/١٢)؛ «مقدمة تفسير السَّعْدِيُّ».

(٤) المصدر نفسه (١/٣٧٦).

والتدبُّر فيه صقلٌ للمواهب، وتنميةٌ للقدرات العقلية:

فتنمو فيه قوَّة الملاحظة، ومَلَكة التفكير، وترتفع قدرته على معالجة الأمور، ويصبح حكماً عاقلاً عند اختلاف الآراء والأفكار، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

ومن اعتاد تدبُّر القرآن تنمو عنده مَلَكة تأمل النصوص القولية والكتابية، لتصبح ملازمة له. فيختار العبارات المناسبة في أقواله وكتابته لتفهم دون التباس، أو احتمال تأويلات تُخرجها عن الغرض المقصود.

كما أنَّ تلك العادة الحميدة تدفعه إلى التدقيق بما يسمع أو يكتب من نصوص، فيمحصّ الأمر، ويتجنب ما يوقعه فريسةً لكيد الكائدين، ومكر الماكرين، وطمع الظَّامعين على الصَّعيد الفردي والدَّولي، في التَّحدُّث أو عند صياغة العقود الشَّخصية أو المعاهدات والاتِّفاقيات والقرارات^(١).

أما بعد: فهذه بعض ثمرات التدبُّر الرَّاكية، فأين نحن منها؟ فما تحصَّن عبد من الشَّيطان بمثل ما تحصَّن به مُتدبِّر القرآن، فهو أفضل الذِّكر، وبالذِّكر يخنس الشَّيطان ويهرب.

فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ فِي حَصْنٍ حَصِينٍ، وَدَرِعٍ مَتِينٍ، فَلَا غِنَى لَهُ عَنْ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ.

وَلَا غَرَوْ أَنْ يَتَسَاءَلَ ابْنُ الْقَيْمِ رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي صِيغَةِ اسْتِنكَارٍ وَتَوْبِيخٍ - عَنْ حَالِ مَنْ هَجَرَ تَدَبُّرَ نصوصِ الوحي، إِذْ يَقُولُ: «سُبْحَانَ اللَّهِ! مَاذَا حُرِّمَ الْمَعْرِضُونَ عَنْ نصوصِ الوحي، واقتباسِ العلم من مشكاته من كنوز الدُّخائر؟! وماذا فاتهم من حياة القلوب واستنارة البصائر؟! قنعوا بأقوال استنبطتها معاولُ الآراءِ فِكْراً، وتقطَّعوا أمرهم بينهم لأجلها زُبْراً، وأوحى بعضهم إلى بعضٍ زخرف القول غروراً؛ فاتَّخَذُوا لِأَجْلِ ذَلِكَ الْقُرْآنَ مَهْجُوراً.

دَرَسَتْ مَعَالِمُ الْقُرْآنِ فِي قُلُوبِهِمْ فَلَيْسُوا يَعْرِفُونَهَا، وَدَثَّرَتْ مَعَاهِدُهُ عَنْهُمْ

(١) انظر: دعوة إلى تدبُّر القرآن الكريم (ص ١٩٧).

فليسوا يعمرونها، ووقعت أُلُويَّتُهُ وأعلامُهُ من أيديهم فليسوا يرفعونها، وأُفْلَت كواكبُهُ النِّيرَةُ من آفاق نفوسهم، فلذلك لا يحيونها، وكسَفَتْ شمسُهُ عند اجتماع ظَلَمِ آرائهم وعُقْدِها، فليسوا يُبصِّرونها»^(١).



فليسوا يعمرونها، ووقعت أُلُويَّتُهُ وأعلامُهُ من أيديهم فليسوا يرفعونها، وأُفْلَت كواكبُهُ النِّيرَةُ من آفاق نفوسهم، فلذلك لا يحيونها، وكسَفَتْ شمسُهُ عند اجتماع ظَلَمِ آرائهم وعُقْدِها، فليسوا يُبصِّرونها»^(١).

فليسوا يعمرونها، ووقعت أُلُويَّتُهُ وأعلامُهُ من أيديهم فليسوا يرفعونها، وأُفْلَت كواكبُهُ النِّيرَةُ من آفاق نفوسهم، فلذلك لا يحيونها، وكسَفَتْ شمسُهُ عند اجتماع ظَلَمِ آرائهم وعُقْدِها، فليسوا يُبصِّرونها»^(١).

فليسوا يعمرونها، ووقعت أُلُويَّتُهُ وأعلامُهُ من أيديهم فليسوا يرفعونها، وأُفْلَت كواكبُهُ النِّيرَةُ من آفاق نفوسهم، فلذلك لا يحيونها، وكسَفَتْ شمسُهُ عند اجتماع ظَلَمِ آرائهم وعُقْدِها، فليسوا يُبصِّرونها»^(١).

فليسوا يعمرونها، ووقعت أُلُويَّتُهُ وأعلامُهُ من أيديهم فليسوا يرفعونها، وأُفْلَت كواكبُهُ النِّيرَةُ من آفاق نفوسهم، فلذلك لا يحيونها، وكسَفَتْ شمسُهُ عند اجتماع ظَلَمِ آرائهم وعُقْدِها، فليسوا يُبصِّرونها»^(١).

فليسوا يعمرونها، ووقعت أُلُويَّتُهُ وأعلامُهُ من أيديهم فليسوا يرفعونها، وأُفْلَت كواكبُهُ النِّيرَةُ من آفاق نفوسهم، فلذلك لا يحيونها، وكسَفَتْ شمسُهُ عند اجتماع ظَلَمِ آرائهم وعُقْدِها، فليسوا يُبصِّرونها»^(١).

فليسوا يعمرونها، ووقعت أُلُويَّتُهُ وأعلامُهُ من أيديهم فليسوا يرفعونها، وأُفْلَت كواكبُهُ النِّيرَةُ من آفاق نفوسهم، فلذلك لا يحيونها، وكسَفَتْ شمسُهُ عند اجتماع ظَلَمِ آرائهم وعُقْدِها، فليسوا يُبصِّرونها»^(١).

(١) مدارج السالكين (٥/١)؛ اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية (٤١/١).

الفصل الثامن

هجر العمل بالقرآن

وفيه خمسة مباحث:

المبحث الأول: وجوب العمل بالقرآن.

المبحث الثاني: فضائل العمل بالقرآن.

المبحث الثالث: النَّبِيُّ ﷺ يوصي بالعمل بالقرآن.

المبحث الرابع: الصَّحَابَةُ ﷺ يتواصلون بالعمل بالقرآن.

المبحث الخامس: نماذج من عمل الصَّحَابَةِ ﷺ بالقرآن.

المبحث الأول

وجوب العمل بالقرآن

أولاً: معنى العمل بالقرآن:

القرآن العظيم دستور المسلمين، ومنهاج حياتهم، به تستقيم حياة الفرد والمجتمع؛ ارتضاه الله ﷻ ليكون لهم، بل وللعالم أجمع منهج حياة، فقدّمه على الخلق بقوله: ﴿الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١ - ٤]. فَرَسَمَ لهم المنهج، وحدّد لهم الطريق حتى قبل خلقهم لتستقيم حياتهم؛ لذا فالغاية الأساس من نزوله العمل بما جاء فيه من الأوامر والنواهي، فهو ليس كتاباً للقراءة فحسب، بل جعله الله نوراً وهدى للناس؛ ليعملوا بما فيه، ويلتزموا حدوده، قال تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ [الأعراف: ٣]. فَمَنِ ابْتَغَى من القرآن غير ما أنزل لأجله فقد تنكّب سواء السبيل، وضلّ عن هدي رب العالمين.

والعمل بالقرآن يعني أن يتّخذ المسلم شرعة ومنهاجاً في حياته، فيأتمر بأوامره وينتهي عن نواهيه، ويحتكم إليه في كلّ شؤونه الخاصّة والعامة، فيصبح يرى كأنّه قرآنٌ يمشي على الأرض، وهذا ما أشارت إليه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عندما سُئِلَتْ عن خُلُقِ رسول الله ﷺ بقولها: كان خلقه القرآن، أي: بتطبيقه لآيات الله وأحكامه وآدابه وتجنّبه نواهيه.

ولأهميّة العمل بالقرآن نجد كثيراً من الآيات تربط بين الإيمان والعمل، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِذْنِهِمْ﴾ [يونس: ٩]. وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الغنكبوت: ٧].

والحق أن القرآن الكريم مليء بالآيات الدالة على أن الغرض الأساس من نزوله إنما هو العمل بما جاء فيه.

ولذلك لا يُوجز صاحب القرآن الأجر الكامل المستوفى، إلا بعد تطبيقه واقعاً معاشاً في الحياة، والاهتداء بهديه المبارك، والعمل به آناء الليل وأطراف النهار.

التحذير من التشبه باليهود:

إن من أعظم أسباب شقاء اليهود هو أنهم اكتفوا بقراءة التوراة وسماعها دون أن يتبع ذلك عمل فشبَّههم الله تعالى بالحمير. فقال: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥].

وفي ذلك يقول ابن القيم رحمته الله: «فَقَاسَ سبحانه مَنْ حَمَلَهُ كِتَابَهُ لِيُؤْمِنَ بِهِ وَيتَدَبَّرَهُ ويعمل به ويدعو إليه ثُمَّ خَالَفَ ذَلِكَ، وَلَمْ يَحْمِلْهُ إِلَّا عَلَى ظَهْرِ قَلْبٍ، فَقَرَأَتْهُ بِغَيْرِ تَدَبُّرٍ وَلَا تَفْهَمٍ، وَلَا اتِّبَاعٍ وَلَا تَحْكِيمٍ لَهُ وَعَمِلَ بِمَوْجِبِهِ، كَحِمَارٍ عَلَى ظَهْرِهِ زَامِلُهُ أَسْفَارٌ لَا يَدْرِي مَا فِيهَا، وَحَظَّهُ مِنْهَا حَمْلُهَا عَلَى ظَهْرِهِ لَيْسَ إِلَّا، فَحَظَّهُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ﷻ كَحَظِّ هَذَا الْحِمَارِ مِنَ الْكُتُبِ الَّتِي عَلَى ظَهْرِهِ، فَهَذَا الْمَثَلُ وَإِنْ كَانَ قَدْ ضُرِبَ لِلْيَهُودِ فَهُوَ مُتَنَاوِلٌ مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى لِمَنْ حَمَلَ الْقُرْآنَ فَتَرَكَ الْعَمَلَ بِهِ وَلَمْ يُؤَدِّ حَقَّهُ، وَلَمْ يَرَعِ حَقَّ رِعَايَتِهِ»^(١).

فهؤلاء اليهود حُمِّلُوا التَّوْرَةَ، أَي: عَلِمُوهَا وَكَلَّفُوا الْعَمَلَ بِهَا، ثُمَّ لَمْ يَعْمَلُوا بِهَا وَلَمْ يَنْتَفِعُوا بِمَا فِيهَا، كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ كِتَاباً يَتَعَبُ فِي حَمْلِهَا وَلَا يَنْتَفِعُ بِهَا»^(٢).

وسبب ذمهم: أنهم «اقتنعوا من العلم بأن يحملوا التَّوْرَةَ دون فهم، وهم يحسبون أن ادِّخَارَ أَسْفَارِ التَّوْرَةِ، وَانْتِقَالَهَا مِنْ بَيْتٍ إِلَى بَيْتٍ، كَافٍ فِي التَّبَجُّحِ بِهَا»^(٣).

(١) الأمثال. في القرآن الكريم (ص ٢٦ - ٢٧). (٢) انظر: روح المعاني (٢٨/٩٥)؛ تفسير البضاوي (٥/٣٣٨).

(٣) التحرير والتنوير (٢٨/١٩١).

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: كنّا مع النّبي صلى الله عليه وآله فشخص ببصره إلى السّماء، ثم قال:

«هذا أو أنّ يُختلس العلم من النّاس، حتّى لا يقدّروا منه على شيء».

فقال زياد بن ليبيد الأنصاري رضي الله عنه: كيف يُختلس منّا، وقد قرأنا القرآن؟ والله، لنقرأه، ولنقرئنه نساءنا وأبناءنا؟ قال: ثكلتك أمك ^(١) يا زياد، إنّ كنت لأعذك من فقهاء أهل المدينة؛ هذه التّوراة والإنجيل عند اليهود والنّصارى فماذا تُغني عنهم؟ ^(٢).

فرسول الله صلى الله عليه وآله يدعو الأمة إلى العمل بالقرآن بعد قراءته وفهمه، لا إلى الاقتصار على القراءة فحسب، فيفعلون كما فعل بنو إسرائيل، قال الله تعالى عنهم: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَتْلُمُونَ أَلْكِتَابَ إِلَّا أَمَايَ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: ٧٨].

وقال القرطبي رحمته الله: «والأماي: جمع أُمِّيَّة وهي التّلاوة» ^(٣).

ويُنَبِّهنا القرطبي رحمته الله إلى أهميّة العمل بالقرآن - بعد فهمه، فيقول: «وينبغي له أن يتعلّم أحكام القرآن، فيفهم عن الله مراده وما فرض عليه، فينتفع بما يقرأ، ويعمل بما يتلو، فما أقبح لحامل القرآن أن يتلو فرائضه وأحكامه عن ظهر قلب، وهو لا يفهم ما يتلو، فكيف يعمل بما لا يفهم معناه؟ وما أقبح أن يُسأل عن فقه ما يتلوه ولا يدرية، فما مثل من هذه حالته إلا كمثل الحمار يحمل أسفارا» ^(٤).

وغالب المسلمين اليوم لا يعلمون من القرآن إلا تلاوته!

وقد حذر النّبي صلى الله عليه وآله أصحابه رضي الله عنهم من أفعال طائفة تأتي من بعدهم يقرؤون القرآن، غير أنّ القراءة لا تتعدّى حناجرهم، وتبقى في حيز الأصوات بلا عمل،

(١) أي: فقدتك، وأصله الدّعاء بالموت، ثم يُستعمل في التّعجب.

انظر: تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي (٤٤٩/٧).

(٢) رواه الترمذي (٣١/٥) (٢٦٥٣)؛ وصحّحه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٣٣٧/٢) (ح) (٢١٣٦).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٦/٢). (٤) المصدر نفسه (٢١/٨).

فقال: «يُخْرَجُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ - وَلَمْ يَقُلْ مِنْهَا - قَوْمٌ تَحْقِرُونَ صَلَاتَكُمْ مَعَ صَلَاتِهِمْ، يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ خُلُوقَهُمْ، أَوْ حَتَّاجِرُهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ مَرْوَقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ»^(١).

ثانياً: وجوب العمل بالقرآن:

يترتب على كون القرآن العظيم كلام الله تعالى وجوب العمل بما ورد فيه، وما دلَّ عليه من أحكام، وحرمة العدول عنه إلى غيره.

وَمَنْ اعْتَقَدَ جَوَازَ مُخَالَفَةِ الْقُرْآنِ فِيمَا دَلَّ عَلَيْهِ مِنْ أَحْكَامٍ فَقَدْ كَفَرَ؛ لِأَنَّهُ أَجَازَ مُخَالَفَةَ اللَّهِ ﷻ، وَإِجَازَةُ مُخَالَفَتِهِ سَبْحَانَهُ رِدَّةٌ وَاضِحَةٌ؛ لِأَنَّهَا تَعْنِي أَنْ يُرَدَّ عَلَى اللَّهِ كَلَامُهُ^(٢).

يقول ابن حزم رحمته الله: «وَلَمَّا تَبَيَّنَ بِالْبَرَاهِينِ وَالْمُعْجَزَاتِ أَنَّ الْقُرْآنَ هُوَ عَهْدُ اللَّهِ إِلَيْنَا، وَالَّذِي أَلْزَمَنَا الْإِقْرَارَ بِهِ، وَالْعَمَلَ بِمَا فِيهِ... وَجِبَ الْإِنْقِيَادُ لِمَا فِيهِ، فَكَانَ هُوَ الْأَصْلُ الْمَرْجُوعُ إِلَيْهِ...»

ولا خلاف بين أحد من الفرق المنتمية إلى المسلمين من أهل السنة، والمعتزلة، والخوارج، والمرجئة، والزيدية، في وجوب الأخذ بما في القرآن^(٣).

ويقول أيضاً: «فَالْكَلُّ مَأْمُورُونَ بِاتِّبَاعِ قِرَائِهِ... فَمَنْ أَجَازَ خِلَافَ ذَلِكَ فَقَدْ أَجَازَ خِلَافَ اللَّهِ تَعَالَى، وَهُوَ رِدَّةٌ صَحِيحَةٌ لَا مِرْيَةَ فِيهَا»^(٤).

هجر العمل بالقرآن له حالان:

وينبغي أن يُفَرَّقَ: بين مَنْ يُخَالَفُ أَحْكَامَ الْقُرْآنِ، وَهُوَ لَا يَعْتَقِدُ أَنَّ غَيْرَهَا خَيْرٌ مِنْهَا، وَلَا يَقْرَأُ بِجَوَازٍ مُخَالَفَتَهَا، وَبَيْنَ مَنْ يُخَالَفُ أَحْكَامَ الْقُرْآنِ، مِنْ مُنْطَلَقٍ عَدَمِ صَلَاحِيَّتِهَا، وَأَنَّهُ يَجُوزُ الْعُدُولُ عَنْهَا إِلَى غَيْرِهَا.

(١) رواه البخاري، كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب: قتل الخوارج والملحد بعد إقامة الحجة عليهم (٤/٢١٦٤) (ج ٦٩٣١).

(٢) انظر: أصول الفقه الإسلامي، د. وهبة الزحيلي (١/٤٢٢، ٤٣١).

(٣) الإحكام في أصول الأحكام (١/٩٢). (٤) المصدر نفسه (٤/٥٥٢).

فالأول: هاصي، وليس كافراً؛ لأنه لا يعتقد جواز مخالفة الله ﷻ في أحكامه، ولا أن غيرها خير منها، مع أنه مقصّر في عدم الالتزام بها. والثاني: كافر مرتد؛ لأنه يعتقد أن أحكام الله لا يجب العمل بها وتطبيقها، لعدم صلاحيتها، وأن غيرها خير منها^(١).

ثالثاً: الأدلة على وجوب العمل بالقرآن:

وردت آيات عدة في كتاب الله تعالى توجب العمل به، ومنها ما يأتي:

١ - قوله تعالى: ﴿اتَّبِعْ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٠٦]. فقد أمر الله تعالى رسوله ﷺ وأمرته من بعده أن يقتدي بكتاب الله تعالى، ويقضي أثره، ويعمل به؛ لأنه حق لا مرية فيه من واحد أحد^(٢).

وأمره تعالى كذلك ألا يشغل قلبه وخاطره بهؤلاء المشركين المعاندين، وليشتغل بعبادة الله تعالى واتباع ما أوحى إليه^(٣).

قال ابن عاشور رحمه الله: «والاتباع في الأصل اقتفاء أثر الماشي، ثم استعمل في العمل بمثل عمل الغير، كما في قوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ يَفْسُقُوا﴾ [التوبة: ١٠٠]. ثم استعمل في امتثال الأمر، والعمل بما يأمر به المتبوع، فهو الالتزام، ... فيجوز أن يكون الاتباع في الآية مراداً به دوام الامتثال لما أمر به القرآن»^(٤).

ولا ريب أن النبي ﷺ قد اتبع ما أوحى إليه من ربه خير اتباع، وأولى القرآن العظيم كل عناية وتقدير، ودعا الناس كافة إلى الله تعالى، وشملت دعوته المباركة جميع الأوقات والأزمان، وكافة الظروف والأحوال، فجزاه الله تعالى خير ما جرى به جميع الأنبياء عن أمهم.

(١) انظر: فيض الرحمن في الأحكام الفقهية الخاصة بالقرآن (ص ٣٧).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ١٦٤)؛ تفسير البغوي (٢/ ١٢٠)؛ تفسير السمرقندي (١/ ٤٩٢).

(٣) انظر: تفسير القرطبي (٧/ ٦٠)؛ فتح القدير (٢/ ١٥٠).

(٤) التحرير والتنوير (٦/ ٢٥٨ - ٢٥٩).

٢ - قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٩].

وفي هذه الآية الكريمة أمر الله تعالى نبيه محمداً ﷺ باتباع الوحي والتّزليل، فإن أصابه مكروه بسبب هذا الاتباع، فليصبر عليه إلى أن ﴿يَحْكُمَ اللَّهُ﴾ فيه بالحق ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾^(١).

والمعنى: تَمَسَّكْ بما أنزله الله إليك، واثبت على العمل بمقتضاه، واصبر على مخالفة الناس لك، حتى يفتح الله بينك وبينهم بحُكمه، وعدله، ورحمته، وهو خير الفاتحين^(٢).

قال السُّعدي رحمه الله - في تفسير الآية: ﴿وَاتَّبِعْ﴾ أيها الرسول ﴿مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ علماً، وعملاً، وحالاً، ودعوةً إليه. ﴿وَاصْبِرْ﴾ على ذلك، فإن هذا أعلى أنواع الصبر، وأن عاقبته حميدة، فلا تكسل، ولا تضجر، بل دُم على ذلك، واثبت. ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ﴾ بينك وبين من كذّبك ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ فإن حُكمه، مشتمل على العدل الثام، والقسط الذي يُحمد عليه. وقد امثل ﷺ أمر ربه، وثبت على الصراط المستقيم، حتى أظهر الله دينه على سائر الأديان، ونصره على أعدائه بالسيف والسنان، بعدما نصره الله عليهم بالحجة والبرهان^(٣).

٣ - قوله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣].

أمر الله تعالى الناس جميعاً أن يتبعوا ما أنزل إليهم من ربهم، وهو كتاب الله تعالى فيحلوا حلاله، ويحرّموا حرامه، ويمثلوا أمره، ويجتنبوا نهيه، ولا يخرجوا عما جاءهم به الرسول ﷺ إلى غيره، فيكونوا قد عللوا عن حُكم الله ﷻ إلى حُكم غيره. ودلت هذه الآية الكريمة: على ترك اتباع الآراء، مع وجود النص، من كتاب أو سنة^(٤).

قال السُّعدي رحمه الله - في تفسير الآية: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ أي: الكتاب

(١) انظر: التفسير الكبير (١٧/١٤٠ - ١٤١).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٢/٤٣٦). (٣) تفسير السُّعدي (٢/٣٨٤ - ٣٨٥).

(٤) انظر: تفسير القرطبي (٧/١٦١)، تفسير ابن كثير (٣/٤٣٠).

الذي أريد إنزاله لأجلكم، وهو: ﴿مِنْ رَّبِّكُمْ﴾ الذي يريد أن يُتِمَّ تربيته لكم،
فأنزل عليكم هذا الكتاب الذي إن اتبعتموه، كملت تربيتكم، وثمَّت عليكم
النعمة، وهُدِيتُمْ لأحسن الأعمال والأخلاق، ومعاليها.
﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: تتولَّوْهُمْ، وتتَّبِعُون أهواءهم، وتتركون
لأجلها الحق.

﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ فلو تذكَّرتُمْ وعرفتُم المصلحة، لما آثرتُم الضَّارَّ على
النَّافع، والعدوَّ على الولي^(١).

٤ - قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ
يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الزمر: ٥٥].

ولا ريب أنَّ القرآن العظيم أحسنُ ما أنزل إلينا من ربِّنا تبارك وتعالى، فله
الحمد والمِنَّة، والسَّنة مَبِينة له ومُوضَّحة، لكنَّ هذه النعمة الجليلة تستوجب الشُّكر
العملي لا الشُّكر اللفظي، فقد هُدِّدَ مَنْ لم يتَّبع أحسنَ ما أنزل إلينا من ربِّنا بقوله
تعالى: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾^(٢).

قال ابن عطية رحمته الله: «معناه أنَّ القرآن العزيز تضمَّن عقائد نيرة، وأوامر
ونواهي مُنجية، وعِداتٍ على الطَّاعات والبرِّ، وحدوداً على المعاصي، ووَعيداً
على بعضها، فالأحسنُ أن يسلك الإنسان طريق التَّفهُُّم والتَّحْصِيل، وطريق
الطَّاعة، والانتهاء والعفو في الأمور، ونحو ذلك، فهو أحسنُ مِنْ أن يسلك طريق
الغفلة والمعصية، فيجد أو يقع في الوعيد»^(٣).

فالمقصود إذاً من إنزال القرآن العظيم: العملُ بمقتضاه، لا تلاوته باللسان
وترتيله فقط، ثمَّ نَبَّهْهُ بعد ذلك، كما فَعَلَ ذلك فريقٌ مِنْ عُصاةِ أهل الكتاب،
فَذَمَّهُم الله تعالى على فعلهم الشَّنيع، وشَهَّرَ بهم، فقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ
رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ بَدَّ قَرِيبٌ مِنَ الَّذِينَ أَوْثُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ
وَرَأَوْا ظُهُورَهُمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠١].

(١) المصدر السابق (٢/٩٥ - ٩٦). (٢) انظر: أضواء البيان (٧/٣٠٠ - ٣٠١).

(٣) تفسير ابن عطية (٤/٥٣٧).

أي: اَطْرَحَ طائفةٌ منهم كِتَابَ الله الذي بأيديهم، ممَّا فيه البشارة بمحمد ﷺ وراء ظهورهم، وتركوا العمل به.

وأَصْلُ النَّبَذِ: الطَّرْحُ والإلقاء، ومنه سُمِّيَ اللَّقِيطُ مَنبُذًا، ومنه سُمِّيَ النَّبِذُ، وهو التَّمْرُ والزَّيْبُ إذا طُرِحَا في الماء^(١).

فالله تعالى أَمَرَنَا بِاتِّبَاعِ كتابه والعملِ بمقتضاه، لَكِنَّا - ويا للأسف - تركناه كما تركت اليهود والنصارى - إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللهُ تعالى.

فبقيت أشخاص المصاحف لا يُبَالِي بما فيها من كلام الله تعالى وأوامره العظيمة؛ لغلبة جهلنا، ولطلب الرِّياسات، ولاتِّبَاعِ الأهواء، ولا حول ولا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ^(٢).

والماتَمَلُّ في الآيات السَّابِقَةِ، يلحظ أمرين مهمَّين:

١ - الآيتان الأولى والثانية جاءتا بلفظ: ﴿أَتَّبِعْ﴾ وهو أمرٌ من الله تعالى لِنَبِيِّهِ الْكَرِيمِ ﷺ بِاتِّبَاعِ مَا أَوْحَى إِلَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَالْأَمْرُ لَهُ أَمْرٌ لِأَمْنَتِهِ مِنْ بَعْدِهِ، وَلَا مُخَصَّصٌ لِلآيَتَيْنِ.

٢ - الآيتان الثالثة والرابعة جاءتا بلفظ: ﴿وَأَتَّبِعُوا﴾ وهو أمرٌ مباشرٌ من الله تعالى إلى النَّاسِ جَمِيعاً بِالْأَتِّبَاعِ، وَتَرْكُ إِظْهَارِ الْوَاسِطَةِ فِي الْأَمْرِ - وهو الرَّسُولُ ﷺ - لِتَقْوَمَ عَلَى النَّاسِ الْحُجَّةُ، فَلَا يَأْتِي مِتْفَلِسَفٌ وَمِتَأَوَّلٌ لِيَقُولَ: إِنَّ الْأَمْرَ لِلرَّسُولِ ﷺ لَيْسَ أَمْرًا لِأَمْنَتِهِ، فَهَكَذَا قَطَعَ عَلَيْهِمُ الطَّرِيقَ، وَالْأَمْرُ يَقْتَضِي الْوَجُوبَ، كَمَا هُوَ الْمَعْلُومُ مِنْ لُغَةِ الْعَرَبِ، وَلَا صَارَفَ لَهُ.

فهذا يدلُّ دلالة واضحة على وجوب اتِّبَاعِ كِتَابِ اللهِ تعالى، والعمل بمقتضاه.



(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/٢٩٦ - ٢٩٧).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (١/٤٣٧).

المبحث الثاني

فضائل العمل بالقرآن

أعظم جزاء ينتظر العامل بالقرآن العظيم هو الجنة. والجنة درجات، كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا﴾ [الأنعام: ٤١٣٢].

«أي: ولكل عامل في طاعة الله أو معصيته منازل ومراتب من عمله، يُلْقِيهِ اللَّهُ إِلَيْهَا، ويُنِيبُهُ بِهَا، إِنَّ خَيْرًا فَخِيرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ»^(١).

وقد جاء عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ - أَرَأَاهُ قَالَ: وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ»^(٢).

وقد وعد الله تعالى مَنْ عَمِلَ بِالْقُرْآنِ الْعَظِيمِ أَنْ يُحْيِيَهُ حَيَاةً طَيِّبَةً فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنفَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

«فأخبر سبحانه عن فلاح مَنْ تَمَسَّكَ بِعَهْدِهِ عِلْمًا وَعَمَلًا فِي الْعَاجِلَةِ بِالْحَيَاةِ الطَّيِّبَةِ، وَفِي الْآخِرَةِ بِأَحْسَنِ الْجَزَاءِ، وَهَذَا بَعَكْسٌ مِّنْ لَهُ الْمَعِيشَةُ الضَّنَكُ فِي الدُّنْيَا وَالْبَرْزَخِ، وَنَسِيَانِهِ فِي الْعَذَابِ بِالْآخِرَةِ»^(٣).

ولا بدَّ لِكُلِّ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا أَنْ يُحْيِيَهُ اللَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً بِحَسَبِ إِيْمَانِهِ وَعَمَلِهِ، وَلَكِنْ يَغْلُطُ أَكْثَرُ النَّاسِ فِي مَسْمَى الْحَيَاةِ حَيْثُ يَظُنُّونَهَا التَّنْعَمَ فِي أَنْوَاعِ الْمَأْكَلِ

(١) تفسير ابن كثير (٣/٢٨٣).

(٢) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب: درجات المجاهدين في سبيل الله (٢/٨٦٤) (ح ٢٧٩٠).

(٣) مفتاح دار السعادة (ص ٤٤).

والمشارب والملابس والمناكب، أو لذة الرئاسة والملاحة والتفنن بأنواع الشهوات.

ولا ريب أن هذه لذة مشتركة بين الإنسان وبين البهائم، بل قد يكون حظ كثير من البهائم منها أكثر من حظ الإنسان، فأين هذه اللذة من اللذة بأمر إذا خالط بشاشته القلوب سلى عن الأبناء والنساء والأوطان والأموال والإخوان والمساكن، ورَضِيَ بتركها كلها والخروج منها رأساً، وعَرَضَ نفسه لأنواع المكاره والمشاق، وهو منشرح الصدر، حتى أن أحدهم ليتلقى الرُمح ب صدره ويقول: فُزْتُ ورب الكعبة، ويستطيل الآخر حياته حتى يُلقى قوته من يده، ويقول: إنها لحياة طويلة إن صبرتُ حتى آكلها ثم يتقدم إلى الموت فرحاً مسروراً، ويقول الآخر - مع فقره: لو عَلِمَ الملوك وأبناء الملوك ما نحن عليه لجالدونا عليه بالسيف، ويقول الآخر: إنه ليمرُّ بالقلب أوقات ليرقص فيها طرباً، وربما قال بعضهم: إنه لتمرُّ بي أوقات أقول فيها إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب^(١).

وفضائل العمل بالقرآن العظيم كثيرة ومتنوعة، بعضها في الدنيا، وبعضها في الآخرة، ومنها ما يأتي:

١ - الهداية في الدنيا والآخرة:

قال الله تعالى: ﴿فَبَيَّرَ عَبْدًا ۖ﴾ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿[الزمر: ١٧ - ١٨].

فهذا أمرٌ تكريم من الله ﷻ لنبيه الكريم محمد ﷺ أن يُبَشِّرَ الذين يستمعون القرآن، ثم يقودهم هذا الاستماع، إلى العمل به وتطبيقه.

وفي معنى قوله: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ قولان:

الأول: يستمعون القول على العموم، فيتبعون القرآن؛ لأنه أحسن الكلام.

الثاني: أن ﴿الْقَوْلَ﴾ هو القرآن. أي: يستمعون القرآن، فيتبعون بأعمالهم أحسنه من العفو، والصَّفْح، واحتمال الأذى، الذي هو أحسن من الانتصار،

(١) انظر: المصدر نفسه (ص ٣٥ - ٣٦).

ونحو ذلك^(١). كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْقِبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِمْ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُمْ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦].

ومعنى قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾: أي: الْمُتَصِفُونَ بهذه الصِّفَةِ الجَلِيلَةِ - وهي العمل بكتاب الله - هم الذين هداهم الله تعالى للدين الحق، ومحاسن الأمور، فهداهم لأحسن الأخلاق والأعمال، وَضَمِنَ لَهُم أَلَّا يَضِلُّوا فِي الدُّنْيَا، وَلَا يَشْقُوا فِي الْآخِرَةِ بِسُوءِ الْحِسَابِ.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ضَمِنَ اللَّهُ تَعَالَى لِمَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ وَعَمِلَ بِمَا فِيهِ أَلَّا يَضِلَّ فِي الدُّنْيَا، وَلَا يَشْقَى فِي الْآخِرَةِ». ثُمَّ تَلَا قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا فَلَا يَقْبَلُوا هَدًى مِنْ هُدًى فَمَنْ أَتَّبَعَ هُدًى فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: ١٢٣]^(٢).

وقال أيضاً: «مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ وَاتَّبَعَ مَا فِيهِ، هَدَاهُ اللَّهُ مِنَ الضَّلَالَةِ، وَوَقَاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ سُوءَ الْحِسَابِ». ثُمَّ تَلَا آيَةَ نَفْسِهَا^(٣).

ومعنى قوله: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾:

«أي: هم أصحاب العقول السليمة عن معارضة الوهم، ومنازعة الهوى، المستحقون للهداية لا غيرهم، وفيه دلالة على أَنَّ الهداية تحصل بِفِعْلِ اللَّهِ تَعَالَى، وَقَبُولِ النَّفْسِ»^(٤).

فالذي لَا يُمَيِّزُ بَيْنَ الْأَقْوَالِ حَسَنِهَا وَقَبِيحِهَا لَيْسَ مِنْ أَهْلِ الْعُقُولِ السَّالِمَةِ، وَالَّذِي يُمَيِّزُ لَكِنْ شَهْوَتُهُ تَغْلِبُهُ أَحْيَانًا، فَيَبْقَى عَقْلُهُ تَابِعًا لَشَهْوَتِهِ، كَانَ نَاقِصَ الْعَقْلِ.

فهؤلاء أهل العقول الزاكية، والفطر المستقيمة من لُبِّهِمْ وَحَزْمِهِمْ عَرَفُوا الْحَسَنَ وَغَيْرَهُ، فَاتَّزَوْا، وَتَرَكُوا مَا سِوَاهُ، فَهَذِهِ عَلَامَةُ الْعَقْلِ الصَّحِيحِ، نَسَأَلَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْهُمْ^(٥).

(١) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل (١٩٣/٣).

(٢) انظر: تفسير ابن عطية (٥٣٥/٤).

(٣) انظر: تفسير القرطبي (٢٧٥/١١)، تفسير ابن كثير (٤٩/٤).

(٤) تفسير أبي السعود (٢٤٨/٧). (٥) انظر: تفسير السعدي (٣١٦/٤).

٢ - الرَّحْمَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ:

قال تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُفَصَّلٌ وَأَتَمُّوهُ وَأَتَقُوا لَكُمْ تَرْحُمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥].

هذه الآية الكريمة تدلُّ دلالة واضحة على أَنَّ أَقْصَرَ سَبِيلٍ وَأَوْضَحَهُ لِنَبْلِ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى، هُوَ اتِّبَاعُ هَذَا الْكِتَابِ الْعَظِيمِ، عِلْماً وَعَمَلًا. ومعنى الآية: إِنَّ ﴿هَذَا﴾ الذي تُلِيتَ عليكم أوامره ونواهيه ﴿كِتَابٌ﴾ عظيم الشأن، لَا يَقَادَرُ قَدْرُهُ، ﴿أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾؛ لكثرة منافع الدُّنْيَا والدُّنْيَاوِيَّةِ. والفاء في قوله تعالى: ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها، فإنَّ عظمة هذا الكتاب، وكونه مُنْزَلاً من الله جَلَّ جَلَالُهُ، وفيه ما فيه من المنافع الدُّنْيَاوِيَّةِ والدُّنْيَاوِيَّةِ، هذا كُلُّهُ موجب لاتباعه، والعمل به^(١).

قال ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ: «وافتح الجملة باسم الإشارة، وبناء الفعل عليه، وجعل الكتاب الذي حَقُّهُ أَنْ يَكُونَ مَفْعُولَ ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ مبتدأ، كُلُّ ذَلِكَ لاهتمام بالكتاب والثبوت به...»

وتَفَرِّعُ الْأَمْرُ بِاتِّبَاعِهِ عَلَى كَوْنِهِ مُنْزَلاً مِنْ اللَّهِ، وَكَوْنِهِ مُبَارَكاً، ظَاهِرٌ: لِأَنَّ مَا كَانَ كَذَلِكَ لَا يَتَرَدَّدُ أَحَدٌ فِي اتِّبَاعِهِ... ومعنى: ﴿اتَّقُوا﴾ كُونُوا مُتَّصِفِينَ بِالتَّقْوَى. وَهِيَ الْأَخْذُ بِدِينِ الْحَقِّ وَالْعَمَلُ بِهِ.

وفي قوله: ﴿لَكُمْ تَرْحُمُونَ﴾ وَهَذَا عَلَى اتِّبَاعِهِ، وَتَعْرِيفُ بِالْوَعِيدِ بِعَذَابِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِنْ لَمْ يَتَّبِعُوهُ^(٢).

فهذا ترغيب من الله تعالى لعباده، أَنْ يَتَّبِعُوا هَذَا الْكِتَابَ الْمُبَارَكَ، وَيَعْمَلُوا بِهِ؛ رَجَاءً أَنْ تَنَالَهُمْ رَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

٣ - الْفَلَاحُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ:

قال الله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

(١) انظر: تفسير أبي السعود (٣/٢٠١). (٢) التحرير والتنوير (٧/١٣٣).

فقد شبّه الله تعالى القرآن بالنور الذي يكشف ظلمات الجهل، ويظهر في ضوئه الحق، ويتميّز عن الباطل، ويتميّز به بين الهدى والضلال، والحسن والقيبح. وشبّه حال المقتدي بهدي القرآن، بحال الساري في الليل؛ إذا رأى نوراً يلوح له أتبعه، لعلّهُ البقيني أنّه يجد عنده منجاةً من المخاوف وأضرار السير.

فيجب على كلّ مسلم أن يستضيء بنور القرآن العظيم، فيعتقد عقائده، ويحلّ حلاله، ويحرّم حرامه، ويمتثل أوامر، ويجتنب ما نهى عنه، ويعتبر بقصصه وأمثاله، ولا ينبغي للمسلم بعد هذا كلّ أن تعمى بصيرته عن هذا النور العظيم^(١). فمن استجاب لهذا النور، وأتبعه، وعمل بما فيه، فهو المفلح الفائز بالمطلوب في الدنيا والآخرة، الطاهر بخيرهما، والنّاجي من شرهما، نسأل الله تعالى أن يجعلنا من المفلحين.

٤ - تكفير السيئات وإصلاح البال:

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ [محمد: ٢].
﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ «أي: آمنت قلوبهم وسرائرهم، وانقادت لشرع الله جوارحهم، وبواطنهم، وظواهرهم»^(٢).
﴿وَأَمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾ هذا من عطف الخاص على العام. قال سفيان الثوري رحمه الله: «يعني لم يخالفوه في شيء»^(٣). ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ «يريد أن إيمانهم هو الحق من ربهم، وقيل: أي أن القرآن هو الحق من ربهم، نسخ به ما قبله»^(٤).
وثمره هذا الإيمان الصحيح، وهذا الاتباع الكامل للقرآن، والعمل به، أمران عظيمان:

أولهما: تكفير السيئات:

﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ «صغارها وكبارها، وإذا كثرت عنهم سيئاتهم نجوا من

(١) انظر: أضواء البيان (٨٠/٧)؛ التحرير والتنوير (٣١٩/٨).

(٢) تفسير ابن كثير (١٧٣/٤). (٣) تفسير البغوي (١٧٧/٤).

(٤) تفسير القرطبي (٢٢٤/١٦).

عذاب الدنيا والآخرة^(١). «وقيل: سَتَرَ بإيمانهم وَعَمَلِهِم الصَّالِح ما كان من الكفر والمعاصي؛ لرجوعهم عنها وتوبتهم»^(٢).

ثانيهما: إصلاح البال:

«وَأَصْلَحَ بِالْمَنْ» أي: «أصلح شأنهم وحالهم في الدنيا عند أوليائه، وفي الآخرة أن أورثهم نعيم الأبد، والخلود الدائم في جنّاته»^(٣).

وقيل: «أصلح دينهم، ودنياهم، وقلوبهم، وأعمالهم، وأصلح ثوابهم بتنميته وتركيبته، وأصلح جميع أحوالهم»^(٤).

ولا ريب أن إصلاح البال نعمة كبرى، ومِنَّة عظمى، تلي نعمة الإيمان في القدر والقيمة والأثر. وفي ذلك اطمئنان لهم، وراحة كبيرة، وثقة بالله تعالى في ثوابهم العاجل والآجل.

ومتى صَلَحَ البال، استقام السلوك والعمل، واطمأن القلب، وتنزلت عليه السكينة، ورضيت النفس، واستتمت بالأمن والإيمان، وماذا بعد هذا من نعمة أو متاع^(٥).

والسبب المباشر لهذا الجزاء المبارك أنهم: «اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ» [محمد: ٣]. أي: أنهم عملوا بهذا القرآن العظيم الصادر «مِنْ رَبِّهِمْ» الذي رِيَّاهُمْ بنعمته، ودبّرهم بلطفه، فربّاهم تعالى بالحقّ فاتبعوه، فعند ذلك صلحت أمورهم. فلما كانت الغاية المقصودة لهم متعلّقة بالحقّ المنسوب إلى الله الباقي الحقّ المبين، كانت الوسيلة صالحةً باقيةً ثوابها^(٦).

فهذه هي بعض فضائل العمل بالقرآن العظيم، وحُسن الجزاء في الدنيا والآخرة، نسأل الله تعالى أن يرزقنا حُسن العمل بكتابهِ، وحُسن الجزاء على ذلك، إنه سميع مجيب.

(١) تفسير السعدي (١/٧٨٤). (٢) الكشف (٤/٣١٩).

(٣) تفسير الطبري (٢٦/٣٩). (٤) تفسير السعدي (١/٧٨٤).

(٥) انظر: في ظلال القرآن (٦/٣٢٨).

(٦) انظر: المصدر السابق، والصفحة نفسها.

المبحث الثالث

النبي ﷺ يوصي بالعمل بالقرآن

إِنَّ خَيْرَ مَنْ عَمِلَ بكتاب الله تعالى، وَطَبَّقَهُ فِي ظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ، وَأَصْبَحَ خُلُقاً لَهُ هُوَ نَبِيُّنَا وَقُدُوتُنَا مُحَمَّدٌ ﷺ، الَّذِي أَتَى اللَّهُ تَعَالَى عَلَى خُلُقِهِ وَنَعْتِهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ لَعَلَّ خُلُقٍ عَظِيمٌ﴾ [القلم: ٤].

وقد بَيَّنَّتْ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا هَذِهِ الْآيَةَ أَوْضَحَ بَيَانٍ، عِنْدَمَا سَأَلَهَا سَعْدُ بْنُ هِشَامٍ بِنَ عَامِرٍ فَقَالَ لَهَا: «يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ أَنْبِئِي عَنِ خُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟» قَالَتْ: أَلَسْتُ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟ قُلْتُ: بَلَى. قَالَتْ: فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ كَانَ الْقُرْآنَ^(١).

قال النووي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «معناه: العمل به، والوقوف عند حدوده، والتأدب بآدابه، والاعتبار بأمثاله وقصصه، وتدبره، وحسن تلاوته»^(٢).

وقال ابن كثير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - في تفسير الآية: «ومعنى هذا أَنَّهُ ﷺ، صار امتثال القرآن، أمراً ونهياً، سَجِيَّةً لَهُ، وَخُلُقاً تَطَبَّعَهُ، وَتَرَكَ طَبْعَهُ الْجِبَلِيَّ، فَمَهْمَا أَمَرَهُ الْقُرْآنُ فَعَلَهُ، وَمَهْمَا نَهَاهُ عَنْهُ تَرَكَهُ. هَذَا مَعَ مَا جَبَلَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنَ الْخُلُقِ الْعَظِيمِ، مِنَ الْحَيَاءِ وَالْكَرَمِ وَالشَّجَاعَةِ، وَالصَّفْحِ وَالْحِلْمِ، وَكُلِّ خُلُقٍ جَمِيلٍ. كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِينَ^(٣) عَنْ أَنَسٍ قَالَ: خَدَمْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ. فَمَا قَالَ لِي: أَفُّ

(١) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: جامع صلاة الليل، ومَنْ نام عنه أو مرض (٥١٣/١) (ح ٧٤٦).

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي (٢٦٨/٥).

(٣) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب: حُسْنُ الْخُلُقِ وَالسَّخَاءِ (١٩٠٨/٤) (ح ٦٠٣٨)؛ ومسلم، كتاب الفضائل، باب: كان رسولُ الله ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقاً (١٨٠٤/٤) (ح ٢٣٠٩).

قَطْ، وَلَا قَالَ لِشَيْءٍ فَعَلْتُهُ: لِمَ فَعَلْتُهُ؟ وَلَا لِشَيْءٍ لَمْ أَفْعَلْهُ: أَلَا فَعَلْتُهُ. وَكَانَ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا^(١).

وخلاصة القول: إنَّ جميع ما فَضَّلَ في القرآن العظيم من مكارم الأخلاق، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ مُتَحَلِّيًا بِهِ^(٢).

ولم يقتصر ﷺ على ذلك، بل كان يبحث أصحابه الكرام، وأُمَّتَهُ من بعدهم على العمل بالقرآن العظيم، وَيُؤَكِّدُ على ذلك بصور مختلفة، مرَّةً بالترغيب في ثواب العمل بالقرآن، وأخرى بالترهيب من معبَّة ترك العمل بالقرآن، ومن أقواله المباركة في ذلك ما يأتي:

١ - عن النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ الْكِلَابِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلُهُ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ، تَقْدِمُهُ^(٣) سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَآلُ عِمْرَانَ». وَضَرَبَ لَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثَةَ أَمْثَالٍ، مَا نَسِيْتُهُنَّ بَعْدُ. قَالَ: «كَانَهُمَا حِمَامَتَانِ^(٤) أَوْ ظَلَّتَانِ سَوْدَاوَانِ، بَيْنَهُمَا شَرْقٌ^(٥)، أَوْ كَانَهُمَا حِرْقَانِ^(٦) مِنْ طَيْرٍ صَوَافٍ^(٧)، تُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبَيْهِمَا^(٨)».

(١) تفسير ابن كثير (١٦٤/٨).

(٢) انظر: عون المعبود شرح سنن أبي داود (١٥٤/٤).

(٣) تَقْدِمُهُ: تَقْدِمُهُ.

(٤) وفي رواية أخرى عند مسلم: «كَانَهُمَا حَيَّائَتَانِ». قال أهل اللغة: الغمامة والغياية كلُّ شيء أظلل الإنسان فوق رأسه من سحابة وَغَيْرِهَا. قال العلماء: المراد: أَنَّ ثَوَابَهُمَا يَأْتِي كَغَمَامَتَيْنِ. «صحيح مسلم بشرح النووي» (٣٣١/٦).

(٥) (بَيْنَهُمَا شَرْقٌ): هو بفتح الرَّاء، وإسكانها. أي: ضياء ونور. ومن حكى فتح الرَّاء وإسكانها: القاضي وآخرون. والأشهر في الرواية واللغة الإسكان.

(٦) وفي رواية أخرى عند مسلم: «أَوْ كَانَهُمَا فِرْقَانِ». الفرقان والحزقان، معناهما واحد. وهما قطيعان وجماعتان. يُقَالُ في الواحد: فِرْقٌ وَحِزْقٌ وَحَزِيقَةٌ.

(٧) (مِنْ طَيْرٍ صَوَافٍ): جمع صافَّة، وهي من الطيور ما يبسط أجنحتها في الهواء.

انظر: تعليق محمد فؤاد عبد الباقي على مسلم (٥٥٣/١).

(٨) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل قراءة القرآن وسورة البقرة (١/٥٥٤) (ح ٨٠٥).

فَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ يَشْفَعُ لَصَاحِبِهِ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُ بِهِ فِي الدُّنْيَا، وَفِي مَقْدَمَةِ ذَلِكَ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَأَلِ عِمْرَانَ، تَتَقَدَّمَانِ فِي الشَّفَاعَةِ، وَالذُّودُ عَنْ حَافِظَتَهُمَا، وَالْعَامِلُ بِهِمَا خُصُوصاً؛ لَكثَرَةِ مَا تَحْوِيَانِ مِنْ أَحْكَامٍ وَأُمُورٍ عَظَامٍ. وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ فَوَائِدِ الْعَمَلِ بِالْقُرْآنِ^(١).

٢ - عَنْ أَبِي مُوسَى رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الْمُؤْمِنُ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَعْمَلُ بِهِ كَالْأَثْرَجَةِ، طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَرِيحُهَا طَيِّبٌ. وَالْمُؤْمِنُ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَعْمَلُ بِهِ كَالثَّمَرَةِ، طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَلَا رِيحَ لَهَا. وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَالرَّيْحَانَةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ. وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَالْحَنْظَلَةِ، طَعْمُهَا مُرٌّ، أَوْ خَبِيثٌ، وَرِيحُهَا مُرٌّ»^(٢).

فِي هَذَا الْحَدِيثِ تَبَيَّنَ لَنَا فَضِيلَةُ حَافِظِ الْقُرْآنِ الْعَامِلِ بِمَا فِيهِ، وَأَنَّ الْمَقْصُودَ مِنَ التَّلَاوَةِ هُوَ الْعَمَلُ بِمَا دَلَّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ، لَا مَجْرَدُ تِلَاوَتِهِ^(٣).

قَالَ إِبْنُ بَطَّالٍ رحمته الله - فِي شَرْحِهِ لِلْحَدِيثِ: «قِرَاءَةُ الْفَاجِرِ وَالْمُنَافِقِ لَا تَرْتَفِعُ إِلَى اللَّهِ، وَلَا تَزْكُو عِنْدَهُ، وَإِنَّمَا يَزْكُو عِنْدَهُ مَا أُرِيدَ بِهِ وَجْهَهُ، وَكَانَ عَلَى نِيَّةِ التَّقَرُّبِ. وَشَبَّهَهُ بِالرَّيْحَانَةِ حَيْثُ لَمْ يَنْتَفِعْ بِبِرَكَةِ الْقُرْآنِ، وَلَمْ يَفِزْ بِحُلَاوَةِ أَجْرِهِ، فَلَمْ يَجَاوِزِ الطَّيِّبُ مَوْضِعَ الصَّوْتِ، وَهُوَ الْحَلَقُ، وَلَا اتَّصَلَ بِالْقَلْبِ»^(٤). الَّذِي هُوَ مَوْطِنُ الْإِعْتِبَارِ، فَكَيْفَ يَعْمَلُ بِالْقُرْآنِ مَنْ هَذَا حَالُهُ^(٥).

فَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ لَا تَنْفَتِحُ أَسْرَارُهُ، وَلَا يَنْتَفِعُ بِهِ إِلَّا مَنْ يَعْمَلُ بِهِ، وَيَتَحَوَّلُ بِهِ؛ لِتَحْقِيقِ مَدْلُولِهِ فِي عَالَمِ الْوَاقِعِ. لَا لِمَنْ يَقْرُوهُ لِمَجْرَدِ التَّبَرُّكِ! أَوِ الدِّرَاسَةِ الْفَنِيَّةِ أَوِ الْعِلْمِيَّةِ! أَوْ لِمَجْرَدِ تَتَبُّعِ الْأَدَاءِ الْبَيِّنَاتِي فِيهِ!

فَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ لَمْ يَنْزَلْ لِيَكُونَ مَادَّةَ دِرَاسَةٍ عَلَى هَذَا النَّحْوِ؛ إِنَّمَا تَنْزَلُ

(١) انظر: هذا القرآن في مائة حديث نبوي، د. محمد زكي محمد خضر (ص ٤٢).

(٢) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب من أئتم من رآه بقراءة القرآن، أو تأكل به، أو فجر به (١٦٢٨/٣) (ج ٥٩٥).

(٣) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨٥/٩).

(٤) المصطلح نفسه (٦٥٧/١٣).

(٥) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٨٣/٦).

ليكون مادة عمل وتوجيه^(١).
 ٣ - سئل عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه: هل كان النبي ﷺ أوصى؟ فقال: لا،
 فقلت: كيف كتبت على الناس الوصية، أو أمروا بالوصية؟ قال: أوصى
 بكتاب الله^(٢).

قال ابن حجر رحمته الله: «أي: بالتمسك به، والعمل بمقتضاه»^(٣).
 وقال أيضاً: «إذا اتبع الناس ما في الكتاب؛ عملوا بكل ما أمرهم النبي ﷺ
 به، لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَمَّا لَكُمْ الرُّسُولُ فَعُدُّوهُ﴾ [الحشر: ٧]»^(٤).
 ولهذا لم يكن رسول الله ﷺ ليوصي أمته من بعده بأفضل من اتباع
 كتاب الله؛ لكونه أعظم وأهم من المال والخلافة - على أهميتهما - فمن اتبع
 كتاب الله لن يضل أبداً، بنص حديث رسول الله ﷺ، الذي قال فيه: «إني نارك
 فيكم ما إن تمسكنم به لن تضلوا بعدي؛ أحدهما أعظم من الآخر: كتاب الله حبل
 ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن ينفركا حتى يردا عليّ
 الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيهما»^(٥).

وأخرجه مسلم من وجوه آخر ولفظه:

«ألا أيها الناس! فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب. وأنا نارك
 فيكم ثقلين^(٦): أولهما كتاب الله، فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله، واستمسكوا
 به» فحث على كتاب الله، ورغب فيه^(٧).

(١) انظر: في ظلال القرآن (٤/١٩٤٨).

(٢) رواه البخاري، كتاب الوصايا، باب: الوصية (٢/٨٤٢) (رقم: ٢٧٤٠).

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٥/٤٤٣).

(٤) رواه الترمذي (٥/٦٦٣) (ح: ٣٧٨٨)؛ وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٣/٢٢٧).

(٥) (ح: ٢٩٨٠).

(٦) (ثقلين): سُميا ثقلين: لعظمهما وكبر شأنهما. وقيل: لثقل العمل بهما.

(٧) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (١٥/١٨١).

(٨) رواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب: من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه (٤/١٨٧).

(٩) (ح: ٢٤٠٨) (٣/١٨٧)؛ وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٣/٢٢٧).

فكتاب الله تعالى إِنْ عَمِلَ بِهِ النَّاسُ وَاسْتَمْسَكُوا بِهِ، كَفَاهُمْ كُلَّ شَيْءٍ، قَالَ
تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً
وَذِكْرًا لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١].

٤ - عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْقُرْآنُ شَافِعٌ مُشَفِّعٌ،
وَمَاحِلٌ^(١) مُصَدِّقٌ، مَنْ جَعَلَهُ أَمَامَهُ قَادَهُ إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَنْ جَعَلَهُ خَلْفَهُ سَاقَهُ إِلَى
النَّارِ»^(٢).

ومعنى الحديث: أَنَّ مَنْ اتَّبَعَ الْقُرْآنَ وَعَمِلَ بِمَا فِيهِ، فَلَهُ شَافِعٌ لَهُ مَقْبُولُ
الشَّفَاعَةِ، فِي الْعَفْوِ عَنْ زَلَّاتِهِ وَسَقَطَاتِهِ، فَمَنْ جَعَلَهُ أَمَامَهُ بِالْعَمَلِ بِهِ، قَادَهُ إِلَى
الْجَنَّةِ. وَمَنْ تَرَكَ الْعَمَلُ بِهِ، وَجَعَلَهُ خَلْفَ ظَهْرِهِ، أَثِمَّ عَلَى إِسَاءَتِهِ، وَمُصَدِّقٌ عَلَيْهِ
فِيمَا يُرْفَعُ مِنْ مَسَاوِيهِ، وَعِنْدَ ذَلِكَ يَسُوقُهُ إِلَى النَّارِ^(٣).

فهذه الأحاديث تدلُّ دلالة واضحة، على وجوب اتِّباع القرآن العظيم،
والعمل به، فأين نحن من هذه التحذيرات النبوية المباركة، حتَّى نفوزَ بسعادة
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. اللَّهُمَّ اجْعَلْ هَذَا الْقُرْآنَ حُجَّةً لَنَا، لَا عَلَيْنَا.



(١) (مَاحِلٌ): أَي مُجَادِلٌ وَمُدَافِعٌ، وَقِيلَ: سَاعَ مُصَدِّقٌ، مِنْ قَوْلِهِمْ: مَحَلٌ يَفْلَانُ إِذَا سَعَى بِهِ
إِلَى السُّلْطَانِ. انظر: النهاية في غريب الحديث (٣٠٣/٤)، مادة: (محل).

(٢) رواه الطبراني في «الكبير» (١٠٤٥٠/١٠)؛ وأبو نعيم في «الحلية» (١٠٨/٤)؛ وابن عدي
في «الكامل» (١٢٧/٣) عن ابن مسعود.

ورواه ابن حبان في «صحيحه» (١٦٧/١)؛ والبيهقي في «الشَّعَبِ» (٢٠١٠/٢) عن جابر؛
وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٨١٨/٢) (ح ٤٤٤٣)؛ و«الصَّحِيحَةُ» (٣١/٥) (ح ٢٠١٩).

(٣) انظر: فيض القدير (٤٣٩٩/٨)، النهاية في غريب الحديث (٣٠٣/٤)، مادة: (محل).

المبحث الرابع

الصحابة عليهم السلام يتواصلون بالعمل بالقرآن

أَفْتَقَى الصَّحَابَةُ الْكِرَامُ عليهم السلام جَمِيعاً وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ هَذَا النَّهْجَ الْقَوِيمَ، فَكَانُوا يَتَوَاصُونَ فِيْمَا بَيْنَهُمْ عَلَى أَهْمِيَّةِ الْعَمَلِ بِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالْحَذَرِ مِنْ تَرْكِ الْعَمَلِ بِهِ، وَمِنْ وَصَايَاهُمُ الْمُبَارَكَةِ فِي ذَلِكَ مَا يَأْتِي:

١ - قَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: «لَا يَغْرُزُكُمْ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ؛ إِنَّمَا هُوَ كَلَامٌ نَتَكَلَّمُ بِهِ، وَلَكِنْ انظُرُوا مَنْ يَعْمَلُ بِهِ»^(١).

٢ - عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: «تَعَلَّمُوا تَعَلَّمُوا فَإِذَا عَلِمْتُمْ فَأَعْمَلُوا»^(٢).

٣ - عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه قَالَ: «إِنَّمَا أَخَافُ أَنْ يَكُونَ أَوَّلُ مَا يَسْأَلُنِي عَنْهُ رَبِّي أَنْ يَقُولَ: قَدْ عَلِمْتَ فَمَا عَمِلْتَ فِيمَا عَلِمْتَ»^(٣).

٤ - عَنْ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه قَالَ: «يَا مَعْشَرَ الْقُرَّاءِ»^(٤) اسْتَقِيمُوا^(٥)، فَقَدْ سَبَقْتُمْ سَبْقاً بَعِيداً^(٦)،

(١) رواه الخطيب البغدادي في «اقتضاء العلم بالعمل» (ص ٧١) (رقم ١٠٩).

(٢) رواه الدارمي في «سننه» (١/١١٥) (رقم ٣٦٦)؛ وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٧/١٠٥) (رقم ٣٤٥٤٧)؛ والخطيب البغدادي في «اقتضاء العلم بالعمل» (ص ٢٣) (رقم ١٠)، وقال مُحَقِّقُهُ (العلامة الألباني): «موقوف حسن».

(٣) رواه الخطيب البغدادي في «اقتضاء العلم بالعمل» (ص ٤١) (رقم ٥٣)، وقال مُحَقِّقُهُ: «موقوف حسن الإسناد».

(٤) (الْقُرَّاءُ): جَمْعُ قَارِئٍ، وَالْمُرَادُ بِهِمُ الْعُلَمَاءُ بِالْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ الْعُبَاد.

(٥) (اسْتَقِيمُوا): أَيِ اسْلُكُوا طَرِيقَ الْإِسْتِقَامَةِ، وَهُوَ كُنَايَةٌ عَنِ التَّمَسُّكِ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى فِعْلاً وَتَرْكاً.

(٦) (فَقَدْ سَبَقْتُمْ سَبْقاً بَعِيداً): أَيِ ظَاهِراً، وَوَصَفَهُ بِالْبَعْدِ؛ لِأَنَّهُ غَايَةُ شَأْنِ السَّابِقِينَ، وَالْمُرَادُ: أَنَّهُ خَاطَبَ بِذَلِكَ مَنْ أَدْرَكَ أَوَائِلَ الْإِسْلَامِ، فَإِذَا تَمَسَّكَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ سَبَقَ إِلَى كُلِّ خَيْرٍ؛ لِأَنِّ مَنْ جَاءَ بَعْدَهُ إِنْ عَمِلَ بِعِلْمِهِ لَمْ يَصِلْ إِلَى مَا وَصَلَ إِلَيْهِ مَنْ سَبَقَهُ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَإِلَّا فَهُوَ أَبْعَدُ مِنْهُ حَسّاً وَحُكْماً.

فَإِنْ أَخَذْتُمْ يَمِينًا وَشِمَالًا^(١)، لَقَدْ ضَلَلْتُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا^(٢).

٥ - قال الفضيل بن عياض^(٣) رحمته الله: «إِنَّمَا نَزَلَ الْقُرْآنُ لِيُعْمَلَ بِهِ، فَاتَّخَذَ النَّاسُ قِرَاءَتَهُ عَمَلًا. قِيلَ: كَيْفَ الْعَمَلُ بِهِ؟ قَالَ: أَيْ لِيُحْلُوا حَلَالَهُ، وَيُحَرِّمُوا حَرَامَهُ، وَيَأْتِمِرُوا بِأَوَامِرِهِ، وَيَنْتَهُوا عَنْ نَوَاهِيهِ، وَيَقِفُوا عِنْدَ عَجَائِبِهِ^(٤)».

وبمقدار العمل بالقرآن، وتطبيقه في واقع الحياة، والاهتمام بهديه، يكون الأجر، وهذا ملحوظ حتى في قوانين البشر الناقصة، فكيف بكلام الله تعالى، الذي يصفه ﷻ بقوله: «لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ» [فصلت: ٤٢]. ويقول تعالى عنه: «وَلَوْ كَانِ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا» [النساء: ٨٢].

وَهَبْ أَنْ رَجُلًا حَفِظَ قَانُونَ بَلَدِهِ عَنْ ظَهَرِ قَلْبٍ، ثُمَّ هُوَ يُخَالِفُ هَذَا الْقَانُونَ، وَلَا يِيَالِي بِتَطْبِيقِهِ وَالِاتِّزَامِ بِهِ، فَهَلْ يَنْفَعُهُ ذَلِكَ، أَوْ يَقْبَلُ مِنْهُ؟ أَوْ طَبِيبًا تَعْلَمُ قَوَانِينَ الطَّبِّ وَفَهْمَهَا وَوَعَاَهَا، ثُمَّ عَالِجُ الْمَرْضَى بِخِلَافِ مَا تَعْلَمُ، فَمَاذَا تَكُونُ النَّتِيجَةُ؟

فإذا كان هذا ملاحظاً في القوانين الاجتهادية الأرضية، فما الظن بكتاب الله، الذي يُتَعَبَّدُ بتلاوته ويسمعه ويتدارسه؟ ولا يكتمل هذا التَّعَبُّدُ والأجر المترتب عليه، إلا إذا تلازم مع العمل والتطبيق.

وما يُجدي مسلماً حفظ سورة النور بأكملها، ويعلم جزاء الزاني والقاذف،

(١) (فَإِنْ أَخَذْتُمْ يَمِينًا وَشِمَالًا): أي خالفتم الأمر المذكور، وكلام حذيفة رضي الله عنه متنزع من قوله تعالى: «وَأَنْ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَأَقْبِرُوهُ وَلَا تَلْمِزُوا الشُّبُلَ فَتَفْرَقَ بَيْنَكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ» [الأنعام: ١٥٣].

«جميع ما ذكر في شرح أثر حذيفة. انظره في: فتح الباري (٣/١٦١).
(٢) رواه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب: الاقتداء بسُنَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ (٤/٢٢٧٤) (رقم ٧٢٨٢).

(٣) هو الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر التميمي، الزاهد العابد المجاور بحرم الله، ثقة، أخرج له البخاري ومسلم وغيرهما، ولد بسمرقند، وتوفي سنة (١٨٧هـ).
انظر: وفيات الأعيان (٤/٤٧ - ٥٠)؛ تقريب التهذيب (٢/١١٣).

(٤) رواه الخطيب البغدادي في «اقتضاء العلم بالعمل» (ص ٧٦) (رقم ١١٦).

فإذا هو يقترب هذه الكبائر عياداً بالله من ذلك! هل يُنجيه حفظه من العقوبة؟^(١)
ولقد أحسن القائل:

إِذَا الْعِلْمُ لَمْ تَعْمَلْ بِهِ كَانَ حُجَّةً عَلَيْكَ، وَلَمْ تُعَذَّرْ بِمَا أَنْتَ حَامِلُ
فَإِنْ كُنْتَ قَدْ أَبْصَرْتَ هَذَا فَإِنَّمَا يُصَدِّقُ قَوْلَ الْمَرْءِ مَا هُوَ فَاعِلُ^(٢)
وعوداً على ذي بدء: يتبين لنا ممّا تقدّم أنّ المقصود الأول من تعلّم القرآن وحفظه وتدبره، هو العمل به.


روى الأعمش عن أبي وائل عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «كَانَ الرَّجُلُ مِمَّنْ إِذَا تَعَلَّمَ عَشْرَ آيَاتٍ لَمْ يُجَاوِزْهُنَّ حَتَّى يَعْرِفَ مَعَانِيَهُنَّ، وَالْعَمَلُ بِهِنَّ»^(٣).





هذا الحديث يبين لنا أن العمل بالقرآن هو المقصود الأول من تعلّم القرآن وحفظه وتدبره. وهذا هو السرّ في حرص الصحابة على العمل بالقرآن، وليس فقط حفظه وتدبره. وهذا هو السرّ في حرصهم على أن يكونوا من الذين يعملون بالقرآن، وليس فقط الذين يتعلمونه ويحفظونه. وهذا هو السرّ في حرصهم على أن يكونوا من الذين يتدبرون القرآن، وليس فقط الذين يتعلمونه ويحفظونه. وهذا هو السرّ في حرصهم على أن يكونوا من الذين يعملون بالقرآن، وليس فقط الذين يتعلمونه ويحفظونه. وهذا هو السرّ في حرصهم على أن يكونوا من الذين يتدبرون القرآن، وليس فقط الذين يتعلمونه ويحفظونه.




(١) انظر: أنوار القرآن (ص ٢١). (٢) انظر: اقتضاء العلم بالعمل (ص ٥٥). (٣) مقدمة تفسير ابن كثير (١/٣٦)، وقال مُحَقِّقوه: «إسناده جيد».

تكلّم في عرضه وآذاه في ابنته زوج النّبي ﷺ، بل حلف بالله تعالى ألا ينزع منه الثّقة أبداً، فأين نحن من هذه الأخلاق العظيمة، والقدرات المباركة؟

٢ - عن ابن أبي مُليكة قال: كَادَ الْخَيْرَانِ أَنْ يَهْلَكَمَا، أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ ، رَفَعَا أَصَوَاتَهُمَا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ قَدِمَ رَكْبُ بَنِي تَمِيمٍ، فَأَشَارَ أَحَدُهُمَا بِالْأَفْرِعِ بْنِ حَابِسٍ أَخِي بَنِي مُجَاشِعٍ، وَأَشَارَ الْآخَرُ بِرَجُلٍ آخَرَ، قَالَ نَافِعٌ: لَا أَحْفَظُ اسْمَهُ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ لِعُمَرَ: مَا أَرَدْتَ إِلَّا خِلَافِي، قَالَ: مَا أَرَدْتُ خِلَافَكَ، فَأَرْتَفَعَتْ أَصَوَاتُهُمَا فِي ذَلِكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢٢]. قَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ: فَمَا كَانَ عُمَرُ يُسْمِعُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ حَتَّى يَسْتَفْهَمَهُ ^(١).


أي: حَتَّى يَسْتَفْهَمَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عِدَّةَ مَرَاتٍ.

٣ - عن ابن عباس  قَالَ: «قَدِمَ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ بْنِ حُذَيْفَةَ، فَتَزَلَّ عَلَى ابْنِ أَخِيهِ الْحُرِّ بْنِ قَيْسٍ، وَكَانَ مِنَ النَّفَرِ الَّذِينَ يُذْنِبُهُمْ عُمَرُ ، وَكَانَ الْقُرَاءُ أَصْحَابَ مَجَالِسِ عُمَرَ وَمُشَاوَرَتِهِ، كُفُولًا كَانُوا أَوْ شُبَّانًا. فَقَالَ عُيَيْنَةُ لِابْنِ أَخِيهِ: يَا ابْنَ أَخِي، هَلْ لَكَ وَجْهٌ عِنْدَ هَذَا الْأَمِيرِ ^(٢)، فَاسْتَأْذَنَ لِي عَلَيْهِ ^(٣)، قَالَ: سَأَسْتَأْذِنُ لَكَ عَلَيْهِ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : فَاسْتَأْذَنَ الْحُرُّ لِعُيَيْنَةَ، فَأَذِنَ لَهُ عُمَرُ ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ قَالَ: هِيَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، فَوَاللَّهِ مَا تُعْطِينَا الْجَزَلَ وَلَا تَحْكُمُ بَيْنَنَا بِالْعَدْلِ. فَغَضِبَ عُمَرُ  حَتَّى هَمَّ بِهِ، فَقَالَ لَهُ الْحُرُّ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ اللَّهَ

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب: «لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ...» الآية (٣/١٥٣٧) (ج ٤٨٤٥).

(٢) (هَلْ لَكَ وَجْهٌ عِنْدَ هَذَا الْأَمِيرِ): هذا من جملة جفاء عينة، إذ كان من حقّه أن ينعته بأمر المؤمنين، ولكنه لا يعرف منازل الأكابر.

(٣) (فَاسْتَأْذَنَ لِي عَلَيْهِ): أي في خلوة، وإلا فعمر  لا يحتجب إلا وقت خلوته وراحته، ومن ثم قال له: (سَأَسْتَأْذِنُ لَكَ عَلَيْهِ)، أي: حَتَّى تَجْتَمِعَ بِهِ وَحْدَكَ.

تَعَالَى قَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿خُذِ الْقَوَّ وَأَمْرٌ بِالْقُرْبِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَهْلِيَّةِ﴾ [الأعراف: ١٩٩]. وَإِنَّ هَذَا مِنَ الْجَاهِلِينَ. وَاللَّهُ مَا جَاوَزَهَا عَمُرُ ﷺ حِينَ تَلَاهَا عَلَيْهِ، وَكَانَ وَقَافًا عِنْدَ كِتَابِ اللَّهِ ^(١) ^(٢).

لَيْتَ الْأُمَّةَ - حُكَّامًا وَمُحْكُومِينَ - تَكُونُ وَقَافَةً عِنْدَ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، إِذَا ذُكِرُوا تَذَكَّرُوا، كَحَالِ الْفَارُوقِ ﷺ.

٤ - عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ ﷺ: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَمْلَى عَلَيْهِ: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاتِلُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٩٥].

فَجَاءَهُ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ ﷺ وَهُوَ يُمْلِئُهَا عَلَيْهِ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَاللَّهِ لَوْ اسْتَطِيعَ الْجِهَادُ لَجَاهَدْتُ - وَكَانَ أَعْمَى - فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ، وَفَحِذُّهُ عَلَى فِخْذِي، فَتَقَلَّتْ عَلَيَّ حَتَّى خِفْتُ أَنْ تُرَضَّ فِخْذِي، ثُمَّ سَرَّيَ عَنْهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ ^(٣).

حَتَّى صَاحِبَ الْعَذْرِ لَمْ يَعْذِرْ نَفْسَهُ مِنَ الْجِهَادِ لِاسْتِشْعَارِهِ أَهَمِّيَّةَ الْعَمَلِ بِالْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَتَنْفِيزِ أَوَامِرِهِ، فَيَأْتِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مُتَوَسِّلًا مُتَأَثِّرًا، يَحْلِفُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ أَنْ لَوْ مَلَكَ الْقُدْرَةَ لَخَرَجَ، حَتَّى أَكْرَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَأَنْزَلَ فِيهِ قِرْآنًا يَتْلَى إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فِي هَذَا الْإِسْتِثْنَاءِ لِأَصْحَابِ الْأَعْذَارِ: ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾.

وَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ الطَّائِفَةُ مِنَ الْحَوَادِثِ قَدْ عَبَّرَتْ عَنْ مَدَى حُرْصِ الصَّحَابَةِ ﷺ عَلَى الْعَمَلِ بِالْقُرْآنِ وَاتِّبَاعِ مَا فِيهِ، فَإِنَّهَا تَدُلُّ دَلَالَةً قَطْعِيَّةً عَلَى عَظَمَةِ تَرْبِيَّتِهِمْ أَيْضًا، وَلَكِنَّا نُلَاحِظُ أَنَّهَا لَمْ تَخْرُجْ عَنْ كَوْنِهَا تَعْجِيرًا عَنْ صُورٍ لِتَصَرُّفَاتٍ فَرْدِيَّةٍ قَامَ بِهَا أَصْحَابُهَا ﷺ، وَلَكِنْ هُنَاكَ طَائِفَةٌ أُخْرَى مِنَ الْأَخْبَارِ تُعَبِّرُ عَنْ عَظَمَةِ التَّرْبِيَةِ النَّبَوِيَّةِ، وَهِيَ تَرْبِيَّةٌ جَمَاعِيَّةٌ، جَاءَتْ كُلُّهَا مُعْبَّرَةً عَنْ اسْتِجَابَةِ جَمَاعِيَّةٍ لِأَوَامِرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَمِنْهَا:

(١) (وَكَانَ وَقَافًا عِنْدَ كِتَابِ اللَّهِ): أَيِ يَعْمَلُ بِمَا فِيهِ وَلَا يَتَجَاوِزُهُ.

انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري (١٣/٣١٧ - ٣١٩).

(٢) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب: ﴿خُذِ الْقَوَّ وَأَمْرٌ بِالْقُرْبِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَهْلِيَّةِ﴾ (٣/١٤٢٠) (رقم ٤٦٤٢)؛ وكتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب: لا يقتله يستن رسول الله ﷺ (٤/٢٢٧٤) (رقم ٧٢٨٦).

(٣) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاتِلُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٣/١٣٩٨) (ح ٤٥٩٢).

١- عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «بَيْنَا النَّاسُ بِقُبَاءٍ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ، إِذْ جَاءَهُمْ آتٍ فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَنْزَلَ عَلَيْهِ اللَّيْلَةَ قُرْآنًا، وَقَدْ أُمِرَ أَنْ يَسْتَقْبِلَ الْكَعْبَةَ، فَاسْتَقْبِلُوهَا، وَكَانَتْ وُجُوهُهُمْ إِلَى الشَّامِ، فَاسْتَدَارُوا إِلَى الْكَعْبَةِ»^(١).

فهؤلاء الصحابة الكرام رضي الله عنهم لَمَّا سَمِعُوا مَنْ يُخْبِرُهُمْ بِآيَةِ تَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ لَمْ يَنْتَهَوْا حَتَّى يَفْرَغُوا مِنْ صَلَاتِهِمْ، بَلْ وَلُّوا وَجُوهَهُمْ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ مِيَاشِرَةً؛ امْتِثَالًا لِأَمْرِ اللَّهِ وَتَطْبِيقًا لَمَّا جَاءَهُمْ فِي الْقُرْآنِ.

٢- قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رضي الله عنه: «مَا كَانَ لَنَا خَمْرٌ غَيْرَ فَضِيحِكُمْ هَذَا الَّذِي تُسَمُّونَهُ الْفَضِيحَ، فَإِنِّي لَقَائِمٌ أَسْقِي أَبَا طَلْحَةَ وَقُلَانًا وَقُلَانًا إِذْ جَاءَ رَجُلٌ فَقَالَ: وَهَلْ بَلَغَكُمْ الْخَبَرُ؟ فَقَالُوا: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: حُرِّمَتِ الْخَمْرُ، قَالُوا: أَهْرِقْ هَذِهِ الْقِلَالُ يَا أَنَسُ، قَالَ: فَمَا سَأَلُوا عَنْهَا وَلَا رَاجِعُوهَا بَعْدَ خَبَرِ الرَّجُلِ»^(٢).

هرعوا رضي الله عنهم مباشرة إلى العمل والتطبيق، امتثالاً للأمر واجتناباً للنهي، وأهرقوا دنان الخمر، وما رجعوا إليها أبداً.

٣- عن عائشة رضي الله عنها قالت: «يَرْحَمُ اللَّهُ نِسَاءَ الْمُهَاجِرَاتِ الْأَوَّلِ، لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: ٣١]. شَقَقْنَ مُرُوطَهُنَّ^(٣) فَاخْتَمَرْنَ بِهَا»^(٤)^(٥).

(١) رواه البخاري، واللفظ له، كتاب الصلاة، باب: ما جاء في القبلة (١/١٤٦) (ح ٤٠٣)؛ ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب: تحويل القبلة من القدس إلى الكعبة (١/٣٧٥) (ح ٥٢٦).

(٢) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب: قوله: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَاللَّبِيرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَلَكُمُ يَجْسُ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ [المائدة: ٩٠] (٣/١٤٠٨) (ح ٤٦١٧).

(٣) (المُرُوطُ): جمع مُرْط، وهو الإزار، وقيل: هو كل ثوب غير مخيط، أي: شَقَقْنَ كَسَاءَهُنَّ. انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨/٦٢١)؛ لسان العرب (٧/٤٠)، مادة: (مرط).

(٤) (فاخْتَمَرْنَ بِهَا): أي غَطَّيْنَ وجوههن، وصفة ذلك: أَنْ تَضَعَ الْخِمَارَ عَلَى رَأْسِهَا، وَتَرْمِيهِ مِنَ الْجَانِبِ الْيَمِينِ عَلَى الْعَاتِقِ الْأَيْسَرِ، وَهِيَ التَّقْنَعُ. قَالَ الْفَرَّاءُ: كَانُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ تَسْدِلُ الْمَرْأَةُ خِمَارَهَا مِنْ وَرَائِهَا، وَتَكْشِفُ مَا قَدَّامَهَا، فَأَمَرَ بِالِاسْتِتَارِ، وَالْخِمَارُ لِلْمَرْأَةِ كَالْعِمَامَةِ لِلرَّجُلِ. انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨/٦٢١).

(٥) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ (٣/١٤٩٢) (ح ٤٧٥٨).

وفي رواية أخرى تقول عائشة رضي الله عنها: «أَخَذَنَ أَزْرَهُنَّ فَشَقَّقْنَهَا مِنْ قَبْلِ الْحَوَاشِي، فَاخْتَمَرْنَ بِهَا»^(١).

وعن أم سلمة رضي الله عنها، قالت: «لَمَّا نَزَلَتْ ﴿يَذْنِبْنَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبِيزِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٩]. خَرَجَ نِسَاءُ الْأَنْصَارِ كَأَنَّ عَلَى رُؤُوسِهِنَّ الْغُرَبَانُ مِنَ الْأَكْسِيَةِ»^(٢).

وهكذا كانت نساؤهم، كرجالهم، يُسارعن إلى امتثال أمر الله تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾، وأمره تعالى: ﴿يَذْنِبْنَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبِيزِهِنَّ﴾. فلا ينتظرن شراء خُمُر جديدة، ولا ينتظرن العودة للمنازل، بل يسارعن فيشققن مروطهن ويلقينها على جيوبهن رضي الله عنهم أجمعين.



(١) رواه البخاري، الكتاب نفسه، «والباب نفسه» (١٤٩٢/٣) (ح ٤٧٥٩).

(٢) رواه أبو داود (٦١/٤) (٤١٠١)؛ وضححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٢/٧٧٣) (ح ٣٤٥٦).

الفصل التاسع

هجر التحاكم إلى القرآن

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: أدلة وجوب التَّحَاكُم إلى القرآن.

المبحث الثاني: أسباب هجر التَّحَاكُم إلى القرآن.

المبحث الثالث: الآثار الحسنة للحكم بما أنزل الله.

المبحث الرابع: الآثار السيئة للحكم بغير ما أنزل الله.

المبحث الأول

أدلة وجوب التحاكم إلى القرآن

إنَّ النَّاطِرَ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ يَجِدُ أَنَّ الْآيَاتِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى وَجُوبِ التَّحَاكُمِ إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى كَثِيرَةٌ، وَقَدْ وَرَدَتْ بِأَسَالِيِبٍ مُتَعَدِّدَةٍ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى وَجُوبِ احْتِكَامِ النَّاسِ جَمِيعًا؛ حُكَامًا وَمُحْكُومِينَ إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى، وَهِيَ عَلَى النَّحْوِ التَّالِي:

الآية الأولى:

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَنْتَرَعَمَهُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

خاطب الله تعالى المؤمنين في حالة اختلافهم في شيء من أمر دينهم فيما بينهم، أو فيما بين ولاية أمرهم - فتنازعوا في ذلك - أن يردُّوا معرفة حُكْم ذلك المختلف فيه إلى كتاب الله تعالى، فإنَّ وجدوا لله تعالى في كتابه حُكْمًا اتَّبَعُوهُ، وإلا ففي سُنَّة رسول الله ﷺ. فهذا هو علامة التَّصَدِيق بالله تعالى وبالْيَوْمِ الْآخِرِ^(١).

وفي الآية دليل «على أنَّ مَنْ لَمْ يَتَحَاكَمْ فِي مَجَالِ النِّزَاعِ إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَلَا يَرْجِعَ إِلَيْهِمَا فِي ذَلِكَ، فَلَيْسَ مُؤْمِنًا بِاللَّهِ، وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ»^(٢).

وكما أنَّ الآية تُوجِبُ التَّحَاكُمَ إِلَى شَرَعِ اللَّهِ تَعَالَى؛ عَلَى الرَّاعِي وَالرَّعِيَّةِ سَوَاءً، فَإِنَّهَا أَيْضًا تَقِيدُ تَحْرِيمَ التَّحَاكُمِ إِلَى غَيْرِ شَرَعِ اللَّهِ؛ لِأَنَّ مَا حَكَمَ بِهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ، وَشَهِدَا لَهُ بِالصَّحَّةِ فَهُوَ الْحَقُّ، وَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ؟ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أَي: رُدُّوا الْخُصُومَاتِ وَالْاِخْتِلَافَاتِ

(٢) تفسير ابن كثير (٢/٣٨٥).

(١) انظر: تفسير القرطبي (٥/٢٦٣).

إلى كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، فالإيمان لا يجيز الرد إلى غيرهما^(١). ولا يعني ذلك أن فرد المتنازع فيه إلى ظواهر نصوص الكتاب والسنة فقط، بل المراد منه الرجوع إلى الشريعة بروحها ومقاصدها في صورتها الشاملة، كما فهمها السلف الصالح، وإلا فإن حرفية النص التي يتمسك به أهل الظاهر، وجمود الفهم الذي يقف عنده أهل الغلو، ليس مراداً في ذلك^(٢).

وفي الآية «أمر برد كل ما تنازع الناس فيه» من أصول الدين وفروعه - إلى الله والرسول، أي: إلى كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، ففيهما الفضل في جميع المسائل الخلافية، إما بصريحهما، أو عمومهما، أو إيماء، أو تنبيهاً، أو مفهوماً، أو عموم معنى يقاس عليه، وما أشبه ذلك^(٣).

ويستفاد من الآية الكريمة عدة أمور، ومنها:

- ١ - أن أهل الإيمان قد يتنازعون في بعض الأحكام، ولا يخرجهم ذلك عن الإيمان، إذا ردوا ما تنازعوا فيه إلى الله ورسوله، كما شرّطه الله عليهم.
- ٢ - أن قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ نكرة في سياق الشرط، تعم كل ما تنازع فيه المؤمنون من مسائل الدين، دقة وجله، جليته وخفيه.
- ٣ - أن الناس أجمعوا على أن الرد إلى الله وإلى رسوله: إلى كتابه، وإلى الرسول نفسه في حياته، وسنته بعد وفاته.
- ٤ - أنه جعل الرد من موجبات الإيمان ولوازمه، فإذا انتفى هذا الرد انتفى الإيمان، ضرورة انتفاء الملزوم لانتفاء لازمه، ولا سيما التلازم بين هذين الأمرين، فإنه من الطرفين، وكل منهما ينتفي بانتفاء الآخر^(٤).

الآية الثانية:

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٢/٣٨٥)؛ أضواء البيان (١/٩٢ - ٩٣).

(٢) انظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (١/١٧١).

(٣) تفسير السعدي (١/٣٦٢).

(٤) انظر: أعلام الموقعين عن رب العالمين (١/٥١ - ٥٣).

مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِمْ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُتَوَفِّينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿٦٦﴾ [النساء: ٦٥ - ٦٦].

معنى الطَّاغُوت:

أصل الطَّاغُوت: طَغَوْتُ، من قول القائل: «طغى فلان يطغو» إذا عدا قَدْرَهُ فتجاوز حدَّه، كجبروت من التَّجَبُّر، ثم نُقلت لأمه فجعلت عيناً، وحولت عينه فجعلت مكان لأمه^(١).

ومعنى الطَّاغُوت في الاستعمال الشرعي: هو ما ذكره ابن جرير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بأنه: «كلُّ ذي طُغيانٍ على الله، فعُبدَ من دونه، إمَّا بقهرٍ منه لمن عبده، وإمَّا بطاعةٍ ممن عبده له، إنساناً كان ذلك المعبود، أو شيطاناً، أو وثناً، أو صنماً، أو كائناً ما كان من شيء»^(٢).

والطَّاغُوت كلمة يراد بها المفرد أحياناً - كما في هذه الآية - ويراد بها الجَمْع في أحيان أخرى - كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، والمعنى: أولياؤهم الطَّوَاغُيتُ^(٣).

ويلاحظ في الآية:

١ - أن الله تعالى قال: ﴿يَرْغُمُونَ﴾، أي: يدعون الإيمان إذ لو كانوا من أهل الإيمان الصادق، لما تحاكموا إلى غير الله ورسوله. فدلَّ على ادَّعائهم الإيمان، وهم كاذبون.

قال ابن القيم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فجعل الإعراض عمّا جاء به الرُّسُول، والالتفات إلى غيره، هو حقيقة النِّفاق»^(٤).

٢ - أن الله تعالى سجَّل على المتولِّين للطَّوَاغُيت، والمتحاكمين إليهم،

(١) انظر: المفردات في غريب القرآن (ص ٣٠٨)، مادة: (طغى).

(٢) تفسير الطبري (١٩/٣).

(٣) انظر: المصدر السابق (ص ٣٠٨)؛ تفسير القرطبي (٣/٢٨٢).

(٤) مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم، لمحمد الموصلي (٢/٣٥٣).

وَصَفَّ الكُفْرَ، فِي حِينٍ أَنَّ الْمَطْلُوبَ مِنْهُمْ أَصْلًا الْكُفْرَ بِالطَّاغُوتِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾. وَمَنْ لَوَازِمُ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ تَعَالَى، الْكُفْرَ بِالطَّاغُوتِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْمَرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

والخلاصة:

أَنَّ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ دَلَّتْ عَلَى وَجُوبِ التَّحَاكُمِ إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ عِلَّةٍ وَجُوهٍ:

١ - أَنَّ الطَّاغُوتَ عَامٌّ فِي كُلِّ مَا عُبِدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَرَضِيَ بِالْعِبَادَةِ مِنْ مَعْبُودٍ، أَوْ مَتَّبِعٍ، أَوْ مَطَاعٍ، فِي غَيْرِ طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ^(١).

٢ - أَنَّ التَّحَاكُمَ إِلَى الطَّاغُوتِ مِنْ صِفَاتِ الْمُنَافِقِينَ، الَّذِينَ يُبْطِنُونَ الْكُفْرَ، وَيُظْهِرُونَ الْإِيمَانَ.

٣ - أَنَّ الْمُعْرَضَ عَنْ حُكْمِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ، قَدْ حُكِمَ بِنِفَاقِهِ، فَإِذَا ضَمَّ إِلَى ذَلِكَ مَنَعَ النَّاسِ مِنَ التَّحَاكُمِ إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ، كَانَ هُوَ أَشَدَّ كُفْرًا وَنِفَاقًا^(٢).

٤ - اِعْتِبَارُ ادِّعَاءِ الْإِيمَانِ، مَعَ إِرَادَةِ التَّحَاكُمِ إِلَى غَيْرِ شَرْعِ اللَّهِ، مَجْرَدُ زَعْمٍ بَاطِلٍ.

٥ - أَنَّ الْكُفْرَ بِالطَّاغُوتِ تَكْلِيفٌ مَأْمُورٌ بِهِ.

٦ - أَنَّ إِرَادَةَ التَّحَاكُمِ إِلَى الطَّاغُوتِ نَاتِجَةٌ عَنْ إِرَادَةِ الشَّيْطَانِ الْإِضْلَالِ لِأُولَئِكَ الْمُتَحَاكِمِينَ إِلَيْهِ^(٣).

الآية الثالثة:

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

(١) انظر: أعلام الموقعين عن رب العالمين (١/٤٩ - ٥٠)؛ فتاوى اللجنة الدائمة (١/٥٤٢).

(٢) انظر: الحكم بغير ما أنزل الله أحواله وأحكامه، د. عبد الرحمن بن صالح المحمود (ص ٨٥).

(٣) انظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (١/١٧٣).

التَّحَاكُمَ إِلَى شَرْعِ اللَّهِ مَرْتَبُطٌ بِالْإِيمَانِ اِرْتِبَاطُ السَّبَبِ بِالسَّبَبِ، قَالِ الْمُؤْمِنُونَ مُؤْمِنُونَ؛ لِإِسْلَامِهِمْ وَتَسْلِيمِهِمْ بِحُكْمِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، الَّذِي يَحْكُمُ بِهِ عَنْ وَحْيِ اللَّهِ، وَالْكَافِرُونَ كُفَّارٌ؛ لِإِيمَانِهِمْ وَاسْتِسْلَامِهِمْ - قَلْباً وَقَالِباً - لِشَرَائِعِ الطَّوَاغِيتِ، وَهَذِهِ قَضِيَّةٌ مِنْ مُسَلِّمَاتِ هَذَا الدِّينِ، الَّتِي أَكَّدهَا اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ، جَلَّ أَقْسَمُ فِي الْآيَةِ عَلَيْهَا، وَأَكَّدهَا بِمُؤَكَّدَاتٍ كَثِيرَةٍ، مِمَّا يُثَبِّتُ وَيُؤَكِّدُ: أَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ أَحَدٌ حَتَّى يُحْكُمَ الرَّسُولَ ﷺ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ^(١).

وَالْآيَةُ الْكَرِيمَةُ صَرِيحَةٌ فِي مَنْطُوقِهَا: فِي إِفَادَةِ أَنَّ التَّحَاكُمَ إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ، مِنَ الْوَاجِبَاتِ الَّتِي يَخْتَلِ الإِيمَانُ بِالْإِخْلَالِ بِهَا، وَيَتَقَضَّى بِالْإِنْتِقَاصِ مِنْهَا^(٢).

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ: «أَقْسَمَ سُبْحَانَهُ بِنَفْسِهِ الْمَقْدَسَةِ، قَسْماً مُؤَكَّداً بِالنَّفْيِ قَبْلَهُ، عَلَى عَدَمِ إِيْمَانِ الْخَلْقِ، حَتَّى يَحْكُمُوا رَسُولَهُ فِي كُلِّ مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ، مِنَ الْأَصُولِ وَالْفُرُوعِ، وَأَحْكَامِ الشَّرْعِ، وَأَحْكَامِ الْمَعَادِ، وَلَمْ يُثَبِّتْ لَهُمُ الْإِيمَانَ بِمَجْرَدِ هَذَا التَّحْكِيمِ، حَتَّى يَنْتَفِيَّ عَنْهُمْ الْحَرْجُ - وَهُوَ ضَيْقُ الصَّدْرِ - وَتَنْشَرَحَ صُدُورُهُمْ لِحُكْمِهِ كُلِّ الْإِنْشِرَاحِ، وَتَقْبَلَهُ كُلُّ الْقُبُولِ، وَلَمْ يُثَبِّتْ لَهُمُ الْإِيمَانَ بِذَلِكَ أَيْضاً، حَتَّى يَنْضَافَ إِلَيْهِ مَقَابِلَةُ حُكْمِهِ بِالرَّضَى وَالتَّسْلِيمِ، وَعَدَمُ الْمَنَازَعَةِ، وَانْتِفَاءُ الْمَعَارِضَةِ وَالْإِعْتِرَاضِ»^(٣).

وَلِنَسْتَمَعَ إِلَى كَلَامِ نَفِيسٍ وَدَقِيقٍ لِلشُّوْكَانِي رَحِمَهُ اللَّهُ عِنْدَ تَفْسِيرِهِ لِلآيَةِ نَفْسِهَا، حَيْثُ قَالَ: «وَفِي هَذَا الْوَعِيدِ الشَّدِيدِ مَا تَقْشَعُرُ لَهُ الْجُلُودُ، وَتَرْجَفُ لَهُ الْأَفْتَدَةُ، فَإِنَّهُ أَوَّلًا أَقْسَمَ سُبْحَانَهُ بِنَفْسِهِ، مُؤَكَّداً لِهَذَا الْقَسَمِ بِحَرْفِ النَّفْيِ بَلَّغَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ، فَنفَى عَنْهُمْ الْإِيمَانَ - الَّذِي هُوَ رَأْسُ مَالِ صَالِحِي عِبَادِ اللَّهِ - حَتَّى تَحْصَلَ لَهُمْ غَايَةٌ؛ هِيَ تَحْكِيمُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

ثُمَّ لَمْ يَكْتَفِ سُبْحَانَهُ بِذَلِكَ، حَتَّى قَالَ: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ﴾ فَضَمَّ إِلَى التَّحْكِيمِ أَمراً آخراً، هُوَ عَدَمُ وَجُودِ حَرْجٍ، أَي: حَرْجٍ فِي صُدُورِهِمْ، فَلَا يَكُونُ مَجْرَدُ التَّحْكِيمِ وَالْإِذْعَانُ كَافِياً، حَتَّى يَكُونَ مِنْ صَمِيمِ الْقَلْبِ، عَنْ رَضَى وَاطْمَئِنَّانٍ، وَانْتِلَاجِ قَلْبٍ، وَطِيبِ نَفْسٍ.

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٢/٢١١). (٢) انظر: المصدر السابق (١/١٧٨).

(٣) التبيان في أقسام القرآن (ص ٢٧٠). (٤) انظر: المصدر السابق (١/١٧٨).

ثم لم يكتف بهذا كله، بل ضمَّ إليه قوله: ﴿وَسَلِّمُوا﴾ أي: يُدْعَوْنَ وَيُنَادَوْنَ ظاهراً وباطناً.

ثم لم يكتف بذلك، بل ضمَّ إليه المصدر المؤكَّد فقال ﴿تَسْلِيمًا﴾ فلا يثبت الإيمان لعبد، حتَّى يقع منه هذا التَّحْكِيم، ولا يجد الحرج في صدره بما قُضي عليه، ويسلم لحُكم الله وشرعه، تسليماً لا يخالطه ردٌّ، ولا تشوبه مخالفة^(١).

والآية الكريمة تربط التَّحَاكُم بالدين كله، من إسلام وإيمان وإحسان: «فالتَّحْكِيم: في مقام الإسلام، وانتفاء الحرج: في مقام الإيمان، والتَّسْلِيم: في مقام الإحسان»^(٢).

«فَمَنْ استكمل هذه المراتب وكَمَّلَهَا، فقد استكمل مراتب الدين كلها»^(٣).

الآية الرَّابِعَة:

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّكَّاتِ بِحَكْمٍ وَأَلَّا يَكُنَّ لِلَّكَّاتِ قِطَعًا مِّنْهُنَّ﴾ [الأنعام: ١١٤].

الحَكَم هو الحاكم الذي يفصل في القضايا والخصومات، والحَكَم أبلغ من الحاكم، إذ لا يستحقُّ التَّسْمِيَة بالحَكَم إلَّا مَنْ يحكم بالحق^(٤).

و«الحَكَم» من أسماء الله تعالى الحسنى؛ لقوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَكَمُ، وَإِلَيْهِ الْحُكْمُ» الحديث^(٥).

ولمَّا كَانَ اللَّهُ ﷻ هو الحَكَم الحقُّ، فقد استنكرت الآية أن يُتَنَى غيره في التَّحَاكُم، وهذا الاستنكار أفاد وجوب التَّحَاكُم إليه سبحانه.

ويلاحظ هنا: أَنَّ النِّظَم الكريم قد قرَن تنزيل الكتاب بوصف الحقِّ، ممَّا يدلُّ على أَنَّ اتِّخَاذَ حَكَمٍ دُونَهُ هُوَ مِنَ الْبَاطِلِ، بَلْ مِنْ أَبْطَلِ الْبَاطِلِ.

(١) فتح القدير (١/٧٣٠). (٢) مدارج السالكين (٢/١٩٢).

(٣) تفسير السعدي (١/١٨٥).

(٤) انظر: المفردات في غريب القرآن (ص ١٣٤)، مادة: (حكم).

(٥) رواه أبو داود (٢٨٩/٤) (ح ٤٩٥٥)؛ وابن حبان في «صحيحه» (٢/٢٥٧) (ح ٥٠٤)؛ والبخاري في «الأدب المفرد» (١/٢٨٢) (ح ٨١١)؛ وصحَّحه الألباني في «صحيح أبي داود» (٣/٢١٦) (ح ٤٩٥٥)؛ و«صحيح الأدب المفرد» (ص ٣٠٢) (ح ٦٢٣).

قال أبو السُّعُود رحمته الله في معنى الآية: ﴿أَفَغَيْرَ﴾ الهمزة للإنكار، والفاء للعطف على مُقَدَّرٍ يقتضيه الكلام، أي: قُلْ لَهُمْ: أأميلُ إلى زخارف الشياطين، فأبتغي حَكَمًا غيرَ الله تعالى، يحكم بيننا.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ أي: مُبَيَّنًا فيه الحقُّ من الباطل، والحلال من الحرام، وغير ذلك من الأحكام، بحيث لم يبقَ في أمور الدين شيء من التخليط والإيهام، فأبى حاجة بعد ذلك لِحَكَمٍ غيرِ الله؟ وهذا - كما ترى - صريح في أنَّ القرآن الكريم، كافٍ في أمر الدين، مُغْنٍ عن غيره، ببيانه وتفصيله^(١).

الآية الخامسة:

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَأْمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤٧) وَلَئِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ (٤٨) وَلَئِنْ يَكُنْ لَهُمُ لَكَ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِبِينَ (٤٩) أَوَيْ قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠) إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٤٧ - ٥١].

وَصَفَتِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ الْمُسْتَجِيبِينَ لِحُكْمِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، بِالْإِيمَانِ وَالْفَلَاحِ، وَجِيءَ بِصِيغَةِ الْحَصْرِ (إِنَّمَا)؛ لِدْفَعِ أَنْ يَكُونَ مُخَالَفُ هَذِهِ الْحَالَةِ فِيهِ شَيْءٌ مِنَ الْإِيمَانِ، وَإِنْ قَالَ بِلِسَانِهِ: إِنَّهُ مُؤْمِنٌ.

وَدَلَالَةُ الْآيَةِ عَلَى وَجُوبِ التَّحَاكُمِ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ وَاضِحَةٌ: بِشَتَائِهَا عَلَى الْقَائِمِينَ بِهِ، وَمَدَحِهَا لَهُمْ، وَوَعْدِهَا إِيَّاهُمْ بِالْفَوْزِ وَالْفَلَاحِ، وَوَضَحُهَا أَيْضًا مِنْ ذِمَّتِهَا لِلْمُعْرِضِينَ عَنِ التَّحَاكُمِ إِلَى الرَّسُولِ، وَوَصْفِهَا إِيَّاهُمْ بِالظُّلْمِ، وَالْمَرَضِ، وَالرَّيْبَةِ^(٢).

(١) تفسير أبي السعود (٣/١٧٧).

(٢) انظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (١/٤٨٣).

وجوب إجابة القاضي المسلم: وقد استنبط العلماء من الآية: وجوب إجابة القاضي المسلم، واعتبروا الرضى بما يحكم، رضى بحكم الله في الحقيقة، إذا كان قضاؤه مستقى من الشريعة وحدها. وممن صرح بذلك القرطبي رحمته الله حيث قال: «هذه الآية دليل على وجوب إجابة الداعي إلى الحاكم؛ لأن الله سبحانه ذم من دعي إلى رسوله ليحكم بينه وبين خصمه فأبى، بأقبح الذم فقال: ﴿أَبَى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ...﴾ قال ابن خويز منداد: واجب على كل من دعي إلى مجلس الحاكم أن يجيب، ما لم يعلم أن الحاكم فاسق»^(١).

وتبعه - في حكاية التصريح - الشوكاني رحمته الله حيث قال: «في هذه الآية دليل على وجوب الإجابة إلى القاضي، العالم بحكم الله، العادل في حكمه؛ لأن العلماء ورثة الأنبياء، والحكم من قضاة الإسلام، العالمين بحكم الله، العارفين بالكتاب والسنة، العادلين في القضاء، هو حكم الله، وحكم رسوله، فالداعي إلى التحاكم إليهم، قد دعا إلى الله وإلى رسوله، أي: حكمهما»^(٢).

مسألة: هل المعرض عن مجلس الحاكم المسلم، كالمعرض عن نفس حكم الشريعة؟

جوابها: الأمر يحتاج إلى تفصيل في هذه المسألة، وهو يرجع إلى حال المتحاكم، وحال الحاكم، فقد يكون المعرض عن مجلس الحاكم معرضاً عن شخصه، لا عن التشريع الذي يحكم به، وحال هذا يختلف عن حال الطاعن في الأحكام، التي يصدر عنها الحاكم.

وقد حكى ابن عاشور رحمته الله - هذا التفصيل - بقوله: «ولا يخالف الرسول في حكمه شرع الله تعالى، ولهذا كانت الآية خاصة بحكم الرسول ﷺ، فأما الإعراض عن حكم غير الرسول فليس بكفر، إذا جَوَّزَ المعرض على الحاكم: عدم إصابته حكم الله تعالى، أو عدم العدل في الحكم...»

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٢/٢٩٣ - ٢٩٤).

(٢) فتح القدير (٤/٦٦).

ثُمَّ إِنَّ الإِعْرَاضَ مِنَ التَّقَاضِي لَدَى قَاضٍ يَحْكُمُ بِشَرِيعَةِ الإِسْلَامِ: قد يكون: للطَّعْنِ فِي الأحكام الإِسْلَامِيَّةِ، الثَّابِتِ كَوْنُهَا حُكْمُ اللَّهِ تَعَالَى، وَذَلِكَ كَفَرٌ؛ لِدُخُولِهِ تَحْتَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ أَعْيَاؤُهُمْ﴾ [النور: ٥٠]. وقد يكون: لِمَجْرَدِ مُتَابَعَةِ الهوى، إِذَا كَانَ الحُكْمُ المَخَالِفَ لِلشَّرْعِ، مُلَاقِئاً لِهَوَى المَحْكُومِ لَهُ، وَهَذَا فَسُوقٌ وَضَلَالٌ، كَشَأْنِ كُلِّ مُخَالَفٍ يُخَالِفُ بِهَا المَكْلَفَ أَحْكَامَ الشَّرِيعَةِ؛ لِاتِّبَاعِ الأعْرَاضِ الدُّنْيَوِيَّةِ. وقد يكون: لِلطَّعْنِ فِي الحَاكِمِ، وَظَنُّ الجَوْرِ بِهِ، إِذَا كَانَ غَيْرَ مَعْصُومٍ، وَهَذَا فِيهِ مَرَاتِبٌ بِحَسَبِ التَّمَكُّنِ مِنَ الانْتِصَافِ مِنَ الحَاكِمِ وَتَقْوِيمِهِ^(١).

الآية السادسة:

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكِّمُوهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٠].

فِي هَذَا الآيَةِ إِشَارَةٌ بِالْغَةِ الرُّوعَةِ؛ فَقَدْ قَرَنَ اللَّهُ ﷻ بَيْنَ كَوْنِهِ صَاحِبَ الحُكْمِ الَّذِي يُرْجَعُ إِلَيْهِ، وَبَيْنَ كَوْنِهِ هُوَ الرَّبُّ - سُبْحَانَهُ - فَلَمَّا اتَّصَفَ - جَلًّا وَعَلَا - بِصِفَاتِ الرُّبُوبِيَّةِ: مِنْ قُدْرَةِ عَلَى الخَلْقِ وَالرِّزْقِ، وَالْعِطَاءِ وَالْمَنْعِ، وَسَائِرِ صِفَاتِهِ الَّتِي لَا يُنْكِرُهَا إِلَّا جَا حِدٌ كَافِرٌ بِهِ - سُبْحَانَهُ - اسْتَحَقَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَحْدَهُ الحُكْمُ. وَقد بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى - فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ - صِفَاتٍ مَنْ يَسْتَحَقُّ أَنْ يَكُونَ الحُكْمُ لَهُ، وَأَسْهَبَ الشَّعْبِيُّ ﷺ فِي بَيَانِ ذَلِكَ؛ بِمَا لَا تَجِدُهُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ، وَمِمَّا قَالَ: «فَمِنْ الآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ الَّتِي أَوْضَحَ بِهَا تَعَالَى صِفَاتٍ مَنْ لَهُ الحُكْمُ وَالتَّشْرِيعُ، قَوْلُهُ هُنَا: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكِّمُوهُ إِلَى اللَّهِ﴾، ثُمَّ قَالَ مُبَيِّنًا صِفَاتٍ مَنْ لَهُ الحُكْمُ: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ ⑤ فَاطِيرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ اللَّائِمَةِ أَزْوَاجًا يَذَرُوكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَيْفَلِهِمْ شَقٌّ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ⑥ لَمْ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَسُطُّ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الشورى: ١٠ - ١٢].

فَهَلْ فِي الْكُفْرَةِ الْفَجْرَةِ الْمَشْرُوعِينَ لِلنَّظْمِ الشَّيْطَانِيَّةِ، مَنْ يَسْتَحَقُّ أَنْ يَوْصَفَ

بأنه الربُّ الذي تُفَوِّضُ إليه الأمور، ويُتَوَكَّلُ عليه، وأنه فاطر السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ، أي: خالقهما ومخترعهما على غير مثالٍ سابق، وأنه هو الذي خَلَقَ للبشر أزواجاً. ١٩...

فعليكم أيُّها المسلمون أن تتفهَّموا صفات مَنْ يستحقُّ أن يُشْرَعَ ويُحْلَلَ ويُحَرَّمَ، ولا تقبلوا تشريعاً من كافرٍ خسيسٍ حقيرٍ جاهلٍ...

ومن الآيات الدَّالة على ذلك، قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الْغَيْبُ الْمَكْنُونِ وَالْأَرْضُ أَبْصَرَ بِهِ وَأَشْفَعُ مَا لَمْ يَمْنُ دُونَهُ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يَشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦].

فهل في الكفرة الفجرة المشرِّعين مَنْ يستحقُّ أن يُوصَفَ بأنَّ له غَيْبَ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ؟! وأنَّ يُبَالِغَ في سَمْعِهِ وبصرِهِ لإحاطة سَمْعِهِ بكلِّ المسموعات، وبصرِهِ بكلِّ المُبصرات؟! وأنه ليس لأحدٍ دونه من وليٍّ؟! سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً.

ومن الآيات الدَّالة على ذلك، قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً مَعَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨].

فهل في الكفرة الفجرة المشرِّعين مَنْ يستحقُّ أن يُوصَفَ بأنه الإله الواحد؟! وأنَّ كلَّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ؟! وأنَّ الخلائق يرجعون إليه؟! تبارك ربُّنا، وتعاظم وتقدَّس، أن يُوصَفَ أحسُّ خلقِهِ بصفاته...

ومنها، قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

فهل فيهم مَنْ يستحقُّ أن يُوصَفَ بأنه يقصُّ الحقَّ، وأنه خير الفاصلين؟! ومنها، قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ بَيْنَهُمْ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ مَالَهُ أَذُنٌ لَكُمْ أَمْرٌ عَلَى اللَّهِ تَقَوُّوا﴾ [يونس: ٥٩].

فهل في أولئك المذكورين مَنْ يستحقُّ أن يُوصَفَ بأنه هو الذي يُنْزِلُ الرِّزْقَ للخلائق، وأنه لا يمكن أن يكون تحليلٌ ولا تحريمٌ إلا بإذنه؟! لأنَّ من الضَّروري أن مَنْ خَلَقَ الرِّزْقَ وأنزله، هو الذي له التَّصَرُّفُ فيه، بالتَّحليل والتَّحريم. سبحانه جلَّ وعلا، أن يكون له شريك في التَّحليل والتَّحريم^(١).

الآية السابعة:

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى: ٢١].

هذه الآية الكريمة موجبة للتحاكم إلى شرع الله، من حيث إنكارها على الذين لا يتبعون ما شرع الله من الدين القويم، بل يتبعون ما شرع لهم شياطين الجن والإنس، من تحريم ما لم يحرم الله، أو تحليل ما لم يحلله^(١).

وأتباع شرائع هؤلاء الشياطين هو الأصل في باب الضلالة والشقاوة، ومع ذلك سميت ديناً، ولكنه دين مضاد لدين الله؛ لأنه يقوم على العمل للدنيا، فأصحابها لا يعلمون، ولا يعملون إلا لها^(٢).

وحتى لو كان هؤلاء المطيعون للشركاء يريدون بطاعتهم نوعاً من العبادة والقربى، فإن ذلك غير مقبول منهم، بل مردود عليهم؛ لأن الله تعالى لا يعبد إلا بما شرع، لا بما شرع الطواغيت، وزين الشياطين.

وفي هذا الشأن يقول ابن تيمية رحمته الله: «ومن اعتقد أن لأحد - من جميع المخلوق، علمائهم، وعبادهم، وملوكهم - خروجاً عن اتباعه ﷺ وطاعته، وأخذ ما بُعث به من الكتاب والحكمة، فهو كافر، فيجب التفريق بين العبادات الإسلامية الإيمانية النبوية الشرعية التي يحبها الله ورسوله، وعبادته المؤمنون، وبين العبادات البدعية الضلالية الجاهلية، التي قال الله فيها: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾»^(٣).



(١) انظر: تفسير ابن كثير (١٩٧/٧)؛ الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (١/١٨٨).

(٢) انظر: التفسير الكبير (٢٧/١٤٠). (٣) مجموع الفتاوى (٢٧/٥٩ - ٦٠).

المبحث الثاني

أسباب هجر التحاكم إلى القرآن

تمهيد:

أظهر القرآن العظيم خبايا المعرضين عن شرع الله تعالى وحُكمه، وهتك أسرارهم، وكشف نواياهم، وأنزلت فيهم آيات من كتاب الله موضحة هويّتهم، وفاضحة دخالهم، ومتحدثة عن أسباب إعراضهم، وكوامن نواياهم.

قال ابن القيم رحمته الله - في معرض حديثه عن المعرضين المعترضين على شرع الله تعالى وأمره وحُكمه:

«* فمنهم: معترضون بأرائهم وأقيستهم، المتضمنة تحليل ما حرم الله تعالى، وتحريم ما أباحه، وإسقاط ما أوجبه، وإيجاب ما أسقطه، وإبطال ما صحّحه، وتصحيح ما أبطله، واعتبار ما ألغاه، وإلغاء ما اعتبره، وتقيد ما أطلقه، وإطلاق ما قيده.

* ومنهم: المعترضون على حقائق الإيمان والشرع بالأذواق، والخيالات، والكشوفات الباطلة الشيطانية، وهؤلاء في حظوظ اتخذوها ديناً، وقدموها على شرع الله ودينه، واغتالوا بها القلوب، واقتطعوها عن طريق الله.

* ومنهم: أهل الاعتراض بالسياسات الجائرة، التي لأرباب الولايات، التي قدموها على حكم الله ورسوله، وحكموا بها بين عباده، وعطلوا بها شرعه وعدله وحدوده، وقالوا: إذا تعارضت السياسة والشرع، قدمنا السياسة.

فجعلت كل طائفة قبالة دين الله وشرعه، طاغوتاً يتحاكمون إليه^(١).
ومن العجيب أن أسباب الإعراض عن حكم الله - كما عرضها القرآن -

(١) مدارج السالكين (٢/ ٦٩ - ٧٠) «بتصرف يسير».

تُشعر بأنّ نفسيّات المعرضين - في كلّ زمانٍ ومكانٍ - واحدة، ومقولاتهم متشابهة، فلا نكاد نلمح جديداً في مواقف معرضي الأمس، ولهذا فإنّ حُكم الشرائع في المعرضين واحدة، منذ فجر التاريخ، وإلى نهايته^(١).

وهذه أهم أسباب هجر التحاكم إلى القرآن، كما كشفها الكتاب العزيز، وهي على النحو التالي:

السبب الأول: كراهية ما أنزل الله:

عندما تنحرف الفطرة، وتعمى البصيرة، يُصبح الإنسان مُحبّاً لما أبغض الله، ومُبغضاً لما أحبّ الله، وقد يبلغ هذا البغض والكره حدّاً يصل بالمرء إلى أن يكره أن يُذكر الله تعالى أمامه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥]. فلا عجب ممّن هذه أحوالهم، أن نرى البغضاء قد طفحت من قلوبهم على ألسنتهم؛ لِتُعَبِّرَ عن مدى كراهيتهم لما أنزل الله تعالى: ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: ١١٨].

ولفِرط كراهة المعرضين لما أنزل الله؛ فإنهم يكرهون إحقاق الحقّ، وإبطال الباطل، ويكرهون أن يُنمّ الله نور الإسلام على العالمين، ويكرهون أن يُظهر الله دينه على الدّين كلّ، ولكنّ الله تعالى بادلهم كُرهاً بِكُره، فعاملهم بما يكرهون، وأجرى سُنَّته على غير ما يشتهون، كما قال تعالى: ﴿لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٨]. وقال تعالى: ﴿وَيَأْتِىَ اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُنَزِّلَ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢]. وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣]. وقال تعالى: ﴿وَيُحَقِّقُ اللَّهُ الْحَقَّ يَكْلِمُنِيهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ٨٢]. وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: ٨].

صور من الكراهية:

وهذه الكراهية لما أنزل الله تعالى، تتخذ صوراً شتى، ومن ذلك:

(١) انظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (١/١٩٥).

* كراهية ما أنزل الله، كما قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَسَاءَلُهُمْ وَاصِلًا أَعْمَلْتُمْ﴾ (٨) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ﴾ [محمد: ٨ - ٩].

* كراهية الحق المبين، وذلك في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ [الزخرف: ٧٨].

* كراهية الجهاد في سبيل الله، كما في قوله تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٨١].

* كراهية الإتفاق في سبيل الله، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُتَّفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ [التوبة: ٥٤].

* كراهية مَنْ يَتَّبِعُونَ الْحَقَّ، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا زِلْنَا أَنْتَبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّئِ الرَّأْيِ وَمَا نَزَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَنْظُرُكُمْ كَذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧].

* أَنَّهُمْ يُحِبُّونَ وَيَتَّبِعُونَ الَّذِينَ يَكْرَهُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٦].

* الأعجب من هذا كله، أَنَّهُمْ يَكْرَهُونَ رِضْوَانَ اللَّهِ ﷻ، الذي لا يرضى إِلَّا عَمَّنْ اتَّبَعَ دِينَهُ وَشَرَعَهُ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَصْحَبَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ﴾ [محمد: ٢٨].

والكراهية لما أنزل الله تعالى تنعكس آثارها في صَوَرِ شَتَّى، نراها في سلوك المعرضين، مثل الصَّدُّ عن سبيل الله: بالبدن وبالمال وباللِّسان، والطَّعن في حُكْمِهِ، والشَّكِّ في عدله، والاستهزاء بحدوده، والإيذاء للمؤمنين العاملين بدينه، والسَّاعين لإقامة شرعه.

وكراهية ما أنزل الله تعالى، تصل بأهلها إلى أَنَّهُمْ: ﴿قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ [محمد: ٢٦].

كراهية ما أنزل الله في العصر الحاضر:

وما أكثر الذين يكرهون ما أنزل الله تعالى في عصرنا، وَمَنْ يُطِيعُونَ مَنْ

يكرهون ما أنزل الله في بعض الأمر، بل أحياناً في كل الأمر (١). وفي هذا يقول الشنقيطي رحمه الله: «اعلم أن كل مسلم يجب عليه في هذا الزمان، تأمل هذه الآيات من سورة محمد وتدبرها، والحدز التام مما تضمنته من الوعيد الشديد؛ لأن كثيراً ممن ينتسبون للمسلمين داخلون بلا شك فيما تضمنته من الوعيد الشديد؛ لأن عامة الكفار من شرقيين وغربيين كارهون لما نزل الله على رسوله محمد ﷺ، وهو هذا القرآن وما بيّنه به النبي ﷺ من الشنن. فكل من قال لهؤلاء الكفار الكارهيين لما نزل الله: سنطيعكم في بعض الأمر، فهو داخل في وعيد الآية.

وأحرى من ذلك من يقول لهم: سنطيعكم في كل الأمر، كالذين يتبعون القوانين الوضعيّة، مطيعين بذلك للذين كرهوا ما نزل الله، فإن هؤلاء لا شك أنهم ممن تتوفاهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم» (٢).

السبب الثاني: الاستكبار:

من دوافع الإعراض عن شرع الله تعالى والتحاكم إليه: الكبر الذي تنطوي عليه قلوب المعرضين؛ وهو غمط الحق، ذلك الداء العضال الذي ووجه به أصحاب الدّعات في كل العصور - ولا يزالون - فالأنبياء والمصلحون كانوا كلما دعوا إلى أفراد الله تعالى بالعبادة والطاعة والحكم، اصطدموا بملا المتكبرين المتعاليين، الذين يستنكفون حتى عن مجرد سماع الحق، فضلاً عن تفهمه أو الخضوع له.

نماذج من الاستكبار:

* فهذا صالح رحمه الله لما دعا قومه وتلطّف معهم ونصحهم، كان ردّهم على ذلك: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضِعُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَقْلَمُونَ أَمْ أَنْتَ مَلَكٌ مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [الأعراف: ٧٥ - ٧٦]. فكان الاستكبار هو باعث ثمود على الكفر، كما بيّنت الآيات.

(١) انظر: المصدر نفسه (١/١٩٦). (٢) أضواء البيان (٧/٦٢٥).

* والشأن نفسه مع عاد، قوم هود عليه السلام: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

* والمشهد ذاته يتكرر مع شعيب عليه السلام لما دعا قومه إلى الحق: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨].

* أمّا موسى عليه السلام فلم يواجه أحد من الأنبياء استكباراً مثل الذي واجهه من أهل عصره؛ لأن فرعون كان إمام المستكبرين، وتبعه على ذلك قومه وجنوده، وقد حكى الله تعالى هذا الاستكبار في عدة مواضع، منها: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ [يونس: ٧٥].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ^(٥٥) إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٥ - ٤٦].

وكذلك كان شأن جنود فرعون: ﴿وَاسْتَكْبَرُوا هُوَ وَخُودُهُمْ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٣٩].

* وكما كان الاستكبار والعلو هو الباعث الذي حدا بأهل الضلال من الأمم السابقة إلى محاذاة الله تعالى والإعراض عن شرعه وحكمه، كان شأن أهل الضلال في هذه الأمة، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى: ١٣].

«أي: شق عليهم وعظم ما يدعوهم إليه ﷺ من عبادة الله تعالى وحده، وطاعته بامثال أمره، واجتناب نهيه» ^(١).

* وقد بلغ من استكبار المشركين على عهد رسول الله ﷺ أن قالوا: ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا الْمَلَكُكُةُ أَوْ نَرَى رَيْبًا﴾ فكشف الله تعالى السر، وبين السبب في هذه الجراءة، فقال: ﴿لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١].

* وقد كشف القرآن العظيم - في وضوح - أن السبب وراء جدال المجادلين في آيات الله، هو ذلك الداء العضال: الكبر، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ يَقْعِرْ سُرَّتَانِ أَتَلْهَمُونَ إِنْ فِي صدورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَلِيغِيهِ فَاستَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦].

إنهم يتكبرون على الشريعة استنكافاً للانضواء تحت حكمها، أو حُكم المُبتعث بها، كما حكى ذلك الرازي رحمته الله فقال: «إنما يحملهم على هذا الجدل الباطل كِبْرٌ في صدورهم، فذلك الكِبْرُ هو الذي يحملهم على هذا الجدل الباطل، وذلك أنهم لو سَلَمُوا بنبوتك لزمهم أن يكونوا تحت يدك وأمرك ونهيك؛ لأن النبوة تحتها كلُّ مُلكٍ ورياسة، وفي صدورهم كِبْرٌ لا يَرْضون أن يكونوا في خِدمَتِكَ»^(١).

* كذلك بين القرآن الحكيم أن أسباب استخفاف المعرضين بآيات الله واستهزائهم بها ذلك الكبر الرابض في صدورهم. قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ۝ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُمْ لَا يُحِثُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ۝ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا اسْطِغِيرِ الْأَوَّلِينَ﴾ [النحل: ٢٢ - ٢٤]^(٢).

السبب الثالث: اتباع الهوى:
للهمي تسلط على النفس - إذا أطيع - لا يكاد يقاومه شيء في القلب، فكلما أطاع المرء هواه، استحكم هذا الهوى في قلبه، فيصبح هو شرعه ودينه، وحُكمه وقضائه، بل يصبح الهوى إلهاً مطاعاً. كما قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْرٍ وَخَمَّ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ عَشْنَوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

وقد سُمِّيَ الهوى بذلك: «لأنه يهوي بصاحبه في الدنيا إلى كلِّ داهية، وفي الآخرة إلى الهاوية»^(٣). نسأل الله السلامة والعافية.

(١) التفسير الكبير (٦٩/٢٧).

(٢) انظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (١/١٩٩).

(٣) المفردات في غريب القرآن (ص ٥٢٤)، مادة: (هوى).

الهوى والحق ضدان لا يجتمعان:

ولا يمكن لإنسان أن يجمع بين تعظيم الحق وتقديم الهوى، فإنه إن عظم الحق قدمه، وإن قدم هواه عظمه. ومن عظم هواه ضل عن شرع الله وهواه، نائهاً في غياهب الشهوات والشبهات.

ونستطيع أن نجزم بأن اتباع الهوى من أعظم أسباب عدم الاستجابة لله تعالى، والاحتكام إلى شرعه القويم، كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ يَفْعَلْ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الفصل: ٥٠].

تحذير القرآن من اتباع الهوى:

ولهذا نجد القرآن العظيم قد حذر من اتباع الهوى كثيراً، في معرض حديثه عن حتمية اتباع شرع الله.

* فعندما استخلف الله ﷺ داود عليه السلام وجعله ملكاً وحاكماً، حذره من اتباع الهوى؛ لأن اتباع المنزل واتباع الهوى ضدان لا يجتمعان، قال تعالى: ﴿يٰۤاٰدٰمُ اِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الْاَرْضِ فَاَعْمُرْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوٰى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيْلِ اللّٰهِ﴾ [ص: ٢٦].

وهي وصية من الله تعالى لولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل، ولا يعدلوا عنه إلى الأهواء المضلة عن سبيل الله^(١).

* وقد نزه الله تعالى النبي ﷺ ابتداءً من أن ينطق عن الهوى، فضلاً أن يعمل به، أو يحكم بمقتضاه، فقال سبحانه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوٰى ۚ اِنْ هُوَ اِلَّا وَحًى يُوحٰى﴾ [التجم: ٣ - ٤].

* ومع ذلك توجه الخطاب إليه ﷺ بالألا يتبع أهواء أحد من الخلق، قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ اَهْوَاءَ الدّٰوِىِّنَ كَذَّبُوْا بِآيٰتِنَا وَالَّذِيْنَ لَا يُؤْمِنُوْنَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يّعَدُّوْنَ﴾ [الأنعام: ١٥٠]. والخطاب يتعداه ﷺ إلى أمته، إذ هو معصوم من اتباع أهواء الناس^(٢).

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٥٩/٧). (٢) انظر: تفسير الطبري (٥/١٥٥).

* وأمره أن يستقيم على الشريعة المنزلة بعيداً عن أهوائهم، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۖ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٨ - ١٩].

وأمره أن يُقيم معالم الأحكام والحدود في حياة الناس، فقال سبحانه: ﴿وَأَن أَحْكُمَ بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [البقرة: ٤٩].

* والناس جميعاً يفسدهم اتباع الهوى، بل الكون كله يفسد لو سارت الأمور فيه على مقتضى الهوى؛ لأنَّ الأهواء لا ضابط لها. قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَتَّبَعَ الْخَلْقُ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَنزَلْنَاهُنَّ ذِكْرَهُمْ مُّفْرَضُونَ﴾ [المؤمنون: ٧١]. والمعنى: «لو أجابهم الله إلى ما في أنفسهم من الهوى، وشرع الأمور على وفق ذلك لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ» أي: لفساد أهوائهم واختلافها^(١).

السبب الرابع: إثارة المتاع العاجل:

ومن أسباب الإغرائ على حُكم الله تعالى: استيلاء حبِّ الدنيا وشهواتها على قلوب المعرضين، حتَّى يؤثرها على ما في الآخرة من رزق كريم، ونعيم مقيم. ولهذا جعل القرآن العظيم المتهاونين في أحكام الله مؤثرين الثمن القليل. قال الله تعالى - لبني إسرائيل: ﴿وَمَا آمَنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَاتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٤١].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّزَّ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [البقرة: ٤٤].

نماذج من إثارة المتاع العاجل:

ولمَّا كانت شهوات المستبدين في كلِّ زمانٍ جامحة، ورغباتهم مستعرة، ناصبوا شرائع الله العدا؛ لظنهم أنَّها تتعارض مع إطلاق مصالحهم الدنيوية العاجلة.

(١) تفسير ابن كثير (٥/٤٩٦). وانظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (١/٢٠٦).

* فهؤلاء قوم شعيب عليه السلام يقولون له: ﴿يَنْشَيْبُ أَصْلُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَبْدُءُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧].
والمعنى: أدينك بأمرك بذلك، ويمنعنا من التصرف في أموالنا حسب ما نشاء من
البخس والتطفيف، وقد تراضينا فيما بيننا بذلك؟^(١).

* وقوم لوط عليه السلام عادوا دعوة الحق؛ لعلمهم أنها تحول بينهم وبين مستنقع
الرجس والرذيلة الذي غرقوا فيه. قال تعالى: ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ
قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْفُسٌ يَظْهَرُونَ﴾ [النمل: ٥٦].

* وقد تمكنت تلك الأثرة في مشركي العرب حتى كادوا يؤيسون
رسول الله ﷺ من هدايتهم، فنزل القرآن يصبره ويسلّيه: ﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا
لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ ١ ذرّهم يأكلوا ويتمتعوا ويلهيم الأمل فسوف يعلمون﴾ [الحجر:
٢ - ٣]. أي: اتركهم يا محمد ﷺ يأكلوا ويتمتعوا بدنياهم، ويشغلهم الأمل بطول
العمر عن الإيمان والاتباع، فسوف يعلمون عاقبة أمرهم هذا^(٢).

وهكذا كانت أعراض الدنيا حاجزاً بين الناس - في كل زمان - وبين اتباع
الشرائع، فإثمهم - لجهلهم - يظنون أن الشرائع الربانية ستحرمهم منها. ناسين
أن الله وحده يوسع الأرزاق ويبسطها لمن يشاء، ولكنهم فرحوا بالحياة الدنيا
فرحاً أوجب أن يطمثوا بها، ويغفلوا عن الآخرة رغم حقارة الدنيا في جنب
الآخرة^(٣). قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ
بِهِ أَنْ يُوَصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ وَلَهُمْ سَوْءُ الدَّارِ﴾ ١٥ الله يسطر الرزق لمن
يشاء ويقدّر وفرحوا بالحياة الدنيا وما للحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع﴾ [الرعد: ٢٥ - ٢٦].

السبب الخامس: الخوف المقتوهم:

أشكال الخوف لدى الإنسان متنوعة، فقد يخاف من المجهول، أو يخاف
من المستقبل، أو يخاف من انقضاء العمر، أو فوات الرزق، أو ضياع السلطان
والجاه، أو يخاف أن تنزل به مصيبة في نفسه وأهله وماله..

(١) انظر: زاد المسير (٤/ ١١٥). (٢) انظر: تفسير الجلالين (ص ٣٣٨).

(٣) انظر: تفسير السعدي (٤/ ٧٦ - ٧٧)؛ الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (١/ ٢٠٩).

لكنَّ العبد الخائف من الله تعالى يجد في شرع الله الأمان والاطمئنان.

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

أما العبد الذي لا يخاف الله تعالى فإنه لا يتورع عن الظلم، وأكل الحرام، وانتهاك المحرمات الظاهرة منها والباطنة، متبعاً غيّه وهواه؛ لذا فإنه لا يجد لنفسه أماناً في الشريعة؛ لما في قلبه من الشك والريبة، حيث إن ماله حرام، وجاهه قد بُني على الشُّح والباطل، ومصالحه مرهونة باستمرار الظلم، فهو يخشى الشريعة على رزقه، وجاهه، وسلطانه، إن رضي بأن تُحكّم فيه.

نماذج من الخوف المُنوّم:

* والعلة ذاتها ظهرت في اليهود، فالله تعالى أنزل عليهم التوراة ليحصل لهم الأمن والهداية بتحكيماها، فكان بعضهم يخشى الناس فلا يعمل بها أو يبعثها، أو لا يبلغها خوفاً من حدوث مرهوب، أو قوات مطلوب، فحكى الله ﷻ شأنهم، ووجهنا حتى لا نقف أثرهم، فقال سبحانه: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّورَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِلُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوُا اللَّهَ وَلَا تَتَّبِعُوا بَيِّنَاتِنَا ثُمَّ قَلِيلًا مِمَّنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

وفي ذلك يقول أبو السعود رحمه الله: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ﴾ خطاب لرؤساء اليهود وعلمائهم بطريق الالتفات، وأما حُكَّام المسلمين فيتناولهم النهي بطريق الدلالة دون العبارة...

ولما كان مدار جراتهم على ذلك خشية ذي سلطان، أو رغبة في الحظوظ الدنيوية، نُهوا عن كل منهما صريحاً. أي: إذا كان شأنهما كما ذُكر فلا تخشوا الناس كائناً مَنْ كانوا، واقتدوا - في مراعاة أحكامها وحفظها - بمن قبلكم من الأنبياء وأشياعهم^(١).

* والذين أعرضوا عن شرع الله لخوفهم من الناس، يسارعون في موالة

(١) تفسير أبي السعود (٤٢/٣).

أعداء الله على حساب الشريعة والذين، ويتغلّلون في ذلك بالخوف منهم، أو من الزّمان أن يدور بالجذب والغلبة على المسلمين، فلا يمتنّ الكفّار بالعطاء والإمداد.

وقد فضح الله تعالى هذه الطّوية الخسيسة - في معرض التّعجب والإنكار - على من يتحاكم إلى حكم الجاهلية، محدّراً المؤمنين من الوقوع في هذه الموالاة المحظورة، فقال سبحانه: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ٥٥﴾ يَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخْذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ٥٦ فَدَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَحْنُ فَتَنَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَسَمَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُضْيِكُوا عَلَىٰ مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ تَذَمُّنَ ﴿[المائدة: ٥٥ - ٥٦] (١).

* وأعجب العجب وأنكر المنكر من يتدرّع بأمر عجيب، وهو خوفه الحيف والجور من أحكم الحاكمين، الذي لا يظلم مثقال ذرّة. وها هو القرآن يحكي حال مرضى القلوب: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ٥٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا هُمْ فِي عِصْيَانٍ ٥٨ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ لُغُؤٌ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِبِينَ ٥٩ أَلَيْسَ لِقُلُوبِهِمْ قَرَضٌ أَمْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ٦٠ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَحْضُرْ اللَّهَ وَيَحْضُرْ قَاوِلَتِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿[النور: ٥٧ - ٥٩]. إنهم في شك من عدل الله، وسوء ظنّ به سبحانه، وكلّها أسباب خفيّة تقود إلى الإعراض عن شريعة الله، تعالى الله عما يفترى الظّالمون علواً كبيراً (٢).

السَّبَبُ السَّادِسُ: التَّقْلِيدُ الْمَذْمُومُ:
التَّقْلِيدُ فِي اللُّغَةِ: جَعَلَ الْقَلَادَةَ فِي الْمَتْنِ (٣).

وينقسم إلى نوعين: جائز وغير جائز.

(١) انظر: تفسير القرطبي (٢٠٨/٦).

(٢) انظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (٢١٣/١).

(٣) انظر: مختار الصحاح (ص ٢٥٩)، مادة: (قلد).

فالجائر: هو تقليد العاصي عالماً أهلاً للفتوى، في نازلة من التوازل.

وغير الجائر: هو الأخذ بمذاهب الآخرين من غير بيّنة، ولا دليل. وقد ذمّ الله تعالى هذا النوع من التقليد في غير موضع من كتابه^(١).

نماذج من التقليد المذموم:

* من أشدّ أنواع التقليد المذموم هو متابعة الناس في الأحكام الشرعية من غير دليل شرعي، قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾ [التوبة: ٣١].

وقد سُئل حذيفة رضي الله عنه عن هذه الآية، فقال: «أما إنهم لم يكونوا يصومون لهم، ولا يصلّون لهم، ولكنهم كانوا إذا أحلّوا لهم شيئاً استحلّوه، وإذا حرّموا عليهم شيئاً أحلّه الله لهم حرّموه، فذلك كانت ربوبيّتهم»^(٢).

قال ابن القيم رحمته الله - واصفاً فتنة التقليد التي أصابت العالم الإسلامي: «تالله إنّها فتنة عمّت فأعمّت، ورمت القلوب فأضمت^(٣)، ربّا عليها الصّغير، وهرم فيها الكبير، واتخذ لأجلها القرآن مهجوراً، وكان ذلك بقضاء الله وقدره في الكتاب مسطوراً، ولما عمّت بها البليّة، وعظمت بسببها الرّزية، بحيث لا يعرف أكثر الناس سواها، ولا يعدّون العلم إلاّ إيّاها، فطالب الحقّ من مظانّه لديهم مفتون، ومؤثره على ما سواه عندهم مغبون، نصّبوا لمن خالفهم في طريقهم الجبائل، وبعثوا له الغوائل، ورمّوه عن قوس الجهل والبغي والعناد»^(٤).

(١) انظر: أضواء البيان (٥٢٨/٧).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤٥/٦) (رقم ١٦٦٥٣).

(٣) الإضماء: أن تقتل الصّيد مكانه. يُقال: رمى فأضمت: أي أصاب مفتلاً، ومنه ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنه: «أن رجلاً أتاه فقال إني أرمي الصّيد فأضمي أو أنمي، فقال: «كلّ ما أضمت، ودغ ما أنمت». والإنماء: أن ترمي الصّيد فيغيب عنك فيموت ولا تراه وتجده ميتاً، وإنما نهى عنها؛ لأنك لا تدري هل ماتت برميك أو بشيء غيره.

انظر: سنن البيهقي الكبرى (٢٤١/٩) (رقم ١٨٦٨٠)؛ مصنف عبد الرزاق (٤٦٠/٤) (رقم ٨٤٥٥)؛ النهاية في غريب الحديث والأثر (٥٤/٣)، مادة: (ضمّا)؛ لسان العرب (٤٦٩/١٤)؛ مادة: (ضمّا).

(٤) أعلام الموقعين عن رب العالمين (٦/١ - ٧).

* وقد نعى الله تعالى على أقوام مترفين سلوك مسلك التقليد المُشين، فقال عز من قائل: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ أُولَئِكَ حِشْتُكُمْ يُهْدَىٰ مِنْهَا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِمْ آيَاتِي﴾ [الزخرف: ٢٣ - ٢٤]. فالذي منعهم من الاهتداء هو سبب الاقتداء.

* ولما قال إبراهيم عليه السلام لقومه: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾، كان جوابهم: ﴿وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٢ - ٥٣].

* وتقليد الآباء بغير برهان من الله تعالى ضلال، وقد حكى القرآن حال جيل من الأبناء، قلدوا آباءهم بغير هدى من الله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَسَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ هذا حسبهم؛ لقلّة عقلهم، ولهذا يرد الله عليهم بقوله: ﴿أُولَئِكَ كَانَ أَبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَسْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤].

فهذه أنواع من التقليد الأعمى في العقائد والتشريعات، ذمّها الله تعالى في كتابه، ولذلك قال الشنقيطي رحمه الله: «وقد احتج العلماء بهذه الآيات في إبطال التقليد، ولم يمنعهم كفر أولئك من الاحتجاج بها؛ لأنّ التشبيه لم يقع من جهة كفر أحدهما وإيمان الآخر، وإنما وقع التشبيه بين التقليدين بغير حجة للمقلد، كما لو قلّد رجل فكفر، وقلّد آخر فأذنب، وقلّد آخر في مسألة دنياء فأخطأ وجهها، كان كلّ واحد ملوماً على التقليد بغير حجة.

لأنّ كلّ ذلك تقليد يشبه بعضه بعضاً، وإن اختلفت الآثام فيه»^(١).

وعلى آية حال: فإنّ الإعراض عن أحكام الله متوقّع ومنتظر من الذين لا يعقلون، فالعقل السليم يهدي إلى الشرع القويم، إذا بحث عنه^(٢).

وقد وقع المسلمون - إلا من رحم الله - في هذا التقليد الأعمى، فاستمدّوا قوانينهم وأنظمتهم من الغرب - اليهود والنصارى - وغيره، وتناسوا عن قصد، وعن غير قصد - أحياناً - شرعهم الذي ارتضاه لهم ربهم، فوصل بهم الحال إلى ما هم عليه من الهوان والضياع.

(١) أضواء البيان (٧/٥٢٣).

(٢) انظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (١/٢١٩).

المبحث الثالث

الآثار الحسنة للحكم بما أنزل الله

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الآثار الدنيوية للحكم بما أنزل الله.

المطلب الثاني: الآثار الأخروية للحكم بما أنزل الله.

المطلب الأول

الآثار الدنيوية للحكم بما أنزل الله

أولاً: الاستخلاف والتَّمكين:

إذا أقام العباد دين الله تعالى، وخَلَصَ الله تحاكمهم في السِّر والعلانية، فإنَّ الله سبحانه يُقَوِّيهم ويشدُّ من أزرهم حتَّى يستخلفهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، ومكَّن لهم، وهي سُنَّةُ إلهية ماضية نجدها في قصص شتى في كتاب الله تعالى.

نماذج من الاستخلاف والتَّمكين:

* فهذا يوسف عليه السلام صار من أهل الاستخلاف والتَّمكين، بعد أن ابتلي فأبلى بلاء حسناً، وظهر أنَّه كان من المحسنين، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦].

* وهذا موسى عليه السلام كان حريصاً على أن يُظهر لقومه هذه السُنَّة الماضية، عندما خافوا بطش فرعون وقومه، فيقول لهم: ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]. أي: العاقبة الحسنة ستكون لكم بإرث الأرض، شريطة أن تكونوا من المتقين، بإقامة شرع الله في الأرض^(١).

ولمَّا استبطؤوا العاقبة، واستأخروا النَّصر، نبَّههم موسى عليه السلام إلى سُنَّة الاستخلاف: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عُدُّوكُمْ وَتَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَنَنْظُرَ كَيْفَ تَقْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

ثمَّ أنجز الله تعالى لهم ما وعد، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوْزَنَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ

(١) انظر: تفسير المنار (٨١/٩).

كَانُوا يُسْتَخَفُّونَ بِمَشْرِقِ الْأَرْضِ وَمَغْرِبِهَا الَّتِي بَدَرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ [الأعراف: ١٣٧].

وبعد وراثة الأرض، والاستخلاف فيها، مَنَّ الله عليهم بالتمكين، فقال سبحانه: ﴿وَزِيدُ أَنْ تَمَنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَخَفُّوا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَهُمْ آيَةً وَجَعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝ وَتَمَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَرَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَمْلَكَ وَخَوَّدَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [الفصل: ٥ - ٦].

* والله تعالى وعد المؤمنين من هذه الأمة بما وعد به المؤمنين قبلهم: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: بدلاً عن الكفار ﴿كَأَنَّهُمْ اسْتَخْلَفُوا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٥]. أي: من بني إسرائيل^(١).

فإذا حقق الناس الإيمان، وتحاكموا إلى شريعة الرحمن، فستأتيهم ثمرة ذلك، وأثره الباقي: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ [النور: ٥٥]. فهي مقدمات ونتائج، أعمال وآثار، فتحقيق الشحاكم إلى الدين، يتحقق به الاستخلاف، وتحقيق الحكم به، يوصل إلى التمكن^(٢).

* ثم إن وقائع التاريخ الإسلامي، تُصدّق هذا الوعد الإلهي للأمة بالنصر والتمكين إذا أقامت شرعه، فليست هناك جولة من جولات المسلمين انتصروا فيها على أعدائهم، وتقدّموا في شؤون دنياهم إلا وكان واقعهم شاهداً على تمكن القرآن منهم اعتقاداً وعملاً.

ثانياً: الأمن والاستقرار:

إذا استخلفت أمة ومكنت، فهي تحتاج دائماً إلى دواعي الأمن، وأسباب الاستقرار، حتى تحافظ على هذا التمكن، وقد ضمن الله ﷻ لأهل الإيمان والعمل بشرعه وحكمه، أن يحقق لهم الأمن الذي يشدّون، إذا استقاموا على التوحيد، ونبذوا الشرك بأنواعه، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمُ

(١) انظر: تفسير الجلالين (ص ٤٦٧).

(٢) انظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (١/٦٧٣).

يُظَلِّهِ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُسْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ [الأنعام: ٨٢]. وقال تعالى: ﴿وَلِيَسْبِقَنَّهُمْ مِنَ الْبَحْرِ مَنَاسِكُ وَمَنْ يُؤْتِكُمُ اللَّهُ الرِّقَابَ يُغْنِ عَنْهُ الرِّقَابَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْأُحْشَىٰ ۚ لَا يُؤْخَذُ عَنْهُمْ فَهُمْ لَا يُخْشَوْنَ ۚ﴾ [النور: ٥٥].
ولا يُتَصَوَّر تحقيق أمة للإخلاص في العبودية، والخلاص من الشرك، وبالتالي الشعور بالأمن والاستقرار إلا بإقامة شرع الله كاملاً غير منقوص، وإلا فإن الأمم المنحرفة عن شرع الله تُحِيطُ بِهَا الخوف والقلق من جميع جوانبها؛ لأنَّ الأمن والأمان قد سُلِبَ منها، قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلَهِّجُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أُولَئِكَ يَهْدِي اللَّهُ لِلذِّينِ يَرْثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الأعراف: ٩٧ - ١٠٠].

في حين أنَّ الله سبحانه امتنَّ على المؤمنين بالأمن في مظنة الخوف؛ لَمَّا انقادوا لحكم الله ورسوله ﷺ، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ٤]. والسَّكِينَةُ: هي الطمأنينة.

قال ابن كثير رحمه الله: «وهم الصَّحابة رضي الله عنهم يوم الحديبية، الذين استجابوا لله ولرسوله، وانقادوا لحكم الله ورسوله»^(١).

وإذا امتثل النَّاسُ شرع الله، وطَبَّقُوا أحكامه، ضَمِنُوا الأمن التَّام في أموالهم، وأعراضهم، ودمائهم، فما من حَدٍّ من الحدود، ولا شرعة من الشَّرَائِعِ إِلَّا وَتُحْفَظُ بسببها ضرورة من الصَّرُورَات الخمس: الدِّين، والنَّفْس، والعقل، والعرض، والمال.

وقوانين البشر الوضعيَّة لا تُحَرِّزُ أَمْنًا، ولا تُوفِّرُ استقراراً، إذا ما قورنت بالتشريعات الإسلاميَّة، فالدُّول - قديماً وحديثاً - تُنفق الأموال الطَّائلة، وترصد الميزانيات الهائلة؛ لتأمين الدَّاخل والخارج، ومع ذلك لا يحصل للنَّاس من الأمان عُشر معشار ما يمكنهم تحصيله، لو أنَّهم أقاموا حَدًّا من حدود الله تعالى، كحدِّ السَّرقة مثلاً^(٢).

(١)

(١) تفسير ابن كثير (٧/ ٣٣١). (٢) انظر: المصدر السابق (٨/ ٦٧٧).

ثالثاً: النصر والفتح:

الأعداء يترصّون بالأمة الإسلامية الدوائر، والله تعالى قد ضمن لهذه الأمة - إذا استقامت على شرعه - أن ينصرها على أعدائها بعزّته وقوّته، كما قال تعالى: ﴿وَلْيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (٥) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ غَفِيْبُ الْأُمُورِ [الحج: ٤٠ - ٤١]. والمعنى: لينصرنَّ الله ﷻ مَن ينصر دينه، ومَن ينصر أوليائه، وينتصر لشرعه في الأولين والآخرين، كما نصر المهاجرين والأنصار، على صناديد العرب، وأكاسرة العجم، وقياصرة الروم، وأورثهم أرضهم وديارهم (١).

وما حدث قط في تاريخ البشرية أن استقامت جماعة على هدى الله إلا منحها القوّة والمنعة والسيادة في نهاية المطاف؛ بعد إعدادها لحمل هذه الأمانة، أمانة الخلافة في الأرض وتصريف الحياة.

وإنَّ الكثيرين ليشفقون من اتباع شريعة الله والسّير على هداة، يشفقون من عداوة أعداء الله ومكرهم، ويشفقون من تألب الخصوم عليهم، ويشفقون من المضايقات الاقتصادية وغير الاقتصادية! وإنَّ هي إلا أوهام كأوهام قريش، يوم قالت لرسول الله ﷺ: ﴿إِنْ نَجَّيْكَ الْهُدَى مَعَكَ نَحْطِفُ مِنْ أَرْضِنَا﴾ [القصص: ٥٧]. فلمّا اتّبع هدى الله، سيطرت على مشارق الأرض ومغاربها في ربع قرن، أو أقل من الزّمان (٢).

وسنة الله تعالى ماضية في نصر مَن ينصر دينه، كما قال تعالى: ﴿إِنْ نَصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]. وقال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]. أي: «هو حقٌّ أوجبه على نفسه الكريمة، تكرماً وتفضلاً، كقوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]» (٣).

ولهذا فإنَّ حال الأمة من النّصر والعزّة، أو عذمتها، يعتبر مقياساً دقيقاً، وميزاناً للحكم على مقدار امتثالها - رعاة ورعية - لشريعة الله ظاهراً وباطناً.

(١) انظر: روح المعاني (١٧/١٦٤). (٢) في ظلال القرآن (٥/٢٧٠٤).

(٣) تفسير ابن كثير (٦/٣٣٨).

والى جانب تأييد الله تعالى بالنصر على الأعداء؛ فإنه تعالى يمنُّ على المؤمنين بفتح أرض العدو، وإخضاعها لحكم الله، وفتح القلوب وهدايتها لدين الإسلام، قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۖ﴾ [النصر: ١ - ٢]. وقال جلَّ شأنه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۖ لِيَفْرِغَ لَكَ اللَّهُ مَا قَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ وَعْدَهُ وَيَهْدِيكَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا ۖ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيمًا﴾ [الفتح: ١ - ٣]. فبالاستجابة للشريعة، يُستجلب الفتح، ويُستزل النصر، وتُستفتح الأرض.

فأي مسؤولية تلك التي تقع على عاتق الأمة - حكاماً ومحكومين - في تحكيم شريعة الله؟ إنها مسؤولية عظيمة على العامة تحاكماً وإذعاناً، وعلى ولاية الأمر - من الحكام والعلماء والقضاة - حُكماً وتبييناً، فهؤلاء أخصُّ في المسؤولية؛ بما حُمِّلوا وتحَمَّلوا من تبعه الولاية والقيادة^(١).

وفي ذلك يقول ابن تيمية رحمه الله: «إذا خرج ولاية الأمور عن هذا (أي عن التَّحَاكُم إلى الكتاب والسُّنة) فقد حَكَمُوا بغير ما أنزل الله، ووقع بأسهم بينهم... وهذا من أعظم أسباب تغيير الدُّول، كما قد جرى هذا مرَّة بعد مرَّة، في زماننا وغير زماننا، ومن أراد الله سعادته جعله يعتبر بما أصاب غيره، فيسلِّك مسلِّك مَنْ أَيْدَهُ اللَّهُ وَنَصَرَهُ، ويجتنب مسلِّك مَنْ خَذَلَهُ اللَّهُ وَأَهَانَهُ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ فِي كِتَابِهِ: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ غَلِيبٌ﴾ [الحج: ٤٠ - ٤١]. فقد وعد الله بنصر مَنْ ينصره، ونصره هو نصر كتابه ودينه ورسوله؛ لا نصْر مَنْ يحكم بغير ما أنزل الله، ويتكلَّم بما لا يعلم^(٢).

رابعاً: العزُّ والشرف:

دوام النصر والفتح بقاء للعزِّ والشرف، وكما لا يُنال ذلك النصر إلا بنصر دين الله، فلا يُطال هذا الشرف إلا بالاعتزاز والانتساب لكتاب الله الذي به

(١) انظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (١/٦٨٢).

(٢) مجموع الفتاوى (٣٥/٣٨٨).

تشرف الأمة، وبه يعلموا ذكورها، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠]. والمراد بالذكر هنا: هو الشرف، كما قال ابن عباس رضي الله عنه. والمعنى: أي فيه شرفكم وصيبتكم^(١). وقال تعالى في آخر الآية: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ والاستفهام: للتوبيخ والتقريع. والمعنى: أفلا تعقلون ما فضلتم به على غيركم^(٢).

فهذه الأمة لا تستمد الشرف والعزة إلا من استمسакها بدينها وتطبيقها لأحكام الشريعة في جميع نواحي الحياة، كما قال عمر رضي الله عنه: «إِنَّا كُنَّا أَذَلَّ قَوْمٍ، فَأَعَزَّنَا اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ، فَمَهْمَا نَطْلُبُ الْعِزَّ بغير ما أَعَزَّنَا اللَّهُ بِهِ أَذَلَّنَا اللَّهُ»^(٣). فهناك ارتباط وثيق بين حال الأمة الإسلامية عزاً وذلّاً، مع موقفها من تطبيق الشريعة إقبالاً وإدباراً، فما عزّت في يوم بغير دين الله، وما ذلّت في يوم إلا بالانحراف عنه.

ومن أراد العزة فليتعزّز بطاعة الله تعالى^(٤)؛ لأنّ مصدرها من الله تعالى، فليطلبها من مصدرها، كما قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً﴾ [فاطر: ١٠]. وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعَزُّ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨]. وهذه العزة كما كانت للمؤمنين السابقين فهي كذلك للآحقين شريطة أن يقتفوا أثرهم في تعظيم حرّامات الله، وتطبيق شرعه، والاعتزاز بدينه.

والمسلمون اليوم ليسوا مخيّر بين الاعتزاز بكتاب الله أو الاعتزاز بغيره، بل هم مسؤولون عن أخذهم الكتاب بقوة، ورفع رايته بعزة، والله تعالى يقول لرسوله الكريم صلى الله عليه وآله: ﴿فَاسْتَمِيعْ بِالَّذِي أَوْحَى إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٥) وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُنْشَرُونَ﴾ [الزخرف: ٤٣]. «والاستمساك: شدة الممسك،

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١٧٥/٣)؛ تفسير أبي السعود (٥٨/٦).

(٢) انظر: زاد المسير (٣٤١/٥)؛ فتح القدير (٤٠٠/٣).

(٣) رواه الحاكم في «المستدرک» (١٣٠/١) (رقم ٢٠٧)، وقال: «صحيح على شرط الشيخين... ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي. ورواه الهيثمي في «الزواجر» (١٤٤/٨)؛ والمنذري في «الترغيب والترهيب» (٣٥١/٣) (رقم ٤٣٩٣)؛ وصحّحه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٠٠/٣) (رقم ٢٨٩٣).

(٤) انظر: تفسير ابن كثير (٥٥٩/٦).

فالسَّيْنِ والتَّاءِ فِيهِ لِلتَّأْكِيدِ^(١). أَي: اسْتَمْسَكَ بِالَّذِي أَوْحَى إِلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالشَّرَائِعِ، سَوَاءً عَجَّلْنَا لَكَ الْمَوْعُودَ، أَوْ أَخَّرْنَاهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ^(٢).
وَالْمَعْنَى: خُذْ بِالْقُرْآنِ الْمَنْزُولِ؛ فَإِنَّهُ الْحَقُّ الْهَادِي إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ،
الَّذِي فِيهِ شَرَفٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ، وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَكَيْفَ كُنْتُمْ فِي
الْقِيَامِ بِحَقِّهِ، وَتَعْظِيمِهِ، وَالْعَمَلِ بِهِ، وَالِاسْتِجَابَةِ لَهُ، وَشُكْرِ هَذِهِ النُّعْمَةِ الْعَظِيمَةِ^(٣).
وَالْأَمَّةُ الْيَوْمَ تَفْتَقِدُ مِنَ الْعِزَّةِ إِلَى الْقَدْرِ الَّذِي فَقَدْتَهُ مِنْ دِينِهَا، وَلَنْ يَعُودَ لَهَا
هَذَا إِلَّا بِالِاسْتِمْسَاكِ بِكِتَابِ رَبِّهَا، وَتَطْبِيقِهِ فِي وَاقِعِ الْحَيَاةِ^(٤).

خامساً: بركة العيش ورغده:

الحياة الطَّيِّبَةُ، وَالْعِيشُ الرَّغِيدُ، أَكْبَرُ مِنْ مَجْرَدِ طَعَامٍ طَيِّبٍ، أَوْ مَلْبَسٍ
حَسَنٍ، أَوْ مَرْكَبٍ مَرِيحٍ، أَوْ مَسْكَنِ فَسِيحٍ، أَوْ زَوْجَةٍ حَسَنَاءَ، فَكُلُّ ذَلِكَ لَا يُوَفِّرُ
السَّعَادَةَ الْحَقَّةَ، إِلَّا إِذَا أُضِيفَ إِلَيْهِ بَرَكَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى، مِمَّا لَا تُسْتَجْلَبُ إِلَّا
بِطَاعَةِ اللَّهِ، وَإِقَامَةِ شَرْعِهِ، تِلْكَ الْبَرَكَةُ الَّتِي لَمْ تَوْضِعْ فِي قَلِيلٍ إِلَّا كَثْرَتَهُ، وَلَا فِي
صَغِيرٍ إِلَّا عَظَمَتَهُ، وَلَا فِي طَيِّبٍ إِلَّا وَضَاعَتُ فِي طَيِّبِهِ.

وَكُلُّ النَّاسِ يَنْشُدُ هَذِهِ الْبَرَكَةَ، وَيَتَطَلَّعُ إِلَى الْحَيَاةِ الطَّيِّبَةِ، وَلَكِنَّهُمْ لَيْسُوا
جَمِيعاً يَوْفُقُونَ إِلَى سُلُوكِ الطَّرِيقِ الْقَوِيمِ إِلَى ذَلِكَ، وَلِذَا دَعَا اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى
الِاسْتِجَابَةِ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ، وَإِقَامَةِ شَرِيعَتِهِ حَتَّى يَنَالُوا هَذَا الْمَطْلَبَ النَّفْسِ^(٥).

وَأَكْثَرُ الْأُمَمِ نَآتٍ بِأَنْفُسِهَا عَنِ الْإِسْتِجَابَةِ لِلَّهِ تَعَالَى، وَلِرَسُولِهِ ﷺ
فَارْتَفَعَتْ عَنْهُمْ الْبَرَكَةُ، وَضَاعَتْ أَعْمَارَهُمْ سُدًى، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ
الْقُرَى ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا
كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦]. وَيَا لِلْأَسَفِ لَمْ يُؤْمِنُوا وَيَتَّقُوا، فَأَخَذُوا
بِالْعُقُوبَاتِ، وَنَزَعَ الْبَرَكَاتِ، وَكَثُرَتِ الْآفَاتُ، وَالْآبَةُ الْكَرِيمَةُ تَعُدُّ الْمُؤْمِنِينَ
الْمُسْتَجِيبِينَ لِشَرْعِ اللَّهِ بِالْبَرَكَاتِ، مَتَى مَا حَقَّقُوا مَعْنَى الْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى^(٦).

(١) التحرير والتنوير (٢٥/٢٦٠). (٢) انظر: تفسير أبي السعود (٤٨/٨).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٧/٢٣٠)؛ تفسير السفي (٤/١١٥).

(٤) انظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (١/٦٨٦).

(٥) انظر: المصدر نفسه (١/٦٨٨). (٦) انظر: تفسير السعدي (٢/١٣٨).

سادساً: الهداية والتثبيت

الذين يتكبرون على التحاكم إلى شرع الله المنزل، يفوتون على أنفسهم نعمة عظيمة، يمنحها الله تعالى للمنفادين إلى أمره، المتحاكمين إلى شريعته، ألا وهي الهداية والتثبيت على الحق، وما أعظمها من نعمة، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَقَّ يُحْكَمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيَسْأَلُوكَ تَسْلِيمًا ۝ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنِييَةً ۝ وَإِذَا لَا تَأْتِيهِمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ۝ وَلَهْدِيَتْهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ٦٥ - ٦٨].

والأمر الذي وعظوا به، ووعدوا الخير لأجله: هو تحكيم الشريعة، والانقياد التام للرسول ﷺ، فلو أنهم امتثلوا ما أمروا به؛ لثبت الله تعالى أقدامهم على الحق، فلا يضطربون في أمر دينهم^(١).

وفي حصول التثبيت والثبات للمؤمنين وزيادته، يقول السعدي رحمه الله: «فإن الله يثبت الذين آمنوا بسبب ما قاموا به من الإيمان، الذي هو القيام بما وعظوا به. فيثبتهم في الحياة الدنيا، عند ورود الفتن في الأوامر، والنواهي، والمصائب. فيحصل لهم ثبات، يوفقون به لفعل الأوامر، وترك الزواجر، التي تقتضي النفس فعلها، وعند حلول المصائب، التي يكرها العبد. فيوفق للتثبيت بالتوفيق للصبر أو للرضا، أو الشكر. فينزل عليه معونة من الله، للقيام بذلك، ويحصل له الثبات على الدين، عند الموت وفي القبر. وأيضاً فإن العبد القائم بما أمر به، لا يزال يتمرّن على الأوامر الشرعية، حتى يألّفها، ويشتاق إليها وإلى أمثالها، فيكون ذلك معونة له على الثبات على الطاعات»^(٢).

وفي ظل المجتمع المختكم إلى الشريعة، تتفتح النوافذ بنسمات العلم النافع، وتتفتح القرائح بطرق العمل الصالح؛ فيسهل على الناس قصد الهداية،

(١) انظر: فتح القدير (١/٧٣٢).

(٢) المصدر السابق (١/٣٦٦).

يقول ابن عاشور رحمته الله - في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَهَدَيْتَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾: «أي لَفَتَحْنَا لَهُمْ طُرُقَ الْعِلْمِ وَالْهُدَايَةِ؛ لِأَنَّ تَصَدِّيهِمْ لَامْتِثَالِ مَا أَمَرُوا بِهِ هُوَ مَبْدَأُ تَخْلِيَةِ النُّفُوسِ عَنِ التَّعَلُّقِ بِأَوْهَامِهَا وَعَوَائِدِهَا، الْحَاجِبَةِ لَهَا عَنِ ذَرَكِ الْحَقَائِقِ، فَإِذَا ابْتَدَؤُوا يَرِفُضُونَ هَذِهِ الْمَوَاقِعَ، فَقَدْ اسْتَعَدُّوا لِتَلَقِّي الْحِكْمَةِ وَالْكَمَالَاتِ النَّفْسَانِيَّةِ، ففَاضَتْ عَلَيْهِمُ الْمَعَارِفُ تَتَرَى، بِدَلَالَةِ بَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ، وَبِتَيْسِيرِ اللَّهِ صَعْبَهَا بِأَنْوَارِ الْهُدَايَةِ وَالتَّوْفِيقِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الطَّاعَةَ مِفْتَاحَ الْمَعَارِفِ، بَعْدَ تَعَاطِي أَسْبَابِهَا»^(١).

الخلاصة:

نستخلص ممَّا سبق أَنَّ تحكيم شرع الله في حياتنا ينعكس على المجتمع بصورة إيجابية مباشرة؛ فهو يؤدي إلى تحقيق الاستقرار الداخلي والعدل الاجتماعي، والأمن المادي والنَّفسي، حيث يلتزم كلُّ إنسانٍ بما شرعه الله عليه من واجبات تجاه الله وتجاه الآخرين، وألَّا تَعَرَّضَ بِمُقْتَضَى هَذَا الشَّرْعِ إِلَى الْعُقُوبَةِ الْمُسْتَحَقَّةِ عَلَى حَسَبِ جُرْمِهِ، وفيه يشعر الإنسان بقيمته وإنسانيته؛ لأنَّه لا فرق بين شخصٍ وآخر مهما علا في الرُّتبة، أو دنا في المنزلة، فالكلُّ أمام شرع الله سواء.

وكذلك يؤدي تحكيم شرع الله إلى قوَّة هذا المجتمع وهذا البلد المُطَبَّق لحدود الله. نجاه آيَةُ قُوَّةٍ أُخْرَى؛ لأنَّه يستمدُّ قُوَّتَهُ مِنَ اللَّهِ تعالى وهنا معنى إيماني عظيم، وهو مدى الثِّقَّة التي يحملها في طيَّاته المسلم تجاه ربِّه، فإذا ما حَقَّقْنَا الثِّقَّةَ بِاللَّهِ تعالى وأنَّه صاحب العِزَّةِ وَالْمَنْعَةِ وَالنَّصْرِ، وأنَّه الرُّكْنُ الشَّدِيدُ الَّذِي نَأْوِي إِلَيْهِ إِذَا أَصَابْنَا مَكْرُوهٌ، على قدر هذه الثِّقَّةِ فِي اللَّهِ، وعلى قدر هذا اليقين، يكون التَّمَكُّنُ وَالنَّصْرُ وَقُوَّةُ الْمَجْتَمَعِ.

المطلب الثاني

الآثار الأخروية للحكم بما أنزل الله

أولاً: الفلاح والفوز:

الفلاح والفوز في الآخرة، امتداد للفلاح والفوز اللذين يحرزهما المؤمنون في الدنيا، باحتكامهم لشرع الله تعالى، وفي ذلك يقول المولى عليه السلام: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ٥١﴾ ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقوه فأولئك هم الفائزون [النور: ٥١ - ٥٢].

فهذا هو حال المؤمنين في كل مكان وزمان، إذا دُعوا إلى كتاب الله تعالى، وحُكِّمَ رسوله عليه السلام، يقولون بلسان حالهم ومقالهم: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أي: أجبنا مَنْ دعانا إلى حُكْمِ الله ورسوله، وأطعنا طاعةً تامةً، سالمةً من الحرج. قال ابن عاشور رحمته الله: «وفيه تعريضٌ بالمنافقين، إذ يقولون كلمة الطاعة ثم ينقضونها بضدّها من كلمات الإعراض والارتباب»^(١).

ومن أجل ذلك حُصِرَ الفلاح في المؤمنين؛ لأنَّ الفلاح: الفوز بالمطلوب، والنَّجاة من المكروه، ولا يُفْلَحُ إِلَّا مَنْ حَكَّمَ الله ورسوله، وأطاع الله ورسوله^(٢). ثمَّ قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فيما أمراه به، وحكماً به، وترك ما نهى عنه، ﴿وَيَخْشِ اللَّهَ﴾ فيما مضى من ذنوبه، ﴿وَيَتَّقِهِ﴾ فيما يستقبل، ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ والفوز: هو الظفرُ بالمطلوب الصَّالح. والمعنى: هم الذين فازوا بكلِّ خيرٍ، وأمَّنوا من كلِّ شرٍّ في الدنيا والآخرة^(٣). وقيل: الفائز مَنْ نجا من النَّار، وأدخل الجنة^(٤).

وقيل: هم الفائزون بالنَّعيم الدُّنيوي والأخروي، لا مَنْ عداهم^(٥).

فقد جَمَعَت هذه الآية الكريمة أسباب الفوز في الدنيا والآخرة، وهي:

(٢) انظر: تفسير السعدي (٣/٤١٠).

(٤) انظر: تفسير القرطبي (١٢/٢٩٥).

(١) المصدر نفسه (١٨/٢٢٠).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٦/٨٥).

(٥) انظر: فتح القدير (٤/٦٨).

طاعة الله ورسوله، وخشية الله، وتقواه^(١).

ثانياً: المغفرة وتكفير السيئات:

تحكيم الشريعة مظنة توبة التائبين في الدنيا، وقبول هذه التوبة في الآخرة، بالمغفرة ومحو السيئات، وكان النبي ﷺ يُبايع المؤمنين والمؤمنات على أمور، هي في مضمونها إثبات لموقف التحاكم إلى الشريعة، والخضوع لها.

عن عبادة بن الصّامت رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال وَحَوْلَهُ عَصَابَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ: «بَايَعُونِي عَلَى أَلَّا تُشْرِكُوا بِاللّهِ شَيْئاً، وَلَا تَسْرِقُوا، وَلَا تَزْنُوا، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ، وَلَا تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ، وَلَا تَعْصُوا فِي مَعْرُوفٍ، فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئاً فَعُوقِبَ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئاً ثُمَّ سَتَرَهُ اللَّهُ فَهُوَ إِلَى اللَّهِ، إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ، وَإِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ» فَبَايَعْنَاهُ عَلَى ذَلِكَ^(٢).

قال ابن حجر رحمته الله: «ويستفاد من الحديث: أن إقامة الحد كفارة للذنوب، ولو لم يتب المحدود، وهو قول الجمهور. وقيل: لا بد من التوبة، وبذلك جزم بعض التابعين، وهو قول للمعتزلة، ووافقهم ابن حزم، ومن المفسرين: البغوي، وطائفة يسيرة، واستدلوا باستثناء مَنْ تاب في قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْرَأُوا عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ٣٤]. والجواب في ذلك: أنه في عقوبة الدنيا، ولذلك قُيدت بالقدرة عليه^(٣).

وهذه البيعة كانت على الامتثال لسائر شرائع الإسلام، وما لم يُذكر في هذه المبايعة كالصلاة، والزكاة، وسائر أركان الدين، وشعائر الإسلام؛ لوضوح أمره واشتعاره^(٤).

وتكفير السيئات مكسب أخروي عظيم، لا يمكن للناس إدراكه إلا بالتحاكم

(١) انظر: التحرير والتنوير (٢٢١/١٨).

(٢) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب: علامة الإيمان حُب الأنصار (٣٠/١) (ج ١٨).

(٣) فتح الباري: شرح صحيح البخاري (٩٤/١).

(٤) انظر: تفسير أبي السعود (٢٤١/٨).

إلى الشريعة الإسلامية، وأما محبة الطواغيت والتحاكم إليها لا تغفر الذنوب، بل تستجلبها.

وقد أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يستغفر للمؤمنين إذا هم بايعوه على السمع والطاعة، والرضى بحكم الله ورسوله، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبِيَّنَنَّ عَلَيْكَ أَن لَّا يَشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْبِينَ بِمُنْهَنٍّ يَفْقَرْنَ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعُهُنَّ وَاسْتَعْفِفْنَ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المتحنة: ١٢]. أي: مُبالغ في المغفرة والرحمة، فيغفر للمبايعين، ويرحمهم إذا وقوا ما بايعوا^(١).

ثالثاً: الأجر العظيم:

المتحاكمون إلى شرع الله، لا ينجون بالمغفرة من السيئات فحسب، بل يظفرون بأجرٍ عظيم، وثواب كبير جزاء ذلك.

فبعد أن بين المولى تبارك وتعالى حُكْمَ مَنْ لَمْ يُحْكَمْ بِالرَّسُولِ ﷺ في قوله سبحانه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحْكَمُوا فِيهَا شُكْرًا بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥].

أتبع ذلك بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّا كُنْهْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ أَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوا إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا ۖ وَإِذَا لَا تَأْتِيَهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ۖ وَلَهْدَيْتَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ٦٦ - ٦٨].

فبين النظم الحكيم عاقبة تحكيم الرسول ﷺ، والانقياد لما يحكم به، والاتعاظ بما يعظ به: ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا﴾ أي: لكان هذا الانقياد لما يحكم به الرسول ﷺ خيراً لهم في الدنيا والآخرة، وكان أشدَّ تثبيتاً لقلوبهم على الإيمان.

وماذا يكون لهم من جزاء بعد هذا التثبيت؟

هو ما هو جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَا تَأْتِيَهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

وقد فُحِّمَ الأجر العظيم بنسبة عطائه إلى الله تعالى بنون العظمة، وفي ذلك

(١) انظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (٢/ ٦٩٥).

يقول الرّازي رحمه الله: «إنّه تعالى جَمَعَ في هذه الآية قرائن كثيرة، كلُّ واحدة منها تدلُّ على عِظَم هذا الأجر.

أحدها: أنّه ذَكَرَ نَفْسَهُ بصيغة العِظَمَةِ، وهي قوله: ﴿لَا تَبْتَهِمُ﴾، وقوله: ﴿مِنْ لَّدُنَّا﴾. والمعطي الحكيم إذا ذكر نفسه باللفظ الدّال على عِظَمَةٍ عند الوعد بالعِطِيَّة، دلّ ذلك على عِظَمَةِ تلك العِطِيَّة.

وثانيها: قوله: ﴿مِنْ لَّدُنَّا﴾، وهذا التّخصيص يدلُّ على المبالغة، كما في قوله: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥].

وثالثها: أنّ الله تعالى وَصَفَ هذا الأجر بالعظيم، والشّيء الذي وَصَفَهُ أعظمُ العِظَماء بالعِظَمَةِ، لا بدّ وأن يكون في نهاية الجلالة، وكيف لا يكون عظيماً، وقد قال عليه الصّلاة والسّلام: (فيها ما لا عين رأت، ولا أُذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر) (١) (٢).

رابعاً: مرافقة الأنبياء والصّديقين:

سمّى الله تبارك وتعالى التّحاكم إلى الرّسول (طاعة) وجعل عاقبتها معية كريمة، ومقاماً كريماً، في صحبة كريمة، في جوار الله الكريم، فقال سبحانه: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصّٰدِقِينَ وَالشّٰهَدَٰءِ وَالصّٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ۖ﴾ [النساء: ٦٩ - ٧٠].

والمعنى: أنّ كلّ مَنْ يُطِيع الله ورسوله ﷺ، ويتحاكم إليهما على الوجه المذكور في الآيات، من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَطِيعُوا أَوْلِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿... ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللّٰهِ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٥٩ - ٧٠]. فله أحسن الجزاء، وأحسن العاقبة، في الدنيا والآخرة. فسياق الآيات كلّها في التّحاكم إلى الله والرّسول قولاً وعملاً.

(١) رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب: ما جاء في صفة الجنّة، وأنها مخلوقة (٢/ ١٠٠٢) (ج ٣٢٤٤)؛ ومسلم، كتاب الجنّة، وصفة نعيمها وأهلها (٢/ ٢١٧٤) (ج ٢٨٢٤)..
(٢) التفسير الكبير (١٠/ ١٣٥). وانظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (٢/ ٦٩٧).

وَحَقٌّ لِمَنْ أَقَامَ هَذَا التَّحَاكُمَ عَلَى مَا يَرِيدُ اللَّهُ تَعَالَى، أَنْ يَرْفِيَ صُعْدًا مَعَ هَذِهِ الصُّحْبَةِ الْمُبَارَكَةِ، فِي الْفَرْدُوسِ الْأَعْلَى؛ لِأَنَّ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءَ وَالصَّالِحِينَ هُمْ خَيْرُ مَنْ أَطَاعَ اللَّهُ تَعَالَى ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، وَأَقَامَ شَرِيعَتَهُ وَوَحَّدَهُ، فَمَنْ حَذَا حَذْوَهُمْ خُشِرَ مَعَهُمْ، وَصَحِبَهُمْ فِي الْفَرْدُوسِ الْأَعْلَى مِنَ الْجَنَّةِ، وَهُوَ طَرِيقٌ مَفْتُوحٌ لِكُلِّ مَنْ اقْتَدَى بِهِمْ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا^(١).



(١) انظر: المصدر نفسه (٦٩٩/٢).

المبحث الرابع

الآثار السيئة للحكم بغير ما أنزل الله

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الآثار الدنيوية للحكم بغير ما أنزل الله.

المطلب الثاني: الآثار الأخروية للحكم بغير ما أنزل الله.

المطلب الأول

الآثار الدنيوية للحكم بغير ما أنزل الله

كما أنَّ تحكيم الشريعة تعمر به الدنيا، وتطيب به الآخرة، فبالانحراف عنها تتكدَّر الدنيا، وتضيع الآخرة، فليس هناك مَعُولُ هدم أشدَّ خطراً على دين النَّاس ودنياهم، من الخضوع لشرائع الجاهليَّة الأبقَّة عن الله، وإنَّ الحُكَّام المُبدِّلين لشريعة الله والمنحرفين عنها، لَيَدْخِلُونَ على النَّاس أنواعاً من الفتن والمحن، بقدر ما يَخْرُجُونَ بهم عن حُكْم اللطيف الخبير ﷺ.

فالفتن والمحن تظلُّ تتوالى على النَّاس تَتْرَى، حتَّى تطالَ جميعَ أوجه حياتهم، فتُحِلُّ رخاءها شقاء، وأمنها خوفاً، وعذوبتها عذاباً، وأفراحها أتراحاً.

وإنَّ آثار تلك الانحرافات عن شرع الله، لتبدو على الحياة في وجهتها الدُّنيَّة، والاجتماعيَّة، والسَّياسية، والاقتصاديَّة، وتصيب بشرها محاسنها، وتُشوِّه معالمها. وبذلك تتحوَّل الحياة إلى فتنة في الدنيا والآخرة، والله تبارك وتعالى حذَّرنَا من مخالفة الأوامر الشرعية، في قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ - في تفسيرها: «أي: فليحذر وليخش مَنْ خالف شريعة الرَّسول ﷺ باطناً أو ظاهراً ﴿أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾، أي: في قلوبهم، من كفر، أو نفاق، أو بدعة، ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أي: في الدنيا، بقتل، أو حدٍّ، أو حبس، أو نحو ذلك»^(١).

وإنَّ المجتمعات التي تُسَلِّمُ قيادتها للحُكَّام المُبدِّلين، يُضَحِّي بها، كما ضَحَّتْ هي بشريعة الله، وتنازلت عنها أمام عتبات البرلمانات، وهياكل التشريع الوضعي، وهي تدفع ضريبة التَّخَلِّي عن الحكم بما أنزل الله، من أموالها وأعراضها، وعقول أبنائها، وغير ذلك من ثرواتها الأدبيَّة والماديَّة، ذلك إلى

(١) تفسير ابن كثير (٦/٢٠١).

جانب ما يجزئه التَّخْلِي عن الحكم بما أنزل الله، من الجوع، والخوف، وضنك العيش، وغضب الله في الدُّنيا والآخرة^(١). وفيما يلي استعراض لبعض الآثار المترتبة على الحكم بغير ما أنزل الله في الحياة الدُّنيا:

أولاً: قسوة القلوب:

تحريف الشريعة أو الانحراف عنها، يوقعان في قسوة القلوب، وقد ضرب الله تعالى لنا المثل باليهود الذين انحرفوا، وحرفوا في كلام الله، وكيف كانت عاقبتهم السيئة، قال تعالى: ﴿فِيمَا نَقُصُّهُمْ يُتْلَفُهُمْ لَمَّا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ بَاقِيَةٌ فَكُنَ لَهُمْ لِقَاءُ اللَّهِ أَكْبَرًا وَكَانَ صَرْحًا نَجْدًا﴾ [المائدة: ١٢٣]. ومعنى ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾: «أي: ضُلْبة، لا تعي خيراً، ولا تفعله. والقاسية والعاتية بمعنى واحد»^(٢).

وقيل: «جعلت قلوبهم غليظة، لا تجدي فيها المواعظ، ولا تنفعها الآيات والنذر، فلا يُرْغِبُهُمْ تشويق، ولا يُرْجِعُهُمْ تخويف»^(٣). فهم لما نقضوا ميثاق الله على السَّمْع والطَّاعة، وساء تصرفهم في آيات الله، وتأولوا كتاب الله على غير ما أنزله، وحملوه غير مراده، وقالوا عليه ما لم يقل، ثم تركوا العمل به رغبةً عنه؛ جعل الله قلوبهم قاسية، فلا يتعظون بموعظة؛ لغلظها وقساوتها^(٤).

وهذا من أعظم العقوبات أن يُخذل القلب، ويُمْنَع الألفاظ الربَّانية، ولا يزيده الهدى والخير إلَّا شراً^(٥).

وهكذا الشأن في كلِّ مَنْ عدل عن شرع الله، مُحْكَمًا عقله وهواه؛ فجزاؤه أن يُطْبَع على قلبه: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى مَعِينِهِ وَقَلْبُهُ يَفْهَمُ وَهُوَ يُعَلِّمُ بَعْدَ إِلَهٍ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣]^(٦).

(١) انظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (٧٠٥/٢، ٧١٠).

(٢) تفسير القرطبي (١١٥/٦). (٣) تفسير السعدي (٢٢٥/١).

(٤) انظر: تفسير ابن كثير (٣٤/٢). (٥) انظر: الكشف (٦٥٠/١).

(٦) انظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (٧١٤/٢).

ثانياً: الضلال عن الحق:

اتباع الأهواء وتقديمها على أحكام الله تعالى، يوقع في الضلال عن سبيل الحق، ولهذا أمر الله ﷻ نبيه داود عليه السلام أن يحكم بالحق المنزل من عند الله تعالى، ونهاه أن يتبع الأهواء المضلة عن سبيل الحق، فقال تعالى: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

قال الشنقيطي رحمه الله: «ومعلوم أن نبي الله داود عليه السلام لا يحكم بغير الحق، ولا يتبع الهوى فيضله عن سبيل الله، ولكن الله تعالى يأمر أنبياءه عليهم الصلاة والسلام، وينهاهم؛ ليشروع لأمرهم»^(١).

والله تعالى حذر أهل الكتاب أن يقلدوا بعضهم في الأهواء المضلة الصادة عن الحق، فقال سبحانه: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧]. لكنهم أوغلوا في الضلال، بل جمعوا بين الضلال والإضلال^(٢).

ومن نواياهم العدائية - التي حذر الله تعالى منها - أنهم يحبون أن يروا هذه الأمة على غير هداية، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾^(٣) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَابِكُمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٤٤ - ٤٥]. وهذا يحتم على الأمة - حتى لا تقع فيما وقع فيه أهل الكتاب - أن تنقاد لقضاء الله تعالى ورسوله ﷺ، حتى لا تهوى في غياهب الضلال مثلهم.

كيف وقد جاء التحذير الصريح، في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلًّا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

أي: «ليس لمؤمن ولا مؤمنة أن يكون له اختيار عند حكم الله ورسوله، فما أمر الله هو المتبع، وما أراد النبي هو الحق، ومن خالفهما في شيء فقد ضلَّ».

(٢) انظر: تفسير السعدي (١/٢٤١).

(١) أضواء البيان (٧/٢٨).

ضلالاً مبيناً؛ لأنَّ الله هو المَقْصِدُ، والنَّبِيُّ هو الهادي الموصل، فمَنْ ترك المَقْصِدَ، ولم يسمع قولَ الهادي، فهو ضالٌّ قَطْعاً^(١) وسبب الوقوع في هذا الضلال البين: أَنَّهُ «تَرَكَ الصُّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، الموصلة إلى كرامة الله، إلى غيرها، من الطُّرُق الموصلة للعذاب الأليم. فذكر أولاً، السَّبَبَ الموجب لعدم معارضة أمر الله ورسوله، وهو الإيمان. ثم ذكر المانع من ذلك، وهو التَّخَوُّفُ بالضلال، الدَّالُّ على العقوبة والنكال»^(٢).

ثالثاً: الوقوع في النِّفاق:

يُبتلى بالنِّفاق مَنْ يضمرون الكراهية لشرع الله تعالى، حتَّى تصير قلوبهم مريضة بهذا النِّفاق، فيحاولون جُهدهم أن يُخفوا نفاقهم، ظانين أن ذلك أمرٌ ممكن، ولكن يأبى الله تعالى إلا أن يفضح المنافقين بفلتات ألسنتهم، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَثَهُمْ ۖ﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَتَرَفَتْهُمُ بِسَمِهِمْ وَلَتَرْفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ [محمد: ٢٩ - ٣٠]. والأضغان: جمع ضغن، وهو ما في النفوس من الحسد، والحقد، والعداوة للإسلام وأهله، القائمين بنصره^(٣).

واللَّام في قوله تعالى: ﴿وَلَتَرْفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾: جوابُ قَسَمٍ محذوف^(٤). ولحن القول: ما يبدو من كلامهم الدَّالُّ على مقاصدهم، بالتعريض أو التورية، ومنه قيل للمخطئ: لاجن؛ لعدله بالكلام عن سَمْتِ الصَّواب^(٥).

والنِّفاق سبب ومسبَّب في الوقت ذاته؛ فهو سبب للإعراض عن حُكم الله تعالى، فلا يُعرض عن حُكم الله وسنَّة رسوله ﷺ إلا منافق عامرٌ قلبه بالنِّفاق، ولا يُحارب الشَّريعة وأحكامها إلا مَنْ امتلأ قلبه - ابتداءً - بالنِّفاق، وهو مسبَّب أيضاً، فمَنْ أعرض عن حُكم الله وشرعه عن تقليد أعمى للغرب أو لغيره فلا

(١) التفسير الكبير (١٨٣/٢٥).

(٢) المصدر السابق (١٥٣/٤). وانظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (٧١٥/٢).

(٣) انظر: التحرير والتنوير (١٠١/٢٦).

(٤) انظر: تفسير أبي السعود (١٠١/٨)؛ الكشف (٣٣٠/٤).

(٥) انظر: تفسير ابن كثير (١٨١/٤)؛ تفسير أبي السعود (١٠١/٨).

يأمن على نفسه أن يقع في النفاق وإن كان - ابتداءً - غير منافق .

إنَّ شأن المنافقين الدائم هو الاستهزاء بالشريعة وحملتها، والإعراض عمَّا أنزل الله تعالى، والصدُّ عن سبيله، وقد كانوا يُشفقون من افتضاح نفاقهم بهذا الاستهزاء والإعراض، حتَّى قال قائلهم: والله لوددت أنِّي قُدمْتُ، فجلدت مائة، ولا ينزل فينا شيء يفضحنا، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَزِرُوا إِلَيَّ اللَّهُ يُخْرِجُ مَا تَحْذَرُونَ ٦٤﴾ ولكنَّ سألتهُم ليقولُك إنا كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآلنبي ورسوله كنتم تستهزئون ﴿٦٥﴾ لا تقدرُوا قد كثرتم بعد إيمانكم إن نقف عن طاعتكم منكم نقذب طاعة بأنهم كانوا مجرمين ﴿التوبة: ٦٤ - ٦٦﴾^(١).

ومن أبرز صفات المنافقين الإعراض عن أحكام الشريعة، والتحاكم إلى الطاغوت، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَقَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ٦٦﴾ فكيف إذا أصابتهُم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسنا وتوفيقاً ﴿النساء: ٦١ - ٦٢﴾.

«أي: كيف يكون حالهم وقت إصابة المصيبة إياهم، بافتضاحهم بظهور نفاقهم؛ بسبب ما عملوا من الجنايات، التي من جملتها: التحاكم إلى الطاغوت، والإعراض عن حكمك؟»^(٢).

رابعاً: الحرمان من التوبة:

أشدُّ ما يُمكن أن يعاقب به الإنسان في هذه الدنيا، أن يُحرَم من التَّوْفِيق للتَّوْبَةِ، والقرآن العظيم بيِّن أنَّ من الأعمال التي تُعرِّض فاعلها للحرمان من التَّوْبَةِ: تحريف ما أنزل الله، وإخضاعه للهوى أخذاً أو رداً، وهو عين ما فعله أعداء الله من كفار أهل الكتاب، وأوليائهم المنافقين، قال الله تعالى - مواسياً رسوله الكريم ﷺ حتَّى لا يحزن، ولا يأسى على أمثال هؤلاء الشُّرذمة: ﴿يَتَأْتِيهَا الرِّسُولُ لَا يَحْزَنكَ أَلَّذِينَ يُسْكِرُونَ فِي الْكَفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَقْوَامِهِمْ وَلَمْ

(١) انظر: أسباب النزول للواحدي (ص ١٨٧)؛ تفسير القرطبي (٨/ ١٨١).

(٢) تفسير أبي السعود (٢/ ١٩٥). وانظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (٢/ ٧١٦).

تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَكَّعُوا لِلْكَذِبِ سَكَّعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخِرِينَ لَمْ يَأْتُواكَ
بِخَبْرٍ مِنَ الْكَلِمِ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تَأْتَوْهُ
فَلَا تَحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْعًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ
اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ [المائدة: ٤١].

قال ابن كثير رحمته الله: «نزلت هذه الآيات الكريمات في المسارعين في الكفر،
الخارجين عن طاعة الله ورسوله، المقدمين آراءهم وأهواءهم على شرائع الله ﷻ:
«مِنَ الَّذِينَ قَالُوا ءَامَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ»، أي: أظهروا الإيمان بالسنتهم،
وقلوبهم خرابٌ خاوية منه، وهؤلاء هم المنافقون: «وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا» أعداء
الإسلام وأهله»^(١).

والجريمة التي اقترفها هؤلاء: هي انحرافهم عن شريعة الإسلام بتبعضها
تارة، وأخرى بتحريفها حسب أهوائهم وشهواتهم، ومصالحهم الدنيئة، فجاءت
عقوبتهم متلائمة مع فظاعة جرمهم - الحرمان من التوبة: «أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ
اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ» أي: أَنَّ الله تعالى حَتَمَ عليهم ألا يتوبوا من ضلالهم
وكفرهم، فلم «يُرِدِ الله أَنْ يُطَهِّرَ» من دَنَسِ الكفر، وَوَسَخِ الشُّرْكَ - قلوبهم بطهارة
الإسلام، ونظافة الإيمان، فيتوبوا»^(٢).

وقد ذكر الرازي رحمته الله عَذَّةَ أوجه في عدم طهارة قلوبهم، فقال: «أحدها: لم
يُرِدِ الله أَنْ يُمِدَّ قلوبهم بالأنطاف؛ لأنه تعالى علم أَنَّهُ لا فائدة في تلك الأنطاف؛
لأنها لا تنجح في قلوبهم. وثانيها: لم يرد الله أَنْ يُطَهِّرَ قلوبهم عن الحرج والغم
والوحشة على كفرهم. وثالثها: أَنَّ هذا استعارة عن سقوط وقعه عند الله تعالى،
وأنه غير مُلْتَفِتٍ إليه؛ بسبب قبح أفعاله، وسوء أعماله»^(٣).

ودلَّت الآية الكريمة: «على أَنَّ مَنْ كَانَ مقصوده بالتَّحَاكُمِ إِلَى الْحُكْمِ
الشَّرْعِيِّ، اتَّبَعَ هواه، وَأَنَّهُ إِنْ حُكِمَ لَهُ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُحْكَمْ لَهُ سَخَطَ، فَإِنَّ ذَلِكَ
مِنْ عَدَمِ طَهَارَةِ قَلْبِهِ. كَمَا أَنَّ مَنْ حَاكَمَ وَتَحَاكَمَ إِلَى الشَّرْعِ، وَرَضِيَ بِهِ، وَافَقَ

(٢) تفسير الطبري (٤/٣٠٩).

(١) تفسير ابن كثير (٣/١٣٦).

(٣) التفسير الكبير (١١/١٨٤).

هواه أو خالفه، فإنَّه من طهارة القلب. ودلَّ على أنَّ طهارة القلب سبب لكلِّ خير، وهو أكبر داعٍ إلى كلِّ قولٍ رشيد، وعملٍ سديد^(١).
 كما دلَّت على الخزي لليهود والمنافقين: فبالإضافة لعدم طهارة قلوبهم فإنَّ هناك خزيّاً يلاحقهم ويحيط بهم من جميع الجهات، قال الله تعالى: ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾. فخزي اليهود: فضيحتهم بظهور كذبهم في كتمان نصِّ الله تعالى، في إيجاب الرِّجم، وأخذ الجزية منهم.
 وخزي المنافقين: هتك أستارهم بإطلاع الرُّسول ﷺ على كذبهم، وخوفهم من القتل^(٢).

خامساً: الصَّدُّ عن سبيل الله:

إنَّ الصَّدَّ الأكبر عن سبيل الله هو أحد الآثار القبيحة للحكم بغير ما أنزل الله، فالمُعَرَّض عن كتاب الله ﷻ لا يكفيه إعراضه عن حُكم الله، ولا يُرضيه تَجَنُّبُهُ لشرع الله في حياته، بل يتعدَّى ذلك إلى أن يكون داعيةً إلى غير شرع الله، منادياً بقوانين وضعيَّة مُدافعاً عنها، مُستميئاً في التَّعليل لها، ليس هذا فحسب، بل يُنكر على مَنْ يُطالب بتحكيم شرع الله، ويقف في وجههم بكلِّ ما لديه من قوَّة، مُستخدماً الإعلام في التَّشهير بهم والصَّاق التُّهم الكاذبة: من الإرهاب والأصوليَّة، وغيرها من المصطلحات، بل والتَّعدي عليهم - أحياناً - بوحشية وقسوة، والزُّجُّ بهم في غياهب الشُّجون، وبهذا يكون صادّاً عن سبيل الله. وهناك ارتباط وثيق بين الانحراف عن شرع الله تعالى، والصَّدُّ عن سبيله، فعلاقتهما ببعض علاقة السَّبب بالمسبَّب، ففي الأجواء البعيدة عن حُكم الله ورسوله، تنهياً الفرصة لأكبر صدٍّ عن سبيل الله.

قال الله ﷻ - عن مشركي العرب الذين اعتاضوا عن اتِّباع شرع الله، بما التَّهوا به من أمور الدُّنيا الخسيسة، صادِّين النَّاسَ عن الإسلام: ﴿اشْتَرَوْا بِكَيْفَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]^(٣).

(١) تفسير السعدي (١/٤٨٥).

(٢) انظر: المصدر السابق (١٨٥/١١)؛ الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (٢/٧١٨).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٢/٣٣٩).

وهناك صنفان متقابلان من أهل الكتاب، تحدث القرآن عنهم في قوله تعالى: ﴿فَيُظَاهِرُ مِنَّ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبِئَتْ أُحْلَتْ فَمَنْ وَصَدَّهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ۖ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝ لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْتُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٦٠ - ١٦٢].

ففرق توعدهم الله تعالى بالعذاب الأليم؛ لتعاطيهم الرشوة على الحكم، فصدوا الناس عن الدين، إضافة إلى أكلهم الربا، وأموال الناس بالباطل. وفي مقابلهم فريق استحقوا الأجر العظيم؛ لإيمانهم بالشريعة المنزلة، ثم إيمانهم بالشريعة الحققة الناصحة، فكانوا مثلاً يقتدى بهم^(١).

ولهذا الارتباط الوثيق بين الانحراف عن شرع الله، والصد عن دينه، استحق الصادون عن سبيله اللعنة والطرده من رحمته. قال تعالى: ﴿أَن لَّمْ تَعْلَمْ أَنَّا ظَالِمِينَ ۝ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَنْهَوْنَ عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف: ٤٤ - ٤٥]. إن الحاكمين والمتحاكمين إلى غير ما أنزل الله تعالى، هم على رأس هؤلاء الظالمين، فكم أخرجوا أناساً من الدين، وكم أضاعوا الآخرة على كثير من العالمين، فهم مستحقون لهذه اللعنة؛ لأنهم مسؤولون عن جانب كبير من الضياع والتهب الذي تعانيه البشرية كلها^(٢).

سادساً: غياب الأمن وانتشار الفوضى:

لو تأملنا وصف القرآن العظيم للإنسان بمعزل عن الإيمان، لوجدناه عجياً: فهو ضعيف أمام المغريات، ونسي للإحسان، وظلوم في الحقوق، وكفار للنعم، ومجادل بالحق أو الباطل، وعجول متسرّع، وناكر للفضل، وبخيل بما عنده، وشديد في الخصومة، وشر في جلب الخير لنفسه، وقنوط إذا عجز عن جلب هذا الخير، وهلع جزع إذا أصيب بضّر، أو ألم به شر، وهو ضان بالخير إذا

(١) انظر: المصدر نفسه (١/٥٨٥).

(٢) انظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (٢/٧٢٠).

تَحْصُلُ عَلَيْهِ، وَالطُّغْيَانُ هُوَ الصِّفَةُ السَّائِدَةُ فِي الْإِنْسَانِ، فِي مَعْرِضٍ عَنْ شَرَعِ الرَّحْمَنِ: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَآفٍ كَارٍ ۖ أَن رَّاهُ أَنتَقَضَ﴾ [العلق: ٦ - ٧].

ولا يمكن أن تواجه طباع هذا المخلوق إلا بشريعة من عند خالقه: ﴿أَلَا يَتْلُمَنَّ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]. وكيف نتخيّل مجتمعاً يُترك فيه الإنسان كالوحش الضاري، أو السبع الكاسر، دونما شريعة تطهّر قلبه وجوارحه، فيقترب من صفات الملائكة، بعد أن كان - قبل أن يُطهّر بها - أدنى إلى صفات الشياطين.

إن تحقيق الأمن في المجتمعات مرتبط بتطبيق شرع الله، فقد خصّ الله ﷻ مَنْ طَبَّقَ شَرْعَهُ، وَحَقَّقَ شَرِيعَتَهُ بِالْأَمْنِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

والمتمائل في حال المجتمعات الغير محكومة بحكمة الشريعة وضبطها للأموال يرى: كثرة القتل، والاغتصاب، واستباحة الأموال بكل الطرق والأشكال، وانتشار الفواحش والزنا، والفجور والخنا، والإدمان، واللصوصية، والجاسوسية، والتشاجر، والتنافس، والتحاسد، والشح، والبخل، والجهل، والظلم، وهذا كله من مظاهر غياب الأمن المرتبط بتحكيم شرع الله. وهذا ما يريد الرّاغبون عن حكم الله إشاعته في الذين آمنوا، بتعطيلهم حكم الشريعة الإلهية التي تضبط - وحدها - النفس البشرية العاتية.

والمشرّعون والحاكمون بأحكام الشرائع الوضعيّة هم قطعاً ممن يحبّون أن تشيع هذه الفواحش والمنكرات في الذين آمنوا، وقد توعدّهم الله تعالى بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩].

فهؤلاء يحاربون الله ورسوله على علم؛ لأنّ قوانينهم تجعل من الظلم شريعة، فهي تحمي الزناة، والبغاة، والقتلة، والسّراق، ويضرب الشيخ صلاح أبو إسماعيل^(١) مثلاً لنوع من الظلم المُقَنَّ، الذي أحدثه الظالمون في حياة

(١) هو صلاح أبو إسماعيل، أحد علماء الأزهر، ولد سنة (١٣٤٦هـ) انتخب نائباً في مجلس

المسلمين قسراً وقهراً، فيقول: «ما رأي القانون الوضعي في رجل دخل بيته، ففوجئ برجل يزني بامرأته، على فراش الزوجة داخل بيته، فغلى دم الزوج في عروقه، وأراد قتل الزاني، فكانت يد الزاني أسرع فقتل الزوج...»

أتعرف - أيها القارئ الكريم - ما حكم القانون الوضعي في هذا؟! ... إن هذا الزاني يخرج بريئاً من جريمتي الزنا والقتل كليهما!

أما خروجه من جريمة الزنا؛ فلأن الزوج وحده هو الذي يملك أن يرفع دعوى الزنا ضد زوجته، وقد قُتل! وليس ذلك الحق لأبيها، أو لأخيها، أو لولدها، أو لأحد غير الزوج القاتل. وأما خروجه من جريمة القتل؛ فلأنه كان في حالة دفاع عن النفس! ولذلك لا يُقتل، ولا يُرجم، ولا يُجلد!

فهل رأيت - أيها القارئ الكريم - ديناً يُقر هذا البلاء؟! ... إن القوانين في مضر تُقر هذا البلاء^(١).

فوضى الاعتداء على الأموال:

وإذا تُركت التدابير الشرعية لحماية ممتلكات الناس، فإن الإجراءات الوضعية لا تُفلح في توفير الحماية لها، بل إنها تفتح أبواب السلب والنهب، أمام مرضى التكبُّب بالحرام، فتنتفتح شهية السراق، وتنمو خبرات المختلسين، وتنتعش رغبات المحتكرين، وتحاول القوانين الوضعية - يائسة - أن تقضي على الجريمة، فلا تزيدها إلا شيوعاً بإجراءاتها الخرقاء، فالشُّجون - المكتظة بالمجرمين - تصير أكبر المعاهد التعليمية لفنون النُّصب، وألوان الإجرام.

يقول الشيخ أحمد شاهر^(٢) رَحِمَهُ اللهُ - بعد أن بيّن كيف تعاوَن المنافقون

= الشَّعب المصري، فرغ شعار: «أعطني صوتك؛ لنصلح الدنيا بالدين». وكان ينادي بتطبيق الشريعة الإسلامية، وضرب المثل في إنفاق المال لخدمة العلم والدين، اشتهر بالخطابة والمحاضرات والندوات، وقاوم العلمانيين والشيوعيين. ومن مؤلفاته: «اليهود في القرآن». توفي في أبو ظبي سنة (١٤١٠هـ). انظر: إتمام الأعلام (ص ٢٠١).

(١) نقلاً عن: أحكام إسلامية.. إدانة القوانين الوضعية، للمستشار محمد عبد الحميد غراب (ص ١٧).

(٢) هو المحدث أبو الأشبال، أحمد بن محمد شاهر بن أحمد بن عبد القادر من آل أبي علياء، ينتهي نسبه إلى الحسين بن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ولد بالقاهرة سنة (١٣٠٩هـ)، =

والمستعمرون، في إدخال القوانين الوضعيّة، إلى ديار المسلمين، فأشاعوا فيها الفتن: «... فكان عن هذا أن امتلأت السجون في بلادنا وحدها يمثات الألوف من اللصوص؛ بما وضعوا في القوانين من عقوبات للسّرقه ليست برادعة، ولن تكون أبداً رادعة، ولن تكون أبداً علاجاً لهذا الدّاء المُستشري...»

ولأنهم جاؤوا في التّطبيق يلتمسون الأعذار من (علم النّفس) لكلّ لصّ بحسبه، ثمّ زاد الأمر شراً أن يكتب اللّصوص أنفسهم كلاماً، يلتمسون به الأعذار لجرمهم، وقام المدافعون (المحامون) عنهم المقامات التي توردهم النّار، يعلمون أن الجريمة ثابتة فلا يحاولون إنكارها، بل يحاولون التّهوين من شأنها، بدراسة (نفسية المجرم وظروفه)!!...^(١).

فوضى الاعتداء على الأعراض:

وأما الفوضى في الأعراض والأنساب، تحت المظلة الوضعيّة المضلّة، فحدّث ولا حرج، فإنّ التدابير الشرعيّة الصّارمة التي من شأنها أن تُحافظ على عفة المجتمع وطهارته من سعار الشّهوات، وتحاول أن تُطفئ أوارها، هذه التدابير يلغيها القانون الجائر الموضوع بجرّة قلم، فمنّ للعفة يحميها في ديار المسلمين، ومنّ للطّهاره يحرسها، ومنّ للجريمة يُحاصرها، إذا حرمت هذه الدّيار من حكم الله ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

وإذا قيل لهم: لماذا تُصرّون على هذا البلاء، ولم تتشبّثون بهذه الشّرائع المُفسدة؟ قالوا: نريد أن نتحرّر كما تحرّر الغرب، ونتقدّم كما تقدّم الغرب، ونقدّم الرّفاه والسّعادة لشعوبنا كما قدّم الغرب! وهي كمقالة أسلافهم الضّالّين الذين قال الله عنهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ

= كان والده (محمد شاكر) أعظم شيوخه أثراً في حياته، فقد وجّهه إلى دراسة علم الحديث، تولّى القضاء في مصر أكثر من ثلاثين سنة، وكان مجتهداً ولم يكن مقلداً. توفي سنة (١٣٧٧هـ).

من مصنفاته: «نظام الطلاق في الإسلام»، و«عمدة التفسير» لم يكمله.

انظر ترجمته بتوسّع في مقدّمة كتابه: كلمة الحق، بقلم أخيه (محمود بن محمد شاكر).

(١) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير، اختصار وتحقيق: أحمد محمد شاكر (٤/١٤٧).

الْمُتَّقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿٦٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ يَمَّا قَدَّمْتَ
أَيْدِيَهُمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿النساء: ٦١ - ٦٢﴾.

والمعجب: أن هؤلاء المعاندين، يعلمون - قبل غيرهم - ما الذي جنته
حضارة الغرب، القائمة على الاعتداء على سلطة الله وحكمه، ويُدركون إلى أيِّ
دَرَكَ سَفَلت، وإلى أيِّ حالة وصلت! (١).

سابعاً: انتشار العداوة والبغضاء:

يعيش النَّاسُ في ظلِّ دين الله في نعمةٍ من الإخاء والألفة، كما قال تعالى:
﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل
عمران: ١٠٣].

ولقد وعظنا الله تعالى من التشبه بحال أهل الكتاب، لما استكبروا عن
الإذعان التام لشرائع الله، فكانت عاقبتهم أن وقعت العداوة والبغضاء فيما بينهم.
فاليهود لما خالفوا رسول الله ﷺ، وكذبوه، ولم ينقادوا لشريعته؛
أخبر الله ﷻ أن قلوبهم لا تجتمع، بل العداوة واقعة بينهم دائماً؛ لأنهم خالفوا
شريعة الحق، فقال سبحانه: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَيْدًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُفِئًا وَكَفْرًا
وَالَّذِينَ يَتَّبِعُهمُ الْغَدَاةَ وَالْبَغِضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ [المائدة: ٦٤] (٢).

والنصارى بتركهم بعض ما ذكروا به من شريعتهم، ثم بتكبرهم عن اتباع
النبي ﷺ، كانت عاقبتهم كعاقبة إخوانهم اليهود، قال تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ
قَالُوا إِنَّا نَصَرُّكَ أَخَذْنَا مِنْهُمُ اقْتِصَاءً فَمَا دُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ
الْعَدَاوَةَ وَالْبَغِضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾
[المائدة: ١٤] (٣).

ومعنى قوله تعالى: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغِضَاءَ﴾ أي: هيئنا. وقيل:
ألصقنا بهم؛ مأخوذ من الغراء. يُقال: غَرِيَ بالشَّيء إذا ألصق به كالغراء (٤).

(١). انظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (٢/٧٢٤).

(٢). انظر: تفسير ابن كثير (٣/١٧٥). (٣) انظر: المصدر نفسه (٣/٨٢).

(٤). انظر: لسان العرب (٦٣/١٠)، مادة: (غراء).

فالعداوة والبغضاء أُلصقت بهم، فيما بينهم وبين بعض، أو فيما بينهم وبين اليهود^(١).

والظاهر: أنها واقعة بين طوائف النصارى، وهي تستتبع الوقوع بينهم وبين طوائف اليهود عن طريق الأولى.

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير الآية: «أي: فألقينا بينهم العداوة والتباغض لبعضهم بعضاً، ولا يزالون كذلك إلى قيام الساعة. وكذلك طوائف النصارى على اختلاف أجناسهم لا يزالون متباغضين متعادين، يُكفِّر بعضهم بعضاً، ويلعن بعضهم بعضاً، فكل فرقة تُحرِّم الأخرى، ولا تدعها تلجُ مَعْبَدَها، فالملكيَّة^(٢) تُكفِّر اليعقوبية^(٣)، وكذلك الآخرون، وكذلك التَّسْطُورِيَّة^(٤) والآريوسية^(٥)، كلُّ

(١) انظر: تفسير القرطبي (١١٧/٦).

(٢) الملكيَّة: هم أصحاب «ملكا» الذي ظهر في بلاد الرُّوم. وقيل: نسبة إلى «ملك الرُّوم». وهم يقولون: إنَّ الكلمة اتَّحدت بجسد المسيح، وتدرَّعت بناسوته. ويعنون بالكلمة: أقنوم العلم، ويعنون بروح القدس: أقنوم الحياة. وصرَّحوا بإثبات التثليث، وقد أخبر عنهم القرآن: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثٌ ثَلَاثُونَ﴾ [المائدة: ١٧٣]. انظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل، لابن حزم (٥٣/١)؛ الملل والنحل، للشهرستاني (٦٢/٢).

(٣) اليعقوبية: يُنسبون إلى «يعقوب البراذعي» وكان راهباً في القسطنطينية، ويقولون: إنَّ المسيح هو الله تعالى نفسه. وإنَّ الله - تعالى عن عظيم كُفْرِهِمْ - قُتِلَ وَصُلِبَ، وإنَّ العالم بقي ثلاثة أيام بلا مُدبِّرٍ، والفلك بلا مُدبِّرٍ، ثمَّ قام وَرَجَعَ كما كان، وأَنَّهُ - تعالى - كان في بطن مريم محمولاً به.

انظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل (٤٩/١)؛ الملل والنحل (٦٦/٢).

(٤) التَّسْطُورِيَّة: هم أتباع «نسطور الحكيم» الذي ظهر في زمن المأمون، وتصرَّف في الأناجيل بحُكم رايه، فقال: إنَّ الله تعالى واحد، ذو أقانيم ثلاثة: الوجود، والعلم، والحياة، وهذه الأقانيم ليست زائدة على الذات، ولا هي هو، واتَّحدت الكلمة بجسد عيسى عليه السلام، كظهور النَّقْش في الخاتم. كما قالوا: إنَّ مريم لم تلد الإله، وإنَّما ولدت الإنسان، وإنَّ الله تعالى لم يلد الإنسان، وإنَّما ولد الإله - تعالى الله عن كفرهم - كما يقولون: إنَّ اتِّحاد الله بعيسى لم يكن باقياً حال صلَّيه.

انظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل (٤٩/١)؛ الملل والنحل (٦٤/٢).

(٥) الآريوسية: هم أصحاب «آريوس» وكان قسيساً بالإسكندرية. ومن قوله: التَّوْحِيد المُجَرَّد، وأنَّ عيسى عليه السلام عَبْدٌ مخلوق، وأَنَّهُ كلمة الله تعالى التي بها خُلِقَ السَّمَاوَات والأرض. انظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل (٤٧/١).

طائفة تُكْفِّرُ الأُخْرَى فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ»^(١).

مسألة: قد يقول قائل:

كيف أُغْرِيتَ بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ، وَقَدْ تَأَلَّبُوا عَلَى الْمُسْلِمِينَ؟

جوابها: يُجِيبُنَا عَلَى ذَلِكَ ابْنُ عَاشُورٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَيْثُ قَالَ: «إِنَّ الْعَدَاوَةَ ثَابِتَةٌ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا بِانْقِسَامِهِمْ فِرْقًا... وَذَلِكَ الْانْقِسَامُ يَجْرُؤُ إِلَيْهِمُ الْعَدَاوَةَ، وَخَذَلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا. ثُمَّ إِنَّ دَوْلَهُمْ كَانَتْ مَنْقَسِمَةً وَمُتَحَارِبَةً، وَلَمْ تَزَلْ كَذَلِكَ، وَإِنَّمَا تَأَلَّبُوا فِي الْحُرُوبِ الصُّلَيْبِيَّةِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، ثُمَّ لَمْ يَلْبِثُوا أَنْ تَخَاذَلُوا وَتَحَارَبُوا، وَلَا يَزَالُ الْأَمْرُ بَيْنَهُمْ كَذَلِكَ إِلَى الْآنَ.

وَكَمْ ضَاعَتْ مَسَاعِي السَّاعِينَ فِي جَمْعِهِمْ عَلَى كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ، وَتَأْلِيفِ اتِّحَادٍ بَيْنَهُمْ، وَكَانَ اخْتِلَافُهُمْ لُطْفًا بِالْمُسْلِمِينَ فِي مُخْتَلَفِ عَصُورِ التَّارِيخِ الْإِسْلَامِيِّ، عَلَى أَنَّ اتِّفَاقَهُمْ عَلَى أُمَّةٍ أُخْرَى، لَا يَنَافِي تَمَكُّنَ الْعَدَاوَةِ فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَكَفَى بِذَلِكَ عِقَابًا لَهُمْ عَلَى نِسْيَانِهِمْ مَا ذُكِّرُوا بِهِ»^(٢).
تحذير الأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ مِنَ الْعَدَاوَةِ:

وَالْأُمَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ وَعَظَّمَهَا اللَّهُ تَعَالَى بِالْعَدَاوَةِ الْمُلقَاةِ فِيمَا بَيْنَ طَوَائِفِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، حَتَّى لَا تَقَعَ فِيمَا وَقَعُوا فِيهِ، فَالرَّعِيَّةُ تُلْقَى بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَاتُ إِذَا رَغِبَتْ عَنْ شَرِّ اللَّهِ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فَمَتَى تَرَكَ النَّاسُ بَعْضُ مَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ بِهِ، وَقَعَتْ بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ، وَإِذَا تَفَرَّقَ الْقَوْمُ فَسَدُوا وَهَلَكُوا، وَإِذَا اجْتَمَعُوا صَلَحُوا وَمَلَكُوا»^(٣).

وَقَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: «وَإِذَا خَرَجَ وَلَاةُ الْأُمُورِ عَنْ هَذَا (أَي: عَنْ الْحَكَمِ بَيْنَ النَّاسِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ) فَقَدْ حَكَمُوا بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ، وَوَقَعَ بِأُسْهُمْ بَيْنَهُمْ...»

وهذا من أعظم أسباب تغيير الدُّولِ، كما قد جرى مِثْلُ هَذَا مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ فِي زَمَانِنَا، وَغَيْرِ زَمَانِنَا»^(٤).

(١) تفسير ابن كثير (٣/٨٣). وانظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (٢/٧٣١).

(٢) التحرير والتنوير (٥/٦٦ - ٦٧). (٣) مجموع الفتاوى (٣/٤٢٧).

(٤) المصدر نفسه (٣٥/٣٨٨).

وقد تعمّد النبي ﷺ من مغبة ترك الحكم بغير ما أنزل الله، وعدّد ذلك من أعظم أسباب وقوع العداوة والبغضاء بين المسلمين:

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه؛ قال: أقبل علينا رسول الله ﷺ فقال: «يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ! خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ، وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ:

... وَمَا لَمْ تَحْكُمُوا أَيْمَنَهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ، وَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ، إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ بِأَسْهُمَ بَيْنَهُمْ»^(١).

ثامناً: الحرمان من النّصر والتّمكين:

المسلمون إذا تعاطوا أسباب النّصر، وكانوا له أهلاً، وتوكلوا على الله تعالى وحده، وعملوا بمقتضى سنّته في خلقه، فلا قيل لأحد بغليتهم، في حين أنّه تعالى إذا خذلهم - بما كسبت أيديهم من العصيان - فلا أحد يملك لهم نصراً، ولا يدفع عنهم ضرراً، ومصدق ذلك في كتاب الله سبحانه: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠]^(٢).

وليس شيء أدعى للخذلان، وللحرمان من النّصر والتّمكين؛ مثل هجر التّحاكم إلى شريعة الله تعالى، وعدم نصرها في الأرض، ويُعتبر ذلك إخلالاً بشرط النّصر المنصوص عليه في أيّ كثيرة من كتاب الله، كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ نَصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

والمعنى: إن تنصروا دين الله وشريعته، بالعمل بها، وتعظيمها، يَنْصُرْكُمْ اللهُ ﷻ على أنفسكم، وأعدائكم من شياطين الجنّ والإنس، فإنّ الجزاء من جنس العمل^(٣).

(١) رواه ابن ماجه واللفظ له (١٣٣٢/٢) (ح ٤٠١٩)؛ والحاكم في «المستدرک» (٥٨٣/٤) (ح ٨٦٢٣) وقال: «صحيح الإسناد، ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي. وحسنه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (٣١٦/٣) (ح ٣٢٦٢)؛ و«السلسلة الصحيحة» (٢١٦/١) (ح ٢٠٦).

(٢) انظر: تفسير المنار (٣٠٧/٤)؛ الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (٧٣٩/٢).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (١٧٥/٤).

قال الرّازي رحمه الله: «بيّن في هذه الآية: أَنَّ مَنْ نَصَرَهُ الله فلا غالب له، فيحصل من مجموع هاتين المقدّمتين، أَنَّ مَنْ اتَّقَى الله، فقد فاز بسعادة الدنيا والآخرة؛ فإنّه يفوز بسعادة لا شقاوة معها، ويعزّز لا ذُلّ معه، ويصير غالباً لا يغلبه أحد، وأمّا مَنْ أتى بالمعصية؛ فإنّ الله يخذله، وَمَنْ خَذَلَهُ الله، فقد وقع في شقاوة، لا سعادة معها، وذُلّ لا عزّ معه»^(١).

وقد نصّ القرآن العظيم على كيفة نصر الدين والشريعة في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ غَفِيْرٌ أَمْرًا﴾ [الحج: ٤١].

والآية الكريمة تدلّ - كما قال الشنقيطي رحمه الله: «على أَنَّ الذين لا يقيمون الصلّاة، ولا يؤتون الزكاة، ولا يأمرّون بالمعروف، ولا ينهون عن المنكر، ليس لهم وعد من الله بالنصر البتّة...»

فالذين يرتكبون جميع المعاصي ممّن يتسمّون باسم المسلمين، ثمّ يقولون: إنّ الله سينصرنا، مفرّرون؛ لأنّهم ليسوا من حزب الله، الموعودين بنصره، كما لا يخفى.

ومعنى نصّر المؤمنين لله: نصّرهم لدينه ولكتابه، وسعيهم وجهادهم في أن تكون كلمته هي العليا، وأنّ تُقام حدوده في أرضه، وتُمثّل أوامره، وتُجتنب نواهيه، ويُحكّم في عبادته بما أنزل على رسوله ﷺ^(٢).

الخلاصة:

وممّا سبق نستخلص أنّ الإعراض عن حكم الله وشرعه يورد المجتمعات موارد التهلكة؛ ففي الدّاخل: يؤدّي إلى تفشّي الجريمة، وضياع الأخلاق، وانتشار الرذيلة، ومن ثمّ ضياع الأمن والاستقرار، والذي هو من أعظم النعم التي يُنعم بها الله ﷻ على مَنْ اتّبع رضوانه، وما حال المجتمعات الإسلامية المُجَنّبة لشرع الله عنّا ببعيد.

وفي مواجهة الأمة لغيرها من الأمم، وعلى المستوى العالمي: نجد أنّ الأمة

(١) التفسير الكبير (٥٦/٩).

(٢) أضواء البيان (٤٥٧/٧ - ٤٥٢).

عندما تبتعد عن شرع الله، تضعيب هيبتها ومكانتها، ويُستهان بها، ولا يأبه لها ولا لكثرة أعدادها؛ ذلك لأنَّ أعداءها قد علموا ما هم عليه من ضعف الصلة برَّبهم ففقدوا عُنصر قوَّتهم الأوجد، وركنوا إلى الدنيا، وإلى قدراتهم المادية، وهم عالة على غيرهم في ذلك، فعلموا قوَّتهم الحقيقية ومدى ضعفها فهانت في نظرهم.

المطلب الثاني

الآثار الأخروية للحكم بغير ما أنزل الله

عظَّم القرآن الحكيم من هول العقاب الذي ينتظر أعداء الله المبدلين لشرعه، المفترين على دينه - تحليلاً وتحريماً - بغير سلطان من الله، فقال سبحانه: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ اللَّهُ أُذِنَ لَكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا عَلَى اللَّهِ تَقَرُّوْنَ ۖ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنْ أَلَّهُ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يونس: ٥٩ - ٦٠].

ففي هذه الآيات الكريمات: «أنكر الله تعالى على مَنْ حَرَّمَ ما أحلَّ الله، أو أحلَّ ما حَرَّمَ الله، بمجرد الآراء والأهواء، التي لا مستند لها، ولا دليل عليها. ثمَّ توعدهم على ذلك يوم القيامة، فقال: ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي: ما ظنُّهم أن يُصنَّع بهم يوم مرجعهم إلينا يوم القيامة؟»^(١).

فهذا استفهام يراد منه تهويل وتفظيع العقاب الأليم، الذي ينتظر المفترين، المتقولين على الله، المبدلين لشرعه، ولذا نُكِّر وأُبْهِم، فمصيرهم هو أسوأ المصير، وعقابهم هو أَوْخَم العقاب^(٢).

«وصيغة الغائب تشمل جنس الذين يفترون على الله الكذب، وتنظمهم جميعاً، فما ظنُّهم يا تُرى؟ ما الذي يتصوِّرون أن يكون في شأنهم يوم القيامة؟ وهو سؤال تذوب أمامه حتَّى الجبال الصَّلدة الجاسية»^(٣).

وفيما يلي استعراض لبعض الآثار المترتبة على الحكم بغير ما أنزل الله في الدَّار الآخرة:

(١) تفسير ابن كثير (٤/٢٩٠).

(٢) انظر: تفسير أبي السعود (٤/١٥٧).

(٣) في ظلال القرآن (٣/١٨٠٢).

أولاً: الإهانة عند قبض الأرواح:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ٥٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ٥٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ٥٧﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَنَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٢٥ - ٢٨].

هذه الآيات الكريمات تهدد وتتوعد نوعاً من المنحرفين عما أنزل الله تعالى، وهم الذين يطيعون أعداء الله - كاليهود والنصارى - في بعض ما يأمرون به، والآيات تصفهم بالرذلة بسبب ذلك الفعل، وتتوعدهم بمصيرٍ مظلم، وعذابٍ مؤلم، يبدأ معهم منذ اللحظات الأولى من مفارقة الدنيا^(١).

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ «أي: كيف حالهم إذا جاءتهم الملائكة لقبض أرواحهم، وتغصت الأرواح في أجسادهم، واستخرجتها الملائكة بالعنف والقهر والضرب»^(٢).

قال ابن عاشور رحمته الله: «والمقصود: وعيدهم بأنهم سيُعَجَّلُ لهم العذاب، من أول منازل الآخرة، وهو حالة الموت، ولما جعل هذا العذاب محققاً وقوعه، رتب عليه الاستفهام عن حالهم استفهاماً مُستعملاً في معنى تعجيب المخاطب من حالهم عند الوفاة، وهذا التعجيب مؤذن بأنها حالة فظيعة غير معتادة، إذ لا يُتَعَجَّبُ إلا من أمرٍ غير معهود، والسياق يدلُّ على الفظاعة...

والجمع بين الإخبار عنهم باتباعهم ما أسخط الله، وكراهتهم رضوانه، مع إمكان الاجتزاء بأحدهما عن الآخر: للإيماء إلى أن ضرب الملائكة وجوه هؤلاء، مناسب لإقبالهم على ما أسخط الله، وأن ضربهم أدبارهم، مناسب لكراهتهم رضوانه؛ لأن الكراهة تستلزم الإعراض والإدبار...

والإحباط: إبطال العمل، أي: أبطل انتفاعهم بأعمالهم التي عملوها مع

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٦/٦٠)؛ تفسير القاسمي (٦/٢٥٩).

(٢) تفسير ابن كثير (٧/٣٢٣).

المؤمنين، من قول كلمة التوحيد، ومن الصلاة، والزكاة، وغير ذلك»^(١).

مشهد آخر من الإهانة:

وقال الله سبحانه - في نوع آخر من المنحرفين عن شرعه المنزل: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

﴿وَمَنْ﴾ موصولة مراد به الجنس، أي: كل من افتري أو قال، وليس المراد فرداً معيناً، فالذين افتروا على الله كذباً، هم المشركون؛ لأنهم حللوا وحرّموا بهواهم، وزعموا أن الله أمرهم بذلك»^(٢).

والآية الكريمة تناول أصنافاً من المنحرفين عن الشريعة المطهرة:

فهي تتعرض للمتنبئين الذين ادّعوا أن الله قد أوحى إليهم، أمثال مسيلمة الكذاب، والأسود العنسي، وسجاح زوجة مسيلمة^(٣).

وتناول أيضاً كل من كان على شاكلتهم ممن أعرض عن الفقه والسُنن، وما كان عليه السلف من السُنن، فيقول: وقع في خاطري كذا، أو أخبرني قلبي بكذا، فيحكمون بما يقع في قلوبهم، ويغلب عليهم من خواطرهم، وفي هذا يقول القرطبي رحمه الله: «هذا القول زندقة وكفر، يُقتل قائله، ولا يستتاب، ولا يحتاج معه إلى سؤال ولا جواب، فإنه يلزم منه هذا الأحكام»^(٤).

فالآية تحكي أحوال هؤلاء عند معاينة الموت، والخروج من الدنيا:

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾ أي: شدائده وسكراته، ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ﴾ بالعذاب ومطارق الحديد؛ لقبض أرواحهم. ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ﴾ أي: أخرجوا أرواحكم من أجسادكم، أي هاتوا

(١) التحرير والتنوير (٩٩/٢٦ - ١٠١).

(٢) المصدر نفسه (٦/٢٢١).

(٣) انظر: تفسير القرطبي (٤٦/٧).

(٤) المصدر نفسه (٤٢/٧). وانظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (٧٦٢/٢).

أرواحكم، والأمر للإهانة والإرهاق؛ إغلاظاً في قبض أرواحهم، ولا يتركون لهم راحة، ولا يعاملونهم بلين، وفيه إشارة إلى أنهم يجزعون فلا يلفظون أرواحهم، وهو على هذا الوجه، وعيد بالآلام عند النزع جزاء في الدنيا على شركهم^(١).
﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ أي: الهوان؛ ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: تتعظمون وتأنفون عن قبول ما أنزله الله في آياته^(٢).

ثانياً: الوحشة في الحشر:

في الآية السابقة بين النظم الحكيم عاقبة الانحراف عن شرع الله تعالى عند معاناة الموت ومغادرة الدنيا، والآية التالية لها تستأنف بيان حالهم في الحشر: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْتُمْ وِرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ زَعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤].

قال القرطبي رحمه الله: «هذه عبارة عن الحشر... والمعنى: جئتمونا واحداً واحداً، كل واحد منكم منفرداً بلا أهل، ولا مال، ولا وليد، ولا ناصر، ممن كان يصاحبكم في الغي»^(٣).
فمن اغترابهم ووحشتهم في الحشر: أنهم منعزلون عن كل ما كانوا يعتزون به في الحياة الدنيا من أموال، وأولاد، وجاه، وأنصار.

ثالثاً: الأكل من النار وغضب الجبار:

قال العليم الخبير: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٧٦) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابِ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ (١٧٧) ذَلِكَ بِأَنَّهُ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَيميد ﴿[البقرة: ١٧٤ - ١٧٦].

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٧/٤٣ - ٤٤).

(١) التحرير والتنوير (٦/٢٢٣).

(٣) المصدر نفسه (٧/٤٤).

بعد أن تحدّثت الآيات عن بعض أحكام الشريعة، مثل: تحريم أكل الميتة، والدّم، ولحم الخنزير، وما أهلّ لغير الله به. توعّدت من يكتمون أحكام هذه الشريعة، مقابل ثمنٍ قليل يأكلونه؛ لأنّ كتمان الشريعة، يستلزم أنواعاً من الانحراف عنها^(١).

فهؤلاء الذين يكتمون الحقّ المنزّل - لقاء ثمنٍ رخيص - إنّما يأتون حراماً يعذبهم الله عليه بنار جهنّم، يأكلونها في بطونهم الجشعة، فهي نارٌ على الحقيقة يأكلونها يوم القيامة، جزاء ما اقترفوا من أكل الرّشوة على الدّين^(٢).

وسمّى الله تعالى ما أكلوه في بطونهم ناراً: «لأنّ هذا الثّمن الذي اكتسبوه، إنّما حصل لهم بأقبح المكاسب، وأعظم المحرّمات، فكان جزاؤهم من جنس عملهم»^(٣).

غضب الجبار أعظم من النار:

والذي أعظم عليهم من عذاب النّار: هو غضب الله عليهم، وإعراضه عنهم: «وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ» أي: لا يطهرهم من الأخلاق الرّذيلة، إذ ليس لهم أعمالٌ تصلح للمدح والرّضا، والجزاء عليها، بل يعذبهم عذاباً أليماً؛ لأنّهم نبذوا كتاب الله، وأعرضوا عنه، وعن التّحاكم إليه في الدّنيا، واختاروا الضّلالة على الهدى، والعذاب على المغفرة.

فما أصبرهم على النّار:

وقد ذكر أهل التّأويل - رحمهم الله -^(٤) عدّة معاني في قوله تعالى: «فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ»:

١ - مذهب جمهور المفسّرين أنّ (ما) للتّعجب؛ وهو مردود إلى المخلوقين^(٥)، كأنّه قال: اعجبوا من صبرهم على النّار، ومكثهم فيها!

(١) انظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (٢/٧٦٤).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٢/٢٣٩). (٣) تفسير السعدي (١/١٣٤).

(٤) انظر: تفسير الطبري (٢/٩١ - ٩٢)؛ زاد المسير (١/١٥٣)؛ تفسير القرطبي (٢/٢٤٠ - ٢٤١).

(٥) لأنّ التّعجب: استعظام الشيء، وخفاء حصول السبب، وهو مستحيل في حقّ الله تعالى.

٢ - ما لهم والله عليها من صبر، ولكن ما أجرأهم على النار، إذ يعملون عملاً يؤدى إليها!

٣ - أن (ما) استفهامٌ معناه التوبيخ. والمعنى: أي شيء صبرهم على عمل أهل النار؟

٤ - ما أقل جزعهم من النار؛ فجعل قلة الجزع صبراً، وهذا على وجه الاستهانة بهم، والاستخفاف بأمرهم.

وهذه الآيات المباركات وإن كانت تتوعد - أصلاً - علماء اليهود الذين مردوا على كتمان الحق المنزل - إذا خالف أهواءهم، أو أهواء سادتهم - إلا أن وعيدها يشمل كل من عمل عملهم، وكان على شاكلتهم، كما قرره القرطبي رحمه الله بقوله: «وهذه الآية وإن كانت في الأخبار، فإنها تتناول من المسلمين من كتم الحق مختاراً لذلك؛ بسبب دنيا يصيبها»^(١).

رابعاً: العذاب المهين:

ذكر العزيز الحكيم جوانب من أحكام الشريعة في صدر سورة النساء، والمتمثلة في: بيان أموال اليتامى، وأحكام الأنكحة، وأحوال الموارث والوصايا ثم ذكر بعد ذلك: الوعد والوعيد، ترغيباً في الطاعة، وترهيباً من المعصية، فقال سبحانه: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أي: هذه أحكام الله قد بينها لكم؛ لتعرفوها، وتعملوا بها ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في متابعة حدوده، والعمل بها كما أمره الله تعالى ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [النساء: ١٣]، فهذا هو الوعد.

أما الوعيد: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [النساء: ١٤]. فكل من اعتدى على حدود الله تعالى مكذباً، أو جاحداً، أو مبدلاً، أو مبغضاً، فهو متوعد بهذا العذاب المهين؛ لكونه غير ما حكّم الله به، وضادّ الله في حكمه، وهذا إنما يصدر عن عدم

الرُّضَا بما قَسَمَ اللهُ، وَحَكَمَ بِهِ، ولهذا يُجَازِيهِ بِالْإِهَانَةِ فِي الْعَذَابِ الْأَلِيمِ الْمَقِيمِ^(١).

مسألة: هل يُفهم من الآية الكريمة: أَنَّ مُطْلَقَ الْعَصِيَانِ، مَوْجِبٌ لِلْخُلُودِ فِي النَّارِ؟

جوابها: يُجِيبُنَا عَلَى ذَلِكَ الْقُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ، حَيْثُ يَقُولُ: «وَالْعَصِيَانِ: إِنْ أُرِيدَ بِهِ الْكُفْرُ، فَالْخُلُودُ عَلَى بَابِهِ، وَإِنْ أُرِيدَ بِهِ الْكِبَائِرُ، وَتَجَاوَزَ أَوْامِرَ اللهِ تَعَالَى، فَالْخُلُودُ مُسْتَعَارٌ لِمَدَّةٍ مَّا. كَمَا تَقُولُ: خَلَدَ اللهُ مُلْكَهُ.

وَقَالَ زُهَيْرٌ^(٢): وَلَا خَالِدًا إِلَّا الْجِبَالَ الرَّوَاسِيَا^(٣)»^(٤). وَيُجَلِّي السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللهُ الْأَمْرَ بَيَانًا بِقَوْلِهِ: «وَيَدْخُلُ فِي اسْمِ الْمَعْصِيَةِ، الْكُفْرُ فَمَا دُونَهُ مِنَ الْمَعَاصِي، فَلَا يَكُونُ فِيهَا شَبَهُةٌ لِلْخَوَارِجِ الْقَائِلِينَ بِكُفْرِ أَهْلِ الْمَعَاصِي...»

وَقَدْ دَلَّتِ النُّصُوصُ الْمُتَوَاتِرَةُ، عَلَى أَنَّ الْمَوْحِدِينَ، الَّذِينَ مَعَهُمْ طَاعَةُ التَّوْحِيدِ، غَيْرُ مَخْلُودِينَ فِي النَّارِ. فَمَا مَعَهُمْ مِنَ التَّوْحِيدِ، مَانِعٌ لَهُمْ مِنَ الدُّخُولِ فِيهَا^(٥).

(١) تفسير ابن كثير (٢/٢٥٩).

(٢) هُوَ زُهَيْرُ بْنُ أَبِي سُلَيْمٍ رِبِيعَةَ بْنِ رِيَّاحَ بْنِ قُرَّةَ بْنِ الْحَارِثِ، الْمُزَنِيِّ، الْمُضَرِّي، وَلَدَ فِي بِلَادِ «مُرَيْيَّة» بَنَوَاحِي الْمَدِينَةِ، حَكِيمُ الشُّعْرَاءِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ. قَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ: كَانَ لَزُهَيْرٍ فِي الشُّعْرِ مَا لَمْ يَكُنْ لغيرِهِ، كَانَ أَبُوهُ شَاعِرًا، وَخَالَه شَاعِرًا، وَأَخْتُهُ سُلَيْمَى شَاعِرَةً، وَابْنَاهُ كَعْبٌ وَيُجَيْرُ شَاعِرِينَ، وَأَخْتُهُ الْخِنْسَاءُ شَاعِرَةٌ. وَكَانَتْ قِصَائِدُهُ تُسَمَّى «الْحَوْلِيَّاتِ»؛ لِأَنَّهُ كَانَ يَنْظُمُ الْقَصِيدَةَ فِي شَهْرٍ، وَيُنْقِحُهَا وَيُهَذِّبُهَا فِي سَنَةٍ. تَوَفَّى سَنَةَ (٦٣) قَبْلَ الْهِجْرَةِ. انْظُرْ: كَشَفَ الطَّنُونُ عَنْ أَسَامِي الْكُتُبِ وَالْفَنُونِ، لِمُصْطَفَى الْقِسْطَنْطِينِيِّ (١/٧٦٤)؛ مُقَدِّمَةُ دِيْوَانِ زُهَيْرِ بْنِ أَبِي سُلَيْمٍ، لِأَكْرَمِ الْبُسْتَانِيِّ.

(٣) صَدَّرَ هَذَا الْبَيْتَ:

أَلَا لَا أَرَى عَلَى الْحَوَادِثِ بَاقِيَا.....

(٤) تفسير القرطبي (٥/٨٦).

(٥) تفسير السعدي (١/٣٢٨).

الخاتمة

وبعد:

فهذا ما وفَّقني الله إليه، ويسِّره لي في هذا البحث: «هَجْر القرآن العظيم» ويمكن استخلاص أبرز نقاطه وأهم نتائجه فيما يأتي:

أولاً: في مباحث «الباب الأول»:

١ - إنَّ «هَجْر القرآن» يعني الأمور الآتية:

- أ - ترك الإيمان به، وعدم الالتفات إليه كليَّة.
- ب - القول السيِّئ في القرآن، والزَّعم الباطل بأنَّه سحرٌ أو شِعْرٌ أو أساطيرُ الأوَّلِين، وهذا القولُ القبيح في حقِّ القرآن من الاستهزاء به.
- ج - الإعراض والبُعْد عن القرآن، وعدم سماعه، ورفْع الأصوات بالهَذْيَان إذا قُرئ لئلاَّ يُسْمَعَ.

د - ترك العمل به وعدم امتثال أوامره، وعدم اجتناب زواجره.

هـ - ترك تحكيمة والاحتكام إليه.

و - ترك تدبُّره وتفهُمه.

ز - ترك تلاوته وحفظه أو نسيانه بعد حفظه.

ح - ترك الاستشفاء والتداوي به.

ط - الحرج الذي في الصُّدُور منه.

٢ - حُكْم هَجْر القرآن العظيم:

يختلف حُكْم هَجْر القرآن الكريم باختلاف نوع الهَجْر، وحال المهاجر:

- أ - فإن كان هَجْر القرآن بترك الإيمان به، أو الإعراض عنه، وعدم التَّحَاكُم إليه بالكليَّة، أو اللَّغْو فيه، فهذا كفر صُراح.

ب - وإن كان الهجر متعلقاً بعدم العمل به - مع الإيمان به، والإقرار بأنه كلام الله تعالى يجب اتّباعه - فذلك معصية يتوقّف كونها كبيرة أو صغيرة على نوع المخالفة ذاتها.

ج - وإن كان الهجر بمعنى ترك التّلاوة، أو ترك التّدبر، أو ترك الحفظ، أو ترك الاستشفاء به - مع القدرة على ذلك - ولم يفعل، فهو مؤاخذه على فعله بحسب نوع تقصيره في ذلك.

ثانياً: في مباحث «الباب الثاني»:

من نتائج «الفصل الأوّل»:

١ - من «مظاهر التّكذيب بالقرآن»:

الكفر به، والاستكبار عنه، والشك فيه، والتّكذيب به، والجحود به، والاستهزاء به وبتعاليمه، وتبديله وتحريفه، والإعراض عنه ونبذه، وترك الاحتكام إليه، وكتمانه، والاختلاف فيه، والجدال فيه، والصدّ عنه، والنّهي عنه، والغفلة عنه، وترك العمل به، وادّعاء نسخه، وادّعاء نقصه، ومضاهاة ومعارضته.

٢ - أجمع علماء المسلمين على كُفر مَنْ أنكر القرآن العظيم، أو كذّب به، أو جحد منه حرفاً، أو زاد فيه حرفاً، أو بدّل حرفاً منه بحرفٍ آخر مكانه.

٣ - أهل الكتاب - في مشارق الأرض ومغاربها - مطالبون بالإيمان بمحمد ﷺ وبكتابه العظيم الذي هو حُجّة عليهم، كما هو حُجّة على غيرهم، وأنّ مَنْ لم يؤمن بذلك إيمان إذعانٍ وانقيادٍ فهو كافر ومخلّد في النار.

من نتائج «الفصل الثّاني»:

١ - من «أساليب الكفّار في استهزائهم بالقرآن» ما يأتي:

أ - الاستهزاء والضّحك حال سماع القرآن.

ب - التعجّب من عدم نزول الوحي عليهم.

ج - ادّعاؤهم بأنّ القرآن إفكٌ مفترى، وأساطير الأولين.

د - استخدام أعضاء الجسم بقصد الاستهزاء.

هـ - التّنذر بالله وآياته.

٢ - الاستهانة - عياداً بالله - بالمصحف، أو بشيء منه، ولها صور متعددة: كاتخاذ الفأل منه، أو الاتكاء والتوسّد عليه، أو إتلافه وتمزيقه، أو الكتابة عليه، أو إدخاله في أماكن التخلي، أو الوصية بدفنه مع الميت في قبره، أو إلقائه في القاذورات، أو بله بالريق، أو بلع شيء منه، أو تخطيه، أو تركه على الأرض، أو اتخاذه وتعليقه للبركة من غير قراءة فيه، أو تلويثه، أو جحد شيء منه، أو وطئه بالرجل أو مدها إليه، أو الجلوس عليه، أو وضع شيء فوقه، أو سبه، أو الاستخفاف به، إلى غير ذلك من الصور الكثيرة.

٣ - المسلمون كلهم مُجمعون على وجوب احترام كلام الله تعالى، وتعظيمه، وصيانتها من العيوب والنقائص، فالاستهزاء بكلام الله تعالى، أو كتابه، أو محاولة إسقاط حرمة ومهابته، كفر صريح لا يُنازع فيه أحد، ولو كانت آية واحدة.

من نتائج «الفصل الثالث»:

١ - من «مظاهر سماع القرآن لدى الكفار» ما يأتي:

أ - الإعراض عن سماع القرآن.

ب - الاستكبار عن سماع القرآن.

ج - التواصي بعدم سماع القرآن.

د - البطش بمن يقرأ القرآن.

هـ - التّعامي والتّصام عن القرآن.

و - الاستهزاء حال سماع القرآن.

ز - الضّجر والتّأفّف.

ح - بغض سماع القرآن وكرهية قارئه.

ط - التّهاون والتّغافل عن سماع الوحي.

٢ - من «مظاهر هجر استماع القرآن لدى المسلمين» ما يأتي:

أ - التّشاغل بالغناء عن استماع القرآن.

ب - سماع الطّرب.

- ج - التَّشَاغُلُ عَنْ اسْتِمَاعِ الْقُرْآنِ .
- ٣ - من «آداب استماع القرآن» ما يأتي :
- أ - تعظيم المتكلم .
- ب - استشعار عظمة الكلام وعلوه .
- ج - حضور القلب عند السَّماع .
- د - تدبُّر المسموع .
- هـ - تفهُّم الآيات المسموعة .
- و - التَّخَلِّي عن موانع الفهم .
- ز - أَنْ يُقَدَّر - في نفسه - أَنَّهُ المقصود بكلِّ آية يسمعها .
- ح - التَّأَثُّر بِالآيَاتِ الْمَسْمُوعَةِ .
- ط - التَّرَفُّي فِي اسْتِمَاعِ الْقُرْآنِ .
- ي - التَّبَرُّؤُ مِنَ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ حَالِ السَّماع .
- ٤ - من «فضائل استماع القرآن» ما يأتي :
- أ - استماع القرآن سبب لرحمة الله تعالى .
- ب - استماع القرآن سبب لهداية الثَّقَلَيْنِ .
- ج - استماع القرآن سبب لخشوع القلب وبكاء العين .
- ٥ - الإعراض عن استماع القرآن بالكَلْبَةِ ينافي الإيمان ويضاده، بل هو حقيقة النِّفاق الأكبر الذي حكاها الله تعالى عن المنافقين .
- ٦ - قد يُعْرِضُ الْمُسْلِم - أحياناً - عن استماع القرآن العظيم، أو عن تلاوته مع إقراره بأنَّه كلام الله تعالى يجب اتِّباعه - ويكون سبب الإعراض هو التَّكاسل، أو ضعف الإيمان، أو الاشتغال عنه بمالٍ أو بنين أو لعبٍ ولَهْوٍ كمتابعة البثِّ الفضائي ونحوه .
- فمن المُتَّفَق عليه - فيما سبق - أَنَّهَا معصية لله، مؤاخَذ بسببها؛ لَأَنَّهُ قَصَّر وأعرض باختياره، ويتوقَّف كون هذه المعصية كبيرةً أو صغيرةً على نوع المخالفة ذاتها .

من نتائج «الفصل الرابع»:

١ - من «آداب معلّم القرآن» ما يأتي:

أ - الاستقامة على دين الله تعالى.

ب - حُسْنُ الخُلُق مع المتعلّمين.

ج - بذل النصيحة للمتعلّمين.

د - التدرّج في التعليم والتّربية.

هـ - الرّفق بالمتعلّمين.

و - الصبر على المتعلّم.

٢ - من «آداب متعلّم القرآن» ما يأتي:

أ - تطهير القلب.

ب - الزّهد في الدّنيا.

ج - التّواضع للمعلّم.

د - الدّعاء للمعلّم والاعتراف بفضله.

هـ - اختيار المعلّم الأصّح والأعلم.

و - التّبكير إلى مجلس الدّرس.

ز - التّحلّي بالأدب في مجلس التّعليم.

٣ - «فضائل تعلّم القرآن وتعليمه» ما يأتي:

أ - مُعلّم القرآن ومتعلّمه متشبّه بالملائكة والرّسل.

ب - خير النّاس وأفضلهم مَنْ تعلّم القرآن وعلمه.

ج - تعلّم القرآن وتعليمه خيرٌ من كنوز الدّنيا.

د - تعلّم القرآن من النّفع المتعدّي، فَمَنْ علّم آيةً كان له ثوابها ما تُليت.

٤ - من «أحكام تعلّم القرآن وتعليمه» ما يأتي:

أ - تعلّم القرآن وتعليمه فرض كفاية على المسلمين، إلّا ما تطلّب به الصّلاة

من القرآن - وهو الفاتحة - بالإجماع.

ب - الرَّاجِح في حُكم تعليم القرآن لغير المسلم: الجواز إذا رُجِيَ إسلامه، وعدمُ جواز تعليمه إذا لم يُرَجَ إسلامه.

ج - الرَّاجِح في حُكم أخذ الأجرة على تعليم القرآن: الجواز عند الحاجة، وعدمُ جواز الأخذ عند عدمها؛ لما في ذلك من الجمع بين الأدلة وإعمالها جميعاً.

٥ - من «همة السلف في تعليم القرآن» ما يأتي:

أ - تَرْكُ الأوطانِ لأجل تعليم القرآن.

ب - تأسيس مدارس وخلق تحفيظ القرآن.

ج - احتساب أجر التَّعليم عند الله تعالى.

٦ - من «همة السلف في تعلُّم القرآن» ما يأتي:

أ - الرُّحلة من أجل تعلُّم القرآن.

ب - ملازمة الشيوخ وعرض القراءة عليهم.

ج - تحمُّل الشَّدائد والصُّعاب بُغية تعلُّم القرآن.

د - ترك الوطن والمال من أجل تعلُّم القرآن.

من نتائج «الفصل الخامس»:

١ - من «الأمور المبتدعة في التلاوة» ما يأتي:

التَّنَطُّع والوسوسة في مخارج الحروف، والخروج بالقراءة عن لحن العرب إلى لحن العَجَم، والقراءة بألحان أهل الفسق والفجور، وقراءة الأنغام والتَّمطيط، والتَّحزين والتَّطريب، والتَّحريف، والتَّرعيد، وهذه كهذا الشَّعر، والقراءة في مجلس شُرْب الدُّخان، والقراءة والإقراء بشواذِّ القراءات، وجمع القراءات في مجلس واحد، والتزام قول «صدق الله العظيم» بعد التلاوة، وقراءة القرآن عند القبر.

٢ - من «أسباب هجر التلاوة» ما يأتي:

الانشغال بالدُّنيا، وضعف الهمة، والجهل بثمرات قراءة القرآن، وتقديم العلوم الأخرى على قراءة القرآن، والحرب المعلنة على القرآن واللُّغة.

٣ - من «آداب وأحكام تلاوة القرآن» ما يأتي:

إخلاص النية لله تعالى، والعمل بالقرآن، وإجلاله وتعظيمه، وتلاوته على طهارة، واختيار الوقت والمكان المناسبين، وحسن الجلسة واستقبال القبلة، وتنظيف الفم بالسواك، والاستعاذة والبسملة عند افتتاح التلاوة، وحضر الفكر أثناءها، واستحباب الترتيل وكراهية السرعة المفرطة، واستحباب تحسين الصوت بالقرآن، والنهي عن القراءة بالألحان المُنطربة، ووجوب التدبُّر، واستحباب البكاء أثناء التلاوة، واستحباب الجهر بالقرآن إذا لم تترتب عليه مفسدة، واستحباب اتصال التلاوة وعدم قطعها، وإحسان الابتداء والوقف أثناء التلاوة، والوقوف عند رؤوس الآيات من السُّنة، وكذلك الإمساك عن القراءة عند غلبة النُّعاس، والسُّجود عند المرور بآية سجدة، والنهي عن الختم في أقل من ثلاث، والتَّحزيب بالسُّور لا بالأجزاء، وموضع دعاء الختم خارج الصَّلَاة لا داخلها.

٤ - من «فضائل تلاوة القرآن» ما يأتي:

- أ - التلاوة تجارة رابحة عند أكرم الأكرمين.
- ب - تنزل السكينة والرحمة والملائكة للتلاوة.
- ج - التلاوة كلها خير: فلا ينبغي للمسلم أن ينصرف عنها، سواء كان من المهرة المتقين، أم كان من المتعتين، فيتخذ ضعفه حجة في الإعراض عنها.
- د - المؤمن الذي يقرأ القرآن طيب الظاهر والباطن، والمؤمن الذي لا يقرؤه يفقد صفة هامة وهي طيب الظاهر، وهذا نقص في شخصيته لا بد من تداركه بالإقبال على التلاوة.

من نتائج «الفصل السادس»:

١ - هجر حفظ القرآن نوعان:

- النوع الأول: هجره ابتداءً: بعدم حفظه، وبالرُّهْد في تعلُّمه.
- النوع الثاني: هجره بعد حفظه: وذلك بالانشغال عنه، وعدم تعاهده فيؤدي إلى تفلُّته.

٢ - آداب حفظ القرآن نوعان:

- النوع الأول: آداب «أثناء الحفظ» وتمثّل فيما يلي:

أ - الإخلاص لله تعالى .

ب - استشعار عظمة القرآن ومعرفة منزلته .

ج - معرفة أن الأصل في تلقي القرآن حفظه .

د - الرغبة القويّة الصادقة .

هـ - التّقلّل من الدّنيا .

و - الدّعاء والالتجاء إلى الله .

النوع الثاني: آداب «بعد الحفظ» وتمثّل فيما يلي :

أ - الخوف من الوقوع في الرّياء .

ب - الخشية من العُجب بالنّفس والتّعالي على الخلق .

ج - الحذر من الذّنوب والمعاصي .

د - تعاهد القرآن والحذر من نسيانه .

٣ - من «فضائل حفظ القرآن» ما يأتي :

أ - علوّ درجة الحافظ في الآخرة :

* منزلته عند آخر آية يقرؤها .

* يلبّس تاج الكرامة، وحُلّة الكرامة، ويفوز بالرّضى .

* الحافظ مع السّفرة الكرام البررة .

ب - الحافظ مُقدّم في الدّنيا والآخرة: فهو أولى النّاس بالإمارة، وبالإمامة

في الصّلاة، وفي الشّورى، وفي البرزخ .

ج - حمّلة القرآن هم أهل الله وخاصّته، وتكريمهم من إجلال الله تعالى،

ولا تحرقهم النّار يوم القيامة .

٤ - من «أحكام حفظ القرآن ونسيانه» ما يأتي :

أ - حفظ القرآن كاملاً فرض كفاية على الأُمَّة بالإجماع .

ب - يجب على كلّ مسلمٍ حفظ ما تصحّ به صلاته من القرآن

بالإجماع .

وأما بقيّة القرآن فحفظه مستحبّ إجماعاً . وهو متأكّد في حقّ طُلاب العلم

الشَّرْعِي أكثر من غيرهم. وَيُسْتَحَبُّ تحفيظ القرآن للصَّيَّان؛ لَأَنَّهُ مِنْهُج السَّلَف الصَّالِح مع أبنائهم.

ج - نسيان القرآن نوعان:

النَّوع الأول: الذي ينشأ لاشتغاله بأمر دنيوي، وهذا هو المذموم الذي ورد فيه الوعيد.

النَّوع الثاني: الذي لا ينشأ عن تقصير وإهمال، وإنما هو ناتج عن ضعف الذاكرة، أو تقدُّم السنِّ، أو الانشغال بأمور لا طاقة له في دفعها.

د - نسيان القرآن أو شيء منه - بعد حفظه - ذنب عظيم، وصرَّح بعض أهل العلم أَنَّهُ من الكبائر.

هـ - إذا انشغل العبد بالعلم الواجب أو المندوب، وترتَّب على ذلك نسيان شيء من القرآن المحفوظ، فلا يُعَدُّ صاحبه آثماً.

من نتائج «الفصل السابع»:

١ - من «أهمية تدبُّر القرآن» ما يأتي:

أ - أنَّ قراءة القرآن بالتَّفَكُّر والتَّدبُّر هي أصل صلاح القلب واستقامته.

ب - ليس أنفع للعبد في معاشه ومعاده، وأقرب إلى نجاته من تدبُّر القرآن، وإطالة التَّأَمُّل في معاني آياته.

ج - أثنى الله تعالى - في مواضع كثيرة - على مَنْ تدبَّر كلامه وتأثَّر به، وذمَّ مَنْ هَجَرَ التَّدبُّر، ولم يفقه الآيات، ولم يدبِّر القول في صيغ مختلفة، وأحوال متنوِّعة.

د - إطباق جمهور المفسِّرين على وجوب تدبُّر القرآن العظيم.

٢ - من «أسباب هجر التَّدبُّر» ما يأتي:

الإصرار على الذُّنوب، والجهل باللُّغة العربيَّة، وانشغال القلب وتشعبه في أودية الدُّنيا، وترك التَّدبُّر تورُّعاً، وهجر كتب التفسير، والتَّشاغل بكثرة التَّلَاوة.

٣ - من «الأمور المعينة على التَّدبُّر» ما يأتي:

تحسين التَّلَاوة، والإنصات عند السَّماع، والقراءة في جوف اللَّيْلِ، وحُسن

الابتداء والوقف، وفهم المعاني، والوقوف عندها، وترديد الآية المؤثرة في القلب، ومعرفة أساليب القرآن.

٤ - من «ثمرات التدبر» ما يأتي:

أ - تعميق جذور الإيمان.

ب - معرفة الربّ جلّ جلاله.

ج - تحقيق العبوديّة لله تعالى.

د - التدبر غذاء وعلاج وسلاح.

هـ - التدبر فيه تربية للعقول، وصقل للمواهب، وتنمية للقدرات العقلية،

وهو مفتاح كل خير.

من نتائج «الفصل الثامن»:

١ - المقصود الأعظم من تعلّم القرآن، وتلاوته، وحفظه، وتدبره، هو العمل به.

٢ - ترك العمل بالقرآن له حالان:

الحال الأول: أن يُخالف أحكام القرآن، وهو لا يعتقد أن غيرها خير منها، ولا يُقرّ بجواز مخالفتها، فهذا عاصٍ مؤاخَذٌ بعصيانه، وليس كافراً.

الحال الثاني: أن يُخالف أحكام القرآن، من مُتطلقٍ عدم صلاحيتها، وأنه يجوز العدول عنها إلى غيرها، فهذا كافراً مرتدّاً.

٣ - جميع ما فُصل في القرآن العظيم من مكارم الأخلاق، فإنّ النبي ﷺ كان متحلياً به، بل صار امثال القرآن - أمراً ونهياً - سجيّة له، وخُلُقاً تطبّعه.

٤ - القرآن العظيم لا تفتح أسرارها، ولا يتّفع به، إلّا مَنْ يعمل به.

٥ - من «فضائل العمل بالقرآن»:

الهداية، والرّحمة، والفلاح، وتكفير السيئات، وإصلاح البال في الدنيا والآخرة.

من نتائج «الفصل التاسع»:

١ - من «أسباب هجر الشّحاكم إلى القرآن» ما يأتي:

أ - كراهية ما أنزل الله .

ب - الاستكبار .

ج - اتِّباع الهوى .

د - إظهار المتاع العاجل .

هـ - الخوف المُتوهم .

و - التَّقليد المذموم .

٢ - من «الآثار الدُّنيويَّة الحَسنة للحُكم بما أنزل الله» ما يأتي :

أ - الاستخلاف والتَّمكن .

ب - الأمن والاستقرار .

ج - النَّصر والفتح .

د - العزُّ والشَّرف .

هـ - بركة العَيْش ورَعْدُهُ .

و - الهداية والتَّثبيت .

٣ - من «الآثار الأخرويَّة الحَسنة للحُكم بما أنزل الله» ما يأتي :

أ - الفلاح والفوز .

ب - المغفرة وتكفير السيِّئات .

ج - الأجر العظيم .

د - مرافقة الأنبياء والصِّدِّيقين .

٤ - من «الآثار الدُّنيويَّة السيِّئة للحُكم بغير ما أنزل الله» ما يأتي :

أ - قسوة القلوب .

ب - الضَّلال عن الحق .

ج - الوقوع في النَّفاق .

د - الحرمان من التَّوبة .

هـ - الصَّدُّ عن سبيل الله .

و - غياب الأمن وانتشار الفوضى .

ز - انتشار العداوة والبغضاء.

ح - الحرمان من النصر والتمكين.

هـ - من «الآثار الأخروية السيئة للحكم بغير ما أنزل الله» ما يأتي:

أ - الإهانة عند قبض الأرواح.

ب - الوحشة في الحشر.

ج - الأكل من النار وغضب الجبار.

د - العذاب المهين.

وفي الختام: أسأل الله العظيم ربَّ العرش الكريم أن ينفع بهذا الجهد، وأن يُبارك فيه، وأن يَغْفِرَ لي كُلَّ خطأ، أو سهو، أو تقصير. وأعوذُ به تعالى من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن دعاء لا يُسمع.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربَّ العالمين، وصلى الله وسلّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الفهارس

- أولاً: منهج الفهارس.
- ثانياً: فهرس الأحاديث.
- ثالثاً: فهرس الآثار.
- رابعاً: فهرس تراجم الأعلام.
- خامساً: فهرس الألفاظ ومعانيها.
- سادساً: فهرس الفروق اللغوية.
- سابعاً: فهرس الأشعار.
- ثامناً: فهرس الأماكن.
- تاسعاً: فهرس الأحكام الفقهية.
- عاشراً: فهرس الآداب.
- حادي عشر: فهرس الفضائل.
- ثاني عشر: فهرس البدع.
- ثالث عشر: ثبت المصادر والمراجع.
- رابع عشر: المحتوى.

أولاً: منهج الفهارس

تم إعداد الفهارس وفقاً للمنهج التالي:

- ١ - اعتماد رسم الحروف والألفاظ لإيرادها مع ما بعدها حسب الترتيب الألفبائي.
- ٢ - عدم الاعتداد بـ(أل) التعريف إلا مع لفظ الجلالة، وعدم الاعتداد بلفظة: «ابن - ابنة - أبو - أم».
- ٣ - الاعتداد بالواو وحرف الجر والباء الزائدة.
- ٤ - عدم التفريق بين: «أن - إن - أن - إن».
- ٥ - عدم التفريق بين همزتي الوصل والقطع.
- ٦ - الهمزة التي على الواو أو الألف أو النبرة اعتُبرت همزة.
- ٧ - اعتبار (لا) حرف مستقل.
- ٨ - فهرس أطراف الحديث ضُمِّنَ الأحاديث القولية والفعلية والتقريبية، وكذا أوصاف النبي ﷺ. وضُمِّنَ كذلك الأحاديث القدسية مع الإشارة إليها.
- ٩ - في «فهرس الألفاظ ومعانيها» جُرِّدَت الكلمة إلى أصلها، واعتُبرَ التَّرتيب الألفبائي.
- ١٠ - في «فهرس الأشعار» اعْتُمِدَ التَّرتيب حسب القافية، واستُثْنِيَ من ذلك: «الأرجوزة المنبّهة» و«منظومة طيّبة النّشر»؛ لأنَّهما لم تلتزما بقافية واحدة، ومنَع من تقطيعهما عدم تمام المعنى إذا انفرد كلُّ بيتٍ لحاله، خاصةً في مسائل العقيدة.
- ١١ - في فهارس «الأحكام الفقهية، والآداب، والفضائل، والبدع» اعتُبرَ التَّرتيب الموضوعي، والتَّرتيب حسب أرقام الصَّفحات ما أمكن.

١٢ - في «ثبّت المصادر والمراجع» قُدِّمَ اسم الكتاب الأقل في عدد الكلمات إذا اشترك عدة كتب في جزء من الاسم مثال: «فضائل القرآن»، «فضائل القرآن وتلاوته وخصائص تلاوته وحملته» قُدِّمَ الأول. وإذا اتفق كتابان في الاسم تمّ اعتماد اسم المؤلف وفقاً للترتيب الأبجائي.

١٣ - في «المحتوى» تمّ اعتماد الفهرس التفصيلي؛ لتعم الفائدة المرجوة منه.



ثانياً: فهرس الأحاديث

الصفحة	طرق الحديث
(١)	
٤٠٧	أتيت النبي ﷺ وهو يصلي ولجوفه أزيز كأزيز المرجل
٤٢٨	أحب الأعمال إلى الله تعالى أدومها وإن قلّ
٣٠	إذا باتت المرأة مهاجرة فراش زوجها
٣٠	إذا باتت المرأة هاجرة فراش زوجها
١٨٠	إذا زحرفتُم مساجدكم
٤١٥	إذا قام أحدكم من الليل فاستعجم القرآن
٤١٦	إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان
٥٠٠	إذا كانوا ثلاثة فليؤمهم أحدهم
٣١٨	إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة
٤٢٩	إذا مرض العبد أو سافر كتب له مثل ما كان يعمل مقيماً
٤١٥	إذا نكس أحدكم في الصلاة فليرقد
١٥٩	أقبلت يهود إلى رسول الله ﷺ
٣٩٠	أقبل النبي ﷺ من نحو بئر جمل
٢٤٩	اقرأ عليّ
٤٤٠	اقرأ فلان! إنها السكينة تنزلت عند القرآن
٤٤٣	اقرأ يا ابن حضير
٤١١	اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً
٨٢	اقرأوا القرآن ما اتلفت عليه قلوبكم
٧٢	اقرأوا القرآن وابتغوا به الله
٤٩٥، ٤٨٧	أكثر مناقبي أمتي قرأوها
٤١٠	ألا إن كلكم مناج ربه
٥٨٩	ألا أيها الناس، فإنما أنا بشر
٣٥٨	ألا وإن في الجسد مضغة

الصفحة

طرف الحديث

- ٤١٦ اللهم اكتب لي بها عندك أجراً
- ٤١٦ اللهم لك سجدت وبك آمنت
- ٤١٩ ألم أُخْبِرْ أنك تصوم الدهر
- ١٩٨ إن أحدكم ليتكلم بالكلمة
- ٣٤٣ إن أحق ما أخذتم عليه أجرأ كتاب الله
- ٣٤٢ إن أخذتها أخذت قوساً من نار
- ٤٨٧ إن أخوف ما أخاف على أمتي كل منافق
- ٤٧٨ إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر
- ٣٣٧، ٣٢٠ إن أفضلكم من تعلم القرآن وعلمه
- ٥٠٠، ٤٩٩ إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً
- ٣٨٢ إن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال
- ٤٧٨، ٢٩٣ إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه
- ٢٦٧ أن جبريل كان يعارضني بالقرآن
- ٥٩٦ أن رسول الله ﷺ أُملي عليه: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَائِدُونَ...﴾
- ٣٣٦ أن رسول الله ﷺ بعث معاذاً وأبا موسى إلى اليمن
- ٧٨ أن رسول الله ﷺ نهى عن الجدل في القرآن
- ٢٦٥ إن العبد إذا تسوَّك ثم قام
- ١٩٧ إن العبد ليتكلم بالكلمة
- ٥٨٠ إن في الجنة مائة درجة أعدّها الله للمجاهدين
- ٤٤٩، ٣٣١ إن القرآن يلقي صاحبه يوم القيامة
- ٣٤٢ إن كنت تحب أن تطوق طوقاً من نار فاقبلها
- ٥٠٣ إن لله أهلين من الناس
- ٣٢٧ إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته
- ٥٠٤ إن من إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم
- ٤٠٩ إن من أحسن الناس صوتاً بالقرآن الذي
- ٤٦٩ أنا أغنى الأغنياء عن الشرك (قدسي)
- ٤٤٤ أنا عند ظن عبدي، وأنا معه حين يذكرني (قدسي)
- ٣٩٦ أنزلت عليّ آنفاً سورة
- ٢٨١ انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه

الصفحة

طرف الحديث

٥١٧	إنما أنا بشر مثلكم، أنسى كما تنسون
٤٧٣	إنما بعثتك لأبتيك (قدسي)
٣٣٠	إنه بلغني أنكم تريدون أن تنتقلوا قرب المسجد
٣٩١	إنني كرهت أن أذكر الله ﷻ إلا على طهر
٥٨٩	إنني تارك فكيم ما إن تمسكتكم به لن تضلوا بعدي
٤٤٨	إنني لأعرف أصوات رفقة الأشعرين بالقرآن
٣١	إنني لأعلم إذا كنت عني راضية
٥٨٩	أوصى بكتاب الله
٤٣٨	أوجب أحدكم إذا رجع إلى أهله أن يجد فيه ثلاث خلفات
٣٢٤	أبكم يحب أن يغدو إلى بطحان
٣٢٣	أبكم يحب أن يغدو كل يوم إلى بطحان
٢٦٧	أين كنت
٥٠٢	أيهم أكثر أخذاً للقرآن

(ب)

٥١٨ ، ٤٨٨	بش ما لأحدهم يقول: نسيت آية كيت وكيت
٤٠٤	بادروا بالأعمال خصالاً ستاً
٦٣٦	بايعوني على ألا تشركوا بالله شيئاً
٣٣٩	بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقل

(ت)

٤٢٩	تعاهدوا القرآن
٤٨٨	تعاهدوا هذا القرآن
٤٩٠	تعلموا القرآن فإذا علمتموه فلا تغلوا فيه
٣٣٨	تعلموا القرآن فإنه شافع يوم القيامة
٧٢	تعلموا القرآن وسلوا الله به الجنة
٨٣	تلا رسول الله ﷺ هذه الآية
٤٤٠	تلك السكينة تنزلت القرآن
٢٦٥	تلك الملائكة دنت لصوتك

(ث)

٤٨١	ثلاث مهلكات: شح مطاع
-----	----------------------

ثم افتتح آل عمران فقرأها يقرأ مترسلاً ٤١٤

(ج)

الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة ٤١٠

الجدال في القرآن كفر ٧٦

جمرة بين كفئك تقلدتها ٣٤٢

(ح)

الحمد لله، كتاب الله واحد ٧١

(خ)

خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين ٥٨٦

خذوا القرآن من أربعة ٣٣٨

خيركم من تعلم القرآن وعلمه ٥٥٣ ، ٣٥٣ ، ٣٣٧ ، ٣٢٠

(ذ)

ذاك الله ﷻ ٤٨٠

الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام ٤٥٢

(ر)

رايت رسول الله ﷺ يوم فتح مكة وهو يقرأ على راحلته ٣٩٢

رفع عن أمتي الخطأ والنسيان ٥١٩

(ز)

زيتوا القرآن بأصواتكم ٤٠٢

(س)

سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك ٣٩٥

سجد النبي ﷺ بالنجم ٢٧٤

سجد وجهي للذي خلقه ٤١٦

سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب (الطور) ٢٧٤

سمعت النبي ﷺ يقرأ (التين والزيتون) ٤٠١

السواك مطهرة للفم ٣٩٤

(ص)

صلّوا صلاة كذا في حين كذا ٥٠١

طرف الحديث

الصفحة

صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة فافتتح بـ (البقرة) ٥٥٤

(ع)

علموا ويسروا ولا تعسروا ٣٠٤

(ف)

فإن خلق نبي الله ﷺ كان القرآن ٥٨٦

إن لزوجك عليك حقاً ٤٢١

فرغت يا أبا الوليد؟ ٢٧١

فضل صلاة الجمع على صلاة الواحد ٢٦٤

فوالله، ما الفقر أخشى عليكم، ولكن ٣٧٦

في أربعين يوماً ٤٢٠

في شهر ٤٢٠

فيها ما لا عين رأت ٦٣٨

(ق)

قالا: انطلق، فانطلقنا ٣٩٠

قال رجل في غزوة تبوك في مجلس ١٧٤٠

قام النبي ﷺ بآية حتى أصبح يرددها ٥٥٥

قد أفلح من أسلم ٤٧٦

القرآن شافع مشفع ٥٩٠

القرآن يُقرأ على سبعة أحرف ٨٠

قرأت على النبي ﷺ (والنجم) فلم يسجد فيها ٤١٧

(ك)

كان رسول الله ﷺ يتكى في حجري وأنا حائض ٣٩٤

كان رسول الله ﷺ يُشغل فإذا قدم رجل مهاجر ٣٣٦

كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور ٣٣٦

كان رسول الله ﷺ يعلمنا القرآن فإذا مر بسجود ٣٣٦

كان رسول الله ﷺ يُقطع قراءته ٤١٣

كان ﷺ لا يقرأ القرآن في أقل من ثلاث ٤٢١

كان النبي ﷺ إذا قام من الليل يشوص فاه بالسواك ٣٩٤

كان النبي ﷺ يقرأ علينا السورة فيها السجدة فيسجد ٤١٩

الصفحة

طرف الحديث

- ٣٩٩ كان يقرأ بالسورة فيرتلها
 ٣٩٩ كان يمد مدّاً
 ٣٩٩ كانت مدّاً
 ٤٨٢ الكبرياء ردائي والعظمة إزاري (قدسي)
 ٢٩ كنت نهيتكم عن زيارة القبور

(ل)

- ٤٨٦ لأعلمن أقواماً من أمتي يأتون يوم القيامة بحسنات
 ٢٨٣ لقد قرأتها على الجن ليلة الجن
 ٤٠٢ لم يأذن الله لشيء ما أذن لني يتغنى بالقرآن
 ٢٦٦ لو رأيته وأنا أستمع لقراءتك البارحة
 ٥٠٦ لو كان القرآن في إهاب ما أكلته النار
 ٤٨١ لو لم تكونوا تذنبون لحفت عليكم ما هو أكبر
 ٥٤٩ ، ٤٠٢ ، ٨٧ ليس منّا من لم يتغنّ بالقرآن

(م)

- ٤١٠ ما أذن الله لشيء ما أذن لني حسن الصوت بالقرآن
 ٣٤٤ ماذا معك من القرآن
 ٥٨٨ المؤمن الذي يقرأ القرآن ويعمل به كالأترجة
 ٤٥٢ الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة
 ٨٥ مثل البيت الذي يذكر الله فيه
 ٨٦ مثل الذي يذكر ربه
 ٤٩٨ ، ٨٦ مثل الذي يقرأ القرآن وهو حافظ له
 ٤٤٩ مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة
 ٨٦ مثل المنافق الذي يقرأ القرآن
 ٧٩ المراء في القرآن كفر
 ٣١٠ من أتى إليكم معروفاً فكافئوه
 ٣٤٢ من أخذ على تعليم القرآن قوساً، قلّده
 ٣٢٥ من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة
 ٢٧٥ من أنتم؟
 ٢٩٤ من تعلّم علماً مما يتغنى به وجه الله

الصفحة

طرف الحديث

- من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها وأزيد (قدسي) ٤٣٥
- من جاء مسجدي هذا لم يأت به إلا لخير ٣٢٦
- من دعا إلى هدى كان له من الأجر ٣١٨
- من دل على خير فله مثل أجر فاعله ٣٢٨
- من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها ٣٢٩
- من طلب العلم ليخاري به العلماء ٢٩٥
- من علم آية من كتاب الله ﷻ ٣٢٨
- من غدا إلى المسجد لا يريد إلا أن يتعلم خيراً ٣٢٥
- من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين ٤٣٧
- من قرأ بمائة آية في ليلة كتب له قنوت ليلة ٤٣٧
- من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة ٤٣٤ ، ٤١١
- من قرأ القرآن فليسأل الله به ٧٣
- من قرأ القرآن في أقل من ثلاث لم يفقه ٤٢٣
- من نام عن حربه أو عن شيء منه ٤٣٢
- من هذه؟ ٣٧٨
- المهاجر من هجر ما نهى الله عنه ٢٩

(هـ)

- هذا أوان يختلس العلم من الناس ٥٧٤
- هل إلا هذا؟ ٣٤٥

(و)

- والذي نفس محمد بيده! ١٦٦
- والصبر ضياء ٣٠٥
- والقرآن حجة لك أو عليك ٤٨٦
- ولا أعلم نبي الله ﷺ قرأ القرآن كله في ليلة ٤٢١
- وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله إلا ٤٣٨ ، ٢٦٥ ، ٢٤٦
- وما أدراك أنها رقية ٣٤٤
- ويقول القرآن: رب منعته النوم بالليل ٥٥١
- ويكسى والداه حلتين، لا تقوم لهم الدنيا وما فيها ٣٣٢

(٤)

- ٧٧ لا تجادلوا في القرآن
- ٨٥ لا تجعلوا بيوتكم مقابر
- ٤٤٦ لا تحاسد إلا في اثنتين
- ٤٨٣ لا تصيب عبداً نكبةً فما فوقها أو دونها إلا بذنب
- ٣٧٩ لا تكن مثل فلان، كان يقوم الليل
- ٤٤٧ لا تنافس بينكم إلا في اثنتين
- ٢٨ لا تقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة
- ٢٩ لا تهجروا ولا تدابروا
- ٤٤٧ لا حسد إلا على اثنتين
- ٤٤٥ لا حسد إلا في اثنتين
- ٢٧ لا هجرة بعد الفتح، ولكن
- ٢٧ لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث
- ٤٨٢ لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر
- ٤٣٩ لا يقعد قوم يذكرون الله ^{عز وجل} إلا حفتهم الملائكة

(٥)

- ٥٨٧ يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به
- ٣٣٨ يا حذيفة تعلم كتاب الله واتبع ما فيه
- ٣٠٣ يا عائشة! إن الله رفيق
- ٥٠٠ يوم القوم أقرؤهم لكتاب الله
- ٦٥٦ يا معشر المهاجرين خمس إذا ابتليتم بهن
- ٤٩٦ يحيى القرآن يوم القيامة، فيقول
- ١٥٩ يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر
- ٧٥ يخرج فيكم قوم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم
- ٥٧٥، ٧٤ يخرج في هذه الأمة قوم تحقرون
- ٥١٦ يرحمه الله، لقد أذكرني كذا وكذا آية
- ٤٩٤ يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارتق
- ٥٣٠ يقرؤون القرآن لا يجاوز حلقهم

ثالثاً: فهرس الآثار

طرف الأثر	صاحبه	الصفحة
(١)		
ابدؤوا بحمص	عمر بن الخطاب	٣٥١
أتغرون به السارق	ابن عباس	١٨١
أجمع عقلاء كل أمة: أن النعيم لا يدرك بالنعيم	إبراهيم الحربي	٤٧٧
الاحتفاظ بما في صدر الرجل أولى من درس دفتره	محمد بن القاسم بن	
	خلاد	٤٩١
أخذنا القرآن عن قوم	أبو عبد الرحمن السلمي	٩٦
أخلصه وأصوبه	الفضيل بن عياض	٢٩٣
إذا أخرج من القبر خرج بصيراً	ابن عباس	٥٤
إذا تشاءت وأنت تقرأ القرآن	مجاهد	١٧٨
استعينوا على الحفظ بترك المعاصي	وكيع بن الجراح	٤٨٤
اسجد فإنك إمامنا فيها	ابن مسعود	٤١٨
اقرأوا القرآن ولا تغرنكم هذه المصاحف	أبو أمامة	٥٠٧
اكتب	ابن عباس	٣٥٧
إلا ما أراد الله أن ينسيكه لتنسى	ابن عباس	٥١٦
إن أفواهمكم طرق للقرآن	علي بن أبي طالب	٣٩٥
إن الله لم يفرض السجود إلا أن نشاء	ابن عمر	٤١٧
أن تميماً الداري ردد هذه الآية	مسروق	٥٥٦
إن الذي تدعونه المفضل هو المحكم	سعيد بن جبير	٥١٢
إن العبد إذا طلب العلم للعمل كسره علمه	مالك بن دينار	٤٨٥
إن مما يهمني	ابن جبير	٣٠٠
إن الناس يقولون أكثر أبو هريرة	أبو هريرة	٤٧٦
إن هذا العلم دين	ابن سيرين	٣١٢
إن هذا القرآن قد قرأه عبيد وضبيان	الحسن البصري	٩٤

الصفحة	صاحبه	طرف الاثر
٩٤	أبو موسى الأشعري	إن هذا القرآن كائن لكم ذخراً
٩٧	ابن مسعود	إن هذا القرآن مآدبة الله
٩٦	أويس القرني	إن هذا المجلس يغشاه ثلاثة نفر
٦٣١	عمر بن الخطاب	إنا كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام
١٨٢	أبو العالية	أنت أصغر منها
١٨٢	أبو العالية	أنت أصغر وألام
٥٥٦	بشر بن السري	إنما الآية مثل التمرة
		إنما أخاف أن يكون أول ما يسألني عنه ربي أن يقول:
٥٩١	أبو الدرداء	إنما السجود على من استمع
٤١٩	عثمان بن عفان	إنما نزل القرآن ليعمل به
٥٩٢	الفضيل بن عياض	إنما هذه القلوب أوعية
٣٠٠	ابن مسعود	إني لأحسب الرجل ينسى العلم بالخطيئة يعملها
٤٨٣	ابن مسعود	إني لأقرأ حزبي وأنا مضطجعة على سريري
٣٩٥	عائشة	
		(ب)
٤٨٦	حذيفة	يحسب المرء من العلم أن يخشى الله تعالى
٩٨	قتادة	البلد الطيب: المؤمن سمع كتاب الله فوعاه
٩٨	مجاهد	البلد الطيب: ينفعه المطر فينبت
٥٥٧	الحسن البصري	بيننا أنا ذات ليلة عند الحسن
٥٩٧	ابن عمر	بيننا الناس بقاء في صلاة الصبح
		(ت)
٤١٢	ابن عمر	تدري فيما أنزلت؟
٤٩	علي بن أبي طالب	تزاوروا وتدارسوا الحديث
٥٩١	ابن مسعود	تعلموا تعلموا فإذا علمتم فاعملوا
٢٩٨	عمر بن الخطاب	تعلموا العلم
٣٠١	أبو العالية	تعلموا القرآن
٤٣٥	ابن مسعود	تعلموا هذا القرآن
٥٣٩	ابن عباس	التفسير على أربعة أوجه
٥١٢	ابن عباس	توفي رسول الله ﷺ وأنا ابن عشر سنين

طرف الأثر	صاحبه	الصفحة
(ج)	ابن عباس	٣٣٠
جمعت المحكم في عهد رسول الله ﷺ		
(ح)	ابن عباس	٣٠٣
علماء فقهاء		
(خ)	ابن مسعود	٣٢٧
خذها، فوالله لهي خير مما على الأرض		
(د)	عباد بن حمزة	٥٥٧
دخلت على أسماء ؓ وهي تقرأ		
(ذ)	ابن عباس	٤٤٥
ذكر الله إياكم أكبر من ذكركم إياه		
(ر)	أبو عبد الرحمن السلمي	٣٥٤
رُده، إنا لا نأخذ على كتاب الله أجراً		
(س)	أوس بن حذيفة	٤٢٦
سألت أصحاب رسول الله ﷺ كيف تحزبون القرآن		
سلوني	علي بن أبي طالب	٣٠٠
سلوني عن التفسير	ابن عباس	٥١٢
سيلى القرآن في صدور أقوام	معاذ بن جبل	٩٧
(ض)	ابن عباس	٥٨٢
ضمن الله تعالى لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه ألا يضل		
(ط)	الحسن البصري وسفيان الثوري	٤٧١
طلبنا العلم للدنيا فَجَرَّنا إلى الآخرة		
طلبنا العلم للدنيا فدلنا على ترك الدنيا	ابن المبارك	٤٧١
طلبنا هذا العلم وما لنا فيه نية، ثم جاءت النية	حبيب بن ثابت	٤٧١
(ع)	مجاهد	٣٥٧
عرضت القرآن على ابن عباس ثلاث عرضات		

طرف الأثر	صاحبه	الصفحة
العلم علما	الحسن البصري	٤٨٦
علمني مما علمك الله	عمرو بن قيس الملائي	٣١٩
(ف)		
فإن كنت فاعلاً لا بد، فاقراء	ابن عباس	٤٠٠
فقال النجاشي	أم سلمة	٢٧٨
فلما أنزل الله هذا في براءتي	عائشة	٥٩٤
(ق)		
قدم عينة بن حصن	عمر بن الخطاب	٥٩٥
القلوب تُربِّ والعلم غرسها	جعفر بن محمد	٤٩١
(ك)		
كاد الخيار أن يهلكا	ابن أبي مليكة	٥٩٥
كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى	ابن مسعود	٥٩٣
كان القراء أصحاب مجلس عمر	ابن عباس	٥٠٢
كانوا كما نعتهم الله ﷻ	أسماء بنت أبي بكر	٢٦٨
كانوا يكرهون أن يصغروا المصحف	إبراهيم التيمي	١٨٢
كانوا يكرهونه ويقولون فيه قولاً شديداً	ابن سيرين	٥١٣
كنا مع النبي ﷺ ونحن فتيان	جندب بن عبد الله	٣٠٢
كنا نعد من أعظم الذنوب أن يتعلم		
الرجل القرآن ثم ينام عنه	أبو العالية	٥١٣
كنت أرحل إلى الرجل مسيرة أيام	أبو العالية	٣١٢
كنت أسمع الحديث من ابن عباس	ابن جبير	٣١٠
كيف تركت الأشعري	عمر بن الخطاب	٣٥٢
(ل)		
لأن اقرأ البقرة في ليلة	ابن عباس	٤٠٠، ٥٣١
لقد أتى علينا حين، وما نرى أن	عمر بن الخطاب	٩٢
لقد حملت التفسير عن بضعة عشر رجلاً	مجاهد	٣٥٨
لقد عشت برهة من دهرى	ابن عمر	٩٥، ٣٠٢
لما أمرنا بالصدقة	أبو مسعود	١٧٥
لما قدم المهاجرون الأولون العصبية	ابن عمر	٥٠١

طرف الأثر	صاحبه	الصفحة
لما نزلت: ﴿يَذَرِكْ عَلَيْنَّ مِنْ جَلِيلِهِنَّ﴾	أم سلمة	٥٩٨
لو أعلم أن أحداً تبلغني الإبل	ابن مسعود	٣٥٧
لو أعيتني آية من كتاب الله ﷻ	أبو الدرداء	٣٥٧
لو جعل لأحد خمس قلائص	ابن مسعود	٣٢٦
ليس العلم بكثرة الرواية ولكن العلم الخشية	ابن مسعود	٤٨٥
ليس لهذا غدونا	سلمان	٤١٩
ليس من اشتهر بحفظ شيء وتفلت منه بناس	سفيان بن عيينة	٥١٨

(م)

ما جالس القرآن أحد فقام عنه إلا بزيادة	قتادة	٩٧
ما عالجت شيئاً أشد عليّ من نيتي	سفيان الثوري	٤٧١
ما كان لنا خمر غير فضيخكم هذا	أنس بن مالك	٥٧٩
ما من أحد تعلم القرآن فنسبه إلا بذنب	الضحّاك	٤٨٣، ٣٠١
ماذا زرع القرآن في قلوبكم	مالك بن دينار	٣٠١
مثل الذين يقرؤون القرآن ولا يعرفون التفسير	إناس بن معاوية	٥٥٤
المراد به القرآن	ابن عباس	٢٧٠
من أوتي من العلم ما لم يكه	التيمي	٢٧٠، ٢٥١
من تعلم القرآن ثم نسبه	طلق بن حبيب	٥١٤
من علّم وعلم يدعى في الملكوت عظيماً	عيسى عليه السلام	٣٢١
من قرأ القرآن واتبع ما فيه هداه الله	ابن عباس	٥٨٢
من قرأ القرآن يتأكل به الناس	زاذان	٩٣

(هـ)

هذا السجود فأين البكي؟	عمر بن الخطاب	٢٥٠
هَذَا كهذا الشعر؟	ابن مسعود	٣٩٩
هذه آية القراء	مطرف بن عبد الله	٤٣٣

(و)

والله الذي لا إله غيره ما أنزلت سورة من كتاب الله	ابن مسعود	٣٥٦
إلاً	الحسن البصري	٤٠٨
والله يا ابن آدم، لئن قرأت القرآن	ابن عباس	٥٥٠
وقوله: ﴿وَأَقْرَبُ قِيلاً﴾ هو أجدر أن يفقه في القرآن		

طرف الأثر	صاحبه	الصفحة
الوجل في القلب كإحراق السعفة	أبو الدرداء	٢٦٩
(لا)		
لا تستوحش طرق الهدى لقله أهلها	الفضيل بن عياض	٤١٣
لا تهذوه هذ الشعر	ابن مسعود	٥٣٢
لا تقولوا مصيحف	سعيد بن المسيب	١٨١
لا يتم طلب العلم إلا بأربعة أشياء	ابن المبارك	٤٧٦
لا يغرركم من قرأ القرآن	عمر بن الخطاب	٥٩١
(ي)		
يا أعرابي أتبرأ من رسول الله ﷺ؟	عمر بن الخطاب	٥٤٠
يا أمير المؤمنين، إنا أنزل علينا القرآن	ابن عباس	٩٩
يا أيها الناس، إنا نمر بالسجود	عمر بن الخطاب	٤١٧
يا أيها الناس إنكم تتأولون هذه الآية	أبو أيوب الأنصاري	٥٤٤
يا معشر القراء استقيموا	حذيفة	٥٩١
يرحم الله نساء المهاجرات الأول	عائشة	٥٩٧
يقتسمون ميراث محمد ﷺ	ابن مسعود	٣٢٧
ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليله	ابن مسعود	٤٦٨، ٢٩٧



رابعاً: فهرس تراجم الأعلام

الاسم	الشهرة	الصفحة
(١)		
إبراهيم بن إسحاق بن إبراهيم بن بشر	إبراهيم الحربي	٤٧٧
إبراهيم بن علي بن محمد بن أبي القاسم	ابن فرحون	١٩٨
إبراهيم بن محمد بن السري	الزجاج	٤٨
إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي	الشاطبي	٥٤٢
إبراهيم بن يزيد بن شريك	التيمي	٩٩
إبراهيم بن يزيد بن قيس	الأسود النخعي	١٨٢
أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن العباس	الإسماعيلي	٥١٧
أحمد بن أحمد بن سلامة	القليوبي	١٩٦
أحمد بن جعفر بن محمد بن عبيد الله بن أبي داود	ابن المتادي	٥١٤
أحمد بن حنبل بن هلال بن أسد	الإمام أحمد	٣١١
أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام	ابن تيمية	١٤٧
أحمد بن علي بن ثابت	الخطيب البغدادي	٤٩١
أحمد بن علي بن حجر العسقلاني	ابن حجر	٢٨
أحمد بن فارس بن زكريا بن محمد بن حبيب	ابن فارس	١٨
أحمد بن قاسم العبادي	العبادي	٢٠٥
أحمد بن محمد بن سعيد بن عبد الرحمن	ابن عقدة	٣٥٤
أحمد محمد شاكر بن أحمد	أبو الأشبال	٦٥١
أحمد بن محمد بن محمد بن علي بن حجر	ابن حجر الهيتمي	٣٦
إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة	السدي	٩٨
إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء	ابن كثير	٣٢
أضحمة بن أبحر	التجاشي	٢٧٩
أويس بن عامر بن جزء المرادي	أويس القرني	٩٦
إيأس بن معاوية بن قرة بن إيأس	أبو وائلة	٥٥٤

الاسم	الشهرة	الصفحة
(ب)		
بشر بن السريّ الأفوه البصري	-	٥٥٦
بكر بن عبد الله أبو زيد	-	٣٦٨
أبو بكر بن عياش بن سالم الأسدي	-	٣٠٦
(ت)		
تميم بن حذلم الضبي	-	٤١٨
(ج)		
جعفر بن سليمان الضُّبَعي	-	٤٨٣
جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي	جعفر الصادق	٢٤٠
(ح)		
حبيب بن أبي ثابت قيس بن دينار الأسدي	-	٤٧١
الحجاج بن يوسف بن الحكم	-	٣٥٢
الحسن بن يسار البصري	-	٩٤
الحسين بن الحسن بن محمد بن حليم	الحليمي	٧٨
الحسين بن علي بن يزيد	الكرائيسي	٤١٤
الحسين بن محمد بن عبد الله	الطبي	٣١
الحسين بن محمد بن الفضل	الراغب الأصفهاني	١٩
الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء	البغوي	٥٠
حمد بن محمد بن إبراهيم بن خطاب	الخطابي	٧٩
(ر)		
رؤبة بن عبد الله بن العجاج	-	٦٥
الربيع بن خُثَيم بن عائذ الثوري التميمي	-	٥٥٧
رفيع بن مهران الريحاني	أبو العالية	١٨٢
(ز)		
زهير بن أبي سُلمى ربيعة بن قرة	-	٦٦٤
زيد بن الحسن بن زيد بن الحسن بن سعيد	-	٣٦٠
زين الدين بن إبراهيم بن محمد	ابن نجيم	١٤٨

الاسم	الشهرة	الصفحة
(س)		
سعيد بن جبير بن هشام الأسدي	-	٣٠٠
سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب	-	١٨١
سفيان بن سعيد بن مسروق	سفيان الثوري	٢٣٤
سفيان بن عيينة بن أبي عمران	-	٨٨
سليمان بن مهران الكاهلي	الأعمش	٣١٤
(ش)		
شعبة بن الحجاج بن الورد	-	٣٨٢
(ص)		
صلاح أبو إسماعيل	-	٦٥٠
(ض)		
الضحاك بن مزاحم الهلالي	-	٣٠١
(ط)		
طلحة بن مصرف بن عمرو بن كعب	-	٣١٤
طلق بن حبيب العتري	-	٥١٤
(ظ)		
ظالم بن عمرو بن سفيان	أبو الأسود الدؤلي	٥٤٠
(ع)		
عاصم بن بهدلة	ابن أبي النجود	٣٠٦
عباد بن حمزة بن عبد الله بن الزبير بن العوام	-	٥٥٧
عبد الرؤوف بن علي بن زين العابدين	المنائي	٢١١
عبد الرحمن بن أحمد بن الحسين	أبو الفضل الرازي	٥٠٦
عبد الرحمن بن أحمد بن رجب	ابن رجب	٣٠٥
عبد الرحمن بن أبي بكر الخضير	السيوطي	٣٣٨
عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي	ابن الجوزي	٥١
عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر	السعدي	٣١١
عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم بن الفضل	الرافعي	٣٦
عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك	القشيري	٢٩٣

الاسم	الشهرة	الصفحة
عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة	ابن قدامة المقدسي	١٤٥
عبد الله بن أبي جمرة السبتي	ابن أبي جمرة	٢٩٤
عبد الله بن حبيب بن ربيعة	أبو عبد الرحمن	
	السلمي	٩٦
عبد الله بن شداد بن الهاد	-	٤٠٨
عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل	الدارمي	٢٥١
عبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة	-	٥٤٠
عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي	ابن المبارك	٤٧١
عبد الملك بن قريب بن عبد الملك بن علي	الأصمعي	٤٩١
عبيد الله بن محمد بن محمد بن حمدان	ابن بطة	١٤٦
عتبة بن ربيعة بن عبد شمس	-	٢٧١
عثمان بن سعيد	أبو عمرو الداني	٢٩١
عكرمة البريري	أبو عبد الله المدني	١٢٩
علي بن أحمد بن سعيد بن حزم	ابن حزم الظاهري	١٤٦
علي بن حمزة بن عبد الله بن بهمن	الكسائي	٣٥٨
علي بن خلف بن عبد الملك بن بطل	ابن بطل	٨٧
علي بن عقيل بن محمد بن عقيل	ابن عقيل الحنبلي	٢٠٦
علي بن محمد	الماوردي	٢٩٩
علي بن محمد بن خلف المعافري	أبو الحسن القابسي	٥١٥
علي بن محمد بن عبد الرحمن	الآمدي	١٤٣
عمرو بن حريث بن عمرو بن عثمان	-	٣٥٤
عمرو بن قيس الملائي	-	٣١٠
عياض بن موسى بن عياض بن عمر اليحصبي	القاضي عياض	٨٩
(ف)		
الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر	-	٥٩٢
(ق)		
القاسم بن سلام الهروي	أبو عبيد	٨١
القاسم بن فيره بن خلف بن أحمد	الشاطبي	٣٣٢
قتادة بن دعامة بن قتادة بن عزيز السدوسي	-	٦٥

الاسم	الشهرة	الصفحة
(م)		
مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر	الإمام مالك	٤٠٤
مالك بن دينار البصري	-	٣٠١
التبارك بن محمد بن محمد بن عبد الكريم	ابن الأثير	٧٧
مجاهد بن جبر	-	٤٤
محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة	ابن جماعة	٤٧٠
محمد بن أحمد بن أحمد بن رشد	ابن رشد	٥١٥
محمد بن أحمد بن الأزهر بن طلحة	الأزهري	١٩٥
محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح	القرطبي	٦٣
محمد بن أحمد بن جزي الكلبي	ابن جزي	٢٥٥
محمد بن أحمد بن حمزة	الرملي	٤٠٥
محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز	الذهبي	٢٩٥
محمد بن أحمد بن علي البغدادي	الخياط	٣٥٣
محمد بن إدريس القرشي	الإمام الشافعي	١٩٩
محمد بن إسحاق بن خزيمة	ابن خزيمة	٣٥٩
محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة	البخاري	٣٠٣
محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز	ابن عابدين	٢٥٧
محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي	الشنقيطي	٥١
محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد	ابن القيم	٣٢
محمد بن جرير بن يزيد	الطبري	٢٦
محمد بن حبان بن أحمد بن حبان	ابن حبان	٨٠
محمد بن الحسين بن عبد الله	الآجري	٩٣
محمد بن سيرين البصري	ابن سيرين	٣١٢
محمد بن صبيح الحداد المغربي	أبو عثمان الحداد	١٤٤
محمد الطاهر بن عاشور	ابن عاشور	٢٣
محمد بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم بهادر	المباركفوري	٧٣
محمد بن عبد الرزاق الحسيني	الزبيدي	٥٠٧
محمد بن عبد القوي بن بدران	ابن عبد القوي	٢٠١
محمد بن عبد الله بن بهادر المصري	الزركشي	٢٠٢
محمد بن عبد الله بن محمد	ابن العربي	١٩١

الاسم	الشهرة	الصفحة
محمد بن علي بن محمد بن عبد الله	الشوكاني	٥٨
محمد بن عمر بن حسين القرشي	البرازي	١٣١
محمد بن كعب بن سليم القرظي	-	٣٥١
محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي	أبو حامد الغزالي	٨٣
محمد بن محمد بن محمد بن علي الدمشقي	ابن الجَزَري	٤٧٣
محمد بن محمد بن مصطفى العمادي	أبو السعود	٧٦
محمد بن مفلح بن محمد بن مفرج المقدسي	ابن مفلح	٢٠٢
محمد ناصر الدين بن نوح الألباني	الألباني	٤٢١
محمد بن نصر بن الحجاج	المروزي	٢٥٨
محمد بن النضر بن مر بن الحر	ابن الأخرم	٣١٣
محمد بن الوليد بن خلف بن سليمان	أبو بكر الطرطوشي	٣٦٧
محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم	الفيروزآبادي	١٩٦
محمد بن يوسف بن علي	أبو حيان	١٢٩
محمود بن خليل الحُصري	الحُصري	٣٧٢
محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي	الألوسي	٣٥
محمود بن عمر بن محمد	الزمخشري	١٢١
مسروق بن الأجدع بن مالك الهمداني الوادعي	-	٥٥٦
مطرف بن عبد الله بن الشخير	-	٤٣٣
المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث	-	٣١٢
منصور بن محمد بن عبد الجبار	ابن السمعاني	١١٣
(ن)		
نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم	أبو رويم الأصبهاني	٢٢
نصر بن محمد السمرقندي	السمرقندي	١١٢
نصر بن عمران الضبيعي	-	٤٠٠
(و)		
وكيع بن الجراح بن مليح الرُّوَاسي	-	٤٨٤
(ي)		
يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور	الفراء	٥٤
يحيى بن سعيد القطان	-	٣١١

الاسم	الشهرة	الصفحة
يحيى بن شرف بن مري بن حسن	النوي	٢٧
يحيى بن أبي كثير الطائي	-	٤٧٧
يحيى بن محمد بن هيرة	ابن هيرة	٥٤١
يحيى بن وثاب الأسدي الكوفي	-	٣٥٩
يوسف بن أسباط بن واصل الشيباني	-	٢٤١
يوسف بن حسن بن أحمد بن حسن	ابن عبد الهادي	٢٠٣
يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر	ابن عبد البر	١٤٤



خامساً: فهرس الألفاظ ومعانيها

الصفحة

اللفظ والمعنى

حرف (أ)

مادة «أ ت ر ج»:

الأترج: بضم الهمزة والراء، بينهما مثناة ساكنة، وآخره جيم ثقيلة: شجر يعلو،
ناعم الأغصان والورق والثمر، وثمره كاللّيمون الكبّار، وهو ذهبي اللون، زكيّ
الرائحة، حامض الماء. ٤٤٩، ٤٥٠

مادة «أ ز ن»:

أزيز المزجل: صوت غليانه، ومنه الأزر، وهو الإزعاج. ٤٠٧
وأزيز الرّحى: صوتها وحرّرتها. ٤٠٨

مادة «أ ف ك»:

الإفك: الكذب، وهو: أشد الكذب. ١٢٠

مادة «أ ه ب»:

الإهاب: جلد لم يذبح. ٥٠٧

مادة «أ ه ل»:

أهلين: جمع أهل، جمعت بالياء والنون لكونها ملحقة بجمع المذكر السالم. ٥٠٣

حرف (ب)

مادة «ب ر ر»:

البررة: المطيعون لله، مأخوذ من البرّ؛ وهو الطّاعة. ٤٥٢

حرف (ت)

مادة «ت ع ت ع»:

يتتبع فيه: الذي يتردد في تلاوته لضعف حفظه. ٤٥٢

مادة «ت ع س»:

التَّعَسُّ: الهلاك والعثار، والسُّهُوط والسَّرُّ والبُعد والانحطاط. ١٢٣

حرف (ث)

مادة «ث ك ل»:

تَكَلَّنَكَ أُمُّكَ: فَقَدْتِكَ، وأصله الدُّعاء بالموت، ثم يُستعمل في التَّعَجُّب. ٥٧٤

حرف (ج)

مادة «ج ح د»:

الجَحْدُ: نفي ما في القلب ثباته، وإثبات ما في القلب نفيه. ١٣٢

الجحود: ضد الإقرار، ولا يكون إلا مع علم الجاحد به أنه صحيح. ١٣١

يقال: جحد الأمر، وجحد بالأمر جحداً وجحوداً: أنكره مع علمه به. ١٣٢

مادة «ج ح م»:

الجَحِيم: النار الشديدة الإيقاد، يقال: جَحِمَ فلان النار: إذا شَدَّدَ إيقادها. ١٣٠

مادة «ج د ل»:

الجدال: مقابلة الحُجَّةِ بالحُجَّةِ. ٧٧

المجادلة: المناظرة والمخاصمة. ٧٧

مادة «ج ر ر»:

اجترَّه: بجيم ومثناة وراء ثقيلة، والضمير - في الحديث - لولده، أي: اجترَّ ولده

من المكان الذي هو فيه حتى لا تَطَّاهُ الفرس. ٤٤٣

مادة «ج ز أ»:

النجزاء: هو عَوْضُ العمل وما يقابل به من أجر أو عقوبة. ١٢٩

مادة «ج و ل»:

جالت الفرس: وثبت واضطربت، والفرس يطلق على الذكر والأنثى. ٤٤٣

حرف (ح)

مادة «ح ز ب»:

الحزب: الجماعة من الناس، والطائفة من كل شيء. ٤٢٥

والحزب: ما يجعله الرجل على نفسه من قراءة أو صلاة كالورد. ٤٢٥

الصفحة

اللفظ والمعنى

٤٢٥ والحزب: النوبة في ورود الماء.

٤٢٦ التحزيب: التجزئة، تخريب القرآن: تجزئة القرآن واتخاذ كل جزءاً لحزباً له.

مادة «ح ز ر»:

٣٠٢ حزاورة: جمع حَزَوْر وحَزَوْر، وهو الذي قارب البلوغ.

مادة «ح ف»:

٤٣٩ حفتهم الملائكة: دارت حولهم.

مادة «ح ف ظ»:

٤٦٠ حَفَظَ: الحاء والفاء والطاء أصل واحد يدل على مراعاة الشيء.

حَفَظَ الشيء حفظاً: حرسه، وحفظه: استظهره. والتحفظ: التيقظ وقلة الغفلة،

٤٦٠ وتحفظ الكتاب: استظهره شيئاً بعد شيء.

الحفظ: نقيض النسيان، وهو: التعاهد وقلة الغفلة. يقال: حفظ الشيء حفظاً،

٤٦٠ ورجل حافظ من قوم حُفَاط.

مادة «ح ق ب»:

١٧٤ الحَقَب: بفتح الحاء والقاف: جبل يُشَدُّ به الرَّحْلُ في بطن البعير.

مادة «ح ل ل»:

٤٩٦ حَلَّه: أمر من التحلية، يقال: حلّيته أحليه تحلية: إذا ألبسته الحلية.

مادة «ح ن ج ن»:

٧٤ الحناجر: جمع حنجرة، وهي آخر الحلق مما يلي الفم.

مادة «ح ن ظ ل»:

٨٦ الحنظل: نبت مفترش، ثمرته في حجم البرتقالة ولونها، فيها لب شديد المرارة.

حرف (خ)

مادة «خ ل ص»:

٢٩٣ الإخلاص: إفراد الحق سبحانه في الطاعة بالقصد.

مادة «خ ل ف»:

خَلَقَات: الحوامل من الإبل إلى أن يمضي عليها نصف أمدها، ثم هي عشار،

٤٣٨ والواحدة: خَلِقة وعشراء.

الصفحة

اللفظ والمعنى

مادة «خ م ر»:

٥٩٧

اخْتَمَرْنَ: غَطَّين وجوههن.

مادة «خ و ض»:

١٧٥

الخوض: المشي في الماء، ثم استعمل في كل دخول فيه تلوث وأذى.

حرف (د)

مادة «د ب ر»:

٥٢٤

دَبَّرَ: هلك، يُقَالُ: دَبَّرَ الْقَوْمُ يَدْبُرُونَ دِبَاراً: هلكوا. وَأَذْبَرُوا: إِذَا وَلَّى أَمْرُهُمْ إِلَى آخِرِهِ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ بَاقِيَةٌ.

٥٢٤

التَّدْبِيرُ: مصدرٌ فِعْلُهُ الماضي: تَدَبَّرَ. وهو فِعْلٌ مَزِيدٌ، اشْتَقَّ مِنَ الْفِعْلِ الْمَجْرَدِ الماضي: دَبَّرَ. ومضارعه: يَدْبُرُ، والمصدر: دَبْرًا ودُبُورًا.

٥٢٤

٥٢٤

ودَبَّرَ النَّهَارُ أَوِ الصَّبِيْفُ: انْصَرَمَ، مَضَى وَانْقَضَى.

٥٢٤

٥٢٤

٥٢٤

ودَبَّرَ الشَّيْءَ: جَاءَ بَعْدَهُ وَخَلْفَهُ. والتَّدْبِيرُ الْأَمْرُ تَدْبِيرًا: نَظَرٌ فِي أَدْبَارِهِ، أَي: عَوَاقِبِهِ، وَتَفَكُّرٌ فِيهِ. والتَّدْبِيرُ: النَّظَرُ فِي أَدْبَارِ الْأَمْرِ. وهو يَعْنِي: التَّأَمُّلُ فِي عَوَاقِبِهِ، أَوْ مَا يُؤَوِّلُ إِلَيْهِ.

مادة «د ق ل»:

٩٥

الدَّقْلُ: رَدِيءُ التَّمْرِ وَيَابِسُهُ، وهو: أَرْدَأُ التَّمْرِ.

حرف (ذ)

مادة «ذ ق ن»:

٢٥١

الْأَذْقَانُ: جَمْعُ ذَقْنٍ، وهو مَجْتَمِعُ اللَّحْيَيْنِ

حرف (ر)

مادة «ر ت ل»:

٣٩٨، ٣٣١

الترتيل: هو التَّائِي فِي الْقِرَاءَةِ وَالتَّمَهُلُ وَتَبْيِينُ الْحُرُوفِ وَالْحَرَكَاتِ.

مادة «ر ج ل»:

٤٠٧

الْمِرْجَلُ: قِدْرٌ مِنْ نَحَاسٍ، وَقَدْ يُطْلَقُ عَلَى قِدْرِ يَطْبَخُ فِيهَا.

مادة «ر ف ق»:

٤٤٨

الرَّفْقَةُ: بَضْمُ الرَّاءِ وَكُسْرُهَا، وَالْأَشْهُرُ الضَّمُّ، هُمُ الْجَمَاعَةُ الْمُرَافِقُونَ.

الصفحة

اللفظ والمعنى

مادة «ر ق ي»:

ارتق: أمر من الفعل رقى يرقى، أي: اصعد. ٤٩٤
التراقى: جمع ترقوة، وهي العظم الذي بين ثغرة النحر والعنق، وهما ترقوتان من الجانبين. ٤٠٠

مادة «ر م ي»:

الرَّمِيَّة: هي الطريدة من الصيد. ٧٥

مادة «ر ه ب»:

الرهبان: جمع راهب، مثل ركبان جمع راكب، وفرسان جمع فارس، والراهب من النصارى: المنقطع في دير أو صومعة للعبادة، مشتق من الرهبة، وهي الخوف. ٢٧٧

مادة «ر و ح»:

الريحان: جنس من النبات، طيب الرائحة من الفصيلة الشفوية، وكل نبت طيب الرائحة، ويقال للمرأة: ريحانة. ٨٦

حرف (ز)

مادة «ز خ خ»:

زَحَّ: دفع، يقال: زخخته، أزحُّه زَحّاً: إذا دفعته. ٩٤

مادة «ز ل ق»:

الرَّلَق: بفتحين - زَلُّ الرَّجُلِ من ملامسة الأرض من طين عليها أو دهن. ٢٢٥

مادة «ز ه ر»:

زهاوين: سميتين مائلتين إلى البياض من كثرة السمن. ٣٢٤

حرف (س)

مادة «س ط ر»:

الأساطير: الأباطيل، وهي جمع أسطورة: وهي القصة المسطورة. ١٠٨

مادة «س ط و»:

السطوة: شدة البطش، يقال: سطا عليه، وسطا به: إذا بطش به وتناوله بالعنف والشدة. ٥٨

مادة «س ف ر»:

السفرة: جمع سافر، ككتبة وكاتب. والسافر: الرسول. والسفرة: الرسل؛ لأنهم يُسَفِّرون إلى الناس برسالات الله. وقيل: هم الملائكة؛ سُمُّوا بذلك؛ لأنهم ينزلون بوحى الله، وما يقع به الصلاح بين الناس، كالسفير يُصلِّح بين القوم. ٤٥٢

مادة «س ك ن»:

السكينة: الوقار والتأني والسكون. وقيل: الرحمة. وقيل: خُلِقَ رقيق كالريح والهواء. ٤٤٠

مادة «س م د»:

سامدون: لاهون، مستكبرون. ١٨٦
السُّمود: بمعنى الغناء على لغة جَمِير. ١٨٦

مادة «س م ر»:

السَّمَار: هم الجماعة الذين يتحدثون بالليل، مأخوذ من السَّمر، وهو: ظِلُّ القمر، ومنه سَمرة اللَّون. ٤٨

مادة «س م ع»:

السَّماع: مصدر مشتق من الفعل سَمِعَ الذي يدل على إدراك الشيء بالأذن، يقال: سَمِعَ الشيء - بالكسر - سَمْعاً وَسَمَاعاً، ويجمع على أَسْماع، وجمع الأَسْماع: أَسَامِع. ٢١٠

حرف (ش)

مادة «ش ح ب»:

الشاحب: المتغير اللون لعارض من مرض، أو سفر، أو نحوهما. ٣٣١

مادة «ش ر ق»:

شَرُق: بفتح الراء وإسكانها، أي: ضياء ونور. ٥٨٧

مادة «ش ط ن»:

شَطْنين: بفتح الشين المعجمة والطاء: تنثية شطن، وهو الحبل الطويل. ٤٤٠

حرف (ص)

مادة «ص ح ف»:

المصحف: اسم لكل مجموعة من الصحف المكتوبة، ضُمَّت بين دفتين. ١٩٥

المصحف: هو اسم للمكتوب فيه كلام الله تعالى بين الدفتين. ١٩٦

مادة «ص ف ف»:

الصُّفَّة: موضع مُظْلَل من المسجد النبوي الشريف، كان فقراء المهاجرين يأوون إليه، وهم المسمَّون بأصحاب الصُّفَّة، وكانوا أضياف الإسلام. ٣٢٣

صَوَافٍ: جمع صافَّة، وهي الطيور، التي تبسط أجنحتها في الهواء. ٥٨٧

حرف (ض)

مادة «ض غ ن»:

الأضغان: جمع ضِغْن، وهو ما في النفوس من الحسد والحقد. ٦٤٥

مادة «ض ن ك»:

الضنك: الضيق والشدة. ٥١٠

حرف (ط)

مادة «ط غ ي»:

الطاغوت: أصلها طَغَو، من قول القائل: طغى فلان يطفو: إذا عدا قدره فتجاوز الحد. ٦٠٢

والطاغوت: هو كل ذي طغيان على الله، فَعِيد من دونه إما بقهر منه لمن عبده، وإما بطاعة ممن عبده له، إنساناً كان ذلك المعبود، أو شيطاناً، أو وثناً، أو صنماً، أو كائناً ما كان من شيء. ٦٠٢

حرف (ظ)

مادة «ظ ل ل»:

الظُلَّة: ما يقي من الشمس؛ كسحاب أو سقف بيت. ٤٤٣

مادة «ظ ل م»:

الظالم: الذي يجري على خلاف الحق بدون شبهة. ١٣٣

حرف (ع)

مادة «ع ج ب»:

العُجْب: الزُّهُو، ورجل معجب: مزهو بما يكون منه حسناً كان أو قبيحاً. ٤٨٠

اللفظ والمعنى

الصفحة

مادة «ع ض ي»:

عَضِين: جمع عضو، وهو مشتق من قولك: عَضَيْت الشيء تعضيةً إذا فَرَقْتَه. ٦٥
وعَضِين: السحر، مفردُها: عَضَةٌ، وهي السحر بلسان قريش، ويقال للساحرة: العاضهة. ٦٦

مادة «ع ق ل»:

العقال: جَبِيل صغير يُشَدُّ به ساعد البعير إلى فخذِه. ٤٨٨

مادة «ع ه د»:

التَّعَهُد: المراجعة والمعاودة. ٤٨٨

حرف (ع)

مادة «غ ش ي»:

غشي: غَشِيَتْهم الرحمة، أي: غَطَتْهم الرحمة، وغشاه تغشيةً: إذا غطاه، وغشي الشيء: إذا لابسَه. ٤٣٩
تَغَشَّتْه: علته وقربت منه. ٤٤٠

مادة «غ ل و»:

الغَلُو: التَّشَدُّدُ ومجاوزة الحد. ٥٠٤

مادة «غ م ن»:

الغَمْرُ: الإشارة بالجفون والحواجِب. ١٧٤

مادة «غ م م»:

الغمامة: كل شيء أظل الإنسان فوق رأسه من سحابة وغبرة وغيرهما، والغياية نفسها. ٥٨٧

حرف (ف)

مادة «ف ر ق»:

فرقان: قطيعان وجماعتان، وكذلك حزقان، يقال في الواحد: فِرْقٌ، وحِرْقٌ، وحزيقة. ٥٨٧

مادة «ف ر ض»:

فَرَضَ: ألَزَمَ وأَوْجَبَ وحَتَمَ. ١١٤

اللفظ والمعنى	الصفحة
مادة «ف ر ي»:	
افتراء: اختلقه من عند نفسه.	١٢٠
الافتراء: اختلاق الأخبار، أي: ابتكارها، وهو الكذب عن عمد.	١٢٨
مادة «ف ص ص»:	
التَّفْصِي: الانفصال.	٤٨٩
مادة «ف و ق»:	
الْفُوق: موضع الوتر من السهم.	٧٥
حرف (ق)	
مادة «ق د ح»:	
الْقِدْحُ: خشب السَّهْم.	٧٥
مادة «ق ر أ»:	
القرآن: مصدر قرأ بمعنى تلا.	١٩٤
وهو: كلام الله المنزل على نبيه محمد ﷺ المعجز بلفظه، المتعبد بتلاوته، المكتوب في المصاحف، المنقول بالتواتر.	١٩٥
مادة «ق س س»:	
الْقَسِيسُونَ: هم خطباء النصارى وعلمائهم، واحدهم: قسيس، وقس، وقد يجمع على قسوس.	٢٧٧
مادة «ق ط ط»:	
قَطَّ الشيء: قطعه عَرَضاً.	١٧٩
مادة «ق ل د»:	
التَّقْلِيد: جعل الفلادة في العنق.	٦٢١
مادة «ق ل ص»:	
القلائص: جمع قلوص، وهي الناقة الشابة، وتُجمع على قِلاص وقُلُص.	٣٢٦
مادة «ق ن ت»:	
القائتين: جمع قانت، الطائعتين الخاشعتين.	٤٣٧

مادة «ق ي ن»:

القَيْنَات: الْمُعْنَيَات.

٢٦٩

حرف (ك)

مادة «ك ف ف»:

الكفاف: هو الذي لا يُفْضَل عن الشيء، ويكون بقدر الحاجة إليه.

٤٧٦

مادة «ك ن ن»:

الأكنة: جمع كنان، وهو الغطاء؛ لأنه يكن الشيء، أي: يحجبه.

٥٥

مادة «ك و م»:

كؤماوين: مثني كوما، فقلبت الهمزة في الثانية واواً، وناقة كوما: عظمة السنام طويلته.

٣٢٣

حرف (ل)

مادة «ل ب س»:

اللُبْسُ: هو الخَلَط، يقال: لَبَسَ الثوبَ يَلْبَسُ لُبْساً، وَلَبَسَ عليه الأمرَ يَلْبَسُ لُبْساً، أي: خَلَطَ.

١٥١

مادة «ل ح ن»:

اللَّحْن: اللَّحْنُ واللَّحَن واللَّحَانَة واللَّحَانِيَة: ترك الصواب في القراءة.

٣٦٦

مادة «ل غ و»:

اللغو: القول الذي لا فائدة منه.

٦١

مادة «ل ق ن»:

يَلْقَن: يفهم ويحفظ.

٣٥١

مادة «ل م ن»:

يلمزون: يعيرون.

١٧٦

اللمز: الاغتياب وتتبع المعاب.

١٧٦

حرف (م)

مادة «م ح ل»:

مَاحِلٌ: مجادل ومدافع، وقيل: ساع مصدق، من قولهم: محل بفلان: إذا سعى به إلى السلطان.

٥٩٠

الصفحة

اللفظ والمعنى

- مادة «م ر ق»: المروق: الخروج، وقيل: هو الخروج السريع. ٧٥
- مادة «م ر ط»: المروط: جمع مِرْط، وهو الإزار، وقيل: هو كل ثوب غير مخيط. ٥٩٧
- مادة «م ر ي»: المراء: الجدل. ٧٩
- التماري والمُماراة: المجادلة على جهة الشك والريبة. ٧٩

حرف (ن)

- مادة «ن ب ذ»: النَّبْذُ: الطرح والإلقاء، ومنه سُمِّي اللقيط منبذاً، ومنه سمي النبيذ، وهو التمر والزبيب إذا طرحا في الماء. ٥٧٩
- مادة «ن ش ج»: النشيج: أشد البكاء، ونشج الباكي: غصَّ بالبكاء في حلقة من غير انتحاب، وقيل: النشيج: صوت معه ترجيع كما يردد الصبي بكاءه في صدره. ٤٠٨
- مادة «ن ع م»: النَّعَم: الإبل والبقر والغنم. ٤٨٩
- مادة «ن ف ث»: النَّفَث: الشعر، وسمي النفث شعراً؛ لأنه كالشيء ينفته الإنسان من فيه مثل الرقية. ٣٩٥
- مادة «ن ف خ»: النَّفْخُ: الكبر؛ لأن المتكبر يتعاطم ويجمع نفسه، فيحتاج أن ينفخ. ٣٩٥
- مادة «ن ف ر»: يَنْفَرُ: يشب ويعجول. ٤٤٠
- مادة «ن ك ب»: نكبته الحجارة: لثمت الحجارة رجله وظفّره، أي: آذنه وأصابته. ١٧٤

اللفظ والمعنى

الصفحة

مادة «ن ك د»:

التَّكْدُ: الشيء القليل الذي لا ينفع. ٩٨

حرف (هـ)

مادة «هـ ج ر»:

الهجر: الهاء والجيم والراء أصلان، يدلُّ أحدهما: على قطعة وقطع، والآخر: على شدَّ شيء وربطه. ١٨

والهَجْرُ: ضدُّ الوَضَل، والتَّهَجُّرُ: التَّقَاطُع. ١٨

وَهَجَرَهُ يَهْجُرُهُ هَجْراً وَهَجْرَاناً بالكسر: صَرَّمَهُ وَقَطَعَهُ. ١٨

وَهَجَرَ الشَّيْءَ يَهْجُرُهُ هَجْراً: تَرَكَه وَأَغْفَلَهُ وَأَعْرَضَ عَنْهُ. ١٨

أَهْجَرَ فِي مَنْطِقِهِ، إِذَا أَفْحَشَ. وكذلك إِذَا أَكْثَرَ الْكَلَامَ فِيمَا لَا يَنْبَغِي، وَالْإِسْمُ: الْهَجْرُ، بِالضَّم. ١٩

وَهَجَرَ يَهْجُرُ هَجْراً، بِالْفَتْح، إِذَا خَلَطَ فِي كَلَامِهِ، وَإِذَا هَدَى. ١٩

أَهْجَرَتِ بِالرَّجُلِ: اسْتَهْزَأَتْ بِهِ، وَقُلْتَ فِيهِ قَوْلاً قَبِيحاً. ١٩

الْهَجِيرُ وَالْهَاجِرَةُ: نِصْفُ النَّهَارِ فِي الْقَيْظِ خَاصَّةً، وَهَجَرَ تَهْجِيراً: سَارَ فِي الْهَاجِرَةِ. ٢٠

الْهَجِيرُ: الْمَتْرُوك. ٢٠

وَالْهَجِيرُ: يَبْسُ الثَّبَتِ الَّذِي كَسَرَتْهُ الْمَاشِيَّةُ، وَسُمِّيَ بِذَلِكَ: لِأَنَّ الرَّاعِيَ يَهْجُرُهُ. ٢٠

الْهَجَارُ: حَبْلٌ يُشَدُّ بِهِ الْفَحْلُ فَيَصِيرُ سَبَباً لِهَجْرَانِهِ الْإِبِلَ. ٢٠

هَجَارُ الْقَوْسِ: وَتَرُّهَا. ٢٠

مادة «هـ ذ ز»:

هَذَا: الِهْدُ وَالِهْدُ بفتح الهاء هو: سرعة القراءة وسرعة القطع، يقال: هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدُهُ هَذَا: إِذَا أَسْرَعَ فِي قِرَاءَتِهِ وَسَرَدَهُ. ٣٣١

مادة «هـ ز أ»:

استهزأ: سَخِرَ، وَالْهُزْءُ وَالْهُزْؤُ: السَّخِرِيَّة. ١٧٠

الهزء: مزح في خُفِيَّة. ١٧٠

الهزء: القتل السريع، وهزأ يهزأ: مات على المكان. ١٧٠

ناقته تهزأ به: تسرع وتخفُّ. ١٧٠

الصفحة

اللفظ والمعنى

مادة «ه م ن»:

هَمَزَ الشَّيْطَانُ هَمْزاً: همس في قلبه وسواساً، وهَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ: خطراته التي يخطر بها بقلب الإنسان.

٣٩٥

مادة «ه و ن»:

الهَوْنُ: الهَوَانُ والذُّلُّ.

١٢٩

حرف (و)

مادة «و ج د»:

الْوَجْدُ: المحبة والهوى.

٢٣٠

مادة «و ز ر»:

الْوَزْرُ: العقوبة الثَّقیلة.

١٣٩

مادة «و س د»:

الْوَسَادُ والْوَسَادَةُ: المِخْدَةُ، والجمع: وسائد، وقد وَسَدَتْهُ الشَّيْءُ فتوسَّده: إذا جعلته تحت رأسه.

٢٠٢

مادة «و ق ر»:

الْوَقْرُ: ثَقُلُ السَّمْعِ المانع من وصول الصوت إلى الصماخ.
الْوَقْرُ: الحِمْلُ، يقال: جاء يحمل وقْرَه، وقد أوقر بغيره، وأكثر ما يستعمل الوقْرُ في حِمْلِ البغل والحمارة.

٥٥

٥٦

حرف (ي)

مادة «ي ر ع»:

الْيَرَاعُ: القَصْبَةُ التي يُصَفِّرُ بها الراعي.

٢٢٩



سادساً: فهرس الفروق اللغوية

الفرق اللغوي

الصفحة

٨٣

الفرق بين المحكم والمتشابه:

المحكم: هو ما وضع معناه، وقيل: ما عرف المراد منه، إما بالظهور، وإما بالتأويل. وقيل: هو المكشوف المعنى الذي لا يتطرق إليه إشكال واحتمال. المتشابه: ما يتعارض فيه الاحتمال، فالأسماء المشتركة؛ كالقراء، وكالذي بيده عقدة النكاح، وكاللمس. فالأول: متردد بين الحيض والطمهر، والثاني: متردد بين الولي والزوج، والثالث: بين الوطء والمس باليد، وقيل: ما خفي معناه. وقيل: ما استأثر الله بعلمه؛ كقيام الساعة، وخروج الدجال، والحروف المقطعة في أوائل السور.

١٣٣

الفرق بين التكذيب والجحود:

التكذيب: يصدر عن اشتباه وشك في الأمر. الجحود: الجحود، والجحد، هو نفي ما في القلب ثباته وإثبات ما في القلب نفيه، وأن يجري على خلاف الحق بغير شبهة.

١٧١

الفرق بين الاستهزاء والمزاح:

الاستهزاء: السخرية والاستخفاف، والمزاح في خفية لا يدري سامعه هل هو ملاطفة أم أذية؟ فالاستهزاء يكون بأذية. المزاح: فهو بغير أذية.

١٧٣

الفرق بين الغمز واللمز:

الغَمْز: هو الإشارة بالجعفون والخواجب على سبيل السخرية والاستهزاء. اللَّمَز: هو تعيب الناس باللسان، وهو الاغتياب وتتبع المعاب.

٢١٢

الفرق بين السماع والاستماع والإنصات:

السماع: هو مجرد استقبال الأذن لذبذبات صوتية من مصدر معين، دون إعارتها انتباهاً مقصوداً فقد يكون بقصد أو بدون قصد.

الصفحة

اللفظ والمعنى

الاستماع: هو مهارة يعطي فيها المستمع اهتماماً خاصاً، واهتماماً مقصوداً لما تتلقاه أذنه من أصوات؛ ليتمكن من استيعاب ما يقال، فنلاحظ هنا أن مرتبة الاستماع أعلى من السماع؛ لأن الاستماع لا بد فيه من القصد، ولذلك أمرنا الله تعالى عند تلاوة القرآن علينا بقوله: ﴿فَاسْتَمِعُوا﴾ ولم يقل: «فاسمعوا».

الإنصات: هو المرتبة الأعلى؛ لأن فيه تركيزاً أعلى من الانتباه والإصغاء والسكون من أجل هدف محدد.

الفرق بين الحسد والغبط:

الحسد: أن يرى الرجل لأخيه نعمة، فيتمنى أن تزول عنه، وتكون له دونه.
الغبط: أن يتمنى أن يكون له مثلها، ولا يتمنى زوالها.

الفرق بين الرياء والعُجب:

الرياء: من باب الإِشْرَاك بِالْحَقِّ، فالمرائي لا يحقق قوله: ﴿إِنَّا نَعْبُدُكَ﴾.
العجب: من باب الإِشْرَاك بالنفس، وهذا حال المستكبر، فالمعجب لا يحقق قوله: ﴿وَإِنَّا نَسْتَعِينُكَ﴾.

الفرق بين كيت وكيت، وذيت وذيت:

كيت وكيت: يعبر بهما عن الجُمْل الكثرة، والحديث الطويل، وتكون للأفعال.
ذيت وذيت: فهي مثلهما، إلا أنهما يعبر بهما عن الأسماء.

الفرق بين الحَكَم، والحاكَم:

الحَكَم: هو الذي يفصل في القضايا والخصومات، ولا تطلق إلا على من يحكم بالحق.
الحاكَم: لا يشترط لإطلاقها أن يكون حاكماً بالحق.

الفرق بين الإصماء والإِنماء:

الإصماء: أن تقتل الصيد مكانه، يقال: رمى فأصمى، أي: أصاب مقتلاً.
الإِنماء: أن ترمي الصيد، فيغيب عنك، فيموت. ولا تراه وتجده ميتاً، وإنما نهى عنه - في الحديث - لأنك لا تدري هل مات برميك أو شيء غيره.

الفرق بين الإصماء والإِنماء:

سابعاً: فهرس الأشعار

الصفحة

الشعر

(أ) قافية

دَايَنْتُ أَرَوِي وَالِدِيُونَ تُفْضَى وليس دينُ الله بالمُعْضَى ٢٦

(ب) قافية

وَمَا نَبِلُ الْمَطَالِبِ بِالتَّمْنَى وَلَكِنْ تُؤْخَذُ الدُّنْيَا غِلَابَا ٣٥٦
وَمَا اسْتَعْصَى عَلَى قَوْمٍ مَنَا إِذَا الْإِقْدَامُ كَانَ لَهُمْ رَكَابَا

إِنَّ الْعُلُومَ وَإِنْ جَلَّتْ مَحَاسِنُهَا فَتَاجُهَا مَا بِهِ الْإِيمَانُ قَدْ وَجَبَا ٥٥٤
هُوَ الْكِتَابُ الْعَزِيزُ، اللَّهُ يَحْفَظُهُ وَبَعْدَ ذَلِكَ عِلْمٌ فَرَجَ الْكُرْبَا
وَإِثْلُ بَفْهَمِ كِتَابِ اللَّهِ، فِيهِ أَتَتْ كُلُّ الْعُلُومِ، تَدْبِرُهُ تَرِ الْعَجَبَا

وَمَا سُمِّيَ الْإِنْسَانُ إِلَّا لِنَسِيهِ وَلَا الْقَلْبُ إِلَّا أَنَّهُ يَتَقَلَّبُ ٥١٦

(ظ) قافية

سَأَنْشُرُ إِنْ حَيَيْتُ لَكُمْ كَلَامَا يُنْشَرُ فِي الْمَجَامِعِ مِنْ عُكَاطِ ٢٨٢

(ل) قافية

لَوْلَا الْمَشَقَّةُ سَادَ النَّاسُ كُلَّهُمْ الْجُودُ يُفْقِرُ، وَالْإِقْدَامُ قَتَّالُ ٣٥٥

حُدُودُ حُرُوفِ الذِّكْرِ فِي لَفْظِ قَارِي بِحَذَرٍ وَتَحْقِيقٍ وَدَوْرٍ مُرْتَلَا ٣٧٠
فَإِنِّي رَأَيْتُ الْبَعْضَ يَتْلُو الْقُرْآنَ لَا يُرَاعِي مُجْدُوَةَ الْحَرْفِ وَزْنَ وَمَنْزِلَا
فَمِنْهُمْ بِتَرْقِیصٍ وَلَحْنٍ وَضَجَّةٍ وَمِنْهُمْ بِتَرْعِيدٍ وَنُوحٍ تَبْدَلَا
فَمَا كُلُّ مَنْ يَتْلُو الْقُرْآنَ يُقِيمُهُ وَلَا كُلُّ مَنْ يَقْرَأُ مَجْمَعَلَا
فَدَزَّ نُطْقَ أَعْجَامٍ وَمَا اخْتَرَعُوا بِهِ وَخَذَ نُطْقَ عَرَبٍ بِالْفَصَاحَةِ سُؤْلَا
فِيَا قَارِي الْقُرْآنِ أَجْمَلْ أَدَاءَهُ يُضَاعَفُ لَكَ الرَّحْمَنُ أَجْرًا فَأَنْجَزَلَا

فَيَا أَيُّهَا الْقَارِي بِهِ مُتَمَسِّكاً
هَنِيئاً مَرِيئاً وَالذَّاكَ عَلَيْهِمَا
فَمَا ظَنُّكُمْ بِالنَّجْلِ عِنْدَ جَزَائِهِ
مُجَلّاً لَهُ فِي كُلِّ حَالٍ مُجَلّاً ٣٣٣
مَلَايِسُ أَنْوَارٍ مِنَ النَّجَاجِ وَالْحَلَا
أُولَئِكَ أَهْلُ اللَّهِ وَالصَّفْوَةِ الْمَلَا

سَهَرُ الْعُيُونِ لِعَبِيرِ وَجْهِكَ ضَائِعٌ
وَبُكَاءُهُنَّ لِعَبِيرِ فَقْدِكَ بَاطِلٌ ٤٧٠

إِذَا الْعِلْمُ لَمْ تَعْمَلْ بِهِ كَانَ حُجَّةً
فَإِنْ كُنْتَ قَدْ أَبْصَرْتَ هَذَا فَإِنَّمَا
عَلَيْكَ، وَلَمْ تُعَذِّرْ بِمَا أَنْتَ حَامِلٌ ٥٩٣
يُصَدِّقُ قَوْلَ الْمَرْءِ مَا هُوَ فَاعِلٌ

مَنْ لَمْ يَذُقْ طَعْمَ الْمَذَلَّةِ سَاعَةً
قَطَعَ الزَّمَانَ بِأَسْرِهِ مَذْلُولاً ٣١٥

قافية (ن)

ضَحُّوا بِأَشْمَطِ عُتُونِ الشُّجُودِ بِهِ
يُقَطِّعُ اللَّيْلَ تَسْبِيحاً وَقُرْآنًا ١٩٥

إِنَّ اللَّهَ عِبَاداً فُطِنَا
نَظَرُوا فِيهَا فَلَمَّا عَلِمُوا
جَعَلُوهَا لَجَّةً وَاتَّخَذُوا
طَلَّقُوا الدُّنْيَا وَخَافُوا الْفِتْنَا ٣٧٧
أَنَّهَا لَيْسَتْ لِحَيِّ وَطِنَا
صَالِحَ الْأَعْمَالِ فِيهَا سُفُنَا

قافية (ي)

أَلَا لَا أَرَى عَلَى الْحَوَادِثِ بَاقِيَا
وَلَا خَالِداً إِلَّا الْجِبَالَ الرُّوَاسِيَا ٦٦٤

بِقَدْرِ الْكَدِّ تُكْتَسَبُ الْمَعَالِي
كَالسَّيْلِ حَرْبٌ لِلْمَكَانِ الْعَالِي ٣٠٩

بِقَدْرِ الْكَدِّ تُكْتَسَبُ الْمَعَالِي
تَرْوُمُ الْعِلْمِ ثُمَّ تَنَامُ لَيْلًا
وَمَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ سَهَرَ اللَّيَالِي ٣٠٩
يَغُوصُ الْبَحْرَ مَنْ طَلَبَ اللَّيَالِي

من منظومة «الأرجوزة المنبهة»:

فَأَقْصِدْ شُيُوخَ الْعِلْمِ وَالرُّوَايَةِ
مِمَّنْ رَوَى وَقَيَّدَ الْأَخْبَارَا
وَفَهِّمِ اللَّغَاتِ وَالْإِعْرَابَا
وَحَفِظْ الْخِلَافَ وَالْحُرُوفَا
وَمَنْ سَمَا بِالْفَهْمِ وَالذَّرَايَةِ
وَانْتَقَدَ الْبُطْرُقَ وَالْآثَارَا
وَعَلِمَ الْخَطَا وَالصُّوَايَا
وَمَيَّزَ الْوَلَهِيَّ وَالْمَعْرُوفَا ٢٩١

الشعر

الصفحة

وَجَمَعَ التَّفْسِيرَ وَالْأَحْكَامَا
وَصَحَّبَ النَّسَاكَ وَالْأَخْيَارَا
وَاتَّبَعَ السُّنَّةَ وَالْجَمَاعَةَ
وَجَانِبَ الْأَرَاذِلِ الْمُتَبَدِّعَةَ
وَلَا زَمَ الْحُذَاقَ وَالْأَغْلَامَا
وَجَانِبَ الْأَرْدَالِ وَالْأَشْرَارَا
وَقَامَ لِلَّهِ بِحُسْنِ الطَّاعَةِ
وَاعْمَلَ بِقَوْلِ الْفِرْقَةِ الْمُتَّبِعَةِ ٢٩٢

وَمِنْ عُقُودِ السُّنَّةِ الْإِيمَانُ
وَبِالْحَدِيثِ الْعُسْتَدِ الْمَرْوِيُّ
فَمِنْ صَحِيحِ مَا أَتَى بِهِ الْأَكْثَرُ
نُزُولُ رَبَّنَا بِلَا امْتِرَاءٍ
مِنْ غَيْرِ مَا حَدَّ وَلَا تَكْثِيفِ
وَرُؤْيَا الْمُهَيَّمِنِ الْجَبَّارِ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلَا اِزْدِحَامِ

من منظومة «طَيِّبَةُ النُّشْرِ»:

وَبَعْدُ: فَالْإِنْسَانُ لَيْسَ يَشْرَفُ
لِذَاكَ كَانَ حَامِلُو الْقُرْآنِ
وَلِإِنَّهُمْ فِي النَّاسِ أَهْلُ اللَّهِ
وَقَالَ فِي الْقُرْآنِ عَنْهُمْ وَكَفَى
وَهُوَ فِي الْأُخْرَى شَافِعٌ مُشَفَّعٌ
يُعْطَى بِهِ الْمُلْكُ مَعَ الْخُلْدِ إِذَا
يَفَرَا وَيَرْقَى دَرَجَ الْجَنَانِ
فَلْيَخْرِصِ السَّعِيدُ فِي تَخْصِيلِهِ
إِلَّا بِمَا يَحْفَظُهُ وَيَعْرِفُ ٤٩٧
أَشْرَافَ الْأُمَّةِ أُولِي الْإِحْسَانِ
وَلِإِنَّ رَبَّنَا بِهِمْ يُبَاهِي
بِأَنَّهُ أَوْزَنُهُ مِنْ اضْطَقَى
فِيهِ وَقَوْلُهُ عَلَيْهِ يُسْمَعُ
تَوَجُّهُ تَاجِ الْكَرَامَةِ كَذَا
وَأَبَوَاهُ مِنْهُ يُكْسَيَانِ
وَلَا يَمَلُّ قَطُّ مِنْ تَرْتِيلِهِ



ثامناً: فهرس الأماكن

الصفحة	المكان
٣٩٠	بئر جمل
٣٥٢	البصرة
٣٥٧	برك الغماد
٣٢٣	بُطْحان
٢٨١	تِهامة
٣٨٥	الجزائر
٣٥٢، ٢٧٨	الحبشة
٣٥١	حمص
٣٥١	دمشق
١٨٧	الطائف
١٨٧	العَصْبَة
٣٢٣	العقيق
٢٨٢	عكاظ
٣٥١	عَمَواس
٣٥١	فلسطين
٣٥٢، ١٧٩	الكوفة
٥٤٤	مصر
٢٧٧	المدينة
٣٥٩	مرو
٣٥٩	مرو الزُّود
١٨٧	مكة
١٥٤	نجران
٢٨١	نَحْلَة
٣٣٦، ١٥٤	اليمن

تاسعاً: فهرس الأحكام الفقهية

الصفحة

الحكم

أولاً: أحكام تتعلق بالقرآن:

١ - أحكام تعظيم القرآن والإيمان به:

٣٥	حكم هجر القرآن
٣٦	حكم تعظيم القرآن
٣٦	حكم من جحد منه حرفاً مجمعاً عليه، أو زاد حرفاً
٣٦	حكم من استخف بالقرآن، أو بشيء منه، أو بالمصحف
٣٦	حكم من كذب بشيء مما جاء به من حكم أو خبر
٣٦	حكم من نفى ما أثبت، أو أثبت ما نفاه، أو شك في شيء من ذلك
٨٢، ٧٦	حكم الجدل في القرآن والمرء فيه
١٠٤	حكم الإيمان بالقرآن
١٤٤	حكم من أنكر القرآن، أو بعضه، ولو كانت آية واحدة، أو حرفاً واحداً
١٥٧	حكم من لم يؤمن بالقرآن من أهل الكتاب
١٩٨	حكم من استهزأ بكتاب الله، أو بسنة رسوله الثابتة عنه، أو سخر بذلك أو تنقصه
١٩٨	حكم الهزل بالكفر
١٩٧	حكم من استهزأ بالقرآن

٢ - أحكام التلاوة والاستماع:

٩٧	حكم قراءة القرآن في البيوت
١٧٨	حكم أكل الثوم والبصل قبل التلاوة
١٧٨	حكم استقبال القبلة عند القراءة
١٧٨	حكم الاستعاذة والبسملة عند الشروع في القراءة
٢٣٠	حكم رفع الصوت عند سماع القرآن
٢٥٤	حكم الاستماع للقرآن حين يقرأ
٢٥٨	حكم الإعراض عن استماع القرآن
٣٩٠	حكم تلاوة القرآن على طهارة

الحكم	الصفحة
حكم تلاوة المحدث	٣٩١
القراءة في الأماكن النظيفة	٣٩٢
حكم القراءة في الأماكن المستخبثة	٣٩٢
حكم التلاوة على الراحلة وفي الطريق	٣٩٢
حكم استقبال القبلة عند التلاوة	٣٩٣
حكم تنظيف الفم بالسواك وغيره	٣٩٤
حكم الاستعاذة عند افتتاح التلاوة	٣٩٥
حكم البسملة	٣٩٦
حكم تحسين الصوت بالقراءة	٤٠١
حكم القراءة بالألحان المطربة	٤٠٤
حكم البكاء أثناء التلاوة	٤٠٧
حكم الجهر بالقراءة	٤٠٩
حكم قطع القراءة	٤١٢
حكم سجود التلاوة	٤١٥
حكم سجود المستمع تبعاً لسجود القارئ	٤١٨
حكم السامع لقراءة فيها سجدة	٤١٩
حكم القدر المستحب في ختم القرآن	٤١٩
حكم تحزيب القرآن	٤٢٥
حكم دعاء ختم القرآن	٤٢٩
٣ - أحكام تعلم القرآن وتعليمه:	
حكم تعلم القرآن وتعليمه	٣٣٧
حكم تعليم القرآن لغير المسلم	٣٣٩
حكم أخذ الأجرة على تعليم القرآن	٣٤٠
حكم حفظ القرآن على الأمة	٥١٠
حكم حفظ القرآن على أفراد المسلمين	٥١٠
حكم تحفيظ القرآن للصبيان	٥١٢
حكم نسيان القرآن	٥١٣
٤ - أحكام تدبر القرآن والعمل به:	
حكم تدبر القرآن	٥٣١

الحكم	الصفحة
حكم تعلم وتعليم اللغة العربية	٥٣٩
حكم العمل بالقرآن	٥٧٢
حكم التحاكم إلى القرآن	٦٠٣
حكم إجابة القاضي المسلم	٦٠٧
ثانياً: أحكام تتعلق بالمصحف:	
حكم الطهارة عند ملاسة المصحف	١٧٨
حكم تصغير اسم المصحف، ورسمه وحجمه	١٧٩
حكم زخرفة المصحف وتزيينه، وكتابه بأحد النقدين، أو الأعجمية	١٨٠
حكم استدبار المصحف، أو توسده، أو رميه عند وضعه	١٨١
حكم تصغير كلمة (مصحف) إلى (مصحف)، وكلمة (مسجد) إلى (مسجد)، وقولهم: سورة صغيرة	١٨٢، ١٨١
حكم وضع شيء فوقه، أو بين أوراقه	١٨٢
حكم حمله إلى الأماكن الممتلئة، أو السفر به إلى أرض العدو، أو تعريضه لأي نوع من أنواع الأقدار	١٨٢
حكم كتابته على الأرض، أو حوائط المساجد وغيرها، أو الكتابة في حواشيه أو جلده	١٨٣
حكم الاتكاء على المصحف	٢٠١
حكم توسد المصحف	٢٠٢
حكم إتلاف المصحف وتمزيقه	٢٠٣
حكم إدخال المصحف القبر	٢٠٤
حكم بلع شيء من المصحف	٢٠٤
حكم التبرك بالمصحف	٢٠٥
حكم تلويث المصحف	٢٠٥
حكم وطء المصحف	٢٠٦
ثالثاً: أحكام متفرقة:	
حكم الهجر بين المسلمين	٢٧
حكم زيارة القبور	٢٩



عاشراً: فهرس الآداب

الموضوع

الصفحة

أولاً: آداب التعامل مع المصحف:

- ١ - تحاشي التصغير في اسمه ورسمه وحجمه ١٧٩
- ٢ - يُطالب من يكتبه بتحسين خطّه وتجميله، وأن يكتبه على ورق يليق بمقامه ١٧٩
- ٣ - عدم إضافة شيء إليه، أو زخرفته، أو تحليله، أو كتابته بأحد النقيدين، أو كتابته بالأعجمية، أو اتخاذه مُتَجَرّاً ١٨٠
- ٤ - عدم استدباره، أو توسده، أو رميه عند وضعه أو مناولته، أو مد الرجلين إليه، أو التروُّج به، أو استعمال الشمال في تناوله وأخذه ١٨١
- ٥ - عدم تصغير اسمه، وألاً يُقال: سورة صغيرة ١٨١، ١٨٢
- ٦ - الحذر من وضع شيء فوقه، أو بين أوراقه، أو حمله حال دخول الأماكن الممتهنة، أو السفر به إلى أرض العدو، أو تعريضه لأي نوع من أنواع الأقدار ١٨٢
- ٧ - الحذر من كتابته على الأرض أو الحوائط، أو الكتابة في حواشيه أو جلده ... ١٨٣
- ٨ - الحذر من استعماله في غير ما وضع له؛ كالتثقيب به، أو تعليقه كحِزْر، أو زينة، أو اقتنائه لمجرد التبرُّك به ١٨٣

ثانياً: آداب استماع القرآن:

- ١ - تعظيم المتكلم ٢٣٦
- ٢ - استشعار عظمة الكلام وعلوّه ٢٣٦
- ٣ - حضور القلب عند السماع ٢٣٦
- ٤ - تدبر المسموع ٢٣٧
- ٥ - تفهم الآيات المسموعة ٢٣٨
- ٦ - التخلي عن موانع الفهم ٢٣٨
- ٧ - أن يقدر - في نفسه - أنه المقصود بكل آية سمعها ٢٣٩
- ٨ - التأثر بالآيات المسموعة ٢٣٩
- ٩ - الترقّي في استماع القرآن ٢٤٠
- ١٠ - التبرُّ من الحول والقوة حال السماع ٢٤١

ثالثاً: آداب معلم القرآن ومتعلمه:

أ - آداب مشتركة بين معلّم القرآن ومتعلّمه:

- ١ - التمسك بمنهج السلف في الاعتقاد ٢٩٠
- ٢ - الإخلاص لله تعالى ٢٩٢

ب - آداب معلّم القرآن:

- ١ - الاستقامة على دين الله تعالى ٢٩٦
- ٢ - حسن الخلق مع المتعلّمين ٢٩٨
- ٣ - بذل النصيحة للمتعلّمين ٣٠٠
- ٤ - التدرج في التعليم والتربية ٣٠١
- ٥ - الرفق بالمتعلّمين ٣٠٣
- ٦ - الصبر على المتعلّم ٣٠٥

ج - آداب متعلّم القرآن:

- ١ - تطهير القلب ٣٠٨
- ٢ - الزهد في الدنيا ٣٠٨
- ٣ - التواضع للمعلّم ٣٠٩
- ٤ - الدعاء للمعلّم والاعتراف بفضله ٣١٠
- ٥ - اختيار المعلم الأصلح والأعلم ٣١٢
- ٦ - التبكير إلى مجلس الدرس ٣١٣
- ٧ - التحلي بالأدب في مجلس التعليم ٣١٣

رابعاً: آداب التلاوة:

- ١ - إخلاص النية لله تعالى ٣٨٩
- ٢ - العمل بالقرآن ٣٩٠
- ٣ - إجلال القرآن وتعظيمه ٣٩٠
- ٤ - تلاوة القرآن على طهارة ٣٩٠
- ٥ - اختيار الوقت المناسب ٣٩١
- ٦ - اختيار المكان المناسب ٣٩٢
- ٧ - حسن الجلسة واستقبال القبلة ٣٩٣
- ٨ - استحباب تنظيف الفم بالسواك ٣٩٤
- ٩ - اجتناب أكل الثوم والبصل قبل التلاوة ١٧٨

الصفحة

الموضوع

- ١٠ - الاستعاذة عند افتتاح التلاوة ٣٩٥
- ١١ - البسملة ٣٩٦
- ١٢ - حصر الفكر أثناء التلاوة ٣٩٧
- ١٣ - استحباب الترتيل وكراهية السرعة المفرطة ٣٩٨
- ١٤ - استحباب تحسين الصوت بالقرآن ٤٠١
- ١٥ - عدم القراءة بالألحان المطربة ٤٠٤
- ١٦ - وجوب تدبر القرآن ٤٠٦
- ١٧ - البكاء أو التباكي أثناء التلاوة ٤٠٧
- ١٨ - الجهر بالقرآن إذا لم يترتب عليه مفسدة ٤٠٩
- ١٩ - اتصال القراءة وعدم قطعها ٤١٢
- ٢٠ - أن يحسن الوقف والابتداء أثناء التلاوة ٤١٣
- ٢١ - الوقوف عند رؤوس الآيات ٤١٣
- ٢٢ - أن يُسَبِّح عند آية التسبيح، وأن يتعوذ عند آية التعوذ، وأن يسأل عند آية الرحمة ٤١٤
- ٢٣ - الإمساك عن القراءة عند غلبة النعاس ٤١٥
- ٢٤ - السجود عند المرور بآية سجدة ٤١٥
- ٢٥ - مراعاة القدر المستحب في ختم القرآن ٤١٩
- ٢٦ - تحزيب القرآن ٤٢٥
- ٢٧ - دعاء ختم القرآن ٤٢٩
- خامساً: آداب حفظ القرآن:

أ - آداب أثناء الحفظ:

- ١ - الإخلاص لله تعالى ٤٦٩
- ٢ - استشعار عظمة القرآن ومعرفة منزلته ٤٧٢
- ٣ - معرفة أن الأصل في تلقي القرآن حفظه ٤٧٣
- ٤ - الرغبة القوية الصادقة ٤٧٤
- ٥ - التقليل من الدنيا ٤٧٥
- ٦ - الدعاء والالتجاء إلى الله ٤٧٧

ب - آداب بعد الحفظ:

- ١ - الخوف من الوقوع في الرياء ٤٧٨

الموضوع	الصفحة
٢ - الخشية من العُجب بالنفس، والتعالي على الخلق	٤٨٠
٣ - الحذر من الذنوب والمعاصي	٤٨٢
٤ - تعاهد القرآن والحذر من نسيانه	٤٨٨



حادي عشر: فهرس الفضائل

الصفحة

الموضوع

أولاً: فضائل استماع القرآن:

- ١ - القرآن الكريم متعبد بسماعه ٢٤٤
- ٢ - استماع القرآن سبب لرحمة الله ٢٤٥
- ٣ - استماع القرآن سبب لهداية الثقلين ٢٤٦
- ٤ - استماع القرآن سبب لخشوع القلب وبكاء العين ٢٤٩

ثانياً: فضائل تعلّم القرآن وتعليمه:

- ١ - معلّم القرآن ومتعلّمه متشبه بالملائكة والرسل ٣١٩
- ٢ - خير الناس مَنْ تعلّم القرآن وعلمه ٣٢٠
- ٣ - تعلّم القرآن وتعليمه خير من كنوز الدنيا ٣٢٣
- ٤ - من علّم آية كان له ثوابها ما تليت ٣٢٧
- ٥ - عِظْمُ ثواب مَنْ يعلم الصغار القرآن ٣٣٠

ثالثاً: فضائل تلاوة القرآن:

- ١ - التلاوة تجارة رابحة ٤٣٣
- ٢ - تنزّل السكينة والرحمة والملائكة للتلاوة ٤٣٩
- ٣ - ذكر الله لهم فيمن عنده ٤٤٤
- ٤ - اغتباط التالي للقرآن ٤٤٥
- ٥ - اغتباط القائم بالقرآن ٤٤٧
- ٦ - التلاوة حلية لأهل الإيمان ٤٤٩
- ٧ - التلاوة كلها خير ٤٥٢

رابعاً: فضائل حفظ القرآن:

- ١ - ارتفاع منزلة الحافظ ٤٩٤
- ٢ - منح الحافظ كرامات متعددة ٤٩٦
- ٣ - الحافظ مع السفرة الكرام البررة ٤٩٨

الصفحة

الموضوع

- ٤ - الحافظ مقدم في الدنيا والآخرة: ٤٩٩
- أ - الحفاظ هم الأولى بالإمارة ٤٩٩
- ب - الحفاظ هم الأولى بالإمامة ٥٠٠
- ج - الحفاظ هم أصحاب الشورى ٥٠٢
- د - الحفاظ هم المقدمون في البرزخ ٥٠٢
- ٥ - الحفاظ هم أهل الله وخاصته ٥٠٣
- ٦ - إكرام الحافظ في الدنيا من إجلال الله تعالى ٥٠٤
- ٧ - ثناء الله على الحافظ ٥٠٥
- ٨ - الحفاظ لا تحرقهم النار ٥٠٦

خامساً: فضائل تدبر القرآن:

- ١ - تعميق جذور الإيمان ٥٦٤
- ٢ - معرفة الرب ﷻ ٥٦٥
- ٣ - تحقيق العبودية لله تعالى ٥٦٦
- ٤ - التدبر غذاء للروح ٥٦٧
- ٥ - التدبر علاج يشفي النفوس ٥٦٧
- ٦ - التدبر سلاح يدفع الأخطار المحدقة بالفرد والمجتمع من الداخل والخارج ... ٥٦٧
- ٧ - التدبر فيه تربية للعقول ٥٦٨
- ٨ - التدبر مفتاح كل خير ٥٦٨
- ٩ - التدبر صقل للمواهب وتنمية للقدرات العقلية ٥٦٩

سادساً: فضائل العمل بالقرآن:

- ١ - الهداية في الدنيا والآخرة ٥٨١
- ٢ - الرحمة في الدنيا والآخرة ٥٨٣
- ٣ - الفلاح في الدنيا والآخرة ٥٨٣
- ٤ - تكفير السيئات وإصلاح البال ٥٨٤

سابعاً: فضائل الحكم بما أنزل الله:

أولاً: في الدنيا:

- ١ - الاستخلاف والتمكين ٦٢٦
- ٢ - الأمن والاستقرار ٦٢٧
- ٣ - النصر والفتح ٦٢٩

الموضوع	الصفحة
٤ - العز والشرف	٦٣٠
٥ - بركة العيش ورغده	٦٣٢
٦ - الهداية والتثيت	٦٣٣
ثانياً: في الآخرة:	
١ - الفلاح والفوز	٦٣٥
٢ - المغفرة وتكفير السيئات	٦٣٦
٣ - الأجر العظيم	٦٣٧
٤ - مرافقة الأنبياء والصديقين	٦٣٨



ثاني عشر: فهرس البدع

الموضوع	الصفحة
١ - التنطع في القراءة والوسوسة في مخارج الحروف	٣٦٥
٢ - الخروج بالقراءة عن لحن العرب إلى لحن العجم	٣٦٦
٣ - القراءة بالحن أهل الفسق والفجور	٣٦٧
٤ - قراءة الأنغام والتمطيط	٣٦٨
٥ - قراءة التحزين والتطريب	٣٦٨
٦ - قراءة التحريف	٣٦٨
٧ - قراءة الترعيد	٣٦٩
٨ - هَذِهِ كَهَذَا الشعر	٣٧٠
٩ - القراءة بالإدارة	٣٧٠
١٠ - قراءة القرآن في مجلس شرب الدخان	٣٧١
١١ - القراءة والإقراء بشواذ القراءات	٣٧١
١٢ - جمع القراءات في مجلس واحد	٣٧١
١٣ - قول السامع للقارئ: «الله - الله»	٣٧٢
١٤ - التزام قول «صدق الله العظيم» بعد التلاوة	٣٧٢
١٥ - قراءة الفاتحة بنية قضاء الحاجات، وتفريج الكربات، وهلاك الأعداء	٣٧٣
١٦ - قراءة الفاتحة عند شرط خطبة الزواج، واعتقادهم أن قراءتها عهد لا ينقض، أو أنها تعدل أربعة وأربعين يمينا	٣٧٣
١٧ - قول بعضهم بعد قراءة القرآن: الفاتحة	٣٧٣
١٨ - قول بعضهم: الفاتحة على روح فلان	٣٧٣
١٩ - قراءة الفاتحة بعد الدعاء	٣٧٣
٢٠ - قراءة الفاتحة بعد صلاة الفريضة	٣٧٣
٢١ - قراءة الفاتحة جهراً بعد التسليم من صلاة الجنازة	٣٧٣
٢٢ - قراءة الفاتحة عند رأس الميت	٣٧٣
٢٣ - قراءة الفاتحة عند المرور بالمقابر	٣٧٣
٢٤ - قراءة القرآن عند القبر	٣٧٣

ثالث عشر: ثبت المصادر والمراجع

أولاً: كتب التفسير وعلوم القرآن وما يتبعه:

- ١ - الآيات القرآنية الواردة في المستهزئين بالإسلام ودعائه: سامي بن وديع عبد الفتاح. (رسالة ماجستير في التفسير) - جامعة آل البيت، الأردن.
- ٢ - الإتيان في علوم القرآن: عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي. تحقيق وتخريج: فواز أحمد زمرلي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.
- ٣ - الأحاديث والآثار الواردة في فضائل سور القرآن الكريم: دراسة ونقد د. إبراهيم على السيد علي عيسى. دار السلام، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.
- ٤ - الأحكام الشرعية لقراءة القرآن الكريم: د. محمود أحمد الأطرش. دار الإيمان، الإسكندرية.
- ٥ - الأحكام الفقهية الخاصة بالقرآن الكريم: أ.د. عبد العزيز بن محمد الحجيلان. دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الثانية، ١٤٢٥هـ.
- ٦ - أحكام القرآن: محمد بن عبد الله بن العربي. تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الفكر، لبنان.
- ٧ - أخلاق حملة القرآن: محمد بن الحسين الأجرى. تحقيق: فواز أحمد زمرلي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.
- ٨ - الأرجوزة المنبهة على أسماء القراء والرؤاة وأصول القراءات وعقد الديانات بالتجويد والدلالات: أبو عمرو الداني. تحقيق: محمد بن مجقان الجزائري، دار المغني، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.
- ٩ - أسباب النزول: علي بن أحمد الواحدي النيسابوري. تحقيق: د. عصام بن عبد المحسن الحميدان، دار الإصلاح، الدمام، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ.
- ١٠ - أسلوب السخرية في القرآن الكريم: د. عبد الحليم حنفي. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧م.
- ١١ - الأمثال في القرآن الكريم: ابن قيم الجوزية. (منتخب من أعلام الموقعين). تحقيق: إبراهيم محمد، مكتبة الصحابة، طنطا، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.

- ١٢ - أنوار القرآن: مصطفى الحمصي. مكتبة الغزالي، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.
- ١٣ - بدائع التفسير الجامع لتفسير ابن القيم: جمع وتخريج: يسري السيد محمد. دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.
- ١٤ - بدع القراء القديمة والمعاصرة: د. بكر بن عبد الله أبو زيد. دار الفارق، الطائف، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.
- ١٥ - البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة: عبد الفتاح القاضي. دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ.
- ١٦ - البرهان في علوم القرآن: محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩١هـ.
- ١٧ - بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: محمد بن يعقوب الفيروزآبادي. تحقيق: محمد علي النجار، المكتبة العلمية، بيروت، الطبعة بدون.
- ١٨ - بيان إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، للخطابي، والرماني، والجرجاني: حمد بن محمد الخطابي. تحقيق: د. محمد زغلول سلام وآخرين، دار المعارف، مصر، ١٣٧٦هـ.
- ١٩ - التبيان في آداب حملة القرآن: يحيى بن شرف النووي. تحقيق: نبيل بن منصور البصارة، دار الدعوة، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.
- ٢٠ - التبيان في أقسام القرآن: ابن قيم الجوزية. تحقيق: طه شاهين، دار الكتاب العربي.
- ٢١ - تدبر القرآن: سليمان بن عمر السندي. المنتدى الإسلامي، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٢٣هـ.
- ٢٢ - التذكار في أفضل الأذكار: محمد بن أبي بكر القرطبي. دراسة وتحقيق: فواز أحمد زمرلي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ.
- ٢٣ - التسهيل لتأويل التنزيل (سورة البقرة): مصطفى بن العدوي. دار القاسم، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.
- ٢٤ - تفسير الآلوسي (روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني): محمود الآلوسي. دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٥هـ.
- ٢٥ - تفسير البغوي (معالم التنزيل): الحسين بن مسعود البغوي. تحقيق: خالد بن عبد الرحمن العك ومروان سوار، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.
- ٢٦ - تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل وأسرار التأويل): عبد الله بن عمر الشيرازي البيضاوي. دار الفكر، بيروت.

- ٢٧ - تفسير الثعالبي (الجواهر الحسان في تفسير القرآن): عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي. مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.
- ٢٨ - تفسير ابن جُزي (التسهيل لعلوم التنزيل): محمد بن أحمد بن جُزي الكلبي. تحقيق: محمد عبد المنعم وإبراهيم عطوه، أم القرى للطباعة، القاهرة.
- ٢٩ - تفسير الجلالين: جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي. دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.
- ٣٠ - تفسير ابن الجوزي (زاد المسير في علم التفسير): عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي. المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤هـ.
- ٣١ - تفسير ابن أبي حاتم: عبد الرحمن بن محمد الرازي. تحقيق: أسعد محمد الطيب، المكتبة العصرية، صيدا.
- ٣٢ - تفسير أبي حيان (البحر المحيط): محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي. دار الفكر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٣هـ.
- ٣٣ - تفسير الرازي (التفسير الكبير): محمد بن عمر بن الحسين الرازي. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.
- ٣٤ - تفسير الزمخشري (الكشاف عن حقائق التنزيل وعبون الأناويل في وجوه التأويل): محمود بن عمر الزمخشري. تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة بدون.
- ٣٥ - تفسير السعدي (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان): عبد الرحمن بن ناصر السعدي. تقديم: ابن عثيمين، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ. (عدد الأجزاء ١).
- ٣٦ - تفسير السعدي (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان): عبد الرحمن بن ناصر السعدي. دار المدني، جدة، الطبعة بدون، ١٤٠٨هـ. (عدد الأجزاء: ٥).
- ٣٧ - تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم): محمد بن محمد العمادي. دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ٣٨ - تفسير السمرقندي (بحر العلوم): نصر بن محمد بن أحمد السمرقندي. تحقيق: د. محمود مطرجي، دار الفكر، بيروت.
- ٣٩ - تفسير السمعاني: منصور بن محمد بن عبد الجبار السمعاني. تحقيق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
- ٤٠ - تفسير السيوطي (الدر المنثور في التفسير بالمأثور): عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي. دار الفكر، بيروت، ١٩٩٣م.

- ٤١ - تفسير الشعراوي: محمد متولي الشعراوي. أخبار اليوم، القاهرة.
- ٤٢ - تفسير الشنقيطي (أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن): محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي. مكتبة ابن تيمية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.
- ٤٣ - تفسير الشوكاني (فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير): محمد بن علي بن محمد الشوكاني. اعتنى به: سعيد محمد اللحام، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.
- ٤٤ - تفسير الصنعاني: عبد الرزاق بن همام الصنعاني. تحقيق: د. مصطفى مسلم محمد، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.
- ٤٥ - تفسير الطبري (جامع البيان عن وجوه تأويل آي القرآن): محمد بن جرير الطبري. دار الفكر، بيروت، ١٤٠٥هـ.
- ٤٦ - تفسير ابن عاشور (التحرير والتنوير): محمد الطاهر ابن عاشور. مؤسسة التاريخ، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.
- ٤٧ - تفسير ابن عطية (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز): عبد الحق بن غالب ابن عطية الأندلسي. تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.
- ٤٨ - تفسير القاسمي (محاسن التأويل): محمد جمال الدين القاسمي. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.
- ٤٩ - تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن): محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي. تحقيق وتخریج: د. محمد إبراهيم الحفناوي ود. محمود حامد عثمان، دار الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.
- ٥٠ - تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم): إسماعيل بن عمر بن كثير. دار الفكر، بيروت، ١٤٠١هـ. (عدد الأجزاء: ٤).
- ٥١ - تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم): إسماعيل بن عمر بن كثير. تحقيق: جماعة من الباحثين، دار الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ. (عدد الأجزاء: ٨).
- ٥٢ - تفسير المنار (تفسير القرآن الحكيم): محمد رشيد رضا. دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية.
- ٥٣ - التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج: أ. د. وهبة الزحيلي. دار الفكر، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٢٤هـ.
- ٥٤ - التفسير الموضوعي للآيات القرآنية المتعلقة بالكتب السماوية: د. عبد العزيز الدردير موسى. دار الطباعة المحمدية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.

- ٥٥ - تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل): عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي. دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ٥٦ - تفسير الواحدي (الوجيز في تفسير الكتاب العزيز): علي بن أحمد الواحدي. تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.
- ٥٧ - التفسير والمفسرون: د. محمد حسين الذهبي. مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة السادسة، ١٤١٦هـ.
- ٥٨ - التصوير الفني في القرآن: سيد قطب. دار الشروق، القاهرة، الطبعة الثالثة عشرة، ١٤١٣هـ.
- ٥٩ - تقريب وتهذيب تفسير الطبري: د. صلاح عبد الفتاح الخالدي. دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
- ٦٠ - الثمر الداني من صحيحة الألباني في فضائل القرآن وأحكامه: إبراهيم المناوي. القاهرة، الطبعة بدون.
- ٦١ - جمال القراء وكمال الإقراء: محمد بن علي بن عبد الصمد السخاوي. تحقيق: د. علي حسين النواب، مكتبة التراث، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.
- ٦٢ - حديث القرآن عن القرآن: محمد بن عبد الرحمن الراوي. مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.
- ٦٣ - حُرُز الأمانِي ووجه التَّهَانِي فِي الْقِرَاءَاتِ السَّبْعِ: القاسم بن فَيْرَة بن خلف الشاطبي. دار الكتاب النفيس، حلب، الطبعة الثانية، ١٤٢٢هـ.
- ٦٤ - حفظ القرآن الكريم: محمد بن عبد الله الدويش. دار الوطن، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ.
- ٦٥ - حق التلاوة: حسني شيخ عثمان. دار المنارة، جدة، الطبعة الثانية عشرة، ١٤١٨هـ.
- ٦٦ - حق القرآن الكريم على الناس: يوسف علي بديوي. دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.
- ٦٧ - الحكم والتحاكم في خطاب الوحي: عبد العزيز مصطفى كامل. دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.
- ٦٨ - خصائص القرآن الكريم: د. فهد بن عبد الرحمن الرومي. رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض، الطبعة الخامسة، ١٤١٠هـ.
- ٦٩ - دراسات في علوم القرآن الكريم: د. فهد الرومي. مكتبة التوبة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.

- ٧٠ - دراسات قرآنية: محمد قطب. دار الشروق، القاهرة، الطبعة السادسة، ١٤١١هـ.
- ٧١ - دعوة إلى تدبر القرآن الكريم: مختار شاکر کمال. دار البشير، عمان، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.
- ٧٢ - دقائق التفسير الجامع لتفسير ابن تيمية: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية. تحقيق: محمد السيد الجليند، مؤسسة علوم القرآن، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ.
- ٧٣ - رد افتراءات المبشرين على آيات القرآن الكريم: د. محمد جمعة عبد الله، جامعة أم القرى بمكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.
- ٧٤ - السبعة في القراءات: أحمد بن موسى بن مجاهد البغدادی. تحقيق: شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، الطبعة الثانية، ١٤٠٠هـ.
- ٧٥ - طيبة النشر في القراءات العشر: محمد بن محمد بن علي ابن الجزري. ضبطه وراجعته: محمد تميم الزعبي، دار الهدى، المدينة المنورة، الطبعة الثانية، ١٤٢١هـ.
- ٧٦ - عظمة القرآن الكريم: محمود بن أحمد الدوسري. دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ.
- ٧٧ - عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير: اختصار وتحقيق: أحمد محمد شاكر. مكتبة ابن تيمية، القاهرة.
- ٧٨ - عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: أحمد بن يوسف الحلبي (ت ٧٥٦هـ). تحقيق: محمد التونجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٣م.
- ٧٩ - العودة إلى القرآن لماذا وكيف: د. مجدي الهلالي. دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.
- ٨٠ - غاية النهاية في طبقات القراء: محمد بن محمد بن محمد ابن الجزري. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٢هـ.
- ٨١ - فتح البيان في مقاصد القرآن: صديق بن حسن القنوجي. وضع حواشيه: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٩م.
- ٨٢ - فتح الرحمن في بيان هجر القرآن: محمد آل عبد العزيز ومحمود الملاح. دار طيبة الخضراء، مكة، الطبعة الثانية، ٢٠٠٢م.
- ٨٣ - الفتوحات الربانية في الآيات القرآنية: د. عبد الباري محمد داود. دار نهضة الشرق، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م.
- ٨٤ - فضائل القرآن: جمع وترتيب إبراهيم عبد المنعم الشربيني. دار ابن كثير، الزقازيق، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.

- ٨٥ - فضائل القرآن: أحمد بن شعيب بن علي النسائي. تحقيق: سمير الخولي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.
- ٨٦ - فضائل القرآن: جعفر محمد الفريابي. تحقيق وتخريج: د. يوسف عثمان جبريل، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٢١هـ.
- ٨٧ - فضائل القرآن: أبو عبيد القاسم بن سلام. تحقيق وتخريج: مجموعة من الباحثين، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ.
- ٨٨ - فضائل القرآن: عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير. تحقيق وتخريج: أبو إسحاق الحويني الأثري، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ.
- ٨٩ - فضائل القرآن وتلاوته وخصائص ثلاثه وحملته: عبد الرحمن بن أحمد الرازي. تحقيق وتخريج: د. عامر حسن صبري، دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.
- ٩٠ - فضائل القرآن وحملته في السنة المطهرة: محمد موسى نصر. دار اليقين، البحرين، الطبعة الثانية، ١٤١٠هـ.
- ٩١ - فضائل القرآن وما أنزل من القرآن بمكة وما أنزل بالمدينة: محمد بن أيوب بن الضريس البجلي. تحقيق: عروة بدير، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.
- ٩٢ - فقه قراءة القرآن الكريم: سعيد يوسف. مكتبة السنة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.
- ٩٣ - فيض الرحمن في الأحكام الفقهية الخاصة بالقرآن: د. أحمد سالم ملحم. دار النفائس، عمان، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.
- ٩٤ - في ظلال القرآن: سيد قطب. دار الشروق، القاهرة، الطبعة الثالثة عشرة، ١٤٠٧هـ.
- ٩٥ - قاعلة في فضائل القرآن: ابن تيمية. دراسة وتحقيق: د. سليمان بن صالح القرعاوي، مكتبة الظلال، الأحساء، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.
- ٩٦ - القرآن الكريم تاريخه وآدابه: إبراهيم علي عمر. مكتبة الفلاح، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.
- ٩٧ - القرآن الكريم رؤية تربوية: د. سعيد إسماعيل علي. دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.
- ٩٨ - قرآنكم يا مسلمون: إبراهيم بن محمد الضبيعي. مطابع البادية، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.

- ٩٩ - قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله: د. عبد الرحمن بن حسن جبنة. دار القلم، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٠٩هـ.
- ١٠٠ - القواعد الحسان لتفسير القرآن: عبد الرحمن بن ناصر السعدي، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٢١هـ.
- ١٠١ - الكلمات الحسان فيما يعين على الحفظ والانتفاع بالقرآن: محمد بن مصطفى بن شعيب. مكتبة آل ياسر، الجيزة، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.
- ١٠٢ - كيف تتوجه إلى العلوم والقرآن الكريم مصدرها: د. نور الدين عتر. دار الرؤية، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
- ١٠٣ - كيف تحفظ القرآن الكريم: عبد الرب نواب الدين. مكتبة ابن القيم، المدينة النبوية، الطبعة الثانية، ١٤٠٩هـ.
- ١٠٤ - كيف نتأدب مع المصحف: محمد رجب فرجاني. دار الاعتصام، القاهرة، ١٣٩٣هـ.
- ١٠٥ - كيف نتدبر القرآن: فواز أحمد زمرلي. دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.
- ١٠٦ - كيف نتعامل مع القرآن العظيم: د. يوسف القرضاوي. مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
- ١٠٧ - كيف نحيا بالقرآن: نبيه زكريا عبد ربه. دار الحرمين، الدوحة، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ.
- ١٠٨ - مباحث في علوم القرآن: مناع القطان. مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الخامسة والثلاثون، ١٤١٨هـ.
- ١٠٩ - المثقف في أحكام المصحف: د. صالح بن محمد الرشيد. مؤسسة الريان، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.
- ١١٠ - مختصر تفسير البغوي: د. عبد الله بن أحمد علي الزيد. دار السلام، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
- ١١١ - المدارس والكتاتيب القرآنية: وقفات تربوية وإدراوية: سلسلة تصدر عن المنتدى الإسلامي، لندن، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.
- ١١٢ - المدخل لدراسة القرآن الكريم: أ. د. محمد بن محمد أبو شهبة. غراس للنشر والتوزيع، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.
- ١١٣ - مرشد الحيران إلى طرق حفظ القرآن الكريم: أحمد مصطفى الطهطاوي. دار الفضيلة، القاهرة.

- ١١٤ - مرويّات دهاء ختم القرآن: د. بكر بن عبد الله أبو زيد. دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.
- ١١٥ - المصاحف: عبد الله بن أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٩٥هـ.
- ١١٦ - معاني القرآن: يحيى بن زياد الفراء. تحقيق: د. إبراهيم الدسوقي، مركز الأهرام، القاهرة، ١٩٨٩م.
- ١١٧ - مع القرآن وحملته في حياة السلف: عبيد بن أبي نفيح الشعبي. دار الوطن، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤١٧هـ.
- ١١٨ - مفاتيح للتعامل مع القرآن: د. صلاح عبد الفتاح الخالدي. دار القلم، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤١٥هـ.
- ١١٩ - من أسرار عظيمة القرآن: د. سليمان بن محمد الصغير. دار ابن الأثير، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
- ١٢٠ - مناهل المرفان في علوم القرآن: محمد عبد العظيم الزرقاني. المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
- ١٢١ - منجد المقرئين ومرشد الطالبين: محمد بن محمد بن محمد ابن الجزري. اعتنى به: علي بن محمد العمران، عالم الفوائد، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.
- ١٢٢ - منهج السلف في العناية بالقرآن الكريم: د. بدر بن ناصر البدر. دار الهدي النبوي، المنصورة، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.
- ١٢٣ - مهارات التدريس في الحلقات القرآنية: د. علي بن إبراهيم الزهراني. دار ابن عفان، الخبر، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
- ١٢٤ - نحو أداء متميز لحلقات تحفيظ القرآن الكريم: سلسلة تصدر عن المنتدى الإسلامي. مطابع أضواء البيان، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ.
- ١٢٥ - النشر في القراءات العشر: محمد بن محمد بن علي ابن الجزري. تحقيق: علي الضباع، دار الكتاب العربي، بيروت. الطبعة بدون.
- ١٢٦ - النصيحة لكتاب الله: د. حافظ بن محمد الحكمي. دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.
- ١٢٧ - نظم الدرر في تناسب الآي والسُور: إبراهيم بن عمر البقاعي. مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ١٩٧٥م.
- ١٢٨ - نَقَطُ المصاحف: أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني. تحقيق: د. عزة حسن، دار الفكر، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ.

١٢٩ - هذا القرآن في مائة حديث نبوي: د. محمد زكي محمد خضر. الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ.

١٣٠ - ورتل القرآن ترتيلاً: د. أنس أحمد كرزون. مؤسسة الطباعة والنشر، الطبعة الثانية، ١٤١٦هـ.

١٣١ - يعلمهم الكتاب، التعامل مع القرآن الكريم: محمد خير الشعال. دار أفنان، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.

ثانياً: كتب الحديث وعلمونه:

١٣٢ - الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان: محمد بن حبان البستي. بترتيب علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، مؤسسة الرسالة، دمشق، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.

١٣٣ - أحكام الجنائز وبدعها: محمد ناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٦هـ.

١٣٤ - الأدب المفرد: محمد بن إسماعيل البخاري. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩هـ.

١٣٥ - الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار: يحيى بن شرف النووي. دار الكتب العربي، بيروت، ١٤٠٤هـ.

١٣٦ - إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل: محمد ناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ.

١٣٧ - بلوغ المرام من أدلة الأحكام: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني. تحقيق وتخراج: سمير بن أمين الزهيري، مكتبة الدليل، الجبيل الصناعية، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

١٣٨ - التاريخ الصغير (الأوسط): محمد بن إسماعيل البخاري. تحقيق: محمود إبراهيم زايد، دار الوعي، مكتبة دار التراث، حلب، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٩٧هـ.

١٣٩ - تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي: محمد بن عبد الرحمن المباركفوري. دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٢١هـ.

١٤٠ - الترغيب والترهيب من الحديث الشريف: عبد العظيم بن عبد القوي المنذري. دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٣٨٨هـ.

١٤١ - تغليق التعليق على صحيح البخاري: أحمد بن حجر العسقلاني. تحقيق: سعيد عبد الرحمن القزقي، المكتب الإسلامي، بيروت، الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.

- ١٤٢ - التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد: يوسف بن عبد الله بن عبد البر. تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي ومحمد عبد الكبير البكري، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ١٣٨٧هـ.
- ١٤٣ - تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة: علي بن محمد الكناني. تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف، عبد الله الغماري، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ.
- ١٤٤ - تنوير الحوالك: شرح موطأ الإمام مالك: عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي. المكتبة التجارية، مصر، ١٣٨٩هـ.
- ١٤٥ - التيسير بشرح الجامع الصغير: عبد الرؤوف المناوي. مكتبة الإمام الشافعي، الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ.
- ١٤٦ - جامع الأصول في أحاديث الرسول: المبارك بن محمد بن الأثير الجزي. تحقيق وتخراج: عبد القادر الأرنؤوط، دار الفكر، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.
- ١٤٧ - جامع العلوم والحكم: عبد الرحمن بن أحمد بن رجب. تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.
- ١٤٨ - الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع: أحمد بن علي الخطيب البغدادي. تحقيق: د. محمود الطحان، مكتبة المعارف، الرياض، ١٤٠٣هـ.
- ١٤٩ - حاشية السندي على سنن النسائي: أبو الحسن نور الدين بن عبد الهادي السندي. (مطبوع مع سنن النسائي)، اعتنى به عبد الفتاح أبو غدة، مكتبة المطبوعات، حلب، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ.
- ١٥٠ - خلق أفعال العباد: محمد بن إبراهيم بن إسماعيل البخاري. تحقيق: د. عبد الرحمن عميرة، دار المعارف، الرياض، ١٣٩٨هـ.
- ١٥١ - الرحلة في طلب الحديث: أحمد بن علي أبو بكر البغدادي. تحقيق: نور الدين عتر، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٩٥هـ.
- ١٥٢ - رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين: يحيى بن شرف النووي. دار الفكر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢١هـ.
- ١٥٣ - الزهد: أحمد بن محمد بن حنبل. تحقيق: محمد السعيد بسيلوني، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.
- ١٥٤ - الزهد: عبد الله بن المبارك المروزي. تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ.
- ١٥٥ - سلسلة الأحاديث الصحيحة: محمد ناصر الدين الألباني. مكتبة المعارف، الرياض، عدة طبعات مختلفة التاريخ.

- ١٥٦ - سنن الترمذي: محمد بن عيسى الترمذي. تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرين، دار إحياء التراث، بيروت. بدون تاريخ.
- ١٥٧ - سنن الدارمي: عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي. تحقيق وتخريج: مجموعة من الباحثين. دار الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.
- ١٥٨ - سنن أبي داود: سليمان بن الأشعث السجستاني. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ.
- ١٥٩ - سنن سعيد بن منصور: سعيد بن منصور. تحقيق: د. سعد بن عبد الله آل حميد، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.
- ١٦٠ - السنن الكبرى: أحمد بن الحسين البيهقي. تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، ١٤١٤هـ.
- ١٦١ - السنن الكبرى: أحمد بن شعيب النسائي. تحقيق: د. عبد الغفار البنداري وسيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.
- ١٦٢ - سنن ابن ماجه: محمد بن يزيد القزويني. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت. بدون تاريخ.
- ١٦٣ - شرح السنة: الحسين بن مسعود البغوي. تحقيق: شعيب الأرناؤوط ومحمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، دمشق، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ.
- ١٦٤ - شرح السندي على سنن ابن ماجه: أبو الحسن نور الدين بن عبد الهادي السندي. تحقيق: خليل مأمون شنيحا، دار المؤيد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.
- ١٦٥ - صحيح الأدب المفرد للبخاري: محمد ناصر الدين الألباني. دار الصديق، الجيل، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.
- ١٦٦ - صحيح البخاري: محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: محمد علي القطب، مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.
- ١٦٧ - صحيح الترغيب والترهيب: محمد ناصر الدين الألباني. مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.
- ١٦٨ - صحيح الجامع الصغير وزيادته: محمد ناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ.
- ١٦٩ - صحيح ابن حبان: محمد بن حبان بن أحمد البستي. تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ.
- ١٧٠ - صحيح ابن خزيمة: محمد بن إسحاق بن خزيمة السلمي النيسابوري. تحقيق: د. محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٣٩٠هـ.

- ١٧١ - صحيح سنن الترمذي باختصار السند: محمد ناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.
- ١٧٢ - صحيح سنن أبي داود باختصار السند: محمد ناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.
- ١٧٣ - صحيح سنن ابن ماجه باختصار السند: محمد ناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ.
- ١٧٤ - صحيح سنن النسائي باختصار السند: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.
- ١٧٥ - صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج القشيري. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.
- ١٧٦ - صحيح مسلم بشرح النووي: يحيى بن شرف النووي. تحقيق: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٤١٩هـ.
- ١٧٧ - ضعيف الجامع الصغير وزيادته: محمد ناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٩هـ.
- ١٧٨ - الملل المتناهية في الأحاديث الواهية: عبد الرحمن بن الجوزي. تحقيق: إرشاد عبد الحق الأثري، دار العلوم الأثرية، باكستان، الطبعة الثانية، ١٤٠١هـ.
- ١٧٩ - عمدة القاري شرح صحيح البخاري: محمود بن أحمد العيني. دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ١٨٠ - عون المعبود شرح سنن أبي داود: محمد شمس الحق العظيم آبادي. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٥هـ.
- ١٨١ - غريب الحديث: القاسم بن سلام أبو عبيد الهروي. تحقيق: د. محمد عبد المعيد خان، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٩٦هـ.
- ١٨٢ - الفتاوى الحديثية: أحمد بن حجر الهيتمي. مكتبة مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩هـ.
- ١٨٣ - فتح الباري شرح صحيح البخاري: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني. مكتبة دار الفحاء، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
- ١٨٤ - الفتح الرباني ترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، (مع مختصر شرحه بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني): كلاهما تأليف أحمد عبد الرحمن البناء. دار الشهاب، القاهرة، بدون تاريخ.
- ١٨٥ - فتح المغيث شرح ألفية الحديث: محمد بن عبد الرحمن السخاوي. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ.

- ١٨٦ - فضل الله الصِّمد في توضيح الأدب المفرد للبخاري: فضل الله أحمد الجيلاني: تحقيق: يوسف بن أحمد البكري، دار المعالي، عمان، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.
- ١٨٧ - فيض القدير: شرح الجامع الصغير: عبد الرؤوف المناوي: تحقيق: حمدي الدمرداش محمد، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
- ١٨٨ - كتاب الجهاد: عبد الله بن المبارك: تحقيق: نزيه حماد، المؤسسة للنشر، تونس، ١٩٧٢م.
- ١٨٩ - كشف الخفا ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على السنة الناس: إسماعيل بن محمد العجلوني: تحقيق: أحمد القلاش، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٥هـ.
- ١٩٠ - كشف المُشكّل من حديث الصحيحين: أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي: تحقيق: علي بن حسين الباب، دار الوطن، الرياض، ١٤١٨هـ.
- ١٩١ - كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال: علي المتقي بن حسام الدين الهندي: تحقيق: بكري حياتي وصفوت السقا، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٤٠٥هـ.
- ١٩٢ - لسان الميزان: أحمد بن حجر العسقلاني: تحقيق: دائرة المعارف النظامية، الهند، مؤسسة الأعلمي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٦هـ.
- ١٩٣ - المجروحين: محمد بن حبان البستي: تحقيق: محمود إبراهيم زايد، دار الوعي، حلب.
- ١٩٤ - مجمع البحرين في زوائد المعجمين: علي بن أبي بكر الهيثمي: تحقيق: عبد القدوس محمد نذير، مكتبة الرشد، الرياض، ١٩٩٤م.
- ١٩٥ - مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: علي بن أبي بكر الهيثمي: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٢هـ.
- ١٩٦ - مختصر قيام الليل: محمد بن نصر المروزي: اختصار: أحمد بن علي المقرئ، (ت: ٨٤٥هـ)، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.
- ١٩٧ - المدخل إلى كتاب الإكليل: محمد بن عبد الله الحاكم: تحقيق: د. فؤاد عبد المنعم أحمد، دار الدعوة، الإسكندرية.
- ١٩٨ - المراسيل: أبو داود سليمان بن الأشعث: تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
- ١٩٩ - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: علي بن سلطان القاري: تحقيق: جمال عيتاني، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

- ٢٠٠ - المستدرك على الصحيحين: محمد بن عبد الله الحاكم. دراسة وتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.
- ٢٠١ - مسند الإمام أحمد بن حنبل: أحمد بن حنبل الشيباني. مؤسسة قرطبة، القاهرة، بدون تاريخ.
- ٢٠٢ - مسند الإمام أحمد بن حنبل (الموسوعة الحديثية): تحقيق وتخريج: جماعة من الباحثين، بإشراف شعيب الأرنؤوط. مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ.
- ٢٠٣ - مسند البزار (البحر الزخار): أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار. تحقيق: د. محفوظ الرحمن زين الله، مكتبة العلوم والحكم، المدينة، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.
- ٢٠٤ - مسند الشاميين: سليمان بن أحمد الطبراني. تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.
- ٢٠٥ - مسند الشهاب: محمد بن سلامة بن جعفر القضاعي. تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ.
- ٢٠٦ - مسند الطيالسي: سليمان بن داود الطيالسي (ت: ٢٠٤هـ). دائرة المعارف النظامية، الهند، الطبعة الأولى، ١٣٢١هـ.
- ٢٠٧ - مسند أبي يعلى: أحمد بن علي بن المثنى أبو يعلى الموصلي. تحقيق: حسين سليم أحمد، دار المأمون للتراث، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.
- ٢٠٨ - مشكاة المصابيح: محمد بن عبد الله التبريزي. تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥هـ.
- ٢٠٩ - مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه: أحمد بن أبي بكر الكناني. تحقيق: محمد الممتقى الكشناوي، دار العربية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.
- ٢١٠ - مصنف ابن أبي شيبة: عبد الله بن محمد بن أبي شيبة. تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.
- ٢١١ - المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني. تحقيق: د. سعد بن ناصر الشثري، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.
- ٢١٢ - مصنف عبد الرزاق: عبد الرزاق بن همام الصنعاني. تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.
- ٢١٣ - معالم السنن: حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي. تحقيق: أحمد محمد شاكر ومحمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت، بدون تاريخ.

- ٢١٤ - معجم الطبراني الأوسط: سليمان بن أحمد الطبراني. تحقيق: طارق بن عوض الله وعبد المحسن الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، ١٤١٥هـ.
- ٢١٥ - معجم الطبراني الكبير: سليمان بن أحمد الطبراني. تحقيق: حمدي عبد الحميد السلفي، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ.
- ٢١٦ - المعلم بفوائد صحيح مسلم: محمد بن علي المازري. تحقيق: محمد الشاذلي النيفر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٢م.
- ٢١٧ - موسوعة الحافظ ابن حجر المسقلاني الحديثية: مجموعة من الباحثين. مجلة الحكمة، المدينة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
- ٢١٨ - نوافر الأصول في أحاديث الرسول: محمد بن علي أبو عبد الله الحكيم الترمذي. تحقيق: عبد الرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٢م.

ثالثاً: كتب العقيدة وما يتبعها:

- ٢١٩ - الإبانة عن شريعة الفرق الناجية ومجانبة الفرق المذمومة: ابن بطة الحنبلي. تحقيق: رضا بن نعيان معطي، دار الرأية، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.
- ٢٢٠ - اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية: ابن قيم الجوزية. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.
- ٢٢١ - الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد والرد على أهل الشرك والإلحاد: د. صالح بن فوزان الفوزان. دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الثانية، ١٤١٦هـ.
- ٢٢٢ - أعلام النبوة: علي بن محمد الماوردي. دار الكتب العلمية، بيروت.
- ٢٢٣ - الإيمان أركانه حقيقته نواقضه: د. محمد نعيم ياسين. مكتبة الفلاح، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ.
- ٢٢٤ - الإيمان بالكتب: محمد بن إبراهيم الحمد. دار ابن خزيمة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.
- ٢٢٥ - البابية عرض ونقد: إحسان إلهي ظهير. مكتبة بيت السلام، الرياض، ٢٠٠٢م.
- ٢٢٦ - البهائية نقد وتحليل: إحسان إلهي ظهير. مكتبة بيت السلام، الرياض، ٢٠٠٢م.
- ٢٢٧ - التصوف المنشأ والمصادر: إحسان إلهي ظهير. مكتبة بيت السلام، الرياض، ٢٠٠٢م.
- ٢٢٨ - تهذيب رسالة البدر الرشيد في الألفاظ المكفرات: محمد بن إسماعيل الرشيد. مؤسسة نادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.
- ٢٢٩ - التجانية: علي بن محمد الدخيل. دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م.

- ٢٣٠ - الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: أحمد عبد الحليم ابن تيمية. تحقيق: علي سيد المدني، مطبعة المدني، مصر.
- ٢٣١ - الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة: أبو القاسم الأصبهاني. تحقيق: محمد بن ربيع المدخلي، محمد أبو رحيم، دار الراية، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.
- ٢٣٢ - الحركات الباطنية: د. محمد بن أحمد الخطيب. دار عالم الكتب، الرياض، ١٩٩٩م.
- ٢٣٣ - حكاية المناظرة في القرآن مع بعض أهل البدعة: موفق الدين ابن قدامة. تحقيق: عبد الله الجديع، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.
- ٢٣٤ - الحكم بغير ما أنزل الله أحواله وأحكامه: د. عبد الرحمن بن صالح المحمود، دار طيبة، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ.
- ٢٣٥ - الدرة فيما يجب اعتقاده: علي بن أحمد بن حزم الظاهري. تحقيق: أحمد الحمد وسعيد القزقي، مكتبة التراث، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.
- ٢٣٦ - الرسالة الوافية لمذهب أهل السنة في الاعتقادات وأصول الديانات: أبو عمرو الداني. تحقيق: د. محمد بن سعيد القحطاني، دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.
- ٢٣٧ - ركائز الإيمان: محمد قطب. دار إشبيلية، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.
- ٢٣٨ - الزواجر عن اقتراف الكبائر: أحمد بن محمد الهيتمي. دار الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.
- ٢٣٩ - شعب الإيمان: أحمد بن الحسين بن علي البيهقي. تحقيق: أبي هاجر زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.
- ٢٤٠ - شفاء العليل في مسائل القضاء والحكمة والتعليم: ابن قيم الجوزية. تحقيق: محمد بدر الدين أبو فراس النعساني، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٨هـ.
- ٢٤١ - الشيعة والسنة: إحسان إلهي ظهير. إدارة ترجمان السنة، باكستان، الطبعة الثلاثون، ١٤٠٥هـ.
- ٢٤٢ - الصارم المسلول على شاتم الرسول: أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية. تحقيق: محمد الحلواني ومحمد كبير شودري، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.
- ٢٤٣ - الفصل في الملل والأهواء والنحل: علي بن أحمد بن حزم الظاهري. تحقيق: د. محمد إبراهيم نصر، د. عبد الرحمن عميرة، مكتبات عكاظ، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ.

- ٢٤٤ - كشف أسرار الباطنية: أبو الفضائل الحماوي اليماني. دار الصحوة، القاهرة، ١٩٩٤م.
- ٢٤٥ - مختصر الصواعق المرسله لابن القيم: اختصره: محمد بن الموصلي، دار الندوة الجديدة، بيروت، ١٤٠٥هـ.
- ٢٤٦ - مسألة التقريب بين أهل السنة والشيعة: د. ناصر بن عبد الله القفاري. دار طيبة، الرياض، الطبعة الخامسة، ١٤١٨هـ.
- ٢٤٧ - الملل والنحل: محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، تحقيق: محمد سيد الكيلاني، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٤هـ.
- ٢٤٨ - النهج الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى: محمد بن حمد الحمود. مكتبة الإمام الذهبي، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.
- ٢٤٩ - نواقض الإيمان القولية والعملية: د. عبد العزيز بن محمد العبد اللطيف. دار الوطن، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤١٥هـ.
- ٢٥٠ - هذه هي الصوفية: عبد الرحمن الوكيل. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٨٤م.
- رابعاً: كتب الفقه وأصوله:
- ٢٥١ - الأحكام في أصول الأحكام: علي بن خزم الأندلسي. دار الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.
- ٢٥٢ - الأحكام في أصول الأحكام: علي بن محمد الآمدي. المكتبة الإسلامية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ.
- ٢٥٣ - الاختيارات الفقهية: أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية. رتبها على الأبواب: علي ابن محمد البجلي، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، ١٤١٢هـ.
- ٢٥٤ - الاستذكار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار: يوسف بن عبد الله بن عبد البر القرطبي. تحقيق: سالم محمد عطا ومحمد علي معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٠م.
- ٢٥٥ - أصول الفقه الإسلامي: د. وهبة بن مصطفى الزحيلي. دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.
- ٢٥٦ - إهانة الطالبين على حل ألفاظ فتح المعين: أبو بكر بن محمد الدميظلي السيد البكري. دار إحياء الكتب العربية، بيروت.
- ٢٥٧ - الإقناع: موسى الحجاوي المقدسي. دار المعرفة، بيروت.
- ٢٥٨ - الإنصاف في معرفة راجع من الخلاف على مذهب الإمام أحمد بن حنبل: علي بن سليمان المرادوي. تحقيق: محمد حامد الفقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

- ٢٥٩ - البحر الرائق في شرح كنز الدقائق: زين العابدين بن إبراهيم المعروف بـ «ابن نجيم الحنفي». دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية.
- ٢٦٠ - البحر المحيط في أصول الفقه: محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي. تحقيق: د. محمد محمد تامر، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.
- ٢٦١ - بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع: علاء الدين الكاساني. دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٢م.
- ٢٦٢ - بداية المجتهد ونهاية المقتصد: محمد بن أحمد بن رشد القرطبي. دار المعرفة، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٣٩٨هـ.
- ٢٦٣ - بلفه السالك لأقرب المسالك: أحمد بن محمد الصاوي. دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٨هـ.
- ٢٦٤ - تحفة الفقهاء: علاء الدين السمرقندي، (ت: ٥٣٩هـ). دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.
- ٢٦٥ - تحفة المحتاج بشرح المنهاج: أحمد بن محمد بن حجر الهيتمي. دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى.
- ٢٦٦ - تعظيم قدر الصلاة: محمد بن نصر المروزي. تحقيق: د. عبد الرحمن الفريواني، مكتبة الدار، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.
- ٢٦٧ - حاشية الدسوقي على الشرح الكبير: محمد عرفة الدسوقي. تحقيق: محمد عlish، دار الفكر، بيروت.
- ٢٦٨ - حاشية الروض المربع شرح زاد المستقنع: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم النجدي. الطبعة الرابعة، ١٤١٠هـ.
- ٢٦٩ - حاشية ابن عابدين (رد المختار على الدر المختار): محمد أمين الشهير بـ «ابن عابدين». دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٨٦هـ.
- ٢٧٠ - حاشية القليوبي على منهاج الطالبين: أحمد بن أحمد بن سلامة القليوبي. دار الفكر، بيروت، الطبعة الرابعة.
- ٢٧١ - حواشي التحفة: حاشية عبد الحميد الشرواني، وحاشية أحمد بن قاسم العبّادي بهامش تحفة المحتاج بشرح المنهاج. دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى.
- ٢٧٢ - خصائص الشريعة الإسلامية: د. عمرو بن سليمان الأشقر. مكتبة الفلاح، الكويت، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ.
- ٢٧٣ - الدر المختار شرح تنوير الأبصار: محمد علاء الدين الحصكفي. مكتبة الحلبي، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٦هـ.

- ٢٧٤ - دليل الطالب على مذهب الإمام المبجل أحمد بن حنبل: مرعي بن يوسف الحنبلي. المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة، ١٣٩٧هـ.
- ٢٧٥ - روضة الطالبين وعمدة المفتين: يحيى بن شرف النووي. المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ.
- ٢٧٦ - شرح الفقه الأكبر لأبي حنيفة النعمان: ملا علي قاري. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.
- ٢٧٧ - الفتاوى البزازية: محمد بن محمد بن شهاب المعروف بـ «ابن البزاز». مطبوع بهامش الجزء الرابع والخامس والسادس من الفتاوى الهندية، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثالثة، ١٤٠٠هـ.
- ٢٧٨ - فتاوى ابن رشد: محمد بن أحمد بن رشد القرطبي المالكي. جمع وتحقيق: د. المختار التليلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.
- ٢٧٩ - الفتاوى الفقهية الكبرى: أحمد بن حجر الهيتمي. مؤسسة التاريخ العربي، بيروت.
- ٢٨٠ - فتاوى قاضي خان: حسن الأوز جندي (ت: ٥٩٢هـ). مطبوع بهامش الجزء الأول والثاني والثالث من الفتاوى الهندية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٠هـ.
- ٢٨١ - فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء: ترتيب: أحمد بن عبد الرزاق الدويش، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.
- ٢٨٢ - الفتاوى الهندية في مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان: الشيخ نظام وجماعة من علماء الهند. دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٠هـ.
- ٢٨٣ - فتح الجواد بشرح الإرشاد: أحمد بن حجر الهيتمي. طبعة مصطفى الحلبي، الطبعة الثانية، ١٣٩١هـ.
- ٢٨٤ - الفروع: محمد بن مفلح المقدسي. تحقيق: حازم القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
- ٢٨٥ - الفقيه والمتفقه: أحمد بن علي الخطيب البغدادي. تحقيق: عادل بن يوسف العازي، دار ابن الجوزي، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٢١هـ.
- ٢٨٦ - الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني: أحمد بن غنيم النفراوي المالكي. دار الفكر، بيروت، ١٤١٥هـ.
- ٢٨٧ - قواعد الأحكام في مصالح الأنام: عبد العزيز بن عبد السلام السلمي (العز بن عبد السلام). تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، أم القرى للطباعة والنشر. بدون تاريخ.

- ٢٨٨ - الكافي: عبد الله بن قدامة المقدسي. المكتب الإسلامي، دمشق، الطبعة الأولى، ١٣٨٢هـ.
- ٢٨٩ - الكافي في فقه أهل المدينة: يوسف بن عبد الله بن عبد البر. تحقيق: محمد محمد أحميد ولد قاديك الموريتاني، مكتبة الرياض الحديثة، الطبعة الأولى، ١٣٩٨هـ.
- ٢٩٠ - كتب ورسائل وفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: أحمد عبد الحليم بن تيمية. جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم النجدي، مكتبة ابن تيمية، الرياض، الطبعة الثانية.
- ٢٩١ - كشاف القناع عن متن الإقناع: منصور بن يونس البهوتي. تحقيق: هلال مصيلحي مصطفى، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٢هـ.
- ٢٩٢ - المبسوط: محمد بن أحمد السرخسي. دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٣٩٨هـ.
- ٢٩٣ - مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر: عبد الله بن محمد بن سليمان المعروف بـ «داماد أفندي». دار إحياء التراث العربي.
- ٢٩٤ - المجموع شرح المذهب للشيرازي: يحيى بن شرف النووي. تحقيق: محمد المطيعي، مكتبة الإرشاد، جدة.
- ٢٩٥ - المحلى بالآثار: علي بن أحمد بن حزم. تحقيق: أحمد شاكر، دار الآفاق الجديدة، بيروت.
- ٢٩٦ - المختار: عبد الله بن محمد بن مودود الموصللي. دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٣٩٥هـ.
- ٢٩٧ - مختصر اختلاف العلماء: أحمد بن محمد الطحاوي المعروف بـ «الخصاص». تحقيق: د. عبد الله نذير أحمد، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ١٤١٧هـ.
- ٢٩٨ - مختصر الفتاوى المصرية، لابن تيمية: اختصار محمد بن علي البعلي. تصحيح وتعليق: محمد حامد الفقي، دار نشر الكتب الإسلامية، باكستان.
- ٢٩٩ - المدونة الكبرى: الإمام مالك بن أنس، رواية سحنون التنوخي، دار صادر، بيروت.
- ٣٠٠ - مراتب الإجماع في العبادات والمعاملات والاعتقادات: ابن حزم الظاهري. اعتنى به: حسن أحمد إسبر، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.
- ٣٠١ - المستصفي من علم الأصول: محمد بن محمد الفزالي. شركة المدينة المنورة، جدة، الطبعة الأولى.
- ٣٠٢ - مطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى: مصطفى السيوطي الرحبياني. المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٣٨٠هـ.

- ٣٠٣ - المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب: أحمد بن يحيى الونشريسي. مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في المغرب، ١٤٠١هـ.
- ٣٠٤ - مغني ذوي الأفهام عن الكتب الكثيرة في الأحكام: يوسف بن عبد الهادي الحنبلي. تحقيق: أشرف عبد المقصود، دار أضواء الملف، الرياض، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م.
- ٣٠٥ - المغني في فقه الإمام أحمد بن حنبل الشيباني: عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي. دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.
- ٣٠٦ - مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج: محمد الخطيب الشربيني. دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ٣٠٧ - متهى الإيرادات في جمع المقنع مع التنقيح وزيادات: محمد بن أحمد الفتوحي. الشهير بـ «ابن النجار». تحقيق: عبد الغني عبد الخالق، عالم الكتب.
- ٣٠٨ - المهذب في فقه الإمام الشافعي: إبراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي. دار الفكر، بيروت.
- ٣٠٩ - الموافقات في أصول الشريعة: إبراهيم بن موسى الشاطبي. تحقيق: مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، الخبر، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.
- ٣١٠ - الموسوعة الفقهية: مجموعة من الباحثين بإشراف وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت. مطابع دار الصفوة، مصر، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.
- ٣١١ - نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج: محمد بن أحمد الرملي. الشهير بـ «الشافعي الصغير». دار الفكر للطباعة، بيروت، ١٤٠٤هـ.
- ٣١٢ - الهداية شرح بداية المبتدي: علي بن أبي بكر المرغيناني. دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٧هـ.
- خامساً: المعاجم والموسوعات ونحوها:
- ٣١٣ - أساس البلاغة: محمود بن عمر الزمخشري. تحقيق: عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ.
- ٣١٤ - تلخيص العروس من جواهر القاموس: محمد مرتضى الحسيني الزبيدي. تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية.
- ٣١٥ - ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة: الطاهر أحمد الزاوي. دار الفكر، بيروت، الطبعة الثالثة.
- ٣١٦ - التعريفات: علي بن محمد بن علي الجرجاني. تحقيق: إبراهيم الإياري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.

- ٣١٧ - التوقيف على مهمات التعاريف: عبد الرؤوف بن علي المُنَاوي. تحقيق: عبد الحميد صالح حمدان، مكتبة عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.
- ٣١٨ - الجامع المفهرس لأطراف الأحاديث النبوية: سليم بن عيد الهلالي. دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الثانية، ١٤١٧هـ.
- ٣١٩ - الدليل المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: د. حسين محمد فهمي الشافعي. دار السلام، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
- ٣٢٠ - القاموس المحيط: محمد بن يعقوب الفيروزآبادي. مؤسسة الرسالة، سوريا، الطبعة الثالثة، ١٤١٣هـ.
- ٣٢١ - لسان العرب: محمد مكرم بن منظور. دار صادر ودار بيروت، لبنان، ١٣٨٨هـ.
- ٣٢٢ - مختار الصحاح: محمد بن أبي بكر بن عبد الرزاق الرازي. المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٨هـ.
- ٣٢٣ - المصباح المنير: أحمد بن محمد الفيومي المقرئ. المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ.
- ٣٢٤ - معجم الأدباء: ياقوت بن عبد الله الحموي. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.
- ٣٢٥ - معجم البلدان: ياقوت بن عبد الله الحموي. دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ.
- ٣٢٦ - معجم الشعراء: عبد الستار أحمد فراج الموزني. دار إحياء الكتب العربية، ١٩٦٠م.
- ٣٢٧ - معجم مقاييس اللغة: أحمد بن فارس بن زكريا الرازي. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.
- ٣٢٨ - معجم المناهي اللفظية: بكر بن عبد الله أبو زيد. دار العاصمة، الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤١٧هـ.
- ٣٢٩ - المعجم الموضوعي لأيات القرآن الكريم: صبحي عبد الرؤوف عطير. دار الفضيلة، القاهرة، ١٩٩٠م.
- ٣٣٠ - المعجم الوسيط: جماعة من الباحثين. المكتبة الإسلامية، تركيا، أصدره مجمع اللغة العربية بمصر.
- ٣٣١ - المفردات في غريب القرآن: الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني. تحقيق وضبط: محمد خليل عيتاني. دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

- ٣٣٢ - موسوعة نضرة النعيم: مجموعة من المختصين. دار الوسيلة، جدة، الطبعة الثانية، ١٤١٩هـ.
- ٣٣٣ - النهاية في غريب الحديث والأثر: أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري. تحقيق: طاهر الزاوي ومحمود الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، الطبعة بدون.
- سادساً: كتب التاريخ والتراجم والسيرة والرجال:
- ٣٣٤ - إتمام الأعلام: د. نزار أباظة ومحمد رياض المالح. دار الفكر، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٢٤هـ.
- ٣٣٥ - الاستيعاب في أسماء الأصحاب: ابن عبد البر القرطبي. دار الكتاب العربي، بيروت. الطبعة بدون.
- ٣٣٦ - الإصابة في تمييز الصحابة: أحمد بن حجر العسقلاني. تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.
- ٣٣٧ - الأعلام: خير الدين الزركلي. دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة عشرة، ٢٠٠٢م.
- ٣٣٨ - الأنساب: عبد الكريم بن محمد السمعاني. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى.
- ٣٣٩ - البداية والنهاية: إسماعيل بن كثير. دار الريان للتراث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.
- ٣٤٠ - البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع: محمد بن علي الشوكاني. مكتبة ابن تيمية، القاهرة.
- ٣٤١ - تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام: محمد بن أحمد الذهبي. تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.
- ٣٤٢ - تاريخ بغداد: أحمد بن علي الخطيب البغدادي. دار الكتب العلمية، بيروت.
- ٣٤٣ - تاريخ الثقات: أحمد بن عبد الله العجلي. تحقيق: د. عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.
- ٣٤٤ - التاريخ الكبير: محمد بن إسماعيل البخاري. تحقيق: السيد هشام الندوي، طبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الهند.
- ٣٤٥ - تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل: أبو القاسم علي بن الحسن الشافعي. تحقيق: عمر بن غرامة العمري، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥م.

- ٣٤٦ - تذكرة الحفاظ: محمد بن أحمد الذهبي. دار إحياء التراث العربي عن مطبوعات دائرة المعارف العثمانية.
- ٣٤٧ - تقريب التهذيب: أحمد بن حجر العسقلاني. تحقيق: محمد عوامة، دار الرشيد، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.
- ٣٤٨ - تهذيب الأسماء واللغات: يحيى بن شرف النووي. إدارة المطبعة المنيرية، بيروت.
- ٣٤٩ - تهذيب التهذيب: أحمد بن حجر العسقلاني. دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.
- ٣٥٠ - تهذيب الكمال: يوسف بن الزكي أبو الحجاج المزي. تحقيق: د. بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ.
- ٣٥١ - الثقات: محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم البستي. تحقيق: شرف الدين أحمد، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٩٥هـ.
- ٣٥٢ - الجرح والتعديل: عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي. دار إحياء التراث، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٧١هـ.
- ٣٥٣ - الجواهر المضية في طبقات الحنفية: عبد القادر بن أبي الوفاء القرشي. مير محمد كتب خانه، كراتشي.
- ٣٥٤ - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني. دار الريان، الطبعة الخامسة، ١٤٠٧هـ.
- ٣٥٥ - الخصائص الكبرى: جلال الدين عبد الرحمن أبو الفضل السيوطي. دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٥هـ.
- ٣٥٦ - الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: أحمد بن حجر العسقلاني. دار الجيل، بيروت.
- ٣٥٧ - دلائل النبوة: إسماعيل بن محمد الفضل التيمي الأصبهاني. تحقيق: محمد محمد الحداد، دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.
- ٣٥٨ - دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة: أحمد بن الحسين علي البيهقي. تحقيق: د. عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.
- ٣٥٩ - الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب: إبراهيم بن علي بن فرحون المالكي. دار الكتب العلمية، بيروت.
- ٣٦٠ - ذيل التقييد في رواة السنن والمسانيد: محمد بن أحمد أبو الطيب الفاسي. تحقيق: كمال يوسف الحوت، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.

- ٣٦١ - ذيل طبقات الحنابلة: عبد الرحمن بن شهاب الدين المعروف بـ «ابن رجب الحنبلي». دار المعرفة، بيروت.
- ٣٦٢ - الرياض النضرة في مناقب العشرة: محمد بن جرير الطبري. دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى.
- ٣٦٣ - سير أعلام النبلاء: محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي. مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٦هـ.
- ٣٦٤ - سيرة ابن إسحاق (المبتدأ والمبعث والمغازي): محمد بن إسحاق بن يسار. تحقيق: محمد حميد الله، معهد الدراسات والأبحاث للتعريف.
- ٣٦٥ - السيرة النبوية: إسماعيل بن كثير. تحقيق: مصطفى عبد الواحد، طبعة دار المعرفة، بيروت.
- ٣٦٦ - السيرة النبوية: عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري. تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.
- ٣٦٧ - شذرات الذهب: عبد الحي بن العماد الحنبلي. طبعة المكتبة التجارية الكبرى، بيروت.
- ٣٦٨ - الشفا بتعريف حقوق المصطفى: القاضي عياض بن موسى اليحصبي. تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الكتاب العربي، بيروت.
- ٣٦٩ - صفة الصفوة: أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.
- ٣٧٠ - طبقات الحفاظ: عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ.
- ٣٧١ - طبقات الحنابلة: محمد بن أبي يعلى، أبو الحسين. تحقيق: محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت.
- ٣٧٢ - طبقات الشافعية الكبرى: أبو نصر عبد الوهاب بن علي السبكي. تحقيق: د. عبد الفتاح الحلو، مطبعة عيسى البابي الحلبي، الطبعة الأولى، ١٣٨٣هـ.
- ٣٧٣ - الطبقات الكبرى (لابن سعد): محمد بن سعد. دار صادر، بيروت، ١٣٨٠هـ.
- ٣٧٤ - طبقات المفسرين: محمد بن علي الداودي. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ.
- ٣٧٥ - العبر في خبر من خبر: محمد بن أحمد الذهبي. تحقيق: د. صلاح الدين المنجد، مطبعة حكومة الكويت، الطبعة الثانية، ١٩٨٤م.
- ٣٧٦ - الكامل في التاريخ: ابن الأثير. تحقيق: أبو الفداء الكافي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م.

- ٣٧٧ - الكامل في ضعفاء الرجال: عبد الله بن عدي الجرجاني. تحقيق: يحيى مختار غزاوي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩هـ.
- ٣٧٨ - كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون: مصطفى بن عبد الله القسطنطيني. دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٣هـ.
- ٣٧٩ - اللباب في تهذيب الأنساب: عز الدين بن الأثير الجزري. مكتبة المتنبى، بغداد.
- ٣٨٠ - معجم المؤلفين: عمر رضا كحالة. مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.
- ٣٨١ - معرفة الثقات من رجال أهل العلم والحديث ومن الضعفاء وذكر مذاهبهم وأخبارهم: أحمد بن عبد الله العجلي. تحقيق: عبد العليم البستوي، مكتبة الدار، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.
- ٣٨٢ - معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار: محمد بن أحمد الذهبي. تحقيق: شعيب الأرنؤوط وصالح عباس، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.
- ٣٨٣ - الموسوعة الميسرة في تراجم أئمة التفسير والإقراء والنحو واللغة: مجموعة من الباحثين. مجلة الحكمة، المدينة، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.
- ٣٨٤ - ميزان الاعتدال في نقد الرجال: محمد بن أحمد الذهبي. تحقيق: علي محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٨٢هـ.
- ٣٨٥ - الوافي بالوفيات: صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي. تحقيق: أحمد الأرنؤوط وتركلي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، ١٤٢٠هـ.
- ٣٨٦ - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: أحمد بن محمد بن خلكان. تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.
- سابعاً: كتب متنوعة:
- ٣٨٧ - آداب المشي إلى الصلاة: محمد بن عبد الوهاب. مكتبة المعارف، الرياض.
- ٣٨٨ - آداب المعلمين والمتعلمين: محمد بن عبد السلام بن سعيد بن سحنون. دار المعارف، القاهرة.
- ٣٨٩ - أباطيل وأسمار: محمود شاكر. القاهرة، مطبعة المدني، الطبعة الثانية.
- ٣٩٠ - الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر: د. محمد محمد حسين. المطبعة النموذجية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٨هـ.
- ٣٩١ - إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين (للغزالي): محمد بن عبد الرزاق الزبيدي. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، بدون.

- ٣٩٢ - أحكام إسلامية إداة للقوانين الوضعية: المستشار محمد عبد الحميد غراب، دار الاعتصام، القاهرة.
- ٣٩٣ - إحياء علوم الدين: محمد بن محمد أبو حامد الغزالي، دار المعرفة، بيروت.
- ٣٩٤ - أدب الدنيا والدين: علي بن محمد الماوردي (ت: ٤٥٠هـ). تحقيق: ياسين محمد السّوّاس. دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤١٥هـ.
- ٣٩٥ - أدب الطلب ومنتهى الأدب: محمد بن علي بن محمد بن علي الشوكاني. تحقيق: عبد الله يحيى السريحي، دار ابن حزم، بيروت، ١٤١٩هـ.
- ٣٩٦ - الإسلام على مفترق الطرق: محمد أسد. ترجمة: عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثامنة، ١٩٧٤م.
- ٣٩٧ - أهلام الموقعين عن رب العالمين: محمد ابن قيم الجوزية. رتبّه وضبطه محمد عبد السلام إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ.
- ٣٩٨ - إغاثة اللفهان من مصايد الشيطان: محمد ابن قيم الجوزية. تحقيق: محمد عفيفي، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٩هـ.
- ٣٩٩ - اقتضاء العلم العمل: أحمد بن علي بن ثابت المعروف بـ (الخطيب البغدادي). تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٤٠٤هـ.
- ٤٠٠ - أيها الولد المحب: محمد بن محمد أبو حامد الغزالي. مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ.
- ٤٠١ - البحث العلمي: د. عبد العزيز بن عبد الرحمن الربيعة. بدون ذكر لدار النشر، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ.
- ٤٠٢ - تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام: إبراهيم بن علي بن فرحون المالكي. تحقيق: جمال مرعشلي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٢هـ.
- ٤٠٣ - تحكيم القوانين: محمد بن إبراهيم آل الشيخ. مطابع دار الثقافة، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٣٨٠هـ.
- ٤٠٤ - تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم: محمد بن إبراهيم بن جماعة. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة بدون، ١٤١٩هـ.
- ٤٠٥ - تصحيح الدعاء: د. بكر بن عبد الله أبو زيد. دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.
- ٤٠٦ - تلبيس إبليس: أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي. مؤسسة علوم القرآن، دمشق، الطبعة الأولى، ١٣٩٦هـ.

- ٤٠٧ - جامع بيان العلم وفضله: يوسف بن عبد البر القرطبي. تحقيق: أبي الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الثانية، ١٤١٦هـ.
- ٤٠٨ - جلور البلاء: عبد الله التل. المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٨.
- ٤٠٩ - الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي: محمد ابن قيم الجوزية، تحقيق: سعيد محمد اللحام، دار إحياء العلوم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.
- ٤١٠ - الحركات النسائية في الشرق وصلتها بالاستعمار والصهيونية العالمية: محمد فهمي عبد الوهاب. دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٧٩م.
- ٤١١ - الحوادث والبلد: أبو بكر محمد الطرطوشي. اعتنى به: علي بن حسن الحلبي، دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.
- ٤١٢ - الخنجر المسموم الذي طعن به المسلمون: أنور الجندي. دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٧٦م.
- ٤١٣ - الرسالة القشيرية في علم التصوف: عبد الكريم بن هوازن القشيري. تحقيق: معروف مصطفى رزق، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م.
- ٤١٤ - زاد المعاد في هدي خير العباد: محمد ابن قيم الجوزية. تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الرابعة عشر، ١٤١٠هـ.
- ٤١٥ - السنن والمبتدعات المتعلقة بالأذكار والصلوات: محمد بن عبد السلام الشقيري. تحقيق: محمد خليل هراس، دار الفكر، الطبعة الأولى.
- ٤١٦ - ضوابط المعرفة والاستدلال والمناظرة: عبد الرحمن بن حنكة الميداني. دار العلم، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤١٤هـ.
- ٤١٧ - علو الهمة: محمد أحمد إسماعيل المقدم. مكتبة الكوثر، الرياض. الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.
- ٤١٨ - عودة الحجاب: محمد أحمد إسماعيل المقدم. دار طيبة، الرياض، الطبعة التاسعة، ١٤٢٥هـ.
- ٤١٩ - الفصحى لغة القرآن: أنور الجندي. دار الكتاب اللبناني، بيروت.
- ٤٢٠ - الفوائد: محمد ابن قيم الجوزية. تحقيق وتخرّيج: بشير محمد عيون، مكتبة دار البيان، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.
- ٤٢١ - قادة القرب يقولون دَمُّوا الإسلام أبيلو أهله: جلال العالم. الطبعة الثانية، ١٣٩٥هـ.
- ٤٢٢ - القصاص والمذكرين: أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي. تحقيق: د. محمد لطفي الصباغ، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٩هـ.

- ٤٢٣ - القومية والغزو الفكري: محمد جلال كشك. دار الإرشاد، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٠م.
- ٤٢٤ - كتاب الآداب: فؤاد بن عبد العزيز الشلهوب. دار القاسم، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.
- ٤٢٥ - كشف الغطاء عن حكم سماع الغناء: محمد ابن قيم الجوزية، مكتبة السنة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.
- ٤٢٦ - كلمة الحق: أحمد محمد شاكر. دار الكتب السلفية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.
- ٤٢٧ - لغة القرآن مكانتها والأخطار التي تهددها: د. إبراهيم بن محمد أبو عبا. دار الوطن، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.
- ٤٢٨ - المجالسة وجواهر العلم: أبو بكر أحمد بن مروان الدينوري. دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.
- ٤٢٩ - مختصر منهاج القاصدين: أحمد بن محمد المقدسي. تحقيق: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثامنة، ١٤٠٩هـ.
- ٤٣٠ - مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين: محمد ابن قيم الجوزية. تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٣م.
- ٤٣١ - المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات: محمد بن محمد بن محمد المالكي المعروف بـ «ابن الحاج». دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ.
- ٤٣٢ - المرأة ومكانتها في الإسلام: أحمد عبد العزيز الحصين. مكتبة الإيمان، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٠١هـ.
- ٤٣٣ - المسؤولية: د. محمد أمين المصري (ت: ١٣٩٧هـ). دار الأرقم، الكويت، الطبعة الثانية، ١٤٠٠هـ.
- ٤٣٤ - مفتاح دار السعادة: محمد ابن قيم الجوزية. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.
- ٤٣٥ - من القصص النبوي: محمد صالح المنجد. دار الفجر للتراث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
- ٤٣٦ - نشر طي التعريف في فضل حملة العلم الشريف: جمال الدين محمد الجيشي. دار المنهاج، جدة، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

ثامناً: بحوث في القرآن:

- ٤٣٧ - أثر سماع القرآن الكريم على مستوى الأمن النفسي: عندليب بنت أحمد عبد الله. (رسالة ماجستير) «تخصص علم النفس التربوي»، جامعة اليرموك، الأردن.
- ٤٣٨ - الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم: د. محمد عطا أحمد يوسف. مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الكويت، (عدد: ٣٦)، (شعبان ١٤١٩هـ).
- ٤٣٩ - تحزيب القرآن: محمد بن عبد الله الدويش. مجلة البيان، المنتدى الإسلامي، (عدد: ٤٢)، (صفر ١٤١٢هـ).
- ٤٤٠ - تدبر القرآن لماذا وكيف: إبراهيم بن عبد الرحمن التركي. مجلة البيان، المنتدى الإسلامي، (عدد: ١٤٤)، (شعبان ١٤٢٠هـ).
- ٤٤١ - تيسير القرآن بلسان سيدنا محمد ﷺ: د. عبدو بن علي الحاج. مجلة الأحمدية، دار البحوث للدراسات الإسلامية، دبي، (عدد: ١٥)، (رمضان ١٤٢٤هـ).
- ٤٤٢ - المقومات الشخصية لمعلم القرآن الكريم: د. حازم سعيد حيدر. بحث مقدم لـ «ندوة العناية بالقرآن الكريم وعلومه»، المدينة المنورة، ٣، ٦/٧/١٤٢١هـ.
- ٤٤٣ - من فتاوى سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز: مجلة البحوث الإسلامية، الرياض، (عدد: ٥١)، (ربيع أول ١٤١٨هـ).
- ٤٤٤ - نحو منهجية علمية في حفظ القرآن الكريم: فيصل بن علي البعداني. مجلة البيان، المنتدى الإسلامي، (عدد: ٣٧)، (رمضان ١٤١٤هـ).



رابع عشر: المحتوى

الموضوع	الصفحة
المقدمة:	٥
* أهمية الموضوع	٥
* أسباب اختيار الموضوع	٧
* خطة البحث	٨
* منهج البحث	١١
* شكر وتقدير	١٢
الباب الأول: معنى (الهجر) وذم فاعله	
الفصل الأول: معنى (هجر القرآن)	١٧
المبحث الأول: تعريف «الهجر» لغة	١٨
* خلاصة القول في معاني الهجر ومشتقاته	٢٠
المبحث الثاني: ما جاء في الآيات من ألفاظ الهجر	٢٢
١ - التَّرك والإعراض	٢٢
٢ - الإفحاش في القول	٢٢
٣ - الانتقال من بلد إلى بلد لأجل الدين	٢٣
٤ - هجر الزَّوجة في الفراش	٢٥
٥ - الانفراد والعزلة والابتعاد	٢٥
المبحث الثالث: ما جاء في الأحاديث من ألفاظ الهجر	٢٧
١ - التَّهاجر بين المسلمين	٢٧
٢ - الهجرة لأجل الدين	٢٧
٣ - ترك ما نهى الله عنه	٢٨
٤ - القول الباطل	٢٩
٥ - ترك فراش الزَّوج	٣٠
٦ - ترك اسم الحبيب	٣١

الصفحة	الموضوع
٣٢	المبحث الرابع: المقصود بـ (هَجَرَ القرآن)
٣٥	المبحث الخامس: حُكْم هَجَرَ القرآن
٣٩	الفصل الثاني: ذُمُّ هَجَرَ القرآن
٤٢	المبحث الأول: الآيات الدالة على ذُمِّ هَجَرَ القرآن
٤٢	* تمهيد
٤٣	المطلب الأول: الشكوى العظيمة
٤٤	* اختلاف المفسرين في معنى اتَّخَذَ القرآن مهجوراً
٤٤	١ - التَّرك كلياً
٤٤	٢ - الإعراض والبعد عن القرآن وعدم سماعه
٤٤	٣ - القول السيئ في القرآن
٤٥	٤ - الهذيان وفُحْش القول
٤٥	* شبهة وردُّها
٤٦	المطلب الثاني: السَّمَرُ الفاحش
٤٨	* معنى (السَّمَر)
٤٩	المطلب الثالث: الإعراض عن القرآن
٤٩	* المراد بالذكر
٥٠	* المراد بالمعيشة الضَّنك
٥٢	* المراد بالعمى
٥٥	المطلب الرابع: الظُّلم الأعظم
٥٥	* المراد بالآيات
٥٦	* شبهة وردُّها
٥٧	المطلب الخامس: الوجوه العابسة
٥٧	* المراد بالآيات
٥٧	* المراد بالمنكر
٥٨	* المراد بالسَّطو
٥٩	* جزاء مَنْ هَجَرَ القرآن
٦٠	المطلب السادس: الاستكبار على القرآن
٦١	المطلب السابع: اللُّغو الباطل
٦١	* المراد بعدم سماع القرآن

- ٦١ * المراد باللغو في القرآن
 ٦٢ * أسلوب خسيس
 ٦٣ * موقف المؤمنين
 ٦٣ المطلب الثامن: التَّقْسِيمُ الجائر
 ٦٣ * المراد بالمُقْتَسِمِينَ
 ٦٥ * المراد بِبَعْضِينَ
 ٦٩ المبحث الثاني: الأحاديث الدالة على ذم هجر القرآن
 ٧٠ * من صور هجر القرآن
 ٧١ المطلب الأول: تعجل أجر القرآن
 ٧٤ المطلب الثاني: عدم الانتفاع بقراءة القرآن
 ٧٦ المطلب الثالث: القرآن بين الجدل فيه والجدال عنه
 ٧٦ * معنى (المراء)
 ٨٠ * ما ينبغي عند الاختلاف
 ٨٠ * الوقاية من الجدل والمراء
 ٨٢ المطلب الرابع: اتباع المتشابه وترك المُحْكَم
 ٨٣ * اختلاف المفسرين والأصوليين في معنى المُحْكَم والمتشابه
 ٨٥ المطلب الخامس: ترك قراءة القرآن في البيوت
 ٨٦ المطلب السادس: أحوال المناق مع القرآن
 ٨٧ المطلب السابع: ترك التَّغْنِي بِالْقُرْآن
 ٨٨ * اختلاف أهل العلم في معنى (يتغنى)
 ٩١ المبحث الثالث: آثار السُّلْف في ذم هجر القرآن
 ٩٢ ١ - ذمُّ التَّأْكُلِ بِالْقُرْآن
 ٩٤ ٢ - ويلٌ لمن تَبِعَهُ الْقُرْآن
 ٩٤ ٣ - ذمُّ مَنْ حَفِظَ حُرُوفَهُ وَضَيَّعَ حُدُودَهُ
 ٩٥ ٤ - هَجَرُ تَدْبِيرِ الْقُرْآن
 ٩٦ ٥ - القرآن يزيد الظالمين خَسَاراً
 ٩٧ ٦ - القلوب المريضة لا تجد لذة للقرآن
 ٩٧ ٧ - القلب الخرب كالبيت الخرب
 ٩٨ ٨ - القلب الخبيث كالأرض الخبيثة

٩٩	٩ - الجهل بالقرآن يؤدي إلى الاختلاف ثم الاقتتال.....
	الباب الثاني: أنواع الهجر
١٠٣	الفصل الأول: هجر الإيمان بالقرآن (الكفر به).....
١٠٤	المبحث الأول: وجوب الإيمان بالقرآن ومقتضياته.....
١٠٤	أولاً: وجوب الإيمان بالقرآن.....
١٠٥	* القرآن رحمة الله بعباده.....
١٠٦	* المزايا التي خُصَّ بها القرآن عن الكتب السابقة.....
١٠٧	ثانياً: ما يقتضيه الإيمان بالقرآن.....
١٠٨	* ثمرات الإيمان بالقرآن.....
١١٠	المبحث الثاني: الآيات الدالة على وجوب الإيمان بالقرآن.....
١١٠	- الآية الأولى.....
١١١	* مسألة وجوابها.....
١١١	- الآية الثانية.....
١١١	- الآية الثالثة.....
١١٢	- الآية الرابعة.....
١١٣	- الآية الخامسة.....
١١٤	- الآية السادسة.....
١١٤	- الآية السابعة.....
١١٦	- الآية الثامنة.....
١١٦	- الآية التاسعة.....
١١٧	المبحث الثالث: الوعيد على هجر الإيمان بالقرآن.....
١١٧	- الآية الأولى.....
١١٨	- الآية الثانية.....
١١٩	- الآية الثالثة.....
١٢٠	- الآية الرابعة.....
١٢٠	- الآية الخامسة.....
١٢١	- الآية السادسة.....
١٢١	- الآية السابعة.....
١٢٢	- الآية الثامنة.....

الصفحة

الموضوع

١٢٣ الآية التاسعة
١٢٣ * سبب كراهية الكفار للقرآن
١٢٥ المبحث الرابع: أنواع التكذيب بالقرآن
١٢٦ * تمهيد
١٢٧ المطلب الأول: الكفر الصريح بالقرآن
١٢٨ المطلب الثاني: الاستكبار عن القرآن
١٢٨ * من أنواع الاستكبار عن القرآن
١٣٠ المطلب الثالث: التكذيب الصريح بالقرآن
١٣١ المطلب الرابع: الجحود بالقرآن
١٣٢ * من أمثلة الجحود بالقرآن
١٣٣ * جزاء الجحود
١٣٥ المطلب الخامس: طلبهم تبديل القرآن
١٣٦ المطلب السادس: تبعض القرآن
١٣٧ * جزاء تبعض الكتاب
١٣٨ المطلب السابع: الإعراض عن القرآن
١٣٨ * جزاء الإعراض عن القرآن
١٣٩ * طوائف أعرضت عن القرآن
١٤٢ المبحث الخامس: حكم التكذيب بالقرآن
١٤٢ * كيف وصل القرآن إلينا
١٤٣ * مغزى التواتر
١٤٣ * ما يعنيه إنكار القرآن
١٤٤ * الإجماع على كفر من أنكر القرآن
١٤٨ * لماذا كان الحكم مُجمعاً عليه
١٤٩ المبحث السادس: أهل الكتاب وتكذيبهم بالقرآن
١٥٠ المطلب الأول: علماء أهل الكتاب يعلمون يقيناً أن القرآن حق
١٥١ - الدليل الأول
١٥٢ - الدليل الثاني
١٥٣ - الدليل الثالث
١٥٣ - الدليل الرابع

الصفحة

الموضوع

١٥٤	- الدليل الخامس
١٥٤	- الدليل السادس
١٥٥	- الدليل السابع
١٥٦	- الدليل الثامن
١٥٧	المطلب الثاني: كُفِّرَ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِالْقُرْآنِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ
١٥٧	- النص الأول
١٥٩	- النص الثاني
١٦١	- النص الثالث
١٦٢	- النص الرابع
١٦٣	- النص الخامس
١٦٥	- النص السادس
١٦٧	الفصل الثاني: هجر تعظيم القرآن (الاستهزاء به)
١٦٩	المبحث الأول: تعريف الاستهزاء
١٧٠	المطلب الأول: تعريف الاستهزاء
١٧٠	أولاً: (الاستهزاء) لغة
١٧٠	* خلاصة المعنى اللغوي
١٧١	ثانياً: (الاستهزاء) اصطلاحاً
١٧٢	المطلب الثاني: الألفاظ القرآنية القريبة من معنى الاستهزاء
١٧٢	أولاً: السُّخْرِيَّة
١٧٣	ثانياً وثالثاً: الضُّحْك والغمز
١٧٤	رابعاً وخامساً: الخوض واللُّعْب
١٧٥	سادساً: اللَّزْم
١٧٧	المبحث الثاني: مظاهر تعظيم القرآن
١٧٨	أولاً: ملاحظة آداب التلاوة والالتزام بها
١٧٩	ثانياً: التأدب مع المصحف
١٨٤	المبحث الثالث: أساليب الكفار في استهزائهم بالقرآن
١٨٤	- الأسلوب الأول: الاستهزاء والضُّحْك حال سماع القرآن
١٨٦	- الأسلوب الثاني: التَّعَجُّب من عدم نزول الوحي عليهم
١٨٧	- الأسلوب الثالث: ادِّعَاؤُهُمْ بِأَنَّ الْقُرْآنَ إِفْكٌ مَفْتَرٌ، وَأَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ

- ١٨٩ - الأسلوب الرابع: استخدام أعضاء الجسم بقصد الاستهزاء
- ١٩٠ - الأسلوب الخامس: التَّنْذِرُ بالله وآياته
- ١٩١ * عاقبة الاستهزاء بالقرآن
- ١٩٣ المبحث الرابع: حكم الاستهزاء بالقرآن والاستهانة بالمصحف
- ١٩٤ المطلب الأول: الفرق بين القرآن والمصحف
- ١٩٤ أولاً: معنى القرآن
- ١٩٤ * (القرآن) لغة
- ١٩٥ * (القرآن) اصطلاحاً
- ١٩٥ ثانياً: معنى المصحف
- ١٩٥ * (المصحف) لغة
- ١٩٦ * (المصحف) اصطلاحاً
- ١٩٧ * الفرق بين القرآن والمصحف
- ١٩٧ المطلب الثاني: حكم الاستهزاء بالقرآن
- ١٩٨ * الإجماع على كفر الاستهزاء بالقرآن
- ٢٠٠ * عقوبة المستهزين بكلام الله تعالى
- ٢٠١ المطلب الثالث: حكم الاستهانة بالمصحف
- ٢٠١ * صور من الاستهانة بالمصحف
- ٢٠١ - الصورة الأولى: الاتكاء والتوسّد على المصحف
- ٢٠٣ - الصورة الثانية: إتلاف المصحف وتمزيقه
- ٢٠٣ * الحالات التي يجوز فيها إتلاف المصاحف
- ٢٠٤ - الصورة الثالثة: إدخال المصحف في أماكن التخلّي
- ٢٠٤ - الصورة الرابعة: إدخال المصحف في القبر
- ٢٠٤ - الصورة الخامسة: بلع شيء من المصحف
- ٢٠٥ - الصورة السادسة: التبرّك بالمصحف
- ٢٠٥ - الصورة السابعة: تلوّث المصحف
- ٢٠٦ - الصورة الثامنة: وطء المصحف
- ٢٠٧ الفصل الثالث: هجر استماع القرآن
- ٢٠٩ المبحث الأول: تعريف السّماع وأنواعه
- ٢١٠ المطلب الأول: تعريف السّماع

٢١٠	أولاً: (السَّماع) لغة
٢١٠	* استعمالات (السَّمع) في القرآن
٢١١	ثانياً: (السَّماع) اصطلاحاً
٢١٢	ثالثاً: الفرق بين (السَّماع) و(الاستماع) و(الإنصات)
٢١٢	* السَّمع أهمُّ حاسةً للتَّلقي
٢١٣	المطلب الثاني: أنواع السَّماع
٢١٣	- النوع الأول: السَّماع المَرَضِي
٢١٣	* السَّماع المَرَضِي يَمُرُّ بثلاث مراحل
٢١٥	- النوع الثاني: السَّماع المنهي عنه
٢١٥	- النوع الثالث: السَّماع المباح
٢١٥	المطلب الثالث: أقسام الناس في سماع القرآن
٢١٥	- الصَّنْف الأول: مُغْرَض مُمتنع عن سماع القرآن
٢١٦	- الصَّنْف الثاني: سَمِع الصَّوْت ولم يفقه المعنى
٢١٦	- الصَّنْف الثالث: فقه المعنى ولم يقبله
٢١٧	- الصَّنْف الرابع: سَمِع القرآن سماعاً فقهه وقبوله
٢١٩	المبحث الثاني: مظاهر هجر استماع القرآن
٢٢٠	المطلب الأول: مظاهر هجر استماع القرآن لدى الكفار
٢٢٠	* أبرز مظاهر هجر سماع القرآن لدى الكفار
٢٢٠	١- الإعراض عن سماع القرآن
٢٢١	٢- الاستكبار عن سماع القرآن
٢٢٢	٣- التواصي بعدم سماع القرآن
٢٢٣	٤- البطش بمن يقرأ القرآن
٢٤٣	٥- التعمامي والتَّصام عن القرآن
٢٢٤	٦- الاستهزاء حال سماع القرآن
٢٢٤	٧- الضَّجْر والتَّأْف
٢٢٥	٨- بُغْض سماع القرآن وكراهية قارئه
٢٢٦	٩- التَّهاون والتَّغافل عن سماع الوحي
٢٢٧	المطلب الثاني: مظاهر هجر استماع القرآن لدى المسلمين
٢٢٧	* أبرز مظاهر هجر سماع القرآن لدى المسلمين

٢٢٧	١ - التَّشَاغُلُ بِالْغِنَاءِ عَنْ اسْتِمَاعِ الْقُرْآنِ
٢٣٠	٢ - سَمَاعُ الطَّرَبِ
٢٣١	٣ - التَّشَاغُلُ عَنْ اسْتِمَاعِ الْقُرْآنِ
٢٣٣	المبحث الثالث: آداب استماع القرآن
٢٣٤	* أَمْرُ اللَّهِ النَّبِيِّينَ وَالْمُؤْمِنِينَ بِالْإِسْتِمَاعِ
٢٣٥	* أَيْزُورُ آدَابِ اسْتِمَاعِ الْقُرْآنِ
٢٣٦	١ - تَعْظِيمُ الْمُتَكَلِّمِ
٢٣٦	٢ - اسْتِشْعَارُ عَظَمَةِ الْكَلَامِ وَعُلُوِّهِ
٢٣٦	٣ - حُضُورُ الْقَلْبِ عِنْدَ السَّمَاعِ
٢٣٧	٤ - تَدْبِيرُ الْمَسْمُوعِ
٢٣٧	* أَحْوَالُ النَّاسِ فِي انْتِفَاعِهِمْ بِالْقُرْآنِ
٢٣٨	٥ - تَفْهَمُ الْآيَاتِ الْمَسْمُوعَةِ
٢٣٨	٦ - التَّخَلِّيُّ عَنْ مَوَانِعِ الْفَهْمِ
٢٣٨	* مَوَانِعُ فَهْمِ الْقُرْآنِ
٢٣٩	٧ - أَنْ يُقَدَّرَ - فِي نَفْسِهِ - أَنَّهُ الْمَقْصُودُ بِكُلِّ آيَةٍ سَمِعَهَا
٢٣٩	٨ - التَّأَثُّرُ بِالْآيَاتِ الْمَسْمُوعَةِ
٢٤٠	٩ - التَّرَقُّيُّ فِي اسْتِمَاعِ الْقُرْآنِ
٢٤٠	* دَرَجَاتُ الْقِرَاءَةِ وَالسَّمَاعِ ثَلَاثٌ
٤٤١	١٠ - التَّبَرُّؤُ مِنَ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ حَالِ السَّمَاعِ
٢٤٣	المبحث الرابع: فضائل استماع القرآن
٢٤٤	* الْقُرْآنُ مُتَعَبَّدٌ بِسَمَاعِهِ
٢٤٥	المطلب الأول: استماع القرآن سبب لرحمة الله
٢٤٦	المطلب الثاني: استماع القرآن سبب لهداية الثَّقَلَيْنِ
٢٤٩	المطلب الثالث: استماع القرآن سبب لخشوع القلب وبكاء العين
٢٥٣	المبحث الخامس: حُكْمُ الْإِسْتِمَاعِ لِلْقُرْآنِ وَحُكْمُ الْإِعْرَاضِ عَنْهُ
٢٥٤	المطلب الأول: حُكْمُ الْإِسْتِمَاعِ لِلْقُرْآنِ
٢٥٤	* (مَسْأَلَةٌ) مَا هِيَ الْأَحْوَالُ الَّتِي يَجِبُ فِيهَا الْإِسْتِمَاعُ وَالْإِنْصَاتُ لِلْقُرْآنِ ...
٢٥٦	* (مَسْأَلَةٌ) هَلْ وَجُوبُ الْإِنْصَاتِ مُطْلَقٌ أَمْ مُقَيَّدٌ
٢٥٧	* الْإِسْتِمَاعُ لِلْقُرْآنِ يَدُورُ حُكْمُهُ بِحَسَبِ الْمَقَامِ الَّذِي يُقْرَأُ فِيهِ

المطلب الثاني: حُكم الإعراض عن استماع القرآن	٢٥٨
أولاً: الإعراض عن استماع القرآن مع عدم الإيمان به	٢٥٨
ثانياً: الإعراض عن استماع القرآن مع الإيمان به	٢٦٠
المبحث السادس: الآثار الحسنة لاستماع القرآن	٢٦١
المطلب الأول: الإعجاز التأثري للقرآن	٢٦٢
* دراسة معاصرة تُثبت تأثير القرآن	٢٦٣
المطلب الثاني: أثر استماع القرآن في الملائكة	٢٦٤
المطلب الثالث: أثر استماع القرآن في النبي ﷺ	٢٦٦
المطلب الرابع: أثر استماع القرآن في المؤمنين	٢٦٧
المطلب الخامس: أثر استماع القرآن في أعدائه وخصومه	٢٧١
* أمثلة تأثير القرآن في قلوب أعدائه وخصومه	٢٧١
١ - تأثر عتبة بن ربيعة بالقرآن	٢٧١
٢ - تأثر زعماء المشركين بالقرآن	٢٧٢
٣ - تأثر الطفيل بن عمرو بالقرآن	٢٧٣
٤ - تأثر جبير بن مطعم بالقرآن	٢٧٤
٥ - حادثة سجود المشركين مع المسلمين	٢٧٤
٦ - تأثر أهل المدينة بالقرآن	٢٧٥
المطلب السادس: أثر استماع القرآن في النصارى	٢٧٥
* السبب في ذكر اليهود مع المشركين	٢٧٦
* السبب في اقتراب مودة النصارى من المسلمين	٢٧٧
* تأثر القسيسين والرهبان بسماع القرآن	٢٧٨
* المقصود بفيض العين	٢٧٨
* تأثر النجاشي وأساقيته بسماع القرآن	٢٧٨
المطلب السابع: أثر استماع القرآن في الجن	٢٧٩
* الحكمة من نزول القرآن بخبر الجن	٢٨٠
* فوائد ذكرها ابن حجر من تأثر الجن بالقرآن	٢٨٢
الفصل الرابع: هجر تعلّم القرآن وتعليمه	٢٨٥
المبحث الأول: مظاهر هجر تعلّم القرآن وتعليمه	٢٨٦
أولاً: مظاهر هجر تعلّم القرآن	٢٨٦

٢٨٧	ثانياً: مظاهر هجر تعليم القرآن
٢٨٩	المبحث الثاني: آداب مُعَلِّم القرآن ومُتَعَلِّمه
٢٩٠	المطلب الأول: آداب مشتركة بين مُعَلِّم القرآن ومُتَعَلِّمه
٢٩٠	١ - التمسك بمنهج السلف في الاعتقاد
٢٩٢	٢ - الإخلاص لله تعالى
٢٩٦	المطلب الثاني: آداب مُعَلِّم القرآن
٢٩٦	١ - الاستقامة على دين الله تعالى
٢٩٨	٢ - حُسن الخلق مع المتعلمين
٣٠٠	٣ - بذل النصيحة للمتعلمين
٣٠٠	* من وصايا المعلمين لطلابهم
٣٠١	٤ - التدرُّج في التعليم والتربية
٣٠٣	٥ - الرفق بالمتعلمين
٣٠٥	* من صور رفق المعلم بالمتعلم
٣٠٦	٦ - الصبر على المتعلم
٣٠٦	* من صور الصبر على جفاء المتعلمين
٣٠٧	* من دواعي الصبر
٣٠٧	المطلب الثالث: آداب متعلم القرآن
٣٠٨	١ - تطهير القلب
٣٠٨	٢ - الزهد في الدنيا
٣٠٩	٣ - التواضع للمعلم
٣١٠	* من صور تواضع المتعلمين لمشايخهم
٣١٠	٤ - الدعاء للمعلم والاعتراف بفضله
٣١١	* من صور الدعاء للشيوخ
٣١٢	٥ - اختيار المعلم الأصلح والأعلم
٣١٣	٦ - التَّكْيِير إلى مجلس الدرس
٣١٣	٧ - التَّحَلِّي بالأدب في مجلس التعليم
٣١٣	* من مظاهر التأدُّب
٣١٤	* من أمثلة مراعاة المتعلم ظروف معلِّمه

- المبحث الثالث: فضائل تعلُّم القرآن وتعليمه ٣١٧
- * ترغيب الإسلام في العلم ٣١٨
- المطلب الأول: معلِّم القرآن ومتعلِّمه مُتَشَبَّهٌ بِالْمَلَأَيْكَةِ وَالرُّسُلِ ٣١٩
- المطلب الثاني: خَيْرُ النَّاسِ وَأَفْضَلُهُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ ٣٢٠
- * معنى (التَّعَلُّمِ وَالتَّعْلِيمِ) ٣٢٢
- * (مسألة) هل المقرئ أفضل من الفقيه ٣٢٢
- * (مسألة) هل المقرئ أفضل ممن هو أعظم غناء في الإسلام ٣٢٢
- المطلب الثالث: تعلُّم القرآن وتعليمه خير من كنوز الدنيا ٣٢٣
- * سبب التمثيل بالآل ٣٢٤
- * تعلُّم الخير وتعليمه كأجرٍ حاج تامًّا حَقَّتْهُ ٣٢٥
- * معلِّم الخير ومتعلِّمه بمنزلة المجاهد في سبيل الله ٣٢٦
- * الصحابة يحثون الناس على تعلُّم القرآن وتعليمه ٣٢٦
- المطلب الرابع: مَنْ عَلَّمَ آيَةً كَانَ لَهُ ثَوَابُهَا مَا ثَلَيْت ٣٢٧
- * للمفسرين قولان في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَاهُمْ﴾ ٣٢٩
- المطلب الخامس: ثواب مَنْ يُعَلِّمُ الصِّغَارَ الْقُرْآنَ ٣٣٠
- * جزاء الوالدين ٣٣١
- المبحث الرابع: أحكام تعلُّم القرآن وتعليمه ٣٣٥
- * تمهيد ٣٣٦
- المطلب الأول: حُكْمُ تعلُّم القرآن وتعليمه ٣٣٧
- المطلب الثاني: حُكْمُ تعليم القرآن لغير المسلم ٣٣٩
- المطلب الثالث: حُكْمُ أخذ الأجرة على تعليم القرآن ٣٤٠
- القول الأول: لا يجوز أخذ الأجرة على تعليم القرآن ٣٤١
- القول الثاني: يجوز أخذ الأجرة على تعليم القرآن ٣٤٣
- القول الثالث: يجوز أخذ الأجرة على تعليم القرآن عند الحاجة ٣٤٥
- * الترجيح ٣٤٦
- * ضوابط أخذ الأجرة على تعليم القرآن ٣٤٦
- المبحث الخامس: هَمَّةُ السَّلَفِ فِي تَعَلُّمِ الْقُرْآنِ وَتَعْلِيمِهِ ٣٤٩
- المطلب الأول: علوُّ هَمَّةِ المعلمين ٣٥٠
- * نماذج من علوِّ همة المعلمين ٣٥٠

٣٥٠	١ - تَرَكُ الأوطان لأجل تعليم القرآن
٣٥١	٢ - تأسيس مدارس وخلق تحفيظ القرآن
٣٥٢	٣ - لم تشغله الإمارة عن تعليم القرآن
٣٥٢	٤ - جلس لتعليم القرآن أربعين سنة
٣٥٣	٥ - علّم القرآن أكثر من سبعين سنة
٣٥٣	٦ - لقّن العميان دهرًا طويلاً
٣٥٤	٧ - احتساب أجر التّعليم عند الله تعالى
٣٥٥	المطلب الثاني: علّو همة المتعلّمين
٣٥٦	* نماذج من علّو همة المتعلّمين
٣٥٦	١ - الرّحلة من أجل تعلّم القرآن
٣٥٧	٢ - ملازمة الشيوخ وعرض القراءة عليهم
٣٥٨	٣ - الإقبال على الشيوخ والإفادة منهم
٣٥٨	٤ - تحمّل الشّدائد والصّعاب بغية تعلّم القرآن
٣٥٩	٥ - تعلّم القرآن قبل علوم الشريعة الأخرى
٣٥٩	٦ - تَرَكُ الوطن والمال من أجل تعلّم القرآن
٣٦٠	٧ - حفّظ القرآن بالروايات العشر
٣٦١	الفصل الخامس: هجر تلاوة القرآن
٣٦٣	المبحث الأول: مظاهر هجر تلاوة القرآن
٣٦٤	المطلب الأول: مظاهر هجر التلاوة
٣٦٥	المطلب الثاني: بدع التلاوة
٣٦٥	* أمور مبتدعة في التلاوة
٣٦٥	١ - التّنطّع في القراءة، والموسومة في مخارج الحروف
٣٦٦	٢ - الخروج بالقراءة عن لحن العرب إلى لُحُون العجم
٣٦٧	٣ - القراءة بألحان أهل الفسق والفجور
٣٦٨	٤ - قراءة الأنغام والتّعطيط
٣٦٨	٥ - قراءة التّحزين والتّطريب
٣٦٨	٦ - قراءة التّحريف
٣٦٩	٧ - قراءة التّرعيد
٣٧٠	٨ - هذه كهذه الشعر

٣٧٠	٩ - القراءة بالإدارة
٣٧١	١٠ - قراءة القرآن في مجلس شُوب الدُخان
٣٧١	١١ - القراءة والإقراء بشواذ القراءات
٣٧١	١٢ - جَمْع القراءات في مجلس واحد
٣٧٢	١٣ - قول السَّامع للقارئ: (الله، الله)
٣٧٢	١٤ - التزام قول (صدق الله العظيم) بعد التلاوة
٣٧٣	١٥ - بدع قراءة الفاتحة
٣٧٣	١٦ - قراءة القرآن عند القبر
٣٧٥	المبحث الثاني: أسباب هجر التلاوة
٣٧٦	* تمهيد
٣٧٦	المطلب الأول: الانشغال بالدنيا
٣٧٧	المطلب الثاني: ضعف الهمة
٣٧٨	* أدوية نبوية لعلاج ضعف الهمة
٣٧٩	* فوائد من الحديث ذكرها النووي
٣٨٠	المطلب الثالث: الجهل بثمرات قراءة القرآن
٣٨٠	* من ثمرات التلاوة
٣٨٢	المطلب الرابع: تقديم العلوم الأخرى على القرآن
٣٨٣	* سئل ابن تيمية عن الذي يُقدَّم: حفظ القرآن أو العلم
٣٨٤	المطلب الخامس: الحرب المعلنة على القرآن واللغة
٣٨٤	* تصريحات الأعداء ضدَّ القرآن ولغته
٣٨٦	* أساليب الأعداء في محاربة القرآن ولغته
٣٨٧	المبحث الثالث: آداب وأحكام تلاوة القرآن
٣٨٨	* تمهيد
٣٨٩	١ - إخلاص النية لله تعالى
٣٩٠	٢ - العمل بالقرآن
٣٩٠	٣ - إجلال القرآن وتعظيمه
٣٩٠	٤ - تلاوة القرآن على طهارة
٣٩١	٥ - اختيار الوقت المناسب
٣٩٢	٦ - اختيار المكان المناسب

- ٧ - حُسْنُ الْجُلُوسَةِ واستقبال القبلة ٣٩٣
- * أفضل اتجاه استقبال القبلة ٣٩٣
- ٨ - استحباب تنظيف الفم بالسواك ٣٩٤
- ٩ - الاستعاذة عند افتتاح التلاوة ٣٩٥
- * للاستعاذة صيغتان ٣٩٦
- * البدء بالاستعاذة خاص بالقرآن الكريم ٣٩٦
- ١٠ - البسملة ٣٩٦
- ١١ - حَضْرَ الفكر أثناء التلاوة ٣٩٧
- ١٢ - استحباب الترتيل وكراهية السرعة المفرطة ٣٩٨
- * امثال النبي ﷺ أمر ربه في ترتيله للقرآن ٣٩٩
- * التحذير من الاستعجال في التلاوة ٣٩٩
- (مسألة) أيهما أفضل الترتيل وقلة القراءة أو السرعة مع كثرتها ٤٠١
- ١٣ - استحباب تحسين الصوت بالقرآن ٤٠١
- * أحاديث عدة في استحباب تحسين الصوت بالقرآن ٤٠٢
- * بين التَغْنِي المَحْمُود والمَذْمُوم ٤٠٣
- ١٤ - النهي عن القراءة بالألحان المَطْرَبَةُ ٤٠٤
- * أسباب تحريم الألحان المَطْرَبَةُ ٤٠٥
- * بعض القراء يقرؤون القرآن على ألحان الأغاني ٤٠٦
- ١٥ - وجوب تدبر القرآن ٤٠٦
- ١٦ - استحباب البكاء أثناء التلاوة ٤٠٧
- * البكاء عند التلاوة من صفات الصالحين ٤٠٨
- * ليس المقصود بالبكاء الصُراخ والعويل والتَّحْيِب ٤٠٩
- * كلام ابن تيمية في أفضل أحوال البكاء ٤٠٩
- ١٧ - استحباب الجهر بالقرآن إذا لم تترتب عليه مفسدة ٤٠٩
- * أجر التلاوة مترتب على التَّلَفُّظُ بها ٤١١
- ١٨ - استحباب اتصال القراءة وعدم قطعها ٤١٢
- ١٩ - أن يُحْسِنَ الابتداء والوقف أثناء التلاوة ٤١٣
- ٢٠ - من السنة: الوقوف عند رؤوس الآيات ٤١٣

- ٢١ - من السنة: أن يُسَبَّحَ عند آية التيسيح، ويتعوذ عند آية العذاب،
ويُسأل عند آية الرحمة ٤١٤
- ٢٢ - من السنة: الإمساك عن القراءة عند غلبة الثعاس ٤١٥
- ٢٣ - من السنة: السجود عند المرور بآية سجدة ٤١٥
- * فضائل سجود التلاوة ٤١٦
- * الذكر الوارد في سجود التلاوة ٤١٦
- * حكم سجود التلاوة ٤١٧
- * سجود المستمع تبعاً لسجود القارئ ٤١٨
- * لا يلزم السامع أن يسجد مع القارئ ٤١٩
- ٢٤ - القدر المستحب في ختم القرآن ٤١٩
- * أحاديث عدة في مدة الختم ٤٢٠
- * علّة النهي عن الختم في أقلّ من ثلاث ٤٢٠
- * هدي النبي ﷺ في ختم القرآن ٤٢١
- * تخريج فعل مَنْ خَتَمَ القرآن في أقلّ من ثلاث ٤٢٢
- * الجمع بين رواية (السبع) ورواية (الثلاث) في الختم ٤٢٣
- * التفصيل الحسن في مقدار الختم ٤٢٤
- ٢٥ - مشروعية (تحزيب القرآن) ٤٢٥
- * تعريف (الحزب) ٤٢٥
- * التحزيب بالسور لا بالأجزاء ٤٢٦
- * ثمرات التحزيب ٤٢٨
- ٢٦ - مشروعية (دعاء ختم القرآن) ٤٢٩
- * موضع دعاء الختم خارج الصلاة ٤٢٩
- * أمور لا تُشرع عند الختم ٤٣٠
- المبحث الرابع: فضائل تلاوة القرآن ٤٣١
- * تمهيد ٤٣٢
- المطلب الأول: التلاوة تجارة رابحة ٤٣٢
- * حديث: (مَنْ قرأ حرفاً) يشير إلى عدة أمور ٤٣٣
- المطلب الثاني: تنزل السكينة والرحمة والملائكة للتلاوة ٤٣٨
- * أربع جوائز للمجتمعين لتلاوة القرآن ٤٣٩

الصفحة

الموضوع

٤٣٩	- الجائزة الأولى: تنزل السكينة عليهم
٤٤٢	- الجائزة الثانية: تغشاهم الرحمة
٤٤٧	- الجائزة الثالثة: تحفهم الملائكة
٤٤٤	- الجائزة الرابعة: يذكرهم الله فيمن عنده
٤٤٥	المطلب الثالث: اغتباط صاحب التلاوة
٤٤٥	١ - اغتباط التالي للقرآن
٤٤٦	* معنى: (لا حسد إلا في اثنتين)
٤٤٧	٢ - اغتباط القائم بالقرآن
٤٤٩	* شهادة القرآن لقارئه يوم القيامة
٤٤٩	المطلب الرابع: التلاوة حلية لأهل الإيمان
٤٥٠	* أحوال المؤمن مع القرآن
٤٥٢	المطلب الخامس: التلاوة كلها خير
٤٥٢	١ - الماهر بالقرآن
٤٥٣	* من هو الماهر بالقرآن
٤٥٣	٢ - الذي له أجران
٤٥٣	(مسألة) هل الذي له أجران أكثر ثواباً من الماهر
٤٥٥	* لا ينبغي للمسلم أن ينصرف عن التلاوة
٤٥٧	الفصل السادس: هجر حفظ القرآن
٤٥٩	المبحث الأول: حفظ القرآن وتيسيره
٤٦٠	المطلب الأول: تعريف حفظ القرآن
٤٦٠	أولاً: (الحفظ) لغة
٤٦٠	* حفظ القرآن يتضمّن أموراً ثلاثة
٤٦١	* استعمالات (الحفظ) في القرآن
٤٦١	ثانياً: (حفظ القرآن) اصطلاحاً
٤٦١	* تميز حافظ القرآن عن غيره من الحفاظ
٤٦٢	المطلب الثاني: تيسير حفظه على جميع الألسنة
٤٦٣	* سبب تيسيره
٤٦٣	* معنى تيسيره
٤٦٣	* التيسر يشمل الألفاظ والمعاني

٤٦٣	* حِفْظُ الْقُرْآنِ ميسَّرٌ دون سواه من الكتب السابقة
٤٦٥	* هَجَرَ الحفظ نوعان
٤٦٧	المبحث الثاني: آداب حفظ القرآن
٤٦٨	* تمهيد
٤٦٩	المطلب الأول: آداب أثناء الحفظ
٤٦٩	١ - الإخلاص لله تعالى
٤٧١	* كلام أبي حامد الغزالي في تَبَيُّن طلب العلم
٤٧٠	* كيفية تحسين النية
٤٧٠	* تأثير الإخلاص في تسهيل الأمور
٤٧٠	* شِدَّة الإخلاص على النَّفْس
٤٧١	* الحذر من الانقطاع عن الحفظ لعدم خلوص النية
٤٧٢	٢ - استشعار عظمة القرآن ومعرفة منزلته
٤٧٣	٣ - معرفة أَنَّ الأصل في تَلَقِّي القرآن حِفْظُهُ
٤٧٤	* حِفْظ القرآن فيه نَأْسٌ بالسَّلف الصَّالح
٤٧٤	٤ - الرُّغْبَةُ القُوَّةُ الصَّادِقَةُ
٤٧٥	* أهمية الدَّافِع الذاتي في إكمال حفظ القرآن
٤٧٥	٥ - التَّقَلُّلُ من الدنيا
٤٧٦	* فوائد استبطنها ابن حجر من ملازمة أبي هريرة للنبي ﷺ
٤٧٦	* لا ينبغي لطالب العلم أن يترك التَّكْسِبَ
٤٧٧	٦ - الدُّعَاءُ والاتِّجَاءُ إلى الله
٤٧٨	* القلوب مُحْتَاجَةٌ إلى رِزْقِ الله من العلم والهدى
٤٧٨	المطلب الثاني: آداب بعد الحفظ
٤٧٨	١ - الخوف من الوقوع في الرِّبَاء
٤٧٩	* تحذير الحفَّاظ من الميل إلى الثَّنَاء
٤٧٩	* كيف الخلاص من الرِّبَاء
٤٨٠	٢ - الخشية من العُجْب بالنَّفْسِ والتَّعَالِي على الخَلْق
٤٨٠	* تعريف العُجْب
٤٨١	* حُكْمُ العُجْب
٤٨١	* الفَرْقُ بين الرِّبَاءِ والعُجْب

- * لماذا يقع الحافظ في برائن العُجب ٤٨١
- * لماذا يقع الحافظ في مستقع الكبر ٤٨٢
- * نصوص في التحذير من الكبر ٤٨٢
- ٣- الحذر من الذنوب والمعاصي ٤٨٢
- * آثار في التحذير من المعاصي ٤٨٣
- * من عقوبة المعاصي الرجوع إلى الجهل بعد العلم ٤٨٤
- * شبهة وردّها ٤٨٤
- * آثار في بيان العلم النَّافع ٤٨٥
- * الفرق بين علم القلب وعلم اللسان ٤٨٦
- ٤- تعاهد القرآن والحذر من نسيانه ٤٨٨
- * الحكمة من تقلت القرآن من الصدور ٤٨٩
- * آثار في الحث على مراجعة الحفظ ٤٩٠
- المبحث الثالث: فضائل حفظ القرآن ٤٩٣
- * تمهيد ٤٩٤
- المطلب الأول: علو درجة الحافظ ٤٩٤
- ١- ارتفاع منزلة الحافظ ٤٩٤
- * الثَّمن بالغُرْم ٤٩٥
- * تنبيه على أثر ضعيف ٤٩٦
- ٢- عدّة كرامات للحافظ ٤٩٦
- ٣- الحافظ مع السّفرة الكرام البررة ٤٩٨
- * مغزى معيّة السّفرة ٤٩٨
- المطلب الثاني: الحافظ مُقدّم في الدنيا والآخرة ٤٩٩
- ١- الحفّاظ هم الأولى بالإمارة ٤٩٩
- ٢- الحفّاظ هم الأولى بالإمامة ٥٠٠
- ٣- الحفّاظ هم أصحاب الشورى ٥٠٢
- ٤- الحفّاظ هم المقدّمون في البرزخ ٥٠٢
- المطلب الثالث: فضائل متنوّعة للحافظ ٥٠٣
- ١- الحفّاظ أهل الله وخاصّته ٥٠٣
- * المقصود بأهل الله وخاصّته ٥٠٤

٥٠٤	٢- إكرام الحافظ في الدنيا
٥٠٥	٣- ثناء الله تعالى على الحفظ
٥٠٦	٤- الحفظ لا تحرقهم النار
٥٠٩	المبحث الرابع: حكم حفظ القرآن ونسيانه
٥١٠	المطلب الأول: حكم حفظ القرآن
٥١٠	* حفظ القرآن فرض كفاية على الأمة
٥١٠	* حكم حفظ القرآن على أفراد المسلمين
٥١١	* حفظ القرآن الواجب والمستحب مقدم على غيره
٥١٢	* حكم تحفيظ القرآن للصبيان
٥١٣	المطلب الثاني: حكم نسيان القرآن
٥١٣	* آثار في التحذير من نسيان القرآن
٥١٤	* نسيان القرآن نوعان
٥١٦	* الفرق بين السهو العارض والنسيان الدائم
٥١٧	* نسيان النبي ﷺ لشيء من القرآن نوعان
٥١٩	* حكم نسيان القرآن
٥٢٠	* النسيان الذي يعذر صاحبه
٥٢١	الفصل السابع: هجر تدبر القرآن
٥٢٤	المبحث الأول: التدبر وأهميته وحكمه
٥٢٤	المطلب الأول: تعريف تدبر القرآن
٥٢٤	أولاً: (التدبر) لغة
٥٢٥	ثانياً: (تدبر القرآن) اصطلاحاً
٥٢٥	المطلب الثاني: أهمية تدبر القرآن
٥٢٦	أولاً: حاجة القلب إلى تدبر القرآن
٥٢٦	* خشوع القلب وانسراح الصدر في التدبر
٥٢٧	* القراءة بالتدبر أصل صلاح القلب
٥٢٨	ثانياً: الدخول فيمن أنى الله عليهم بتدبر القرآن
٥٢٩	ثالثاً: عدم التعرض إلى الذم لترك التدبر
٥٣١	المطلب الثالث: حكم تدبر القرآن
٥٣٢	* إطباق المفسرين على وجوب تدبر القرآن

الموضوع

الصفحة

المبحث الثاني: أسباب هجر تدبر القرآن	٥٣٥
* تمهيد	٥٣٦
١ - الإصرار على الذنوب	٥٣٦
٢ - انشغال القلب	٥٣٧
٣ - الجهل باللغة العربية	٥٣٨
* أهمية معرفة العربية لتدبر القرآن	٥٣٩
* المفاسد المترتبة على الجهل باللغة	٥٤٠
٤ - ترك التدبر تورعاً	٥٤١
* تنفيذ الشنيطي قول متأخري الأصوليين في حصرهم التدبر في العلماء ...	٥٤٢
٥ - هجر كتب التفسير	٥٤٣
٦ - التشاغل بكثرة التلاوة	٥٤٤
* كثرة التلاوة بغير تدبر من تلبس إبليس	٥٤٥
المبحث الثالث: الأمور المعنية على التدبر	٥٤٧
* تمهيد	٥٤٨
١ - تحسين التلاوة	٥٤٩
* سبب كراهة العلماء القراءة بالألحان	٥٤٩
٢ - قراءة الليل	٥٥٠
* شواهد على فضل قراءة الليل	٥٥٠
٣ - الإنصات عند سماعه	٥٥١
٤ - حُسن الابتداء والوقف	٥٥١
* نماذج من الابتداء والوقف الممنوع	٥٥٢
٥ - فهم المعاني	٥٥٢
* الجهل بالمعاني يصرف القلب عن التدبر والتلذذ بالتلاوة	٥٥٢
* القرآن يُسَرَّت معانيه كما يسرت ألفاظه	٥٥٣
* تعلُّم معاني القرآن أولى من تعلُّم حروفه	٥٥٣
* الفرق بين معرفة الألفاظ والمعاني، كالفرق بين الليل والنهار	٥٥٤
٦ - الوقوف عند المعاني	٥٥٤
* صفة الوقوف عند المعاني	٥٥٥
٧ - ترديد الآية المؤثرة في القلب	٥٥٥

٥٥٦	* نماذج من ترديد الآية
٥٥٨	٨ - معرفة أساليب القرآن
٥٥٨	* أبرز أساليب القرآن
٥٦١	* ما يُعين على التدبر إجمالاً
٥٦٣	المبحث الرابع: ثمرات تدبر القرآن
٥٦٤	١ - تعميق جذور الإيمان
٥٦٥	٢ - معرفة الربِّ جلَّ جلاله
٥٦٦	٣ - تحقيق العبودية لله تعالى
٥٦٧	٤ - التدبر غذاء وعلاج وسلاح
٥٦٨	٥ - التدبر فيه تربية للعقول
٥٦٨	* التدبر مفتاح كلِّ خير
٥٦٩	* التدبر فيه تنمية للقدرات العقلية
٥٧١	الفصل الثامن: هجر العمل بالقرآن
٥٧٢	المبحث الأول: وجوب العمل بالقرآن
٥٧٢	* معنى العمل بالقرآن
٥٧٣	* التحذير من التشبه باليهود
٥٧٥	* وجوب العمل بالقرآن
٥٧٥	* هجر العمل بالقرآن له حالان
٥٧٦	* الأدلة على وجوب العمل بالقرآن
٥٨٠	المبحث الثاني: فضائل العمل بالقرآن
٥٨٠	* الجنة أعظم جزاء لمن يعمل بالقرآن
٥٨١	١ - الهداية في الدنيا والآخرة
٥٨٣	٢ - الرحمة في الدنيا والآخرة
٥٨٣	٣ - الفلاح في الدنيا والآخرة
٥٨٤	٤ - تكفير السيئات وإصلاح البال
٥٨٦	المبحث الثالث: النبي ﷺ يوصي بالعمل بالقرآن
٥٨٧	* النبي ﷺ يحث أمته على العمل بالقرآن
٥٩١	المبحث الرابع: الصحابة رضي الله عنهم يتواصون بالعمل بالقرآن
٥٩٤	المبحث الخامس: نماذج من عمل الصحابة رضي الله عنهم بالقرآن

٥٩٤	* استجابة فردية
٥٩٦	* استجابة جماعية
٥٩٩	الفصل التاسع: هجر التحاكم إلى القرآن
٦٠٠	المبحث الأول: أدلة وجوب التحاكم إلى القرآن
٦٠٠	- الآية الأولى
٦٠٠	- الآية الثانية
٦٠٢	* معنى الطاغوت
٦٠٢	* ما يُلاحظ في الآية
٦٠٣	* خلاصة ما دلّت عليه الآية
٦٠٣	- الآية الثالثة
٦٠٥	- الآية الرابعة
٦٠٦	- الآية الخامسة
٦٠٧	* وجوب إجابة القاضي المسلم
	* (مسألة) هل المُعْرِض عن مجلس الحاكم المسلم كالمُعْرِض عن
٦٠٧	حُكم الشريعة
٦٠٨	- الآية السادسة
٦٠٨	* صفات مَنْ يستحقُّ أَنْ يكون له الحُكم
٦١٠	- الآية السابعة
٦١١	المبحث الثاني: أسباب هجر التحاكم إلى القرآن
٦١١	* تمهيد
٦١٢	- السبب الأول: كراهية ما أنزل الله
٦١٢	* صور من الكراهية
٦١٣	* كراهية ما أنزل الله في العصر الحاضر
٦١٤	- السبب الثاني: الاستكبار
٦١٤	* نماذج من الاستكبار
٦١٦	- السبب الثالث: اتباع الهوى
٦١٧	* الهوى والحقُّ ضدَّان لا يجتمعان
٦١٧	* تحذير القرآن من اتِّباع الهوى
٦١٨	- السبب الرابع: إثارة المتاع العاجل

الصفحة

الموضوع

٦١٨	* نماذج من إتيار العاجل
٦١٩	السبب الخامس: الخوف المُوْهَم
٦٢٠	* نماذج من الخوف المُوْهَم
٦٢١	السبب السادس: التَّقْلِيد المذموم
٦٢٢	* نماذج من التقليد المذموم
٦٢٢	* ابن القيم يَصِفُ فتنة التقليد التي أصابت العالم الإسلامي
٦٢٥	المبحث الثالث: الآثار الحسنة للحكم بما أنزل الله
٦٢٦	المطلب الأول: الآثار الدنيوية للحكم بما أنزل الله
٦٢٦	أولاً: الاستخلاف والتَّكْمِين
٦٢٦	* نماذج من الاستخلاف والتَّكْمِين
٦٢٧	ثانياً: الأمن والاستقرار
٦٢٩	ثالثاً: النصر والفتح
٦٢٩	* سُنَّةُ اللَّهِ ماضية في نصر مَنْ ينصر دينه
٦٣٠	رابعاً: العزُّ والشرف
٦٣١	* الأُمَّة تستمد العزَّ والشرف من تطبيقها لأحكام الشريعة
٦٣٢	خامساً: بركة العيش ورغدُه
٦٣٣	سادساً: الهداية والتَّشْيِيت
٦٣٤	* الخلاصة
٦٣٥	المطلب الثاني: الآثار الأخروية للحكم بما أنزل الله
٦٣٥	أولاً: الفلاح والفوز
٦٣٦	ثانياً: المغفرة وتكفير السيئات
٦٣٧	* محبَّة الطواغيت والتَّحَاكُم إليها تستجلب الذنوب
٦٣٧	ثالثاً: الأجر العظيم
٦٣٨	رابعاً: مرافقة الأنبياء والصُّدِّيقين
٦٤١	المبحث الرابع: الآثار السيئة للحكم بغير ما أنزل الله
٦٤٢	المطلب الأول: الآثار الدنيوية للحكم بغير ما أنزل الله
٦٤٣	أولاً: قسوة القلوب
٦٤٤	ثانياً: الضلال عن الحق
٦٤٥	ثالثاً: الوقوع في التَّفَاق

الصفحة

الموضوع

٦٤٦	رابعاً: الحرمان من التوبة	٦٨٢
٦٤٨	* الخزي لليهود والمنافقين	٦٨٢
٦٤٨	خامساً: الصد عن سبيل الله	٦٨٧
٦٤٩	سادساً: غياب الأمن وانتشار الفوضى	٥٢٧
٦٥٠	* مثال لنوع من الظلم المُقْتَن	٧٠٧
٦٥١	* فوضى الاعتداء على الأموال	٦٢٧
٦٥٢	* فوضى الاعتداء على الأعراض	٦٢٧
٦٥٣	سابعاً: انتشار العداوة والبغضاء	٦٢٧
٦٥٥	* مسألة وجوبها	٦٢٧
٦٥٥	* تحذير الأمة الإسلامية من العداوة	٦٢٧
٦٥٦	* الحكم بغير ما أنزل الله من أعظم أسباب وقوع العداوة والبغضاء	٦٢٧
٦٥٦	بين المسلمين	٦٢٧
٦٥٦	ثامناً: الحرمان من النصر والتمكين	٦٥٦
٦٥٧	* الخلاصة	٦٥٧
٦٥٨	المطلب الثاني: الآثار الأخروية للحكم بغير ما أنزل الله	٦٥٨
٦٥٩	أولاً: الإهانة عند قبض الأرواح	٦٥٩
٦٦٠	* مشهد آخر من الإهانة	٦٦٠
٦٦١	ثانياً: الوحشة في الحشر	٦٦١
٦٦١	ثالثاً: الأكل من الثَّار وغضب الجَّار	٦٦١
٦٦٢	* غضب الجَّار أعظم من الثَّار	٦٦٢
٦٦٢	* فما أصبرهم على الثَّار	٦٦٢
٦٦٣	رابعاً: العذاب المهين	٦٦٣
٤٦٤	* مسألة وجوبها	٤٦٤
٦٦٥	الخاتمة:	٦٦٥
٦٦٥	* أولاً: أهم نتائج مباحث الباب الأول	٦٦٥
٦٦٦	* ثانياً: أهم نتائج مباحث الباب الثاني	٦٦٦
٦٦٧	الفهارس:	٦٦٧
٦٧٩	* أولاً: منهج الفهارس	٦٧٩
٦٨١	* ثانياً: فهرس الأحاديث	٦٨١

الصفحة

الموضوع

٦٨٩	* ثالثاً: فهرس الآثار
٦٩٥	* رابعاً: فهرس تراجم الأعلام
٧٠٢	* خامساً: فهرس الألفاظ ومعانيها
٧١٥	* سادساً: فهرس الفروق اللغوية
٧١٧	* سابعاً: فهرس الأشعار
٧٢٠	* ثامناً: فهرس الأماكن
٧٢١	* تاسعاً: فهرس الأحكام الفقهية
٧٢٤	* عاشراً: فهرس الآداب
٧٢٨	* حادي عشر: فهرس الفضائل
٧٣١	* ثاني عشر: فهرس البدع
٧٣٣	* ثالث عشر: ثبت المصادر والمراجع
٧٦٥	* رابع عشر: المحتوى



* ...

... ..

... ..

... ..

... ..

... ..

... ..

... ..

... ..

... ..

... ..

... ..

... ..

... ..

... ..

... ..

... ..